التراث المسيحي

في شمال إفريقيا



دراسة تاريخية

من القرن الأول إلى القرون الوسطى

تأليف: روبين دانيال

التراث المسيحي في شمال إفريقيا



في كثير من أجزاء شمال إفريقيا توجـــد أطلال بنايات مسيحية عريقة. ترى مـــاذا نعرف عن الحضارة المتقدِّمة والدِّين المتطور اللذين تشهد لهما هذه الآثار؟

وعلى رفوف خزاناتنا كتابات علمـــاء مسيحيين من شمال إفريقيا كأُغسـطينوس وكبريانوس وترتوليانوس. ترى بماذا كان أسلافنا هؤلاء يؤمنون؟

هذا الكتاب الممتع يفتح باباً على جزء مـهـمّ من تراثنا الثقافي والديني.

التراث المسيحي

في شمال إفريقيا

دراسة تاريخية من القرن الأول
إلى القرون الوسطى

تأليف: روبين دانيال

ترجمة : سمير مالك

مساعدة : م .الخوري و ع .المهدي

وإخوة آخرون



دار منهل الحياة

جميع الحقوق محفوظة

ص . ب ٦٠ منصورية المتن

بيروت - لبنان

١٩٩٩

Originally published in English under the title:
"This Holy Seed".
Copyright © Robin Daniel 1992

المحتوى

المقدمة

إن المسيحية جزء أساسي من تراثنا الديني والثقافي في شمال إفريقيا . فقد عرف الناس ، في هذه القارة ، طريق المسيح وأحبُّوها زمنًا طويلاً قبل أن تصل تعاليمُه إلى أوروبا الغربية وأمريكا والشرق الأقصى .

ففي مدة لا تتجاوز الخمسين سنة منذ أن ألقى المسيح الموعظة على الجبل ، ترسَّخ الإنجيلُ في شمال إفريقيا كإيمان غير محصَّن لأقلّية مضطهدة . وخلال قرنين ونصف ، سمع سكان هذه البلاد إنجيل المسيح واستجابوا له لا بتأييد من السلطة الرومانية ، بل على الرغم منها . والواقع أنّ الحكّام والقضاة الرومانيين عملوا كلّ ما بوسعهم للضغط على الإيمان ، وتدمير قادته ، وجر أتباعه إلى المعابد الوثنية . كما سُنَّت على أعلى المستويات سلسلة جازمة من القوانين القاسية على يد مجموعة متتالية من الأباطرة الطغاة الذين كانوا يهدفون إلى محو المسيحية من على سطح البسيطة .

وإنه لمن المثير أن كنائس شمال إفريقيا ، في سنوات الاضطهاد ، لم تزدد إلاّ ازدهاراً ونمواً . لقد كان إيمانها صلبًا وشهادتها السلمية للناس والمحيطين بها فعالة بدرجة جعلت الجزء الأكبر من تونس وكثيراً من الجزائر وأجزاء كبيرة من ليبيا والمغرب تُعرف في القرن الثالث بأنها مسيحية .

لقد كان المسيحيون الأوائل في شمال إفريقيا متميِّزين عن الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية المعاصرة كليهما . فهم ، بكل بساطة ، كانوا متشبّثين بالتعاليم الأصلية للمسيح نفسه وكتابات أتباعه الأوائل التي تواترت من الأجيال الأولى وجُمعت في الكتاب المعروف «بالعهد الجديد» . وكان سرُّ نجاحهم هو أسلوب حياتهم الجديد المبنيّ على المبادئ النبيلة للمحبة والأمانة واللطف مع جميع الناس . كما أنّه كان لديهم رجاء قوي في وعود الله لهم بأن هناك حياةً وفرحًا وراء ظلمة القبر .

وسنرى في هذه الصفحات ما كان أسلافنا يؤمنون به بكل قوّة ، والآثار الرائعة لذلك الإيمان في المجتمع الأول لشمال إفريقيا .

وقد سمّى أحد المؤرخين المتخصصين في هذا الميدان شمال إفريقيا «بموطن المسيحية الخالصة»[1] ، وهو محقّ في هذه التسمية . إلا أنّ نقاء الإيمان الأصلي كان لا بد أن يُجَرَّب في ضوء حاجيات الحياة في هذا العالم المعقَّد الفاسد . وسنرى في الصفحات التالية كيف أنّ الجماعات المسيحية المتنامية بدأت تنظِّم نفسها في وجه الوباء والاضطهاد والمشاكل الاجتماعية والخلافات الداخلية ، وربحت في نهاية المطاف قبول أعلى سلطة في العالم للمسيحية كالدين الصحيح وكأعظم رجاء قدِّم للإنسانية من أجل السلام والازدهار .

ليس أحد ينكر أن عمل أغسطينوس وكتاباته دخلت ثقافة العالم بجمله ، ولعلّ هذا كان أعظم ما ساهم فيه شمال إفريقيا في تراثنا الفكري الإنساني المشترك . إلا أن الكنيسة التي ازدهرت بمجد عظيم لم تستمر في ازدهارها إلا مائة وخمسين سنة بعده ، قبل أن تستسلم للمرض ثم الموت .

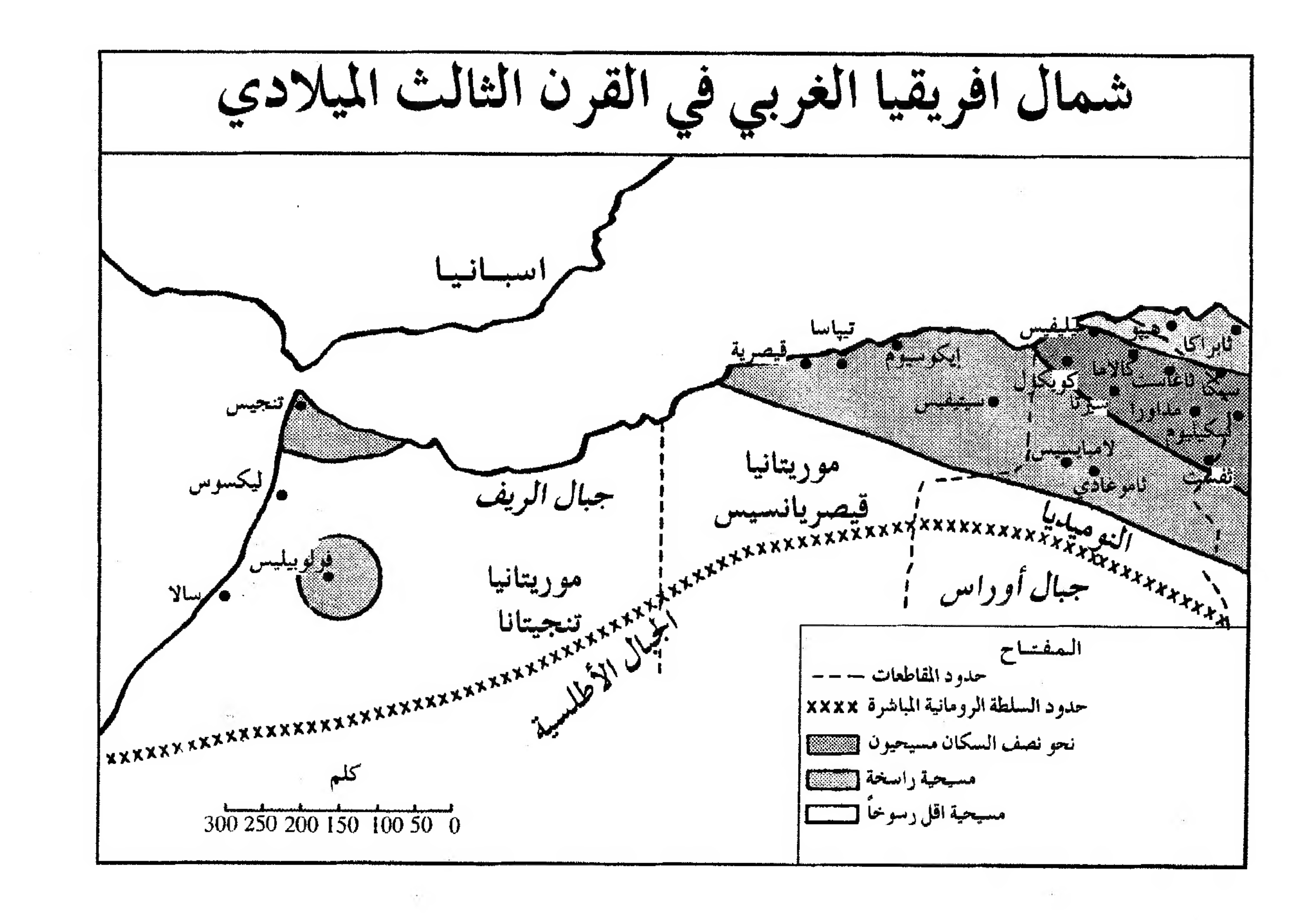
وسنجد في صفحات هذا الكتاب حديثًا عن المجد والهوان ، عن الثمار المتبقية والآمال غير المحقّقة ، وأخيراً عن إطلاق القوى التي عصفت بما تبقّى من مسيحية شمال إفريقيا . وفي كل هذا سنجد دروسًا قيّمة كثيرة ينبغي تعلّمها لا تخلو من التعزية والرجاء للأجيال المعاصرة .

وأودّ أن أهدي هذا الكتاب إلى القرّاء الكرام خاتمًا بالكلمات نفسها التي ختم بها أغسطينوس كتابه الضخم «مدينة الله» :

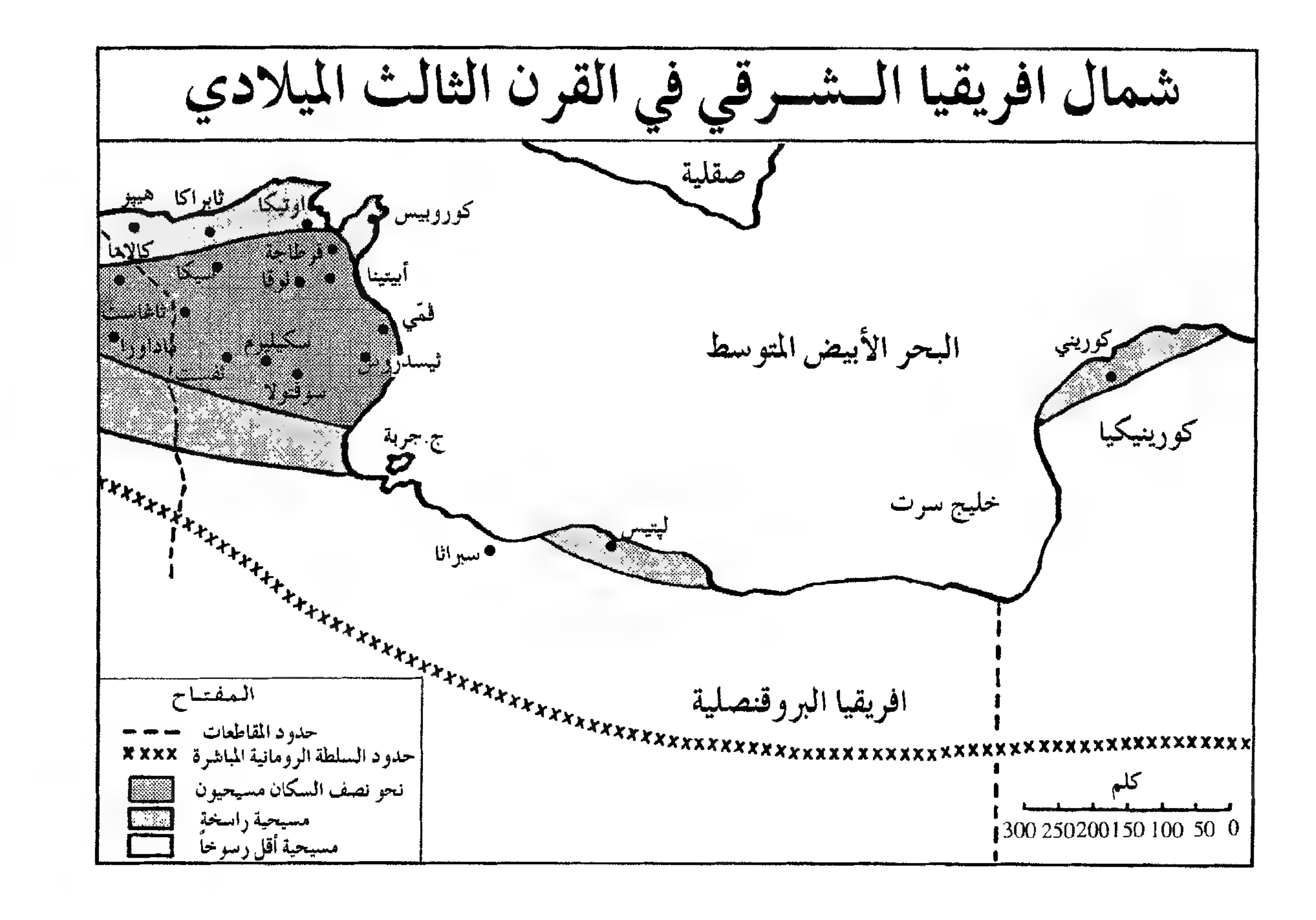
«هذا الكتاب يمكن أن يكون أكثر مما يحتمله بعض الناس ، وأقلّ ممّا يرجوه بعضهم الآخر .
إني أسأل المغفرة من كلا الفريقين .
أمّا بالنسبة إلى الذين يكتفون به ، فإني أتمنّى عليهم
ألا يشكروني أنا ، بل ينضمّوا إليّ
في رفع الحمد والشكر لله» .
آمين .

ملاحظة

Foakes-Jackson: History of the Christian Church, p. 509 -1



شمال افريقيا الغربي في القرن الثالث الميلادي
اسبانيا
تنجيس
ليكسوس
سالا
فولوبيليس
جبال الريف
موريتانيا
تنجيتانا
الجبال الأطلسية
قيصرية
تيپاسا
إيكوسيوم
موريتانيا
قيصريانسيس
سيتيفيس
لامبايس
ثاموغادي
النوميديا
جبال أوراس
كالاما
كويكول
ثابراكا
المفتاح
حدود المقاطعات
حدود السلطة الرومانية المباشرة
نحو نصف السكان مسيحيون
مسيحية راسخة
مسيحية اقل رسوخاً
كلم
300 250 200 150 100 50 0


شمال افريقيا الشرقي في القرن الثالث الميلادي
صقلية
كوروبيس
أوتيكا
ثابراكا
هيبو
كالاما
قرطاجة
لوقا
أبيتينا
فمّي
ثيسدروس
سكيليوم
سوفتولا
ج. جربة
البحر الأبيض المتوسط
كوريني
كورينيكيا
خليج سرت
لبتيس
سبراتا
افريقيا البروقنصلية
المفتاح
حدود المقاطعات
حدود السلطة الرومانية المباشرة
نحو نصف السكان مسيحيون
مسيحية راسخة
مسيحية أقل رسوخاً
كلم
300 250 200 150 100 50 0

التـــواريـــخ

قبل المسيح

1000	الفينيقيون يستقرون على شاطىء البحر الأبيض المتوسط عند إفريقيا الشمالية
800	بداية امبراطورية قرطاجة
146	روما تهزم امبراطورية قرطاجة ، بداية الحكم الروماني في افريقيا

بعد المسيح

نحو 68	استشهاد الرسولين بطرس و بولس
156	استشهاد بُولِيْكَارْپُوْس ، ناظر سميرنا
نحو 160	ولادة تَرْتُولِيَانُوس
165	استشهاد يُوسْتِينُوس الشهيد
177 - 192	الاضطهاد في أثناء حكم مَارْكُس أُورِيلِيُوس و كُومّودُس
177	الاضطهاد في ليون و فيَان (فرنسا)
180	الاضطهاد في سْكِيليوم
نحو 195	اهتداء ترتوليانوس الى المسيحية
نحو 200	ولادة كُبْرِيَانُوس : إصدار الحرم الكنسي في روما بحق المونتانيين
202 - 204	الاضطهاد في أثناء حكم سِفِيرُوس

203 استشهاد پرپيتْوَا و فيليستَاسْ : انضمام ترتوليانوس الى المونتانيين

نحو 230 موت ترتوليانوس

245 اهتداء كبريانوس الى المسيحية

248 تعيين كبريانوس ناظراً في قرطاجة

249 - 251 الاضطهاد في أثناء حكم دِكيُوس

253 - 260 الاضطهاد في أثناء حكم فَالِيرِيَان

258 استشهاد كبريانوس

نحو 260 ولادة آرْنوبيُوس

261 جعل غَالِيَانُوس المسيحية من الديانات المسموح بها

284 - 304 الاضطهاد في أثناء حكم دِيُوقْلِطْيَانُوس

نحو 305 بداية الحركة الدوناتية

308 الاضطهاد في أثناء حكم غَالِيرْيُوس

310 قرار غاليريوس القاضي بمنح الحريات الدينية

312 اعتلاء قسطنطين العرش

313 مرسوم ميلانو المكرِّس للحرية الدينية

316 إدانة قسطنطين للدوناتيين

325 مجمع نيقيا

327 موت ارنوبيوس

354 ولادة اغسطينوس

372 ثورة فِيرْمُوس

386 اهتداء اغسطينوس الى المسيحية

395 انقسام الامبراطورية الرومانية الى جزئين : شرقي و غربي

396 تعيين اغسطينوس ناظراً في هِيپّو

410 نهب القوط بقيادة ألارِك روما

411 مؤتمر قرطاجة لفضّ المسألة الدوناتية

429 غزو الونداليين افريقيا

430 موت اغسطينوس

439 استيلاء الونداليين بقيادة جَنْسرِيك على قرطاجة

455 نهب جَنْسرِيك روما

533 إعادة استيلاء بيزنطية على إفريقيا الشمالية

647 انتصار العرب في معركة سبيطلة ، بداية السيطرة العربية

670 تأسيس القيروان

683 - 686 كُسيلة ، الحاكم الفعلي على افريقيا الشمالية

695 - 702 الكَاهنَة يمنع العرب من التقدّم

711 العرب يجرّون جيشًا في اتجاه اسبانيا

740 - 1062 حركة برغواطا في المغرب

750 - 1146 الحركات الخارجية في الجزائر

809 تأسيس فاس

893 - 1120 الشيعي (الكُتامة و الإباضيون) في الجزائر

1000 - 1100 هجرة بنو هلال و بنو سليم الى افريقيا الشمالية

1160 عبد المؤمن يقضي على آخر الجماعات المسيحية

الأسماء الحديثة للمدن

كوريني	شَهات	(Chahat)
سبراتا	صبراتة	(Sabratha)
ثيسدروس	الجم	(El Djem)
قُمّي	المهدية	(Mahdiya)
كوروبيس	كوربة	(Korba)
قرطاجة	قرطاجة	(Carthage)
أبيتينا	شاوود	(Chaoud)
أوتيكا	أُتيك	(Utique)
ثوقا	دقة	(Dougga)
سوفتولا	سبيطلة	(Sbeitla)
ثابراكا	طبرقة	(Tabarka)
سيكّا	الكاف	(El Kef)
سكيليوم	كاسرين	(Kasserine)
هيبو	عنّابة	(Annaba)
كالاما	قالمة	(Guélma)
ثاغاست	سوق اهراس	(Souk Ahras)
ماداورا	مداوروش	(Mdaourouch)
ثَفَست	تبسة	(Tébessa)
سيرتا	قسنطينة	(Constantine)
ثاموغادي	تيمقاد	(Timgad)
لامبايسيس	تازولت	(Lambèse)
كويكول	الجميلة	(Djemila)
ميليفيس	الميلية	(Mélève)
سيتيفيس	سطيف	(Sétif)
إكوسيوم	الجزائر	(Alger)
تيپاسا	تيپسة	(Tipasa)
قيصرية	شرشال	(Cherchell)
تنجيس	طنجة	(Tanger)
ليكسوس	العرائش	(Larache)
فولوبيليس	وليلي	(Volubilis)
سالا	سلا	(Salé)

الجزء الأول

الثمار الاولى

(القرنان الأول والثاني)



الفصل الاول

البـذار قـد بُـذِر

لم تكن پِرْپيتُوَا تدري كيف تجيب أباها . اخيراً استدارت نحوه و هي تقول : «ابي . . . أترى هذا الابريقَ القائم هناك ؟ هل تعتقد انه اناء صغير للماء أم هو شيء آخر ؟ » ألقى الرجل العجوز نظرة عاجلة على الشيء القائم في زاوية زنزانة السجن القذرة ، ثم أجاب : « إنه إبريق ، بحسب ما يبدو لي .» عندئذ قالت پرپيتوا : « هل نستطيع ان ندعوه اسمًا آخر ؟ » « كلا ، لا نستطيع ، على ما أظن . » ثمَّ تابعت پرپيتوا كلامها بلطافة وهي تقول : «وانا لا أستطيع ان ادعو نفسي بخلاف ما أنا ؛ إني مسيحية يا أبي . »

نشأت فيفيا پرپيتوا (Vivia Perpétua) في عائلة فاضلة . قضت معظم طفولتها السعيدة على شواطىء مدينة قرطاجة الجميلة ، الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط بإفريقيا الشمالية . لم تفتقر پرپيتوا الى الراحة و اليسر ، لأن التعليم الذي كان متوافراً لها لم يكن متوافراً لمعظم بنات عصرها . ودّعت پرپيتوا حقبة الطفولة ، لتصبح الآن فتاة شابة في الثانية و العشرين ، و متزوجة . كما ودّعت الفترة الآمنة المطمئنة من حياتها المبكّرة لتواجه الآن ضغوطات زعزعت حياة العائلة بأسرها . لقد أُلقي القبض عليها و أودعت السجن بتهمة خَطِرة ، ألا و هي اعترافها بأنها اعتنقت الديانة المسيحية .

ها هي الآن في سجن المدينة منذ عدة أسابيع . و قد أمل أبوها في أثناء ذلك أن يقنعها لترجع عن إيمانها ، فيضمن اذذاك اطلاق سراحها . لكنّ الوَقت كان يمرّ بسرعة من دون أن تُظهر پرپيتوا أية علامة تشير الى الاستسلام او التخلّي عن ايمانها بالمسيح . في هذه اللحظات الحاسمة ، سمعها العجوز و هي تقول له بأكثر صلابة و عناد ، إنها ما زالت عازمة على اتّباع الطريق الذي رسمه المسيح ، وعلى السير في إيمانها . و هكذا اندفع الأب الى الخارج ساخطاً غاضبًا .

ماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك ؟ فهو رجل شريف محترم و مواطن قرطاجي مستقيم الاخلاق ، معروف في مجتمعه و مشهور في الاوساط المحترمة . لم يتورّط قط في أية مشكلة أو أيّ إحراج ، و هو بالطبع يتعبّد للآلهة نفسها التي يعبدها جيرانه . لم يتسبب قط بأية اساءة او إهانة لأحد . و لكن ، ها هو الآن يواجه الذلّ و الخزي و العار ، كل هذا بسبب ابنته العنيدة المتمردة .

حبّه لابنته دفعه للذهاب الى السجن العام باذلاً قصارى جهده لدخول تلك المسالك المظلمة والممّرات الحقيرة والوسخة . لم يكن أبو پرپيتوا قاسي القلب ، لذلك فقد حزن على ابنته واكتأب وكان توّاقًا ليمدّ لها يد العون ، و يبعدها عن هذا المكان البغيض المفزع . عادت به الذاكرة الى تلك الاوقات السعيدة التي كانا يقضيانها ، هو و ابنته خلال الأيام الحلوة الهانئة . كان مستعداً لبذل أقصى الجهود لاقناع هذه الابنة العنيدة لتكفّ عن حماقتها الرعناء ، تلك الحماقة التي سيطرت عليها بشكل لم يستطع أن يهضمه . كتبت پرپيتوا في مذكراتها تقول : « الآن ، وبعد أن دنا موعد المسابقات ومباريات المصارعة بالساحة العامة ، جاءني أبي ممزقًا بالمشاكل والصعاب ، تارةً ينتف لحيته و يلقي بنفسه أرضًا على وجهه ، وتارةً أخرى يلعن أيّامه . أمّا انا فقد حزنت حقًا على بؤس أبي و تعاسة شيخوخته . »

لم تكن پرپيتوا وحيدة في زنزانتها . كان معها طفلها الصبي ، البالغ من العمر بضعة أسابيع . كانت پرپيتوا سعيدة لوجود ابنها معها . أُخذ منها في السابق ، لكنها كانت تعلم علم اليقين انه بكى كثيراً طلبًا لحضانتها ، فأُعيد اليها . أمّا هذا الطفل فهو مصدر آخر لأسى الرجل العجوز . قال أبو پرپيتوا : « فكّري في طفلك الصغير الذي لا يقدر على أن يعيش من دون امّه ؛ اتركي كبرياءك جانبًا و لا تدمّرينا جميعًا . » حزنت پرپيتوا على ابنها لأنها كانت تعرف أنه لا بد من أن يعيش من دونها .

تحدّث بعض الاصحاب الطيبين الى سلطات السجن فحصلوا على إذن خاص لپرپيتوا لتقضي أوقات معيّنة من النهار في مكان منير في مبنى السجن . و هنا ، و في هذا السجن بالذات حضر أخو پرپيتوا وبصحبة والدتها لزيارتها ، و جلبا معهما ابنها الغالي العزيز . فكتبت پرپيتوا في مذكراتها تقول : « لقد بدا لي السجن عند حضور طفلي و كأنه قصر جميل ، و أحببت أن أبقى فيه مفضّلة اياه على أيّ مكان آخر . » و منذ ذلك الحين لم تدع پرپيتوا طفلها يبعد عنها ، فأبقته معها طوال الوقت . وكانت ترضعه من ثدييها و هي في زنزانتها الحارّة المظلمة المزدحمة . و كانت تصلّي لأجله حتى حين يكبر يتعرّف هو أيضًا بطريق الحق ويسير فيه قُدمًا من دون خوف أو وجل .

و لا ننسى فيليستاس (Félicité) التي كانت معها في الزنزانة عينها ، إنها الخادمة المخلصة ، بل أكثر من خادمة إذ هي اختها بالمسيح و صديقة حميمة و عزيزة . كانت فيليَستاس قلقة ، ولكن ليس بسبب الموت ، بل كانت تخشى ان يتركها اصحابها . لم تكن الامبراطورية الرومانية تعدم النساء الحبالى ، وفيليستاس كانت حبلى في شهرها الثامن . لقد سألت فيليستاس پرپيتوا واصحابها الآخرين ليرفعوا إلى الله صلاة لتلد قبل موعد المحاكمة . واستجاب الله حالاً وبدأت آلام المخاض . صرخت فيليستاس من الألم ، فسخر منها أحد الحراس وقال : « إنْ كنت تبكينَ من آلام الولادة ، فماذا ستفعلين حين تُلقَين لقمة للوحوش الكاسرة؟» أجابت : « أنا أُعاني الآن ما أعاني ، و لكن في ذلك اليوم ، سيكون معي الله الذي سيحمل آلامي لأنّ معاناتي حينئذ ستكون من أجله هو .» فولدت فيليستاس مولودة أُنثى ؛ و لكنّ المولودة المسكينة ، أمست يَتيمة بعد ثلاثة أيام فقط من ولادتها .

كان السجّان يسمح لأصدقاء پرپيتوا وفيليستاس بأن يـزوروهمـا في الزنزانة بين الحين والآخر . كان الظلام دامسًا و المكان ضيّقًا مرعبًا ، و قد عانت المرأتان وحشية الحرس و قساوتهم ، و مع ذلك ، ففي هذا المكان المقرف ، تعمّدت المرأتان بالماء ، كشهادة على ايمانهما ، وتعمّد معهما أيضًا ثلاثة أو أربعة من زملائهما . لقد صلّت پرپيتوا ليمنحها الله الصبر و السلوان لتحتمل كل ما هو آت عليها من عذاب و هوان .

أُفرزت پرپيتوا مع اصدقائها الآخرين عن بقية مسيحيّي قرطاجة . كانت رغبة السلطات الحاكمة ، أن تجعل من هؤلاء عبرة علنية لمن يعتبر من جمهور قرطاجة . و ينتظر الآن جميع أهالي المدينة ليروا إذا كانت پرپيتْوا و زملاؤها سينكرون الرب المسيح و يذبحون للوثن . كان الحاكم يأمل ذلك ، فهذا الأمر قد يُثَبِّط عزائم الآخرين ، فيحذون حذو هؤلاء في انكار سيدهم ، و اتّباع عبادة الأوثان . ولكن الحاكم اساء تقديرَ تصميم پرپيتوا ، و استخف بعزائم اصحابها القوية الصلبة . و لم يكن يعلم شيئًا عن نعمة الرب وقوته المعطاة للمؤمنين ، والتي ستؤازرهم و تساندهم في ساعة محنتهم . اذا كان المطلوب أن يكونوا عبرة للآخرين ، فقد قرروا ان يكونوا عبرة شريفة وأن ينجزوا ذلك الامتياز الذي منحهم إياه الله إذ يشرقون ببهاء محبة الله على المسرح الذي أُعدّ لهم .

كان قلب پرپيتوا متعلّقًا بأبيها ؛ و كانت ترغب في اسعاده ، لكن الفارق هو أن أباها لا يعرف المسيح ، أما هي فتعرفه . وقد كانت تدرك أن انكارها للحق لا يُمكن أن يساعد أباها ، بل ستكون بذلك قد خدعته . عليها أن تريه طريق المسيح مهما حدث ، و في كل الظروف ، و أن تصلّي لكي يتعرّف بهذا الطريق و يتبعه .

كان أخوها يعرف شعورها و دواخلها . و كانت ترتاح اليه ، لأنه هو أيضًا اعتنق المسيحية كأمه ، لقد جاء ليشاركها الصلاة في الزنزانة و اقترح عليها أن تطلب الى الله أنْ يكشف لهما ما الذي سيحدث . فجاء جواب الله على هيئة رؤيا . حلمت بسلّم ذهبي ضيّق طوله من الأرض الى السماء ، يحرسه حيوان ضار في أسفله ، و محاط من جوانبه بمختلف أنواع أسلحة القتال والحرب . كذلكَ رأت في هذا الحلم سَاتُورُوس (Saturus) ، وهو أحد الرجال المسيحيين الأربعة المسجونين معها . ثم شرع ساتوروس بتسلّق السلّم و تبعته هي أيضًا . وعندما اعتلت الدرجة الأولى من السلّم داست على رأس الوحش . و عندما وصل ساتوروس الى أعلى السلم ، دعاها باسمها و هو يقول : « انني في انتظارك يا پرپيتوا .» وبانضمامها اليه وجدت نفسها في مرج خصيب ، حيث يجلس راعٍ يحلب غنمه ، محاطًا بأناس يلبسون الثياب البيض . دنا منها الراعي وقدّم لها قطعة من الجبنة . اخذت پرپيتوا قطعة الجبنة بكلتا يديها ، و إذا بالأناس المتسربلين بالثياب البيض يصرخون «آمين » . و في هذه اللحظة استيقظت من حلمها ، و لكنّ مذاق الجبنة بقي في فمها . لقد جلب هذا الحلم الجميل و غيره من الاحلام ، شعوراً كبيراً من الراحة لپرپيتوا و أصحابها ؛ ومنحهم الجرأة و القوة والشجاعة لمجابهة مشقاتهم و انزعاجاتهم بفرح و غبطة . و هكذا استطاعوا أن يواجهوا المستقبل من دون خوف او وجل . لقد عرفوا يقينًا أنّ هذه الرؤى كانت من الله ، وان اللّه تعالى

سيحقق لهم ما جاء فيها . كذلك عرفوا أنّ الراعي لم يكن في الواقع الا مخلّصهم ، وأنّ هذا الراعي الصالح سيستقبلهم قريبًا في المرج الجميل الذي اراهم اياه . هناك سيتذوقون حلاوة محبة اللّه .

كانت تصرفات پرپيتوا و زملائها تختلف عن تصرفات السجناء الآخرين . كان هؤلاء السجناء يسبّبوا اضطرابات ، الأمر الذي جعل حياة الحراس معهم صعبة و شاقة . أمّا اولئك فقد كانوا صبورين ومراعين شعور الآخرين ، مملوئين اطمئنانًا و ايمانًا . ورد في مذكّرات پرپيتوا أنّ احد الحرّاس المشرفين على السجن بدأ ينظر اليها و إلى أصحابها بعين التقدير و الاحترام مدركًا أنّ قوة اللّه في داخلهم . كان اسم هذا الحارس « پُودنز » (Pudens) .

عند إعلان يوم المحاكمة ، عاد والد پرپيتوا مرةً ثانية ، فحاولت پرپيتوا أن تقدّم لأبيها التعزية والمواساة و هي تقول : « لتكن مشيئة الله الصالحة يا أبتاه ، إذ ليس قَدَرُنا بأيدينا و انما بيديه الكريمتين . » فأجاب ابوها قائلاً : « يا بنيّتي العزيزة ، ارحمي أباك و اشفقي على شيبته ، فاذا كنت تكنّين لوالدك الاحترام و الاعتبار الكافيين ، فلا تدعي الناس يسخرون بي ، و لا تسببي لنا الدمار والخراب ، بحيث لن يجرؤ أيّ منا أن يُطل بوجهه امام الناس ، و لا سيما إذا حكموا عليك . » ألقى أبوها بنفسه عند قدمي ابنته و بكى بمرارة و يأس متوسلاً اليها أن تعود عن هذا الطريق الحقير الرهيب الذي اختارته . و قفت بيرپيتوا امام والدها بهدوء وسكينة و هي تنتظر ان يُكمل حديثه . وبعد أن أكمل ما يريد قوله ، تركها بقلب كسير ، و خرج حاملاً طفلها .

وقد كتبت پرپيتوا في مذكراتها تقول : «الوقت يمر سريعًا وموعد المحاكمة بات قريبًا ، وفيما كنا نتناول الغداء ، استعجلونا إلى السوق العام ، حيث الإستجواب . بسرعة كبيرة انتشرت الاخبار في السوق وبدأ الناس يتهافتون للتجمّع حولنا . اعتلينا المنصّة جميعنا ، واعترف زملائي بكل جرأة أنهم من المؤمنين بيسوع . ثم جاء دوري . » عندئذ انسلّ أبوها ليكون على مقربة منها قدر المستطاع ، و كان يلوّح لها بطفلها فكان علًى مرأى من ناظريها ، وصرخ قائلاً : «ارحمي طفلك يا پرپيتوا . » ولم يستطع القاضي أن يحتمل هذا المشهد ، فألحّ على پرپيتوا أن تنبذ إيمانها و تنسحب قبل فوات الأوان ، و قال لها : « احفظي شيبة أبيك ، و ارحمي طفلك ، و كل ما هو مطلوب منك هو أن تُقرّبي تقدمة وأن تعبّري عن ولائك لأمبراطورنا العظيم ، و هكذا يُفرج عنك فوراً . » فأجابت پرپيتوا : « لا استطيع أن أفعل هذا . » فسألها القاضي : « هل أنت مسيحية ؟ » فأجابت بعزم و ثبات : « نعم إنني مسيحية . »

بعد هذه الكلمات صرخ أبوها صراخًا مرًا ، و استمرّ هكذا محدثًا جلبة كبيرة حتى نَفَدَ صبر القاضي فأمر بإبعاده . و في أثناء إبعاده عن المشهد ، انهالت عليه ضربات الحراس بهراواتهم الثقيلة . سمعت پرپيتوا اصوات الهراوات و هي تنهال على أبيها ، فكتبت في مذكراتها تقول : « لقد عانيت آلام الضربات التي تعرّض لها أبي كما لو كانت تنهال عليّ . لقد عانيت بسبب شيخوخته البائسة الكئيبة .» و لكن لم تستطع پيرپيتوا أن تتراجع عن ايمانها ؛ لم

تستطع أن تنكر الحقيقة ؛ لم تستطع أن تخدع عائلتها ؛ لم تستطع أن تنكث عهد سيدها ومخلّصها . لقد صدر الحكم بادانتها مع الآخرين وبات عليها أن تواجه الوحوش في الساحة العامة .

كان هناك محام شاب يدعى تَرتُوليَانُوس (Tertullien) ، وكان يعيش في قرطاجة في ذلك الزمان . و يُحتمل أنّ هذا الشاب كانَ واقفًا في الزحمة الكبيرة ، وقد كان هذا الشخص هو الذي كتب الى الحكومة الرومانية يقول : «إنّ دماء المسيحيين هي بذار . » فاذا زُرعت هذه البذار المقدسة ، لا بدّ من أن تعطي ثمارها ، و ستكون هذه الثمار حصاداً مذهلاً مدهشًا .

على كلِّ حال ، نُقل السجناء الى زنزاناتهم ، و بقوا هناك ينتظرون الاحتفال الكبير الذي سيقام بمناسبة عيد ميلاد أحد ابناء الامبراطور . كان مُقرراً في تلك الأثناء تنفيذ حكم الاعدام بالسجناء لتسلية أهل المدينة . وقبل موعد تنفيذ حكم الاعدام ، توفّي واحد من الشبّان يدعى سكُونْدُولُوس (Sécundulus) ، و لكن بمرور الايام شهد السجن مشاهد استثنائية ملفتة للنظر حقًا . ذلك لأن الشبّان المسيحيين الخمسة ، بدل أن يندبوا حظهم العاثر ، كانوا يستمتعون بشعور البهجة و السرور . كما أنّ دماثة اخلاقهم ، و ايمانهم المخلص الثابت ، ترك عند المشاهدين انطباعًا عميقًا . و الذين كانوا يزورونهم ليَرثُوا لهم ، كانوا يجدونهم ممتلئين ثقةً وثباتًا . والذين كانوا يأتون ليطمئنوهم و يعزوهم ، كانوا يجدونهم متمتعين بأقصى الطمأنينة و السلام والثقة التي منحهم اياها الله في حينه . لقد تأثّر زوارهم لدرجة أنهم صمموا بدورهم على السير وراء المخلّص يسوع المسيح . كتبت پرپيتوا تقول : «غادر جميع الزوار وهم مندهشون ، ونتيجة لذلك آمن معظمهم .» و يبدو بوضوح أنّ الحارس المدعو پودنز قرر أن يكون مسيحيًا هو أيضًا .» شاهدت پرپيتوا أباها مرة أخرى قبل يومها الأخير ، و لكنها لم ترَ ابنها لأنّ جده رفض أن يحضره .

كانت العادة تقتضي أن يُقام احتفال عام ليلة الاعدام لتسلية السجناء المحكوم عليهم بالموت ؛ فانتهز هؤلاء الفرصة ليتناولوا وجبة طعام مشتركة ، بعضهم مع بعض ، و ذلك تذكاراً لمخلّصهم يسوع المسيح الذي عانى و تألم و مات من أجلهم . تجمهر سكان المدينة ليشاهدوهم ، وقد كان بعض هؤلاء السكان متّحدين معهم في الايمان ، أمّا بعضهم الآخر فلم يكونوا كذلك . لكن الجميع تركوهم مستغربين ايمانهم الثابت وعزيمتهم التي لا تلين .

و في اليوم التالي ، و هو الموافق اليوم السابع من شهر مارس سنة 203 م ، اقتيد كل من پرپيتوا و فيليستاس والشبّان الثلاثة ، ساتوروس و سَاتُورْنِينُوس (Saturninus) وريفُوكَاتُوس (Révocatus) الى ميدان الوحوش - و هو المدرّج الشعبي العام حيث كانت تُجرى المباريات والالعاب و سباق المركبات . شعرت پرپيتوا و زملاؤها بالارتياح والاسترخاء ، لأن الفرج قد اقترب ، ولأنّ العذابات التي يقاسونها ستنتهي . كذلك انتابهم شعور من الفرح العظيم عندما تأملوا في ذلك الترحيب الذي سيلقونه في بيتهم السماوي . و في أثناء مرورهم بين صفّي الجند كانوا يتلقّون ضربات مبرحة . و قد حاول الحرس أن يضعوا عليهم أردية وثنية احتفالية - حيث الزي لباس قرمزي و أصفر ، و كأن الرجال كهنة للإله زُحل

(Saturne) ، و النساء و كأنهنّ مكرّسات للإلاهة كيريْس (Cérès) . فاعترضوا على ذلك بشدة مصرّحين جهاراً بأنهم مسيحيون لا عبدة أوثان . وَهكذا ، سُمح لهم في النهاية بأن يخرجوا بثيابهم الاعتيادية . شرع المحتشدون المتحمّسون ، مجتمعين وجالسين فوق مصطباتهم ، يصخبون و يصرخون بأعلى أصواتهم ، بينما كان المحكومون يسيرون بشجاعة نحو الفسحة المفتوحة في منتصف المدرج . و أخيراً غضبت الوحوش الكاسرة و صرخت من شدة الجوع ، واستثارة الحراس لها ، ففُتحت الأبواب بسحب المهماز الذي كان يفصل الوحوش بعيداً عن المدرج . فهُرعت النمور والدببة الوحشية باتجاه هؤلاء المؤمنين الخمسة ، وشرعت تمزّق اجساد الرجال الثلاثة بوحشية قاسية . أمّا بربيتوا و فيليستاس فرُبطتا بشبكتين و كانتا تترنمان بمزامير الفرح والايمان بالرب . و هنا ، وعلى حين غرّة أُلقيت الشبكتان اللتان كانتا مأسورتين بداخلهما امام بقرة وحشية غاضبة ، و سرعان ما أغمدت البقرة قرنيها في الاسيرتين بوحشية و حملتهما في حال تشنّج وهياج ، و رفعتهما برأسها الى الوراء و قذفتهما بعيداً بعنف كبير .

سقطت بربيتوا ارضًا ، و قد تمزّق رداؤها من جانبه . فأعادت سحبه ، و لفّته حولها لانها «اهتمت ببقاء جسدها محتشمًا اكثر من اهتمامها بالأذى و الهوان اللذين لحقا بها .» رَبَطَتْ بربيتوا شعرها السائب ودارت بنظراتها حول المكان بحثًا عن رفيقتها فيليستاس ، فوجدتها مطروحة أرضًا ، فاقتربت منها و أعانتها على النهوض و الوقوف على قدميها . ثم التفتت إلى زملائها الذين كانوا لا يزالون يصارعون الوحوش في الساحة ، و صرخت إليهم تحثهم و تشجعهم و تقوّي معنوياتهم .

اقتيدت بربيتوا وفيليستاس إلى غرفة خارج الميدان و جراحهما ثخينة دامية . و على الرغم من جراحات بربيتوا البليغة ، فقد كانت في نشوة ما بعدها نشوة ، و لم تكن لتشعر بآلامها المبرحة . سألت بربيتوا عن موعد عودة الوحوش الى الميدان من جديد . و في هذه الفترة القصيرة من الراحة ، وبعد أن استطاعت بربيتوا أن تلتقط بعض أنفاسها ، جاءها أخوها و واحد من الأصدقاء يدعى روستيكوس (Rusticus) ليفتقداها . فشجّعتهما بربيتوا قائلة لهما : « أثبتوا في ايمانكم ، أحبوا بعضكم بعضًا ، لعلّ استشهادنا لا يكون سببًا للخجل لكم جميعًا . » ثم نهضت بربيتوا و توجهت الى الميدان من جديد . في الوقت عينه و في الجانب الثاني من الميدان ، كان ساتوروس يتحدث الى الحارس بودنز و هو يحثّه قائلاً : « و الآن يا أخي ، آمن من كل قلبك . . . الوداع ، تذكّر إيماني ، ولا تجعل اموراً كهذه تقلقك ، بل لتكنْ حافزاً لتزيد ايمانك وتقويه . »

عندما شبع المحتشدون من مشاهدة ما قامت به الوحوش الكاسرة في الميدان ، وادركوا انه ما زال هناك بعض الضحايا الاحياء المجروحين ، صرخوا مطالبين التعجيل بقتلهم والتخلّص منهم . امّا بربيتوا وزملاؤها المؤمنون ، فهرعوا يعانقون بعضهم بعضًا ، لانه العناق الاخير قبل انتقالهم الى أحضان المسيح . مشوا متعبين الى منتصف الميدان مسيرة الشرف و الكرامة وهم هادئون فرحون . وفيما هم سائرون ، انهالت عليهم طعنات السيوف من رجال

عيّنوا لهذا الغرض . أمّا الجلاّد الذي أُوكل عليه قتل پرپيتوا فقد كان فتىً يافعًا ، غير ذي خبرة في اعمال الإعدام . كان ينفّذ مهمته من دون اتقان ، إذ طعن پرپيتوا طعنة غير فعّالة . عندئذ أمسكت پرپيتوا بسيفه و غرزته في صدرها بكلتا يديها . و بهذا تحررت پرپيتوا من الوضع الذي كانت تعانيه و انطلقت الى احضان المخلّص .

* * * * * * * * * * * * * * *

كانت قرطاجة تحمل صفات غريبة تلفت الانظار . فهي عاصمة إفريقيا ، أو على الأقل ، تلك المقاطعة الرومانية التي كانت تحمل ذلك الاسم ؛ و في الواقع كانت إفريقيا أرضًا ضيقة تحاذي الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط . و تُذكّرنا قرطاجة و إبّان القرن الثالث للميلاد ، من بعض وجوهها ، بمدينة كورنثوس . فكلتا المدينتين كانتا ميناءين يقطنهما شعب بلا جذور ، يمتهنون التجارة . و لم يكن هناك فوارق اجتماعية تُذكر في كلتا المدينتين ، ما عدا ما يتعلّق بالغنى . كانت كلٌّ منهما تعاني ظاهرة الانحلال الخُلُقي التي تبرز في المدن الواقعة عند شبكة طرقات رئيسة تربط الدول بعضها ببعض .. هذا لأن روّادها هم من المغامرين الذين يشعرون بأنهم بعيدون عن قيود الأصدقاء و الأهل ، ينغمسون في الملّذات الدنيوية التي تتيحها أمامهم الديانة الوثنية . و نحن نجد في كلتا المقاطعتين أعراقًا و أجناسًا خليطة من جميع أنحاء العالم – الافارقة ، و الإيطاليين ، و اليهود ، و المصريين والغاليين . كذلك نجد طاقات عقلية او عاطفية تظهر من خلال المشاحنات المستمرة التي تطالعنا سواء في الشوارع أو الأسواق ، أو على المدرّجات . و ممّا زاد الوضع تفاقمًا حرارة المناخ و الذباب والحشرات و القذارة والأمراض المستشرية في الأزقّة النتنة المزدحمة . تعتزّ مدينة قرطاجة بنفسها وتزهو بكيانها و تفتخر ، مع انها فقدت عظمتها السابقة . فهي تحت حكم روما قسراً ؛ و من جهة أخرى ، قد يبدو أنها تسيطر على المناطق المحيطة بها بالاضافة الى القبائل الداخلية ، لكنها في الواقع تفقد تلك السيطرة . و قد يبدو أيضًا أن مواطنيها متّحدون في تعبّدهم للآلهة القديمة ، ولكنهم كانوا ممزّقين داخليًا يشكّكون في مصداقية تلك الآلهة .

إن شعب قرطاجة ، وجدوا في وسطهم رجالاً و نساءً يتميّزون بطابع الغرابة : تخالهم عائلة ، لكنهم لا يرتبطون بروابط الدم . و تظن أنهم دين ، انما في الواقع بلا آلهة منظورة . كذلك يبدو أنهم من عرق واحد ، و لكن بالحقيقة متحدّرون من دول متعددة . الغني و الفقير ، الكهل والشاب ، المتعلّم و الأمّي ، و هم من الافارقة او الايطاليين او اليهود ، من دون تمييز . لهم جميعًا دماثة خلق مؤثّرة ، و لهم ايضًا جاذبية أخّاذة عجيبة . لا تجدهم يتشاحنون ، أو يغشّون ، و لا يسكرون ، و لا يشاركون في طقوس العربدة ، او الاحتفالات الفاسدة التي كان جيرانهم يحتفلون بها . و لم يرهم أحد يشاركون في المسرحيات العامة ، ولم يُعرف عنهم قط انهم دخلوا يومًا الى معابد المدينة التي كان يرودها كلّ السكان . ففي الواقع ، كانت هذه الجماعة الغامضة لغزاً من الالغاز و سراً من الاسرار . كانوا يعيشون في قرطاجة ، و لكنهم لم يشاءوا يومًا ، أن يكونوا جزءاً من هذه المدينة او من شعبها .

بل على العكس ، كانوا يجتمعون سراً ، و في الخفاء - جماعات صغيرة هنا وهناك - لا يعرف أحد ماذا يجري وراء ابوابهم المقفلة ، من أمور و أمور .

و مع ذلك ، فقد كان اولئك القوم من افضل الناس و أحسنهم . فاذا اتفق أن تعرّفت بواحد من هذه الجماعة ترى انك تنساق انسياقًا لتثق به و تطمئن اليه . و اذا طلبت اليهم أن يحدثوك عمّا يؤمنون به ، يجيبونك بلطف ، أنهم يؤمنون بشخص أتى الى هذه الدنيا ، ليس منذ وقت طويل ، وذلك ليُعين البشرية ، فرفضه هؤلاء الذين جاء لكي يعينهم ؛ وأخيراً ، نُفّذ فيه حكم الموت ، و لكن موته لم يكن نهاية المطاف . لأنك ان صدّقت روايتهم و ما يقولونه لك ، فهذا الرجل الذي مات ، قام من القبر في اليوم الثالث . قام بطريقة عجيبة و هو لا يزال حيًا بصحبة اتباعه ، و معهم حيثما ذهبوا واينما وطأت أقدامهم .

وبالتأكيد ، فإن هذه الرواية هي رواية جميلة ، و الإيمان بها لا يؤذي احداً ، و قد تكون صحيحة . و لكن لم تكن الامبراطورية الرومانية تُعنى كثيراً بالجمال أو بالحق . لقد كان الدين عند اولئك الرومان مفيداً ، لكنه مفيد اذا ما استعمل كأداة للتسلّط على الناس و استغلالهم . فحتى ذلك الوقت ، كان استغلال الدين قد أعطى نتائج حسنة ، و كان مفعوله جيداً ، شريطة ان يُخلص الناس لدين واحد ، و يقدموا له الولاء المطلوب فيشارك جميع الناس بعبادة واحدة عامة موحّدة . ازعج السلطات الرومانية أن تجد في قلب العاصمة الافريقية أناساً يزدادون باطّراد ، و يرفضون قبول العبادة الشعبية العامة ، و يمتنعون عن تقريب التقدمات التي تُكرم الامبراطور . كما شعرت السلطات أن من شأن هذه الظاهرة أن تهدد بنية المجتمع و الحضارة التي يسهر عليها الامبراطور . لذا ارتأوا ان تُخمد هذه الحركة و تُقمع وهي بعد في مهدها قبل أن يستفحل أمرها و تنتشر . و في هذا الوقت أصبحت الحكومة الرومانية قلقة و متوترّة بسبب الأزمة الاقتصادية و الاجتماعية المتفاقمة و التي جعلت الناس يتذمّرون في جميع أنحاء الامبراطورية . بدأ التململ يتنامى بين سكان قرطاجة ، و بدأ صبرهم ينفد بسبب حكّامهم الرومان . لقد أصبح الشعب في حاجة الى مزيد من مهرجانات اللهو و التسلية . وصلت السلطات الرومانية الى الحل المنشود ، حين طلب مروّضو الوحوش الكاسرة مزيداً من الضحايا لإطعام وحوشهم الجائعة ، على المدرّجات . فإنّ هؤلاء المسيحيين سيفون بالغرض .

بعد مصرع بربيتوا و أصحابها بقي جمهور المؤمنين بمشاعر متضاربة - يسرّهم ان معاناة أحبائهم قد انتهت ، لكنهم يحزنون لفراقهم ؛ اطمئنان الى انهم من الشهداء الذين رحّبت بهم السماء ، وهم الآن في مكان أفضل حيث استقبلهم الراعي الصالح الذي تراءى لبربيتوا ، و قلق على مصير المؤمنين الباقين . رفع الإخوة الجثث الخمس المطروحة على ارض الملعب ، و دفنوها بكل محبة . كذلك نصبوا لوحة تذكارية لإحياء ذكرى هؤلاء الشهداء الشجعان ، الذين وقفوا وقفة مشرّفة . و كان المؤمنون يحتفلون سنويًا بذكرى استشهاد هؤلاء الابطال ، فيستمدّون من ذلك القوة ؛ لا سيما ان هؤلاء كانوا نماذج حية للشجاعة و الاستشهاد . قامت احدى النسوة المؤمنات من الجماعة المسيحية بتبنّي طفلة فيليستاس و تربيتها مع اطفالها . و عندما شبّت هذه

الطفلة تعرّفت بحقيقة والدتها و بإيمانها بالمسيح الذي لم تنكره حتى الاستشهاد . كذلك عرفت هذه الابنة الشابة انها تستطيع ان ترى والدتها يومًا ما وستتعرف بها ، مع انها لم تعرفها في الحياة الدنيا . هناك في السماء ستبقى معها ، حيث لن يكون دموع أو احزان ، أو أي فراق بين الأحبّة . امّا ابن پرپيتوا ، فلا نعلم ماذا حصل له ، لكن ربما عاش مع جده كوثني ، و ربما بقي مع خاله و اعتنق المسيحية .

كذلك لا نعرف شيئًا مؤكدًا عن زوج پرپيتوا . فمن الممكن الاّ يكون له مكان في هذه القصة ، لأنه قد تكون پرپيتوا قد تزوجته رغمًا عن ارادتها و هو لا يأبه إلاّ قليلاً لزوجته ولايمانها . و هكذا قد يكون تخلّى عنها في ساعة محنتها و حاجتها اليه . ثمة احتمال آخر ، و هو أن يكون هذا الزوج من الذين سُجنوا ايضًا معها . فعند سماع ساتوروس بإلقاء القبض على پرپيتوا ، نرى أنه قد اسلم نفسه طوعًا الى السلطات الحاكمة . و في الرؤيا ، رأت پرپيتوا ساتوروس ينتظرها في رأس السلّم ليدخلا معًا الى الجنة و هي بصحبته و الى جانبه . ولم يكن هذان المؤمنان ليفترقا ابدًا . لذلك ، فالاحتمال هو ان يكون ساتوروس زوجها . فالمسيحي الذي يمكنه أن يحظى بحب امرأة عظيمة كپرپيتوا ، لا يمكن أن يكون من الذين يخافون الخطر و يهربون منه . فلا بد لمثل هذا الانسان من أن يعلن ايمانه و يعيش هذا الايمان ، و أن يموت في سبيله شهيدًا اذا ما اقتضت الحاجة الى ذلك . فمثل هذا البطل لا بدّ من ان يقف بجانب زوجته ، في المدرّج الروماني ، او في الجبال ، او في الصحاريَ ، او بعيدًا داخل الوطن ، و في كل الظروف و الاحوال . كان هناك الكثير من مثل هؤلاء الرجال الاشداء في افريقيا الشمالية إبّان تلك الحقبة من الزمن .

أما فيما يتعلّق بالامبراطورية الرومانية فقد أدّت سياستها العقيمة المشهورة الى نتائج عكسية ظهرت واضحة امام الملإ جميعًا : قَبلَ المسيحي المؤمن هذا التحدي الكبير ، و هكذا ربح المعركة . والآن عرف اهالي قرطاجة أنّ المسيحيين لا يهابون الموت و أن استعمال القوة معهم لا يجدي نفعًا . لقد ثبت ستة ابطال من الرجال و النساء بايمان راسخ بقوة مسيحهم ومخلّصهم ، و لم يرضخوا في يوم من الأيام للتهديد و القسوة و لا خضعوا للطغيان الروماني . وهكذا نجد الناس يتحدثون في كل مكان عمّا رأوه و سمعوه متسائلين : ماذا تعني هذه الظاهرة؟ ما هو هذا التعليم الذي يستحق ان يموت الناس لأجله ؟ لقد ظهر بوضوح لأولئك المتسائلين ، أنّ هذا التعليم الجديد يمنح قوة غير مألوفة تستطيع أن تنزع من قلب المؤمن كل خوف من الموت . كما انه يملأ معتنقيه فرحًا – فرحًا يصعب التعبير عنه و يقينًا غير محدود يصعب تفسيره . لكن ماذا يلي ذلك ؟ كانت المدينة الافريقية العظيمة تنتظر بترقّب ، متسائلة ما هو جوهر هذا الإيمان المسيحي الذي لا نظير له .

ملاحظة : هذه قصة واقعية أخذت تفاصيلها من وثائق كُتبت في زمن وقوع الأحداث .

من الممكن الحصول على ترجمة انكليزية للقصة المعاصرة في :

ed. Roberts & Donaldson *The Ante-Nicene Fathers Series* Vol. III pp. 697 - 706 .

الفصل الثاني

الانفتاح على العالم المتحضّر

كانت قرطاجة موجودة قبل واقعة بربيتوا بألف سنة، واستمرت ناشطة خلال هذه الحقبة من الزمن . ويشكّل اولئك الناس الذين اقاموا في المدينة العظيمة، مجموعة اقوام مختلفة متنوعة، وجدوا طريقهم اليها من الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب . بعضهم جاء من البحر وتزوّج من فتيات القوم الذين كانوا يقطنون في تلك الديار منذ آلاف السنين، ويرعون قطعانهم ومواشيهم في السهول الساحلية . ونزل بعضهم الآخر تدريجيًا من جبال الأطلس والريف، مدفوعين بنزاعاتهم أوطموحهم الى الأفضل . آخرون منهم سافروا شمالاً على طول طريق القوافل الصحراوية التجارية . وحينما بلغوا مدينة قرطاجة لم يستطيعوا أن يذهبوا أكثر من ذلك، لأنّ هذه المدينة هي الحد الأقصى والتخم الأبعد على امتداد البحر الأبيض المتوسط، حيث لا يمكن تعدّيه، اوالسفر لأبعد منه . لقد تزامل البحّار مع المزارع، وترافق أحد أعيان المدينة مع العبد، والافريقي مع الاوروبي، فاختلط هؤلاء الاقوام، بعضهم ببعض الى حد كبير، في الشوارع الضيّقة، من المدينة القديمة، ومزجوا لهجاتهم المحلية وبضائعهم في أسواقها . وقد ارتفع سكان هذه المدينة في القرن الثالث الميلادي الى 000 100 نسمة .

وعندما أسّس الفينيقيون الاشداء قرطاجة، استخدموها كمركز تجاري صغير لهم، وقد وصلوا الى هذه البقعة من شرقي البحر الابيض المتوسط نحوسنة ألف قبل الميلاد . ولكن الفينيقيين لم يكونوا أوّل من سكن بمحاذاة هذه المنطقة الساحلية، فقد وصف الكُتّاب الاوائل الافارقة بأنّهم من الأمازيغيين (Imazighen) أو البرابر، الذين قابلهم الفينيقيون عندما اندفعوا بمراكبهم الغريبة الى السواحل الجنوبية للبحر الابيض المتوسط . وكان معظمهم من البدوالرحّل الذين امتهنوا تربية المواشي والاغنام والماعز، وهم يعيشون في خيم يتنقلون من مكان الى آخر حسب المواسم، ويقيم بعضهم الآخر إقامة ثابتة دائمة في الوديان النجدية وهم يعيشون في أكواخ عبارة عن جدران وأسوار من الطين او الحجارة . ويعتنون بشجر الزيتون ويستغلونه، ويربّون الدواجن، ويبذرون حبوب الحنطة والشعير في حقول صغيرة . أمّا نساؤهن، فكنّ يَحكنَ الثياب، ويصنعنَ الخزف، بينما يعمل الرجال بأعمال الحجارة والأخشاب، صانعين منها أنواعًا

عديدة من الأدوات التي قد يحتاجون إليها في حياتهم اليومية . كانت المعادن نادرة الوجود ولم يكونوا يعرفون النقود بعد .

كان الغذاء الرئيس المتوافر لديهم ، وهوعبارة عن سميد مصنوع من الحنطة والشعير المجروش ، يُعرف باسم كسكسو(Couscous) . وكانوا يلبسون رداءً طويلاً مزيّنًا بشريط أحمر وفي الصقيع ، كانوا يلبسون برانس مُقَلْنَسَة من الصوف . وكانوا يحبّون المجوهرات ويهندمون لحاهم وشعورهم ببراعة واتقان . وكانوا يشتهرون ببنيتهم الجسدية القوية ، وبطول أعمارهم .

تعيش المجموعات العشائرية مع بعضها تحت مراقبة الجد الأكبر او العم الأرشد وعنايته . وتشترك في امتلاك الأراضي . وكانوا يبنون قراهم بجانب الوديان ، حتى يتمكنوا من حماية أنفسهم بسهولة من الاعداء وقت الحاجة . وقد شكّلوا اتحاداً من العشائر والقبائل للحماية المشتركة المتبادلة ، وفي بعض الاحيان للمشاركة في العدوان . وتقود مثل هذه الاتحادات الكونفدرالية عادة ، جمعية تتألف من رؤساء العشائر . ويمكن لرجل مشهور بشجاعته العسكرية ان يوحّد العشائر ، ويكون شيخًا لها اوحتى ملكًا لبعض الوقت ، وذلك في اوقات الاضطرابات اوالقلاقل .

لم يتهجّم الفينيقيون على أراضي هؤلاء الأفارقة الأصليين ، وانما اقتنعوا ، ببساطة ، بأن ينشئوا مستعمراتهم اومستوطناتهم الصغيرة بمحاذاة ساحل البحر الابيض المتوسط وكان الفينيقيون قد أنشأوا لهم قاعدة رئيسة في قرطاجة بين الاعوام 800 - 700 قبل الميلاد ، واستمروا في بناء المستوطنات باتجاه الغرب ، وأقاموا لهم مستودعات ومخازن ومراكز تجارية بمحاذاة الساحل عبر جبل طارق مروراً بالساحل الأطلسي المغربي ، وامتدوا الى ما ندعوه الآن العرائش والصويرة . كان الفينيقيون رحّالة ومسافرين عظماء ، وقد احتفظوا لهم بخطوط اتصال بحرية من والى كل مكان معروف في العالم آنذاك ، من الاطلسي وحتى البحر الأسود امتداداً الى القنال الانكليزي .

إلاّ أنّ هذه الشبكة التجارية الواسعة المديدة لم يُكتب لها البقاء . فقد كان الفينيقيون يلاحظون ، سنة بعد أخرى ، كيف أنّ بلادهم الأصلية ، في الطرف الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، تتعرض لقوى عسكرية ساحقة معادية تهددهم ، وبخاصة من الامبراطورية الاشورية . ولقد أجهز أخيراً ، القائد اليوناني العظيم « الاسكندر » على العاصمة الفينيقية « صور » التي سقطت في القرن الرابع قبل الميلاد . وعندما وجدوا أنّ جذورهم الشرقية قد انتُزعت بالقوة ، اختار المغامرون المستوطنون بمحاذاة الساحل الافريقي البقاء هناك ، وبناء مستقبل جديد لهم في وطنهم المتبنّى ، وعُرفوا عندها باسم « القرطاجيين » .

والفينيقيون ، أوالقرطاجيون ، كما دُعوا في ما بعد ، يبدوأنّ قطعهم لعلاقاتهم بوطنهم ، أعطاهم زخمًا جديداً ، وذلك على مدى الثمانية قرون اللاحقة . وهكذا تطوّر القرطاجيون الدؤوبون على العمل وأنشأوا امبراطورية كبيرة هيمنت على جزء كبير من البحر الأبيض المتوسط ، وسببت قلقًا شديداً لا يستهان به لمنافسيها عبر البحار المتمثّلين بروما . كان القائد القرطاجي الموهوب هنّيبَعَلْ على أهبة احتلال مدينة روما ، عاصمة الامبراطوية الرومانية . ففي العام 219 قبل الميلاد ، بدأ هنيبعل بعبوره جبال الألب باسبانيا ، في حملة عسكرية نقل خلالها 37 فيلاً قتاليًا . ولكن الفيَلة ماتت ، وكذلك مات الكثير من رجاله ، وبقي هنيبعل ينتظر وصول الامدادات العسكرية التي لم تصله . لذا فقد باءت حملته هذه بالفشل . وكان سقوط هذا القائد ، كسقوط قرطاجة نفسها التي احتلها الرومان بعدئذ .

والحقيقة أنّ القرطاجيين لم يحاولوا قط مهاجمة افريقيا الشمالية ، أوحكمها بالقوة . وببساطة ، فقد نظروا الى القارة الجنوبية الكبيرة وكأنّها مصدر من مصادر الموادّ الخام ، وحيثما وجدوا رجالاً ، يستخدمونهم للقتال في حملاتهم العسكرية في أماكن أخرى . وقد أنشأوا مراكز خارجية ، إلاّ انها لم تكن أكثر من أسواق تجارية محاطة بضياع واسعة لانتاج زيت الزيتون والحنطة والعنب . ولكنّ هذا الاستيطان الذي أسّسه القرطاجيون ، لم يكن كافيًا لحمايتهم من أيّ هجوم عسكري حقيقي قد يتعرضون له ، لذا اعتمدوا على بناء علاقات أخوية وثيقة بالأمازيغيين ، واوجدوا لهم علاقات تجارية تربطهم وجيرانهم . كانت هذه العلاقات ، لمصلحة كل من القرطاجيين والامازيغيين على حد سواء . ولتقوية هذه الروابط ، فقد تزاوج سكان الجاران بعضهم من بعض ، وقام القرطاجيون بتعليم الأمازيغيين لغة فينيقية خاصة بهم تدعى البونية (Punique) ، وقدّموا لهم شعارهم الديني الوثني ، وجرت بمقايضة بين الفينيقيين من جهة الرعاة والمزارعين المحليين من جهة أخرى : جلبوا لهؤلاء الأفارقة البضائع المعدنية المشغولة يدويًا ، والزجاجيات ، والثياب الملوّنة المصبوغة ، من أطراف العالم المحيط بحوض البحر الأبيض المتوسط ، وقايضوا بضائعهم هذه بالصوف والاحصنة وزيوت الزيتون والعاج الافريقي ، فضلاً عن العبيد ، وريش النعام الذي مصدره تجّار الصحراء . قدّم القرطاجيون للأمازيغيين اشجاراً جديدة لم يكن هؤلاء يعرفونها من قبل ، كالتين والكروم والرمّان ، وعلّموهم كيفية غرسها والاعتناء بها . إنّ الزراعة الواسعة النطاق التي ادخلها القرطاجيون الى افريقيا ، كانت ابتكاراً جديداً بالنسبة إلى الافارقة الذين كان عملهم حتى ذلك الحين ، محصوراً في تربية الأغنام والأبقار ، وتوفير حاجيات عائلاتهم من الحقول والبساتين الصغيرة . وافق الامازيغيون فرحين مسرورين على أن تُستعمل أراضيهم بتلك الطرائق . وبالطبع فقد استفادوا كثيراً من الاسواق

الجديدة التي فُتحت امام انتاجاتهم الغذائية والحيوانية . وليس من شك في أنّ التغيير الكبير الذي طرأ على غذائهم وأطعمتهم والعدد المعدنية والبضائع المشغولة يدويًا التي زوّدهم بها القرطاجيون ، زادت من سرورهم وبهجتهم ايضًا ، حيث كانت هذه جميعها تدل على ذوق رفيع وثقافة عالية . لقد شرع الامازيغيون يلبسون الأزياء الارجوانية ، والمجوهرات الثقيلة التي يستعملها القرطاجيون عادة ، كما تعلّموا استخدام لغتهم ايضًا .

ولكنّ هذا لم يدم إلى الأبد ، لأنه ، على الرغم من أنّه كان للقرطاجيين اصدقاء في افريقيا ، فقد كان لهم اعداء اقوياء ايضًا في مناطق اخرى من العالم . فالرومان صُعقوا بالنجاحات السريعة الموقتة التي حققها هنيبعل ، جنرال قرطاجة . لذلك ، ففي القرن الثاني قبل الميلاد ، زحفت الجيوش الرومانية ، وشارفت ابواب قرطاجة ، ولم تمضِ فترة قصيرة حتى سقطت مدينة قرطاجة ، واستسلمت لمهاجميها في العام 146 قبل الميلاد .

كان الهدف الأهم من دخول الرومان الى افريقيا الشمالية هوتدمير قوة منافسهم الاول في البحر الابيض المتوسط ، والعودة الى ديارهم بعد تحقيق هذا الحدث الهام . ولكن لسبب لم يتمكنوا من تجنبه ، وجدوا أنفسهم وقد تورطوا في نوع من الاتحاد الجديد مع القادة الامازيغيين ، الذين اسرعوا بدورهم الى تشكيل صلات وروابط مع الوافدين الجدد ، كتلك الروابط التي كانت تربطهم بأسلافهم من القرطاجيين . وهكذا بدأ الرومان يعون أهمية الطاقات الكامنة في افريقيا ، فراحوا يطوّعون مرتزقتها لدعم القوى العسكرية المرابطة آنذاك على الحدود الاخرى للامبراطورية ، والتي كانت في حاجة الى إمدادات . فمنذ فترة ، استُعيض عن الجنود الرومانيين بالإداريين ، لوضع المخططات المطلوبة لاستعمار افريقيا الشمالية ، فبدأ المستعمرون يأتون من الأجزاء الأخرى للامبراطورية ، ولم يكن معظم الوافدين من ايطاليا نفسها ، بل كانوا من الغاليين والاسبانيين والدلماطيين والسوريين واليهود الذين أضافوا دماءهم وعاداتهم الى الخليط الموجود قبلاً في مدينة قرطاجة . وتكلم هذا الخليط من الناس اللغة اللاتينية واليونانية من دون أن يتكلموا البونية .

كان الرومان من أعظم الإداريين في عصرهم وأبرعهم . فإذا قرروا يومًا أن يقيموا في بلد ما ، كانوا يشرعون بنشر تنظيمات ادارية مناسبة . وعليه ، فقد بدأوا بتنظيم مقاطعة افريقيا الشمالية ، بكل نشاط . وقد نظروا الى افريقيا اولاً على انها مصدر جيد للطعام والغذاء ، وساورهم القلق ، كما هي عادتهم دائمًا ، على كيفية تغطية احتياجاتهم للخبز ، وذلك طبعًا بسبب اتساع الامبراطورية وازدياد احتياجاتها . لذلك ، قامت السلطات الرومانية باقتلاع اعداد كبيرة من اشجار الزيتون ، وزرعت مكانها الحنطة والشعير . وكذلك قطعت من اشجار الغابات الموجود بمحاذاة الأنهار أوالبحار التي تمكّنهم من شحنها . وخلال فترة

وجيزة ، نظّم الرومان اعمال ريّ واسعة ، وبنوا القنوات لمدن متعددة كقرطاجة وقيصرية (شرشال) ، وشرعوا بتعبيد الطرقات بأسلوبهم المميّز وهواستعمال البلاطات الضخمة التي كانوا قد استخرجوها من المقالع حديثًا .

في البادية ، سمح الرومان للقادة والشيوخ المحليين الأمازيغيين أن يحكموا على ما كان تحت سيطرتهم من البلاد والناس . و القادة من الأمازيغيين والقرطاجيين الذين قدّموا الطاعة والولاء للامبراطور الروماني ، فقد مُنحوا ، وبسرعة ، منزلة خاصة ، باعتبارهم مواطنين رومانيين : فاستفاد هؤلاء من وضعهم الجديد هذا . وهكذا ، وبسرور لا يوصف ، وجد هؤلاء القادة والرؤساء الامازيغيون والقرطاجيون انهم قادرون على أن يتبوّأوا مناصب عليا رفيعة في السياسة وفي الهيئات اوالسلطات الاجتماعية الاخرى في المدن التي جرى تطويرها وإنماؤها حديثًا . وقد أصبح العديد من الأفارقة قادة في الجيش الامبراطوري . وفي سنة 190 ق .م صار ما يقارب ثلث المجلس الذي يحكم الامبراطورية من روما ، مشكّلاًمن أعضاء افريقيي الأصل . وهكذا انتُخب احد الأمازيغيين المدعوسپْتيمْيُوس سفيرُوسْ (Septime Sévère) إمبراطورًا لروما في وقت مبكر من عام 193 بعد الميلاد . هذا لأن التَعيينات الإدارية في روما كانت تُبنى على أساس الاستحقاق والكفاءة . كان بإمكان أحد الأمازيغيين الذي أصبح حاكمًا في روما ان يكتب باعتزاز واضح : « في رأيي ، إن عنصرنا البشري مميز ، وكأنما قُدر له أن يكون كذلك . لأنه أنتج أناساً كثيرين ذوي قدرات عالية ، وهويرى أن الأطفال الذين أنجبهم وربّاهم يتبوّأون أعلى المراكز وأرفعها . » [1]

أما اولئك الذين لم ينجحوا في مواكبة الركب الامبراطوري ، فقد كانوا غير متحمّسين للإمبراطورية . وبما أنّ المسؤولين الامبراطوريين ، كان همّهم الأساسي السعي وراء تنسيق ما يختص بتنظيمات الاراضي الزراعية ، وفَرضَ الضرائب عليها ، الأمر الذي لم يُفلح القرطاجيون في إنجازه ، فقد اعترض عليهم عموم الشعب الذين كانوا يأملون ، ربما ، بالحصول على ارباح اكبر بعد أن تغيّر شركاؤهم التجاريون . لكن ذلك لم يحصل ، بل اكتشف الشعب أنّ الرومان كانوا أكثر رغبة في السيطرة على الأراضي ممّا كان عليه اسلافهم القرطاجيون . فالقرطاجيون مثلاً ، كانوا يدفعون الايجارات المستحقة عمومًا على الأراضي التي يستغلونها . امّا الآن ، ومع استمرار تقدّم زراعة الحنطة وتقلّص المراعي ، فقد خسرت بعض القبائل اراضي الكلإ التقليدية التي كانوا يستغلونها لرعي قطعانهم ، واستولى عليها الرومان لتحويلها الى مزارع الحنطة والشعير وغيرها . وهنا ، فضّل الكثير من الرجال الأمازيغيين إختيار العمل كأجراء ؛ أمّا بعضهم الآخر ، فقد انتقل مع قطعانه الى اراضٍ داخلية بعيدة ومرتفعة ، وهي بالطبع اقل خصوبة وكلإ . وبذلك فقد اصبح مستقبل الشعب مشكوك في أمره وغامض النتائج ، لا اعتماد عليه .

وما إن حل القرن الاول للميلاد ، حتى شرع الرومان بتقسيم الحزام الساحلي الى خمس مقاطعات ، وبطريقة سائبة وعشوائية . وكان هذا التقسيم العشوائي السائب يتلاءم ، في الواقع ، كثيراً مع تنظيمات إدارتهم الحكومية . فمثلاً ، امتدّت مقاطعة كورينيكيا باتجاه الغرب وبمحاذاة الساحل من مصر الى ليبيا الحديثة . واذا ما توغّلنا الى أبعد من ذلك لجهة الغرب ، نجد أنّ المقاطعة افريقيا البروقنصلية التي دُعيت في ما بعد تْرِيبُولِيتَانِيَا ، تطوّق الساحل الذي يدعى الآن خليج سِرْتْ . كان هذا مقرّ الادارة الرومانية في شمالي إفريقيا والمتمركزة في عاصمتها ، قرطاجة ، بالقرب من مدينة تونس حاليًا . واذا ما استمررنا بالتوغل غربًا ، فإننا نجد نوميديا وبعدها موريتانيا قَيْصَرِيَانْسِيسْ (اي الجزائر حاليًا) ، ومن ثم موريتانيا تِنْجِيْتَانَا والتي تستمر نزولاً حتى الساحل الاطلسي الى ان نصل الى سلا (بالقرب من الرباط) . إنّ المدينة الداخلية فولوبيليس (وليلي) في شمال المغرب ، ليست بعيدة عن مكناس في الوقت الحاضر . وقد تطورت بالتدريج حتى أصبحت عاصمة المنطقة الغربية لحين حلول القرن الرابع للميلاد . وعندها أدّت فوضى الاضطرابات الى اضطرار الإدارة الرومانية الى سحب مراكزها القيادية والإدارية الى سواحل طنجة .

عُرفت السهول والجبال الداخلية التي كانت سائبة تقريبًا ، ولا حكومة فيها ، باسم اراضي الجيتوليين او الموريين (Gétules, Maures) وكان يحكمها شيوخ القبائل . وقد حكم الشيخ الأمازيغي المدعو يُوغُرْتَا (أو يُوكُرْتَنْ) (Jugurtha) (عام 154 - 104 قبل الميلاد) المنطقة حكمًا صارمًا لا رحمة فيه ولا شفقة ، وذلك حتى يتمكن من بسط نفوذه ، ومدّ سيطرته على كل المنطقة التي توجد تحت نفوذ قرطاجة . وفي حدود العام 25 ق م ، كانت المنطقة الممتدة الى الغرب تُحكم من المدعو يُوبَا الثاني ، وهورجل أمازيغي متزوج من امرأة مصرية تدعى سِيْلِينَا (Célène) ، وهي ابنة أنطونيووكليوباترا . وقد شبّ جوبا في روما ، وتفوّق في دراسته . وَقَدّم خلال ملكه الذي دام 48 سنة ، مظاهر عديدة للحضارتين الرومانية واليونانية في افريقيا الشمالية . ذاق الأمازيغيون حلاوة التجارة وتقنية الصناعات اليدوية لحضارات البحر الابيض المتوسط ، وسرّوا كثيراً بحراثة الأراضي وجني المحاصيل والحصادات المتنوعة التي مارسوها . وقد أدّى الاستقرار الذي فرضته الامبراطورية الرومانية في المنطقة الى تمكّن مزارعي افريقيا الشمالية وصُنّاعها اليدويين من ان يورّدوا الى الاسواق البعيدة الواقعة في أقصى اجزاء الامبراطورية . وهكذا نعمت بلادهم بالسلام ، وحالفهم النجاح والرخاء الاقتصادي بسبب المعاهدات التي عقدوها ، والارتباطات الدولية القوية التي حصلوا عليها . لكنهم ، في الوقت نفسه ، أعطوا صورة غير مشرّفة عن المجتمع الروماني المتهرّىء آنذاك ، حيث أنّ هذا المجتمع كان يمارس الاعمال الوحشية والفظة في الملاعب والميادين ، وقد ترسّخت جذور العبودية المُذلّة ، فضلاً

عن الوثنية الفاسدة الفاسقة . وبالإضافة الى هذا ، فإن الرومان قد حكموا البلاد بشكل فعال ومشدّد ، ولكنهم لم يهتموا ، إلا قليلاً ، بحاجيات أفراد الشعب ومشاعرهم .

وهكذا نرى ، أنّ افريقيا الشمالية ، كانت في السنوات الاولى للميلاد ، مزيجًا مختلفًا من الناس ، لهم لغات وثقافات متنوعة . وقد اجتذب هذا الواقع مستوطني الارض الذين توافدوا عن رضى ، ليندمجوا في هذا الاتجاه السائد لحضارة البحر الابيض المتوسط . فتبنّوا بسهولة وحماسة الافكار الجديدة للتقنية التي صادفتهم هناك . وهكذا صارت الحقول جاهزة ، بانتظار حلول الحدث الجديد والأهمّ ، حيث تبشر السنوات القليلة القادمة بالدخول في عصر جديد وهام ، وهوقدوم اشياء لم تعهدها إفريقيا الشمالية من قبل .

جاء الفينيقيون والرومان في السنوات السالفة الى المنطقة ، طمعًا في التجارة والاستيطان ، وحبًا بالنجاح والثراء . . . ولكن ، من خلف الافق الشرقي تحديداً ، بدأ بعض المسافرين الأفذاذ يُبحرون الى كوريني وقرطاجة . كانت حوافز هؤلاء المسافرين تختلف تمامًا عن غيرهم من الوافدين ؛ لم يكونوا يرغبون في الاستغلال الزراعي اواستثمار الموارد المعدنية للارض ، لم يأتوا ليتاجروا مع المستوطنين ، وبالتأكيد ، لم يأتوا ليستأثروا بالسلطة . لم يحملوا معهم السلاح او العتاد ، ولا الغنى . لم يأتوا بشيء مما تقدّم ، جاءوا برسالة الأخوّة والامل والطمأنينة . وهؤلاء القوم اختارت پرپيتوا ان تسير معهم وأن تنضمّ اليهم . ومعهم فقط ، استعدّت لتلقي رحالها ، وتسلّم حياتها .

ملاحظات

1- Ayache p. 54

من المصادر الثانوية عمّا قبل تاريخ افريقيا الشمالية وعن تاريخها القديم نذكر :

Camps pp. 86 - 119, 145 - 177; Frend pp. 25 - 47 ; Guernier pp. 51 - 82 .

الفصل الثالث

البحث عن الله

منذ العصور الغابرة ، أظهر أهالي إفريقيا الشمالية اهتماماً في الأمور الدينية العميقة والصعبة الإدراك . وبالطبع ، فإنّ هناك شيئًا عالميًا عامًا ، تشترك فيه الطبائع البشرية ، ألا وهوالرغبة في الوصول الى حل ألغاز هذا الكون ، وأسراره غير المرئية ، والتي تتشارك فيها جميع قارات العالم ، وتؤمن بها كل الاجيال . وكلما اقترب الناس بعيشهم من العالم الطبيعي ، اشتدّت رغبتهم في التواصل مع هذه القوى الخارقة الموجودة في الخليقة . والواقع أنّ الإلحاد استطاع أن ينمووبزدهر في القرن العشرين فقط ، حيث المدن الكبيرة التي أوجدها الانسان بنفسه . فقد أحاط انسان هذا القرن نفسه بأعمال يديه ، ولم يعد لديه متسع من الوقت ليتأمل في ما هوأعظم من منجزاته من أمور مدهشة يحاول فهمها .

وكسائر الناس الذين يقضون اوقاتهم في الحقول اوالغابات ، فإن الأمازيغيين القدامى ، في العصر الحجري الحديث والعصر الحديدي ، لا بدّ من أن تكون قد روّعتهم القوى الظاهرة المدركة في الطبيعة . لا شك في أنهم شعروا في قلوبهم بالمشاعر نفسها التي نُحسّها نحن ونشعر بها عندما نستيقظ في الصباح ونلقي نظرة على قمم الجبال المكلّلة بالثلوج تحت أشعة الشمس المشرقة الصافية . لقد امتلأ الامازيغيون رعبًا ، كما نحن ، بسبب القوى العنيفة الهائجة التي لا يمكن مقاومتها وهي تجرف الاشياء بقوة بعد كل عاصفة ، إذ تكتسح الاشجار والصخور أمامها ، وتلقيها ارضًا وكأنها عصافة في مهبّها . لقد افتُتن هؤلاء وسُحروا ايضًا ، بهياج البحار ، وبأمواجها الصاخبة على السواحل الصخرية ، وكذلك باندفاع طيور البحر وهي تتساق بسرعة فائقة خلال هبوب الرياح الغربية . لقد أدهشهم غروب الشمس وهي تصقل لونها الذهبي المتحوّل تدريجيًا الى اللون الأحمر ، لكي يختفي بعيداً وراء التلال الرمادية ، في آخر النهار .

والطبيعة ايضًا مليئة بالخوف والرعب ، فهي تحمل لهم قوى الحياة والموت . فإذا لم يتساقط المطر ، يفسد الحصاد وتموت الغلّة ، وهذا يعني المجاعة . وإذا ما تفشّت الامراض في قطعان الماشية ، فسيترصّد الموت الناس أنفسهم ، إذ إنهم يعتمدون على هذه الماشية لتأمين معيشتهم ، فلا ينجو إلا القليل من أطفالهم إبّان طفولتهم . فإن قُدّر أن يعيش واحد من اطفالهم ، ويموت الآخر ، فيكون قدراً مبهمًا ومخيفًا . فهل هناك طريقة ما يمكن من خلالها أن نؤثّر في حوادث المستقبل ؟ هل يمكننا أن نتجنب الكوارث والنكبات ، أوأن نؤكد استمرار الحياة ؟ هل هناك قوى خفية غير منظورة تتحكم في ماجريات الأمور ؟ وهل يمكن استرضاء هذه القوى ومناصرتها ؟ هل يمكن لهذه القوى أن تساعدنا في صراعاتنا مع الحياة ؟

ليس من السهل أن نعود القهقرى لأربعة آلاف سنة غابرة ، لندرك ما كان يفكر فيه اسلافنا ، وما اعتقدوه في الحياة والموت ؛ اولنستطيع ان نتصور كيف حاولوا تفسير اسرار هذه الدنيا والطبيعة في ما يتعلق بهم ، وما تزخر به من اشياء محيّرة مربكة ، خصوصًا اذا ما علمنا انه لم يكن لهم سبب واحد يحملهم على تدوين ما يختص باقتناعاتهم العميقة ، وتأملاتهم الخفية الغامضة . ولكنْ بإمكاننا أن نُمسك بالمفتاح الذي يزوّدنا ببعض المعلومات في ما يتعلق بمعتقداتهم ، وذلك من صناعاتهم ومنتجاتهم التي يكتشفها علماء الآثار هنا وهناك ، كالأصنام والمذابح والحجارة المنقوشة والملوّنة ، أوأيّ شيء آخر يعطينا مغزًى حقيقيًا لدين معيّن . هذا ، وإن لم يكتب الاقدمون شيئًا ، فبإمكاننا أن نجد المراجع بخصوصهم ، من خلال كتابات غيرهم ، ومَن عَرَفهم من الناس ، ولا سيما اولئك الذين كانوا يبادلونهم في التجارة ، أويحاربونهم . أحيانًا يمكننا أن نميّز أشياء كثيرة عن معتقداتهم ، من خلال العادات والتقاليد التي لا تزال حتى اليوم . وإذا تأمّلنا في ديانة الأمازيغيين القديمة نجد ، ولحسن الحظ ، بعض المفاتيح لفكّ لغزها بواسطة الأساليب الثلاث السالفة الذكر .

هناك شواهد واثباتات تدلّ على انهم تطلعوا بشكل خاص الى السماء ، مسكن الشمس بنورها ودفئها ، ومصدر المطر المحيي - والسماء بطبيعتها مليئة بالعجائب والروائع - والى النجوم المشرقة بلمعانها ليلاً ، والقمر الذي يُضيء بنعومة ورقّة ، والالوان السحرية لقوس القزح الذي ينشقّ متلألئًا من بين الغيوم بعد سكون العاصفة ، وكتل الثلج البيضاء الصامتة التي تنساق بغموض الى الارض ، والوميض المروّع الذي يبعثه البرق ، والتهديد المدمدم في قصف الرعد المزمجر . فليس عجيبًا أن تنشر السماء الرعب والخوف والعبادة في نفوسهم . وكثيراً ما نجد نقوشًا تمثّل الشمس في حجرات الموتى واقبيتهم ، وحتى على الصخور القائمة . وفي بعض الاحيان ، يُعبّر القدماء عن إله الشمس بشكل أسد ، شعر عنقه ملتهب ومتّقد اتقاداً . وكان هذا الحيوان معروفًا عند الأفارقة الشماليين قبل أزمنة الرومان وبعدها ، وهو لا يزال يظهر مراراً وتكراراً في حكاياتهم الشعبية . وتشير نقوشهم المحفورة ، وكلماتهم المنقوشة ، الى الإله « أيُّور » (Ayyur) أي القمر ، بلغة الأمازيغيين .

استمرت عبادة الاجرام السماوية خلال أزمنة التاريخ . فقد كتب لنا هيرُودُوتُس (Hérodote) في القرن الخامس قبل الميلاد ، أنّ الأمازيغيين ، قرّبوا في أيامه التَقدمات لكل من الشمس والقمر . امّا بليني الكبير (Pline l'Ancien) ، فقد أكّد لنا تقديم مثل هذه الذبائح في القرن الأول للميلاد . قال شيشرون (Cicéron) إنه عندما قابل الملك الأمازيغي ماسينيسا (أو ماسْنيسّنْ) الجنرال الروماني سْكيبْيُو(Scipion) في القرن الثاني قبل الميلاد ، صلّى الى الشمس قائلاً لها : «إني اقدّم شكري العميق لك ايتها الشمس المرتفعة ولسائر الآلهة ايضًا في السماء ، بسبب إتاحة الفرصة لي ، وقبل انتقالي من هذه الحياة ، أن أرى في مملكتي وتحت سقف بيتي كرنيليوس سْكيبْيُو .» [1] امّا ابن خلدون فقد ذكر أنّ الكثير من الأمازيغيين في القرن الرابع عشر بعد الميلاد ، كانوا لا يزالون يتعبّدون للشمس والقمر والنجوم .

وتتحدث السماء عن اسرار لا يمكن الوصول اليها . وكما فعل الانسان ، بتوجهه نحوالسماء ، هكذا ايضًا فعلت قمم جبال الأطلس التي نحتتها الرياح . ومن الممكن أن يكون هذا هوالسبب الذي جعل قمم الجبال تدفع الأفارقة الشماليين الى العبادة . ويخبرنا بليني الكبير «أنّ الليبيين يعتبرون الأطلس إلهًا ومعبدًا» . ولقد وجد علماء الآثار في الامكنة العالية بقايا المعابد الرومانية ، وهي مكرّسة لخدمة ساتورن (زحل) وعبادته . فقد بُنيت هذه المعابد ، في الواقع ، على انقاض مزارات الفينيقيين ، والتي كانت قد شُيِّدت هي أيضًا من حجارة معابد وثنية قديمة . ولكن حتى قبل هذا التاريخ ، وفي فترة العصر الحجري الحديث ، كان الامازيغيون ينقشون الرموز والصور على أعالي قمم جبال الأطلس والريف ، وفي الكهوف والمغاور ، وعلى الصخور التي تنذر مواقعها ومناظرها المشربة بالخوف ؛ وكأنها تراقبهم ، إمّا لمعاقبتهم وإمّا للتراؤف عليهم .

هل كانت هذه المناطق الصخرية مهبطًا « لأرواح الارض » التي كانت تدعى «جنون» (Jnun)؟ يظهر أنّ الأمر هوكذلك . ولا تزال ، حتى يومنا هذا ، تُقدّم تقدمات النذور والقرابين في أوان خزفية تُشابه الى حد كبير الأواني الفخارية لما قبل التاريخ ، اكتشفتها مؤخراً علماء الآثار ؛ ولا تزال الشرائط تُربط على الشجيرات الشائكة التي تستظل بها ارواح حرس الصخور التي كانت تُعتبر مقدسة ، وعلى الكهوف التي تأوي الاشباح ، وعلى الينابيع ، وعلى الاشجار القديمة الملتوية الكثيرة العقد والنتوءات والتحدّبات . إن أعمال العبادة هذه هي الشهادة لإيمان ثابت بالارواح المحلية ، ويتضح تمامًا أنّ هذا الايمان مستمر ودائم منذ ما لا يقل عن اربعة آلاف سنة . كان ينبغي استعطاف الأرواح المحلية قبل الحراثة ، اوقبل جني الاثمار ، اوقبل قضاء ليلة في المنطقة التي تحرسها هذه الأرواح . فإن أزعجت اوأغضبت ، فلا بد من أن يحدث لك المصاب ويأتيك البلاء ، لأنّك بهذا الازعاج اوالمضايقة اوالإغضاب ، تكون قد خاطرت بالتعرّض للعقاب المباشر ، كالعقم اوالعمى اوالجنون اوحتى الموت .

ونحن نعرف 52 اسمًا من اسماء هذه الآلهة المحلية . ولقد تعرّفنا بها بشكل واسع من النقوش والكتابات المحفورة ، أوالوقف الذي اوقف لهم ، اوالتكريسات التي كُرّست لهم في عهد الفينيقيين والرومان . ومعظم تلك الآلهة تحمل اسماء أمازيغية تُظهر انها كانت أرواحًا قادرة على ان تأتي بالامطار وتمنح الاخصاب ؛ ولكنّ نفوذ كل من هذه الآلهة مقتصر على منطقته الصغيرة الخاصة به . فمثلاً نفوذ هذا الإله اوذاك ، يقتصر على تلته الخاصة ، اوينبوعه الخاص ، اوحتى قريته الخاصة . كانت هذه الديانة هي الديانة النموذجية العملية للأمازيغيين القدماء ، وهي شكل من أشكال مذهب حيوية المادة (animisme) اوصيغة من صيغها ، تتشابه الى حد بعيد مع مذاهب حيوية المادة الاخرى التي وُجدت في اجزاء كثيرة من العالم .

كان على المسافر الذي ينتقل من مكان الى آخر ، وعلى التاجر اوالموسيقي اوالجندي ، أن يرضي اي روح يراقب أيّ موضع يؤمّه هؤلاء الرجال . فعلى المسافرين ، وبالاخص اولئك الجنود الأمازيغيين المسجلين في الجيش الروماني ، أن يعتنوا بطائفة من الآلهة المحلية بشكل جماعي ،

واسم هـذه الآلهـة دايْ مُووري (Dei Mauri) أي الآلهة الموريين ، وبعد ذلك يجب أن يتوسل اليها ويبجّلها مجتمعة ، لأنه بذلك يضمن لنفسه انه لم ينسَ أيًا منها . إنّ احدى اكثر التكريسات التعبدية المعروفة والمتكررة ، هي للإلاهة وارسيْسْم أوفارْسيسْما (Varsissma) ، واسم هـذه الإلاهة يعني في الحقيقة « إله بلا اسم » . والظاهر انهم كانوا يتلهفون كثيراً في استرضاء هذا الإله ، وجعله مسروراً ، تمامًا كما كان تلهّف اهل اثينا لعبادة مثل هذا الإله في أيام الرسول بولس[2] .

ومن الصعب أن نعرف تمامًا كيف كان يجري استرضاء هذه الآلهة المعبودة . ولكنّ رسوم الكهوف في العصر الحجري الحديث ، تشير الى أنّهم كانوا يسترضونها بذبائح الكباش والثيران التي يقدمونها كفدية عنهم . ولكن ، من المستحيل أن نعلم ما اذا كانت هذه الاضاحي اوالذبائح تقدّم لآلهة معيّنة لا نعلم شيئًا عن أوصافها . ولا يزال تقديم القرابين والذبائح الحيوانية موجوداً بين الأمازيغيين ، وهذه الذبائح تختلف عن تلك التي يقدمها العرب في الشرق الأوسط ، مع أنّها تتشابه كثيراً مع قرابين الفينيقيين وأضاحيهم .

هذا ما كان يختص بالاحياء ، ولكنّ الأمازيغيين لم يكن اهتمامهم بموتاهم يقلّ عن اهتمامهم بأحيائهم . كانوا يشيّدون القبور من قطع الصخور ، جاعلين هذه القبور تواجه الشمس . وكانوا يزوّدون موتاهم بالمجوهرات والاوعية الخزفية ، كما لوكان موتاهم سيحتاجون الى استعمال هذه الاشياء في الحياة الآخرة . أمّا القبور الأخرى ، فقد كانت تُطمر وواجهاتها الى الجرف ، وتُزيّن بالرسوم الملونة بصلصال أحمر . وتعود بداية تاريخ هذه القبور الى العصور الحجرية ، وقد استمرت حتى عهد الفينيقيين .

ويظهر أنّ الديانة العملية للأمازيغيين لا تختلف إلاّ قليلاً عن ديانة المتحدرين من أصلهم الذين يقطنون القرى في أيامنا . فمن ذلك الوقت ، وإلى اليوم ايضًا ، هناك اعتقاد قوي وفي كل مكان ، بوجود قوى فوق طبيعية حاقدة ، ولا تزال الرغبة مستمرة في إيجاد الحماية والوقاية من هذه القوى . ولم يجد الكثير من معتقدات الأفارقة الشماليين وعاداتهم مكانًا لها في الديانة المسيحية الصحيحة أوفي الاسلام . امّا بقايا هذه المعتقدات التي ما زالت موجودة ، فهي قائمة منذ العصور القديمة .

ويتضمّن استعمال « السحر الأسود » الكثير من الممارسات ، وهي ترتكز على افتراض أنّ الانسان قادر على كسب النفوذ على غيره ، سواء أكان ذلك على الانسان ، أم على الحيوان ، أم الاشياء ، وذلك بصنع نموذج للضحيّة التي يُراد انجاز طقس ما اوأي من الشعائر ضدها . وبهذا تُلزم الضحية على أن تتصرف بطرق خاصة معيّنة حسب ما تخطط لها ، أوتكابد قدراً اوقضاء معيّنًا . فمثلاً يمكن للمرء أن يربط عقدة في شريط او في خصلة شعر لربط مخططات الخصم وإحباطها ، أولإغلاق رحم امرأة عدوة . كما يمكن أن يؤدي إقفال نصل سكين الجيب الى عجز جنسي عند الشخص الذي يُكتب اسمه على هذا النصل .

كذلك كان الاعتقاد أنّه بالامكان التأثير في مسار الاحداث في العالم الخارجي وذلك من خلال ممارسة طقس محدّد ، كأن يُصار الى ارتداء الثياب بالمقلوب بقصد تغيير ظرف معيّن . إنّ شعائر الإخصاب الموسمي تضمن انتاجية مبدعة من المحاصيل والحصاد والقطعان . لقد تميّزت السنة الزراعية بإحياء احتفالات يُحرث فيها الشقّ الاول وتُجمع الحزمة الأولى من المحصول . كتب اغسطينوس وغيره من المؤرخين المعاصرين عن إحياء طقوس جنسية عربيدة متطرّفة ، « ليالي الخطايا » ، لحثّ آلهة أوأرواح الإخصاب ، آملين منها أن تنفح نشاطًا مشابهًا بين القطعان والمواشي .

ظهرت العادات والخرافات المتعلقة بسقوط الامطار تقريبًا في كل الأراضي شبه القاحلة بما في ذلك شمال افريقيا ، حيث يقوم النسوة بصنع دمى تمثّل « عروس المطر » ، تمامًا كما يفعل بعض الناس في بعض مناطق اليوم . وثم تُحمل هذه الدمى في موكب طقسي مصحوب بأغانيّ ودعاءات والتماسات مرفوعة الى السماء[3] . ومن عادات أهالي جزر الخالدات أن يضربوا مياه المحيط بالعصي ، وذلك محاولة منهم لإطلاق مياه السماء . وقد دان اغسطينوس هذه الممارسة الوثنية القديمة ، كما وبّخ اولئك الذين يستحمّون وهم عراة في يوم الانقلاب الشمسي الصيفي ، مؤججين بذلك شهوات مشاهديهم . وقد يبدوأنّ مثل هذه العادات قد ماتت ، إلاّ أنّ الأرضيات وعتبات الأبواب ما زالت تُرشّ بالماء في مواسم معيّنة ، وغالبًا ما لا تُرش اكثر من رشة رمزية ، إذ يبقى معظم الغبار غير ممسوس . هل المراد من هذه الرشة ان تبرّد الارض وتنعشها ، اوهل لهذه العملية دلائل اكثر عمقًا ؟

اعتقد الكثيرون ، منذ زمن الرومان الى يومنا هذا ، أنّ اقدارهم مسجّلة في النجوم . فهم يرجعون الى المنجّمين والعرّافين ليقرأوا لهم مستقبلهم في السماوات ، اوفي احشاء الحيوانات ، اوفي علبة ورق اللعب . فهم يريدون أن يعرفوا ، ويريدون أن يسألوا أيامًا ميمونة لأعراسهم اولرحلاتهم . كما يريدون أن يعرفوا هل بإمكانهم التعامل مع أناس معيّنين اوتجنبهم ، اوهل بإمكانهم الذهاب الى أمكنة معيّنة أم لا . إنهم يتساءلون ، وفي قلوبهم أمل لا يستند الى أي منطق ، عما اذا كان بإمكانهم الهروب من اقدارهم المحتومة اذا كانت سيئة ، أوانجاز عمل ما ، اذا كانت هذه الاقدار حسنة . فالخوف من « العين الشريرة » - اللعنة التي يطلقها عدوحسود - تعود الى ما قبل العهد الزوماني . والشيء عينه ، ينطبق على الاعتقاد أن الافراد ، اوحتى الاشياء التي لا حياة فيها ، يمكن أن تكون مستودعات للقوى الروحية أو «للبركة» . لقد استُعملت المياسم الحديدية الملتهبة ، كما اليوم ، لشفاء اوجاع الرأس ، ولمعالجة سوء التصرّف كالإدمان على السكر والسرقة مثلاً .

وقد كان للرقم خمسة ، ولرمز العين المفتوحة ، وللرمّانة المرسومة ، معان معيّنة ومغزى سحري ، ونحن لا نزال الى اليوم نلمسها ونراها في افريقيا الشمالية . هذه المعتّقدات والرموز كلها كانت تتزامل مع الإلاهة الفينيقية تَانيْت ، التي تترافق بدورها مع القصد من وراء رسم اليد المفتوحة التي نشاهدها ، بشكل كثيف ، علَى الابواب الخلفية للشاحنات . وهي تُرسم ايضًا على

عضادتي الباب (جانبي الباب) ، كما تُصنع ببراعة من المجوهرات ، وهي تُعرف عموماً باسم «يد فاطمة الزهراء » (ابنة محمد) أو« الخميسة » . ورمز اليد المفتوحة غالبًا ما يُعتقد أنه مستورد من العرب ، والحقيقة أنها أقدم من ذلك بكثير ، إذ وُجدت أيضاً في البقايا الفينيقية في قرطاجة ، وفي أماكن أخرى [4] . كانت الضرائح والمواضع المقدسة في أزمنة الرومان تُبيّض بالكلس ، وما زلنا حتى هذا اليوم نرى قبور رجالات المسلمين ، من أولياء وأئمّة ، وهي مطلية بالكلس المطفأ ، وكذلك على الصخور المفردة والمعزولة ، والاشجار ، وعلى عضادات الابواب وأُطُر الشبابيك والبيوت . إن هذا التجصيص لايعدوكونه بعض اللطخات على الجدران الخارجية للبيت . فهل المقصود أن يكون التجصيص لغرض التزيين فقط ، اوان لهذا العمل معنى آخر اوغرضًا آخر ؟ ان الذين يمارسون مثل هذه العادات في أيامنا ، غالبًا ما يجهلون أية معاني كانت لها في الأصل .

لا يزال الناس ، وبخاصة النساء ، يلبسون التعاويذ ، كالعظام والصَدَف الأصفر ، حيث يعتقدون أنّ مثل هذه التعاويذ تمنحهم الأمانة والضمانة ضد العفاريت او الجن والعيون الشريرة ، وتبعد عنهم الحظ السّيء . لقد كتبت الرقيّات السحرية على الأوراق وعلى العظام ، وفي عدّة أحيان كانوا يغسلون الحبر الذي استُعمل في كتابة الرقية والتعويذة ويشربون الماء الممزوج بالحبر . وكذلك ، ففي احيان اخرى كانوا يدفنون الورقة اويحرقونها في المكان الذي يتأكدون فيه من أنّ الضحية المقصودة ستستنشق دخان هذه الاوراق المحروقة . وغالبًا ما يصنعون أكياساً صغيرة من الجلد فيضعون فيها التعاويذ والحجاب اوأيّ شيء صغير فيه قوّة سحرية ، ثم يعلّقون هذه الأكياس في رقابهم ، اومشكولة في صدورهم اوأيّ مكان آخر في اجسامهم . ثم راحوا لاحقًا يستعملون الآيات القرآنية ويكتبونها على تعاويذهم ، اويصفّون رموزاً وكتابات عربية منظّمة بعيّنات واشكال سحرية ،كما أنها ما زالت تُكتب بالحروف التيفيناغية (tifinagh) القديمة ، بصيغتها المحرّفة تماماً ، مما يوحي لنا بأنّ اصل هذه الكتابات والتعاويذ يعود الى ما قبل التاريخ الإسلامي[5] . وكان للنباتات الطبية آنذاك شعبية واسعة ، لم تضعف حتى في ايامنا هذه . إنّه ليس من السهل اطلاقًا ، في بعض الاحيان ، أن نرسم خطًا فاصلاً اومتميزاً بين العلاجات الشعبية وممارسات السحر الأسود في استعمال الاعشاب والمواد المعدنية والحيوانية[6] .

هذه هي معتقدات الأمازيغيين القدماء والتي تتجذّر في الماضي حسب ما نعلم ، وصولاً ربما الى العصر الحجري . وهي من بعض جوانبها مستمرة حتى وقتنا الحاضر . الى ذلك ، فإنّ بعض الممارسات الأخرى قد فرضت نفسها خلال القرون التالية . لقد جلب الفينيقيون معهم ، منذ العام 1000 قبل الميلاد والى ما بعده ، بضائعهم التجارية ومحاصيلهم ، ومجموعة من الآلهة الجديدة الى افريقيا الشمالية . وقد تبنّى اهالي افريقيا شكل ديانتهم ، الى جانب التقاليد والاعراف المتعلقة بمذهب حيوية المادة . فتمّ نقش الاصنام والصور والايقونات الخاصة بآلهة الفينيقيين بنحت نافر خفيف على سطوح الصخور ، اونُصبت على أعلى الصخور لعبادتها . وقد ترافق مع هذه الاصنام والايقونات المحفورة في بعض الاحيان ، كلام منقوش بالحروف التيفيناغية ، لكنّ النماذج المتأخّرة استعملت الابجدية الفينيقية واللاتينية . كان

لبعض هذه الاصنام اشكال بشعة . ونحن نجد ان ترتوليانوس يؤنّب معاصريه في القرن الثاني بعد الميلاد بسبب عبادتهم التافهة العقيمة للخشب والحجر . وفي القرن الرابع للميلاد ، بقي شعب تيْپاسَا (Tipasa) يتعبد بحماسة شديدة للحية البرونزية العظيمة ذات الرأس المطلي بالذهب .

امّا بَعْلْ آمُونْ ، فهوإله الشمس ورئيس الآلهة عند الفينيقيين . كان إلهًا هامًا في مناطق البحر الأبيض المتوسط كلّها ، وبخاصة المدن . وبالرغم من الطقوس القاسية والفظّة لعبادة هذا الإله السامي ، قَبل الأمازيغيون عبادته بسرور وعن طيب خاطر . ويبدوأن عبادة رئيس الآلهة هذا قد مسّت وترًا حَساسًا في قلوب الأمازيغيين ، إذ توافقت مع شعور كان عندهم بوجود مثل هذا الكائن العظيم الذي يقف على رأس كل الآلهة المحلية والأرواح الأخرى . كما يظهر أنه قد تكوّن عند الأمازيغيين مَيْلٌ الى الاعتقاد بوجود إله سامٍ يتصدّر كل الآلهة في الوقت نفسه الذي كانوا يتفاعلون فيه مع قوى أقل منه شأنًا وفي متناولهم . وقد اكتشف علماء الآثار أوقافًا كثيرة كُرِّست للبعل ، وفي ما بعد ، لنظيره الروماني ساتورن (زُحَل) ، والتي تعود الى ما قبل دخول المسيحية الى شمال افريقيا 7 .

وفي ما بعد ، وجد اليهود والمسيحيون أنّ الأمازيغيين يتجاوبون بشكل خاص مع إيمانهم بالإله الواحد ، كما أن هذا الأمر يصحّ أيضًا على المسلمين لاحقًا . ولربما كان اليهود ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد وما بعده ، اول من قدّم فكرة وجود الإله الواحد الكلّي القدرة ، ولكن يبدوأنّ اليهود لم يضيفوا بذلك سوى أبعاد جديدة الى مفهوم كان موجودًا ، ولكن بشكل مبهم8 . وفي القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد ؛ أشار بعض شيوخ الاسلام ، الى وجود الإله الأوحد باسم «ياكُوشْ » أو« يُوشْ »9 . فهل لا يزال هذا الاسم حيًا بين ذوي الأصل الأمازيغي منذ ماضيهم الغابر ؟ اوانه لم يُعرف عندهم الا حديثًا ؟ نحن لا نتمكن من الاجابة عن هذا السؤال ولكن يبقى من الحقائق المحيّرة وجود آثار تدل على الإيمان بالإله الواحد ، ليس هنا فقط ، بل في أماكن معزولة في جميع أنحاء المعمورة ، وعند شعوب وأجناس لم يكن لها احتكاك بأية حضارة ، ويظهر أن هذا اعتقاد عفوي بوجود إله سامٍ قصي غَطّت معالمه الممارسات الطقسية وعبادة الأرواح المحليّة وأرواح الأسلاف .

فهل يمكن القول إنّ هذا الإدراك للّه الأسمى ، الكوني والشامل هوعلامة من علامات الأصل المشترك الأوحد للبشرية جمعاء ، ومشابهة الأقدمين في صفاتهم ، والذاكرة المنتقلة من جيل الى جيل والتي ترجع الى أقدم أسلافنا ، الى نوح وحتى الى آدم قبله ؟ فبعض الأساتذة العلماء يلمّح بجدية الى ان هذا هوواقع الانسان10 . أوهل يتجدّد ببساطة ، عند كل جيل ، الشعور بأن الطبيعة بجمالها وبتعقيداتها المذهلة ، لا بد من ان تكون قد صُممت بعقل جبار عظيم؟ ناهيك بالانسان بحد ذاته – فهناك الكثير الكثير من الامور المدهشة حقًا فيه – النظر ، السمع ، التفكير ، الكلام – اليست هذه كلها أمورًا مدهشة محيّرة ؟ اوهل يمكن القول إنّ البشرية انبثقت من طريق الصدفة ، وجاءت من اللاشيء ؟ ولكن الحقيقة الواضحة هي انه لا يمكن أن

يخلُقَ الانسانَ الاّ كائنٌ اعظم منه وأكبر ؛ كما أن الكائن العظيم الذي هوأطهر من بني البشر ، وحده يقدر أن يُلهمهم بهذه الأشواق المجيدة المقدسة التي يختبرونها في أفضل لحظات حياتهم وأحسنها .

وبالطبع فاذا ما وعى الامازيغيون هذه الامور ، سيجدون في هذه الحال ، أنّ عبادة بعل آمون لا يمكن ان تكون الاّ عبادة مخيّبة للآمال وفاشلة ، اذا ما قورنت بجمال العالم الطبيعي ، وبنبل أقدس المُثُل الإنسانية . إنّ عبادة البعل ورفيقته تانيت هي عبادة موسومة بقساوة ممرضة ووحشية تقزز النفس . كتب جيمس فرايزر (James Frazer) في كتابه «الغصن الذهبي» (Le Rameau d'or) ، وهويصف التضحيات البشرية في معبد تانيت بتفصيل مؤلم بغيض ، حيث ذكر عن الاولاد الصغار كيف كانوا يوضعون على يدي الصنم المنحدرتين ، فينزلق الاولاد المساكين من هناك ليسقطوا على فرن ساخن ملتهب . وفي هذه الاثناء « يرقص الناس على أنغام الموسيقي والنفخ على المزمار ، وهم يقرعون على الدفوف الصغيرة ، ليحجبوا صرخات الضحايا المحترقة وعويلهم » . وكانوا يمنعون الابوين من إظهار الحزن والأسى خلال عملية التضحية بهؤلاء الاطفال . وقد وجد علماء الآثار بقايا هؤلاء الاطفال المتفحمة في قرطاجة ، وهي تعود الى القرن السابع قبل الميلاد ؛ وتتراوح اعمار هؤلاء الاطفال بين حديثي الولادة الى 3 سنوات ، فضلاً عن انهم وجدوا براهين اخرى تثبت هذه العبادة البشعة . وقد ظهر انه بحلول القرن الثالث قبل الميلاد ، استُبدل كبش أوثور بالأطفال ، وكان يتمّ ذلك ، على الاقل ، بالنسبة الى العائلات الغنية الموسرة .

اندثرت عبادة الآلهة الفينيقية وماتت ، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك منطبقًا على ممارسات مذهب حيوية المادة التي سبقت هذه العبادات زمنيًا . ويشهد ما تبقّى من هذه المعتقدات القديمة والخزعبلات ، على الأهمية والمعنى العميقين اللذين حملتهما ممارسة مذهب حيوية المادة هذه الى تلك الارض . وقد تلاقت ممارسات هذا المذهب مع حاجات عميقة عند مشاعر الانسان في تلك البقعة من العالم . كما كانت محاولة ذكية من أناس مرهفي الاحساس ليسيطروا على عالم معقّد ومخيف .

في القرن الاول للميلاد ، كان هناك عدد وافر من الأمازيغيين يعيشون في المدن الساحلية المتنامية للبحر الابيض المتوسط . فتزاوجت عائلات أمازيغية كثيرة مع المسؤولين والاداريين الحكوميين الرومانيين والتجار ، كما كانت لهم معاملات يومية معهم في اعمال السوق وعلى المرافىء . كذلك استمعوا الى الانباء والاخبار المتداولة بين الناس ، واقتنعوا بمعظم الافكار الحديثة التي انتشرت في الامبراطورية . كما أن ابناءهم الطموحين تعلموا اللغة وحوافز الثقافة والحضارة الرومانية واليونانية . وقد ناقشوا مع المعلمين المثقفين ، الافكار الفلسفية العميقة لليونانيين ، وتأملوا الشروح والتفسيرات الرياضية للألغاز التي كانت حتى ذلك الوقت غير مفهومة . لقد دخل الأمازيغيون الى العالم الأوسع لبلدان البحر الابيض المتوسط ، وبحثوا بحوثًا فكرية عقلانية كانت معروفة سابقًا ، وبدأوا هم أنفسهم في البحث والتنقيب في

المفاهيم الاكثر عمقًا لمعرفة ما هومتراكم من علوم ومعارف حتى ذلك الحين . فماذا كانت يا تُرى الافكار التي بحثوها بعضهم مع بعض ، وفي مدارسهم الادبية وفي فناءاتهم وساحات دورهم المظلّلة لداراتهم المصقولة بالقرميد الاحمر ؟

لم يكن الناس الذين يعيشون في السهول والتلال ، والذين يدينون بمذهب حيوية المادة ، هم الوحيدون الذين كانوا يرون انه لا بدّ من وجود إله أسمى يزداد شموخًا وسمواً عن تلك الآلهة ذات القوة الادنى ، إذ إنه كان هناك في الوقت نفسه مثقّفون رومان قد توصّلوا الى مثل هذا الاتجاه ايضًا . كما كانت هناك في الواقع رغبة ملحة ، خلال العصور الأخيرة للوثنية الرومانية واليونانية ، في التواصل مع الإله الواحد الموجود قبل كل الاشياء والمخلوقات . هذا ، وقد أصبحت الآلهة الاسطورية الخرافية القديمة تُهمَل باطّراد . وعلى الرغم من ذلك ، فإنّ المجتمع الانساني كان وما زال لديه احترام لما هو فوق الطبيعة . فالفلاسفة تمكّنوا في الواقع من ممارسة نفوذ على الناس يفوق نفوذ كهنة روما الوثنية . ويعود الفضل لهم في إيقاظ الرغبة والاشتياق الى المناقبية والكمال الاخلاقي ، وهم الذين ألمحوا الى وجود «المحرّك الاول » و « العلة الاولى لكل الاشياء » . لقد آمن الناس ان هناك إلهًا في مكان ما أوفي الأعالي وهوإله غير منظور ، والذي لا بد من ان يكون هومن خلق العالم . ولم تكن مشكلة هؤلاء الناس الا معرفة طريقة الاتصال بهذا الإله .

في هذه الاثناء كان سكان المدن الذين كانوا ما زالوا يعبدون الآلهة القديمة على مضض ، يقرّبون التقدمات للإله زحل (Saturne) اولأحد الآلهة الاخرى ، كعطارد (Mercure) ، إله الفصاحة والمهارة ، والمريخ (Mars) وهوإله الحرب ، والزهرة (Vénus) وهي إلاهة الحب والجمال ، ونبتون (Neptune) وهوإله البحر ، وهلمّ جرا . وهناك آخرون عبدوا آلهة «الديانات السرية » . وقد سُمّيت بالديانات السرية لأن شعائرها لم تُكشف إلاّ لأعضائها . وقد تضمّنت هذه العبادات والمذاهب آلهة غريبة ، نصف بشرية ونصف حيوانية ، فضلاً عن قصص اسطورية خرافية عن أعمال هذه الآلهة كانت تترافق مع هذه العبادات ، ولربما كانت عبادة الإله مثْرا (Mithra) هي الاكثر شعبية ، حيث كان اتباعها المتعبّدون يستحمون بالدم الذي يهب الحياة ، مِن ثور يُذبح بأسلوب شعائري . وكان موت احد الآلهة وقيامته امراً شائعًا بين معظم هذه العبادات والمذاهب ، وأحيانًا تكون هذه الآلهة ازواجًا : ذكراً وأنثى ، يموت الاول ويساعده الآخر في عملية قيامته . ويتزامن الموت والحياة عادة مع الاعتدالين الخريفي والربيعي ، ويرمز ذلك الى موت السنة الفائتة وولادة السنة الجديدة . ويحاول المتعبّدون ، من طريق الاحتفال بالعيد والمسكرات وطقوسهم الجنسية ، أن يؤكدوا خلودهم الخاص وخصوبة ارضهم وانتاجهم الزراعي . إلاّ أن الكثيرين لم يكونوا مقتنعين بكل هذا . وبدأوا يشعرون بأنّ هذه الفظاظة والخشونة لم تكن متوافقة مع ظواهر العجائب المهيبة والجليلة التي يشعرون بوجودها في الطبيعة المليئة بالقداسة وفي الكون بأسره ، كما رأوا أنّ قصص الآلهة تحمل علاقات صغيرة تافهة عند مقارنتها

بقوى الخير والشر التي تبيّنوها في قلب الانسان والعالم من حولهم ، حيث أنّ تصرفات الآلهة لم تكن أقل قسوة وظلماً وإباحية من قسوة الذين يعبدونها وظلمهم وفسادهم .

إن أكثر ما أربك الناس في العصر الروماني هوأنّ الفناء يحيق بكل شيء ، وقد تملّك الناس شوق غامر الى الحياة الابدية والخلود . وظهر لهم آنذاك أنّ جميع الاشياء من حولهم محكومة بحتمية الاضمحلال والانقراض . لم تكن الاشياء الجميلة تدوم مطوّلاً ، فالدمار كان قدراً لا مناص منه لجميع البشر . كما كان هناك اشتياق عظيم في قلب كل رجل وامرأة الى الانتصار على العدوالقديم ، الموت . وكان الجميع يتوقون الى حياة تستمر ما بعد القبر ، والى حفظ كل ما هونبيل وصادق . ولم يستطع الفلاسفة كأفلاطون وغيره أن يعطوا سوى جواب غامض للأسئلة التي كانت تقض مضجع الناس . فقد اعطت الديانات السرية املاً اكبر ، لكنها كانت متنوعة وكثيرة العدد . ومن الواضح أنّ هذه التعددية تُظهر للعقلاء والاذكياء ، أنّ الديانات ما زالت تتحرك في غسق من التخيلات الاسطورية الخرافية ، ولا تسير اوتتحرك في نور النهار الواسع المتوكيء على الحقائق الوطيدة . كانت قلوب الناس جائعة ، وهي تصرخ مستغيثة تطلب رسالةً لأمل متجدد وأكيد . لذلك ، فعندما وصلت هذه الرسالة ، التي تعطي الامل والرجاء ، اوصلت الى الناس انفراجًا عظيمًا واطمئنانًا كبيراً ، ولا سيما لأولئك الرجال والنساء المخلصين ذوي التفكير العميق ، سواء أفي مدارس المدن ودورها أوفي القرى الريفية المسكونة بالأرواح [11] .

ها قد وصل بعض المسافرين وهم يجوبون الشوارع والطرقات والاسواق يتحدثون بثقة شهود العيان ، أوثقة أناس كانوا قد تقابلوا حديثًا مع شهود عيان واستفهموا منهم . لم يكونوا يتحدثون عن نظريات غامضة مبهمة أوعن آلهة اسطورية خرافية ، بل عن حقائق ثابتة . كانوا يتكلمون عن احداث وقعت حديثًا ، وفي مواقع وأمكنة مميزة معروفة ، وفي اوقات محددة يعرفها الكثير من الناس . لقد جاء هؤلاء بأخبار عن فيلسوف عظيم جديد برهنت حكمته العجيبة ومبادئه الأخلاقية الرفيعة على قوّته المدهشة في تطهير الضعفاء والأشرار عن تفوّقه على كل معلّمي العصور القديمة . وكان يتحدّث عن الإله الواحد الحقيقي ، خالق كل شيء ، وكأنه يعرفه معرفة شخصية . وقضى أيّامه في وسط الزحمة الصاخبة والمزعجة لأناس كثيري الطلب . وقدّم العون والراحة بكل لطف وحنان لكل من جاء إليه . وقد جعلتهم شخصيته وحياته ينظرون إليه كفيلسوف كامل . وتحمل حسد الأشرار ومكرهم بكل صبر . وبعد ذلك أدهشهم إذ أنجز أمام أعينهم القصة القديمة التي تحكي عن الإله الذي مات وقام ، تلك القصة التي لم تعد الآن مجرد حكاية خرافية ، بل حقيقة معترف بها . وإذ حقد الناس عليه جوراً ، وحُكم عليه بالموت على يد القادة اليهود ، قام هذا الرجل البار الصالح من القبر . لقد أنجز في الواقع كل ما كان الآباء يتصوّرونه في مخيلتهم . كما كانوا متيقنين بأن التضحية بحياته البريئة لم تكن مجرد حركة تقوى لا جدوى منها ، إذ بموته حمل في جسده الحكم الإلهي على خطية العالم ، وحرر سكانه من عقوبة الموت وجهنم التي كانت تتهدّدهم . وبعد ذلك سبقهم إلى مملكة السماء حيث الحياة الأبدية . وكان

اسم هذا الشخص الفريد الجليل : «الرب يسوع المسيح» . لقد كانوا يدعون سامعيهم قائلين : «آمنوا به تتغيروا جذريًا وتجدوا حكمته العجيبة ونقاوته الروحية في قلوبكم ، وستشتركون في نصرته على الموت وتدخلون خلوده الأمجد .

كان لهذه الأحداث الهامة صدى عميق في إيقاظ الاهتمام الواسع لسكان المدن الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط وساحل افريقيا الشمالية . ولكن ، ماذا عن اولئك الذين يعيشون في المناطق الداخلية ، والذين لا يعرفون شيئًا عن هذا البحث الفلسفي المتعلق بالخلود وبالحياة الأبدية ، ولا عن المُثُل الاخلاقية للمفكرين الإغريق ، اولئك الناس البسطاء الذين ظلّوا تحت عبودية الارواح التي كانت تحتل الصخور والينابيع الموجودة حولهم ؟ فماذا تعني أخبار الانجيل لمثل هؤلاء الذين يعيشون في القرى والأرياف ؟

إنّ الرسالة التي حملها إليهم المسيحيون الاوائل ، كانت حسب اعتقادنا ، الأكثر تأثيرًا وتشويقًا . لقد اعلن الزوار الذين جاءوا الى المنطقة انهم قابلوا المنقذ الكامل القدرة ، الذي ارسله الله الواحد السامي ، صانع الارض والسماوات وكل الاشياء التي تُرى والتي لا ترى . وقد بيّن هذا الشخص السماوي قدرته الكاملة التي تتحكّم في الرياح العاتية والأمواج الصاخبة ، والأمراض والأسقام والموت . لقد كانت تفرّ من أمامه أكثر الأرواح النجسة جنونًا ، كما كانت سلطته على قوى الظلمة مطلقة . كانت تلتف حوله الجماعات وتصرخ فرحةً كلما حرّرها من قيود الجسد والنفس . ولكن بعد ذلك بدا وكأنّ قوى الشيطان قد قامت أمامه وأخذته وضربت جسده وعلّقته على خشبة تحت أشعة الشمس ليموت . فوُضع في قبر يشبه دهليزًا داخل تل صخري ، ودُحرج حجر كبير على المدخل لإغلاقه . إلاّ أنّ القوى الشريرة لم تستطع أن تُسكت هذا الشخص . فبعد ثلاثة أيام ، قام من الموت ، وخرج من الكهف ، ورآه مئات من الناس حيًا قبل صعوده بجلال ملوكي إلى السماء الزرقاء فوق مدينتهم .

ماذا يعني كل هذا ؟ انه يعني تحررًا مجيدًا رائعًا من عبودية قوى الظلام ، ويعني ايضًا ان السلام أصبح الآن متوافرًا للتوّاقين اليه . ففي حياته ، حرر المسيح الناس من الامراض والخوف وتأثير الأرواح الشريرة ؛ وفي موته ، حمل المسيح آلام العالم الفاسد والمنهار ؛ وبقيامته سحق قوى الشر وهزمها الى الابد . والآن ، راح هؤلاء المسافرون الشجعان يصرّحون بأن هذا المنقذ العظيم هوحي ، وروحه النقية القوية لا تسكن الصخور ، اوالكهوف ، ولكنها تسكن فينا نحن المؤمنين به . وأضافوا أنه إذا ما دعوتموه طالبين إنقاذه وخلاصه ، وواضعين ثقتكم الكاملة به ، تستطيعون أن تجدوا ملاذًا أكيدًا لكم ، وتضمنوا حماية كاملة في اهتمامه ورعايته المُحبّة لكم جميعًا . وفوق كل هذا وذاك ، لا داعي للخوف في ما بعد من الأرواح الشريرة ، ذلك لأن الروح الأكبر هو صالح صلاحًا كاملاً وقدّوس قداسة كاملة . وكل من يؤمن به ، يجد أمامه حياة جديدة مفعمة بالرجاء والسلام والحرية . كانت هذه هي الرسالة التي جاءوا بها .

ملاحظات

1- اقتبسها Camps p. 200

2- أعمال 23:17

3- Laoust pp. 202 - 255

4- Moscati pp. 179 - 180

5- (Akhmisse pp. 43 - 44)

6- يقدّم لنا Hart, Camps و Coon بحثًا أشمل في الديانات الشعبية الحديثة في إفريقيا الشمالية . كذلك يعالج Camps ايضًا بشيء من التفصيل عدة أوجه من الوثنية القديمة في إفريقيا الشمالية .

أمّا Servier (pp. 465 - 468) فيذكر معتقدات تقليدية مماثلة في أوروبا الجنوبية مؤكداً بذلك أن نظامًا دينيًا متجانسًا هوالذي كان سائدًا في القديم في بلدان البحر الأبيض المتوسط . راجع ايضًا :

Rachik; Akhmisse; Laoust;

ed. Camps, *Encyclopédie Berbère* (amulettes, animisme, arbres sacrés etc.)

7- Frend pp. 77 - 79 ; Camps p. 215

8- درجت العادة أن يخاطب الأمازيغيون الله اذ يدعونه « ربِّي » (Rebbi) ، لكن أصل هذه التسمية يبقى غير واضح . وبما أن المسلمين العرب يشيرون عادةً الى الله بالعبارة « الله » ، قد يقود ذلك أحدنا الى الاعتقاد ان التسمية « ربِّي » تعود الى ما قبل الإسلام . كما أنه من الممكن جداً أن تكون قد نتجت من تأثير يهودي قديم . بالمقابل ، إن الكلمة العبرانية « رابّي » تفيد معنى « سيّدي » ؛ إلاّ أن الكتاب المقدس يستخدم هذه الكلمة دائمًا بالإشارة الى الناس ، لا الى الله . وعليه ، قد نحتاج أن نبحث عن أصل « ربِّي » في تلك اللغة السامية الأخرى البونية (Punique) ، أوالى عوامل لغوية سامية أقدم ، أثرت في تطوير اللغة الأمازيغية نفسها . وهكذا فإن التسمية « ربّ » بمعنى سيّد ، المستخدمة من وقت الى آخر في القرآن ، قد تعني بالنسبة الى الأمازيغيين أكثر من الكلمة المستحدثة « الله » ، الأمر الذي دفعهم الى تسمية الله بشكل عام « ربِّي » .

9- Norris p. 6 . « يقترح G. Marcy أن « ياكوش » قد يكون مشتقًا من اسم يسوع . » (*Encyclopédie Berbère* p. 431 f) . لكن هذا الأمر يبدو قليل الاحتمال الى حدّ ما . ومن الممكن ايضًا أن يكون «ياكوش» مشتقًا من فعل في اللغة الأمازيغية بمعنى « يعطي » . وعلى هذا الأساس ، يُعرف الله بأنه « المعطي » . ومن الصيغ الأخرى لهذا الاسم نذكر : « يوش » ، « أيّوش » ، أو« أغُّوش » (Aggouch) .

. (Ouahmi Ould Brahim; Aherdan p. 63)

في القرن التاسع عشر ، كان التُّوارك (Touareg) ساكني الصحراء ، يدعون الله «أمَانَايْ» أو «أمَنَاي مَقّارِنْ» ، وأحيانًا «مَسِيْ» (Norris p. 228) . إلاّ ان هذه الكلمات كانت مشتقة على الأرجح من جذور لاتينية وعبرانية (مَسِي = المسيّا = المسيح) .

10- Custance, DP. 34; Richardson pp. 50, 51

« وبالعودة الى أقدم الشعوب - البِغْمِيُون في إفريقيا ، أوهنود كاليفورنيا الوسطى - لقد كان عندهم جميعهم إله واحد ، "إله السماء الأسمى" ، كانوا يأتون بتقدماتهم أمامه . » (Schmidt ، اقتبسها p. 21 Custance) « كلّما كان من الممكن تعقّب المراحل الأولى للإعتقاد بتعدّد الالهة ، نجد أنه ينتج من ضمّ عدة معتقدات توحيدية بعضها الى بعض . ففي مصر ، حتى أُوزِريس (Osiris) ، وإيزيس (Isis) ، وهُورُس (Horus) ، التي طالما اشتهرت كمجموعة ثلاثية ، كان لها في البداية وجود كوحدات منفصلة في أماكن مختلفة : إيزيس كالإلاهة عذارء ، وهورس كإله موجود بحدّ ذاته . » (Petrie ، اقتبسها p. 10 Custance) .

11- Frend pp. 94 - 111 « لا يمكن قهر الأرواح الشريرة إلاّ بواسطة معرفة سرية يحصل عليها الناس من منقذ برهن أنه أقوى من الموت . إن مفتاح الخلود كما هومعروض . . . في المسيحية ، تمسّك به بثبات العديدون من الذين كانوا يشعرون بأن مخاطر شيطانية ، لا سلطة لهم عليها ، كانت تُقلق حياتهم . » (Frend pp. 94 - 95)
إن موضوع عبادة الأوثان في عهد الرومان ، يتناوله كل من : Bainton pp. 71 - 112 ؛

Foakes - Jackson pp. 180 - 197 ; Green pp. 134 - 199 .

الفصل الرابع

الأخبـار الســارة

كان التجّار القادمون من الشرق ، يمرّون عمومًا على موانىء شمالي افريقيا خلال مراحل أسفارهم البحرية الطويلة ، وهم متوجّهون الى الغرب نزولاً ، بمحاذاة حوض البحر الابيض المتوسط . وغالبًا مـا تكون مراكـب الشحـن محمّـلةً بالبضـائـع التجاريـة المستـوردة من قبـرص واورشـلـيـم ودمـشـق والاسكندرية ، فضلاً عن نقل عدد كبير من الركاب المسافرين . وقد حدّثنا سفر اعمال الرسل ، أحد أسفار الكتاب المقدس ، عن ذلك لدى ذكره رحلات بولس الرسـول التبشـيريـة . ولـم يكـن المسـافـرون مـن التجـار فحسـب ، بـل مـن المسؤوليـن الرومـان الرسميين وإدارييهم أيضًا . والسبب في وجود هؤلاء الرسميين في سفن الشحن هوأن المرور عبر هذه المعابر الضيّقة ، من عاصمة الامبراطورية الى مدينة قرطاجة ، لا يستغرق أكثر من ثلاثة ايام .

ويعود تاريخ هـذه الطرق التجارية البحـريـة الـى زمـن الفينيقيين . وخلال القرنـين الاول والثاني للميلاد ، كانت هذه الطرق معروفة وكثيرة الاستعمال . كان ساحل افريقيا الشمالية المأهول بأجناس متعددة من البشر واسعًا ، وكان في مقدور المسافرين ان ينتقلوا بسهولة ويُسر . وهـذا مـا شجـّع مسيحـيـي فلـسطـين وجنوب اوروبا على أن يطلبوا الارشاد الإلهي ، وهم متحمسون لإيمانهم الجديد ، ومتحرّقون شوقًا لمشاركته مع هؤلاء الأجناس .

والواقع أنّ عدداً من الأفارقة الشماليين كانوا هم ايضًا قد وجدوا هذا الطـريـق المبـهـج السعيـد . فبعض الليبيين الذين تهوّدوا ، وكذلك بعض المستوطنين اليهود في ليبيا ، كانوا حاضرين يوم الخمسين في بداية تأسيس الكنيسة المسيحية ، ووقفوا مع الحشد الذي كان يستمع الى بطرس الرسول وهويبشر الناس ببشارة الخلاص للمرة الاولى . ومما لا شك فيه أنّ بعض الأفارقة الشماليين كانوا في عداد الثلاثة الآلاف الذين آمنوا بالمسيح في تلك الأيام [1] .

وحتّى قبل هذا التاريخ ، كنّا نلتقي سمعان الذي قَدِمَ من كوريني ، وهومرفأ بليبيا ، قرب المدينة المعروفة اليـوم ببنغـازي ، وهوالذي حمل صليبَ المسيح . ومن المرجح انه صار من المؤمنين ، إذ إنّ ولـديـه الكسنـدرس وروفـس أصبـحا في مـا بـعـد معـروفين بين الأصحاب الذين كتب لهم مرقس الإنجيل [2] .

لقد التقى بعض الكورينيين من « مجمع الليبرتينيين » استفانوس ، وذلك بعد صلب المسيح

ببضعة أسابيع ، فكان هذا اللقاء من اللقاءات البارزة ، ذلك لأنهم « لم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلم به . » [3] وبعد أيام قليلة سمعوا استفانوس يشرح بقوة كتابات العهد القديم ، كما عاينوا استشهاده . هذا مع العلم أنه كان من بينهم شاب يُدعى شاول الطرسوسي . وبعد فترة وجيزة ، نقرأ مرة أخرى ، عن أناس من كوريني وقبرص آمنوا بالمسيح . وهم لم يكتفوا بصيرورتهم مسيحيين مؤمنين ، بل انطلقوا للتبشير بإنجيل المسيح بين الأمم ، لا بين اليهود فقط . كما ذهبوا الى « مدينة انطاكية وتحدثوا هناك مع اليونانيين وبشّروهم بالرب يسوع المسيح .» [4] كانت كوريني مدينة هؤلاء القوم ، مرفأً نشطًا ومزدهرًا ، يلتقي فيه اليهود والفينيقيون والأمازيغيون في بوتقة واحدة ، الى جانب العديد من زوار منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط . بما أنّ بواكير المؤمنين الأفارقة كانوا يختلطون مع أناسٍ من خلفيات مختلفة ، فإن هذا ساعدهم كثيراً ، ولا شك ، في تعاطفهم مع كل من كان يُقيم بيّن ظهرانيهم . وكانوا أول من أوصل رسالة الخلاص الى أمم تختلف عن أمّتهم . وقد وُجدت مقابر المسيحيين الاولين في كوريني بين مقابر الجماعات اليهودية ؛ وهذه شهادة أكيدة على أن هؤلاء المؤمنين الليبيين ، عادوا الى إفريقيا الشمالية من أورشليم ، حاملين معهم إيمانهم الجديد [5] .

في هذه الأثناء ، كانت رسالة الخلاص في المسيح تنتشر في كل الاتجاهات . وقد ذكر ترتوليانوس ، وهوأحد الكتّاب المسيحيين ، عن اتصالات قديمة كانت بين الأفارقة ومسيحيي روما[6] . وعليه ، فمن المرجح أنّ الأخبار السارة قد سافرت الى كل من الاتجاه الغربي ، من فلسطين والاسكندرية ، والاتجاه الجنوبي ، من ايطاليا ، ولربما وصلت الى كل الموانىء الرئيسية في افريقيا ، والتي تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وذلك في مدة الخمسين سنة بعد موت المسيح وقيامته .

فالليبيون الذين جاءوا بهذه الأخبار السارة عن يوم الخمسين ، لحقت بهم في ما بعد جماعات من المؤمنين ، كانوا قد تخلفوا في اورشليم لبعض الوقت ، مستفيدين من ملازمة الرسل وغيرهم من المسيحيين . « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات . . . وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة . » [7] وبسبب الضيق الذي حصل بُعَيد استشهاد استفانوس ، فقد تشتّتت معظم هؤلاء المؤمنين من رجال ونساء ، وعادوا بالطبع الى وطنهم في افريقيا . وبوصولهم ، وصلت معهم أخبار مذهلة عن اختبارات الايمان المسيحي في اورشليم : فمن إيمان العديد بيسوع المسيح ، الى حادثة إطلاق بطرس الرسول من سجنه بواسطة الملاك ، الى حادثة حنانيا وامرأته سفيرة اللذين لقيا حتفهما بسبب ما صدر عنهما من افتراء ، الى حوادث شفاء المرضى الرائعة على أيدي الرسل ، ثم شهادة استفانوس البطولية ، واهتداء شاول الى المسيحية ، ذاك الذي كان ألدّ اعداء الايمان المسيحي .

وبعد فترة وجيزة ، وصلت أخبار الى الساحل الليبي عن زيارة بطرس لقائد المئة الروماني ، وكيف آمن جميع أهل الأمم الذين كانوا في بيته ، وقبلوا خلاص الرب وعطية الروح

القدس ، تماماً كما أُعطيت لليهود . وقد استمع أهل الأمم ، من رومان وأمازيغيين ، الى هذه الاخبار بشوق واهتمام كبيرين . كما ارتاحوا كثيراً للترحيب الكبير الذي ابداه الرسل وشيوخ الكنيسة في اورشليم بالرجال والنساء امثالهم في كنيسة المسيح .

كانت حيوية وحماسة هؤلاء المؤمنين الاوائل مؤثرة الى أقصى الحدود . فقد ذكر لنا المؤرخ الشهير يُوسَابْيُوس ، الذي من قيصرية - فلسطين (Eusèbe de Césarée) (263-339 م) ، ذكر عن القرن الثاني للميلاد يقول : « التهبت قلوب المؤمنين المسيحيين بكلمة الله المقدسة ، وزاد اشتياقهم ليكونوا اكثر نضجاً وكمالاً في الايمان . وكانت اولى نشاطاتهم في طاعة تعاليم الرب المخلّص ، أنهم باعوا كل ما يملكون ووزّعوا على الفقراء والمساكين . وبعد ذلك تركوا بيوتهم لينفرزوا لأعمال التبشير ، وكان همهم نشر كلمة الخلاص بين اولئك الذين لم تصلهم هذه الكلمة بعد ، وأن يودعوهم ايضًا كتب الإنجيل المقدس . وقد اكتفوا ببساطة بأن أن يرسوا أسس الايمان بين سكّان تلك الدول المتباعدة ؛ من ثمّ قاموا بتعيين رعاة آخرين وأوكلوا اليهم مسؤولية تعزيز الذين قبلوا الإيمان حديثًا . هذا ، وقد مرّوا بالبلدان والشعوب الاخرى سائرين بنعمة الرب وعونه . » [8]

وباستطاعتنا ان نتصوّر اولئك الرجال والنساء الشجعان الذين كانت قلوبهم مملوءة بالأمل والرجاء وهم يطأون بأقدامهم سواحل افريقيا . لقد وقف هؤلاء على الأراضي التي تحاذي أرصفة الساحل . وراحوا يحدقون إلى مباني المدينة القليلة الارتفاع وهي تتلألأ تحت أشعة الشمس الصباحية ، ثم تساءلوا حين رأوا الدور الواقعة فوقهم : تُرى ؟ أيّ من هذه البيوت ستثمر فيها الكلمة ويكون لنا فيها أخوة واخوات بالرب ؟ أوأيّ من هذه البيوت سيختاره الرب ليكون بيتًا مباركًا نستظل تحته ونستمتع بالشركة الروحية مع مؤمنين جدد ونصلّي معهم بين جدرانه ؟ ولقد أتى هؤلاء المسافرون المسيحيون الأوائل . ليس فقط باختباراتهم الشخصية عن حياة الرسل وتعليمهم وعن المسيح يسوع نفسه ، بل أحضروا ايضًا نسخًا نادرة وثمينة لبعض أسفار الكتاب المقدس التي نقلوها بأنفسهم عن النسخ الأصلية التي كانت في أورشليم اومدن أخرى . و بات من المؤكد أنّ هذه المخطوطات التي جاءوا بها . كان معظمها مكتوبًا باللغة اليونانية ، وهي اللغة المستخدمة لتدوين اولى الكتابات المسيحية في إفريقيا الشمالية . [9]

ولربّما اتّبعوا اسلوب الرسول بولس في توجههم الى المجموعات اليهودية أولاً . فاليهود الذين سكنوا شمالي إفريقيا كانوا يعرفون الله الذي خلق كل شيء ، كما كانوا ينتظرون « المسيّا » الحقيقي الذي وُعدوا به مخلّصًا . وكان أغلب ظنهم أنهم سيجدون بين هذه العائلات اليهودية قلوبًا مستعدة لقبول المسيح المخلّص الذي طال انتظارهم له . وكما علمنا ، فإنّ بعض اليهود آمن بالمسيح في وقت مبكر في شمال إفريقيا . إلا أنّ بعضهم الآخر لم يؤمنوا . وكما حصل لبولس الرسول ، فقد توجهوا عنهم الى الوثنيين ذوي المبادىء الأخلاقية الجوفاء ، وكذلك الى الذين يعبدون الاصنام الخشبية والحجرية . لقد اهتم كُتّاب القرن الأول بالردّ على أسئلة اليهود

واعـتـراضـاتهم أكثر من اهتمام الـمدافـعـيـن عن الإيمان (apologistes) في القرنين الثاني والثالث ، عندما كان قد أصبح المهتدون الى المسيحية من الوثنيين أكثر من الذين جاؤوا من أصل يهودي .

لم يكن في نيّة مسيحيي افريقيا الأوائل أن يتركوا سجلات عن نشاطاتهم ، ولا هم أسّسوا أبنية متميّزة . كما أنه لم يظهر بينهم الى ذلك الحين ، كُتّاب عظماء ، يدوّنون مآثرهم وأعمالهم وإيمانهم . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نلمس تأثير إيمانهم في الناس الآخرين بشكل فعّال ، كما تدل النتائج من خلال اتساع الجماعات المسيحية ونضجها العظيم ، ولا سيّما بعدما كُشف النقاب عن هذا الأمر بعد مئة سنة [10] . وفي الواقع فإن الشواهد التي بين أيدينا لا تدلّنا سوى على واحدة من الجماعات المسيحية التي كانت متواجدة في القرن الأول ، في إفريقيا ، وذلك غرب مصر ، وبالتحديد في مدينة كوريني . لكن ، بحلول العام 200 ميلادية وصلت تقارير تفيد عن إنشاء كنائس مزدهرة في اجزاء عديدة مما ندعوه اليوم تونس والجزائر [11] .

وكم كان الأمر سيبدورائعًا لوعرفنا تفاصيل أكثر عن المسيحيين الأوائل ، اين وصلت إليهم رسالة الإنجيل لأول مرة ، وكيف بدأوا ينظّمون اجتماعاتهم معًا ، وكيف كانوا يعلّمون ويشجعون بعضهم بعضًا . ولربّما كانوا يجتمعون يومًا فيومًا في بيوتهم ليبحثوا متضمنات هذا الطريق الجديد للحياة ، وليقرأوا كل ما يصلهم من الكتابات النادرة لكلام اللّه ، والتي كانت تلفّ منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط برمّتها . على أنّ وصول أي مسيحي من آسيا الصغرى أومن فلسطين كان يقابَل بالفرح العارم والبهجة . وكانت أخبار وصوله تنتشر من دار الى دار ، ومن عائلة الى اخرى ، وكان المؤمنون يُدعون الى الاجتماع بهذا القادم الجديد من الشرق ، فيسألونه عن مدى استيعابه لهذا الايمان ، واختباراته في الكنائس الموجودة في المناطق الأخرى . وغالبًا ما كان يُسأل : هل التقى بطرس ؟ أوماذا يقول بولس في هذا الأمر ؟ أوماذا يعني يعقوب بذلك ؟ أوهل أنّ يوحنا لا يزال سجينًا في بطمس ؟ ولربما جلب مثل هؤلاء الزوار اجزاء من الكتاب المقدس الذي كان يُقرأ على الإخوة المجتمعين ، أوكانوا يعلّمونهم ترانيم جديدة كانت تُرتّل في اورشليم أوانطاكية أومدن أخرى . وما لا شك فيه أنّ هؤلاء الضيوف كانوا يصغون بكل اهتمام وعطف إلى استفسارات اخوتهم ، ويقدمون لهم بالتالي النصح والإرشاد ولا سيما في الأمور التي تتعلق بالممارسات اليومية لهذا الايمان ، خصوصًا بين ذويهم .

انتشرت اخبار البشارة السارة عبر السهول الساحلية لشمال إفريقيا كانتشار النار في الهشيم ، وبالشكل الذي انتشرت في فلسطين . كان عدد الذين يسمعون الانجيل يزداد أكثر فأكثر ؛ وكانوا يقبلون الكلمة « بابتهاج وبساطة قلب مسبّحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب . »[12] لقد انتقلت رسالة الخلاص من شخص إلى آخر ، ومن جار الى جار . وبالطبع فقد كانت أخبارًا

سارة مفادها : إعلان محبة الله للإنسان ، بإثباتات وبراهين مقنعة ، ومن دون التزامات سياسية أوتجارية . لقد جعلَت الناس احراراً . وجلبت لهم في الواقع حرية لم يعرفوها من قبل أبداً : الانعتاق من الأساطير الكاذبة ، والخلاص من الاخلاق المتفسخة المنحلة ، والتحرر من الأرواح المحلية النزوية الدنيئة . ولقد تمكنوا من رفع رؤوسهم عاليًا بشجاعة واعتداد بالنفس وإيمان ، وهم يفخرون بانتمائهم الى عضوية المجموعة الجديدة المتنامية التي تبني كيانها على مفاهيم رائعة من مبادىء المحبة والثقة والنزاهة . « لقد فُتحت الابواب المغلقة ، وانبعث النور مشرقًا في الظلمة . »[13] هذا ما كتبه كُبْرِيَانُوس (Cyprien) الذي كان قد وُلـد في بيت وثني في قرطاجة في حدود سنة 200 بعد الميلاد ، ومات بعد مرور نصف قرن . وهوأحد أشهر المسيحيين في كل العصور والأوقات .

تميل تعاليم المسيح الى توحيد الناس على أساس مبادىء المساواة التي لا تعرف المحاباة . فليس هناك من هوأفضل أوأكثر قدراً من الآخر . فالجميع قد خلقوا من اله واحد ، وجميعهم سيُحاسبون على أساس المعايير نفسها . فكل من أصبح على طريق الحياة الأبدية هومحبوب في عيني الرب ، ومُرحّب به في شعبه . ولا بدّ من ان تكون المساواة التي جاءت بها المسيحية قد صدمت الكثير من الرجال والنساء وجذبتهم اليها . فمهما كانت خلفيات المؤمن متواضعة ، ومهما كان محتقراً منبوذاً ، سواء أفي السوق اوالمدرسة ، فله الحق في أن يأخذ مكانه اللائق كابن من أبناء الله في اجتماعات الكنيسة المحلية ، فيقف هناك جنبًا الى جنب مع أغنى الناس وأرفعهم قدراً على هذه الارض . كما يستطيع هذا الانسان ان يتخطى هؤلاء جميعًا ، ويربح تقدير الكنيسة واحترامها بنوعية حياته المقدسة وثبات شهادته في ساعة التجربة ، وهوأمر لا يمكن الحصول عليه في حياة المجتمع . المؤمنون كسيدهم ، لا ينظرون الى المظهر كما يفعل الانسان ، « لأن الانسان ينظر الى العينين ، وأمّا الرب فإنه ينظر الى القلب . »[14] فالمسيحية بحق ، جلبت الشرف والكرامة والثقة في النفس ، الى الكثيرين الذين من دونها ، كانوا سيتخبّطون ، متشوّقين لعيش حياة آمنة في هذا العالم . كان هذا الإيمان الفعّال والجذّاب ، هوالذي اكتسح شمال افريقيا بفرح عظيم .

لقد كان عمل هذه الجماعات المسيحية فعّالاً حتى إن بشارة الانجيل قد عُرفت وقُبلت في كل المدن الساحلية بشمال إفريقيا ، بعد جيلين اوثلاثة تقريبًا من وصولها للمرة الأولى . لقد انتشر عمل التبشير بالانجيل وتوسّع بنشاط وإقدام ، وبفترة لا تزيد على مئة وخمسين عامًا ، أصبحت كنيسة قرطاجة وكنيسة كوريني وكنائس أخرى في شمال إفريقيا ، كأنطاكية وأفسس وفيلبي ذات مكانة مرموقة ، تسير جنبًا الى جنب ، مع اعظم المراكز المسيحية الاولى التي يتحدث عنها سفر اعمال الرسل .

وفي العام 198 بعد الميلاد عندما خاطب ترتوليانوس حكّام روما دفاعًا عن المسيحية ، ذكر أن الكنائس المحلية كانت تجتمع بانتظام من اجل العبادة والتعليم . فقد أقرّت هذه الكنائس تعيين قادة لها ، وقدّمت الدعم والمساعدة للأرامل والايتام . وكانت لهم مدافنهم الخاصة ، وأماكن عبادة خاصة كذلك . ولم يكن المسيحيون ، بأي شكل من الأشكال ، مغمورين ، ولا كانوا اقلية تافهة مهملة . قال ترتوليانوس : « بدأنا بالأمس فقط ، ومع ذلك فقد ملأنا كل الأماكن الخاصة بكم : المدن والجزر والقلاع والقرى والأسواق وحتى مخيماتكم العسكرية وكذلك قصر الامبراطور والمجلس الأعلى والساحات العامة . »[15] ولم تمضِ إلاّ خمس عشرة سنة من هذا الوقت بالذات ، حتى كان نموالكنيسة العمومية قد ازداد أكثر ، الأمرَ الذي دفع ترتوليانوس الى التصريح بالقول : « نحن جماهير كبيرة ، ونشكل الأكثرية تقريبًا في كل مدينة . »[16]

دخلت البشارة خلال وقت قصير كل طبقات المجتمع ، وشمل تأثيرها كل مجالات الحياة . وقد عُقد مؤتمر في العام 256 ميلادية في قرطاجة ، حضره ممثلون عن خمسين كنيسة محلية من مقاطعة افريقيا البروقنصلية ، هذا فضلاً عن عشرين ممثلاً من مقاطعة نوميديا . ولم تمض سوى خمسين سنة أخرى حتى كبر هذا العدد وازداد كثيراً . وقد بيّنت التقارير ان المسيحيين كانواَ يشكّلون اغلبية السكّان في منطقة إفريقيا البروقنصلية ، ما عدا شبه جزيرة رأس بون بالقرب من تونس المدينة . وكانت المجموعات المسيحية تنموو تزدهر كذلك في شمال المغرب بالقرب من طنجة ، وفي أماكن كثيرة على امتداد الساحل الليبي الى الشرق . وهذا النموالهائل والمتسارع ، يشهد على قوة الانجيل وعلى الطاقة الكبيرة التي كان يمتلكها حاملوالرسالة . فالحقول قد ابيضّت للحصاد ، والحصّادون اندفعوا إلى العمل من دون كلل أوملل .[17]

لقد تسلّقت الكرمة المسيحية بسرعة على خيمة الحضارة الرومانية . لقد انطلقت أغصانها واخترقت القبائل داخل إفريقيا الشمالية الأمازيغية . استفادت المسيحية ، ولا شك ، من السلام الذي ساد جميع الأجناس الخاضعة للسيطرة الرومانية ، وقد عُرفت هذه الوضعية تاريخيًا بالپاكس رومانا (Pax Romana) . كانت تلك الفترة فترة سلام واستقرار سياسي ، ونمو وازدهار اقتصادي ناتج من الحكم الروماني . وكانت منطقة شمال افريقيا في ذلك الوقت مزدهرة . ونادرًا ما كان ينالها أيّ تخريب أوتدمير بسبب الحروب المحلية كتلك التي كانت مشتعلة في جنوبي اوروبا . و قد أصبح الآن بإمكان المسافرين الى جميع المناطق ، أن ينتقلوا بأمان وسلام نسبيين ، وكانوا يجدون الوسائل لدعم حياتهم وإعالة أنفسهم بسهولة ويسر . كان الاهالي المحليون منفتحين جداً على تقبّل الافكار الجديدة ، ولم يكونوا يرزحون تحت طائلة الفقر المدقع ، كما كانوا بعيدين عن الصراعات والمنازعات والحقد ، الأمر الذي وفّر عليهم هموم القلق المستمر وانشغال البال . وعلى الرغم من ان الحكومة الرومانية لم تكن قد وافقت بعدُ على

الـدعـوة الـى المسيـحيـة والتبشير بالانجيـل ، إلا أنه كان يمكن لكل إنسان ان يخضع على الأقل ، لمحاكمة عادلة . وكانت تمنع تعرّض المسيحيين للعنف الجماعي والاضطراب الناشئَيْن بسبب دعوتهم هذه .

ولكن ، مع ان هذا السلام الذي كان يسود جميع الاجناس الخاضعة للسيطرة الرومانية في حدود امبراطوريتها ، قد ساعد كثيراً في نشر تعاليم المسيح ، إلا أن المبشرين لم يتقيّدوا بهذه الحدود بأي شكل ، فانتشروا الى مسافات تبعد كثيراً عن حدود هذه الامبراطورية . فالأبطال من المسيحيين والمسيحيات ، لم يعتمدوا على حماية حكومة الامبراطورية ، بل اتّكلوا على الله الحي ، ولم يكونوا خدام الحضارة بل خدّام المسيح ، كما أنهم لم يكونوا يحملون السلاح ولا البضائع في ترحالهم وتجوالهم ، وإنما حملوا الأخبار السارّة والبشارة المفرحة التي تظهر حـب اللـه للانسـان . فتوغّلت عملية التبشير بالانجيل الى بلدان أبعد بكثير من حدود السيطرة الرومانية . وهكذا تحدّث ترتوليانوس بحماسة عن اهتداء عدد كبير من الناس « بين صفوف قبائل الجيتـوليين الأمـازيغية (Gétules) والمقاطعات الفسيحـة الواسعـة للـموريـيـن ، التي تعـذّر على الرومـان بلوغهـا ، ولكنها خضعت للمسيح » [18] . أمّا أطلال الكنائس فقد وُجدت في قرى صغيرة نائية حتى إنها لم تُسجّل في المستندات الرومانية [19] . وقد رُفعت النقوش على قبور الاموات من المزارعين المسيحيين والامراء المسيحيين ، وكتبت الكلمات القصيرة لإحياء ذكراهم وذلك في أماكن بعيدة عن حـدود الادارة الرومانية . إنّ محبـة الله لا تُقيّد بقيود بشرية ، فهؤلاء المؤمنون الممتلئون من حبه تعالى ، نقلوا هذا الحب الى أقصى المعمورة .

ملاحظات

1- اعمال 10:2

2- مرقس 21:15 ؛ رومية 13:16 . يجب التمييز بين كُوريني بليبيا حاليًا ، التي تسمّى في بعض الكتابات بالقيروان ، وبين القاعدة التي أسّسها المسلمون لاحقًا بالقرب من سُوسَة بتونس .

3- اعمال 9:6 و10

4- اعمال 20:11

5- Latourette Vol. II pp. 97 ff. ؛ Neill p. 37

6- *De Praescriptione Haereticorum* 36

7- أعمال 42:2 ، 46

8- *Historia Eccles.* III, 37:2 - 3 (*NAPNF* Series 2, Vol. I)

9- Latourette Vol. I p. 92

ليس هناك أي احتمال يقيني حول ما قيل عن سمعان القانوني ، وهوأحد رسل المسيح الاثني عشر ، أنه قام بالتبشير في أماكن مختلفة من شمال إفريقيا .

ولا توجد وثائق تذكر هذه الزيارة إلاّ في القرن التاسع في اسطمبول . بالإضافة الى وثيقة أخرى مجهولة المصدر تُنسب الى ناظر كنيسة في فلسطين في القرن الرابع . إلاّ أن ما يفنّد عدم صحة هذه الرحلة ، هوأن هذه الكتابات أتت من خارج شمال افريقيا ، كما أنه لم يرد ذكرها إلاّ بعد سمعان بعدة قرون .

ولوأنه فعلاً قد بشّر في شمال افريقيا ، يكون من المستحيل ألاّ يأتي على ذكره الكتّاب المسيحيون الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث ، أمثال ترتوليانوس . هذا على اعتبار أنّ هؤلاء الكتّاب كانوا قد ناقشوا مصدر كنائسهم .

(Mc Birnie: The Search for the Twelve Apostles pp. 211 - 213)

10- بعد العصر الرسولي ، كان شهداء سكيليُومْ المذكورين في الفصل التاسع ، أول المسيحيين الأفارقة الذين تمّ تدوين اسمائهم في السجلاّت التاريخية . كذلك تذكر سجلات أخرى ايضًا اسم فيكتور الذي وُلد في افريقيا البروقنصلية وخدم كناظر لكنيسة روما على مدى ثلاث عشرة سنة (185 - 198م) . لقد اشتهر فيكتور هذا بشكل خاص في إصراره على أن يتمّ الاحتفال بذكرى القيامة في يوم أحد كل سنة ، وذلك بمعزل عن التاريخ الذي يصادف فيه وقوع هذا اليوم . وهكذا أصبح هذا الترتيب مألوفًا ومعمولاً به في الكنائس في كل أنحاء العالم . لكننا لا نعلم من أية مدينة كان فيكتور ، ولا كيف أصبح مسيحيًا ، ولا أية علاقات تربطه بكنائس وطنه .

11- كانت كنائس القرن الثاني موجودة في قرطاجة (تونس) ، وفي سيتيفيسْ (سطيف ، الجزائر) ، لامبايسيس (تَازُولت ، الجزائر) ، مَادَاورَا (مداوروش ، الجزائر) ، أُثْمَا ، ثُبُربُومينُس وثيسْدْرُوسْ (وجميعها في تونس) ولِبْتِيس مَاغنَا (ليبيا) . (Cooley p. 29)

12- اعمال 46:2 و47

13- *Ad Donatum* 4

14- 1 صموئيل 7:16

15- *Apologeticus* 37

16- *Ad Scapulam* 2

17- بالإشارة الى يوحنا 35:4

18- *Adversus Judaeos* 7

19- Camps p. 175

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص الكرازة في القرون الأولى ، في إفريقيا الشمالية ، يمكن الرجوع الى المصادر الثانوية التالية :

Neill pp. 37 - 42

. Frend pp. 94 - 111 ؛ Cooley pp. 28 - 30؛ Latourette Vol. I pp. 92 - 3, 112



الجزء الثاني

عصر تَرتُولِيَانُوس

(أواخر القرن الثاني - أوائل القرن الثالث)

الفصل الخامس

أسلوب الحياة الفاضلة

« الكنيسة المسيحية فريدة في نوعها . فهي أقدم من أية منظّمة أو مجموعة منظّمات موجودة الآن على كوكبنا . و لم تتمكّن أية ديانة أخرى من تكوين مؤسسة نظيرها . فالديانة اليهودية التي لها فضل كبير على المسيحية طوّرت جماعة انتشرت كالكنيسة المسيحية ، في كل انحاء العالم . و مع ذلك فبُنيَةُ الديانة اليهودية هي بنيةٌ عنصرية بقدر ما هي دينية . أمّا الديانة المسيحية ، فتختلف عن اليهودية بكونها مزيجًا من أجناس مختلفة لا يربط بينها رابط الدم او العِرق . » [1] هذا القول هو للمؤرخ لاتوريت .

لكن ، ما هو إذًا الرباط الذي يوحّد بين هؤلاء الناس المتعددي الاجناس ؟ هل هو خضوعهم لقوانين السلطة الكنسية و احكامها ؟ ام هل هو رباط غير منظور ؟ فما هي حقيقة الكنيسة في الواقع ؟ و هل هي اليوم كما كانت عليه في ما مضى ؟ أو هل حققت شيئًا ما بمرور الزمن ؟ هل خسرت شيئًا ؟ هل الكنيسة هي تنظيم معيّن ، أم هل هي ببساطة فكرة مثالية ؟

يتحدث المؤرّخ لاتوريت عن المبادىء العظيمة التي اوحتها الديانة المسيحية في أيامها الاولى : «من بدايتها ثبّتت هدفًا ، يبدو أنها أخذته مباشرة من مثالها الأعظم يسوع المسيح نفسه ، و هو مثال الراعي . » و قد انتدب أتباع المسيح أنفسهم « للاهتمام بالأفراد من طريق التضحية و المحبة في سبيل ربح النفوس لما تراه المسيحية انه الحياة الاسمى ، ومساعدتهم في النمو على هذا الاساس . » [2]

فالكنيسة الاولى في اورشليم ، كما يُعلّمنا سفر اعمال الرسل ، كانت جماعة تقوم بهذه الخدمة . و كعائلة كبيرة ، احتضنت أناسًا من مختلف الأعمار ، يعرفون و يحبّون ويساعدون بعضهم بعضًا في السرّاء و الضرّاء . و كانوا كل يوم يجتمعون في الهيكل ، ويأكلون سوية في بيوتهم ، بفرح و سرور ، و بقلوب كريمة معطاء ، و هم يعلّمون و يشجعون بعضهم بعضًا ، و يصلّون سوية ، و يشكرون الله على بركاته الواضحة التي منحها لهم . [3] و كانوا يرحبّون ترحيبًا حارًا بكل من اتّبع سيّدهم الرب يسوع المسيح . و لربما بسبب سموّ معاييرهم ، او ربما بسبب العجائب و المعجزات التي صُنعت في وسطهم ، وقع رعبهم على كل الذين في هذه المدينة ، حتى إن احدًا لم يجرؤ على الاختلاط بهم : « أمّا الآخرون فلم يكن احد منهم يجسر ان يلتصق بهم . لكن كان الشعب يعظّمهم . وكان مؤمنون ينضمون للرب أكثر . جماهير من رجال و نساء . » [4]

و عليه ، فقد اضطر هؤلاء المسيحيون المؤمنون المتّحدون الى أن ينقلوا هذه الاخبار السارة الى اليهودية و السامرة ، و خلال بضع سنوات الى أقاصي الأرض .[5] وقد قَبِلَت معظم هذه الأصقاع البعيدة رسالتهم بفرح . و نتيجةً لذلك ، فقد تكوّنت جماعات مسيحية جديدة ، على طول شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، و في اوروبا و آسيا الصغرى وحتى الى المناطق الأبعد من ذلك . و كانوا يجتمعون معًا ، ليعلّموا بعضهم ، و ليشجّع احدهم الآخر ، كما فعلت الكنيسة الأولى في اورشليم .

لقد كانت كل جماعة من المؤمنين تتّسم بقدر عال من الوحدة . إلاّ أن وحدة هذه الجماعات ككل كانت مسألة نظرية أكثر من كونها أمرًا عمليًا ، ذلك لأنهم كانوا مبعثرين في مناطق بعيدة بعضها عن بعض بشكلٍ لا يسمح بالاتصال الكثير بينهم . و لكن ، شيئًا فشيئًا أخذت روابط هذه الجماعات تتصل من مدينة الى مدينة ، حتى اشتدت اشتداداً وثيقاً وقويت . فهم عاشوا في البيئة نفسها ، و جابهوا المشاكل و الفرص عينها . و في الوقت الذي كانوا يلاحقون أعمالهم التجارية و المهنية من مكان الى آخر ، كان من الطبيعي ان يتطارحوا الكلام عن الامور ذات الاهتمام المشترك . و أكثر ما كان يواجههم من تحديات هو كيف يعيشون للمسيح بكل أمانة و إخلاص وسط عالم وثني فاسد ، و كيف يتجنبون مغريات و رذائل الحياة المدنية الوثنية ، و كيف يستطيعون ان يربحوا نفوس اصحابهم و جيرانهم لطريق الحق .

عاش المسيحيون مع الوثنيين ، و سكنوا معهم في افريقيا الشمالية جنبًا الى جنب ، و كان قربهم كما هو عليه الحال في آسيا و اوروبا . و كثيراً ما وُجدت أمكنة اجتماعات المسيحيين الحجرية في المدن الى جانب مزارات الاله مِثْرا (Mithra) ، او قبالة المعابد الوثنية . و في الأرياف ، قد نجد القبور الحجرية المسيحية ، في الأماكن المخصصة للأرواح . كذلك فإن بيوت المسيحيين كانت موزّعة بين بيوت جيرانهم الوثنيين ، و لم يفكر هؤلاء قط في الانعزال ، و إقامة احياء خاصة بهم .

لم تتميز الجماعات المسيحية عن المجتمع الوثني بمواقعها الطبيعية او المادية ، و لكنها تميّزت عنها بطبيعة و اسلوب الحياة التي تحياها . كان جلّ همهم ان يكونوا المصباح المنير و الأمل الزاهي لكل اهل المدينة ، و الملح الجيد الذي يُملّح به . لقد شقّوا طريقهم مع جيرانهم الوثنيين بجهد و أناة ، و تعاملوا معهم بصدق و إخلاص ، و سعوا ليتجنبوا كل ما من شأنه ان يسبب المواجهة معهم . كما سعوا بكل جدّية لتطبيق الوصية القديمة : « تحب قريبك كنفسك . » و هذه هي المحبة التي كانت تحثّهم على التكلم عن خلاص المسيح كلما سنحت لهم الفرصة .[6] لقد أظهر المسيحيون حقيقة ايمانهم بنوعية الحياة التي عاشوها ، فلم يكونوا يخجلون بمسيحيتهم ، بل كانوا مستعدين ليشرحوا الحق الإلهي لكل من يصغي .

يتألف مجتمع شمال افريقيا من ثلاث فئات رئيسة ، و هذه جميعها كانت حاضرة في الكنائس المسيحية . و كان الأمازيغيون يشكّلون الاغلبية . أمّا الفينيقيون الذين تزاوج الأفارقة معهم ، فكانوا موجودين في المدن و الحواضر و كانوا يمثّلون الطبقة الحرفية و التجارية . على أنّ الطبقة الرومانية كانت الطبقة الارستقراطية الايطالية ، و كانت تمثّل اصحاب الممتلكات الزراعية الواسعة ، و قد شكّل هؤلاء نخبة اهل المدينة و صفوتهم . لكنّ الكنيسة جمعتهم إخوة وأخوات في عائلة تخطّت حدود العرقية و اللغة و التخوم الاجتماعية الاخرى . امّا علاقتهم باليهود ، فكانت علاقة صداقة و لطف . و قد استعيض عن المناظرات الجادة التي دوّنها العهد الجديد مع اليهود ، بالتسامح و الاحترام المتبادلين ، على الرغم من ان ذلك لم يجعلهم يستسلمون ، بأي شكل من الأشكال ، او يتخلّون عن آمالهم في كسب اليهود و استمالتهم الى الدخول في الايمان .

ومن البديهي أنّ علاقتهم الحميمة كانت بأولئك الذين يشبهونهم في الفكر و المعتقد . فالمسيحيون كانوا في دائرتهم الخاصة ، يعيشون حياتهم بموجب تعاليم المسيح ، إذ كانوا يخدمون بعضهم بعضًا ، كما خدم المسيح تلاميذه و غسل أرجلهم . و لم تضع الكنيسة برنامجًا لتغيير المجتمع ، بل كان كل همّها ان تأتي بالنفوس الى مجتمعها و تغيّر مواقفهم و مبادئهم . و قد شدّدت على أهمية خلاص الانسان كفرد . لقد كان المسيحيون يتوقون الى ان يصالحوا الرجال والنساء مع الله ، حتى يعيش هؤلاء الناس بعد المصالحة بانسجام و توافق يومي معه سبحانه وتعالى . إلاّ أنه كان لا بدّ لهم في معرض مساعدتهم الفرد على الإيمان ، من أن ينتقدوا الرذائل الاجتماعية التي قد تعيق الناس في هذا المجال . فالعهد الجديد في الواقع ، و بالاخص ما جاء من أقوال المسيح ، يقدّم لنا المثاليات التي لو نَفّذها جميع الناس فعلاً و بالكامل ، لتغيّر المجتمع تغييراً جذريًا . و قد رأى عدد من اصحاب السلطة الوثنية أن تعاليم المسيح هذه فيها ما يكفي لإجراء تغيير جذري اذا ما تبناها عدد كبير من الناس ، و بإمكانها ان تشق طريقها الى أعماق جذور المجتمع ، و تصل الى أساس بنيته .

لم تشجب الكنيسة رسميًا العرف القائم و المختص بالعبودية و الاسترقاق ، كما لم تتصدّ للصراع الوحشي الهمجي الذي كان يجري في الميادين لإمتاع الناس بقتال بين العبيد ، يستمر حتى الموت . و لكن الكنيسة كانت تحث المسيحيين الذين يمتلكون عبيداً ، على ضرورة معاملة هؤلاء العبيد بتهذيب و لباقة ، مثلما يرغب مالك العبد أن يُعامَل من سيده السماوي .[7] كما أنّ العبد المسيحي يجب بالمقابل أن يخدم سيده الارضي بأمانة و إخلاص كتقدمة مقبولة ترضي الله .[8] و في الحقيقة ، اختار الكثير من المسيحيين إعتاق عبيدهم ، على أنه في جميع الحالات كان العبيد مسرورين فرحين كونهم عبيداً لسيد مسيحي طيّب ، و هو بالمقابل ، كان فرحًا مسروراً لامتلاكه عبداً ، أمينًا صادقًا . « و كم رأينا عبيداً لم يكونوا يفتقرون الى شيء ، بينما هناك رجال احرار مُكرَهون على التسوّل . »[9] هذا ما قاله اغسطينوس بعد مضي مئتي عام .

لم تكن تجارة الرقيق واسعة الانتشار في شمال افريقيا في زمن الرومان ، بالمقارنة بحالة هذه التجارة في القرون التي تلت خروج الرومان من شمال إفريقيا . فالعبيد في الامبراطورية الرومانية كانوا في غالبيتهم من أصل يوناني أو من شمال اوروبا و ليس من إفريقيا . و لم يعانِ الأمازيغيون العبودية الا في الظروف الاستثنائية ، و لم تشجّع الكنيسةُ المؤمنين على شجب هذهِ الظاهرة ، او الوقوف ضد مثل هذا الوضع القانوني الرسمي الذي مارسه المجتمع الوثني آنذاك . لأن الاهتداء الى المسيحية لا يحل الانسان من تبعيته الشرعية و التقيّد بنظام المجتمع الذي يعيش فيه ، على الرغم من آماله في الحصول على حريته من هذه العبودية . و مع ذلك فعليه ان يتقبّل قدره هذا بصبر و تؤدة في الوقت الحاضر . « الدعوة التي دُعي فيها كل واحد فليلبث فيها . دُعيت و انت عبد فلا يهمك . بل و ان استطعت ان تصير حرًا فاستعملها بالحري . لأن من دُعي في الرب و هو عبد فهو عتيق الرب . كذلك ايضًا الحر المدعو هو عبد للمسيح . » [10]

لم يكن عارًا كون الانسان عبدًا . فكان لدى العديد من العبيد ، و بخاصة اليونانيين ، درجة من الثقافة و التعليم أعلى مما عند اسيادهم . و كان قد سُمح لهؤلاء العبيد بأن يتجوّلوا في املاك اسيادهم و في شوارع المدينة بحرية كاملة . و حقًا قال المعلم المسيحي الشهير أمبُروزيُوس (Ambroise) إنه قد يكون العبد أعلى منزلة من سيده في صفاته و أخلاقه . و حتى أكثر حَرية من هذا السيد لأن السيد ، قد يكون عبدًا لإبليس و للخطيئة .

لم تسعَ المسيحية وراء الاضطرابات و المشاكل ، و لا أثارت استياء الناس . بل على نقيض ذلك ، علّمت الانسان كيف يبقى سعيدًا في أي ظرف من الظروف او حال من الاحوال .[11] المسيحية لم تهاجم نمط الحياة الذي كان يمارس الرق و العبودية ، تمامًا كما أنها لم تهاجم أيًا من مظاهر الحياة في المجتمع الوثني . ذهبت المسيحية الى ابعد من ذلك ، فقد قدّمت طرائق وأساليب جوهرية جديدة يُنظر من خلالها الى العلاقات الانسانية : فالأولون آخرون ، والأعظم يكون خادمًا للجميع ، و هي تدعو ذاك الذي يجلس في المؤخرة ان يتقدم ليأخذ المقعد الاول ، وملكوت السماوات يخصّ الاولاد الصغار . لم ينظر المسيحي الى مصالحه الشخصية فقط ، و لكنه نظر الى مصالح الآخرين ايضًا . فقد ادار الخد الايسر للذي لطمه على الخد الايمن ، و ذهب ميلين مع الذي سخّره ميلاً واحدًا ، و صلّى من اجل الذين أساءوا اليه . و نجد ان لدى الانسان المؤمن الكثير من الامور المشتركة مع عبده المسيحي ، ما لا يجده مع عائلته الوثنية : فهو يتمتّع مع عبده بإيمان مشترك ، و يتقاسمان المخاطر عينها التي قد تأتي نتيجة لهذا الايمان المشترك . و لم يكن هناك فوارق بين المسيحيين في نظر الله والكنيسة ، لأنه « ليس يهودي و لا يوناني . ليس عبد و لا حر . ليس ذكر و انثى لأنكم جميعًا واحد في المسيح يسوع . » [12] لقد استُدعي المدعو يولْبِسْتُوس (Euelpistus) و هو عبد من عبيد آل البيت الامبراطوري الى المحكمة في روما في القَرن الثاني للميلاد . و لدى سؤاله أجاب : « انا عبد الأمبراطور ، و لكنني مسيحي في الوقت ذاته ، حيث أنّ الرب يسوع المسيح قد حرّرني ، و بنعمته المعطاة لي ، اتمتّع بالرجاء نفسه الذي لإخوتي بالرب . » [13]

تبوأ بعض العبيد مراكز هامة ، حتى وصل بعضهم الى مراكز قيادية بين الجماعات المسيحية : فبعضهم عُيّنوا نظّاراً على مجموعاتهم المحلية . و يعتبر المسيحيون أنه امتياز أن يخدموا عبدًا مسجونًا او مُضطهدًا بسبب إيمانه بالمسيح ، و كانوا جميعهم يرغبون في تكريم كلّ عبد حصل على تاج الشهادة المختوم بالدم . إنّ إظهار مثل هذا الحب نحو العبيد هو إبطالٌ غير مباشر لمفعول نظام الرق المذلّ ، و إيذان بأفول نجمه . فالكنيسة لم تحاول ان تقتلع شجرة العبودية - لأن ذلك سيكون عملاً طويلاً و خطرًا - ولكنها بالمقابل ، قشرت لحاء هذه الشجرة و تركتها لتموت موتًا بطيئًا .

عندما كان المسيحيون أقلية ضئيلة ، لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا الكثير ضدّ العنف والقسوة و الانحراف الجنسي الذي استشرى بين المجتمعات الوثنية . على أنهم لم يكونوا هم أنفسهم طرفًا في مثل هذه الاعمال ، و لا حضروا ذلك القتال الوحشي الذي كان العبيد يتبارون به في الساحات و الميادين العامة لإمتاع الناس ، كما أنهم لم يشاركوا في مشاهدة المسرحيات التي لا تخلو في مضمونها من الانحراف الخلقي . فإذا ما غرق الآخرون في مثل هذه الحمأة ، فالمسيحي لم يكن ليفعل ذلك ؛ كان المسيحيون في العالم و لكنهم « ليسوا من العالم » وكانوا يعلمون هذه الحقيقة . صلّوا بعضهم لأجل بعض ، كما فعل سيدهم المسيح لاتباعه عندما قال : « لست اسأل ان تأخذهم من العالم بل ان تحفظهم من الشرير . »[14] و هكذا ، فكلّما ازداد عدد المسيحيين سنة بعد أخرى ، كلّما نقص عدد المشاهدين لهذه المباريات ، الأمر الذي حمل الوثنيين على إلقاء اللوم على المسيحيين الذين اعتُبروا السبب في انخفاض عدد المتفرجين ، و فتور شوقهم الى الألعاب و المسرحيات ، وضعف ولعهم بها .

إلى ذلك ، فإن الكنيسة لم تحاول ان تزيل التفاوت المتأصل في بنية الطبقات الاجتماعية المدينية و الأصقاع الريفية . فقد آمن المسيحيون بأنّ الله هو الذي يمنح الارض و الأموال لبعضهم ، تمامًا كما يمنح المهارة و القدرات لبعضهم الآخر ، الى جانب المواهب الاخرى المتعددة ، من فن و قوة شخصية و طلاقة لسان و غيرها . و قد أصرّ المسيحيون على معاملة الناس أجمعَ باحترام متساوٍ . فلم يهابوا الأقوياء و لا احتقروا الضعفاء . لقد خافوا الله وحده ، و احبوا جميع الناس . و كانوا يستقبلون الفقير و المتواضع بلطف و يكيلون له بالمعايير الصادقة و الأمينة عينها ، التي يكيلون بها للأغنياء ذوي النفوذ . ففي اجتماعات الكنيسة ، كانوا يرحّبون بالجميع على حد سواء . قال يعقوب أخو المسيح في الجسد : « لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحاباة . فإنه إن دخل الى مجمعكم رجل بخواتم ذهب في لباس بهي و دخل ايضًا فقير بلباس وسخ . فنظرتم الى اللاّبس اللباس البهي و قلتم له اجلس انت هنا حسنًا و قلتم للفقير قف أنت هناك او اجلس هنا تحت موطىء قدمي . فهل لا ترتابون في أنفسكم و تصيرون قضاة أفكار شريرة ؟ »[15] إنّ اخلاق الانسان هي من حيث الأهمية أكثر بكثير من ثرائه و مركزه الاجتماعي . فقد كانت النقوش او

الكتابات على قبور المسيحيين ، و المُعرِّفة بهم ، لا تشير إلاّ نادراً الى المراكز الاجتماعية لأولئك الموتى . إلاّ أنهم كانوا ينحتون أحيانًا رموزًا تدلّ على حرفة الميت ، أو يرسمون بدقّة الأدوات التي يستعملها في مهنته بالإضافة الى كتابة عبارات تنمّ على المحبة العائلية .

كانت مثل هذه المواقف ثورية للغاية ؛ إذ كانت تلمس قلب أيّ انسان حساس . و لكنّ المسيحيين لم يكونوا دائمًا موضع استحسان في أعين اعضاء المجتمع الآخرين . فبعض اعضاء هذا المجتمع رأى فيهم عاملاً مفسداً يسبب الخلاف و الشقاق الحاصلين بين الناس ، لأنهم كانوا على استعداد دائم لأخذ خط فكري مستقل خاص بهم . الى هذا ، فقد كانت طاعة المثاليات الامبراطورية امراً ملزمًا يجب أن يُغرس بثبات في قلوب الناس ، فإذا ما نزع احد الى مناقشة مثل هذه العادات الوطيدة الراسخة في المجتمع آنذاك ، فإنه يعرّض نفسه ليس فقط لتهمة تعكير سلام الامبراطورية الرومانية ، بل كذلك لتقويض الحضارة العظيمة التي تمثّلها .

بعد مرور قرن و نصف على صلب المسيح ، كتب كلْسُوْس (Celse) انتقادات عنيفة يتهم فيها المسيحيين برفض خدمة الجيش . و قد قال كلَسوس إنّ عملهم هذا يعرّض حياة الامبراطورية للخطر ، إذ ماذا يحدث مثلاً لو حذا جميع الشعوب حذوهم ؟ ألا يؤدّي ذلك الى اكتساح البرابرة هذه الامبراطورية؟ امّا أُوريجَانُوس (Origène) ، فقد دافع عن هذا الموقف اللاعنفي للمسيحيين ، مشيراً الى أنّ المسيحيين لا يطمحون الى انقسام المجتمع ، و لا الى مساندة بلد آخر ضدّ بلدهم ، و انما الى رفع جميع الناس الى المستوى الاخلاقي الاسمى ، و حتى ، إن امكن ، الى انتزاع رغبة الناس في اضرام الحروب . و في هذه الفترة بالذات دافع ترتوليانوس عن المسيحيين قائلاً إنهم بعيدون كل البعد عن تهمة تمزيق الامبراطورية ، لأنّ الواقع يثبت أنّ المسيحيين هم أحسن رعايا الامبراطورية و أفضلهم على الإطلاق . و مبادئهم هذه ، لا تجيز لهم القيام بأيّ عصيان مسلّح او شغب مخلّ بالأمن ، و هم لم و لن يتآمروا ضد السلطة ؛ بل على نقيض ذلك ، يقدمون الصلوات الى الله تعالى ليحفظ الامبراطور و يطيل بعمره ويمتّعه بحُكم ملؤه السلام و الاستقرار . انهم لا يهتمون بالسياسة ، و ليس لديهم أية طموحات نحو قوّة أرضية ، و هم ببساطة يرغبون في أن يُتركوا بسلام . فقد قال سيدهم : « مملكتي ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون . » [16] كما اعلن ترتوليانوس من شمال إفريقيا بصريح العبارة ما يلي : «لقد بَرُدَ عندنا كل ما يعتبرها الناس طموحًا في سبيل المجد الارضي او المراكز ، و لسنا مضطرين الى تشكيل اتحادات لمثل هذا الغرض ، و ليس ما هو أزهد من العمل السياسي بالنسبة إلينا ، لأنه مغاير لمبادئنا . و نحن لا نعترف إلاّ بدولة واحدة ، و هذه الدولة الواحدة هي العالم بأسره .» [17]

لم يكن المسيحيون من السذاجة بحيث يفترضون أنّ المجتمع الوثني بأسره يرغب في قبول المسيحية و اتّساع مقاييسها ، و لا أنّ شرور تلك الحضارة ، يمكن إلغاؤها بالوسائل

السياسية ، إذ كثيرون من ذوي النفوذ كانوا يستفيدون من الفساد و الجور المستشريَيْن فيها . كما لم يكن هدف المسيحيين انتقاد النظام الاجتماعي و الاقتصادي الوثني ، بل بالحري ارادوا أن يبيّنوا للأفراد الطريق المؤدي إلى حياة أفضل : تأسيس جماعة جديدة داخل المجتمع الموجود ، جماعة ذات معايير مسيحية يطبّقها شعبٌ مسيحيٌّ أصيل .

أثبتت المسيحية جدارتها بالامتداح من خلال نقاوة الحياة الواضحة لأعضائها . هذا ، و قد أرست لنفسها نمط حياة مغايراً تماماً لحضارة ذلك الزمان التي عُرفت بانحرافاتها الجنسية و فجورها ، و غطرستها المستفحلة ، و بمبارياتها و العابها الدموية ، و بمواقفها الوحشية القاسية في معاملة العبيد و العمال و الخدم الذين يخدمونها . و علينا الاّ نتصوّر أنّ المسيحيين القدامى كانوا مثاليين كاملين ، و لكنهم كانوا ، على الأقل ، يطمحون الى الكمال . لقد أقاموا وزناً كبيراً للصفات النبيلة من مثل الأمانة و الاستقامة و الحنو و الشفقة ، و قد عقدوا العزم على ان يحبوا جيرانهم كأنفسهم . لقد كان عندهم في بعض الأحيان ذنوب ونقائص ، لكنهم ، بخلاف باقي الناس ، كانوا مستعدين للاعتراف بأخطائهم و مواجهتها و محاولة معالجتها . إلاّ أن هؤلاء المؤمنين الأوائل ، في شمال إفريقيا ، كانوا يعرفون أنه بعد انزلاقهم يستطيعون القيام و اتّباع المسيح عن قربٍ أكثر من ذي قبل .

كلّما اشتدّ الظلام ، بانت النجومُ وضّاءة لامعة . هكذا ضاءت محبة المسيحيين و أمانتهم وسط عالم معوّج و ملتو . لم يشتك المسيحيون يوماً و لا تأفّفوا . لقد رفضوا أن يتورّطوا في المنازاعات ، و كانوا مستعدين دائماً لمساعدة كل محتاج . و عندما كنت تلتقيهم في الشوارع ، كنت تراهم يتحدثون بإخلاص عن أفراحهم و عن أحزانهم . كانوا يُعزّون بعضهم بعضاً ، و يصلّون بعضهم لأجل بعض . و عندما كانوا يسيرون الى أعمالهم ، كانوا يترنمون بترانيم روحية محبّبة الى قلوبهم المشتاقة . كانوا يشكرون الله في كل حين و على كل شيء ، وكانت حياتهم واضحة سامية فوق جيرانهم . كانوا يشعرون بأنهم شعب الله الخاص وكانوا يعيشون التوصية الكتابية القائلة : « فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين احشاء رأفات و لطفاً و تواضعاً و وداعة و طول أناة . محتملين بعضكم بعضاً و مسامحين بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى . كما غفر لكم المسيح هكذا انتم ايضاً . و على جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال . » [18]

لقد اهتمّوا فعلاً أحدهم بالآخر . و كتب الرسول بولس الى أخ مؤمن بخصوص أحد عبيده اللصوص الهاربين قائلاً له إنّ هذا العبد قد اعتنق المسيحية لتوّه ، و حثّه على لزوم مسامحته و قبوله « لا كعبد في ما بعد بل أفضل من عبد أخاً محبوباً . »[19] إنّ هذه النظرة التي كان المؤمنون ينظرون بها الى الحياة لم تمت ابداً بنهاية العصر الرسولي . فقد كانت كل من بربيتْوا السيّدة ، و فيليستاس خادمتها ، تتقاسمان الإيمان المشترك ، فعاشتا و ماتتا سَوِيةً ، وكانتا تشجّعان و تطمئنان واحدتهما الاخرى ، و ذلك على المدرج الروماني بمدينة

قرطاجة . هكذا كان اتحاد الجماعة المسيحية و التحامها ، إذ كان بإمكان الارامل واليتامى و المسافرين البعيدين عن بيوتهم و ذويهم أن يجدوا الدفء و الترحيب المملوئين محبة وعطفًا ، حين تستضيفهم العائلات المسيحية . و حتى الوثنيون و اليهود في الجوار ، كانوا يحصلون على المساعدة التي يقدمها لهم المسيحيون . و لم يكن احد يعرف شيئًا كهذا قبل بزوغ فجر المسيحية في العالم .

كان الزنى و الدعارة و غيرهما من الرذائل القبيحة تغرز القيح العفن في المجتمع الوثني الذي كان المسيحيون يعيشون فيه جنبًا الى جنب معهم ، و كان هذا يسبب للناس تعاسة لا توصف و شقاء لا يُحدّ . لقد جعل القانون عملية الطلاق امرًا سهلاً ، و كان يحصل لأتفه الأسباب ، الأمر الذي جعل الحياة العائلية حياة مستحيلة تقريبًا . كان الوالدان يعيشان في محيط يشوبه الشك و عدم الثقة ، و كان العديد من الاولاد لا يعرفون أين أبواهم ، و لا يعرفون حتى من هم أبواهم . أمّا حياة الجماعة المسيحية ، فكانت تختلف اختلافًا جذريًا . فالمسيحيون كانوا يحترمون الزواج . و كانوا يتحدثون مطوّلاً عن العلاقات الخاصة المميزة بين الزوج وزوجته ، و التي يشبّهها الكتاب المقدس بالعلاقة بين المسيح و الكنيسة : « ايها النساء اخضعنَ لرجالكنّ كما للرب . . . ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح ايضًا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها . »[20]

لقد جاءت المسيحية بمبدإ جديد ألا و هو مبدأ الإخلاص و الولاء ، إلاّ أنّ إخلاص الزوجين أحدهما للآخر ، تجاوز جميعً الولاءات الانسانية الأخرى . لم يكن الطلاق اختياريًا عند المسيحيين ، فلقد قال المسيح : « و يكون الاثنان جسدًا واحدًا إذًا ليسا بعد إثنين بل جسد واحد . فالذي جمعه الله لا يفرّقه انسان . » [21] تعلّم القرينان أن يهتمّا و يقدّرا أحدهما الآخر ، و يبذلا قصارى جهدهما ليعيشا بتآلف و انسجام . و آمنا بأن المقصود من القران هو المساعدة المتبادلة بين القرينين ، و التشجيع في الامور الروحية و العملية . و وجدا أنّه حينما لا يألو أيّ منهما جهدًا في حب الآخر و مساعدته ، فإنّ علاقتهما الزوجية تتنامى باستمرار و تصبح نفيسة و غالية . قال ترتوليانوس : « يا لروعة الاتحاد الزوجي بين مؤمنَين ذوَي رجاء واحد ، و عهد واحد ، و تهذيب واحد ، و أسلوب حياة واحد . إنّهما أخ و أخت ، اثنان من خدم الرب ، روح واحدة و جسد واحد . . . يصلّيان سوية ، و يصومان معًا ، يعلّمان و ينصحان و يدعمان واحدهما الآخر . يذهب كلاهما الى كنيسة الله ، و لمائدة الرب . يتقاسمان المحن و الاضطهادات مع الآخرين ، و النمو الروحي . فلا يكتم واحدهما شيئًا عن الآخر ، و لا يتجنّبه و لا يُغضبه . يزوران المرضى بسرور ، و يقدمان الاحتياجات للمعوزين و يتصدّقان بسخاء ، و لم يكونا في حاجة الى إخفاء رمز الصليب و لا الى كبح الفرح في المسيح و لا الى إعاقة بركاته ، يرنمان بتسابيح و مزامير معًا ، و المسيح يُسرّ بما يراه و يسمعه منهما ، و يمنحهما سلامة . و عندما يجتمع اثنان او ثلاثة باسمه ، يكون الرب في وسطهم ، و حيثما يكون الرب لا يستطيع إبليس ان يأتي . » [22]

فحيثما يعني الارتباط الزوجي تشكيل وثاق جديد ، فهو يعني ضمنًا حلّ الروابط القديمة . فالزوجان كمسافرين يحزمان امتعتهما و يودّع كل منهما ابويه و البيت الذي نشأ فيه وترعرع . و بإتحادهما يتأسس بيت جديد ، و مهما كان هذا البيت متواضعًا ، فإنهما يغنيانه بمحبة المسيح . تقول كلمة الله عن الاتصال و الانفصال : « من اجل هذا يترك الرجل أباه و أمه و يلتصق بامرأته . و يكون الاثنان جسدًا واحدًا . » [23] إنّ العادة القديمة في انتقال الزوجة لتعيش مع زوجها في بيت أهله هي عادة محفوفة بالصعوبات و المخاطر ، ولكنّ كسر هذا التقليد ليس بالأمر اليسير ، إذ يجب القيام به بطريقة وديّة وعاطفية . فالأقارب المسنّون يتوجب احترامهم و تقديرهم ، و اذا دعت الحاجة إلى إعالتهم ، ينبغي عندها تقديم مثل هذه الإعالة . و لكن ، على الآباء الاّ يتوقّعوا من أولادهم الذين تزوّجوا طاعة عمياء و إذعانًا كاملاً بعد زواجهم . فقد أصبح الزوج الآن مسؤولاً عن بيته ، وعن زوجته ، و طبعًا ، عن أولاده في ما بعد . و لا يمكن للزوج في أيّ حال من الاحوال ، و لأي سبب من الاسباب ، أن يتهرّب من مسؤولياته و واجباته . و حال الاولاد كحال والديهم ، فبعد ان يكبروا يتركون هم بدورهم ذويهم و بيوت آبائهم ، و يتزوجون ليبنوا لأنفسهم عشهم الزوجي الخاص بهم . و هم يعلمون علم اليقين أنّ بإمكانهم الاتكال على إعانة والديهم وحبهم لهم ، وعلى الصلوات التي يرفعها هؤلاء المحبّون لأجلهم ، في وقت احتياجاتهم .

و النساء بشكل خاص ، سُررنَ بالتقدير الذي صار من نصيبهنّ في الجماعة المسيحية . كنّ قبلاً مبعدات تمامًا عن العديد من الديانات السرية ، كما أن دورهنّ في ديانات أخرى كان يُثير الشبهات . أمّا المرأة المسيحية ، فقد كان لها مقامها و امتيازاتها الجديرة بالاحترام ، و كانت لمواهبها و أحلامها متنفسات و مخارج مفيدة و نافعة ، خصوصًا في ما يتعلق بالتوجيهات و الارشادات التي كانت تقدّمها للشابات و الاطفال . فقد كان هناك دائمًا ارامل وايتام يحتاجون الى العناية ، فضلاً عما يُقدّم للمسافرين من حسن ضيافة و عناية . و كان الزوج يستطيع أن يترك كثيرًا من المهام و المسؤوليات في يدي زوجته المسيحية بثقة كاملة ، وكان يقدّر مساعدتها اللطيفة و نصائحها السديدة . و قد أشار أغسطينوس الى أن حواء لم تؤخذ من أقدام آدم لتكون بذلك أمة له ، و لا أُخذت من رأسه لتتحكم به و تستعبده ، و لكنها أُخذت من جنبه حتى تكون شريكة حياته الودودة المحبوبة [24] . فكم هو جميل أن يتمكن الزوجان من أن يصلّيا معًا لأجل كل ما يهمّهما أو يختص بحياتهما ، و يبتهجان معًا عندما يستجيب الله لهذه الصلوات . « امرأةٌ فاضلة من يجدها لأنّ ثمنها يفوق اللآلىء ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج الى غنيمة ، . . . تفتح فمها بالحكمة و في لسانها سُنّة المعروف . » [25] كانت بريسكلا نموذجًا لمثل تينك النسوة ، و هي و أمثالها مذكورات في صفحات الكتاب المقدس ، و كان هناك كثيرات مثلها في إفريقيا الشمالية .[26]

الأولاد أيضًا ، كانوا موضع ترحيب في الجماعة المسيحية . فقد قال الرب يسوع نفسه عنهم : « دعوا الأولاد يأتون إليّ و لا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . »[27] و غالبًا ما كان ايمان الاطفال العادي البريء دافعًا للأبوين ، و حافزًا لهما للعبادة . و عندما كان الأبوان يقرآن الكتاب المقدس ، كانا يجدان نصائح كثيرة عن كيفية تربية أبنائهم « بتأديب الرب وانذاره . »[28] كان تيموثاوس واحداً من اولئك المباركين بهذه التربية المسيحية منذ نعومة أظفارهم ، فكتب له بولس قائلاً : « إذ أتذكر الايمان العديم الرياء الذي فيك الذي سكن اولاً في جدّتك لوئيس و أمك أفنيكي و لكنني موقن انّه فيك ايضًا . » و يتابع بولس الرسول متحدثًا الى تيموثاوس : « و إنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة ان تحكّمك للخلاص بالايمان الذي في المسيح يسوع . »[29]

كان مثل هؤلاء الاولاد احراراً في تكريس شبابهم و بذل أفضل فترات عمرهم في سبيل ملكوت الله ، مع مباركة ذويهم و تشجيعهم . و بسبب قدرتهم على التمييز بين الصالح والطالح ، فقد التصقوا بالأول و رفضوا الثاني . لم تكن لهم ذكريات مخجلة عن ماض حافل بالممارسات الشهوانية ، و لا ندموا في يوم عن سنين ضائعة . و لم يكتسبوا في يوم من الأيّام تلك الأخلاق الإنسانية و النزقة التي كانت لهؤلاء الذين منذ نعومة أظفارهم لا يفكرون إلا في أنفسهم . لقد وفّروا على أنفسهم ذلك الصراع المرير الذي يعيشه كل انسان يأتي الى المسيح في كهولته راغبًا في ترك عاداته الشخصية الخاطئة الراسخة . أمّا أن يولد الانسان في عائلة مسيحية ، فهذا امتياز مدهش جميل ، و كذلك عودة الانسان الى البيت المسيحي الموحّد الذي تسوده المحبة و المودّة ، بعد يوم شاق في المدرسة او في السوق او في الشارع او في المدينة ، فإن ذلك لا بدّ من أن يملأ قلب المؤمن الشاب بالسرور و الغبطة .

كان المسيحيون يشجعون بعضهم بعضًا ، ليعملوا بجد و يبذلوا عرق الجبين في كسب أرزاقهم ، و هكذا يتمكنون من مساعدة الآخرين ممّن هم أقل منهم حظًا ، خصوصًا اولئك الذين لا يستطيعون الاستمرار في أعمالهم ، بسبب المرض او العجز .[30] و المسيحية تعتبر العمل واجبًا طبيعيًا على كل اتباعها . كان الرسول بولس يكسب قُوتَهُ من طريق عمله اليدوي ، و في صناعة الخيام . و يظهر ان الاعمال اليدوية لم تكن معتبرة من الاعمال المخزية .[31] وقد كتب بولس : « إذ انتم تعرفون كيف يجب ان يُتمثل بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ولا أكلنا خبزاً مجانًا من أحد بل كنا نشتغل بتعب و كدّ ليلاً و نهاراً لكي لا نثقّل على احد منكم .»[32]

في الواقع ، بدأ كثيرون ممن اعتنقوا المسيحية ، و لأول مرة في حياتهم ، بمزاولة عمل شريف و كما يقول الكتاب المقدس : « لا يسرق السارق في ما بعد بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه ليكون له ان يعطي من له احتياج . »[33] نظرت الكنيسة المسيحية بازدراء و استنكار الى اولئك الاصحّاء القادرين على ان يعملوا ، ولكنهم كسالى

مهملون . فكتب بولس الرسول بهذا الخصوص قائلاً : « فإننا أيضًا حين كنّا عندكم اوصيناكم بهذا أنه إن كان احد لا يريد ان يشتغل فلا يأكل . »[34] فالمسيحيون هم من يكونون « مستعدين لكل عمل صالح ، » [35] و بالاخص اذا كان عليهم إعالة من يعتمدون على ما يجنونه من معاش . « و إن كان احد لا يعتني بخاصته و لا سيما اهل بيته فقد أنكر الايمان و هو شر من غير المؤمن . » [36] لقد كانت هناك فرص كثيرة للذين يريدون أن يعملوا في المدن و القرى و الأرياف ، و لكل من لم تمنعه كبرياؤه من تلويث يديه بأية حرفة مهما كانت وضيعة . و لم تكن الأعمال الشاقة و الأوضاع الاجتماعية المتدنيّة تُعتبر وصمة عار ففي زمن الاضطهاد ، أُرسل الكثير من الناس الى المناجم ، و كان المؤمنون الذين يسخّرون للعمل في هذه المناجم يفتخرون بعملهم هناك ، و هم يمجدون الرب دائمًا ، ويسبحونه على الرغم من انهم في وضع لا يُحسدون عليه . و كانوا يؤمنون بأن الله هو الذي ارسلهم الى هذا المكان الوضيع ليكونوا نورًا يضيء في الظلمة كرسل المسيح ، وليس كسجناء للإنسان .

و مع هذا ، فقد كانت هناك أعمال لا يقبل بها المسيحيون . فهم لا يقبلون مثلاً ان يعملوا كمجالدين . و المجالد كما أسلفنا ، هو شخص يقاتل حتى الموت لإمتاع الجماهير في الامبراطورية الرومانية ، و بخاصة في ذلك العصر الذي تميّز بالترويع و الترهيب ، سواء أكان هذا الترويع و الترهيب ضد الانسان نفسه أو ضد الحيوان على حدّ سواء . كذلك لم يكن المؤمن يقبل ان يشارك او يتورط في أعمال الدراما على المسارح الوثنية ، بسبب ما يُعرض هناك من مشاهد بذيئة و لا أخلاقية - اساطير و خرافات الآلهة - تلك الأساطير التي كانت تُمثّل بقناع ديني على مرأى الجماهير الفاسقة الفاسدة . و المسيحي لا يشرك نفسه في أي شكل من أشكال الوثنية او علم التنجيم ، أو أية مهنة ترتبط بعبادة الأوثان ، كصناعة المصابيح و أكاليل الزهور و غيرها من الزخارف و الحلى التي تخص المعابد . و لم يكن ممكنًا للمسيحي ان يقبل العمل كمعلم في مدرسة لأن عليه ان يعطي دروسًا تتنافى مع مبادئه المسيحية . فجدول الضرب مثلاً لم يكن في ظاهره مؤذيًا ، غير ان حروف الهجاء كان يتم استظهارها و حفظها غيبًا من طريق انشودة تُرتّل فيها اسماء الآلهة الوثنية .[37] كذلك كان المسيحي يرفض ان يكون قاضيًا حيث انه قد يُطلب منه ان يحكم بسفك دم . و المسيحي لم يكن يرغب في أن يكون محاميًا حيث انه قد يُطلب منه ان يدافع عن رجل مذنب و الترافع لصالحه ، او قد يُطلب منه اتّهام رجل بريء يتم تجريمه . و لا يستطيع المسيحي ان يكون خطيبًا عامًا خصوصًا اذا كانت خطبته هذه تشتمل على التملّق و المداهنة و الاطراء و الأكاذيب ، و ذلك لتمجيد حاكم مجرّد من المبادىء الخلقية ، او للثناء على احد المتبرعين الوثنيين . و قد تخلّى رجال كثيرون عن اعمال كانوا قد باشروها ، لأنهم لا يستطيعون أن يوفّقوا بينها و بين ضمائرهم او مبادئهم المسيحية ، واكتفى هؤلاء بأشغال اكثر تواضعًا . فالغنى ، و الوسيلة التي تؤمن الحصول عليه ، ليسا نهاية

المطاف . فالمواعظ الكنسية التي حُفظت خلال القرون الأربعة الاولى للميلاد ، تُخبرنا بأنّ الكنيسة كانت تحثّ المؤمن ذا الإمكانات المتواضعة على أن يقتنع بدخله المحدود . أمّا ذوو الدخل الكبير ، فعليهم ان يكونوا كرماء يدفعون بسخاء لعدد وافر من المحتاجين . و قد طُلب من التجار ان يتأكدوا من تثبيت اسعار عادلة ، و ان لا يطلبوا اكثر من هذه الاسعار العادلة من المشترين ، و كذلك الاّ يقبلوا بأسعار ادنى منها .

وخلال القرون الثلاثة الاولى للميلاد ، اعتقد المسيحيون ان خدمة الجيش تتناقض مع الايمان المسيحي . و بالطبع فإن هذه الخدمة تورّطهم في استعمال العنف و الاضطرار الى سفك الدماء ، الأمر الذي لا يتوافق مع تعاليم المسيح .[38] فهل بالامكان ان نتصوّر الرب يسوع المسيح يقتل انسانًا اذا ما صدرت إليه الأوامر بذلك من قائد فرقة عسكرية ؟ و لا حتى ، يمكن لأتباعه ان ينفّذوا أمرًا كهذا . قال ترتوليانوس : « ان تجريد الرب لبطرس من سلاحه ، جرّد الجنود من احزمة اسلحتهم منذ ذلك التاريخ فصاعدًا . »[39] قد أعطى ترتوليانوس أسبابًا أخرى لعدم التحاق المسيحيين بالجيش . فأولاً : ان مثل هذه الخدمة تضع المسيحي تحت أمرة سيّد غير سيّده المسيح ، و ثانيًا ، فإنها تمنعه من الوفاء بواجباته مع عائلته . و اكثر من ذلك ، فإنّ أصحاب الرتب العليا في الجيش ملزمون في ان يشاركوا في الدعاءات و الابتهالات الدينية المقدّمة للآلهة ، و ذلك مع كتائبهم . كذلك لم تطلب الكنيسة من الجنود الملتحقين بالجيش ان يتمرّدوا أو أن يتسرّعوا في معارضة ذوي السلطة . و لم تفرض الكنيسة على الجندي الذي اعتنق المسيحية أن يغادر الجيش بسرعة ، بل كانت تشجّعه على البحث عن عمل آخر حالما يتحرر من قيود عمله السابق . و هذا لم يكن يسبّب أية صعوبة ، إذ إن الدولة يمكنها أن تملأ مركزه و رتبته بشكل آخر . و عندما يتحرر الجندي المسيحي من التزاماته العسكرية ، فذلك لن يؤثر سلبًا في الدولة ، لأنه بإمكان الولاية ان تملأ مركزه و رتبته بشخص آخر من دون أيّة صعوبة تُذكر . هذا ، ولم يكن هناك نقص في عدد المتطوّعين من الوثنيين في القوات الامبراطورية . و من جهة أخرى ، لم يكن المسيحيون يُجنّدون ضد إراداتهم ، لذلك فإن هذا الأمر لم يُثر أية إشكالات او بلبلة في أوساط الكنائس المسيحية ، في شمال افريقيا .

و عليه ، نرى ان المسيحيين بدأوا يشكّلون جماعاتهم الخاصة بهم داخل البنية الرسمية للمجتمع الوثني ، مع كونهم آنذاك أقلية مضطهدة تكافح لتبقى ، و هي داخل غلاف هذه الامبراطورية الوثنية القوية . و ما كان المسيحيون أن يتصوّروا في تلك الأيام أنّ وقتًا سيأتي ، يتمكن فيه مسيحيّ من اعتلاء عرش هذه الامبراطورية ، و من ثم يَسُنّ قوانينًا تفرض مقاييس و مبادىء مسيحية على العالم المتحضّر بأسره .[40] و مع ذلك كانت الأجيال المسيحية الأولى ، في صلاحها الدؤوب و المستقيم ، سببًا في احترام جيرانهم و معارفهم ، وباعثًا على قبول الكثير من مثالياتهم في المجتمع العالمي ككل .

ملاحظات

1- Latourette Vol. I. p. 251
2- Latourette Vol. I p. 252
3- اعمال 2:42 - 47
4- اعمال 5:13 - 14
5- اعمال 1:8
6- مرقس 12:31 . راجع ايضاً أفسس 4:25 ؛ رومية 15:2 .
« كانت المسيحية اول ما تتأسس في مكان ما ، تقوم بنفسها بأفضل عمل إرسالي . كانت تنمو بشكل طبيعي من الداخل . و كان مجرّد حضورها يجذب الناس . كانت نوراً يشع في الظلام و ينير هذا الظلام . و مع غياب الجمعيات الإرسالية المتخصّصة لهذا العمل المحدّد ، كانت كل كنيسة محلية بمثابة جمعية إرسالية ، و كان كل مؤمن مسيحي مرسلاً و صاحب قلب مضرم بمحبة المسيح ، و يسعى جاهداً لربح الناس للطريق نفسه . »
(Schaff *HOTCC* Vol. II p. 20)
ان الامبراطور الوثني يوليَان (Julien) (361 - 363 م) عزا شعبية المسيحية مع انتشارها السريع في بدايتها ، الى ثلاثة أسباب : اللطف ، الأمانة ، و الاهتمام بالموتى (تدبير دفن لائق بالنسبة الى الفقراء) .
(Schaff *HOTCC* Vol II p. 381)
7- أفسس 6:9
8- أفسس 6:5 - 8 ؛ تيطس 2:9 و 10
9- Hamman 134 (*Sermon* 356:7)
10- 1 كورنثوس 7:20 - 22
11- فيلبي 4:4 ، 11 - 13 ؛ تكوين 39:20 - 23
12- غلاطية 3:28
13- Schaff *HOTCC* (Vol. II p. 351); *Martyrium* 3 (*ANF* Vol. I p. 305)
14- يوحنا 17:15
15- يعقوب 2:1 - 4
16- يوحنا 18:36
17- *Apologeticus* 38
18- كولوسي 3:12 - 14
19- فليمون 16 و 17
20- أفسس 5:22 و 25
21- مرقس 10:8 و 9
22- *Ad Uxorem* 2:8 (راجع ترجمة Schaff في *HOTCC* Vol. II p. 364)
23- أفسس 5:31
24- Schaff *HOTCC* Vol. II p. 363
25- أمثال 31:10 ، 11 ، 26
26- أعمال 18:26

27- مرقس 14:10
28- أفسس 4:6
29- 2 تيموثاوس 1:5 ؛ 15:3
30- اعمال 34:20 و 35
31- اعمال 3:18
32- 2 تسالونيكي 7:3 و 8
33- أفسس 28:4
34- 2 تسالونيكي 10:3
35- تيطس 1:3
36- 1 تيموثاوس 8:5
37- لقد اعتبر ترتوليانوس أنه كان من الضروري على الأولاد المسيحيين في المجتمع الوثني ان يلتحقوا بمدارس وثنية : و إلاّ سيشبّون أميّين . بالمقابل ، سيساعدهم ما حصلوا عليه من تعليم مسيحي في البيت على تقويم ما يدرسونه و التمييز بين الحق و الباطل . ففي المدرسة ، يكون الفتى المسيحي « في أمان ، كمن يقبل السمّ من دون أن يشربه . » (*De Idolatria* 10) . و هذا الأمر ، زاد بالطبع من مسؤولية الأهل لجهة تعليم أولادهم و مساعدتهم على التمييز .
38- مثلاً ، متى 39:5 ، 44
39- *De Idolatria* 19 ؛ بالإشارة الى متى 52:26
40- مثلاً ، لقد أصدر الامبراطور قسطنطين في العام 315 م قانونًا يحظّر فيه وسم العبيد على الوجه . و في السنة التالية ، سهّل عملية الإعتاق اذ جعل لها شرطًا واحداً : ان يوقّع سيّد العبد على شهادة بهذا الخصوص ، و ذلك عوضًا عمّا كان يدور من قبل من احتفال بالإعتاق في حضور الحاكم و مساعده . كذلك شرّع الامبراطور لمنع الأهل من قتل الأولاد غير المرغوب فيهم .
(Schaff *HOTCC* Vol. II pp 350, 370)

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص حياة الكنائس المسيحية الأولى ، يمكن الرجوع الى المصادر الثانوية التالية :

Green pp. 134 - 199, 234 - 285; Bainton pp. 71 - 110
Neill pp. 43 - 44; Latourette Vol. I pp. 244, 261 - 265, 291
Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 334 - 386; Foakes - Jackson pp. 236 - 239.

الفصل السادس

الجماعة المسيحية

بعد أن سمع المسيحيون الجدد بعض الأمور التي تتعلق بحياة المسيح ، و اختبروا بأنفسهم قوة روح المسيح التي كانت تعمل في وسطهم ، انكبّوا بشوق و حماسة شديدين على دراسة ما كتبه اتباع المسيح الأوائل . اولئك الذين رأوا المسيح و سمعوه و عاشوا معه ، ماذا يقولون عنه ؟ و كيف وضع كل من بطرس و يوحنّا و يعقوب تعاليم ربهم موضع التنفيذ والممارسة ، و ذلك في المناطق و الأقسام الاخرى من عالم البحر الابيض المتوسط ، حيث كانوا يعيشون و يسكنون ؟ كان شكل الكتابات التي جاء بها المسافرون المسيحيون تختلف في الواقع ، عمّا كان عليه الدرج الملفوف حول المقبض او المسلّة الخشبية ، و الذي كان يستعمله اليهود ويعلّمه معلموهم منذ اجيال طويلة . فالمسيحيون في الحقيقة ، كانوا الروّاد في استعمال الكتب المكوّنة من صفحات مكتوبة باليد و مدمجة بواسطة الخياطة في مجلدات بشكل يسهل نقلها و استعمالها كمرجعية عند الضرورة .

انكبّت مجموعة من الرجال و النساء على قراءة ما كُتب عن سير المسيح و رسائل الرسل التي اعترضت سبيلهم . فالقادرون منهم على القراءة بشكل جيد نسخوا باعتناء شديد ، نسخة من هذه المخطوطات ، او طلبوا من آخرين ان يقوموا بذلك . و في بداية القرن الثالث ، لم تعد اللغة اليونانية اللغة العالمية المستعملة في حوض البحر الابيض المتوسط ، لذا طلب اولئك الذين لم يتمكّنوا من فهم لغة العهد الجديد الأصيلة تلك ، توضيح معانيه و مفاهيمه . إلاّ انه كانت هناك ترجمة باللاتينية ، و كانت معروفة بين الجماعات المسيحية المثقّفة .

كانت كلمة الله مصدراً مشجّعًا للاجتماعات . و قد شجّع بولس تيموثاوس في أفسس لكي يسير في الاتجاه عينه إذ قال له : « الى ان أجيء اعكف على القراءة و الوعظ و التعليم . »[1] وكتب يُوسْتِينُوس الشهيد (Justin Martyre) تقريراً من روما في العام 150 ميلادية مفاده ان «اجتماعات الكنيسة في روما كانت تبدأ بقراءة ما سجّله الانبياء من كتابات و ما كتبه الرسل .»[2] ثم كان أحد قادة الكنيسة يقوم بتفسير الشواهد و الفقرات ، و بعد ذلك يصلّي الجميع و يعبدون معًا . و بعد خمسين سنة ، كتب ترتوليانوس : « كان يُطلب من كلّ عابد ان يقف ظاهراً امام الجماعة و بحسب قدرته يسبّح الله ، و ما يرتّله او يرنّمه يكون إمّا مأخوذًا من الكتاب المقدس ، و إمّا من تأليفه الخاص . »[3] و ما استطعنا ان نعرفه من العدد القليل المتوافر لدينا من الترانيم التي كانت تُرتّل في اثناء العبادة ، يُظهر أنّ الإنشاد كان مأخوذًا من المزامير المترجمة الى اليونانية او اللاتينية بشكل عام .

كان المسيحيون يقيمون احتفالين كبيرين رئيسين ، الأول و الأهم هو الاحتفال بعيد القيامة المجيد الذي يتذكّرون فيه موت مخلّصهم و قيامته . امّا الاحتفال الثاني فكان يجري في يوم الخمسين ، أي خمسين يومًا بعد قيامة المسيح . إن الصلوات التي كانت تقام خلال الفترة الواقعة بين عيدي القيامة و يوم الخمسين ، كانت تُرفع بينما يكون المؤمنون وقوفًا عوضًا عن ان يكونوا راكعين .[4] الى هذا ، كان هناك حدث آخر هام احتفلت به الكنيسة اسبوعيًا ، الا و هو يوم الرب . فاستناداً الى ما كتبه ترتوليانوس ، جُعل اليوم الأول من الاسبوع - أي يوم الاحد - و في هذا اليوم يرتاح المؤمنون من اعمالهم و مشاغلهم الدنيوية . و أصبح هذا اليوم هو يوم العبادة المشتركة لكل المجموعات المسيحية ، حيث تقام صلوات جماعية و أحاديث للمؤمنين في أمور الله . قال ترتوليانوس في هذا الصدد : « لقد جعلنا يوم الأحد يوم احتفال ، وخصصناه لنفرح فيه . »[5]

وقد اردف ترتوليانوس قائلاً إن في هذا اليوم يجتمع المسيحيون للاحتفال بالعشاء الرباني . و هم يجتمعون دائمًا في مساء أول يوم في الأسبوع ، كما كان يفعل نظراؤهم في ترواس حيث وقعت تلك الحادثة المشهورة عندما بقي الرسول بولس يتحدث حتى الفجر .[6] ويبدأ الأحد ، بحسب العادة المتبعة آنذاك ، عند الغسق . و عليه ، فإنّ الاجتماع كان يُعقد في الوقت الذي ندعوه اليوم « ليلة الأحد» . فكانت القناديل تضاء ، و كانت تَستحضر الى أذهان الحاضرين ، تلك الصورة البهية الرائعة ، و هي صورة العشاء الاخير الذي شارك فيه الرب يسوع تلاميذه الاثني عشر ، « في الليلة التي أُسلم فيها . »[7] و في أيام الاضطهاد ، كان منَ الأسلم للمؤمنين أن يجتمعوا ليلاً ، بينما فضّل المؤمنون في مناطق أخرى أن يجتمعوا قُبيل الفجرَ أو في صباح اليوم التالي .

لم يكن العشاء الرباني اجتماعًا شعبيًا عامًا ، و نادراً ما كان يؤتى على ذكره في الخطابات الموجّهة لغير المسيحيين . فالعشاء الرباني ، في الواقع ، لم يكن معدّاً إلا لأولئك الذين نذروا أنفسهم للسلوك في طريق الرب ، ليذكروه خلال هذا الاجتماع بمحبة ، و يقتربوا أحدهم من الآخر بإيمان مشترك . الاغنياء و الفقراء و مالكو الاراضي و العمال ، السادة و الخدم ، كل هؤلاء كانوا يجتمعون في غرفة كبيرة واحدة ، في بيت من بيوت هؤلاء المجتمعين ، او في قاعة خاصّة فُرزت لهذا الغرض ، و هم يأخذون أماكنهم بشوق و ترقب ، لما سيمنحهم اياه الرب حين يرفعون اليه قلوبهم بالصلاة و الدعاء ، و البركات التي سيهبها لهم لينقلوها الى الآخرين .

كانوا الى هذا يتذكرون ايضًا ، كيف أنّ الرب بعد أن غسل أرجل التلاميذ ، جلس و أكل معهم العشاء الأخير . و كانوا يُعيدون الى ذاكرتهم كلمات الرب عندما أخذ خبزًا و بارك وكسّر و اعطاهم قائلاً : « هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم . اصنعوا هذا لذكري . »[8] لقد أعادوا إجراء المشهد بأنفسهم ، فكسروا الخبز و أخذ كل واحد منهم قطعة منه . ثم تذكّروا ايضًا كيف اخذ سيدهم الكأس و قال : « هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُسفك عنكم .»[9] و عندها نقل المؤمنون الكأس من شخص الى آخر ، و هكذا ، حتى رشف الجميع

منه رشفة رشفة . و اخيراً فكّروا في ما قاله الرب لتلاميذه عندما اوشك ان ينهي عشاءه الاخير معهم : « وصية جديدة انا اعطيكم ان تحبوا بعضكم بعضًا . كما أحببتكم انا تحبون انتم ايضًا بعضكم بعضًا . بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضًا لبعض . »[10] فشعروا آنئذ في ما بينهم بشعور مفعم بالنشاط مليء بالحيوية ، إذ غمرهم حبهم المقدس للمسيح الذي جمعهّم برباط قوي ثابت لا يتزعزع .

اخبرنا ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني ، و كذلك اغسطينوس في القرن الرابع ، ان الزوار الوثنيين و المؤمنين غير المعمّدين ، كانوا يتركون الاجتماع قبل الاحتفال بذكرى العشاء الرباني . و في جميع المناسبات التي يحضر فيها أولئك ، كانوا يدركون ضرورة المغادرة قبل البدء بالاحتفال بالشعائر الدينية المقدسة ، حيث ان هناك اسراراً في هذه الطقوس و الشعائر لا يمكن اعطاؤها إلاّ للذين كانوا في سلام مع الله .[11] كان المؤمنون يتناولون الخبز و الكأس باحترام و توقير عظيمين ، لأنهما يرمزان الى جسد المسيح و دمه . و يخبرنا ترتوليانوس ايضًا أنّ الذين كانوا يشاركون بذكرى العشاء الرباني ، اهتموا جدًا بألاّ تسقط كسرة خبز إلى الأرض ، و ألاّ تراق قطرة واحدة من الشراب . و عند الانتهاء من اجتماعهم ، كانت تؤخذ بعض الكسر من الخبز الى دُور اولئك الذين بلغ بهم المرض او الضعف او كبر السن حدًا منعهم من حضور الاجتماع .

بعد الانتهاء من كسر الخبز ، كان المؤمنون يُدعون الى عشاء مشترك يُسمّى « وليمة المحبة » (Agapé) . وصف ترتوليانوس هذه الوليمة هكذا : « عيدنا هذا ، تظهر طبيعته من اسمه الذي يعني المحبة في اللغة اليونانية . و في هذه الوليمة لا يُسمح بأيّ فساد أو خسّة في التصرف . نجلس لنتناول الطعام ، و لكن ليس قبل ان نتذوّق اولاً نكهةَ الصلوات الى الله ، فنأكل بما فيه كفايتنا ، و نتحدث بعضنا الى بعضنا الآخر ، و نحن نعلم أن الله يستمع الى كل ما نقوله . »[12]

كان المسيحيون يأتون بعطايا ما أنعم به الله عليهم من خبز و فاكهة و غير ذلك ، كلٌّ حسب استطاعته ، و كانت هذه الهبات تشكّل اساسًا للوليمة العامة . أمّا الزائد من الطعام ، إضافة الى النقود التي يُقدّمها الواهبون ، فقد كانت تُعطى للمحتاجين من اعضاء الكنيسة ، كالأيتام و الأرامل الذين ليس لهم من يعيلهم . و كذلك الحال بالنسبة الى الذين يعانون جروحًا أو أمراضًا بالغة الخطورة و لم يعودوا يقوون على العمل ، أو الذين فقدوا موارد الرزق و اسباب العيش و سبله ، بسبب إيمانهم بالمسيح ، و هم يجتازون أزمات اذ يبحثون عن عمل آخر . على أنّ قسمًا من المال كان يُدّخر لتجهيز متطلبات الضيافة التي تُقدّم للمسيحيين المسافرين ، أو يُعطى لأولئك الذين سُرقت أموالهم او نجوا من الموت في أسفارهم البحرية وأضاعوا كل شيء . أو لدفع نفقات جنازات الموتى الفقراء من اعضاء الكنيسة . و احيانًا نقرأ عن مال استُعمل لافتداء مسيحيين سُجنوا بسبب إيمانهم ، أو أُرسلوا في عقوبات تتراوح بين الاشغال الشاقة و العبودية . و في بعض الأحيان كانت تُرسل مساعدات الى كنائس في أماكن أخرى خلال ايام المجاعات او الضيق و الحرمان . و هذا ما أكّده ترتوليانوس بقوله : « هذا ، كما يبدو ،

هو مخزوننا و رصيدنا من اللطف . فنحن لا نصرف من رصيد هذا المال لإقامة احتفالات الأكل و الشرب ، و لا لإحياء حفلات اللهو المبتذل و الصاخب ، بل لإطعام الفقراء او دفنهم . كما نساعد الاولاد و البنات الايتام المحرومين . و كذلك العجزة المقعدين بسبب المرض ، أو أولئك الذين ضاع منهم كل شيء بعدما نجوا من الموت في رحلاتهم البحرية . او ندفعه فدية لأولئك الذين في المناجم (الذين حكم عليهم بهذا العمل لأنهم مسيحيون) ، او مَن أُبعدوا عن الوطن الى جزر نائية او اودعوا السجون . » [13]

كان من المستحب أن يساهم كل عضو من اعضاء الكنيسة في تقديم التبرعات التي يمكنه ان يتبرع بها ، و لم يكن هذا التبرع إلزاميًا ، كما أن هذه التبرعات لم تكن اجوراً او تعويضًا لما يُقدّم للمتبرع او المتبرعة من بركات روحية . قال ترتوليانوس : « ليس لأمور الله أي ثمن . مع ان لنا نوعًا من صندوق المال ، لكنه ليس لجمع أجور او اشتركات رسمية او دينية ثابتة . كان كلّ منّا يتبرع تبرعًا صغيراً في اليوم المحدد من كل شهر ، أو في أي يوم يختاره المتبرع بنفسه ، و يتم هذا التبرع حسب إمكانيته المالية ، كما أن هذا التبرع كان اختياريًا . »[14] و حيث عرفوا أنه « مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ ، »[15] كان المتبرعون مسرورين للمساهمة قدر المستطاع ، و ذلك بموجب تدبير الله و إرشاده . كتب بولس الرسول : «كل واحد كما ينوي بقلبه ليس عن حزن او اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الله . »[16]

لقد علّم المسيحيون انّ الممتلكات و المقتنيات ليست سوى وديعة مقدسة يجب أن تدبّر بالصلاة ، و تُدار بحكمة و رويّة و تعقّل ، للحصول على هدايته تعالى و توجيهاته . وكلّ ما يحصل عليه الرجل او تحصل عليه المرأة من الرب ، يجب استعماله بشرف و أمانة و من دون تفاخر او تباه . إنّ الانسان ليس إلا وكيلاً مُشرفًا مسؤولاً ، و سيكون عرضة للمحاسبة امام كرسي الحكَم يوم الحساب . و عليه ، يجب ان يصرف الانسان عطايا الله بحذر و تؤدة ، ولمصلحة ملكوته جلّ جلاله .

و حتى الفقراء ، فإنّ حالهم كحال غيرهم من الأغنياء ، فهم عُرضة ليحاسبوا امام الله عن كل ما بحوذتهم ، مهما كان متواضعًا . فهناك دائمًا من هو بمسيس الحاجة الى المساعدة ، و لم يُحرم أحد من امتياز خدمة المحرومين و من بركة جمع كنوز لنفسه في السماء . فكل واحد يساهم « بما تيسّر » بحسب طاقته .[17] ألسنا نعتبر من الفلسين اللذين القتهما الأرملة الفقيرة حيث قال عنها يسوع : « الحق اقول لكم ان هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت اكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة . لأن الجميع من فضلتهم ألقوا . أمّا هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها كل معيشتها . »[18] كان هناك الكثير من الارامل في كنائس شمال إفريقيا اللواتي حذَوْن حذو هذه الأرملة الفقيرة . لقد كان كنزهن قليلاً في هذه الدنيا ، و لكنه كان كبيراً في الجنة .

على أن مثاليات المسيحيين تخطّت حدود المادة الى ما هو أبعد من ذلك بكثير . فوصلت الى حد تكريس شخصية متفانية للغاية . لقد كرّس الأفراد أوقاتهم و قواهم الجسدية و قدراتهم الأخرى للعمل الإلهي . فهناك أساليب عديدة يستطيع المؤمن من طريقها ان يخدم الآخرين في

الكنيسة . أوضح العهد الجديد ذلك بالقول : « لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى وأنتم بكل حكمة معلمون و منذرون بعضكم بعضًا . »[19] و ليس مرة واحدة فقط في الأسبوع « بل عظوا أنفسكم كل يوم . »[20] كان هناك كثيرون في حاجة إلى هذا الوعظ والتشجيع ، و كان من بينهم أناس حديثو الإيمان ما زالوا يتخبّطون في شكوك و أسئلة تحتاج الى حل . كما كان بعض المؤمنين القدامى يُعانون آلامًا مبرحة : سيد قاس غَليظ ، زوجة وثنية تتذمر و تشكو باستمرار ، زوج وثني مستبد متغطرس ، و ربما مرضٌ مزمن او عمى او شيخوخة . لقد كان على المسيحيين « افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم . »[21] و مهما واجهوا من مشاكل و عقبات في البيت الذي يزورون أصحابه ، فهناك دائمًا مصدر لا ينضب و لا يكلّ يقف في وجه هذه الحاجات البشرية : إنه محبة الله نفسه . فالله قريبٌ دائمًا ممّن يحتاج إليه ، و قد أوصي الكتابُ المقدسُ المؤمنين قائلاً : « مصلّين بكل صلاة و طلبة كل وقت في الروح و ساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة و طلبة لأجل جميع القديسين .»[22] وكانوا يحصلون على استجابات كثيرة لصلواتهم .

كان بإمكان المرأة ، بشكل خاص ، أن تعمل أمورًا كثيرة ، عندما يكون زوجها مشغولاً في العمل ، و في متطلبات الحياة الأخرى . كانت صديقات النسوة و جاراتهن يرحّبن بهن في دورهن . و كُنّ دائمًا ، يتركن خلفهن انطباعًا طيبًا للغاية . فالمرأة المسيحية المؤمنة كان لها تقدير كبير بسبب ما أعطاها الله من زينة روحية عميقة في « زينة الروح الوديع الهادىء الذي هو قدام الله كثير الثمن . »[23] هي لطيفة عطوف ، تصغي جيدًا و بكل أدب ، وهي الى ذلك صديقة مخلصة . و مثل تينك النساء يكنّ بركة حيثما ذهبن . كانت «مشهودًا لها في أعمال صالحة . . . ربّت الاولاد ، أضافت الغرباء ، غسلت أرجل القديسين ، ساعدت المتضايقين ، اتّبعت كل عمل صالح . »[24] إنّ هذه الخدمة التي قدمتها النساء لأولاد الله ، قُبلَت و كأنها خدمة للرب يسوع المسيح نفسه . « يا رب متى رأيناك جائعًا فأطعمناك او عطَشانًا فسقيناك . و متى رأيناك غريبًا فآويناك . او عريانًا فكسوناك . و متى رأيناك مريضًا او محبوسًا فأتينا اليك . » فيجيب الرب يسوع و يقول لهم : « الحق اقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم . »[25]

كان المسيحي قبل ان يسافر الى بلدة او مدينة أخرى ، يسأل اصدقاءه إن كانوا يعرفون أحدًا من تلاميذ المسيح او أتباعه في تلك الديار التي سيزورها . و بعد أنْ يُزوّده المؤمنون باسم أحد القادة او النظار في الكنيسة هناك ، أو بموقع او مكان عمله ، كان المسافر يقصده حالما يصل الى المكان . فإذا لم يتمكن الناظر شخصيًا من الاعتناء بالزائر ، فإنه كان يجد له مأوى مع عائلة مسيحية أخرى . فالنزل او الفندق الصغير في تلك الأيام ، كان مأوى معروفًا للرذيلة والدعارة ، يكثر التردد اليه . لذا لم يكن المؤمنون يُرسلون اليه . لقد كانت إضافة الغرباء واجبًا ضروريًا وعاملاً أساسيًا مطلوبًا من المسؤولين في الكنيسة . « لأنه يجب أن يكون الأسقف (الناظر) بلا لوم . . . بل مضيفًا للغرباء . »[26]

و لكنْ ، بنمو الكنيسة ، اعتاد بعض المحتالين ، ان يستغلّوا احيانًا ، المسيحيين ولطفهم . ولمنع ذلك ، فقد أصبح من الضروري على المسافرين الغرباء ان يتزوّدوا بكتاب تعريف موقّع من أحد شيوخ الكنيسة . و حتى بالنسبة الى النظّار الذين يسافرون لحضور المؤتمرات في قرطاجة أو غيرها من المدن ، كان لزامًا ان يعرّف بهم ناظر آخر و احد على الأقل قبل أن يؤذن لهم بالدخول . فقط كبار القادة المشهورين ، لا يحتاجون الى شهادة او تعريف ، لأن مثل هؤلاء تشهد ثمار حياتهم و سيرتهم عن الايمان . و الرسول بولس يسأل في هذا المجال ممازحًا : « أفنبتدئ نمدح أنفسنا ، أم لعلّنا نحتاج كقوم رسائل توصية اليكم او رسائل توصية منكم . أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة و مقروءة من جميع الناس . »[27]

كان مسيحيو شمال إفريقيا الأولون يعمّدون من يهتدي الى الإيمان ، كما فعل يوحنا المعمدان ، و ذلك بتغطيس المهتدي في الماء . و ترمز هذه المعمودية قبل كل شيء ، الى بداية نقيّة منتعشة حيّة ؛ أي انها رمز موت الإنسان القديم و قيامة الإنسان الجديد ، زوال الخاطئ و ظهور الانسان المبرّر . لأنه كما يغسّلُ الماء الجسم ، كذلك يعمل غفران الله على تنقية الضمير . و غالبًا ما كان المسيحيون يعتمدون في الجداول و الأنهار و في بعض الأحيان يعتمدون في البحر . لم تكن الأحواض الخاصة بالمعمودية قد استُنبطت بعد ، لأنها لم تُعرف إلا في بداية القرن الرابع للميلاد ، و قد شُيّدت خصيصًا لهذا الغرض ، و زُودت بدرجات تقود المرشّح الى داخل الماء . هذا ، و إنّ بعض تلك البرك شُيّد بشكل يمكن اضرام نار تحت ارضيتها لتسخينها .

كانت المعمودية مناسبة عظيمة تُوقع الرهبة في النفوس ، و كان المقبلون على المعمودية يستعدّون لها بالصوم و الصلاة . كما كان المؤمنون يعترفون بخطاياهم علانية أمام الجميع ، ويتبع ذلك ، الابتعاد عن توافه ابليس و إغراءته . بعد كل ذلك يقاد المرشحون للمعمودية الى الماء . وعندما يقف المرشح للمعمودية أمام الماء ، يُسأل عن مدى إيمانه . فيؤكّد ثقته بيسوع المسيح ويعلن عن رغبته في أن يتبعه بإخلاص و إصرار . ثم يغطّس في الماء ، باسم الآب ، و الابن ، و الروح القدس . وفي بعض الأحوال ، إذا كان المرشح طاعنًا في السن او عاجزاً واهن القوى ، أو إذا لم يكن هناك مكانٌ ملائم للغطس ، يمكن إجراء المعمودية بسكب الماء فوق رأس المؤمن باسم الآب و باسم الابن ثانيًا ، و أخيراً باسم الروح القدس .[28]

ففي زمن كتابة العهد الجديد ، كان اولئك الذين آمنوا يُعمّدون فور إعلان ايمانهم ومجاهرتهم به . ومثال على اولئك المؤمنين الوزير الإثيوبي و كرنيليوس قائد المئة ، وليديا والسجان الفيلبي . فجميع هؤلاء اعتمدوا في اليوم ذاته الذي سمعوا فيه البشارة ، و آمنوا بالرب يسوع المسيح . لقد قبل هؤلاء الرسالة بصدق و إخلاص و اعتمدوا فور قبولهم لها . كانت البشارة في عهد الرسل مثيرة ، و عملها سريع و فوري ، و زخمُ هذا التبشير لا يطيق التأخير أبداً . لم ترفض الكنيسة ان تحقق أمنية أولئك الذين رغبوا في إعلان ايمانهم امام الملإ وبشكل مفتوح .[29] و لكن مع الوقت بات واضحًا ، و للأسف ، انه يمكن للانسان ان يطلب العماد من دون ان يكون لديه مثل هذه الحوافز النقية الخلوصة . و حتى في العهد الجديد نفسهَ ، نجد ان الساحر المشعوذ سيمون ، الذي كان ايمانه بكلمة الله ظاهريًا فقط ،

قد اعتمد كبقية المؤمنين . و لكنْ ، سرعان ما اتّضح أن أغراضه كانت غير نقية ، و فهمه للإيمان كان مضطربًا و باطلاً . و نفهم من كلام بطرس لسيمون انه اذا كان قد طلب المعمودية من دون أن يكون جديراً بها ، فهو وحده يتحمّل الذنب و يستحقّ أن يعاقَب على تصرّفه .[30]

كان من المفضّل تجنّب مثل هذه الحالات الشاذة ، لذلك وجدت كنائس القرن الثاني للميلاد انه من الحكمة ان تؤجل المعمودية ، على الأقل ، حتى يناقش كل من يرغب في المعمودية مبادئ الإنجيل مع قادة الكنيسة ، و يفهمها بعمق . فبدأت الكنيسة تعطي دروساً نموذجية لأولئك الذين يطلبون المعمودية ، متأكدة في الوقت عينه من أنهم قد بدأوا يدركون أهمية الخطوة التي يريدون ان يخطوها . و كان لهذا الأمر أهمية كبرى في تلك الأيام ، حيث كان الإيمان بالمسيح والاعتراف به جهراً ، يكلّف صاحبه أحيانًا حريته أو حياته ؛ كما أن قبوله في جماعة المسيحيين قد يكلّف الآخرين حريتهم أو حياتهم في حال برهن هذا الشخص أنه خائن أو صانع شغب . قال ترتوليانوس : « يجب ان يعلم المسؤولون عن المعمودية انه لا يجوز ان يُجروا هذه المعموديات من دون تبصّر او رويّة ، لذا فإنه من المفيد تأخير المعمودية ، لدرس حالة و شخصية كل مرشّح للمعمودية بتمهّل . » [31] و قد نصح ترتوليانوس بعدم تعميد اولئك الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد ، خشية ان يتعرّض ايمانهم للتجربة اذا ما واجهوا تجارب المراهقة و إغراءاتها ، فيجلبوا العار على اسم المسيح . و أضاف ترتوليانوس يقول : « إنّ اولئك الذين يستمعون الى كلمة الله ، عليهم ان يكونوا مشتاقين الى الحصول على المعمودية ، لا أن يطلبوا المعمودية بسرعة ، و كأنها حق لهم ، فالمشتاقون للمعمودية يشرّفونها ، أمّا اولئك الذين يطالبون بها بسرعة فسيزدرون بها سريعًا . . . إذاً ، فالأول يشتاق أن يكون مستحقًا لها ، بينما الثاني يظن أنه مستحق لها و يعتبرها من حقه . »[32]

و بحلول القرن الثالث للميلاد ، أصبحت فترة تحضير الأشخاص و تعليمهم واختبارهم تمتدّ الى ستة أشهر ثم الى سنة ، و في بعض الأحيان وصلت مدة الاختبار الى ثلاث سنوات ؛ ان الوقت المفترض للمرشح يختلف من مكان الى آخر . فالكنائس الكبرى كانت تُعيّن معلمين مخصّصين لتعليم مرشحي المعمودية على أساس عقيدة الإيمان . و كل من كان يُقدّم طلبًا ليتعمّد كان يُسأل أولاً لماذا يريد ان يتعمّد . و بعدها يتمّ الاستفسار عن تجارته او مهنته ، فإذا كان عمله يُظهر تعارضًا مع الايمان المسيحي ، كان عليه اولاً ان يتخلّى عن ذلك العمل قبل أن تُجرى مراسيم معموديته . و بعد ان يتعمّد ، يمكنه ان يشارك في العشاء الرباني ، و أن يشارك مشاركة كاملة في حياة الكنيسة .

منذ البداية الأولى ، كان قادة الكنائس يواجهون ذلك السؤال الصعب عمّا يجب عمله بأولئك الذين يقعون في خطية خطرة بعد معموديتهم . و هذا الأمر لم يكن يهم قادة الكنائس وحدهم ، بل ايضًا جميع المهتمين بسعادة اخوتهم و أخواتهم بالمسيح . و قد كان هدف التهذيب الروحي هو أن يدلّ الأئمة الى طريق التوبة و الرجوع الى الرب . كتب الرسول قائلاً : «إن انسبق انسان فأُخذ في زلة ما فأصلحوا انتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ناظرًا الى نفسك لئلا تجرّب أنت أيضًا . » [33] فإذا ما وجد المسؤولون أية علامة من علامات التوبة الحقيقية و العزم

على ألاّ تتكرر المعصية ، عندها يُرحّبُ بعودة الآثم الى جماعة المؤمنين و الكنيسة . و يجب عندها ان يسامَح و يُقبل في الكنيسة من جديد . قال بولس الرسول : « تسامحونه بالحري وتعزّونه لئلا يُبتلع مثل هذا من الحزن المفرط . »[34] ولكنْ من ناحية أخرى ، إذا لم تظهر علامات تدل على الندم الحقيقي ، او رغبة حقيقية في إطاعة كلمة الله ، يجب استثناؤه من عضوية الكنيسة و اجتماعاتها . « أمّا الآن فكتبت اليكم إن كان احد مدعواً أخًا زانيًا او طماعًا او عابد وثن او شتامًا او سكيراً او خاطفًا ، ان لا تخالطوا و لا تؤاكلوا مثل هذا .»[35]

و الواضح من كل ذلك ، أنّ المؤمن المعمّد ، الذي وُجد متورطًا بخطية الزنا ، او عبادة الأوثان ، كانت الكنيسة تعامله بأكثر قسوة من المؤمن الجديد الذي أفلت حديثًا من هذه الأمور التي لا تزال تمارس تأثيرها فيه . أما الوثني الذي كان على حافة الجماعة المسيحية ، كهؤلاء الذين كانوا مرتبطين ببعض أعضاء الكنيسة قبل إيمانهم ، فقد كانت الكنيسة تعاملهم بلطف و صبر إذا ما وقعوا في الخطيئة والرذيلة . فلم يكن أمراً مفاجئًا أن يرتكب هؤلاء الوثنيون الزنى او ان يعبدوا الأصنام ، لأنهم لم يعرفوا بعد طريق الله و لا اختبروا قوة روحه في قلوبهم .

و قد كتب ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني للميلاد ، كيف ان المسيحيين كانوا جديين في التشديد على مسألة التهذيب و الانضباط ، و كذلك في دعوة بعضهم بعضًا الى المحافظة على نقاوتهم و قداستهم : « نحن جسد متّحد بمعتقداتنا الدينية ، و بتهذيبنا المقدس ، وبرباط الرجاء . اننا نقوم بالوعظ و التنبيه و التوبيخ الروحي لأننا نضطلع بمسؤوليات الحكم بجدية و رزانة كبيرة ، عالمين في المطلق أننا تحت نظر الله . و حينما يخطئ شخص بشكل كبير يجعلنا نُقصيه عن المشاركة في صلاتنا و اجتماعاتنا ، و من كل شركتنا المقدسة ، فإننا نكون بذلك قد أعطينا صورة عن يوم الحساب العظيم الآتي . »[36]

فإذا ما استُثني مسيحي ما من العبادة في الكنيسة و من العشاء الرباني ، فإن مثل هذا العقاب يبدو مرعبًا ، و في ذلك الوقت نقرأ عن أناس استمر حرمانهم مدة عشر سنوات او عشرين ، مع ما يشمل ذلك من الذل و الهوان من أجل إعلان توبة حقيقية صادقة ، و لاستعادة قبوله في شركة شعب الله . كتب لنا ترتوليانوس أنّه يجب على المؤمن الذي أخطأ الى الله عمداً ان يُظهر توبته باعتراف شامل بخطاياه ، و أن يمتنع عن كل الملذات ، و أن يصلّي بشكل دائم و يصوم ، و أن يناشد الإخوة ان يصلّوا من أجله و عندئذ فقط يتأكد انه لن يسقط في الخطية من جديد .[37] امّا أوريجانوس الذي كتب في الفترة نفْسها ، فقد قال إنّ المسيحيين الذين سقطوا في خطيّة شنيعة ، لا يمكن إعادة قبولهم في جماعة المؤمنين إلا بعد فترة طويلة من الاختبار الذي يمكن من خلاله معرفة ما اذا كانت توبتهم توبة حقيقية ، على أنه لا يمكنهم في ما بعد أن يأخذوا مركزاً او رتبة قيادية في الكنيسة على الإطلاق . و قد أضاف ترتوليانوس الى ذلك قائلاً إن القائد الروحي يُجرّد من وظيفته و مسؤولياته نتيجة زلّة او هفوة واحدة ، و لا يمكن ان يعاد الى رتبته مرّة ثانية بعد ارتكاب مثل هذه الزلة او الهفوة ، و قال مضيفًا إنه لأمر حيويّ جداً ، أنْ يمارس كلّ المسيحيين ما يعظون به . و يجب بكل وضوح ، أن يُظهروا للناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، أنه لا يجوز النفاق و الرياء في الكنيسة و لا يسمحَ بهما . و لهذا السبب لا تُقبل داخل الجماعة المسيحية إلاّ المستويات العالية من الفضيلة .

أمّا في المدن الصغيرة و القرى ، فقد استمرت اجتماعات المؤمنين في البيوت او الحقول و الغابات . على أنه في أواخر القرن الثاني للميلاد ، و بالرغم من الاضطهادات و المضايقات التي ابتلت بها جماعات المؤمنين ، أُفرزت أبنية خاصة للعبادة في المدن الكبرى . إن أبنية الكنائس في إفريقيا الشمالية تشابه بيوت السكن العادية التي يعيش فيها عامة الناس ، في ما عدا وجود غرفة مركزية كبيرة . و غالبًا ما تكون هذه القاعة مقبّبة ، وفيها مقاعد أمامية مرتفعة ، و هي مخصصة لأولئك الذين يقودون الاجتماعات . ويُجهّز جزء من هذه الغرفة « لمائدة الرب » التي يوضع عليها الخبز و الشراب في أوقات العبادة . أمّا زينة القاعة ، فبسيطة كبيوت المؤمنين العادية ، و ليس هناك أكثر من رسم بسيط يُبيّن مشهداً خاصاً بالكتاب المقدس او رمزًا للطريق المسيحية ، مثل لوحة جميلة من المرمر تمثّل الراعي الصالح ، و قد وُجدت هذه اللوحة في مقبرة تحت الأرض في مدينة سوسة بتونس .

و لكن يظهر أنّ الرمز المفضّل عند المسيحيين الأوائل كان « رمز السمكة » . فإن العبارة اليونانية « إختُوس » (ichthus) ، تشتمل على حروف استهلالية باللغة اليونانية للكلمات الخمس : يسوع المسيح ابن الله المخلّص . و يتحدّث ترتوليانوس عن هذا الرمز بشغف ، حيث أنّ الرمز بحدّ ذاته هو اعتراف ضمني بأن يسوع هو المخلّص المنتظر و ابن الله المتجسّد . و لذلك فالمؤمنون يحملون هذا الرمز بافتخار .

كان مسيحيو إفريقيا الشمالية يحبون ان يزيّنوا آنيتهم و أدواتهم وكذلك بيوتهم و مدافنهم بهذا الرمز ، او يرسمون عليها مرساة او يمامة . و لم يظهر الصليب في الفن المسيحي لشمال إفريقيا إلا في أواخر القرن الرابع للميلاد .[38] و الواقع ، أنّ في ذلك عجبًا ، لأنّ الصليب كان شيئًا معروفًا و شعبيًا في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية . ففي هرقولانيوم في جنوب ايطاليا (Herculaneum) ، وُجدت آثار نموذج لصليب مدفونة في الحمم اللابيّة لثورة البراكين التي وقعت في سنة 79 ميلادية . و لربما لم يُستعمل رمز الصليب في شمال إفريقيا إلا قليلاً ، لأنه يشابه كثيراً المثلث ، الذي يرمز الى الإلاهة الفينيقية تانيت .

لم يتبنَّ الوثنيون المهتدون الى المسيحية استعمال الأسماء المسيحية قبل حلول القرن الثالث او الرابع الميلادي . و قد استخدموا أحيانًا الأسماء المذكورة في الكتاب المقدس او غيرها من أسماء وثنية كان يحملها أناس استُشهدوا ببطولة في سبيل الدين المسيحي في الماضي أو أسماء بعض مشاهير المؤمنين المسيحيين . و من الواضح انهم كانوا يختارون أسماءَهم بعناية . و بعض هذه الأسماء تعبّر عن صفات شخصية كالاتضاع او الصبر ، و أخرى تتحدث عن السرور و النصر و الحياة الأبدية .[39] و لكن قبل هذا التاريخ ، و إبّان القرنين الأول والثاني ، أبقى المهتدون اسماءهم الوثنية بشكل عام ، حتى و إن كانت هذه الأسماء تشير الى آلهتهم الوثنية التي سبق أن عبدوها . فإذا غيّر المهتدي اسمه ، فإن ذلك سيكون برهانًا عمليًا عن تحوّله الى المسيحية و رفض الآلهة التي كانت تدعم المجتمع . و على أثر ذلك قد يغضب الأهل الوثنيون ، كما أنه قد تتاح بذلك الفرصة للعديدين لإحياء الضغائن ضد المسيحيين ، كل ذلك لا لأجل مبادئ روحية ، بل بسبب أسماء ليس إلا . بدل ذلك ، كان من الأفضل إظهار

حقيقة حب الله العملية ، و ذلك بحياة شريفة غير أنانية ، و اجتذاب الأصدقاء و الجيران الى الإيمان بالرب بهدوء و بملء إرادتهم . لقد تبنّى المسيحيون الأوائل نصيحة بطرس الحكيمة بجديّة : « قدّسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدين دائمًا لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة و خوف . » 40 لكن ، و بمرور السنوات و بينما كانت جماعة المؤمنين تنمو و تزدهر باطّراد ، رفض أعضاؤها ان يخفوا ضوء الإيمان تحت المكيال ، و بشجاعة كانوا يشهدون ، بالأسماء التي كانوا يحملونها ، للرجاء الذي نذروا انفسهم لأجله .

ملاحظات

1- 1 تيموثاوس 13:4
2- *Apologia* I:67 (*ANF* Vol. I)
3- *Apologeticus* 39
4- إن عيد الميلاد ، أي يوم ذكرى ميلاد المسيح ، أُضيف ابتداء من القرن الرابع ، الى الأعياد التي كان يحتفل بها المسيحيون .
5- *Apologeticus* 16 ؛ *Ad Nationes* 13
6- اعمال 7:20
7- 1 كورنثوس 23:11
8- لوقا 19:22
9- لوقا 20:22
10- يوحنا 34:13 و 35
11- Hamman p. 239 ؛ Foakes - Jackson p. 230, pp. 229 - 236
12- *Apologeticus* 39
13- *Apologeticus* 39
14- *Apologeticus* 39
15- اعمال 35:20
16- 2 كورنثوس 7:9
17- 1 كورنثوس 2:16 ؛ 2 كورنثوس 2:8
18- مرقس 43:12 و 44
19- كولوسي 16:3
20- عبرانيين 13:3
21- يعقوب 27:1
22- أفسس 18:6

23- 1 بطرس 4:3
24- 1 تيموثاوس 10:5
25 متى 25:37 - 40
26- تيطس 1:7 و 8
27- 2 كورنثوس 1:3 و 2
28- Foakes -Jackson p. 230 - 231
29- اعمال 2:38 ، 41 ؛ 8:12 ، 38 ؛ 10:48 ؛ 16:33
30- اعمال 8:9 - 24
31- *De Baptismo* 18
32- *De Poenitentia* 6
33- غلاطية 6:1
34- 2 كورنثوس 2:7
35- 1 كورنثوس 5:11
36- *Apologeticus* 39
37- *De Poenitentia* 9
38- كان المسؤولون الإيطاليون الذين كتب إليهم ترتوليانوس في نحو العام 198م ، على علم بأن رمز الصليب هو مستخدم في العبادة المسيحية . إلاّ أن ترتوليانوس كان يشير الى عادة أوروبية ، و ليس بالضرورة إفريقية .
(*Ad Nationes* 1:12 ؛ *Apologeticus* 16)
39- Latourette Vol. I pp. 261, 283
40- 1 بطرس 3:15

الفصل السابع

انتصار الحق

و في حوالي 160 للميلاد ، و في مدينة قرطاجة ، وُلد طفل لقائد مئة كان يعمل في خدمة الحاكم الروماني . و قد دعي هذا الطفل كُونْتُوس سِپْتِيمِيُوس فْلُورنس ترتُولْيَانُوس (Quintus Septimius Florens Tertullianus) . و لم يكن أبواه يُدركان ان ولدهماَ هذا سيصبح شخصية رفيعة المقام و النفوذ في أبناء جيله بشمال إفريقيا . لقد حظي ترتوليانوس بتعليم ممتاز ، و تخصص بعلم الفلسفة و القانون . انغمس في شبابه انغماساً متهوّراً بالرذيلة المفرطة التي كان يمارسها المجتمع الوثني . كذلك كانت تمارس الطقوس الدينية الوثنية ، و لكنه لم يفكر كثيراً في معاني هذه الطقوس او في مغزاها .

و لما بلغ الخامسة و الثلاثين من عمره ، قادته الأحداث الى أزمة شخصية . كانت السلطات الرومانية ، و لفترة من الوقت ، تراقب عن كثب ، نموّ الجماعة المسيحية في قرطاجة و تطوّره ، بريبة و شك متزايدين . فلم يكن المسيحيون يشاركون في التقدمات العامة ، و لا كانوا يحلفون بالعظمة السامية للامبراطور . فجأةً ، أُلقي القبض على عدد من هؤلاء المسيحيين ، و أُمروا بأن يخضعوا . وقد تأثر ترتوليانوس جداً من الشجاعة الخارقة التي أبداها المسيحيون في مواجهة الآلام القاسية التي كانت تصدرها السلطات الوثنية بحقهم . كان يعرف هؤلاء الرجال و النساء المسيحيين جيداً ، و يدرك تماماً أنهم براء من أي فعل سيء . كان المسيحيون قوماً شرفاء أفضل كثيراً في الواقع من الوثنيين الذين كانوا يسيئون إليهم . و ها هو الآن ، يشاهد بأمٍّ عينيه كيف يرفض هؤلاء المسيحيون أن يتنكروا لمعتقداتهم و إيمانهم ، بينما يواجهون الموت الجسدي بثقة و شجاعة باسلة ، مؤمنين بأنهم سيقومون من الموت ثانية . هذا الإيمان الواثق لم يجده ترتوليانوس في وثنيته السطحية المبادئ . كان عند المسيحيين ، وبكل وضوح فرح من نوع آخر و أعمق من ذلك الذي كان ينشده الناس في التسليات اللاأخلاقية في قرطاجة . كانت وجوه المسيحيين تُشرق إشراقة نبيلة هادئة ، و تسمو بهم فوق مستوى الرعاع ، و فوق مستوى معذّبيهم الرومان . و عندما كان ترتوليانوس يتأمل هذه الأمور ومضامينها ، كان يزداد اقتناعاً ، بأنّ هذه الحفنة من الرجال و النساء ، لا بدّ من أنهم يملكون شيئاً جديداً لا يُقدّر بثمن . فإذا كان درب المسيح هو الحق ، فليس أمامه إذاً ، سوى طريق واحد يمكنه السلوك فيه .

لم يكن ترتوليانوس ليقبل بأنصاف الحلول ، و قد تكشّفت هذه الصفة فيه بعدما اعتنق المسيحية ، حيث كان اندفاعه حماسياً مُتّقداً ، و ايمانه حاداً ، كما كانت مواصفاته عادة . لقد

غيّره إيمانه الجديد بشكل جذري . ، فحياته التي كانت بلا أهداف تُذكر ، أخذت اتجاهًا ثابتًا وراسخًا ، وشخصيته التي كانت متقلقلة صارت ثابتة ، و أفكاره التي كانت متقلّبة أصبحت مستقرّة على المبدإ الذي عرفه أنه مبدأ قويمٌ و حق . و شعر كأنه انسان جديد ، ورجل كامل ، و كان شعوره صادقًا . و في ما بعد ، كتب يقول : « يُصنع المسيحيون و لا يولدون هكذا . »[1] و حقًا كان هذا اختباره الشخصي . هذا ، و إنَّ مخيّلته الخصبة كانت تشدّه باستمرار الى طريق المسيح . أخيراً وجد السبب الذي من أجله كانت نفسه الحيوية والحساسة تصرخ باستمرار : إنّه الهدف الذي يستحق ان تُكرّس له الحياة و الطاقات كلها . لقد وضع يده على المحراث ، و منذ الآن فصاعداً ، لن ينظر ترتوليانوس الى الوراء أبداً .

إن كانت الرسالة المسيحية هي التي صنعت الرجل ، يبقى أن الرجل كان ايضًا نافعًا للقضية التي تبنّاها . و لم تمض إلا فترة وجيزة على اهتداء ترتوليانوس الى طريق الحق ، حتى باشر التبشير بالإيمان و تعليمه في قرطاجة ، و كانت دعوته هذه ناجحة ، بحيث أنه لم يعد لديه الوقت لممارسة البلاغة و الفصاحة في مهنة المحاماة . فقد خصّص وقته الكامل لخدمة الانجيل ، متّكلاً على الله بكل بساطة لسد كل احتياجاته . بدأ ترتوليانوس يكتب عن الحياة الجديدة التي كان الله يكشفها له ، و من هذه البداية أظهر ترتوليانوس حبه لوطنه إفريقيا الشمالية ، و بالأخص لقرطاجة وطنه الأم .

و ككاتب مسيحي مؤمن ، يقف ترتوليانوس وحيداً تقريبًا بين بني جيله . لقد ضاعت بعض كتاباته ، و خصوصًا كتاباته الأولى ، و بعض الكتابات باللغة اليونانية . أمّا ما تبقّى له من كتابات ، فهو كثير نسبيًا ، على الرغم من ان معظمها قصير و موجز . كانت هذه الكتابات عملية موضوعية ، تعالج التساؤلات الملحّة التي كانت تواجه المسيحيين في تلك الحقبة من الزمن ، و كانت تشمل عدداً كبيراً من المواضيع . و هذه الكتابات تعطي كمية وافرة من المعلومات القيّمة عن المجتمع الوثني والمسيحي في إفريقيا الشمالية إبّان الفترة الأخيرة من القرن الثاني للميلاد .

كانت باكورة أعماله الرئيسة بل أعظمها ، كتاب علم الدفاع عن المسيحية أيولُوجتيكُوس أو أبولوجي (Apologie) . و قد كتب هذا الكتاب في نحو سنة 198 ميلاديّة ، خلال الحكم الاستبدادي للامبراطور المتوحش المدعو سبتيميُوس سفيرُوس . إن هذا الكتاب هو تقديم ممتاز للإيمان المسيحي ؛ لم يكن معالجة أكاديمية موَجهة الى امبراطور مثقّف ، ذي ذوق فلسفي و أدبي رفيع ، بل كان تفنيداً عنيفًا ، كُتب إبّان فترة الاضطهاد ، لحكّام رفضوا انَّ يصغوا ، ولو الى كلمة تقال في الدفاع عن المسيحية ، و حكموا على المتّهمين لمجرّد اعترافهم بأنهم مارسوا دينًا غير مرخّص به و هم يرفضون تركه . إن العنوا ن أبولوجتيكوس لم يكن يعني « اعتذاراً» او «أسفًا» او تبرئة من إثم مرتكب ، كما تفيد هذه الكلمة الفرنسية بمعناها الحديث ، بل يمثّل على نقيض ذلك ، اثباتًا منطقيًا لوجهة نظر معيّنة ، مقرونًا ببرهان منطقي لصحتها و شرعيتها ، و بيّنات مقنعة لمقبوليتها .

يبدأ ترتوليانوس دفاعه بإظهار بطلان عملية إلقاء القبض على المسيحيين و كأنهم مجرمون ، و قد كان القضاة يعذّبونهم ، لا ليعترفوا بجرائم خفية غامضة ارتكبوها ، بل لإجبارهم على التنكّر لإيمان نزيه . قال ترتوليانوس : « أمّا الآثمون الآخرون ، فإنهم يُعذّبون من أجل حملهم على الاعتراف . فلماذا يجري تعذيبنا نحن ، فقط لننكر ما نعلنه بملء إرادتنا؟ »[2] ثم يتساءل عن السبب وراء عداء الناس المتحمس و الموتور ضد المسيحية والمسيحيين . إنّ التحامل العالمي الشامل ضدنا هو في الواقع غير منطقي و لا أساس له . إن الأشخاص الذين نعيش بين ظهرانيهم يعلمون هم أنفسهم أنّ المسيحيين هم أفضل ما يمكن ان يقابلوا من رجال و نساء ، و مع ذلك فهم يحتقروننا . يقولون : « إنّ الانسان كَايُوس سيُوس هو رجل طيّب لكنه مسيحي . » و نسمع ايضًا : « أنا أندهش لأن هذا الرجل الفطن المَدعو لُوكيُوس تيتيوس قد اعتنق المسيحية . »[3] ثم تحدّاهم ترتوليانوس مستفسراً لماذا الأزواج والآباء و السادة يَفضلون أن يبقى أبناؤهم و زوجاتهم و خدمهم الوثنيون مخادعين و متمردين بدل أن يصبحوا مسيحيين صادقين و محترمين . هل من المعقول أنهم يفضّلون العيش مع زوجة وثنية محتالة او ابن او خادم مخادع وثني ، بدلاً من العيش مع شخص مسيحي شريف ؟

لماذا يكون المسيحيون مكروهين هكذا ؟ « فإذا ارتفعت نسبة المياه في نهر التيْبر الى مستوى ضفافه ، و إذا فشلت مياه نهر النيل في الوصول الى الحقول ، و إذَا لَم تهطل الأمطار ، و إذا حدثت هزّة أرضية ، و إذا حدثت مجاعة او جاء وبأ ، فإن الصرخة الفورية تقول : " خذوا المسيحيين الى ميدان الأسود . " »[4] لماذا نُلام نحن المسيحيين بسبب أمور عامة تحصل لجميع الناس ؟ هذا بالطبع ليس عدلاً ، و هو مناف لأبسط الأعراف و التقاليد الرومانية . كان ترتوليانوس يعرف ما يقول . « انه يكتب كمحامٍ مشدّداً في مرافعته على لا شرعية الاضطهاد الممارس ضدّ المسيحيين ،و على ان القوانين المنفّذة ضدّهم هي إنكار لحقوق الانسان . »[5] فصرّح حقًا : « ان من الحقوق الأساسية لكل انسان ، و من الامتيازات التي منحتها له الطبيعة ، حقّه في العبادة بموجب اقتناعاته . »[6] فلا يجوز للمواطن الصالح ان يعاني الإجحاف و التحامل بسبب ما يدين له ؛ فعلى القانون ان يكبح جماح السلوك السيّء ، لا ان يمنع المعتقدات النزيهة و الصادقة .

و قد تعلّم ترتوليانوس من خلفيته القانونية أن يتحقق من البيّنات و الحجج ، و مكّنته من استعمالها على أحسن وجه ، و قد أضفى تكوينه البلاغي و فصاحته المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمواهبه الفطرية الأصيلة ، قوّة و طاقة نافذة على تعبيره . « كان اسلوبه الأدبي ينسجم مع أفكاره . و كان هذا الاسلوب حيويًا توكيديًا فصيحًا . قاده إيجازه و عدم ترابط أفكاره الى شيء من الغموض أحيانًا . و كانت المفردات اللغوية التي يستعملها مذهلة في غناها ومأخوذة من مصادر مختلفة . لا يهمّه إن كان المصطلح كثير التقنية او قديمًا مهجوراً ، أو إن كان تعبيراً شائعًا كثير الابتذال إقليمي الاستعمال ، إذا كانت هذه المصطلحات او التعابير تدلّ على المعنى الذي يقصده . فإذا وجد ترتوليانوس ان ليس هناك كلمة لاتينية جاهزة او قادرة على استيفاء المعنى المطلوب ، فهو يحاول استعمال كلمة يونانية ، و إن لم يجد ما يفي بالغرض ،

كان يبتكر كلمة مناسبة . يحتوي أسلوبه على عناصر السيل جميعها من مواد مخلوطة وسرعة و توجيه . فالخشب ، و الحجارة ، و الأتربة ، و أوراق الشجر ، والزهور ، و النفايات تُجرف جميعها معًا ثم تُقذف لفتح سبيل مسدود أو لقهر خصم . »[7] و تُظهر كتاباته بوضوح مقدار حماسته ، وهو ينجرف في عدّة أحيان وراء قوة اقتناعه ، و شدة حجّته . وبالأخص عند قراءة كتاباته الجدلية في تفنيد مبادئ الآخرين ، « على المرء ان يتذكر دائمًا انه يصغي الى مرافعة خاصّة ، أعدّها محام شديد التمسّك بدفاعه ، و ليس الى شهادة يدلي بها شاهد محلّف او حكم أصدره قاضي بعد أخذ جميع الآراء بعين الاعتبار . »[8]

و لكن ، ففي كل هذه الأمور ، سواء بوعي أم لا ، كان يستنبط لغة جديدة ، أو على الأقل يصوغ لغة قديمة في قالب جديد . لقد صنع من اللغة اللاتينية آلية قادرة على حمل عظمة و قوة أعمق رسالة قد يسمعها إنسان . لقد بدأ الأدب اللاتيني المسيحي فعلاً مع ترتوليانوس . كان عنده أفكار لم تظهر في هذه اللغة من قبل ، و كان مقصده الأوحد هو التعبير عنها بفعالية . فترتوليانوس هو أول من ابتكر عبارة « الثالوث الأقدس » ليصف من خلالها طبيعة الله ، و يُقدَّرُ ما ابتكره من كلمات جديدة بـ 982 كلمة تقريبًا .

يرى المؤرخ الفرنسي العظيم جُوليَان (Julien) في ترتوليانوس أنّه المزاج الأمازيغي النشيط المتّقد بشرارة الحق المسيحي و المشتعل بهمة راسخة لا تقاوم . كان ترتوليانوس من « المهتدين البرابرة ، و لكنه استبقى تحت الغلاف المسيحي على كل حماسة البرابرة و عنادهم وحدّة مزاجهم . »[9] « يندب » ترتوليانوس أحيانًا اتّقاد طباعه و حدّته . و لكنه استمر ، مع ذلك ، مندفعًا الى الأمام بنفاد صبر ، واثقًا في نفسه ، مستخدمًا كلَماته كسلاح حربي ، مناضلاً ضد مناوئيه بلا هوادة و لا لين ، منطلقًا وراءهم يقذفهم بكل أنواع اسلحته الجدلية المتوافرة ليقهرهم و يخضعهم لطاعته . و ليس من المستغرب ان تتمكن قلّة قليلة منهم فقط ، من مناقشته : هذا ، و إن مواهبه الفذّة ، لم تبقِ في الميدان مكانًا لأحد سواه . إن ترتوليانوس كاتب يستحيل عليك ان توافقه دائمًا ، و هو يترك عندنا أحيانًا آثارًا موجعة ، و لكن مع كل نقاط ضعفه ، فهو رجل يمتلك عبقرية فذّة عظيمة ، و تُعتبر شخصيته أكثر الشخصيات فتنةً و سحرًا وسحرًا في تاريخ الكنيسة المسيحية .

كان لترتوليانوس قلب مُبشِّر ، و قد خصّص كتاباته قبل كل شيء ، ليربح الوثنيين واليهود و يهديهم الى الإيمان بالرب يسوع . انه يقدّم كل الأسباب الموجبة للإيمان ، و كل الإجابات المطلوبة للمعترضين . و عندما يدير أفكاره نحو الجماعة المسيحية نفسها ، تكون رغبته العظمى في أن يمكّن العالم الوثني من النظر الى هناك لرؤية يسوع . يجب ان تنسجم حياة المسيحيين مع ما يعلنونه من تعاليم الانجيل . و هو يتساءل ما جدوى الكنيسة المسيحية إذا كانت لا تستحق احترام الذين هم من خارجها ؟ فماذا يمكنها ان تحقق اذا لم تُظهر قداسة المسيح ؟ و كيف يمكن للوثنيين أن ينجذبوا الى المخلّص اذا رأوا اتباعه في حالة شر و خطية هي أسوأ من تلك التي يتخبّطون هم فيها ؟ لقد تمنّى ترتوليانوس على الكنيسة ان تكون الشاهد المُخْلص للعالم . فعندما كان يتحدّث الى شعب قرطاجة ، كان هاجسه أن يتمكّن من الإشارة الى التحوّل الذي

يستطيع الرب عمله في الرجل أو المرأة . و لكن إن لم يكن هناك اية علامة من علامات التحوّل ، لا بدّ عند ذاك من أن يسقط وعظ الانجيل على آذان صمّاء . تحدّى ترتوليانوس منتقديه في ان يجدوا و لو مسيحيًا واحدًا متهمًا بالتجديف ، او فساد ، او بقتل ، او بنشل ، او بسرقة ملابس المستحمين . أمّا اذا وُجد مثل هذا الشخص ، فسيجدون ايضاً انه قد فُصِلَ من شركة الكنيسة . فمثل هذا التصريح كان يحتاج الى ان تكون الجماعة المسيحية مستحقة للصورة النقية .و لو كانت هناك خطيئة في الكنيسة ؛ تصدّعت الارض من تحت قدمي ترتوليانوس ، وتحت أقدام كل اولئك الذين يَنشُدون ربح الآخرين للايمان بالرب يسوع .

طالب ترتوليانوس زملاءه المسيحيين بأن يتجنّبوا كل مظاهر التسوية مع الفئات السياسية و الفعاليات العالمية . قال إن إمبراطوريات العالم تعلو و تهوي ، أمّا الكنيسة فأبدية . إنها مملكة روحية و ليست مملكة أرضية او مادية ، و يجب ان تبقى الكنيسة حرّة لتخدم ، و لتوفّر الاحتياجات الروحية لجميع الناس أيًا كانوا . و قد تبتهج الكنيسة إذا نظرت اليها السلطات الرومانية نظرة استحسان . و لكن إذا احتقرتها تلك السلطات و كرهتها ، فعلى الكنيسة ان تثبت وتتحمل . و لكن لا يجوز للكنيسة أن تُسخّر لخدمة قضايا السلطة مهما كانت الظروف و الأسباب : عليها ألاّ تكون أداة بيد الحكام في الامبراطورية . إن المسيحي مواطن صالح و شريف ، و لكنّ آماله لا تتأسّس على أية جمهورية او مملكة بشرية . فهو تابعٌ قبل كل شيء لأولئك الناس المدعوين « كنيسة الله » ، و عاهله هو ملك الملوك و رب الأرباب . فهناك يكمن ولاؤه و إخلاصه . سأل ترتوليانوس : « أفهل هناك أمّة ، داخل حدود جغرافية معيّنة ، تفوقنا عددًا ؟ فنحن أمّة بلا حدود ، بل حدودنا العالم بأسره .»[10]

إنّ إخلاص ترتوليانوس لإيمانه ، كحماسته له ، لم يكونا قط موضوع تساؤل . فهو واثق من موقفه ، و كل وجهات النظر الأخرى ، ليست سوى رمال متحركة . فماذا بإمكان الانسان غير المخلَّص أن يعرف عن الحق ؟ و ماذا بمقدور رجل عالمي أن يعرف عن القداسة ؟ و كيف يمكن لعابد الأصنام ان يفهم تعاليم الكتاب المقدس أو ينتقدها ؟ إن هذه الأمور ، كما قال الرسول بولس ، هي مدركة على أساس إعلان من روح الله . « و لكنّ الانسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة . . . و أمّا الروحي فيحكم في كل شيء . »[11]

رأى ترتوليانوس ان المسيحي الذي يتنكّر لإيمانه هو جبان و خائن ، و لا عذر له . فإنّ مثل هذا الشخص قد كذب و جدّف على الله لكي ينجو بنفسه ، و إذا ما عاد هذا الانسان الى الكنيسة ، فعليها ألا تقبله و كأنّ شيئًا لم يكن : هذا هو السبيل لكي تملأ صفوفها بالضالين وبالمرائين . قال ترتوليانوس إنه لا يمكن لكنيسة المسيح ان تصفح من موقع ضعف عن اولئك الذين يخونون سيّدها خيانة تامة أو يخطئون إليه عمدًا . لذا يجب إبعاد المؤمن عن الكنيسة إذا عاد الى عبادة الأصنام ، او الى الأعمال الوثنية الفاجرة . ألا يستحق الرب يسوع أجَلَّ الخدمات ؟ فعلى المسيحي ان ينكر ذاته و يحمل صليبه و يتبع المسيح ، و أقل من التكريس الكامل يُعتبر إهانة للّه و لشعبه . يجب التعامل مع الخطية المرتكَبة بجدية و حزم ، تمامًا كما كان يفعل رسل المسيح .[12]

كان سلطان إخراج الشياطين أمراً مألوفًا في الكنائس في عهد ترتوليانوس . و قد أشار هذا الاخير الى طرد الأرواح الشريرة ، ليس و كأنها ظاهرة نادرة يجب التأكّد منها بجهد و بشهادة الآخرين لها ، ولكن باعتبارها حقيقة لا تُنكر ، معروفة لدى الجميع ، و يعتمد عليها بثقة للتحقق من أنّ رسالته كانت رسالة حق . إنه لا يسأل خصومه الوثنيين ان يؤمنوا بأن مثل هذه القوى لا تزال موجودة ، و لكنه يطالبهم بقبول رسالة الانجيل التي تأتي هذه القوى لتبرهن أصالتها .

كان ترتوليانوس يعرف الكتاب المقدس حق المعرفة ، و كان يقتبس باستمرار من الأناجيل ومن الرسائل ، كما من العهد القديم ايضًا . و كان يسير بكل وضوح على خط الايمان الرسولي النقي . و لا نجد في كتاباته إلاّ القليل من الأفكار الدينية الدخيلة على المسيحية ، والتي تسبّبت بعد وقت قصير بتعقيد حياة الكنائس . و قد احتجّ ضد الممارسة الجديدة الخاصة بمعمودية الأطفال . و لم يعط مريم أم المسيح في الجسد مقامًا أعلى من مقام الناس الآخرين و لم يُصلِّ لها . و رفض أيضًا المبَدَأ القائل بتبتّل قادة الكنيسة ، على الرغم من أنه وجد له قيمة فعلية بالنسبة الى أي مسيحي يرغب في ذلك طوعًا . و آمن إيمانًا راسخًا بكهنوت المسيحيين المؤمنين جميعهم ، و غالبًا ما كان يذكّر سامعيه ، بأنه حيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسم المسيح ، فهناك يكون المسيح في وسطهم . و قد شدّد بحزم على أنّ الكنيسة الحقّ لا تقاد إلاّ بالروح القدس ، و ليس من طريق المؤتمرات البشرية . كان ترتوليانوس يتوقّع واثقًا ان يرى خلال حياته على الارض نهاية العالم و عودة المسيح و بداية المُلك الألفي .

ثم بعد مدة ، جرى على الأرجح تعيين ترتوليانوس كشيخ من شيوخ كنيسة قرطاجة ، ولكنه على غرار إقْلمَنْدُوس الاسكندراني (Clément d'Alexandrie) وأوْرِيجَانُوس (Origène) ، لم يُرَقّ الى دَرجة كنسية أعلى . و يبدو انه كانت لديه تحفّظات جدية بالنسَبة الى هذا النوع من البُنى الهرمية . امرأة ترتوليانوس كانت مسيحية ، و قد أهداها بحثين كتبهما عن الزواج المسيحي ، و أظهر من خلالهما تفانيه لزوجته ، داعيًا إياها برقّة و تحبب يا أحب رفاقي في خدمة الرب . »[13] وكمعظم الرجال في عصره ، كان من المفترض ان تكون ملابس ترتوليانوس مشتملة على الرداء الأبيض بأكمامه القصيرة ، و هو عبارة عن قميص طويل يصل الى الركبتين ، مصنوع من الكتان ، و مشدود حول الخصر بحزام . إلا أنّ ترتوليانوس أظهر استقلاليته عن عادات الامبراطورية الرومانية بالاستغناء عن التوجا ، اللباس الروماني الفضفاض والمتدلّي ، مفضّلاً عليه الشملة الإغريقية ، (و هي نوع من اللباس الذي يطرحونه على الكتف الايسر) او « بليوم » الفيلسوف (و هو رداء رجالي مستطيل) . و قد ظهر تفضيله لهذا اللباس في كتاب يبحث في موضوع الملابس . و حذا حذوه في هذا الزيّ كثيرون . وعليه ، فقد أصبح لباس التوجا يختفي من الكنائس . أمّا حذاؤه ، فكان الصندل الذي كان يُربط برباط يلتف حول الكاحل . و كان يقصّ شعره قصيراً ، و لربما كانت له لحية قصيرة ، و هي التي كانت وقتئذ تطابق الزي السائد منذ نهاية القرن الثاني . فقد أشار احد الرجال المعاصرين لترتوليانوس ، و هو أكبر منه سنًا ، و يدعى اقلمندوس الاسكندراني الى اللحية داعيًا اياها « زهرة الرجولة » . و يقول اقليمندوس

أيضًا : « إن اللحية هي الصفة المميّزة التي منحها الله للرجال وللأسود .»[14] و كان حلق الذقن آنذاك يُعتبر تخنّثًا ، و تحدّيًا لله الخالق .

كان ترتوليانوس في قرطاجة وقتما حُكِمَ على بِرْپيتْوا و زملائها بالإعدام عام 203 ميلادية . ويعتقد بعض الكتاب أنه هو الذي ألّفَ قصة استشهادهم أو أعدها . و في كل حال ، كان ترتوليانوس نحو هذا الوقت قد انضمّ الى فرقة من المسيحيين ، كانت تُعرف بالمونتانيين (Montanistes) ، و التي يبدو ان بيربيتوا و رفاقها كانوا ينتمون اليها . و في مطلع القرن الثالث ، كانت هذه الفرقة قد اكتسبت لنفسها بعض الشعبية في أوساط افريقيا الشمالية . وكان اعضاؤها يتبعون تعاليم ومثال أحدهم و يُدعى مونتانوس (Montanus) ، الذي كان قد شرع بالكرازة نحو العام 170 م ، و ذلك في منطقة فريجية (تركيا الحديثة) .

كان مونتانوس يعتقد أن جيله كان يقف على عتبة عصر جديد ، عصر الروح القدس ، الذي خلاله سيكون من نصيب اولاد الله جميعهم ان يحصلوا على رؤى و على إعلانات بحسب ما هو مكتوب : « يقول الله و يكون في الأيام الأخيرة اني اسكب من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم و بناتكم و يرى شبابكم رؤى و يحلم شيوخكم أحلامًا . و على عبيدي ايضًا و إمائي اسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبأون . »[15] فالمسيحيون الذين التصقوا بمونتانوس شرعوا يَرَوْن و يسمعون مثل هذه الأمور . و قد صرّح قائلاً : « إن الروح يحرّك الذهن ، كما ان الموسيقار يحرّك اوتار القيثارة » ، و بهذه الطريقة يستطيع المؤمن ان يحصل على كلمات الله عينها ، و أن ينقلها الى الآخرين .

لقد أخذ المونتانيون مبادئ العهد الجديد على محمل الجدّ ، و حاولوا ان يعيشوها مهما كلّف الأمر . لم يتمكّنوا ، كما هي الحال بالنسبة الى الكثيرين سواهم ، من التوفيق بين الخدمة العسكرية وتعاليم يسوع : على المسيحيين ألاّ ينخرطوا في الجيش . كما اعتبروا ان دراسة الأدب الوثني لا يليق بالمسيحي : انها ستُضلّه عن الطريق الصحيح ، و تُعثر الناس الذين يرون هذا القارئ و يقتدون به . كانوا قد بدأوا يجتمعون في بيوتهم للصلاة و الصوم و قراءة الكتاب المقدس معًا ؛ و كانوا يشجّعون بعضهم بعضًا على الارتقاء في حياتهم الى اعلى المبادئ الأخلاقية الروحية . كانوا يتطلعون قدمًا الى مكافأة في السماء و الى حياة أفضل . فكان إيمانهم الراسخ بأن المسيح سوف يعود سريعًا ، و ستراه كل عين و يعترف كل لسان بأنه رب .[16] و من ثم سوف يجمع شعبه ويأخذهم اليه ليسكنوا معه في مجده الى الأبد . و لا يجوز للمسيحي ان تشدّه أمور هذه الحياة الفانية ؛ وإذا ما دُعي ليتألم ، او حتى يستشهد من أجل المسيح ، عليه عند ذاك ان يفرح و يبتهج لكون الله قد ميّزه بهذا الشرف العظيم . انجذب ترتوليانوس الى هذه الفرقة ، و بخاصة على أساس ما لمسه فيهم من رغبة صادقة في إطاعة كلمة الله . كان إخلاصهم القلبي يتلاءم و يتجانس مع إخلاصه هو .

لم يكن المونتانيون راضين عن بعض التوجّهات و النزعات التي ظهرت في كنائس افريقيا الشمالية ، و كذلك في آسيا الصغرى ، و لقد تمنّوا ان يروا قداسة اكثر وضوحًا في الجماعة المسيحية . و قالوا إنّ هناك العديد من المسيحيين الذين لا يعيشون

طائعين إطاعة صادقة للمسيح . فبعضهم ، كما يبدو ، كان يميل الى التساهل في الانغماس في نشاطات سيئة السمعة او الى المشاركة بالأفعال القذرة الحقيرة التي يمارسها الوثنيون ؛ فكان يُجدّف على اسم المسيح من جرّاء ما يمارسه هؤلاء المدعوون مسيحيين . و اعتبروا أنه يجب طرد مثل هؤلاء من الكنائس . كان من الضروري في نظرهم ان يُعطى الذين من خارج – يهوداً كانوا ام وثنيين – فرصة لسماع بشارة الإنجيل . لكن يجب عدم تسميتهم مسيحيين حتى يصبحوا هكذا فعلاً ، أي حتى يتنكروا لذواتهم ، و يحملوا صليبهم و يتبعوا المسيح .

اغتاظ المونتانيون عند تنامي البنية السلطوية للكنيسة ، و التي قيّدت الكنائس بعضها ببعضها الآخر ، و أعاقت حريّتهم في الاجتماعات . إلى هذا ، ظهرت نزعة متنامية لدى القادة في المدن الكبيرة للتسلّط على القطيع حتى إنهم أصدروا قرارات توقّعوا من سائر الكنائس الأخرى أن تذعن لها . يجب احترام القادة ، قال المونتانيون ، و لكنّ هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال انهم معصومون عن الخطإ . كذلك عليهم هم أيضًا أنْ يخضعوا لكلمة الله . إن الوحدة في الكنائس ، كما يصرّح المونتانيون ، يجب ألا تُفرض بالقوة الجائرة . فالوحدة الحقيقية هي ثمرة التسامح و المحبة ، و لا يمكن ان تتحقّق إلا عندما يمتلئ الجميع بروح المسيح . يجب أن تكون وحدة الكنيسة وحدة روحية أكثر منها مؤسساتيّة ، و يجب ان يكون هناك مكان في أروقتها للأفكار و الآراء و الاهتمامات المختلفة . ان المخلّص نفسه هو رأس الكنيسة و يجب ان يكون روحه هو القائد ؛ فليس هناك انسان قادر على ان يأخذ مكان يسوع المسيح .

كذلك الاجتماعات في كنائس كثيرة ، بدأت هي الأخرى تزداد شكلية ، و قد حدّت بالتالي من حرية الروح القدس في تحدّثه المباشر الى أعضاء الكنيسة . و اشار المونتانيون ايضًا ، الى أنّ النظّار المعتمدين ليسوا وحدهم من يحصلون على التوجيه الإلهي . لأنه بإمكان كل مؤمن ان يصلّي الى الله ليعلم مشيئته ، و بذلك يساهم في الحياة الكنسية للخير العام .

فإذا كانت طهارة هذه المجموعة من الناس المؤمنين ، في أيام المسيحية الأولى ، قد استحقت احترامنا و إعجابنا ، فإن استعدادهم للاستشهاد يثير فينا إعجابًا تامًا . فهم لم يتردّدوا قط في بذل حياتهم ، عندما البديل لاستشهادهم كان يعني انكار مخلّصهم . قد نعذرهم على تطرّفهم في وضع مستويات الصواب و الخطإ ، و كذلك على قلّة صبرهم على أولئك الذين كانوا يرغبون في سلوك سبيل ادنى من المستوى المطلوب ، لأنّ المبادئ التي كانوا يؤيدونها لم تكن في غالبيتها سوى تعاليم يسوع و رسله . إن ما قدّموه كان في معظمه نصائح و حضّ بغيرة على حب أعمق و تكريس أعظم .

إلاّ أن العديد من الكنائس في القرن الثاني ، كانت تسير في اتجاه مختلف تمامًا . فبعضها كان يميل الى الفكرة القائلة إنّ التنبؤ قد توقّف منذ عصر الرسل . و قيل أيضًا إنه لم يعد بإمكان المسيحيين الحصول على إعلانات شخصية ، و إنّ أيّ انسان يدّعي النبوّة من الله لا يمكن ان يكون إلاّ من الدجّالين . كان المونتانيون قلقين ، و لكنهم ، لم يرغبوا في الانفصال عن إخوتهم في المسيح . فعوضًا من فتح باب الشقاق ، تحمّلوا بصبر سوء الفهم والإجحاف ، و عملوا ما بوسعهم للتأثير في الجماعة المسيحية من الداخل .

مع ذلك ، فقد كان هناك أناس ينتمون الى الكنائس القديمة ، الذين شعروا بالامتعاض من مواقف المونتانيين ، و شكّوا في روح الاستقلال عندهم ، كما سخروا من الوحي الذي ادّعوا حلوله عليهم . فتمّ رفع الشكاوى ضدّهم على أعلى المستويات . و في مقاطعة فريجية نفسها ، موطنهم ، قامت بعض الكنائس بإدانتهم . كما سافر أحد مناوئيهم المدعو برَاكْسيَاس (Praxéas) الى روما ، ونجح في إقناع ناظر الكنيسة ، بأنّ المونتانيين يعملون على إثارة الشَقاق والخلاف ، و يهددون وحدة الكنائس المسيحية في العالم بأسره . فكانت النتيجة حاسمة إذ أصدرت كنيسة روما الحُرْم الكنسي بحق المنشقين المونتانيين ، و اعتُبر هذا الحرم شاملاً لكل الكنائس ، وفي كل الأصقاع ، التي تأتمر بأوامر كنيسة روما هذه المجموعة التي عُرفت في ما بعد « بالكنيسة الكاثوليكية » او الكنيسة العالمية . لم يكن هذا الرفض و الإبعاد بسبب تعاليم زائفة صدرت عن المونتانيين ، بل ، و بكل بساطة ، لكون هؤلاء عطّلوا نظام الكنائس ، و لرفضهم أيضًا القبول بالمقاييس التي حدّدها قادتهم المعتمدين

لقد أثيرت في ما بعد شكوك بالغة الخطورة حول صوابية تعاليم براكسياس نفسه . إن آراءه في لاهوت المسيح و ناسوته شردت من دون شك عن الحق الكتابي ، بينما ظلّ المونتانيون مستقيمين في هذا المجال . إلاّ أن التوفيق أضحى مستحيلاً . ربما ، لم يعد أمراً عجيبًا ان يُساءَ فهم المونتانيين جداً من مؤرخين كنسيين لاحقين من ذوي النزعة الكاثوليكية و الاسقفية ، الذين ، خلال جيلهم الخاص ، يتبنّون الدعوة المسكونية لتوحيد الكنيسة عضويًا و ظاهريًا بأيّ ثمن . وكثيراً ما كانوا يكتبون عن المونتانيين بكلمات من قبيل : « المتحمسون الصارمون » أو « أبطال في يوم الاضطهاد ، متعصبون في زمن السلم . »[17] و لكن هذا لم يكن كل ما في الأمر .

و بالتأكيد ، فإنّ ما حدث لم يكن نهاية المونتانيين ، إذ وجد هؤلاء في ترتوليانوس بطلهم الأعظم . فقد كتب هذا الأخير تفنيداً مسهبًا ضمّنه حججًا دامغة ضد براكسياس . و قد وضع ثقله خلف حركة المونتانيين التي أشار اليها في تفنيده بالعبارة « النبوة الجديدة » . و لم يجعل ترتوليانوس المونتانية جديرة بالاحترام و حسب ، بل اعتبرها قوة يجب تقديرها و الاعتماد عليها في شمال إفريقيا . و استمر المونتانيون بالتعليم و مدّ يد العون بعضهم لبعض بقيادة الروح القدس ، و بمباركة الله المُدركة الظاهر» .[18]

قضى ترتوليانوس طوال حياته في قرطاجة ، على الرغم من انه زار روما مرة واحدة على الأقل . و لربّما خدم أيضًا في كنيستها كشيخ من شيوخها لفترة ما . و في روما ، أصبح ترتوليانوس ضليعًا في ترجمة لاتينية للكتاب المقدس ، تختلف احيانًا و إلى حدّ بعيد عن تلك التي استعملها كبريانوس لاحقًا في قرطاجة . و لكن غطرسة قادة الكنيسة في روما و عداءهم المذهل للمونتانيين ، تركا أثراً ثابتًا في ترتوليانوس ممّا ساعد ، من دون شك ، في جعله متعاطفًا معهم ومؤيداً لهم . كان متّقد الذهن للغاية و حاراً في الروح جداً حتى إنه لم يكن من السهل عليه الخضوع لأوامر مصقولة صادرة عن أناس دونه شأنًا . لم يكن ترتوليانوس يرغب في ان يكون السبب ، او ان يشجّع على إحداث شرخ ، و كذلك لم تكن الكنائس الأقدم عهداً ترغب في إبعاده عن شركتها . آمن ترتوليانوس ، من كل قلبه ، بمبادئ

الإيمان المسيحي ، و اختلف مع زملائه المؤمنين ، فقط في الاعتقاد أنّ مستواهم القداسي لا يزال متدنيًا الى حدّ ما . لقد بقي من أعظم مناصري المسيحية الحقّ . كما كتب بعض أعظم مقالاته ضد « الغنوسطية » (Gnosticisme) و غيرها من الهرطقات و البدع ، بعد التحاقه بالمونتانيين . و من اللازم القول ، إن فصاحته اللاذعة كانت أكثر إقناعًا حينما تنصبّ ضد جعالة العدو المشترك ، اكثر منها حينما تكون ضد قصور الكنيسة الكاثوليكية وعدم كفايتها ، و التي كان قد تركها وتذاك .

لقد اعتبر ترتوليانوس دائمًا ان الوحدة المسيحية هي فضيلة عظيمة ، و لكن لا يجوز أن نشتريها على حساب الحق . و يجب فحص الأفكار الجديدة ، أضاف ترتوليانوس ، بمقارنتها بكلمة الله ؛ و يجب تشخيص الأخطاء في وقت مبكر ، قبل ان تنتشر و يستفحل أمرها . قال إن الحق واحد بينما البدعة متشعبة متنوعة ؛ و الحق يُعرف من موافقة الكنائس جميعها عليه ، بينما البدعة هي محلّية و محصورة بفئة قليلة . الحق تبدّى من أقوال الرسل بينما البدعة مظهر حديث . الحق يثبته الكتاب المقدس ، بينما البدعة تنصّب نفسها ضد الكتاب المقدس و فوقه .[19]

و أخيرًا ، يظهر أنّ ترتوليانوس بدأ ينزعة من بعض اوهام التطرف التي مال اليها بعض من المونتانيين . أحيانًا ، يُظهر انصار مثل هذه الجماعات السائبة و المشحونة حيوية ، رغبة مخيفة في قبول إعلانات « انبيائهم » الذين ادّعوا بأنهم ملهمون بالروح القدس ، و ذلك من دون أي تساؤل . و قد رأى ترتوليانوس بكل وضوح ، أنّ الايمان ممتاز و رائع ، فقط إذا ما كان مبنيًا على الحق . فالحرية الروحية يجب أن تُمارس ببصيرة متأنية و متعقّلة . و الحق الالهي المعلن من الله والمنسجم مع الكتاب المقدس الموحى به ، يجب قبوله ، و لكن يجب عدم السماح للكنيسة بأن تساق وراء أفكار إنفعالية و متحمسة صادرة عن خيال أشخاص قد يكونون سليمي النية و القصد و لكنهم يقودون الكنيسة بالتالي ، الى الضياع و التشتت . قال الرسول يوحنا قبل عدة سنوات : « أيها الأحباء ، لا تصدِّقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم . »[20] كما أن الرسول بولس قال ، إن الروح القدس يعطي لبعض الناس القدرة على التنبؤ ، أي أن يبلّغوا رسالة الله ، و لكنه أيضًا يعطي لآخرين القدرة على « تمييز الأرواح » ، أي أن يعرفوا ما إذا كان الإعلان من الله أم من مصدر آخر .[21] و بعد بضع سنوات ، انفصل ترتوليانوس على ما يبدو عن المونتانيين جارًا معه عددًا من أقرب أصدقائه . فبالنسبة اليه ، يبقى الحق هو الأهم من كل الأشياء .

ولم يكن لترتوليانوس مثيل في عصره سوى واحد ، و هو أوريجانوس العظيم . و قد وُلد أوريجانوس في الاسكندرية و لكنه انتقل في ما بعد الىّ قيصرية على ساحل فلسطين . وما يدعو الى الحيرة و العجب حقًا ان يكون كل منهما متشابهين في بعض الوجوه ، و لكنهما لم يكونا متشابهين في دروب و مسالك اخرى . فكل منهما له موهبة التخيّل ، و هو بارع في التصوير المجازي ، و كل منهما يستخدم هذه الموهبة في كتاباته المتدفقة المثمرة ، مدافعًا عن الايمان ضد الوثنية ، و اليهود و الهراطقة . و كلاهما كانا يعيشان حياة نكران

الذات الشديدة الصارمة ، وكلاهما ، بتعاليمهما و قدوتهما ، ألهما جيلهما كيف يجب ان يكون التكريس المسيحي الحقيقي الأصيل . و كلاهما كانا على استعداد ان يعانيا خسارة كل ما في هذه الدنيا من أشياء ، عوضًا عن المساومة على حق الإنجيل . ولكن ، مع ذلك ، نجد كيف أن كل واحد منهما أمضى الفترة الأخيرة من حياته في خلاف مع القسم الأكبر من الكنيسة المسيحية ، و في صراع مع كبار قادتها المتنفذين في روما .

على أنّ هذا التشابه بينهما يبقى سطحيًا ، إذا ما علمنا أن هناك اختلافًا جذريًا بينهما في الجوهر . و الحقيقة ، أنّ واحدًا منهما قد أمضى نصف عمره في حياة وثنية ، بينما عرف الثاني منذ ولادته بركات البيت المسيحي المسالم و الثابت الإيمان . و هذا ما يفسّر الكثير مما سنأتي على ذكره الآن . و لا شكّ ان حماسة ترتوليانوس الصارمة كانت في طبعه و خلقه ، ولكنها ازدادت حدّة بفضل تجديده و رفضه الكامل لماضيه ، بينما « عذوبة و نور » أوريجانوس المحبوب كانا ثمرة نموه الهادىء بصفاته المسيحية التي ترعرع عليها منذ نعومة أظفاره . و قد انعكست هذه الأشياء في اسلوب كتابة كل منهما : فالأول صارم في عقيدته من دون هوادة ، أمّا الثاني ، فيحب الخوض في المعاني الغامضة و معروف بلطفه التأملي الدقيق . يتعامل الأول مع الأشياء بتوكيد صريح مباشر ، بينما يتعامل الثاني بمثل نظرية عالية المقام . وبّخ ترتوليانوس اليأس الأدبي في هذا العالم توبيخًا صارمًا و عنّفه تعنيفًا شديدًا ، وسخر من قنوط الناس الفكري . بينما قدّم اوريجانوس تعاطفًا شديدًا مع كليهما ، و شعر في العمق مع اولئك الذين كانوا يتلمسون طريقهم بحثًا عن إدراك سرائر هذا الكون الفسيح . تعلّم ترتوليانوس الفلسفة كوثني و ازدرى بها للغاية : فالفلسفة ظهرت كمصدر لأكاذيب وهرطقات لا حصر لها . و تركت الناس في ظلمة كاملة لا يمكن أن تتلاشى إلاّ بفعل نور الانجيل المعلن . امّا اوريجانوس . فقد تعلّمها و هو في أحضان المسيحية ، و تعمّق في مكنوناتها أكثر كثيرًا من ترتوليانوس ، فكان لها كل التقدير عنده ، و اعتبرها استعلانًا جزئيًا وتمهيديًا قد لا يزال يعمل لخدمة الحق .

على الرغم من أنّ كلاً من ترتوليانوس و أوريجانوس وجدا نفسيهما في نزاع مع المسيحيين الآخرين ، إلاّ أنّ سبب هذا النزاع كان يختلف في كل حالة . فانفصال ترتوليانوس كان من عمله هو أمّا انفصال اوريجانوس فسبّبه أعداؤه و خصومه . و مع أنّ أحدًا في قرطاجة لم يدُن ترتوليانوس ، فإنه تعمّد ترك الكنيسة التي كان يخدم فيها ، و عقد العزم على تفنيد اخطائها . أمّا أوريجانوس الذي حُرم كنسيًا في الاسكندرية و روما ، فتحرّك متوجهًا الى الشرق ، و استمتع هناك بأعظم قدر من الشركة الحميمة مع كنائس تلك المنطقة ، من دون أن ينتقد أحدًا . و لربما نستطيع ان نرى هنا ، و مما سيلحق ، كيف ان شخصية الانسان تقرر الى حد بعيد الخدمة التي يتولاها و آراءه و مبادئه الشخصية أيضًا .

يقول بعضهم إنّ ترتوليانوس بعد انحرافه بعيدًا عن تيار المونتانيين ، لم يلبث ان عاد الى مجموعة الكنائس الكاثوليكية التي انتمت اليها غالبية مسيحيي شمال افريقيا في ذلك الوقت . وهذا الرأي مشكوك فيه ، و لكنه قد يبدو جذّابًا لاولئك الذين يوقّرون كلاً من الرجل

ترتوليانوس و البنية الكاثوليكية . في الحقيقة ، و بعد مرور قرنين من الزمن ، بقي هناك مجموعة من المسيحيين يُعرفون بالترتوليانيين ، « أي اتباع ترتوليانوس » على الرغم من أنّ عددهم كان قليلاً . و لكنّ وجودهم ، إنْ دلّ على شيء ، فهو يدلّ على أنّ ترتوليانوس بقي بعيداً الى حدّ ما من الكنيسة التي انتقدها بشدّة.[22] و من جهة ثانية ، و بعد مرور قرن على وفاته ، فحتى كبريانوس ، و هو اقوى و أخلص المدافعين عن الوحدة الكاثوليكية ، قوّم كتابات ترتوليانوس ، و قدّمها على سائر الكتب الأخرى ، حتى إنه كان يخاطب أمين سره قائلاً : «جئني بالاستاذ ناولني المعلم ، » كلّما شاء أن يتصفح مجلّداً او كتاباً ألّفه ترتوليانوس . و يبدو أن ترتوليانوس اعتبر أن لا ضرورة لإجراء أية مصالحة رسمية مع الكنيسة الكاثوليكية ، لأنه لم يُدن رسميًا ، و لا القادة حرموه كنسيًا في كل من قرطاجة و روما . و نعلم أن ترتوليانوس قد اجتذبه كلّ من كان يشاركه ايمانه ، إذ كان مستعداً أن يجتمع للعبادة مع أية جماعة تحب المسيح و تخدمه بإخلاص ، و ذلك بمعزل عن الكنيسة التي تنتمي اليها .

يخبرنا المترجم العظيم جيروم (Jérôme) ، أنّ ترتوليانوس عاش عمراً طويلاً . و لم يُعرف كيف او متى توفّي . و لكن ، لا بدّ من أن يكون تاريخ وفاته بين الأعوام 220- 240 ميلادية . و هذا يُظهر أنه كان في سنّ الستين على الأقل حين لبّى نداء ربه و غادر هذا العالم .

تحدّث ترتوليانوس الى كلّ من الكنيسة النامية و العالم المراقب ، معلنًا المفارقة الشاسعة القائمة بينهما ، تلك المفارقة التي كانت واضحة جليًا لكل من له عينان تريان : « حقّ العقيدة المسيحية ، مقابل أكاذيب الوثنية ؛ نقاوة الأخلاق المسيحية مقابل إباحية الوثنية ؛ أخوية الشركة المسيحية مقابل أنانية الوثنية و قساوتها .»[23] لقد مَحْوَرَ مواضيعه الأساسية حول ثلاثة : الحق ، النقاوة ، و الأخوية . يجب إحياء ذكره بواسطة كلماته الخاصة هذه التي فيها يعرض إقراراً للحق ، حق الله الذي لا يمكن ولا يجوز إخفاؤه [24] :

« لا يطلب الحق معروفًا
او استحسانًا لقضيته
فهو يعلم انه
غريب في هذه الديار
وأنه بين الغرباء ، من السهل ان
يجد لنفسه أعداء
فولادته ، وداره ، ورجاؤه
هي في السماوات

ولكنّ شيئًا واحدًا يتمنّاه
الحق بشدة ،
ألاّ تحصل إدانته
وهو غير معروف . »

ترتوليانوس

ملاحظات

1- Apologeticus 18
2- Apologeticus 2
3- Apologeticus 3
4- Apologeticus 40
5- Bettenson, ECF p. 15
6- Ad Scapulam 2
7- Plummer pp. 114 - 115
8- Plummer p. 115
9- اقتبسها Guernier p. 185
10- Apologeticus 37
11- 1 كورنثوس 14:2 و 15
12- 1 كورنثوس 5:9-11
13- Ad Uxorem 1:1
14- Paedagogus 3:3 (ANF Vol. II)
15- أعمال 17:2 و 18
16- فيلبي 11:2
17- Foakes - Jackson p. 254
18- لقد حافظ مونتانيو آسيا الصغرى على كنائسهم المستقلة حتى فترة متقدمة من القرن السادس (Schaff HOTCC Vol. II p. 421)
19- راجع De Praescriptione Haereticorum 32
20- 1 يوحنا 1:4
21- 1 كورنثوس 10:12
22- يذكر اغسطينوس كيف انه تمكّن أخيراً بفضل جهوده ، ان يصالح الترتوليانيين في قرطاجة مع الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك في القرن الرابع . (De Haerisibus 6; Schaff HOTCC Vol II p. 421)
23- Lloyd p. 28
24- Apologeticus 1 ؛ راجع الترجمة في Lloyd p. 23

المصادر الثانوية المختصة بحياة ترتوليانوس هي : Barnes ؛ Lloyd pp. 21 - 60 ؛ Foakes - Jackson pp. 206 - 208 , 263 - 265 ؛ Latourette Vol I pp. 125 - 131 ؛ Plummer pp. 111 - 119
كذلك يوجد شواهد متعددة في كل من Frend و Schaff HOTCC Vol. II .

بالنسبة الى المونتانيين ، راجع NAPNF Series 2 Vol. I ; Eusebius V, 16 - 18 وفيها ملاحظات كثيرة أدرجها المترجم ؛

Foakes -Jackson pp. 224 - 225; Wright; Barnes; Schaff HOTCC Vol. II pp. 415-427

الفصل الثامن

الكتابات الروحية

إن كبار المفكرين المسيحيين في القرون الأربعة الأولى للميلاد اهتموا بتعريف عقائد الايمان و انهمكوا في الدفاع عنها . فقد شغلتهم الأسئلة التالية : هل كان المسيح انسانًا مثلنا ؟ او هل كان ملاكًا ؟ أو أنه كان يختلف عنا في جملته - كأن يكون ليس بإنسان و لا بملاك ؟ هل كان المسيح موجوداً منذ الأزل ؟ او هل وُجد عندما حبلت به العذراء ؟ هل جُرّب المسيح حقًا ، كما نجرَّب نحن ، حيث كان بإمكانه أن يخطيء ؟ او كان مستحيلاً عليه ان يخطئ ، و بالتالي فإنه لم يتعرّض للإغراءات الحقيقية ؟

بحث المسيحيون الأوائل في إيجاد أجوبة عن هذه التساؤلات من خلال العهد القديم ، و من مضامين ما كتبه الرسل ، و استناداً الى ما قاله الرب يسوع نفسه . و قد استنتجوا أحيانًا استنتاجات شخصية مستندة الى ما بدا لهم انه منطقي وعقلاني . ولكنهم في النهاية ، كانوا يعودون دائمًا الى ما يشير اليه العهد القديم ، و الى ما كتبه المسيحيون الأولون باعتبار ان هذه الكتابات موحًى بها من الله . و إذا ما ظهر أيّ التباس ، فيمكنهم معالجته بالرجوع الى أقوال الرب يسوع ، أو الى قول لبولس أو بطرس او غيرهما من الرسل الآخرين .

و بانتهاء القرن الأول للميلاد ، كانت جميع كتب العهد الجديد قد أُكملت ، و لكنّ هذه الكتب ، كان يتم تداولها بين الكنائس على شكل وثائق متفرقة . فيمكن مثلاً ان تملك إحدى الكنائس انجيل متى ، بينما يكون إنجيل يوحنا في حوزة كنيسة أخرى . أمّا كنيسة ثالثة فقد يكون عندها أربع رسائل لبولس أو خمس . و من الممكن ان نجد في مكان آخر رسالة بطرس الأولى او سفر الرؤيا . إلى هذا ، فقد وُضعت كتابات مسيحية أخرى باتت مشهورة في الأوساط الشعبية ، الأمر الذي حتم على قادة الكنيسة ان يقرّروا أيًا من هذه الكتابات هو صادر عن الرسل أنفسهم . أو أي منها يمكن اعتباره له سلطة ، و مُلهمًا بوحي من الله الى خدامه المختارين ، أو أي الكتب يُعتبر من عمل انسان أصدره ، ربما ، عن حسن نيّة ؟ و في بداية العام 180 ميلادي ، ظهر بين المسيحيين شبه اجماع في الرأي حول الكتب التي يمكن اعتبارها قانونية و معترفًا بها . وفي مدينة بونتوس (Pontus) التي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الدولة التركية الحالية ، صاغ ماركيون (Marcion) في عام 140 ميلادي قائمة قصيرة بالكتب المقبولة لديه ، و لكنّ نظرية ماركَيون هذه جنحت نحو الأفكار الصوفية الخاصة بالغنوسطية ، ومال الى رفض تلك الكتب التي لا تدَعم آراءه . على أنّ كتّابًا آخرين ، من الرعيل الأول ، وافقوا على الكتب المقبولة من ماركيون ، مضيفين اليها كتبًا أخرى ، اعتادوا ان يستعملوها في كنائسهم . وفي الغرب ، كانَ انجيل يوحنا أقل شعبية من الأناجيل الأخرى التي أصدرها باقي البشيرين : متى ومرقس

ولوقـا ، و التي تُدعى الأناجيل السينوبتيـة . و هناك ايضًا ، لم تُقبل الرسالة الى العبـرانيين إلاّ ببطء . أمّا في الشرق ، من الناحية الأخرى ، فلم يُعترف بسفر الرؤيا بادئ ذي بدء .

في مستهل القرن الثالث للميلاد ، ألمح ترتوليانوس الى كل واحد من الاناجيل الأربعة عندما كان يصف حياة المسيح . أمّا في أواسط القرن الثالث ، فقد أصبحت جميع الأسفار التي تؤلف العهد الجديد الذي عندنا اليوم ، مُعترفًا بأصالتها و سلطتها . على أنّ رسالة أثَناسيُوس (Athanase) ، ناظر كنيسة الاسكندرية ، و التي كُتبت في سنة 367 م ، تُعتبر عمومًا ، أنها الأولى التي تُعرّف بلائحة اسفار العهد الجديد القانونية ، و التي تحتوي على سبعة وعشرين سفراً نستعملها حتى يومنا هذا . و بعد ثلاثين عامًا من ذلك التاريخ ، حدّد المؤتمر الذي انعقد في قرطاجة ، جميع الأسفار القانونية في العهد الجديد ، و هي التي أصبحت منذ ذلك الحين الكتب المعتمدة في جميع أنحاء العالم .

و من الطبيعي ، أنّ قبول هذه الكتب ، يعني رفض غيرها من الكتب ، تلك الكتب التي ندعوها اليوم « الأسفار الأبوكريفية » (Apocryphe) . فإنّ كتابات الأبوكريفا تتحدث عن خوارق شاذة و غريبة ، و واضح أنها تختلف عن الروايات المنضبطة والرزينة التي جاءت في الأناجيل و أعمال الرسل . و على الرغم من ذلك ، فقد كان لهذه الكتب شعبية واسعة بين أولئك الذين يستمتعون بالأوهام و التخيّلات ، و لم يعطوا اعتباراً و تحفظًا للتعليم الذي رافق هذه الكتب و الأسفار . و تزعم بعض هذه الكتب أنّ كاتبيها كانوا الرسل عينهم ، و لكن بعد التقصّي الدقيق تبيّن أنّ هذه الكتب تحتوي على تعليم يتعارض مع المستندات و الوثائق التي كان ، و لا شك ، قد خلّفها وراءهم هؤلاء الرسل . فهناك مثلاً إنجيل بطرس المزوّر ، الذي يحتوي على تعاليم وعقائد لا يمكن ان يكون بطرس قد علّمها . و هناك ما يُدعى « رسالة برنابا » ، التي من الممكن ان تكون قد أُلّفت و جُمعت في القرن الثاني للميلاد [1] . أمّا الكتاب الأكثر شهرة ، فهو ذلك المدعو «ديداكي» (Didache) ، أي « تعليم الرسل الاثني عشر » ، و لربما كُتب في نحو عام 100 للميلاد . وقد أشار أثناسيوس في القرن الرابع الى كتابات الابوكريفا هذه بالقول إنها «الكتب التي لا تحمل أية سلطة ، و لكنها عُيّنت من المسيحيين الأولين لتُقرأ على أولئك الذين آمنوا حديثًا .» [2] إن القصة المجازية المسمّاة «راعي هرماس» (Le Berger d'Hermas) انتشرت بشكل واسع في إفريقيا الشمالية ، و هناك رسالة أخرى بعنوان رسالة اقلمندوس (L'Epître de Clément) ، وعدد من النصوص الأخرى كتلك الروايات التي تدّعي التحدّث عن طفولة المسيح و الرحلات التي قام بها بطرس وبولس و الرسل الآخرون . لقد ادّعى بعض الاشخاص او الكنائس خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد ، يجب أن يُعتَرف بقانونيةَ بعض هذه الأسفار و الرسائل الآنفة الذكر ، و حاولوا إنزالها الى جانب الاناجيل و الرسائل التي تكوّن كتاب العهد الجديد اليوم ، ولكنّ أغلب الكنائس أجمعت على رفضها . هذا لأن قراءة دقيقة فاحصة للأبوكريفا ، تُظهر ، في كل حال ، عيوبًا في تعاليمها ومبادئها ، و هي تفتقر الى الضبط و التوازن اللذين يميّزان الكتب المعترف بها من الكنيسة ، و المعتمدة منذ ذلك الحين على أنها تشكّل كلمة الله الموحى بها و ذات السلطة .

لقد صانت الكنائس الأولى كتب العهد الجديد باحترام و اجلال شديدين . وكان قادتها يرجعون مراراً الى هذه الكتب عند الوعظ و التعليم ، كما أنّ علماء اللاهوت عندهم كانوا يستشهدون بها بشكل ثابت عند تقديم الحقائق العظمى للايمان و توضيحها . فترتوليانوس مثلاً ، بنى فهمه للثالوث الأقدس ، بشكل كامل ، على شهادة كتابات هؤلاء الرسل . و قال : « كل الكتاب المقدس يبرهن بوضوح وجود الثالوث الأقدس .» [3] آمن المسيحيون الأوائل بأن هذه الوثائق هي من وحي الله تعالى ، كأسفار موسى و كتب الأنبياء والأعمال الشعرية التي في العهد القديم : « تكلّم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس . » [4] و شعروا بالحاجة إلى تفتيش الكتاب المقدس ، للوثوق بوعود الله المعلنة على صفحاته و لتطبيق مبادئه في حياتهم اليومية . و عن هذا أيضًا ، أجاد ترتوليانوس مرة أخرى بالقول : « نحن ملزمون في إنعاش ذاكرتنا بكتاباتنا المقدسة ، وذلك لنستطيع ان نرى ما إذا كان أيّ من أمورنا الحاضرة يحتاج الى تحذير أو إعادة نظر . و في كل الحالات ، نحن نغذّي إيماننا بهذه الأقوال المقدسة ؛ إننا نبعث رجاءنا ، و نؤسس ثقتنا ، و في الوقت نفسه نحن نقوّي تهذيبنا و انضباطنا بالإنتباه الثابت الى الوصايا . » [5]

كان المسيحيون الأوائل ملمّين الماماً تاماً ، ليس فقط بالعهد الجديد ، بل بالعهد القديم أيضًا . فمعظمهم لا يعرفون القراءة باللغة العبرانية الأصلية . و النسخة الواسعة الانتشار والاستعمال خلال القرون الأربعة الأولى ، كانت المترجمة الى اليونانية ، و التي عُرفت بالترجمة السبعينية (Septante) ، ويُرمز اليها أحيانًا بالأحرف اللاتينية المختصرة *LXX* . لقد تولّى سبعون او اثنان و سبعون من جهاز العلماء اليهود في مدينة الاسكندرية العمل الترجمي من العبرانية الى اليونانية ، و ذلك في حدود السنة 200 قبل الميلاد . فانفرد كلّ من هؤلاء المترجمين في حجرة مغلقة ، كما تذكر القصة ، فجاءت تراجمهم متطابقة بشكل اعجوبي رائع . والجدير ذكره أنّ ترتوليانوس و أغسطينوس لم يعيرا هذه الأسطورة الشعبية اهتمامًا كبيراً ، ولكنهما مع ذلك كانا يقدّران هذه الترجمة .

أبدى المسيحيون الأوائل احترامًا كبيراً للترجمة السبعينية ، خصوصًا في ضوء الادعاءات عن أصلها المعجزي . و كانوا يعتمدون على هذه الترجمة في مباحثاتهم و مناظراتهم مع اليهود . إلاّ أن بعض المسائل العقائدية المستمدّة من السبعينية ، كانت مع الأسف تستند الى ترجمة مغلوطة للآيات موضوع الجدل . و لم يتم التخلّي عن هذه العقائد إلاّ بعد أن اكتملت التراجم التي أُجريت في ما بعد ، مثل ترجمة جيروم اللاتينية المعروفة « بالفُلغاتة » (Vulgate) .

لم يُوضع علم اللاهوت للكنيسة الأولى بشكل نظامي في البداية . فمثله مثل لائحة الاسفار القانونية في العهد الجديد ، أُنجز قطعة قطعة ، تجاوبًا مع الاحتياجات الجارية ، او استجابة لما يطرأ من تساؤلات خاصة . لقد وُضعت معظم الكتابات اللاهوتية ككتب يوستينوس (Justin) وإيرينَايُوس (Irénée) و ترتوليانوس و أوريجانوس جوابًا عن تحدّيات اوردها النقّاد ، أو بعض المسيحيّين الذين كانت آراؤهم و تعاليمهم غير نقية . ففي الواقع ، إن أولئك المقاومين يستحقون شكرنا ، لأنه لولا تهجّمهم ذاك ، لما حُمل أصحاب تلك العقول الملهمة

المعاصرة على الغوص في تفسير أدقّ المسائل المرتبطة بالنصوص الكتابية الموحى بها . إنّ هذه التساؤلات الأساسية نفسها تُثار من جيل الى جيل ، و الأجوبة التي قدّمها لها ترتوليانوس وغيره منذ أكثر من 1600 سنة ، لا تزال في أحيان كثيرة بالأهمية عينها التي كانت لها وقتئذ .

ففي إحدى المناسبات ، سأل بعض الذين دأبهم الحطّ من قدر الإيمان : لماذا سمح الله ان يقع الانسان في الخطيئة ؟ لماذا لم يحم الله الانسان من الإغراء ، أو يُعطه ، على الأقل ، القوة لتخطّي الإغراء ؟ لقد احتجوا قائلين إنه عندما سمح الله لآدم بأن يقع في الخطيئة ، لا بدّ من أن الخالق كان يفتقر إما الى الصلاح و إمّا الى المعرفة المسبقة و إمّا الى القدرة . و كان قصدهم في الواقع ، أنه لو ان الله موجود حقًا ، لوقعت الملامة عليه بالنسبة الى الشر الموجود في العالم ، او ربما ألمحوا بشكل مبطّن الى أن الله غير موجود على الاطلاق .

حمل ترتوليانوس بعنف على هؤلاء النقّاد و ذلك بأسلوبه المؤثر المعتاد . قال : « والآن ، جوابًا عن تساؤلاتكم ايها الكلاب الذين طردهم بولس الرسول و أخرجهم خارج الأبواب ،[6] أنتم يا من تنبحون على الله ، إله الحق . هذه هي الأسئلة التي ما فتئتم تقضمونها باستمرار كما تقضم الكلاب العظام : " فإذا كان الله صالحًا و يعلم الأشياء مسبقًا ، و له القدرة على ردع الشرّ ، فلماذا يسمح للناس إذًا ، بأنْ يخدعهم إبليس ، و يسقطوا من الطاعة لقوانينه تعالى لكي يموتوا . . . ؟ فإذا كان الله صالحًا ، فهو لن يرغب في حدوث شيء كهذا ، و إذا كان يعلم الأمور مسبقًا ، فإنه لن يكون غافلاً عما سيحدث ؛ و إذا كان قويًا ، فإن باستطاعته الحؤول دون حصوله . و كل حالة او وضع يتوجب ان يتطابق مع هذه الصفات الثلاث للجلال الإلهي ."»[7]

و بعد أن أثار هذه التساؤلات ، شرع ترتوليانوس في الإعداد للإجابة عنها . و قد اتّبع في ذلك مثال المسيح ، مشيرًا الى أنّ صلاح الله ، و معرفته الكليّة ، و قدراته المطلقة ، ظاهرة بوضوح ، من خلال أعماله في الخلق ، و كذلك في إرساله الأنبياء الذين تنبأوا بدقّة عما سيحدث في المستقبل . و أخيرًا اقترح ترتوليانوس ألاّ يُصار الى البحث عن الشر في طبيعة الله ، بل في طبيعة الانسان ؛ و أضاف قائلاً : « أجد ان الله خلق الإنسان مخلوقًا حرًا وأعطاه إمكانية الإختيار . و هذا بالذات ، يُظهر لي شبه الله و صورته التي أوجدها في الإنسان اذ قد ميّزه تعالى بالحرية و بإمكانية الاختيار . ثم يأتي الناموس نفسه الذي أسّسه الله ليثبّت واقع حال الإنسان هذا . فالناموس لا يُعطى إلاّ لذاك الذي يمتلك القوة لاختيار الطاعة التي يطلبها الناموس . . . اذًا ، مُنح الإنسان الحرية الكاملة ليختار بين الصالح و الطالح ، ليكون بذلك سيّد نفسه باستمرار ، ملتصقًا بالخير طوعًا ، و نابذًا كذلك للشر . لأن حكم الله على الإنسان (و هو على كل حال تحت هذا الحكم باستمرار) ، من الضروري أن يكون عادلاً ، و ناتجًا من اختيار الإنسان الحر . و إلاّ ، فإذا كان الله يدفع الناس عنوة ليكونوا صالحين أو طالحين ، فلن تكون هناك عدالة في إدانتهم للشر او الخير الذي يفعلونه بالاضطرار لا بالاختيار .»[8]

قال ترتوليانوس إنه كان بإمكان الله ان يلزم الانسان بإطاعته طاعة دائمة ، لكنّ مثل هذه الطاعة تمثّل العبودية أكثر من تمثيلها لحُبِّ الانسان لربه . إن الصلاح الحقيقي هو سجية

علينا أن نقبلها طوعًا ، و بشكل حر . فالإنسان غير مرغم ابداً على العيش حياة القداسة أو الشرّ . فبإمكانه ، باختياره الشخصي ، أن يلتصق بالخير و يقاوم الشر ، و بهذا يصبح على شبه الله نفسه . و لكن إذا كان الانسان حراً في اختيار الخير ، فهو حر ايضًا في اختيار الشر : و هذا ما يفعله أحيانًا . ان سقوط الإنسان ، و الشر الذي في العالم ، هما النتيجة الحتمية للإرادة الحرة التي منحها له الله . و حتى في هذه الحال ، يبقى الأمر أفضل من إلزام الانسان بطاعة قسرية للّه ، تُظهر قوته تعالى ، لكنها في الوقت عينه ، تجعل الانسان عبداً . إن الله ، بمنحه هذه الحرية للبشر ، أظهر بذلك بصيرته و حكمته و صلاحه ، و لم يتنكّر لها .

لم يكن ترتوليانوس صبوراً على اولئك الذين وجدوا لذة في السخرية من حكمة الله . لقد أعلن الله عن ذاته كما هو في الحقيقة : ديّان و فاد . قال ترتوليانوس : « أنت تدعوه قاضيًا ، و مع ذلك فإنك تسخر من قسوة القاضي الذي يتّعامل مع كل قضية كما تستوجب او تستحق تمامًا . أنت تطلب إلهًا مطلق الصلاح ، و بعد ذلك ، عندما يُظهر الله وداعته و لطفه من خلال تنازله ، ليتلاءم مع قدرات الانسان الفقيرة المحدودة ، تنتقص من قدره تعالى متهمًا إياه بالضعف . فلا الإله العظيم يسرّك و لا الإله الوديع ، لا الإله القاضي و لا الصديق . »[9] و لكن الكثير الانتقاد لا يبدي في الواقع أية رغبة في قبول شيء ، فهو يفرح بالسؤال أكثر من فرحه بالحصول على الجواب الشافي ، و نادراً ما يأبه لاكتشاف الحقيقة .

لم تكن وقائع حياة المسيح و موته و قيامته موضع نقاش او جدل خلال القرنين الأول والثاني للميلاد ، لأنها كانت من المسلّمات بالنسبة الى اليهود و الأمم على السواء . فالاهتمام كان بالحري منصبّا على طبيعة المسيح نفسه . هل كان المسيح انسانًا عاديًا مسحه الله بقوة خاصة ؟ أو هل كان ملاكًا و ذا جسد شبه بشري ؟ هل كان المسيح كائنًا خاصًا ، خلقه الله و لكنه ميّزه عن كل من الملائكة والناس ؟ لقد تشعّبت نظريات عديدة من تلك الأفكار التي تُعرف اليوم بالبدعة الغنوسطية . كانت المذاهب الغنوسطية متأثرة جداً بالفكر اليوناني ، و كان أنصارها يدّعون أن لهم إدراكًا أعمق للحقائق مما لغيرهم من ابناء جيلهم ، و ذلك بسبب اطّلاعهم ، و معرفتهم الواسعة بأسرار الفلسفة ، و علم الأساطير أو علم التنجيم . و قد فسّروا الكتاب المقدس ، و كل الأشياء الأخرى ، في ضوء معرفتهم الخاصة هذه . كانوا يعتبرون المادة بجملتها شراً ، و لم يستطيعوا ان يتصوّروا ابن الله القدوس آخذاً جسداً بشريًا . فقالوا فيه إنه ينبغي ان يكون إمّا ملاكًا و إمّا روحًا .

يقبل ترتوليانوس التحدّي : « لم يهبط ملاك من السماء قط ليُصلب و يختبر الموت ، ثم القيامة من الأموات . . . لم يأت الملائكة ليموتوا ، لذا لم يأتوا ليولدوا أيضًا . ولكنّ المسيح أرسل ليموت ، لذا كان من الضروري ان يولد حتى يتمكن من ان يموت . »[10] لقد أصبح انسانًا حقيقيًا من لحم و دم كما نحن .

و في مناسبة أخرى ، يردّ ترتوليانوس على أولئك المعترضين ، مبدّداً الأفكار التي تقول إن الجسد البشري فاسد ، و بالتالي غير لائق بابن الله . « دعوني الآن أُكمل قصدي اذ أبذل قصارى جهدي لإظهار كل ما منح الله الجسد عند خلقه . » فعندما خلق الله آدم من طين

الأرض ، كان بإمكان آدم « أن يفتخر بأن هذا الطين الحقير قد وُجد في يديه تعالى . . . و قد سرّته هذه اللمسة بما فيه الكفاية . »[11] و لكنّ الله لم يفكّر في آدم وحده عندما خلقه بجسمه هذا ، و إنما فكّر أيضًا في ابن الله الذي سيحصل أخيراً على الشكل نفسه و الهيئة نفسها .« فلنفكّر في الله و هو منشغل و منهمك تمامًا في عمل الانسان ، فيده تعمل مع مشاعره ، و نشاطه ، و تدبّره و علمه المسبق ، و حكمته و عنايته ، و فوق هذا كله تلك المحبة التي كانت ترسم الخطوط و المعالم في الكائن البشري . لأنه بينما كان الله يقولب كل جزء في الانسان من الطين ، كان المسيح في فكره تعالى ، باعتباره ذاك الانسان الذي سيكون في الزمان الآتي . لأنّ كلمة الله سيصير طينًا و جسداً . . . بعض الأشياء لها الامتياز بأن تكون أشرف و أنبل من أصلها . . . فالذهب لم يكن سوى تراب قبل أن نستخرجه من الأرض ، ولكن بعد تصفيته يتحوّل الى ذهب صلب جامد ، و يصبح مادة مختلفة تمامًا عمّا كانت عليه قبلاً ، إذْ يكون أكثر اشراقًا و روعة ، و يكون أكثر قيمة مما كان عليه في مصدره الوضيع الذي انبثق منه .»[12] إن المسيح هو من طينة آدم و جبلته ، بيدَ أن مجده هو أعظم بما لا يُقاس .

إذًا ، ليس من السخافة في شيء ان يكون المسيح إلهًا و إنسانًا في آن ، فهو يمتلك روحًا إلهيًا و جسداً بشريًا . و يضيف ترتوليانوس قائلاً : «فتعلّم اذًا مع نيقوديموس كيف أن المولود من الجسد جسد هو ، و المولود من الروح هو روح . »[13] فالجسد لا يصبح روحًا و لا الروح جسداً ، ولكن يمكن لكليهما ان يوجدا في شخص واحد . كان يسوع يتكوّن من جسد و روح – من جسد كإنسان ، و من روح بصفته الله . لقد دعاه الملاك ' ابن الله'، و ذلك بما أنه روح ، مستبقيًا للجسد اللقب ' ابن الانسان ' . و عليه فقد أيّد الرسول بولس ان للمسيح طبيعتين عندما قال عنه : إنه ' الوسيط بين الله و الإنسان ' . »[14]

حار الغنوسطيون بفكرة الثالوث الأقدس ، و وجدوا صعوبة في إدراك كيف يمكن للمسيح ان يكون هو الله نفسه ، مع انه يختلف عن الله . لقد علّموا ان المسيح هو كائن خاص ، و لكن لا يجوز في نظرهم اعتباره مساويًا لله . أعطى ترتوليانوس قدراً كبيراً من التفكير في هذا الامر . و يبدأ باستعراض ما نعرفه بوضوح عن الله نفسه بالقول : « قبل ان توجد الأشياء كلها ، كان الله وحده . كان هو نفسه الكون الخاص به ، و المكان الخاص به ؛ كان الله كل شيء . كان وحيداً ، بمعنى انه لم يكن هناك شيء خارجًا عنه . و مع ذلك ، لم يكن الله وحده ، حيث كان معه ما هو جزء منه ؛ لقد كان معه ذهنه . فالله هو عاقل و الذهن موجود معه منذ الأزل ، و منه انتشر الى كل الأشياء . و هذا الذهن هو وعيه الشخصي لذاته . و اليونانيون يدعونه *اللوغوس(Logos)* ، و الذي هو المصطلح الذي نستعمله للخطاب . و هذا ما يترجمه شعبنا حرفيًا بالقول : ' في البدء كان الخطاب عند الله' .»[15] و هنا بالطبع ، يشير ترتوليانوس الى افتتاحية انجيل يوحنا حيث أن « الكلمة » (بمعنى الذهن و العقل و الخطاب) يمثّل المسيح . « في البدء كان الكلمة ، و الكلمة كان عند الله و كان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . كل شيء به كان و بغيره لم يكن شيء مما كان . »[16]

وأردف ترتوليانوس يقول إن هذا الكلام لا يصعب فهمه كما قد يعتقد أحدنا . « و لكي تفهم ذلك بسهولة أكبر ، لاحظ أولاً نفسك (حيث انت ' صورة الله و شبهه ' [17]) بأنه عندك أنت أيضًا ذهن ، و ذلك لكونك مخلوقًا عاقلاً . . . لاحظ كيف أنه عندما تأخذ في مناقشة نفسك بصمت ، و في تشغيل ذهنك ، فإن هذا الأمر نفسه يحصل فيك ، حيث أنّ الكلام يعبّر عندك عن الذهن ، و ذلك في كل لحظة من لحظات التفكير ، و في كل نشاط للوعي و الشعور . فكل فكر تفكّره يُعبَّر عنه بحديث و كلام ، و كل لحظة من لحظات الوعي تُعبِّر عن نفسها من خلال التفكير . . . و عليه ، فالحديث الذي يدور في داخلك مميَّز ، بمعنى من المعاني ، عن ذاتك .» [18]

يفكّر الله بالطريقة نفسها التي يفكّر فيها الانسان ، حيث أنّ الانسان صُنع على صورة الله و لكن مع الفارق التالي : أفكار الله لها القدرة اللامتناهية لتصبح حقيقة . بإمكان الإنسان ان يفكّر في أمور عظيمة و لكن ليس له القدرة على ان يحقق كل ما يتصوّره . الله بالمقابل ، لا يحتاج إلاّ إلى أن يفكّر في شيء ، فيقدر على أن يخلق هذا الشيء كاملاً و ذلك فوراً ومن العدم . و الكلمة الذي كان دائمًا في فكر الله وُلد أو أُنجب في اللحظة التي فيها أنجز الله مضمون فكره . « هذا اذاً هو الوقت الذي فيه يظهر الكلمة بمظهره و لباسه الخارجيين . . . كانت هذه الولادة الحقيقية للكلمة عندما انبثق من الله . » [19] فقد لاحظ تلاميذ المسيح ان سيدهم كان الكلمة الذي خرج من الله . « و الكلمة صار جسداً و حلّ بيننا ورأينا مجده كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة و حقًا . » [20]

قال ترتوليانوس إن « الكلمة (المسيح) جعل الله أبًا له حيث أصبح بانبثاقه منه ، الابن الأول ، و هو كذلك لأنه منبثق قبل كل الأشياء ؛ كذلك هو الابن الوحيد للآب بصفته منبثقًا بشكل فريد من أحشاء قلبه تعالى . » [21] و الكتاب المقدس يبرهن لنا هذه الحقيقة حيث أن المسيح نفسه قال إنه جاء من عند الله ، من عقله الداخلي . و قد تحدّث المسيح عن المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم .[22] كذلك تحدّث عن محبة الآب له قبل تأسيس العالم ،[23] و عن الآب الذي أرسله الى العالم المخلوق .[24] و لكن حتى عندما كان المسيح على هذه الأرض ، كان « في الآب » . و هو الذي صرّح بالقول : « أنا والآب واحد . » و أيضًا : « لست وحدي بل أنا و الآب الذي أرسلني . »[25] لقد جاء المسيح من الآب ، و كان لا يزال واحداً مع الآب . وبعد قيامته عاد الى الآب . كان دائمًا وبشكل ثابت ، كلمة الله ، و الإعلان الإلهي الظاهر للخالق الإلهي ذاته .

بهذا الاسلوب حاول ترتوليانوس ان يجيب عن أسئلة الغنوسطيين . و لكن ، كانت هناك جماعات أخرى على نقيض الغنوسطيين ، تُثبت ان المسيح و الآب كانا متطابقين على نحو مطلق . و قد وجد ترتوليانوس جوابًا لهؤلاء أيضًا . فيسوع نفسه قال : « أبي أعظم مني ، »[26] و ذلك ، كما لاحظ ترتوليانوس ، لأن الآب هو الجوهر الكامل (للألوهية) بينما الابن انبثق منه و هو جزء من كل . . . جاء الابن من الآب ، و لكنه لم يكن منفصلاً عنه . لأن الله يُنتج الكلمة . . . كما الجذر ينتج النبتة ، و النبع النهر ، و الشمس الشعاع ، حيث أن هذه المظاهر

كانت « امتداداً » للجوهر الذي انبثقت منه . أنا لا أتردد في أن أدعو النبتة « بنت الجذر » ، و كذلك النهر « ابن الينبوع » ، و الشعاع « ابن الشمس » . حيث أن كل مصدر أصلي هو والد او والدة ، و ما ينتجه هو ابنه أو ابنته و هذه الحقيقة تصحّ أكثر بكثير على كلمة الله الذي حصل على اسم « ابن » كلقبه المناسب . ولكن النبتة ليست منفصلة عن الجذر ، و النهر ليس منفصلاً عن الينبوع ، و الشعاع غير منفصل عن الشمس ، و هكذا كلَمة الله ليس منفصلاً عن الله . و عليه ، و استناداً الى هذه التناظرات ، أعترفُ بأنني اتحدث عن اثنين : الله و كلمته ، الآب و ابنه . إن الجذر و نبتته هما اثنان ، و لكنهما متحدان . النبع و النهر اثنان ، و لكنهما موحدان ؛ الشمس و شعاعها اثنان و لكنهما متحدان . فإن أيّ شيء ينبثق من أي شيء آخر يحتاج إلى أن يكون شيئًا ثانيًا ، و لكنه ليس بالضروري منفصلاً عنه . و عندما يكون هناك واحد ثان ، فإنهما اثنان ، وعندما يكون هناك ثالث يكونون ثلاثة . الروح القدس هو الثالث مَن الله و الابن ، كما الثمرة من النبتة فوق الأرض هي الثالثة من النبتة ، و القناة من النهر هي الثالثة من النبع ، و النقطة المضاءة بالشعاع هي الثالثة من الشمس . و لكنّ أحداً من هذه غير منفصل عن الأصل الذي تستمدّ منه صفاتها الخاصة . و عليه ، فإنّ الثالوث ينبثق من الآب بخطوات مستمرة و متصلة بعضها ببعضها الآخر . وهذا لا يطعن ، بأي حال من الأحوال ، في وحدته تعالى ، لكنه يحافظ على حقيقة كونه يعلن ذاته بطرق مختلفة . »[27]

و بهذا ، ختم ترتوليانوس حديثه قائلاً إنّ الابن و الروح القدس انبثقا من الله نفسه . كانا موجودين مع الآب منذ الأزل ، و لكن ، في الوقت المعيّن أُرسلا كإعلان عن الله نفسه . الكلمة هو الله ، و لكنّ الله هو أكثر من مجرد كلمته . الروح القدس هو الله ، و لكنّ الله أكثر من مجرّد روحه . فالله يشتمل على كل هؤلاء : هو نفسه ، كلمته و روحه . إن كلمة الله هو إعلانه عن نفسه تعالى . و روح الله هو اعلانه عن نفسه إيضًا ، و لكنه يبقى هو الله نفسه ، الله الواحد كما كان دائمًا و كما سيبقى الى الأبد .

و لكن ترتوليانوس اعترض على بعض الناس الذين يدّعون أنه لم يكن هناك فرق او تمييز بين الآب و الابن ، و يذهبون في ذلك الى حدّ الجزم ان الله الآب مات على الصليب و حمل خطية الانسان . أجابهم ترتوليانوس : « إنّ هذا القول هو تجديف على الله ، فلنتوقف عنه ، و لنكتفِ بالقول إن المسيح ابن الله هو الذي مات . لقد مات ، لأن هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس . . . وعليه ، وبما أنّ للمسيح طبيعتين ، طبيعة إلهية و طبيعة بشرية ، و بما انه متفق عليه ان الله لا يموت ، اذاً الطبيعة البشرية هي وحدها المائتة . فمن الواضح انه حين قال الرسول ، إنّ « المسيح مات » فهو يتحدث عن الجسد و الانسان و ابن الانسان ، و ليس عن الروح و الكلمة و ابن الله . »[28]

للمسيح طبيعتان ، أضاف ترتوليانوس ، « متّحدتان في شخص واحد ، يسوع ، الذي هو الله و الانسان . . . لقد ظل كل جوهر محتفظًا بخصائصه ، بحيث تمّ

الروح في المسيح نشاطاته الخاصة - القوى و المعجزات و الأمارات - بينما جسده اختبر ما يختص بالجسد - الجوع عندما التقى المسيحُ إبليسَ ، و العطش في مقابلته مع المرأة السامرية ، والبكاء عند موت العازر ، والاكتئاب حتى الموت ، و أخيراً موت الجسد . »[29] لقد جُرِّب المسيح بجسده و فكره ، بالاغراءات نفسها التي تصيبنا [30] ، فلم يكن محصنًا ضد الاغراءات ، كما لم يكن متأكّداً من النصر الفوري عليها . و لكنه كان يستمدّ القوة من الروح الإلهي الموجود فيه ، فلم يستسلم قط . تألم و مات بجسده البشري كابن الانسان ، و مع ذلك فقد بقي روحه الإلهي حيًا . ترك روحه الجسد في لحظة الوفاة .[31] ولكنه عاد اليه مرة ثانية عند قيامته من الأموات .

و هنا نرى الفرق بين الابن و الآب . الآب لا يتغيّر و ليس له جسد مادي . فهو لا يموت و لا يقوم من الأموات . الابن هو الذي عانى و تألم و مات بالجسد ، كما يحدث للانسان فقط . لقد صرخ يسوع : « إلهي إلهي لماذا تركتني . »[32] قال ترتوليانوس : « لقد كانت هذه الصرخة صرخة الجسد و النفس ؛ كانت صرخة الإنسان ، لا صرخة الله . وهذا ما عناه الرسول بقوله إنّ الآب لم يشفق على ابنه [33] ، و قبل هذا ، صرّح اشعياء النبي قائلاً : «و الرب وضع عليه اثم جميعنا .» [34] كان الله الآب هو الذي بذل الله الابن من أجلنا . وكان الله الابن وحده من انبثق من الآب ، و تجسد ، وحمل اوزار الخطية . « الآب يختلف ويتميّز عن (انسانية) الابن ، مع انه لا يختلف عنه بألوهيته . » و قد قدّم ترتوليانوس الإيضاح هنا بالقول : « إذا كان هناك جدول مياه ملوّث . . . فهذا لا يؤثر في مصدره او منبعه ، مع انه ليس هناك انفصال بين المصدر و الجدول .» [35] لقد أُميت الابن ، و لكن ليس للآب جسد بشري ، لذا لا يمكن ان يموت . و هنا يكمن الفرق بين أقانيم اللاهوت .

لقد كانت مثل هذه المناظرات اللاهوتية ضرورية لحفظ الايمان و نقله الى الأجيال الصاعدة من دون فساد او خطإ . و لكن لا يُفترض بالجميع ان يتبعوا مثل هذه التعقيدات من الإثباتات المنطقية والتفنيد . و لحسن الحظ نقول إنّ التعاليم الأساسية للمسيحية كانت واضحة و عملية بشكل ممتاز . و كان أبسط المؤمنين يتمكّن من قبول كلمات يسوع بمعناها الظاهري - لإطاعتها والإيمان بها ، حتى و إن لم يفهمها بالكامل . فالإنسان يستطيع ان يخدم المسيح من دون أن يقرأ حجج ترتوليانوس المعقّدة ، او يفهمها تمامًا .

منذ البدء راح المبشرون و الوعاظ ينادون بالانجيل في مناطق نائية لم تصلها بعد هذه الرسالة ، وكانوا من ثمّ يعلّمون المهتدين ، كيفية الحياة كمسيحيين . عرف معظم أولئك الرحّالة رسالة المسيح بشكل جيد ، و فسّروها بوضوح و دقّة ، و لكنّ بعضهم ، مثل أبُلّوس في أفسس ، وغيره ، كانوا هم انفسهم في حاجة الى تعلّم طريق الرب بأكثر تدقيق .[36] لقد خلّفوا وراءهم مجموعات صغيرة من المؤمنين هنا و هناك ليناضلوا بأنفسهم ، من دون ان يكون لديهم و لو جزء

يسير أسفار الكتاب المقدس . أنتجت بعض تلك المجموعات الجديدة أفكاراً و تعاليم غير صحيحة تمامًا ؛ و بعضهم الآخر أظهروا على نحو واضح ، ان تعليمهم يختلف عن التعليم الأصيل . و المشكلة التي جابهت قادة الكنائس الموجودة هناك ، هي كيف يمكنهم ان يميّزوا بين المجموعات التي يجوز اعتبارها ككنائس حقيقية للمسيح ، و المجموعات الأخرى المرفوضة . فاقترح ترتوليانوس مقياسين يمكن الحكم من خلالهما . أولاً ، يُسأل في الكنيسة إن كانت قد تأسست على يدي واحد من الرسل الاثني عشر ، أو احد الخدّام الموافق عليهم ، و الذين تم تعيينهم من أحد الرسل . ثانيًا ، هل الكنيسة تعلّم المبادئ نفسها التي علّمها المسيح و رسله؟ فإذا ما طابقت المجموعة هذين المقياسين يمكن اعتبارها رسولية ، و يجري قبول أعضائها كإخوة في المسيح .

و بعد ذلك يضع ترتوليانوس المبدأ العظيم : اتحاد الكنائس الناتج من أصلها الواحد . فيعيدنا الى التلاميذ الأحد عشر الذين اختارهم يسوع : « لقد شهدوا اولاً بالإيمان بيسوع المسيح في كل أنحاء اليهودية وأسسوا كنائس هناك ، و من ثم ذهبوا الى العالم و هم ينادون للأمم بالعقيدة نفسها المختصة بالإيمان نفسه . و بالطريقة نفسها أسسوا كنائس في كل مدينة ، ومنها اقتبست كنائس أخرى برعم الإيمان و بذور العقيدة . . . و لا تزال تقتبسها في كل يوم . . . و هكذا فالكنائس ، مهما كثرت و عظمت ، هي شبيهة بتلك الكنيسة القديمة الواحدة التي أسسها الرسل ، و التي انبثقت منها . . . فكل الكنائس واحدة . و هي تبرهن وحدتها بسلامها المشترك ، و باللقب " إخوة " ، و برباط الضيافة المتبادلة . »[37]

تحدّى ترتوليانوس كنائس جديدة ، كانت قد عرضت مبادئ و تعاليم غريبة ، لتثبت نسبها و أصالتها . فقال : « فليعرضوا أصول كنائسهم ، و ليكشفوا قوائم بأسماء نظّارهم المتعاقبين بشكل متواصل منذ البداية ، بحيث يستطيع اول نظّارهم ان يؤكّد أنّ أحد الرسل أو أحد تابعي هؤلاء الرسل هو سلف له في الخدمة ، و مصدر لسلطته .»[38]

إلاّ أنّ ترتوليانوس أصّر كذلك على فحص التعليم في الكنائس الجديدة ، ليرى ما إذا كان يتناسب مع تعليم الكنائس التي أسسها الرسل أنفسهم . « و الآن يجب الموافقة على مادة الوعظ في هذه الكنائس ، أي إعلان المسيح لها ، على أن يتم ذلك في نظري في ضوء شهادة الكنائس الأولى التي أسّسها الرسل اذ كرزوا لها شخصيًا ، و بواسطة رسائلهم في ما بعد . . . نحن في شركة مع الكنائس الرسولية اذ لا اختلاف في العقيدة . و هذا ما يضمن أننا نُعلّم الحق . »[39]

و قد زادت الحال تعقيداً بسبب وجود بعض المعلمين المبتدعين الذين قدّموا مستندات تدعم نظرتهم الخاصة التي ادّعوا انها من مخطوطات الرسل . فردّ ترتوليانوس على هذا بالقول : « حتى و إن استنبطت هذه البدع أنسابًا كهذه ، فلن يفيدهم ذلك في شيء ، حيث عند مقارنة تعاليمهم مع تعاليم الرسل ، تُظهر باختلافها و بعدم تشابهها انها لم تصدر لا عن الرسل ، و لا عن أي شخص كان له علاقة برسول . . . يجب أن تخضع لهذا الفحص جميع

الكنائس اللاحقة التي تُؤسَس يوميًا . و مع انهم قد لا يستطيعون ان يذكروا رسولاً أو شخصًا له علاقة برسول ، كمؤسس لهم ، إلا أنهم يستطيعون ، إن اتحدوا حول الإيمان الواحد ، أن يُحسبوا ايضًا رسوليّين ، و ذلك بسبب التجانس في التعليم . » [40]

و حين واجه ترتوليانوس التكاثر المستمر للكنائس الجديدة ، شعر بأنه من المرغوب فيه عند كل كنيسة أن تسجّل أصالتها و نَسَبها خطوة خطوة ، حتى تعود بهذه الأصالة او النسب الى أحد الرسل ، و لكن المحك الأهم للتعليم الصحيح كان بوضوح ، إمكانية إثبات ان عقيدتها تتناسب مع عقيدة الرسل ، كما هي مدوّنة في الكتاب المقدس ، و كما كانت تعلّم الكنائس القديمة . مع ذلك ، لم يعش ترتوليانوس ليرى حشد القوى المتناحرة ، للمعركة الكبيرة بين « العقيدة » و « النسب و الأصالة » التي وقعت بعد قرن واحد من وفاته .

ملاحظات

1- لا ينبغي لنا أن نخلط بين رسالة برنابا و ما يسمى « بإنجيل برنابا » ؛ إذ لا توجد أية إشارة الى هذا الأخير في أية وثيقة قبل نهاية القرن الخامس ، حين ذُكر كعمل هرطقي متأخر و غير مقبول . و هناك كتاب يرجع الى القرن الثامن عشر يدّعي أنه هو ذاك الإنجيل المفقود . لكنه مكتوب بالإيطالية ، و يحتوي على اقتباسات من قرآن القرن السابع و من « الكوميديا المقدسة » لدانتي في القرن الثالث عشر للميلاد . لذا ، فلا شك في أن هذه الوثيقة الإيطالية لا ترجع الى زمن الرسل . وأخيرًا نلاحظ أنه لم يتم العثور على أية وثيقة أخرى عن هذا « الانجيل » المزيف .

2- *Epistolae Festales* 39; Bainton p. 98

3- *Adversus Praxean* 11

4- 2 بطرس 21:1

5- *Apologeticus* 39

6- بالإشارة الى فيلبي 2:3

7- *Adversus Marcionem* 2:5 . راجع ترجمة: Bettenson *ECF* pp. 111 - 112

8- *Adversus Marcionem* 2:6

9- *Adversus Marcionem* 2:27

10- *De Carne Christi* 6

إنّ المعجزات التي مجّدت ولادة المسيح وخدمته الشفائية وقيامته وصعوده تُبيِّن بوضوح أنه أعظم من أيٍّ واحد من الأنبياء . لذلك ، ومنذ الأزمنة الأولى ، نال اللقب الفريد والسامي : «ابن الله» ، بوصفه الشخص الذي مثّل الألوهة وأظهرها في الأرض . هذا ، وإنّ المسيحيين في الماضي ، كما في الحاضر ، يعرفون أنّ لهذا التعبير مفهومًا رمزيًا وروحيًا ، وليس جسديًا أو ماديًا .

11- *De Resurrectione Carnis* 6

12- *De Resurrectione Carnis* 6

13- بالإشارة الى يوحنا 6:3

14- *Adversus Praxean* 27 ؛ بالإشارة الى 1 تيموثاوس 5:2

15- Adversus Praxean 5
16- يوحنا 1:1 - 3
17- بالإشارة الى 1 كورنثوس 7:11
18- Adversus Praxean 5
19- Adversus Praxean 7
20- Adversus Praxean 7
21- يوحنا 14:1
22- يوحنا 5:17
23- يوحنا 24:17
24- يوحنا 18:17
25- يوحنا 30:10 و 38 ؛ 16:8
26- يوحنا 28:14
27- Adversus Praxean 7
28- Adversus Praxean 29
29- Adversus Praxean 27
30- عبرانيين 15:4
31- متى 50:27
32- متى 46:27
33- بالإشارة الى رومية 32:8
34- Adversus Praxean 30 ؛ بالإشارة الى إشعياء 6:53
35- Adversus Praxean 29
36- أعمال 24:18 - 26
37- De Praescriptione Haereticorum 20
38- De Praescriptione Haereticorum 32
39- De Praescriptione Haereticorum 32
40- De Praescriptione Haereticorum 32

راجع بشأن أمر تثبيت قانونية أسفار العهد الجديد :

Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 516 - 524 ؛ Bainton pp. 97 - 99 . بالنسبة الى كتابات ترتوليانوس التي تشكّل موضوع جدل ، راجع *ANF* Vols. III & IV . يعرض Bettenson *ECF* ترجمة حديثة أكثر بالانجليزية لمقاطع مختارة من عمل ترتوليانوس .

الفصل التاسع

معـــانـــاة الأبـــريـــاء

منذ الأيام الأولى للمسيحية ، عرّف اللاهوتيون بالإنجيل و فسّروه بكل تأثيـر ، و دافعوا عنه بالمنطق و الذكاء . لكن ، في واقع الحال ، كان لعمل هؤلاء الدارسين المشهورين مساهمة في انتشار المسيحية فعليًا ، أقلّ على الأرجح من البرهان المنظور لقوّتها كما برز بين معتنقيها الأكثر تواضعًا . لقد ظهر الإيمان الجديد بأنه معقول و مقبول منطقيًا . كما أنه لم يكن أقل فعالية في برهان صدقه و صحته ، و ذلك من خلال قدرته على تغيير حياة الناس العاديين من كل فئات المجتمع و مرتباته . و قد ظهرت جدارة هذا الايمان في ما تحلّى به المسيحيون الأولون من خُلق مستقيم و محبة رائعة في مجال تعاملهم مع جيرانهم . كما أن هذا الإيمان بان جذّابًا في عطفهم على المحتقرين و الضعفاء من الناس . أمّا قدرته ، فقد برزت قبل كل شيء في مواجهتهم الاضطهاد بثبات لا يتزعزع . و بالتأكيد ، كان اولئك المسيحيون على اتصال بالكائن الإلهي ذي القوة و السلطان العظيمين . لقد قُدّر لهذا الايمان الجديد بشكل واضح أن يُبطل تلك الفلسفات المعيبة ، و الديانات التي أثبتت انها خيبة أمل محزنة للأجيال الماضية ، لكي يحلّ محلّها .

وعلى عكس ما يمكن أن نتصوّر ، كان نمو الكنائس يزداد سرعة على قدر ما يعنف الاضطهاد ضدّها . و قد اعتبرت السلطات في شمال إفريقيا أن المسيحية تشكّل تهديدًا للاستقرار و أنها تعمل في جميع أشكالها ضد القانون ، و ذلك على مدى السنوات الثلاث مئة الأوَل من وجودها . و كان أتباع المسيح ، في الواقع ، يُعتبرون من الخارجين على القانون ، و هم معرّضون في أية لحظة للمطاردة ، وذلك من حكّام و ولاة القناصل الرومان . كانت تمرّ سنين طويلة لم يكن يحصل فيها أي شيء يعكّر نمو الكنيسة الهادىء . ثم فجأة ، حين تجمح نزوة امبراطور أو حاكم ما ، كان يصيبهم اضطهاد عنيف . وكان كل مسيحي مؤمن يعلم ، أنه عاجلاً ام آجلاً ، قد يأتي ذلك الوقت الذي فيه يشهد للمسيح و ذلك على حساب حياته .

كانت كنائس شمال إفريقيا قد ألفتْ كتابات العهد الجديد و ما دوّنه من أعمال الشهادة ، كاستشهاد استفانوس و يعقوب . كمَا وصلتهم في ما بعد أخبار عن الامبراطور المجنون نيرون (Néron) ، الذي حرّضه غيظه المتوحّش ضد المسيحيين في روما ، و عن ادّعائه الكاذب بأنهم اضرموا النار في روما ما أدّى الى هدم جزء كبير من المدينة . لقد علموا بموت البشيرين بطرس و بولس اللذين من المحتمل أنهما قُتلا في هذا الوقت . و كانوا يسمعون بحوادث الاستشهاد التي كانت تحدث دوريًا و بين الحين و الآخر ، في أجزاء اخرى من

الامبراطورية الرومانية ، كاستشهاد إغْنَاطيُوس (Ignace) ، ناظر الكنيسة في انطاكية ، والذي سيقَ الى روما و قُتل هناك سنَة 110 م ، و استشهاد يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) في العام 165 للميلاد في روما ايضًا . و لكن لم يكن هناك شيء تجاوز او حتى وصل الى المشهد المأساوي لاستشهاد پُوليكَارپُوس (Polycarpe) في ايامه الأخيرة ، و هو ناظر كنيسة سْمِيرْنَا (تركيا) . و هذه الحادثة الأليمة مذكورة في رسالة طويلة كتبها المؤمنون في تلك المدينة .

كان پوليكارپوس في ايام شبابه من تلاميذ الرسول يوحنا ، و صديقًا لإغناطيوس . وعندما أصبح شيخًا مسنًا كانت كنائس المنطقة تنشد في كثير من الأحيان استشاراته الحكيمة والمحبة . و غالبًا ما كان يُدعى لحل الخلافات التي قد تنجم من جرّاء اختلاف وجهات النظر و الآراء . عاش شيخوخة سعيدة و حافلة بالإنجازات في وسط الجماعة المسيحية التي أحبّته وكرّمته .

اهتزت الكنيسة في سميرنا بعنف عندما ألقت السلطات الوثنية ، و بشكل مفاجىء ، القبض على عدد من اعضائها ، و جرى إعدامهم بسبب الايمان . و قد اجتمع كل من اليهود والوثنيين ليستمتّعوا بالمشهد . و في خضمّ هذه العاصفة الهوجاء ، راح بعض المتفرّجين يطالبون بقائد الكنيسة هاتفين : «فتّشوا عن پوليكارپوس . »

و هكذا تابع مؤمنو سميرنا بكل أمانة ، شرح ما حدث بعد ذلك ، فكتبوا : « عندما سمع پوليكارپوس ، الرائع للغاية ، بهذا الأمر لأول مرة ، لم يرتعب او يفزع ، بل رغب في أن يبقى في المدينة إلاّ أنّ غالبية المؤمنين حاولوا بإلحاح ان يقنعوه بأن يترك المكان ، فانسحب الى مزرعة صغيرة لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي كان فيها . و كان يقضي وقته هناك مع نفر من رفاقه ، مشغولين ليل نهار بالصلاة لأجل الجميع و للكنائس في كل انحاء العالم ، كما كانت عادته دائمًا . » و بعد بضعة أيام ، انتقل الى مزرعة اخرى قريبة ، رافضًا بثبات الفرار من الجوار . كان يتوقع بالكلية ان تقبض عليه السلطات الرومانية في أية لحظة ، و كان ينتظرهم بهدوء تام .

و في وقت متأخر من إحدى الليالي المظلمة ، وصل جنود امبراطوريون الى المزرعة . وكان پوليكارپوس يرتاح في الغرفة العلوية . و إذ سمع أصواتًا و صخبًا في الطابق السفلي ، قال باطمئنان : « لتكن إرادة الله . » ثم نهض و طلب أن يُحضر الطعام و الشراب المنعش للجنود ، وسألهم ان يمهلوه ساعة واحدة فقط ليصلّي . فعندما رآه الجنود ، تأثروا من شيخوخته و ثباته ، كما دهشوا من افتعال مثل هذه الجلبة و الضجة بسبب هذا الرجل الطاعن في السن . « وقف و صلّى ، » أردف الصحابة المسيحيون في سميرنا قائلين : « كان ممتلئًا من نعمة الله تعالى ، بحيث لم يكفّ عن الكلام خلال ساعتي الصلاة ، بينما كان الذين حوله مشدوهين متعجبين . لقد أسف الرجال الجنود ، على انهم جاءوا يطلبون هذا الرجل الجليل و العجوز المهيب .» لقد صلّى للجميع ، ولإخوته و لأخواته في

المسيح ، ولكل من خطر بباله من الصحاب و الأصدقاء ، ذاكراً اياهم بأسمائهم . و من ثمّ أجلسوه على حمار ، و ساروا به يقصدون المحكمة في سميرنا .

و عندما اقتربوا من المدينة ، لاقاه رئيس الشرطة هيرودس و والده صدفة في الطريق . فأخذا پوليكارپوس في عربتهما و حاولا ثنيه عن عناده و رفضه القول : « مولاي القيصر » ، ورفضه انقاذ حياته بتقديم القرابين و التقدمات للآلهة الوثنية . و مع ذلك ، فقد أصرّ الشيخ الجليل على الرفض بأدب جم . و أخيراً ، حين يئسوا من ثباته ، و قد نفد صبرهم ، دفعوه بغضب الى خارج عربتهم . و قع پوليكارپوس بقوة الى الأرض فجرحت رجله . و قد استخفّ بجرحه ، و بقي سائراً في الطريق مع حرسه ، حتى وصلوا أخيراً الى الملعب ، وهو الميدان الذي تجري فيه المباريات و تُعرض فيه المشاهد .

ثم تابع كاتب الرسالة يقول : « الآن ، و بينما كان يدخل المدرج ، جاءه صوت من السماء يقول له : «تقوَّ يا پوليكارپوس ، و كن رجلاً .» لم يرَ أحدٌ المتكلم ، و لكنّ ذلك الصوت سمعه الإخوة المؤمنون الذين كانوا حاضرين هناك . » و علا صوت المحتشدين حتى أصبح من الصعب سماع ماذا كان يجري . سأل القاضي پوليكارپوس ان يقسم بقوة قيصر الإلهية ، و أن يلعن المسيح . فأجاب پوليكارپوس ، و كان جوابه واحداً من كنوز التاريخ المسيحي : « لقد خدمت المسيح ستةً و ثمانين سنة ، و لم يخذلني المسيح أبداً. فكيف تريدني الآن ان أجدّف على اسم مليكي ومخلّصي ؟ »

أنذره القاضي ثانية ، فازداد پوليكارپوس صلابة و شدّة ، و قال : « إن كنت تتوهّم ، أنني سأقسم بقدرة قيصر الإلهية كما تقول ، متظاهراً انك لا تعرف من انا ، فاسمع جيداً : أنا مسيحي . و إذا كنت مستعداً و راضيًا على ان تتلقّن التعليم المسيحي ، فامنحني يومًا واحداً واصغ إليّ . » حينئذ قال الوالي : « إذاً اقنع الناس الذين هنا . » فأجاب پوليكارپوس : « لقد حسبتك مستحقًا أنْ أتكلم معك ، فإن عقائدنا تعلّمنا ان نخضع للسلاطين و للذين هم في منصب ، لأنهم مقامون من الله . أمّا هؤلاء الرعاع ، فلست أجدهم يستحقون ان أقدّم دفاعي أمامهم . » هنا ، أنذره القاضي ثانية طالبًا منه ان يقرّب التقدمات للوثن ، مهدداً اياه بالوحوش الكاسرة في حال استمرّ رفضه . فقال پوليكارپوس : «ارسل في طلبها ، ان الارتداد من الأحسن الى الأسوإ هو أمر مرفوض عندنا ، و لكنّ التغيير من الباطل الى الحق هو العمل النبيل . » عندذاك هدده القاضي بأن يضرم به النيران و هو حي . « أنت تهددني بنار تشتعل لفترة قصيرة ، » أجاب پوليكارپوس ، « و لكنك لا تعلم شيئًا عن النار الأبدية التي أُعدّت للأشرار . و الآن لماذا تتوانى ، جئ بما تشاء . »

عندها نطق القاضي بالحكم على پوليكارپوس ، فأعلن المنادي الذي يذيع الأحكام من منتصف المدرج قائلاً ثلاث مرات : « لقد اعترف پوليكارپوس أنه مسيحي ! » فجُهّز العمود الذي يُشدّ اليه المحكوم بالموت حرقًا ، و كُدّست حوله كومة من الخشب . مشى پوليكارپوس بهدوء

وتؤدة الى المكان ، و وقف قبالة العمود . و بينما اقترب منفّذو الحكم ليسمّروه على العمود حتى لا يسقط ، طلب پوليكارپوس ألاّ يكلّفوا أنفسهم كل هذه المشقة بالقول : « ذاك الذي يعطيني القوة لتحمّل اللهب ، هو نفسه سيمكّنني من الوقوف بثبات .» لذا فقد رُبط بحبل فقط ، و اذ اندلعت النيران بقوة حوله ، سُمع صوته و هو يقدّم الشكر لله الذي سمح له بأن يعاني الآلام ، كما عانى مخلّصه ، من أجل الحق ، و رفع عينه الى السماء قائلاً : « أيها الرب القادر على كل شيء ، أشكرك لأنك اعتبرتني مستحقًا ، في هذا اليوم ، و في هذه الساعة ، أن أشارك مع الشهداء في القيامة للحياة الأبدية . » و بعد هذا رأوا اللهيب يعلو و يتصاعد حوله ، من دون ان يظهر على پوليكارپوس انه يتأذى . عندئذ غمد أحد العساكر سيفًا في جنبه . وللوقت ، اندفع الدم يتدفق من جنبه و كأنه جدول من الجداول ، سبّب في إطفاء النار . إلاّ ان الوالي كان قد قرر انه لا يحق للمسيحيين ان يكون لهم الكلمة الفصل ، و لا ان يتسلّموا جثة قائدهم الموقّر . لذلك ، أمر بإضرام النار ثانية . و هكذا دخل پوليكارپوس الى فرح سيده .[1]

لقد اتّحد كل من اليهود و الوثنيين و الجماهير و السلطات ، بقلب واحد و فكر واحد ، لإبادة الجماعة المسيحية . إلاّ أن مثل هذا العمل كان بعيداً كل البعد عن متناول أيديهم . «لم يعلم هؤلاء ، » تقول الرسالة من سميرنا ، « أننا لا نستطيع ابدًا ان نتخلّى عن المسيح ، الذي تألّم لتأمين الخلاص لأولئك الذين ينالون الخلاص من العالم بأسره ، و اننا لا نتمكن ابداً من عبادة أي شيء آخر .» وبموت پوليكارپوس في العام 156 بعد الميلاد ، توقّف اضطهاد المسيحيين في سميرنا . لقد فشلت هذه الأساليب القمعية تمامًا في إرهاب الكنيسة او ترعيبها . والآن جاء دور بلاد الغَال (Gaule) وشمال إفريقيا .

ظهرت أولى بوادر عملية اضطهاد المسيحيين في مناطق الشواطئ الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط ، في أثناء حكم الامبراطور ماركوس اوريليوس (Marc Aurèle) و ابنه كُومُودُوس (Commode) في الفترة بين العامين 177 و 192 ميلادية . و في هذا الوقت أيضًا ، وصلت الأخبار الى كنائس افريقيا الشمالية عن الحوادث التي تقع في بلاد الغال (فرنسا) ، تلك الحوادث التي سلّطت الضوء على الشعور الذي كان سائداً في الامبراطورية الوثنية في ذلك الوقت . ففي مدينة ليون (Lyon) وفيَان (Vienne) انتشرت شائعات تدّعي حصول أشياء بغيضة في الأوساط المسيحية : زنا المحَارم ، قتل و حتى اكل لحوم البشر . و نتيجة لهذه الشائعات الكاذبة ، أُبعد المسيحيون عن الأماكن العامة ، والحمامات و الأسواق ، و مُنعوا من الظهور علنًا . و في العام 177 ميلادية ، عُذّب عدد من الخدام والعبيد العاملين في بيوت المسيحيين ، وذلك بأسلوب بشع في محاولة من المعذِّبين لتثبيت هذه التهم الكاذبة . و هكذا تمكّنوا بحدّ السيف من انتزاع شهادات و اعترافات رهيبة ، من هؤلاء القوم الضعفاء والحائرين في ساحة المدينة . و قد أثار الرعاع من جراء ذلك مشاعر بعضهم بعضًا الى درجة الجنون و الهوس . كان المسيحيون يُجرّون الى الساحات العامة ، حيث كانت الحشود تزداد غضبًا

لدى سماعها التهم الملفّقة على المسيحيين . و لكن ، بالرغم من شتى ضروب التعذيب الرهيبة ، لم يجد الحكّام دعمًا لاتهامهم المسيحيين بالخيانة العظمى ضد الامبراطور .

أُجبرت احدى الجواري المدعوة بيبلياس (Biblias) ، على الإدلاء بتصاريح كاذبة ضد العائلة المسيحية التي كانت تعمل لديها ، ثم سيقت الجارية ثانية لتدلي بتصريحات اضافية ضد هذه العائلة . و لكنها في هذه المرة وقفت ضد معذبيها و عارضتهم قائلة إنها هي أيضًا مسيحية ، و ان ما أدلت به في السابق ضد هذه العائلة كان ادّعاءً لا أساس له من الصحة ، و قالت ، ان هذه العائلة بريئة من أية جريمة . فماتت هذه الجارية شُجاعة ثابتة الايمان . كذلك ، فإن احد المعاونين في مدينة ليون ، وكان يدعى سَانْكْتُوْس (Sanctus) ، أُلقي القبض عليه ، و صُبّ النحاس الساخن على جسده ، لكنه لم يقل الاّ عبارة واحدة ردّدها باستمرار ، و هي :« أنا مسيحي . »

وفي مدينة مجاورة ، رفض احد الشباب الأغنياء ، و يُدعى سِيْمْفُورِيْنُوس (Symphorinus) أن ينحني أمام صنم الإلاهة سبلي (Cybèle) ، فحُكم عليه بقطع رأسه . و كانت أمه ، هي الأخرى ، مسيحية ، و لم تُظهر أية عَلامة من علامات الخوف او الفزع . و عندما كان في طريقه الى منصّة الإعدام ، صرخت اليه قائلة : « اثبت يا بنيّ ، و لا تخف من الموت الجسدي الذي سيؤدي بك بكل تأكيد الى الحياة . انظر الى الرب الذي مُلكه في السماء . إنّ حياتك الأرضية لا تؤخذ منك اليوم ، و إنما يحوّلها الرب الى الحياة الأبدية المباركة في السماء . »

توفّي عدد كبير من المؤمنين في سجون ليون خلال تلك الحقبة من الزمن ، و ذلك من دون إجراءات قضائية أو محاكمة . أمّا أولئك الذين سَلموا و عاشوا ، فقد وضعوا تقريراً لما حصل فتحدّثوا بكلمات مؤثرة عن قائد مسنّ في الكنيسة . « و الآن ، جاء دور بُوْثِيْنُوْس (Pothinus) المبارك الذي كان مؤتمنًا على خدمة النظارة في ليون ، و كان قد تجاوز التسعين من عمره ، و بات ضعيف الجسم و واهنًا جداً . . . لقد استُدعي الى كرسي الحكم يحرسه قضاة المدينة و كل أسافل الناس الذين كانوا يصرخون و يصفرون مستهزئين بجلبة كبيرة . و اذ سأله الحاكم من هو إله المسيحيين ؟ أجابه : «إذا كنتَ أهلاً و جديراً فأنت ستعرف بنفسك .» وعندها تمّ جرّه بلا شفقة ، وبدأ المتجمهرون يركلونه و يلطمونه ، و أمّا الذين كانوا بعيدين عنه ، و لم يتمكنوا من أن تطاله ايديهم او أقدامهم ، فقد كانوا يقذفونه بما عندهم من حاجات او أشياء ، و كان يتنفس بصعوبة حين أُلقي في السجن ، و لم يمرّ يومين حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

لقد عُذّبت جارية أخرى تُدعى بْلانْدِيْنَا (Blandine) ، خلال نهار كامل ، و بوحشية رهيبة أذهلت الجنود : كيف يمكن لهذه الجارية اَن تبقى حيّة بعد كل هذا التعذيب الوحشي المروّع ؟! من ثم جرى ربطها الى عمود ، و عُرضت للوحوش الكاسرة ، و كان يُؤتى بها يوميًا لترى

العذاب الذي يكابده أصدقاؤها . و كانت ترفع صوتها باستمرار مصلّية من اجلهم جميعًا . ثم رُبطت أخيرًا بشبكة و ألقيت امام ثور هائج استمر ينطحها حتى استشهدت في المدرج ، رافضةً ان تقول كلمةً ضد المسيحيين . لم يكن مسموحًا بأن تُدفن جثث الشهداء ، و إنما كانت تُحرق حتى تصبح رمادًا ، و أخيرًا تُلقى في نهر الرُوْن (Rhône) .

إنَّ ما لدينا من قصص مكتوبة عن هؤلاء الشهداء في ليون و في فيان ، تكشف الستار عن الروح المسيحية الرائعة التي كان المسيحيون يتحلّون بها . فلم يُظهر هؤلاء أية علامة من علامات المرارة او الحقد على أولئك الذين كانوا يضطهدونهم ، و لا ضدّ أي من أولئك الذين ادّعوا عليهم زوراً و بهتانًا ، بجرائم لم يرتكبوها . لقد كتبوا : « ليس هناك شيء يخيفنا حيث يكون حب الآب السماوي ؛ و لا شيء يؤلم ، ما دام المسيح يشرق علينا بمجده . » كذلك ، لم يدينوا اخوتهم و اخواتهم الضعفاء الذين لم يستطيعوا تحمّل معاناتهم ، بل استسلموا الى رغبات معذبيهم . بل أظهروا لهم على نقيض ذلك حنانًا رائعًا ، مصحوبًا باتضاع فريد من نوعه . وماذا بعد ، فإن هذه الحوادث كلها تؤكّد لشعب بلاد الغال ان المسيحيين لم يكونوا مجرمين . فلم يثبت انهم اذنبوا بأي من الأفعال الشائنة ، و لم يتمكن أحد من إخافتهم بالشكل الذي يجعلهم يتنكرون لإيمانهم الذي يثقون بأنه حق . 2

من ثم انتقل مركز الأحداث عبر البحار ، قاصداً الولاية الرومانية في افريقيا البروقنصلية . حدث ذلك في وقت دُعي فيه مسيحيّو مدينة سكيلْيُوْم (Scillium) ليعطوا حسابًا عن أنفسهم . و لقد كان هناك سبعة رجال و خمس نساء ، تشهد اسماؤهم انهم من خلفية أمازيغية وفينيقية ، و من خلفية بونية . يبرز أحدهم ، و يدعى سْبيرَاتُوس (Spératus) في الوثيقة المكتوبة . و لا نعلم بالتأكيد إن كان هو السبب الذي من طريقه جاء الآخرون الى الايمان أم لا . إلا أنه يتبيّن بوضوح انه كان قائد هذه المجموعة الصغيرة الشجاعة . كان في حوزتهم رسائل الرسول بولس ، و يظهر جليًا انهم قرأوها وقرأوا نصوصًا أخرى من الكتاب المقدس بشغف و حرص بالغين . و قد ألقي القبض عليهم في العام 180 ميلادية في مدينتهم (بالقرب من سبيطلة في تونس) ، وسيقوا للاستجواب امام حكام قرطاجة .

تبدأ تفاصيل هذه الدراما الحيّة بوجود جمهور السكيليوميين الاثنا عشر القائمين من قبل في قاعة المحكمة ، و بحضور الوالي سَاتُرنِيْنُوْس (Saturninus) . ثم يبدأ الاستجواب الذي سُجّل بتفاصيل صحيحة كاملة . كان الوالي إنسانًا لطيفًا و عازمًا على ان يقوم بواجبه بالرغم من الاشمئزاز الذي يشعر به من جراء هذه الوظيفة الكريهة كمستنطق . ثم راح يدير محضر الجلسة بتحفظ متّزن ، و هو رابط الجأش هادئ . و من كلماته الأولى أظهر استعداده لأن يكون متساهلاً و ليّنًا باسم الامبراطور ، إذا ما أظهر المسيحيون عقلانية و اعتدالاً . و من جهته ، أكّد سبيراتوس براءتهم من أية جريمة . عندئذ حاول الوالي ان يعيده الى موضوع الاخلاص والولاء للامبراطور ، فأجاب سبيراتوس : « لمْ نقم بأي عمل شرير ، و لا اشتركنا في أي

عمل سيّء . لكن ، عندما عوملنا بقسوة قدّمنا تشكراتنا ، وذلك لأننا نحترم الامبراطور الذي نحن له و نجلّه .» فحاول الوالي سبيلاً آخر ، و قال : « نحن ايضًا متدينون ، و ان ديننا مستقيم ، و نحن نأخذ أقسامنا من القدرة الإلهية لسيّدنا الامبراطور ، ونصلّي من أجل سلامته . و عليكم ان تفعلوا الشيء عينه . » تمسّك سبيراتوس بكلمة نطق بها الموظف الرسمي ، و هكذا خاطبه بالقول : « إذا ما اصغيت إليّ بصبر ، فإنني سأشرح لك اسرار الاستقامة الحقّة .» عندذاك انتصب الوالي من مقعده و قال : « ان كل ما تريده هو مهاجمة ديننا ، و أنا لن أصغي إليك . كلّ ما أريده منك هو أنْ تُقسم بالقوة الإلهية لربنا الإمبراطور . » أجاب سبيراتوس : «أنا لا أمجّد امبراطورية هذا العالم ، و لكن عوضًا عن ذلك فأنا أخدم الإله الذي لم يره أحد ، و لا يمكن ان يراه بالعين المجرّدة . أنا لم أرتكب أية سرقة . و إذا ما اشتريت أيّ شيء ، فإنني أدفع ما عليّ من ضريبة ، لأنني أمجّد ربّي ملك الملوك و امبراطور كل الأمم .»

عاد الوالي الى هدوئه من جديد . و استدار بوجهه عن هذا الانسان العنيد المستعصي الى أصدقائه ، و حاول الدخول بينهم و بين قائدهم آملاً ان يكون انقيادهم بالأمر الأسهل . فاستحثهم قائلاً : « اتركوا هذا الايمان ، و لا تشوّشوا انفسكم بهذه الحماقات . » إلاّ أنه وجد الآخرين مملوئين عزمًا و إصراراً كسيّدهم . و أخيراً ، اضطرّ ان ينطق بالحكم القانوني ، و لكنه منحهم فرصة ، بإيقاف التنفيذ لمدة ثلاثين يومًا عساهم يرغبون في إعادة النظر . رفضوا قبول التأجيل ، مؤكّدين انهم عازمون على ان يبقوا مسيحيين : « نحن لا نخاف أحداً ، » قال كتّينُوس (Cittinus) « ما دام ربنا و إلهنا موجوداً في السماء . » و أضافت دُونَاتَا (Donata) : «نَحن نجلّ قيصر كقيصر ، و لكننا نخاف الله وحده .» و قالت فسْتيَا (Vestia) : « أنا مسيحية . » فأضافت سيكُونْدَا (Secunda) : « و أنا كذلك ، و هذا ما اريد ان أكونه دائمًا . »

لم يُقل الشيء الكثير في ما بعد ، و هكذا حُكم عليهم بالموت . و في المستندات الحكومية الرسمية ، تمّ شرح الجريمة التي اتّهموا بها ، من دون إدانتهم إدانة متوحشة عنيفة . و قد سُجّلت وقائع الحكم بهدوء و على الشكل التالي : « لقد اعترف كل من سبيراتوس ونَارتْزَالُوس (Nartzalus) وكتينوس و دونا و فستيا و سيكوندا و الآخرين بأنهم يعيشون بموجب الممارسة المسيحية . و قد مُنحوا فرصة ليعودوا الى الديانة الرومانية ، و لكنهم رفضوا هذه الفرصة بعناد . لقد حكمنا عليهم بالإعدام بحد السيف . » فعلّق سبيراتوس بالقول : « نشكر الله . » و أجاب نارتزالوس : « في هذا اليوم نكون شهداء في الجنة . الشكر لله . » عندها اعلن المنادي الحكم . فهتف المتهمون جميعًا : « المجد لله . » و هذا كل ما كان في الأمر . ووصلت القصة الى نهايتها بهذا البيان البسيط : « و بهذا تُوّج الجميع بتاج الشهادة ، و هم الآن يملكون مع الآب و الابن و الروح القدس من الآن الى أبد الآبدين آمين .»[3]

اتّسمت هذه الرواية في كل سياقها ، ببساطتها الصارخة ، و بدقة التفاصيل التي قدّمت وصفًا حنونًا رقيقًا . لقد قال كل من المشاركين ما كان عليه ان يقول . و القصة تأخذ مسارًا حتميًّا ، والنهاية لا مفرّ منها و لدى ملاحظتنا لأشخاص هذه الدراما ، يمكننا ان نرى بعض القوى التحتية في العمل : نزاع لا يقبل بأي حلّ أو تسوية بين نظرتين متعارضتين الى العالم ، عدم تفاهم أساسي بين مجموعتين من أصحاب الضمير المخلصين و النزهاء الذين بحكم الواجب أو الضمير ، وجدوا أنفسهم يقفون أحدهما ضدّ الآخر . فقد وجد كل من خدّام المسيح و خدّام الامبراطور انفسهم في حالة خلاف ، و مع ذلك لم يشعر أحدهم بأي شعور عدائي تجاه الآخر .

لقد أقيم مبنى كنيسة في ما بعد ، في موقع مدافن الشهداء ، و من الممكن ان تكون بقاياه هي التي وُجدت في غرب قرطاجة قرب القرية الصغيرة دوار الشط . و معروف ان كثيرين غيرهم قد استشهدوا ، خلال هذه المدة عينها ، في بقاع أخرى من افريقيا الشمالية .

بعد ثلاثين سنة أطلّ الاضطهاد برأسه البشع من جديد . و في هذه المرة كان بإلهام انسان أمازيغي صرف . إنه الامبراطور سبْتيميُوس سفيرُوس و هو الإفريقي الوحيد الذي لبس اللباس الارجواني الامبراطوري . كانَ سَفيروسَ مواطنًا من مدينة لِبْتِيس مَاغْنَا (Leptis Magna) ، و هي بالقرب مما ندعوه الآن طرابلس الغرب . و قد حكَمَ هذا الرجل الغريب روما لثماني عشرة سنة ، من العام 193 ميلادية و حتى وفاته سنة 211 ميلادية ، بعيدًا عن بلده في مدينة يورك (York) الانكليزية . و يصفه الكتّاب الرومانيون « بالبربر » الذي تعلّم اللاتينية جيدًا ، و لكنه لم يفقد قط لهجته الإفريقية . و في سنوات حكمَ سَفيروس الأولى ، كان يعطف على المسيحيين و يرفق بهم ، لأنه كان يعتقد ان شفاءه من مرض خطر ، كان بسبب مسحة من الزيت و الصلوات التي قدمها له عبد مسيحي اسمه پرُوكُولُوس (Proculus) . و قد سلّم تعليم أولاده و تثقيفهم الى مربّية مسيحية ، و معلّم مسيحي ايضًا . على أي حال ، تزوج سفيروس من ابنة كاهن إله الشمس ، الذي كان يعبد في مدينة إيميسا (Emèse) في سوريا . و قد مزج بين العبادتين ، العبادة المسيحية و طقوس الديانات الأخرى السرية . لم يكتف هو و زوجته ، ان يكونا حاكمين مطلقين لإمبراطورية واسعة الأرجاء ، بل اختارا ان يقدّما نفسيهما كجوبيتر (Jupiter) ، كبير الآلهة على كل الأرض ، وكجونو (Junon) ، ملكته . فبعد ان تخلّص من منافسَيه على السلطة ، جلس سفيروس على العرش الإمبراطوري و حكم كل العالم المعروف آنذاك ، ثم انكبّ بصرامة و من دون رحمة على إطفاء كل شرارة من شرارات الحرية التي كانت لا تزال موجودة في أراضي سلطانه . إن تأليهه لنفسه ، و سلطانه المطلق ، جعلاه يركب متن الغرور . فبدأ يطلب من الناس خضوعًا مطلقًا لنزواته المفرطة التي لا تطاق ، و قد تملّكه شكٌ عارم في أن المسيحيين لا يمكن الركون إليهم في تحقيق أوامره .

و قد غضب سفيروس ، بصورة خاصة ، بسبب حادث وقع في الشرق ، و لكن أخباره انتشرت في كل انحاء العالم ، و ترك أثرًا عميقًا في كل مكان . فبمناسبة رفع لقب ولديه الاثنين كَاْرَكَلاَ (Caracalla) و غِيتَا (Géta) الى اللقبين الامبراطوريين أوغسطس وقيصر ، وزّع سفيروس عطايا سخية على جنود جيشه الذين قدموا لتسلمها لابسين أكاليل من الغار . و لكنّ واحدًا من هؤلاء الجنود بدا مختلفًا عن رفاقه ، إذ كان رأسه عاريًا و إكليله في يده . وعندما سئل عن السبب أجاب قائلا : « أنا مسيحي .»[4]

اعتُبرت مثل هذه الوقاحة تحدّيًا صاعقًا لكبرياء سفيروس . فأصدر مرسومًا في العام202 يمنع فيه الناس من اعتناق أي من الديانتين اليهودية و المسيحية ، و ذلك تحت طائلة الموت . و قد جاوز الرسميون تعليمات الامبراطور هذه ، ساعين ، كما يفعل أمثالهم ، لإعطاء رؤسائهم انطباعًا يبيّن مقدار كفاءتهم . فبدأوا باقتلاع هذا الدين الجديد من الجذور . و كانت بربيتوا وزملاؤها في قرطاجة من بين الذين عانوا . كما كان هناك آخرون كثيرون غيرهم في شمال إفريقيا .

ظهرت ضراوة هذا المرسوم على أشدّها بعيدًا بمحاذاة الشاطئ المتوسطي لمدينة الاسكندرية ، حيث جُرّد ليُونيْدس (Léonidès) ، والد العالم اللاهوتي المعروف اوريجانوس ، من جميع ممتلكاته و مقتنياته ، و سيق للموت مع أعضاء آخرين من الكنيسة هناك . كان ليونيدس قد نشّأ أولاده السبعة ، و الذين كان أوريجانوس أكبرهم سنًا ، بكثير من الاهتمام العميق بهم والصلاة كما علّمهم التمييز بين الصالح و الطالح ، حتى يتمسّكوا بالأول و يتجنّبوا الثاني . و كان قد علّمهم أن يستظهروا جزءًا يسيرًا من الكتاب المقدس يوميًا . وعندما سمع اوريجانوس أنّ أباه اعتُقل ، قرر ، وكان حينئذ يبلغ من العمر السابعة عشر ، ان يذهب الى المدرج ، و إلى الموت مع والده اذا اقتضت الضرورة . و لكنّ امه ، وقد آلمها جدًا ان تفقد كلاً من زوجها و ابنها في يوم واحد ، خبأت ثياب اوريجانوس ، الأمر الذي ألزمه البقاء معها في البيت . و كل ما استطاع اوريجانوس ان يفعل إذ ذاك ، هو الكتابة لأبيه في السجن متوسّلاً اليه ألاّ يخاف على ارملته و أيتامه ، و ليثق بأنّ الله قادر على ان يعيلهم ويرعاهم .

وعندما مات ليونيدس ، تُركت العائلة بحالة فقر مدقع ، و مع هذا لم يخب إيمان أوريجانوس . فقد أخذته الى بيتها أرملة مسيحية طيّبة ، تملك مالاً و أرزاقًا خاصة . وكان حبه لكلمة الله شديدًا ، و حماسته على طريق الله قوية ، بحيث أنّه عُيّن معلّمًا وعميدًا لكلية يحضرها الشباب المسيحي في الاسكندرية و لمّا يتجاوز عمره الثامنة عشر بعد . وقد عمل

بإخلاص كرئيس لهذه المدرسة لمدّة تقرب من الثلاثين عامًا . و كانت محاضراته شعبية ، كما كان يتمتع بموهبة خاصة لرفع حماسة تلاميذه . و لم يكن أوريجانوس ، بأي حال من الأحوال شخصًا نظريًا جامدًا ، فهو كان يسعى لإطاعة كلمة الله ، و السير بهدايتها يومًا فيومًا . و في قراءته للعهد الجديد ، تأثّر بصورة خاصة بكلمات المسيح القائلة : « مجانًا أخذتم مجانًا أعطوا .»[5] فشعر بأنه إنْ أراد ان يطيع هذه الكلمات ، يتوجب عليه ألاّ يتقاضى أجوراً عن تعليمه للمبادئ المسيحية . و في سبيل تأمين معيشته ، باع كمية من رقوقه المنقولة بخط يده . لكنّه عيّن لنفسه حصة صغيرة يومية من محصول هذا البيع ، و التي كانت بالجهد تسدّ احتياجاته لأجَلٍ قصير ، بالرغم من أن طعامه كان بسيطًا جدًا ، و كان لا يمتلك الا معطفًا واحدًا . فكان يعانيٍ قسوة الشتاء و زمهريره ، و ينام على الأرض المجردة . و قد فعل ذلك لا لشيء ، إلاّ ليتشبّه بسيده المسيح الذي قال عن نفسه أن ليس له اين يسند رأسه .[6]

بعد ذلك بوقت قصير ، أُلقي القبض على عدد من تلاميذ أوريجانوس ، و أُعدموا بسبب ايمانهم . و كان اوريجانوس حاضراً معهم خلال المحاكمة ، و قد عامله الجماهير الاسكندرانيون المضطربون بقسوة و خشونة ، إلا أنّ حياته لم تتعرض لسوء في تلك المناسبة . وبمرور السنين أصبح معلمًا مشهوراً في كنائس الاسكندرية ، و بعدها في كنائس قيصرية في فلسطين . و قد سافر مراراً بعد ذلك في رحلات لخدمة المسيح . كما كتب عدداً من الكتب اللاهوتية ، و قاد عدداً من اليهود و الوثنيين الى الايمان المسيحي . و مع ذلك ، فقد اعتُبرت بعض أفكاره الفلسفية و تفاسيره الرمزية للكتاب المقدس ، مثاراً للجدل الى يومنا هذا .

لم ينسَ اوريجانوس قط تعليم الكتاب المقدس و المثل الصالح الذي أخذه عن والده . لقد بقي ليونيدس غير معروف تقريبًا ، و لكن تأثيره اعطى الخلاص للكثيرين من خلال عمل ابنه الذي اقتفى آثار ابيه . الأوّل دُعي للموت من أجل المسيح ، و الآخر دُعي ليحيا له .[7]

استمر الاضطهاد في أجزاء عديدة من الامبراطورية الرومانية ، و كان قاسيًا جداً لدرجة اعتقد معها الكثيرون ان سفيروس هو المقصود في الكتاب المقدس بـ « ضد المسيح » العظيم الذي سيقوم محاولاً أن يبيد كنيسة المسيح قبل رجوع المسيح و نهاية العالمَ .[8] و يبدو أن سفيروس قد ظنّ انه بمرسومه الصارم ذاك ، قد نجح في تحطيم معنويات المسيحيين ، و أن يدمّر كنيسة المسيح تمامًا . و قد تمّ تجاهل المسيحيين بشكل كبير خلال بقية حكم سفيروس ، و حتى خلال ايام خلفائه التاليين .

ثم عرفت الكنائس السلام و الحرية من النزاعات ، لما يقارب النصف قرن . و هكذا ازدهرت بهدوء . و لكنْ ، هنا ، كان يكمن الخطر المُهلك . فقد بدأ العديد من

الفصل العاشر

المحن الحارقة

في العام 249 م بدأت غيوم العاصفة تتجمّع من جديد . فقد ضاق صدر الامبراطور الجديد دكيوس(Décius) و ازداد قلقه باطّراد ، بسبب تفسّخ الامبراطورية الرومانية ، فضلاً عن تخلّفها العسكري . و قد عزا الامبراطور ضعف الامبراطورية و وهنها الى استياء الآلهة . كان يأمل إعادة الازدهار الى الاراضي الخاضعة لسلطانه و سيطرته عندما أصدر مرسومًا دعا فيه جميع المواطنين ، رجالاً و نساءً ، الى تقريب الذبائح للآلهة بشكل علني ، و تسلّمِ شهادة من المسؤولين المحليين تثبت انهم فعلوا ذلك .

و على هذا الأساس أُخرج المسيحيون من بيوتهم ، و دُفعوا بخشونة الى الساحات العامة ، و أُمروا بتقريب الذبائح . فبعضهم ، ممّن رُوِّع بالتهديد ، أذعن لأوامر الامبراطور ، و لا سيّما أولئك الذين كان ولاؤهم المسيحي قد ضعف خلال ايام السلام السابقة المضعفة . فأسرعوا الى المعابد استجابة للأمر الإمبراطوري ، بينما قام آخرون ، من طريق التآمر مع المسؤولين ، بشراء شهادات من دون ان يكونوا قد قاموا فعلاً بتقديم القرابين المطلوبة . إلاّ ان عدداً كبيراً منهم رفضوا الإذعان لمثل هذا المرسوم فهلك الكثيرون منهم . وكان أوريجانوس من بين الذين ثبتوا ، فسُجن و عُذّب في مدينة صور . وهكذا استُشهد متأثّرًا بجراحه من جراء التعذيب الوحشي ، وكان عمره يناهز السبعين . و لكن يلاحظ ان المسيحيين لم يعودوا يُتّهمون بعد بالقتل و زنى المحارم و الفساد ، ذلك لأنّ نقاوتهم و أخلاقياتهم الشريفة ، كانت معروفة لدى الجميع . منذ ذلك التاريخ ، أصبح جليًا أن السبب وراء معاداتهم هو رفضهم للإذعان لمتطلبات العبادة الوثنية ، لا التهم بارتكاب اعمال السوء الموجهة ضدهم .

كتب كُبريانوس (Cyprien) ، ناظر كنيسة قرطاجة ، مطولاً عن الاضطهاد الذي تحمّله المسيحيون ، و كان الكثيرون بينهم ممن عرفهم شخصيًا . و قد سُجن عدد منهم في قرطاجة نفسها ، بينهم النساء و الأطفال ، و مات بعضهم من جرّاء التعذيب . و حدث أن كان أحد هؤلاء في روما ، و يدعى كلرينُوس (Célérinus) حين صدر مرسوم ديسيوس . و قد تحمّل كلرينوس الأذى والتعذيب هُنَاكَ ، من دون ان يتراجع . و أخيراً ، استُدعي للمثول امام الامبراطور نفسه ، حيث اعترف بإيمانه المسيحي بكل ثبات . و قد كتب عنه كبريانوس قائلاً : « لقد كان أول هؤلاء الذين واجهوا المعركة في أيامنا . . . لقد مشى في مقدمة الصف ليواجه الحاكم نفسه ، ذلك الحاكم الذي اختلق النزاع . » احتُجز كلرينوس تسعة عشر يومًا في

زنزانة السجن مثقّلاً بالسلاسل الحديدية . و قد كتب كبريانوس قائلاً : « كان جسمه مصفّداً مغلولاً ، أمّا روحه فكانت متحررة من الأغلال . لقد ذبل جسده من جراء افتقاره الطويل الى الطعام و الماء ، و لكن نفسه عاشت بالإيمان وباستقامته ؛ و الله كان يغذّيه بالطعام الروحي . ففي مواجهة البلوى ، كان كلرينوس أقوى منها ؛ وفي سجنه ، كان أنبل من سجّانيه ؛ و في تمدده على الأرض ، كان مارداً يصارع معذبيه الواقفين فوقه ؛ وفي الأصفاد ، كان أقوى من أولئك الذين قيّدوه ؛ و في محاكمته ، كانت له وقفة أشرف من تلك التي لقضاته ؛ و على الرغم من ان قدميه كانتا مقيّدتين ، فقد استطاع ان يسحق رأس الأفعى . »

لقد نجا كلرينوس من محنته ، و عاد الى إفريقيا الشمالية ، حيث استمر يخدم كقارئ (إذ كان يتلو آيات الكتاب المقدس في الاجتماعات) في كنيسة قرطاجة . هذا ، و أن نُدباته و آثار جراحه الكثيرة كانت موضوع اعجاب المؤمنين هناك ، إذ أدهشهم ان يصمد انسان من اجل الايمان ، إزاء تعذيب وحشي بهذا المقدار ، غير خاضع او مستسلم ، لا للموت و لا للاكاذيب . وأشار كبريانوس اليّ أنه « إذا ما رفض شخص ما أن يؤمن بما يسمع كما رفض توما (ان يؤمن بما سمع عن المسيح) ، فعندئذ لا بدّ من ان يصدّق شهادة ما يراه بأم عينيه ، إذْ يرى البرهان الحي على صحة ما نقول . » [1]

شاب آخر يُدعى أُورْيليُوس (Aurélius) ، واجه المحاكمة ذاتها في قرطاجة . و قد جيء به أمام قضاة المدينة للمرة الأولى ، حيث عومل بخشونة ، و قد صدر الحكم بإبعاده عن المقاطعة . و لم تمضِ الاّ فترة وجيزة ، حتى جيء بهذا الشاب مرة ثانية ليمثل امام الوالي ، و قد عومل ثانية معاملة أكثرَ وحشية و عنفًا و قسوةً . و كتب عنه كبريانوس قائلاً : « إنّ هذا الشاب ناضل في معركتين ، و اعترف بالمسيح مرتين ، و في المرتين خرج بمجد الاعتراف المنتصر : بعد انتصاره الاول نُفي الى خارج البلاد . ثم دخل المعركة مجددًا ، لكي يواجه نزاعًا أعنف هذه المرة ، و هكذا انتصر من جديد . لقد خرج من معركة الشهيد منتصراً . ففي كل مرة يحاول عدو الله تحريض عبيده على فعل الشر ، إن جندي الله الذي هو أبداً مستعد و أبداً شجاع ، يصمد في وجهه ، و هكذا يحرز الانتصار . لم يكتف هذا الشاب المسيحي بأن يناضل مرة واحدة في حضور بعض الناس حينما حُكم عليه بالنفي ؛ لقد استحق ان يقاتل في الساحة العامة ، حيث رأى الجميع شجاعته و إقدامه . فبعد القضاة ، كان عليه أن يقهر الوالي ، و بعد النفي ، كان يحتاج أن ينتصر على التعذيب و التنكيل . » و قد نجا أوريليوس بنفسه ، كما نجا سلفه كلرينوس ، و أصبح هو الآخر قارئًا في كنيسة قرطاجة .[2]

و في الوقت نفسه تقريبًا ، أصبح اسم نُومْيدْيكُوس (Numidicus) مشهوراً في الأوساط المسيحية ، كمن رأى أمتعة و قد حرقت ، و لكنه نجاَ « كما بنار » .[3] كان نوميديكوس عضواً محبوبًا جداً في كنيسة قرطاجة . و كان مصدراً عظيمًا لتقوية زملائه هناك و ذلك بفضل

قدوته أمامهم وتشجيعه لهم . في تلك الأيام ، سخط رعاع قرطاجة على المسيحيين متّهمينهم بجلب سوء الحظ . لذا ، كانوا يقذفونهم بالحجارة ، أو يحرقون كل من يقع في أيديهم . كان نوميديكوس و زوجته من بين اولئك الذين وقعوا في أيدي الحشود الهائجة ، فأخذوهما بعيداً . رأى نوميديكوس بأم العين زوجته المسكينة و هي تحترق بجانبه بلهب النيران المستعرة . أمّا هو فكان مثخناً بالجراح و الحروق البالغة ، فظنوه ميتًا و بالتالي تركوه . إلاّ أن ابنته التي حضرت الى المكان تفتش عن جثة ابيها بين الأنقاض المحترقة ، وجدته ، و هو لا يزال حيًا ، فتمكّنت من إعادة العافية إليه . و بعد شفائه التام ، عاد الى الكنيسة في قرطاجة ، حيث أصبح مساعداً مسؤولاً في إدارة كنيسة قرطاجة .[4]

لقد نجا كل من كلرينوس و أوريليوس و نوميديكوس من الاضطهاد الذي مارسه ضدهم ديسيوس ، و لكن كثيرين خرّوا صرعى . لقد تسلّم كلرينوس كتابًا من أحد أصدقائه المدعو لوكيانوس (Lucianus) ، مرسلاً له أخبار زملائه في الأسر و المعاناة . علم من الرسالة ، أن اثني عشر من المؤمنين في السجون ، قد لقوا حتفهم بسبب الجوع و العطش ، و أن اثنين آخرين ماتا في قرطاجة بسبب التنكيل ، و هما بُولُسْ (Paulus) و مَابَالِيْكوسْ (Mappalicus) ، و قد أضيف اسماهما بكل حرص الى هذه اللائحة المتنامية من الشهداء .[5]

و في ذلك الوقت ، جُرِّد العديد من المسيحيين الأكثر قوة من املاكهم ، و أُبعدوا من الأصقاع الرومانية . لقد وجدوا سبيلهم الى القرى الداخلية ، بعيداً عن المدنية ، و عن متناول ايدي الرسميين الامبراطوريين . فأسسوا هناك جذوراً ، و بدأوا حياة جديدة . قد يتحسّرون على رفاهية الحضارة ، و يشعرون بافتقارهم الى المداخيل المعيشية الثابتة ، و لكن ، لا بدّ من أنهم فرحوا كثيراً بحرّية العبادة بالشكل الذي يريدون . و واضح ، فوق ذلك ، أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بإيمانهم لأنفسهم ، إذ سرعان ما سمع الأمازيغيون في المناطق الداخلية بالرواية التي سردها لهم أولئك اللاجئون ؛ ما حدث لهم بالتفصيل ، و لماذا أُجبروا على ترك ديارهم و أملاكهم ومقتنياتهم ، و الحافز الذي رسّخ فيهم مثل هذا الايمان و الفرح ، الايمان الذي كانوا على استعداد دائم ليبذلوا في سبيله كل شيء .[6]

كان الامبراطور ديسيوس ، بغير قصد منه ، سببًا لكثير من الناس ، ليستمعوا الى بشارة الإنجيل للمرة الأولى ، و لا سيّما في المقاطعات النائية جداً عن المدن الساحلية . لكن ديسيوس نفسه لم يعرف هذا قط . و بخذلان آلهته له ، قُتل ديسيوس في معركة خاضها ضد القوطيين في العام 251 ميلادية و لم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات . بعد موته ، تنفّست الكنائس المسيحية الصُعداء ، و بجردة لحساباتها ، وجدت نفسها تخرج من وطيس المعركة قوية و أكثر صلابة بفعل نيران المعاناة . لقد وجدت نفسها حرّة مرة جديدة من التأثيرات المضعفة لأولئك المسيحيين الاسميين الذين كانوا يعيشون في وسطها . كما ابتهجت بأبطالها الجدد ، و بثباتهم

المجيد . أمّا الناجون ، فقد ازدادوا جميعهم عزمًا على اتّباع المسيح في السراء و الضراء ، في الضيق و الفرج ، في الموت أو الحياة ، و هم مصممون أن يبقوا مخلصين له ، مهما حدث .

* * * * * * * * * * * * * * * *

و لكن ، لماذا ثار المجتمع الوثني ضد المسيحيين بهذا الشكل ؟ و أيّ أذى لحق بمواطني قرطاجة و روما على أيدي هذا الشعب المسالم ؟ و كيف أساءوا إليهم ؟ و لكي نجيب عن هذا السؤال ، يكفي أن نواجه حقيقة أن المسيحيين يختلفون عن غيرهم . فهم لم يتصرفوا كأناس اعتياديين ، و هكذا كان الغموض يلفّهم في نظر بقية الناس . و لأنّ تصرفاتهم لم تكن عادية ، لذا لم يكن سهلاً التنبؤ عنها . و عليه ، فهم يدعون الى الريبة و الشك ، سواء بالنسبة الى الحكام والمسؤولين ، أم الى جيرانهم من المواطنين .

منذ الايام الأولى للمسيحية ، راح الناس يتناقلون شائعات غامضة عن المسيحيين : تُرى ، ماذا يهيّىء المسيحيون في اجتماعاتهم السرية ؟ لمَ لا يسمحون ، إلاّ لأولئك العارفين أسرارهم ، بحضور وجبات طعامهم الخاصة ؟ و لأنّ اجتماعات المسيحيين كانت تُعقد خلف الأبواب المغلقة ، ولا يُسمح بالدخول إلاّ لأولئك الأعضاء المعترف بهم ، نتج من ذلك شتّى أنواع الافتراءات و الشكوك . فهل المسيحيون يدبِّرون للقيام بثورة او عصيان ضد الامبراطور ؟ أم أنهم يتآمرون لتهديم معابد الآلهة ؟ و ماذا يفعلون في أثناء ما يسمّونه « ولائم المحبة»؟ هنا تصدّى ترتوليانوس و زملاؤه لهذه التلميحات ، مؤكّدين براءة المسيحيين . انه يصف الشركة المسيحية المقدسة و الخالية من أية أذية . ويذكر كيف انهم بعد تناولهم ولائم الطعام المشتركة ، لم يكونوا يمارسون شعائر دينية فاسقة ، و إنما على نقيض ذلك إذ يعبدون الله ، الذي كانوا يجتمعون باسمه . « و كان هذا الاحتفال ينتهي كما ابتدأ ، بالصلاة . » ثم يسأل ترتوليانوس قائلاً : «مَنْ منَ الناس تضرر بسبب اجتماعاتنا ؟ فنحن مجتمعين ، لا نفرق في شيء عنا و نحن متفرقين احدنا عن الآخر . اننا كمجموعة ، تمامًا كما نحن كأفراد . نحن لا نؤذي أحداً ، و لا نجلب الحزن و الأسى لأحد . لأنه عندما يجتمع الفاضل مع الصالح و الحنون يلتقي الطاهر فلا يجوز ان يُدعى ذلك جماعة متمرّدة ، و إنما شركة جديرة بالاحترام و الشرف . »[7]

على أنّ السبب الأهم للكراهية الشعبية الموجهة ضد المسيحيين ، كان على الأرجح لكونهم لا يشاركون في التسليات العامة – في بهرجات الايام المقدسة الوثنية – و لأنهم متخلّفون عن حضور الحفلات التي تنظمها النقابات الوثنية العمالية . ان ما حيّر ، بل أغضب معاصريهم من الناس لم يكن بسبب ما فعلوه على قدر ما كان بسبب ما رفضوا فعله . و قد انبرى ترتوليانوس مرة أخرى ، يدافع عن المسيحيين ، محاولاً شرح الأسباب فقال : « نحن لا شأن لنا بصخابة المباريات ، و لا ببذاءة المسرح ، و لا بوحشية الميدان . »[8] و قد أقرّ ترتوليانوس بأنّ المسيحيين لا يشترون اكاليل الورود المألوفة لتزيين المعابد الوثنية ، و لكنهم لا يريدون ان يكون عند أحد انطباع بأنّ

المسيحيين معادون للعالم الذي يحيط بهم . فإن المسيحيين يشاركون في نشاطات الحياة اليومية بشكل كامل - في الدكاكين و في الأسواق ، في الساحة العامة و في كل مكان سواء أفي المدن أو في الريف . و المسيحيون كانوا يعملون في الحقول و الورش نفسها ، و هم يأكلون في المطاعم نفسها ، و هم يلبسون الثياب نفسها ، و يطبخون أنواع الأطعمة نفسها ، ويستعملون الأثاث نفسه ، و هم محترمون وأصدقاء للجميع . و لم يُدرْ المسيحيون ظهورهم لجيرانهم قط ، و لا أساءوا و لا أهانوا الأمور المثمّنة عندهم .[9]

إلاّ أنه كان في مدن الامبراطورية الرومانية و قراها أناسٌ ذوو نفوذ استفادوا شخصيًا من الواقع القائم . و قد بدأوا يشعرون بأنهم مهدّدون جداً بسبب النمو السريع للجماعات المسيحية في وسطها . و لم يستطع الكهنة الوثنيون ان يخفوا استياءهم إزاء ما يحدث من تقلّص في نفوذ آلهتهم ، و تراجع في عدد الذين يحضرون لعبادتها . فقد بدأت صناديق المال في الهياكل تفرغ باطّراد . و راح صنّاع الصور وأكاليل الغار يتذمّرون مهدّدين ، كما حصل قبل عدة سنوات مع ديمتريوس الصائغ و صنّاعه في أفسس عندما بدأت عظمة الالاهة أرطاميس بالانخفاض من جراء كرازة الرسول بولس .[10] فجميع بائعي أدوات التزيين و أصحاب الحفلات الترفيهية التي كانت رائجة آنذاك ، و المضيفين - من صانعي المجوهرات ، و الموسيقيين و الراقصين ، وكل المحترفين في المسرح ، و اللاعبينَ الرياضيين و المجالدين - كل هؤلاء و غيرهم ، صاروا ينظرون الى المسيحيين نظرتهم الى الأعداء ، لأنهم لم يحضروا معارضهم و لم يشتروا بضائعهم ، بل تسببوا في انسحاب زبائنهم . كما أنّ بعضًا من المونتانيين الأكثر تطرّفًا ، وبّخوا أحيانًا ايضًا بشكل ساخر عبدة الأوثان هؤلاء على تفاهة تجارتهم الدينية ، فسبّبوا بذلك اساءة ، و جرّوا على الأحكم منهم من إخوتهم المسيحيين عاراً لم يكن ضرورياً .

كان الولاء للامبراطورية من القيم التي تمسكت بها بحزم و دافعت عنها بحماسة ، ليس طبقة النخبة الحاكمة فحسب ، بل غالبية المواطنين ايضًا . لذا ، فقد أسيء جداً فهم المسيحيين الذين لم يكونوا يتبعون مثل هذه العادات التي اكتسبت صفة الاحترام نظراً لقدمها ، و هكذا أصبحوا مكروهين كرهًا شديداً ، و باتوا في نظر القوم و كأنهم يحاولون تقويضَ أسس الحضارة الرومانية نفسها . فالمسيحيون لا يشاركون في الديانة الوطنية ، و هم لا يقرّبون التقدمات ليضمنوا بذلك السلام و الازدهار للأرض ، ولا يطرحون البخور في المبخرة كعلامة الولاء للامبراطور و آلهته التي جُعلت الامبراطورية تحت رعايتها . و هكذا بدا المسيحيون و كأنهم اختاروا البقاء خارج المجتمع ، يتمتعون بنعَمه ، و لكنهم في الوقت ذاته ، يتملّصون من مسؤولياتهم . و قد وجد أعضاء الكنيسة الذينَ يمتلكون العقارات ، صعوبة في تجنّب المشاركة في عبادة الأوثان : فمالكو الأراضي و المنازل ، كان يُنتظر منهم ان يساهموا الى حدّ كبير بكلفة التقدمات العامة و المشاهد المسرحية . و العائلات المسيحية الموسرة ، كانت بشكل خاص عرضة لخبث الحسّاد ، إضافةً الى الجواسيس الذين كان الأباطرة المشككون والمرتابون يستخدمونهم . ففي

الواقع ، إن أخطر التهم التي واجهت المسيحيين ، باتت مجهولة هوية أصحابها . فإذا ما جاء شخص معروف بادّعاء تافه أو كاذب ، قد يجد نفسه في ورطة بالغة الخطورة ، و لكن متى كانت التهمة مجهولة هوية أصحابها ، فإنه يتمكن بعدها من الإفلات من العقوبة بسهولة . وبهذا الأسلوب ، تمكّن أعداء الإيمان من ارتكاب اشنع الافتراءات اللامسؤولة . وأحيانًا كان اليهود في غيرتهم على مركزهم المميّز كمنتمين الى ديانة مسموح لها ، يقفون في طليعة المهاجمين : مثلاً ، كان لهم دور رئيس في استشهاد پوليكارپوس .

إضافة الى ذلك ، يخبرنا ترتوليانوس ، انه استناداً الى خبرته ، كان المسيحيون مكروهين غالبًا فقط بسبب محبتهم بعضهم لبعض . لقد عارض الوثنيون الطريقة التي كان المسيحيون يعاملون فيها بعضهم بعضًا كإخوة و أخوات ، مساعدين أحدهم الآخر ، و داعمين أراملهم و أيتامهم والذين كانوا في ضيق و عوز . «إن ممارستنا لهذا العطف المحب و تنفيذه عمليًا هو الذي ، بشكل رئيس ، يسمنا بالعار في نظر بعض الناس .» يقولون : « أنظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضًا . » ذلك لأنهم هم أنفسهم يكرهون بعضهم بعضاً . و يقولون أيضًا : « أنظروا كيف ان المسيحيين مستعدون ليموتوا بعضهم لأجل بعض . » ذلك لأنهم هم انفسهم اكثر استعدادًا لقتل احدهم الآخر . إنهم يجدون خطأ فينا ايضًا لأننا نطلق على بعضنا التسمية « أخ » . أشعر أني متأكد أن السبب وراء انتقادنا هو التالي : كل تسمية صداقة عندهم ليست سوى مجرّد ادّعاء مزعوم ورخيص .»[11]

لقد حرصت الجماعة المسيحية كل الحرص على تكريم الامبراطور ، و على إطاعة القوانين ، و دفع كل ما يترتب عليهم من ضرائب . فكلمة الله تقول : « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلاّ من الله و السلاطين الكائنة هي مرتّبة من الله .»[12] وقد أسرع ترتوليانوس بالاشارة إلى أنّ المسيحيين لم يكن لديهم اية دوافع او أطماع سياسية ، و هم ليسوا بالتالي ثوّاراً ضد الحكومة و الدولة . كانوا مسالمين شرفاء ، و ذوي احترام ووقار . فإنّ أفضل الأباطرة و أحكم المسؤولين ، أضاف ترتوليانوس ، كانوا يعلمون ذلك جيداً : لقد رأوا في المسيحيين تلك المزايا الرفيعة الخالصة التي ودّوا لو يجدون مثلها في جميع الخاضعين لهم . الأباطرة الأشرار وحدهم اضطهدوا الكنيسة ، تابع ترتوليانوس ، و ذلك إمّا لكونهم ضعفاء او و راغبين في تملّق الوثنيين المتطرفين ، و إمّا لكونهم أنانيين للغاية يدفعهم مزاجهم بدل الحكم السليم . و ترتوليانوس نفسه خاطب الرسميين الرومان راجيًا منهم التساهل مع المسيحيين و واعداً بتقديم الولاء بالمقابل .

إلاّ أنه في بعض الأحيان كان يجد المسيحيون أنّ واجبهم يجعلهم في نزاع مع السلطات . فإذا أعطوا ما لقيصر لقيصر ، كان عليهم أيضًا ان يعطوا ما لله لله .[13] و حتى سلطة الامبراطور نفسها كانت خاضعة لذلك الكائن الإلهي الذي خلق كل شيء . و بعض الظروف لم تترك لهم سوى خيار أن « يطيعوا الله أكثر من الناس . »[14] فهم لا يمكنهم ان يقرّبوا التقدمات

للأصنام ، مثلاً ، حتى و لو صدر مرسوم ملكي يطلب مثل هذا العمل ؛ و لا كانوا يستطيعون أن يسفّهوا اسم المسيح أو يلعنوه و بعضهم رفض القَسَم القانوني ، معتقدين أنه من الخطإ ان يُقسم المسيحي بمثل هذا القسم ، فقد علّمهم الرب : « لا تحلفوا البتة ، لا بالسماء . . . ، و لا بالأرض . . . لا تحلف برأسك لأنك لا تقدر ان تجعل شعرة واحدة بيضاء او سوداء . بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا . و ما زاد على ذلك فهو من الشرير . »[15] و لم يستطع آخرون من المسيحيين ان يوفّقوا بين خدمة الجندية و ضمائرهم المسيحية . ان مواقف رافضة كهذه ، صبّت ولا شك الزيت على نيران الحقد .

كانت الطبقات العليا من الرومان ، و على الأخص كبار الملاّكين ، ينظرون بحذر الى كل تعليم جديد قد يهدد وضعهم الراهن ، و يعرّض غناهم و مراكزهم للخطر . فإن التعليم المسيحي القائل بالمساواة ، لم يكن محببًا لدى الأوساط الارستقراطية الوثنية الغنية . وهكذا حصل توتّر ، خصوصًا في أيام الجفاف و ندرة المؤن . شعر الوعاظ المسيحيون في أنفسهم بأنهم ملتزمون الى حدّ قليل جداً بالموافقة على تلك الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء . و بخاصة عندما كان أصحابهم و جيرانهم يعانون الجوع و التشرّد . ثم راحوا ، على غرار المسيح نفسه ، يحثون أصحاب الكنوز على كنزها في السماء لا على الأرض ، مستوحين ممّا يذكره العهد الجديد بشأن أشراك الغنى والبركات المعلنة للمحتاجين و المسحوقين . و قد لاقت هذه الأفكار آذانًا صاغية لدى الفقراء ، و لكنها لم تَلقَ شعبية عند المسؤولين الرومان . إن الرسميين المحليين ، و كانوا في غالبيتهم من الطبقات الارستقراطية ، لم يتردّدوا قط في وضع موضع التنفيذ أي مرسوم امبراطوري يعد باقتلاع هذه التعاليم من جذورها و تخريبها .

من الضروري ان نتذكر أيضًا انه الى جانب التشريع الصارم للمحاكم البلدية ، و عداوة الرعاع التي لا يمكن التنبؤ عنها ، كان المؤمنون معرّضين لمحاكمة عائلية يرأسها رب العائلة وصلاحياته تكاد تكون لا متناهية . لقد كان بإمكان الزوج الوثني مثلاً أن يدين زوجته المؤمنة ويحكم عليها بالموت . و معروف عن آباء أنهم حرموا أولادهم من الميراث ، و أنهم فرضوا كل أساليب التعذيب على عبيدهم اذا اعترفوا بالايمان المسيحي .

كانت القوّات المجنّدة ضد الكنائس متنوعة و ثقيلة . و معظم الصعوبة تكمن في أنّ السلطات الرومانية لم تكن تعترف بالدين المسيحي رسميًا ، لذا لم يكن يحق للمسيحي ان يدافع عن نفسه قانونًا او شرعًا . و يذكر ترتوليانوس في هذا الصدد كيف أن الوثنيين كانوا أحيانًا يوبّخون المسيحيين و بشكل ساخر قائلين : « بموجب القانون ، أنتم لستم حتى بموجودين . » و لكنه ، أيّ ترتوليانوس يردّ بالقول إنّ المسيحيين موجودون حقًا ، سواء أشاء الوثنيون ذلك ، أم أبوا . و إذا كان الأمر كذلك ، فَمَنْ إذًا من الاثنين يكون بخلاف الحق : المسيحيون ام القانون ؟[16]

و قد يُسأل لماذا لم تسعَ الكنيسة المسيحية للحصول على اعتراف شرعي بها ، خصوصًا وأن اليهود كانوا قد حصلوا على مثل هذا الإعتراف . العقدة تكمن في كون الرومان يعتبرون أنّ الديانة هي مسألة عرقية ، لا مسألة اقتناع شخصي . فاليونانيون كان لهم آلهتهم ، و كذا بالنسبة إلى الرومان . وَ قال كلْسُوْس (Celse) في معرض انتقاده للمسيحيين : « أمّا اليهود ، فلا يمكن ان يلاموا ، لأنّ على كَل انسان ان يعيش بموجب عادات بلده ، بينما المسيحيون قد تخلّوا عن شعائرهم الوطنية بسبب تعاليم المسيح . »[17] على أن المشترعين الرومان اعتبروا أن ولاء الانسان الأول ليس لضميره و لا لآلهته ، بل للدولة . و الامبراطورية ادّعت لنفسها الحق بأن تقرّر لرعاياها أية آلهة يجب ان يعبدوا . و لم تكلّف الدولة نفسها عناء الاهتمام بالمعتقدات الخاصة التي يؤمن بها الانسان ، ولكنها فرضت عليه ، بشدّة وحزم ، ان يلتزم بشكل نهائي بحضور الطقوس العامة المختصة بديانة الدولة ، و أن يُظهر بشكل واضح خضوعه و امتثاله . هذا ، و إن إيمانًا جديدًا يمنع أصحابه من عبادة الأوثان كان من الطبيعي له ان يصطدم بنظام كهذا .

لا يمكن لحكومة كليانية أن تتفهم بسهولة فكرة وجود مواطن مخلص ينتمي الى دين مستقل . إلا أن ترتوليانوس ترافع أمام الحكّام الرومان ليعاملوا المسيحيين بالعدل اذ يمنحوهم فرصة فقط للتعبير عن وجهة نظرهم . فإذا حاولت السلطات ، و لو فقط ان تكتشف ما الذي يؤمن به المسيحيون ، فإنها ستتوقف عن صبّ جام غضبها عليهم . و في الواقع ، أضاف يقول ، لن يجد المسؤولون شيئًا يلام المسيحيون عليه . يُسمح للناس المتهمين بجرائم العنف ان يدافعوا عن أنفسهم و ليس هذا فحسب ، بل ان يعيّنوا محامين محترفين للدفاع عنهم . « عندهم فرصة كاملة للردّ كما أيضًا لاستجواب الشاهد او الخصم ابتغاء دحض شهادته ، ذلك لأنه ، من غير المسموح أن يدان الناس من دون سماع شهاداتهم او قبول دفاعهم . أمّا المسيحيون ، فهم وحدهم غير مسموح لهم بأن يقولوا أي شيء لتبرئة ساحتهم ، و للدفاع عن الحق ، و لإنقاذ القاضي من الظلم . فالقاضي همّه الوحيد إرضاء الجمهور الحاقد - أي الاعتراف باسم المسيح ، لا استقصاء تهمة أعمال السوء . »[18]

و استطرد ترتوليانوس قائلاً إنّ كل هذا العداء ، هو نتيجة التعصّب الأعمى عن جهل . فإذا ما توقّف الناس للحظة فقط ، للتبصّر و النظر في حقائق هذه القضية ، فإنهم سيرون الأشياء من منظار مختلف تمامًا . « فكل الذين كرهوا ، بسبب عدم معرفتهم حقيقة الأشياء التي كرهوها او حقدوا عليها ، سيتوقفون عن هذه الكراهية حالما يكفّون عن جهلهم هذا . . . الناس يصرخون قائلين إن الدولة قد امتلأت بالمسيحيين . فالمسيحيون في القرى و الأرياف و في الجزر أيضًا ؛ و الناس من الجنسين ، و من كل الأعمار ، و في كل الأوضاع ، حتى من ذوي المراكز الاجتماعية العليا ينتقلون الى المجتمع المسيحي . يولولون و يندبون بسبب هذه الأمور ، كما لو أنّ هناك نكبة أو كارثة . لكنهم على الرغم من كل هذا ليسوا على استعداد أبدًا للتفتيش عن بعض الحسنات فيها التي قد تكون قد فاتتهم . »[19]

أشار ترتوليانوس باستمرار الى استعداد المسيحيين للموت عوضًا عن أن ينكروا إيمانهم ؛ كان ثبات الشهداء من الأسلحة الرئيسة في جعبته . لقد تأيّدت حقائق التعليم المسيحي من خلال المواقف الثابتة لأولئك الذين تبنّوها : « اسألوا أنفسكم إذًا ، » قال ترتوليانوس « عمّا إذا كانت ألوهية المسيح معتقداً حقًا أم لا . فإذا كان قبول مثل هذا الايمان يؤدي الى تغيير الانسان فعلاً الى الأحسن ، يعني ذلك أنّ كل ما هو مخالف له يجب أن يرفض . » و قد أشار ترتوليانوس الى الصمود و ضبط النفس اللذين تميز بهما المسيحيون في اثناء المحاكمة . فإنهم لم يلجأوا الى السلاح ، و لا هربوا من السلطة الامبراطورية . « كم مرة صببتم جام غضبكم على المسيحيين ، أحيانًا بسبب ميلكم الى هذا و أيضًا بسبب امتثالكم للقانون . و كم مرّة ايضًا لم يُعركم رعاع الشعب المتعصّب انتباهًا ، بل هاجمونا بالحجارة و بالنيران ، و قد تجاوزوا القانون نفسه . . . و لكن ، مع كوننا متماسكين ومتحمّسين جداً لمواجهة الموت ، هل لاحظتم ابدًا عندنا أي انتقام على الإساءة ؟ »[20]

شعر معظم الولاة الرومان ، أمثال بليني الأصغر (Pline le Jeune) بعدم تأكّدهم من الطريقة التي يجب ان يتبعوها هؤلاء المسيحيين الذين يمثلون امامهم للمحاكمة . كتب بليني من منطقة بيثينية (Bithynie) ، في شمال تركيا المعاصرة في العام 112 ميلادي الى الامبراطور ترايان (Trajan) يسأله النصح و الارشاد . قال بليني : « إنها قاعدة عندي يا سيدي ، أنْ أرجع الى مقامكم في القضايا التي أشك فيها . لم احضر في السابق محاكمة من محاكمات المسيحيين قط ، لذا ، لا أعرف ما هي العقوبات العادية المترتبة ، او ما هي التحريات ، و إلى أيّ مدى يجري التقيّد بها . لقد ترددتُ كثيراً في ما اذا كان يجب ان آخذ أعمار المتهمين بعين الاعتبار أم لا ؛ و ما اذا كان الضعفاء يُعامَلون بالطريقة نفسها التي يُعامَل بها الأقوياء ؛ أو اذا كان عليّ ان اسامح اولئك الذين يتخلون علنًا عن معتقدهم المسيحي ، أو ما اذا كان عليّ أن أعاقب من كان مسيحيًا ، حتى و لو قرّر التخلّي عن ذلك ؛ وما اذا كان مجرد الاسم « مسيحي » كافيًا ليُنزل العقاب بصاحبه ، حتى و لو كان بريئًا من أية جريمة أخرى ، أم الجرائم المتعلّقة بهذا الاسم فقط .» و التساؤل الأخير في هذه القائمة من التساؤلات الطويلة أعلاه ، كان مستمداً من الاعتقاد العام السائد بين الوثنيين ، على الأقل في الايام الأولى ، أن المسيحيين كانوا يتورّطون في جرائم قتل الأطفال ، و أكل لحوم بشرية ، و زنى المحارم . و تساءل بليني ما إذا كان اعتراف المتهم بمسيحيته يعني تلقائيًا أنه مذنب بكل هذه الجرائم المذكورة آنفًا ، أم لا ؟

و أكثر ما يصدمنا بعنف من الوثائق عن الموضوع الذي نحن بصدده ، هو أنّ الولاة و القضاة ، أمثال بليني ، و الذين كانوا يحكمون على المسيحيين بشتّى أنواع التعذيب والتنكيل والقتل الوحشي امام الملإ ، لم يكونوا سوى مجرّد مأمورين مواظبين على القيام بواجبهم ، وكانوا يحاولون على هذا الأساس تنفيذ مهمة ادارية إطاعة لتعليمات محدّدة . كان كل همّهم تأمين خضوع الشعب بشكل مسالم للقوانين المرعية بشأن الديانة المسموح بها في الدولة . وصحيح

أنه غالبًا ما كانت تعوزهم الشفقة و الرحمة ، لكنّ عملهم كان يفرض عليهم كبت أية مشاعر شخصية قد تتولّد عندهم . كانوا بالتأكيد ، يفتقرون في معظم الأحيان ، الى الرغبة الشخصية في البحث عن الحقيقة ، إلا انهم ، عمومًا ، لم يكونوا يضمرون العداء لأولئك الذين يسبّبون لهم هذه الآلام المفزعة و الرهيبة . كانوا مجرّد ممثّلين غير جذابين عن نظام سياسي متوحّش و لا إنساني ، في عالم رَخُصت فيه الحياة ، وباتت البلوى الدموية التي يعانيها الآخرون ، الستار الخلفي للحياة اليومية ، وَ لْنَقُلْ ايضًا ، الوجبة المستخدمة باستمرار على نطاق واسع للتلهيات العامة .

أوجز بليني الاجراءات التي كان يتخذها في استجواب أولئك الذين يمثلون امامه قائلاً : « أسألهم إن كانوا مسيحيين .» و في حال أقرّوا بذلك ، اكرّر سؤالي مرة ثانية وثالثة مهدّدًا إياهم بإنزال عقوبة الموت بهم . فإذا أصرّوا ، أحكم عليهم بالموت ، لأنني لا أشك مطلقًا في أنه مهما كانت جريمتهم التي اعترفوا بها ، فإن مشاكستهم و عنادهم المتصلّب ، وحدهما ، كافيان للعقاب لا محالة . لقد كان بليني نموذجًا لأولئك الذين يؤمنون بأن جريمة المسيحيين الكبرى تكمن في تحدّيهم للسلطة ، و في رفضهم الانصياع لأوامر الدولة ، كذلك في عدم قبولهم التخلّي عن إيمانهم المسيحي عندما يصدر إليهم الأمر بذلك بصرف النظر عمّا إذا كان الايمان حسنًا او سيئًا .

أخبر بليني الامبراطور عن أوراق كاتبها مجهول وصلت الى يده ، و فيه مدوّن العديد من اسماء المسيحيين . و قد استُدعي هؤلاء للمثول امامه ، قال : « و كل من انكر كونه مسيحيًا ، وجدت انه يجدر بي ان اطلق سراحه ، لأن هؤلاء كانوا يدعون باسم آلهتنا عندما آمرهم بذلك ، و هم ، بالبخور و الخمر ، يبجّلون تماثيلك و يوقّرونها حيث كنت أُحضر صورتك (صورة الامبراطور) بالاضافة الى أصنام الآلهة لهذا الغرض بعينه ؛ و بالأخص لأنهم لعنوا المسيح ، ذلك الأمر الذي يقال إنّ المسيحيين الحقيقيين لا يمكن اقناعهم بالإقدام عليه . . . وآخرون ذكر المخبر اسماءهم قالوا اولاً انهم مسيحيون ثم ما لبثوا أن أنكروا ذلك ، اذ صرّحوا أنهم كانوا مسيحيين في الماضي ، و لكنهم الآن لم يعودوا كذلك . . . لقد سجد الجميع وتعبّدوا لصورتكم و تماثيل آلهتنا ، و لعنوا المسيح .» و لكن ، حتى بليني نفسه كان يعلم أن هؤلاء القوم لم يكونوا المسيحيين الحقيقيين ، لأن سلوك هؤلاء الذين تبعوا المسيح بجدّية كانت معروفة بخلاف ذلك . و قد لاحظ بليني بالاختبار ، أن لا شيء يحمل المسيحيين الحقيقيين على لعن مخلّصهم .

انتزع بليني الاعترافات انتزاعًا من بعض هؤلاء ، إلاّ ان هذه الاعترافات جاءت خالية من الرذائل المروّعة التي كان يأمل أن يسمع عنها . لم تكن اساءاتهم ، في الواقع ، ممتعة و لا مشوّقة على الاطلاق . « لكنهم أعلنوا ان مجموع أخطائهم هو التالي : إنهم في يوم معيّن ، كانوا قد اعتادوا ان يجتمعوا قبل الفجر ، و يرتّلوا تراتيل إيقاعية للمسيح ، باعتباره إلهًا ، و أن يربطوا أنفسهم

بتعهّد مقدس جليل - لا للتعهّد بالتورط في جريمة معيّنة أو أخرى ، بل بالحري للامتناع عن السرقة و السلب و الزنى والإخلال بالوعود ، أو التنكّر لوديعة وقت المطالبة بها . و بعد ختام هذا الاحتفال اعتادوا ان يتفرقوا على ان يجتمعوا ثانية الى مائدة الطعام ، لكنه كان مجرّد طعام عادي و لا يشكّل أي أذى . »

لقد وجد بليني ان هذا البيان البسيط من الحقائق غير واف ، فواصل عمله مظهراً بذلك القلب القاسي عند الإداري الامبراطوري : « لهذا وجدت أنه من الضروري ، أن اتحرّى مدى صحة كل هذا ، و ذلك بتعذيب خادمتين كانتا تُدعيان مساعدتين . و مع ذلك لم أجد شيئًا سوى خرافات فاسدة و متمادية في الوهم . و هكذا قمت بتأجيل جلسة الفحص و التمحيص هذه ، وقررت استشارتكم . »21

لم تكن السلطة ترغب في قتل المسيحيين ، و إنما كانت ترغب في إعادتهم الى عبادة الآلهة الرومانية . و لم يكن في نية السياسة الامبراطورية إخلاء الكنائس من رعاياها ، بل إعادة ملء المعابد الوثنية . و لم تكن تنوي تغيير المعتقدات الدينية عند الناس ، بل ضمان طاعتهم و ليونتهم . كان الأباطرة يعلمون دائمًا في قرارة نفوسهم ، أنّ افريقيا هي جزء غير مستقر من الامبراطورية الرومانية . ففيها المئات من القبائل ، و جميعهم أعداء محتملون ، وهم يعيشون على مسافة قصيرة داخل البلاد ، وراء حدود كان من غير الممكن الدفاع عنها عسكريًا ضد مهاجمين محدّدين . عاش الحكام في قلق مستمر ، إذ كان عليهم التعامل مع أية مؤشّرات بعيدة لفوضى أو فتنة ، و وأدها في مهدها فيّ هذه المقاطعات الصعبة قبل ان تشكّل خطراً سياسيًا جديًا .

إن اية أمّة هي متماسكة معًا بفضل وحدتها الدينية ، و تسيطر على شعبها بواسطة كهنوتها الرسمي ، لا بدّ من ان تشعر بتهديد مباشر من أقلّيات قرّرت ان تخرج عن الدين الوطني . فإنْ بقيت هذه الأقلية متوارية عن الأنظار ، و تمتثل من الخارج لمتطلبات حفظ الشعائر الدينية ، فإنها غالبًا ما تُترك في سلام . ولكن حالما تعترف هذه الأقلية جهراً أنها لم تعد تخضع لسلطة هذا البلد الدينية ، فإن الدولة عندئذ ، تفقد نسبة من سيطرتها على هذا الشعب . و ما ان تصبح هذه الأقلية قوة حتى إن الجميع يعرف أنها تقدّم بديلاً عن السلطة الدينية القائمة ، تبدأ تهدّد إذ تجتذب عدداً كبيراً الى صفّها . و هكذا تتحوّل أقلّية شجاعة و متنامية الى أغلبية ساحقة في حال لم يعمل أحد على إيقافها .

هذه كانت من جملة الاسباب الموجبة التي جعلت السلطات الرومانية تحاول يائسة استئصال الكنائس الفتية في شمال إفريقيا . لكنّها لم تدرك الاّ القليل أي فشل ذريع سيصيبها . فقد كُتب لكنائس إفريقيا الشمالية ان تصمد الى ما بعد زوال أعظم امبراطورية كانت مقتدرة عسكريًا ولم يرَ العالم لها مثيلاً .

ملاحظات

1- Cyprien *Epître* 33 ؛ Monceaux Tome II p. 137
2- Cyprien *Epître* 32 ؛ Monceaux Tome II p. 137
3- 1 كورنثوس 15:3
4- Cyprien *Epître* 34 ؛ Monceaux Tome II p. 138
5- Cyprien *Epître* 8
6- فيلبي 8:3
7- *Apologeticus* 39
8- *Apologeticus* 39
9- *Apologeticus* 42
10- أعمال 23:19 - 27
11- *Apologeticus* 39
12- رومية 1:13
13- بالإشارة الى مرقس 17:12
14- اعمال 29:5
15- متى 34:5 - 37
16- *Apologeticus* 4
17- Origène *Contra Celsum* 5:25 ؛ (اقتبسها Foakes - Jackson p. 45)
18- *Apologeticus* 2
19- *Apologeticus* 1
20- *Apologeticus* 37
21- *Epître* 10 (*Ad Trajan*) : 96 (Bettenson *DOTCC* pp. 3 - 4)

Foakes - Jackson (pp. 44 - 48) ، يستعرض بعض الأسباب وراء الاضطهاد في عهد الامبراطورية الرومانية الوثنية .

الفصل الحادي عشر

المعذّبون المبتهجون

ألقى مسيحيو شمال إفريقيا انفسهم في أتون المحن و البلايا ، غير آبهين بشكل مذهل لِلعواقبِ . و ارتفع عددهم الى المئات ، بل إلى الآلاف ، أولئك الذين ثبت أنهم يعانون الأمرّين بسبب التزامهم الايمان بالمسيح . لقد أعلنوا سرورهم و غبطتهم ليكونوا هكذا و ماتوا مبتهجين فرحين جداً . رفضوا بصراحة ، و بشكل قاطع ، أن يقربّوا التقدمات لآلهة روما ، و لم يرتضوا لأنفسهم ان يُقسموا بقدرة الامبراطور الإلهية . ليس من السهل على جيلنا الحالي ان يتفهّم هذه الحماسة او يدرك مثل هذه التصرّفات ، لأننا لم نعتد عليها . و قد نعجب متسائلين : ما الذي يقف وراء هذا العناد الذي لا يقبل المساومة ؟ و لماذا صمّم المسيحيون ان يعترفوا بإيمانهم المسيحي مجاهرة حتّى و لو أدّى بهم ذلك الى التضحية بحياتهم ؟

علينا أولاً ان نتذكر أنهم كانوا واثقين من المبدإ الذي أرسوا عليه أقدامهم . فقد آمنوا تمامًا ، وبشكل راسخ ، بأنهم اكتشفوا الحق . كما اقتنعوا بشكل أكيد أنّ المسيح هو بالحقيقة الله المتجسّد الذي جاء من السماء ليكون « نور العالم » [1] . إنهم آمنوا بما قاله لهم سيدهم ، و وثقوا بأن طريق المسيح هو الأفضل ؛ لقد رأوا الفرق بأمّ أعينهم . كانوا يفتخرون بمسيحيتهم ، كما ان إخلاصهم لم يسمح لهم بأن يتفوّهوا بالكذبة العظيمة المطلوبة منهم و لم يكن لهم أبداً أن يعبدوا الامبراطور الروماني ربًا و إلهًا . لقد شعروا بمحبة الإله الحقيقي الذي خلق كل شيء ، و اختبروا دفء الجماعة المسيحية و لطفها ، و كان اختبارهم لهذه البركات بمثابة تذوّق مبدئي للسماء في وسط عالم قاسٍ و شرس . كان ايمانهم يمنحهم بهجة عظيمة . فهذا الايمان حوّل حياتهم كلّها ، و لم يبقَ عندهمُ أدنى شك بحقيقته وبصحّته . و لا شيء كان بإمكانه ان ينتزع منهم هذا الايمان او يجعلهم يتنكرون له .

و أكثر من ذلك ، فقد كانوا ممتلئين بشعور شخصي غامر من العرفان بالجميل والإقرار بالفضل لمخلّصهم الذي أحبهم عندما لم يكونوا يفكّرون فيه . لقد فتّش عنهم كما يفتش الراعي عن خرافه الضّالة . و اعتنى بهم عندما كانوا في حالة بؤس وشقاء وانحدار . ثم أصعدهم من طين الحمأة ، و ثبّت على صخرة أرجُلَهم[2] . فكيف لهم ان ينكروا ربهم وهو الذي منحهم كل شيء حسنًا ، و هو من أعطاهم كل هذا الفرح و الحبور الذي أصبحوا الآن يتمتعون به؟ لقد وهبهم كل ما يجعل هذه الحياة جديرة بالاهتمام و ذات شأن رفيع - لقد منحهم الصحة و العافية والصداقة و المحبة ، و احترام الذات و المسامحة ، و القبول

والرجاء العظيم بالحياة الأبدية الخالدة . فكيف لهم ان يلعنوا ذاك الذي خلّصهم و أعالهم وأحبّهم الى المنتهى ؟! كما أعطى كل ما لديه من أجلهم ، و هو الذي ناضل بكفاح مضنٍ تحت وطأة صليب ثقيل ، و أخيراً مات معلّقًا عليه من أجلهم هم .

كذلك ، لم ينقص عن ذلك مقدار تأثرهم بالشرف العظيم الذي شعروا بأن الرب أنعم به عليهم : أن يكونوا شعبه الخاص ، أولئك الذين سوف يقومون من القبر لكي يملكوا معه الى أبد الآبدين . أمّا الامتياز الأكبر و الأروع ، فهو من نصيب من أفرزهم الرب شخصيًا ليعلنوا اسمه جهراً أمام هذا العالم المترقّب المنتظر . لقد كانوا في أشدّ الاشتياق لخدمة المسيح بأي شكل من الأشكال . فكيف إذًا يُظهرون ولاءهم و حبهم له ؟ و كيف سيعظّمونه على كل صلاحه من نحوهم ؟ إلاّ باحتمال الانزعاج بفرح من أجله على مدى عدّة ايام ، و بشهادة مخلصة ، و إعلان ثابت وطيد لإيمانهم امام الجماهير المحتشدة للاستماع الى حكم الموت الذي سيصدر بحقهم ، ثم وميض السيف ، و من ثم الحياة الأبدية . و من بين هذه الجماهير المحتشدة المترقّبة في السجون او في الساحة العامة ، قد يُقبل بعضهم الى معرفة الحق في اللحظة عينها لانتقال المؤمنين من هذا العالم . و مع ان تلاميذ الرب الأولين تخلّوا عنه و هربوا ، إلاّ أن هؤلاء سيقفون معه ويصمدون بشجاعة و إباء ؛ و إذا كان بطرس قد أنكره ، فهم ، على الأقل ، لم و لن يخجلوا من ان يكونوا أصدقاءه . فمثلهم مثل شاول الطرسوسي ، إذ شعروا بأنهم مُفرزين ليحملوا اسمه امام الحكّام و الملوك.[3] إنهم سوف يعترفون الاعتراف الحسن امام ولاة عصرهم وحكّامهم ، كما فعل المسيح امام بيلاطس البنطي.[4]

لم تفاجئهم تحدّيات الاضطهاد . هذا لأن سيدهم دعاهم إلى هذا العمل العظيم الجبّار ، وهو الذي وعد بأن يدعمهم و يقوّيهم . « فانظروا الى نفوسكم . لأنهم سيسلّمونكم الى مجالس وتُجلدون في مجامع و توقَفون امام ولاة و ملوك من أجلي شهادة لهم . و ينبغي ان يُكرز أولاً بالانجيل في جميع الأمم . فمتى ساقوكم ليسلّموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا . بل مهما أُعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلّموا . لأن لستم انتم المتكلّمين بل الروح القدس . . . و تكونون مبغَضين من الجميع من أجل اسمي . و لكن الذي يصبر الى المنتهى فهذا يخلص . »[5] كان ذلك حقًا ، هذا لأن هؤلاء الرجال و النساء وجدوا في ساعة المحنة الحرية المجيدة التي دفعتهم إلى التحدث عن يسوع المسيح بسرور و بفصاحة انسكبا عليهم من فوق . لقد شعروا بمنتهى السعادة لكونهم مسيحيين ، و هم اكثر الناس امتيازاً في العالم بأسره . لم يكن لديهم شيء يرغبون في إخفائه ، او يخجلون منه ، فسيّدهم لم يرتكب أية جريمة ، و كذلك الأمر بالنسبة اليهم . كانوا فخورين بحمل اسم المسيح . و قد عبّر ترتوليانوس عن هذا الشعور العارم بالولاء للمسيح : « نقول امام جميع الناس ، و حينما تُمزّق اجسادنا و تدمى من جرّاء تعذيباتكم ، فإننا جميعًا نصرخ بأعلى ما أوتينا من قوّة : "نحن نعبد الله من خلال المسيح" . يحقّ لكم أن تعتقدوا أن المسيح ليس سوى إنسان ، و لكن اعلموا انه من خلاله ، و به فقط قد شاء اللّه ان يُعرف و يُعبد . »[6]

تشدّد المسيحيون المضطهدون و تقوّوا في معاناتهم هذه ، باقتناعهم التام المطلق بأن هناك حياة أفضل تنتظرهم . و ليس المطلوب منهم إلاّ أنْ يعبروا عتبة الموت الضيّقة ليدخلوا بعد ذلك الى دارهم الأبدية السرمدية ، فيكونوا دائمًا و أبدًا في حضرة الله المبارك حيث لا دموع و لا أحزان . وإذ سيعودون للاجتماع من جديد بفرح بأحبائهم ، في ذلك المكان المثالي ، كانوا يشتاقون إلى ان يُرحّب بهم هناك ، لا كعمّال بطّالين ، بل كخدّام صالحين و أمناء يرضى عنهم ربّهم . إنّ إقراراً جريئًا بالإيمان بالمسيح سوف لن يضيع أجره . يقول المسيح « فكل من يعترف بي قدّام الناس أعترف انا ايضًا به قدّام ابي الذي في السماوات . » [7] كما ان الأقدم عهداً بين الترانيم جميعها تقول : « إن كنّا قد متنا معه فسنحيا أيضًا معه ؛ و إن كنّا نصبر معه فسنملك أيضًا معه . »[8]

كان هناك الكثيرون ممن يرغبون في ان يملكوا مع الربّ يسوع ؛ كانوا يشتاقون بإخلاص الى ان يُتوّجوا بتاج الشهادة . و في يقينهم بإحراز النصر المبين على قوى الظلام ، كانوا قد حلّوا أنفسهم من رباطات هذا العالم الكاذب و المخدّر . قُدّر لهذا العالم ان يزول عن قريب ، و هم لم يعودوا يرغبون في ان يبقوا مستعبدين لادّعاءاته التافهة ، و لا لفساده المستشري . تكلم ترتوليانوس بلسانهم جميعهم عندما قال : « نحن نرغب التعجيل في امر حصولنا على المُلك ، لا ان نطيل زمن عبوديتنا . . . نعم ، ليأت ملكوتك ايها الرب سريعًا ، و سريعًا جداً . و سيكون هذا تحقيقًا لأشواق المسيحيين ، و إرباكًا للأمم ، و غبطةً للملائكة . هذا ما نصلّي من أجله مبتهلين . »[9]

كانوا يتوقعون باستمرار رجوع المسيح . لذلك كانوا امام كل أزمة او مصيبة جديدة يتذكّرون تحذير السيّد و وعده : « نعم ، أنا آتي سريعًا . »[10] « اسهروا إذًا لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم . »[11] سيأتي الرب كمخلّص لشعبه ، و كديّان للعالم . يقول الكتاب أيضًا : « هوذا الديّان واقف قدّام الباب » .[12] « يوم الرب كلصٍّ في الليل هكذا يجيء . لأنه حينما يقولون سلام و أمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتةً كالمخاض للحبلى فلا ينجون . » [13]

ها إن أيام العز و القوّة ، قد زالت فعلاً من الامبراطورية الرومانية ، و حيث بدأت تتدهور و تضمحل ، برزت حينذاك بوادر شؤم و تعاسة تنذر بالسوء ، و كأن العالم يُسرع الخطى اقترابًا الى نهايته : أوبئة و حروب و هزّات أرضية ، و انهيار الحكومات الثابتة ، و خيبة أمل بالنسبة الى ما كانت الامبراطورية تمثّله . لقد قال المسيح : « فإذا سمعتم بحروب و بأخبار حروب فلا ترتاعوا . لأنها لا بدّ ان تكون . و لكن ليس المنتهى بعد . لأنه تقوم أمّة على أمّة و مملكة على مملكة ، و تكون زلازل في أماكن و تكون مجاعات و اضطرابات . هذه مبتدأ الأوجاع . . . لأنه يكون في تلك الايام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة التي خلقها الله الى الآن و لن يكون . »[14]

كان كل شيء في انحدار ، و فُقد كل أمل في معالجة حالة الانسانية و لم يعد بإمكانها سوى التقهقر و الانحدار الى الأسوإ . و ليس غير أولئك المتفائلين جداً كان بإمكانهم ان يفكّروا في غير ذلك . و المسيحي الذي كان قد أُخذ من هذا العالم ، قبل حلول هذه الايام الأخيرة المرعبة ، كان بوسعه ان يُعدّ نفسه مباركًا فعلاً . قال ترتوليانوس : « يبقى المؤمن منتظراً ذلك اليوم . . . وهو قلقٌ يوميًا على ما يرجوه كل يوم . »[15] إن رغبة الكثيرين من المؤمنين في ترك هذا العالم

قبل أن يشبّ فيه الحريق الهائل الأخير ، قطع في الواقع ما تبقّى لهم من صلات به ، وهكذا شدّدهم لمواجهة ساعة المحنة ، لحظة المغادرة و الانطلاق .

كان بإمكان أتباع المسيح ان يبقوا واثقين بانتصارهم النهائي مهما كانت معاناتهم . و سبق لكلمة اللّه الحيّة ان تنبّأت بخصوص هياج الوثنيين المجنون على ابن الانسان . « هؤلاء سيحاربون (المسيح) و (المسيح) يغلبهم لأنه رب الأرباب و ملك الملوك . »[16] كان ترتوليانوس يتطلّع الى اليوم الذي فيه ستنقلب ممالك العالم و ستجثو كل ركبة باسم الرب يسوع .[17] لقد أسرعت مخيّلته و استَبَقَت مجيء المسيح ، يوم الدينونة العظيم و تدمير المُعذِّب . فلسوف يجرف الانتصار الأخير معه ذكريات الذل و الخزي ، هذه التي لحقت بشعب اللّه ، و كل ما عانوه على أيدي أولئك الظالمين الأشرار . كتب يقول : « و لكن . . . يا للمشهد الآتي! ظهور الرب ، معترفًا به ، ممجّداً ومنتصراً . فكم سيكون عندذاك جذل الملائكة و ابتهاجهم ، و كم سيشرق مجد القديسين حين يقومون و يظهرون ! و بعد ذلك ، سناء عهد مُلْك القديسين الرائع ، و مدينة اورشليم الجديدة! و لكن ، هناك مشاهد أخرى الى جانب كل ما تقدَّم! إنه يوم الدينونة الأخير ، اليوم الذي لم تكن تتوقعه الأمم ، ذلك اليوم الذي ضحكوا عند سماعهم عنه . . . فعلى مَ سأتعجب عندئذ واندهش؟ . . . سوف أرى جميع أولئك الملوك الجبابرة الذين أُعلن عنهم جهراً بأنهم قد مُجّدوًا في السماء ، و هم يئنون و يتأوهون جميعًا في الظلمات العميقة السحيقة ، و سأرى . . . الحُكّام ، ومضطهدي اسم الرب ، و هم يذوبون في نيران هي أشدّ ضراوة و أعنف قسوة من تلك التي هاجوا ماجوا بها ضد المسيحيين المؤمنين . . . فلاسفة . . . شعراء . . . كتّاب المآسي . . . ممثلين . . . و سائقي المركبات ، و منذ الآن نستطيع أن نتخيّل ما سيحدث لهم . »[18] عندذاك سنلاحظ مصير اولئك الذين بصقوا على الرب يسوع و ضحكوا في وجهه ، و جلدوه و صلبوه .

فإذا ما جاء الاضطهاد ، فلا بدّ أن يكون وراءه الخلاص . لقد تشجّع المسيحيون بكلمات سيّدهم : « و متى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا و ارفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم تقترب . »[19] كان يوم رجوع الرب يقترب اكثر فأكثر ، فما هي علامات دنوّ مجيئه يا ترى ؟ قال االمسيح : «الشمس تظلم و القمر لا يعطي ضوءه ، و نجوم السماء تتساقط و القوّات التي في السموات تتزعزع . و حينئذ يبصرون ابن الانسان آتيًا في سحاب بقوّة كثيرة و مجد . فيرسل حينئذ ملائكته و يجمع مختاَريه من الأربع الرياح من أقصاء الأرض الى أقصاء السماء . » [20] كان المسيحّيون ينتظرون هذه العلامات بتوقّع . فهم سيكونون بين أولئك المختارين الذين جاء المسيح من أجلهم . و إذ يعلمون ذلك ، لم يهابوا السيف الخاطف و لا التهديد البشري المؤقّت .

و إذ كانوا ينتظرون هذا الحدث العظيم ، كانوا يجدون تعزية خصوصًا في السِّفر الذي كمّل قانون العهد الجديد ، سفر الرؤيا الذي كتبه الرسول يوحنا الشيخ من منفاه في جزيرة بطمس . و تصف فقراته الأخيرة ، بتفاصيل رائعة ، انتصار المسيح في النهاية ، الى جانب أمجاد المدينة المقدّسة . [21] رأى يوحنا ما سوف يحدث في المستقبل ، و بيّن ما رآه . لقد أفرز

الشهداء لكي يحصلوا على تكريم خاص . فهم حملوا اسم المسيح حتى نهاية المطاف ، رافضين أية تسوية مع هذا العالم ، و مع حكّامه المجدّفين . « و رأيت نفوس الذين قُتلوا من أجل شهادة يسوع و من أجل كلمة الله و الذين لم يسجدوا للوحش و لا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم و على أيديهم فعاشوا و ملكوا مع المسيح ألف سنة . » 22

كان الشهداء ينتظرون حقًا إحراز مكافأة عظيمة ، إذ ما وُجدوا مُخلصين حتى الموت . وأولئك الذين هلكوا في سبيل ملكوت الله ، سيُرفعون فَوراً الى المجد بصفتهم « كهنة الله و المسيح » 23 ، بينما اخوتهم العاديين ، الذين ماتوا بسبب العجز او المرض ، كانوا لا يزالون في عالم الأموات (Hadès) حيث ينتظرون نهاية العالم و يوم الدينونة قبل ان يدخلوا بيتهم الأبدي . وأمّا بقية الأموات ، بحسب رؤيا يوحنا ، فلن يعودوا الى الحياة إلا بعد مضي ألف سنة . 24 و متى تمّت الألف السنة الأولى ، يُحلّ الشيطان من سجنه مرة أخرى ، « ليُضل الأمم » و « ليجمعهم للحرب »25 ، قبل اندلاع الحريق النهائي الهائل وخلق «سماء جديدة و أرض جديدة » 26.

النبوة القائلة إن الشهداء سيصعدون ليحكموا مع المسيح على مدى ألف سنة ، استأثرت بعقول المسيحيين في جميع أنحاء العالم آنذاك . و قد ذُكر الحكم الألفي هذا في ما كتبه بُولِيكَارْبُوس في آسيا الصغرى (تركيا حاليًا) ، و إيرينَايُوس في بلاد الغال (فرنسا حاليًا) ، ويُوستينُوس الشهيد في روما ، و بين المونتانيين في فريجيا و في افريقيا الشمالية . و قد اعتبر معظم هؤلاء الكتّاب ، ان هذه الفقرات من سفر الرؤيا تشير الى مملكة أرضية حقيقية سوف يتمّ تدشينها ، و التي سيحكم فيها المسيح مع قديسيه على مدى ألف سنة فعلية . أمّا غيرهم ، و من جملتهم إقْليمَنْدُوس و أُوريجَانُوس في الاسكندرية ، ومن ثم اغسطينوس في افريقيا ، فقد علّموا ان هذا الحكم الألفي قد بدأ فعلاً عند مجيء المسيح الأول ، والذي بصعوده الى السماء ، بدأ يحكم هناك مع الشهداء .27 و لكن ، بمعزل عن أيٍّ من هذه التفاسير هو المفضّل ، فإن هذه المقاطع الكتابية ولّدت عند المسيحيين تعزية عظيمة و اطمئنانًا ثابتًا و قويًا في ما كانوا يواجهونه من صراعات .

وهناك أيضًا سبب آخر وراء إخلاص المسيحيين العنيد لإيمانهم : لقد كانوا على علم بالنتائج الحتمية التي سوف تترتّب على البدائل . و أدركوا انهم انخرطوا ، لا في صراع الأفكار والمبادئ الأخلاقية فحسب ، بل في معركة بين القوى الروحية أيضًا . كان رفضهم للأوثان ، وامتناعهم عن المشاركة في أي شكل من أشكال العبادة الوثنية ، ينبع من اقتناعهم بأن الأصنام ليست مجموعة من الاخشاب و الاحجار الباطلة التي لا نفع منها و حسب ، لكنها أيضًا مساكن تقطنها قوّات شريرة و مقتدرة جداً ، تلك القوّات التي قد تتمكّن من إتلاف الصحة و الخُلق و سبل العيش عند الناس ، رجالاً و نساءً ، و تسبّب لهم الجنون ، و حتى الموت .

الوقت الى الإيمان عينه . كتب ترتوليانوس الى الحكام الرومان : « لا تنفعكم شراستكم شيئًا ، مع انكم تزدادون براعة وابداعًا في التعبير عنها ، إنها لمن الأمور التي تجذب الناس الى جماعتنا . لأنه كلّما أمعنتم في قهرنا وسحقنا ، ازداد عددنا . » و بعد هذا ينطق ترتوليانوس بذلك التحدّي الرائع الممتاز ، الذي دخل تراثنا المسيحي عندما قال : « ان دماء المسيحيين هي بذار . يحثّ الكثير من فلاسفتكم الناس على التحلّي بالصبر لاحتمال الآلام و الموت . . . و مع ذلك فإن كلماتهم هذه قد استقطبت حولهم عدداً من التلاميذ أقلّ من أولئك الذين علّمهم المسيحيون بقدوة أعمالهم . هذا العناد نفسه الذي تعيّروننا به ، هو الذي يُظهر لكم وجه الحق . فمن ذا الذي لا يتحرّك للبحث عن السبب الذي يقف وراء صمودنا العنيد بعد أن يراه ، و من ذا الذي لا ينضم الى إيماننا بعد تقصّيه له ، و من ذا الذي لا يرغب في المعاناة بعد انضمامه إلينا ، حتى يتسنّى له أن يربح نعمة الله كلّها؟ . . . من أجل هذا ، نحن نشكركم على حكمكم علينا في الوقت عينه الذي فيه يصدر هذا الحكم . ثمة تباين كبير بين ما للّه و ما للانسان ، حتى إنه عندما تُدينوننا ، يقوم اللّه بتبريرنا . »[37]

لقد كانت دماء الشهداء بذار الكنيسة فعلاً . فأبواب السجون كانت محاطة بحشود الصحابة و الأصدقاء ، و جميعهم مملوؤون غيرة لزيارة إخوتهم و أخواتهم المقيّدين بين جدرانها . كانت الاستجوابات العمومية في المحاكم الرومانية ناجحة ، بشكل ليس له مثيل ، في نشر رسالة الإنجيل بشمال افريقيا . كما ان مقابر الشهداء اصبحت مواقع مفضّلة لعقد الاجتماعات المسيحية . والكنائس استقت ايضًا قوّتها و تشدّدها من القدوة الملهمة لأبطالها و بواسلها . لقد كانوا يحتفلون كل سنة بذكرى اليوم الذي فيه تألم هؤلاء الأبطال علىَ اعتبار ان هذا اليوم هو يوم مجدهم . كان المسيحيون يشجعون الكنائس من السجون و يقدّمون لها نصائح عديدة ، وكانت اقوالهم تُعتبر كأنها إلهامات أوحى بها اليهم اللّه ذاته . و قد رحّب كثيرٌ من الناس بما كان يحصل عليه هؤلاء المؤمنون السجناء من أحلام و رؤى ، و اعتبروها صادرة من عند اللّه . كانت روايات الشهداء المكتوبة ، اكثر المؤلفات شعبية عند الكنائس الأولى . لقد ازدهرت الجماعات المسيحية و نمت بقوّة ، من جراء الأحزان و الأوجاع عينها التي كان القصد منها تحطيم هذه الجماعات .

فما هي الخلاصة التي نستطيع ان نستنتجها من هذا التصرّف الرائع عند مواجهة الاضطهاد ؟ إن القسوة و الضراوة التي تعامل بهما الحكام الرومان مع الإيمان المسيحي لم تستطيعا سحقه ، بل جعلتاه اكثر شعبية . لم تُمحَ الكنائس او تُزَال من الوجود لكنها نشطت و تعزّزت . فلمَ حصل ذلك ؟ علينا أولاً ان نتذكر أنه ، مع حلول القرن الثالث للميلاد ، كان المسيحيون قدَ اصبحوا يشكّلون أقلية عددها محترم في المدن في افريقيا الشمالية ، كما انهم كانوا الأغلبية في بعض المناطق . كانت هذه المقاومة الجريئة للسلطات أسهل حينما يكثر عدد المسيحيين جداً . و لم يكن باستطاعة الحكّام ان يلقوا القبض عليهم جميعًا و يبيدوهم : لم تكن السجون تكفي لاستيعاب هذه الجماهير الغفيرة ، و لو فعلت الحكومة ذلك ، لتوقفت نشاطات الحياة العامة في البلاد وجمدت تمامًا . كان على نسبة معيّنة من الذين احتشدوا لتقديم الإكرام علنًا للشهداء ، ان يكابدوا

عقابًا على فعلهم هذا ، إلاّ ان الكنيسة ، ككلّ ، كانت في أمان من الإبادة . و مقابل كل مسيحي يقبع مسجونًا في داخل زنزانته ، هناك مئة آخرون خارج السجن ، و جميع هؤلاء متشوّقون الى موآزرته و مساندته في ساعة الشهادة و المجد ، وأيضًا الى تكريم ذكراه بعد ذلك .

و لا ريب في ان النمو الراسخ لجماعة المسيحيين في السنوات التي سبقت الأزمة ، يشكّل المفتاح لتفسير جرأة هذه الجماعة و قدرتها على الصمود و البقاء حين نزلت بها النوائب . لقد استفادت الكنائس من السلام و الحرية المتوافرين لها ، إذ اشتغلت جديًا ما دام ضوء النهار مشرقًا . و قد أصبح لديها الآن ، كما كان حال يوسف في مصر ، مصادر فسيحة واسعة من المختزنات الروحية ، تكفيها لسنوات القحط و الجوع . كذلك كان عند المسيحيين ، و على غرار العذارى الخمس الحكيمات ، مقدار كاف من الزيت لإنارة مصابيحهم ؛ و هذه المصابيح كانت مضيئة ، و مجهّزة أفضل تجهيز وأكمله لتشعّ بلمعانها في أحلك الليالي .[38]

و عليه ، فإن التاريخ نفسه يُظهر لنا ، و حتى من وجهة النظر البشرية ، كيف ان القوى العاملة لصالح الكنيسة كانت أعظم من القوى المنظّمة ضدّها . و المسيحيون كانوا يتمتّعون بتأكيد راسخ بالانتصار ، و ذلك بفضل اقتناعهم بصحة الانجيل و ببطلان الوثنية . بالمقابل ، لم يكن عند الوثنيين اية ثقة مماثلة بديانتهم . كان الوثنيون يخجلون من سخافات ديانتهم و من فسادها الخلقي ؛ و أما تمسّكهم بها فهو لأنهم قد تعوّدوا عليها و لأنها كانت اساس علائقهم . إن سلاح الافتراء الذي طالما استعمله الوثنيون ضد المسيحيين في الايام الأولى ، سقط عاجزًا ضعيفًا على أرض المعركة ، عندما أظهر الشهداء ، و على مرأى من الجميع ، أيّ نوع من الإيمان كان عندهم . لم تستطع الوثنية ان توحي بمثل هذه الاستقامة الخلقية او الإقدام و الصبر و العزيمة الشخصية . و أكثر من هذا ، فقد كانت تعجز عن إلهام معتنقيها بالرجاء العظيم ، و بتأكيد الخلاص و الحياة الأبدية ، الوعود التي كانت تؤازر المسيحيين و تثبّتهم الى آخر ساعات حياتهم . لم يكن بوسع الوثنية ايضًا ان تضاهي المسيحية لجهة شركة المحبة ، علامتها المميّزة ، متخطّية بذلك التمييز البغيض بين الناس ، على أساس الطبقة الاجتماعية والثقافة و العنصر ، العوامل التي كانت تُفسد الجماعات الوثنية .

و بالطبع ، لقد عمل الاضطهاد على ضمّ الجماعات المسيحية بعضها الى بعض ، و أصبحت الفروقات القديمة طيّ النسيان خلال فترات الحرمان المشتركة . و كلّما كان يُتلى اي مرسوم من المراسيم الامبراطورية ، كان يعني ذلك ان الضربة قد تسقط على أي واحد من أعضاء الكنيسة من دون اي تمييز . عندذاك كان المؤمنون يسارعون فورًا لزيارة بعضهم بعضًا للتشجيع ، والحث على الصمود . و ما إن يعلموا بخبر إلقاء السلطات القبض على أيّ من أعضاء الكنيسة ، حتى كانوا يقومون بحشد طاقاتهم ، و لملمة شملهم لأجل تنظيم زيارات دورية الى السجن ، لسدّ أيّ نوع من احتياجات زميلهم ، و لمؤازرته و شدّ عزيمته في الايمان . كانوا يفسّرون له الكتاب المقدس مادحين ايمانه ، وممجّدين مدى عظمة مهمته الإلهية ، و هم يبذلون كل ما في وسعهم لمساعدته على اكمال النصر على طول أرض المعركة الممتدّة امامه . كانوا يصلّون لأجله بحرارة ،

كما ان غيرتهم هذه لم تكن أقل عندما كانوا يُصلّون معه . و في يوم المحاكمة كانوا يحتشدون بعدد كبير ، مالئين قاعة المحاكمة ، او في الساحة العامة ، لكي يقدّموا لأخيهم دعمًا معنويًا ، و يصلّوا لأجله أيضًا ، و للاستماع الى آخر كلماته ، و لكي يحتفظ بشجاعته و إقدامه ولا يضعف . إن أولئك الذين اختيروا للوقوف امام الجماهير المحتشدة ، كان يُنظر اليهم كجنود المسيح ، و كأبطال الجماعة المسيحية . و إذ كانوا يشهدون لحق الإنجيل ، كانوا في الواقع يقرّون ايضًا بمدى قوّة مجموعتهم المسيحية و إيمانها . فالشهيد كان يمثّل الكنيسة التي ينتمي اليها ؛ و بطولة الواحد كانت تنعكس ايجابًا كشرف للجميع .

لم يكن الأبطال الحقيقيون في الكنيسة الأولى في افريقيا الشمالية من وعّاظها العظماء ، او من صفوف علماء اللاهوت اللاّمعين فيها . إن الرجال و النساء الذين كانوا يُذكرون بحب عميق والذين يُتحدث دائمًا عن مآثرهم بولاء مفعم بالمحبة ، كانوا في الواقع فقراء بأمور هذا العالم ، ولكنهم كانوا أغنياء بإيمانهم . قال صَمُوئيل برنْكلْ (Samuel Brengle) : « إن إحدى كبرى مفارقات التاريخ ، هو التجاهل و الاستخفاف التَام بالرتب و الألقاب في الأحكام النهائية التي يمرّرها الناس بعضهم على بعض . ان التقدير النهائي للرجال يُظهر بأن التاريخ لا يهتم ، و لا حتى بمقدار ذرّة واحدة ، بالرتب والألقاب التي يحملها المرء ، و لا يأبه حتى للمناصب التي كان يتبوّأها ، و لكنه يهتم فقط بنوعية أعماله و طبيعة عقله و قلبه . نحن لا نزال نتذكر حتى اليوم فيليستاس وسبيراتوس وكلرينوس بأطيب الذكريات و أحبها ، بينما أسماء الارستقراطيين المتغطرسين الذين نطقوا على هؤلاء القديسين بحكم الموت ، أصبحت في طي النسيان . و قد قال المسيح بحق :«ولكن ، كثيرون أوّلون يكونون آخرين و الآخرون أوّلين .»39

ملاحظات

1- يوحنا 12:8
2- بالإشارة الى المزمور 2:40
3- اعمال 15:9 و 16
4- 1 تيموثاوس 13:6
5- مرقس 9:13 - 13
6- *Apologeticus* 21
7- متى 32:10
8- 2 تيموثاوس 11:2 و 12
9- *De Oratione* 5
10- رؤيا 20:22

11- متى 42:24
12- يعقوب 9:5
13- 1 تسالونيكي 2:5 و 3
14- مرقس 7:13 و 8 ، 19
15- *De Anima* 33
16- رؤيا 14:17
17- فيلبي 10:2
18- *De Spectaculis* 30
19- لوقا 28:21
20- مرقس 24:13 - 27
21- رؤيا 4:20 يعتبر بعض العلماء أن سفر الرؤيا قد كتبه « يوحنا آخر » إلاّ أن البرهان على صحة هذا الرأي غير متوافر .
22- رؤيا 6:20 . راجع Schaff *HOTCC* Vol. II p. 83
23- رؤيا 5:20
24- رؤيا 2:20 ، 7 و 8
25- 2 بطرس 7:3 - 13
26- (Schaff *HOTCC* Vol. II pp 589 - 620) يبحث الأفكار المتنوعة التي كانت عند اللاهوتيين المسيحيين الأوائل بشأن علم الأمور الأخيرة
27- غلاطية 8:4 و 9 ؛ 1:5
28- 1 كورنثوس 20:10 و 21
29- Frend pp. 94-95
30- لوقا 27:6 - 29
31- بالإشارة الى متى 41:5
32- متى 10:5 - 12
33- لوقا 52:1 و 53
34- يوحنا 11:19
35- Neill pp. 43-44
36- *Apologeticus* 50
37- بالإشارة الى تكوين 46:41 - 57 ؛ متى 1:25 - 13
38- مقتبسة (Oswald Sanders *Spiritual Leadership* p. 13)
39- مرقس 31:10

الجزء الثالث

عصر كُبْرِيَانُوسْ

(القرن الثالث)

الفصل الثاني عشر

الزعيم الرصين

عند نهاية القرن الثاني ، و بداية القرن الثالث للميلاد - نحو الوقت الذي فيه انضمّ ترتوليانوس الى المونتانيين - وُلد في مدينة قرطاجة شخص كاد يعادله شهرةً . . . و لربما فاقه نفوذًا . لقد نشأ ثاسْكيوس كايْكِيْليوس كُبْريانُوس (Thascius Caecilius Cyprianus) في بيت وثني تتوافر فيه جميع وسائل الرَاحة ، و ذلكَ على غرار سلفه الشهير . لكنّه أحجم ، خلافًا له ، عن الفسق و عن الانغماس في الملذات التي كان يمارسها المجتمع الوثني ؛ وقد ظهرت عليه باكرًا علامات الطبيعة الحساسة و النقية .

كان كبريانوس في قرارة نفسه افريقيًا اكثر منه رومانيًا ، و قد أثبت المستقبل و كشف لنا مدى إخلاصه في الدفاع عن شعبه و مصالح وطنه . لكنه كان على الرغم من هذا ، يتفاعل بارتياح تام مع بيئة الفكر اللاتيني في المدينة ، و كان يتحرّك بحريّة في ما بين ارستقراطيّي هذه المدينة . كان ينبئ بمستقبل باهر ، و قد استطاع بسرعة ان ينشئ لنفسه سمعة حسنة كعضو قيادي في المجتمع القرطاجي ، و لا سيّما في مجالات القانون و الشرع . و كان شابًا غنيًا موسرًا ، ذا منزلة اجتماعية رفيعة .

اعتنق كبريانوس المسيحية في الخامسة و الاربعين من عمره . و حصل ذلك في العام 245 م ، من خلال صداقته لأحد شيوخ الكنيسة القرطاجية الذي أمدّه بالمشورة الطيبة . وكان اسم هذا الشيخ كايكيليوسْ (Caecilius) . و بعد اكتشافه الايمان ، نظر كبريانوس من موقعه الجديد هذا الى أعباء حياته الماضية و أثقالها . لعلّ الآخرين كانوا يرون فيه عضوًا متفوّقًا ناجحًا في المجتمع القرطاجي ، لكنّ المظاهر قد تكون خدّاعة . لقد صرّح بالقول : « كنت في حياتي الماضية مرتبكًا للغاية ومحصورًا بعدد كبير من الأخطاء ، كما ان استعبادي للنقائص و الذنوب الملتصقة بي بلغ حدًا لم أعد أصدّق معه أنه في استطاعتي أن أتخلّص منها . حتى إنني في يأسي من إحراز اي تقدّم من هذا القبيل ، رحت أدلّل شروري و أتعلّق بها ، و كأنها من الممتلكات الحبيبة الى نفسي .» و أخيرًا ، إذ انعتق من تحت وطأة ضمير مثقّل بالذنوب ، دخل في سلام مع اللّه ، من جرّاء الايمان بالمسيح . إنه يخبرنا عن الفرج العظيم الذي ناله على إثر ذلك : «و لكن حين اغتسلت من اللطخات التي كانت قد علقت بي من حياتي السابقة . . . و بعد أن انسكب في قلبي نور من الأعالي . . . و عندما سُقيت روح اللّه الذي من السماء و حييت بعمل الولادة الثانية التي صيّرتني رجلاً جديدًا . . . عندئذٍ بدأت الشكوك على الفور تتبدّد

من حياتي بطريقة مدهشة و رائعة . فتشرّعت امامي الأبواب التي كانت مغلقة ، و أشرق نور في الظلمة . و ما كان يبدو صعبًا في السابق أصبح ميسوراً و سهلاً الآن . و ما ظننته مستحيلاً ، أمسى الآن من الممكن إنجازه و تحقيقه .»[1]

كان كبريانوس يملك آنذاك داراً فاخراً مع حدائق في قرطاجة . فبعد تجديده باعها لصالح الفقراء و المساكين ، الأمر الذي أدهش اصحابه . و إذ أرادوا أن يعبّروا له عن تقديرهم و احترامهم ، عادوا فاشتروا ممتلكاته هذه و أعادوها اليه . كان يملك دائمًا المقدرة على الظفر بحبّ من حوله و بولائهم ، و أن يحافظ على ذلك . و إذ كان لا يزال حديثًا في الايمان ، عُرف عنه أنه انسان ذو أخلاق عالية ، كريم و لبق . و قد كانت لديه مقدرة غريزية طبيعية على اتخاذ المواقف و القرارات الحاسمة الحكيمة . كما انه تمكّن بفضل اسلوبه اللطيف و الكريم ان يكسب لنفسه ثقة الآخرين به . و مع أنه تخلّى عن عمله القانوني ، إلاّ أن ما اكتسبه من تدريب و خبرة ساعده كثيراً على تطوّر خصاله وصفاته العالية ، تلك التي جعلت منه في ما بعد ، رجلاً فعّالاً في إدارة الكنيسة .

و مذكور عنه انه كان صاحب ذاكرة ممتازة ؛ إن وفرة الاقتباسات في كتاباته هي التي تثبّت صحة ذلك . كانت المعرفة الدقيقة لكلمة اللّه المكتوبة مفيدة جداً في تلك الأيام ، حيث كانت الكتب ضخمة و ثقيلة الوزن و منسوجة يدويًا ، و لم تكن الآيات في الكتاب المقدس قد رُقّمت بعد . و هكذا لم يكن من السهل التفتيش عن آية معيّنة في منتصف الحديث او المناقشة . لكن كبريانوس كان قبل كل شيء يسعى نحو الكمال ، و هو يجاهد بعزم وطيد للعيش على أعلى مستوى من مستويات الايمان والقداسة . كان أقصى مشتهاه ان يعيش كما عاش الرب يسوع المسيح ، و ذلك حرصًا منه على عدم استغلال محبة اللّه الثابتة من نحوه . لقد كتب : «لتكن مخافة اللّه هي الحارس و الوصي على البراءة ، لكي يكون الرب ، و هو الذي قد فاض في عقولنا برحمته السماوية ، يبقى يرغب من خلال تصرّفنا البار في ان يستمرّ ضيفًا على النفس التي تُسرّ به . و علينا ان ننتبه و نحذر لئلا يقودنا ما نحصل عليه من ضمانات الى الإهمال ، فيزحف إلينا ثانية عدونا القديم (الخطية) و ذلك على حين غرة .»[2] لم يتزوج كبريانوس قط : لقد نذر حياته لخدمة عائلة الله ، لا عائلته الخاصة .

و تكشف لنا كتاباته ما كان يتحلّى به هو شخصيًا من صبر و انضباط ، الفضيلتين اللتين كان يرغب في ان يراهما داخل الكنيسة . و هو يظهر اتّزانًا رائعًا في كل من رسائله و بحوثه ، كما ان حججه تتّصف بالوضوح . لقد كان يفضّل دائمًا ان يسلك السُبل اللطيفة التي تؤدي الى الإقناع ، على أن يسير في الطريق الخشنة ، طريق الإكراه . إنه يعير التفاصيل انتباهًا خاصًا ، و بالأخص الاسلوب . فهو يزن كل عبارة من عباراته بعناية فائقة ؛ فالحقائق التي يوردها هي صحيحة تمامًا ، كما ان استنتاجاته هي دقيقة للغاية . لقد كان افريقيًا ولادة و منشأ ، مع كونه في الوقت عينه واحداً من مدرسة الثقافة الرومانية .

كان لكبريانوس ، على الأرجح ، شعر قصير و لحية مهذّبة ، على غرار سائر الرجال في جيله . و كان يلبس زيّ ذلك العصر ، و هو عبارة عن رداء بقياس الجسم و مصنوع من الكتان ، يصل الى الركبتين ، و هو مزنّر على الخصر ، له أكمام و ياقة مزينة بضفائر مزركشة . إنه لباس يفوق في أناقته الرداء البسيط الأبيض الذي كان يلبسه الجيل السابق . أمّا في الشتاء ، فكان يقي نفسه من البرد بواسطة مرنس من الصوف الخشن . 3

بعد مضي نحو السنتين على تجديد كبريانوس ، مات ناظر كنيسة قرطاجة ، فطلب أعضاء هذه الكنيسة بإلحاح من كبريانوس ان يحلّ محلّه : و هكذا تمّ تنصيبه بعد ذلك بفترة قصيرة . إن هذا الترفيع السريع يشهد لسمعته و صيته ، لكنه لم يضمن ان يحبّب شيوخ الكنيسة به ، هؤلاء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم القادة الطبيعيين لملء هذا المنصب . و بالفعل ، فإن خمسة منهم بتوجيه من المدعو نوفاتوس (Novatus) قاوموه منذ البداية ، و اعترضوا بعنف على ترفيع شخص حديث في الإيمان الى مثل هذا المركز القيادي .

و في الواقع ، لم يكن كبريانوس نفسه يرغب في ذلك الوقت في الحصول على مثل هذا الامتياز ، كما انه كان يشعر بأنه غير جدير به . لذا فقد ارتأى بجدية و إخلاص ان يغادر قرطاجة لينعم بحياة أهدأ و أكثر استقراراً في مكان آخر ، لكنه اقتنع أخيراً بضرورة البقاء . ففي لحظات كهذه ، تكون الحياة في الميزان : إمّا الارتفاع و إمّا الانحدار . إن قراراً يتّخذه انسان معيّن ما ، قد يؤثّر في مصير أمّة بأكلمها ، او في مستقبل كنيسة ما . و غالبًا ما تأثر تطوّر تاريخ المسيحية بالموقف الذي اتخذه رجل واحد او امرأة واحدة في الساعات الحاسمة لاتخاذ القرار . كان جمهور المؤمنين العاديين في كنيسة قرطاجة هم الذين توسّلوا الى كبريانوس ليقبل بأن يقودهم ، كما انهم استمروا في دعمهم و في تقديم ولائهم له طوال فترة خدمته المليئة بالاضطرابات . لقد واجه ، بكل تأكيد ، معارضة عنيفة و كان مصدرها الشيوخ ، لا الكنيسة ككل .

لم يدم «شهر عسل» كبريانوس القصير هذا بصفته ناظر كنيسة قرطاجة ، اكثر من ثمانية عشر شهراً ، حيث كانت فترة الأربعين سنة من السلام التي كانت قد نعمت بها الكنيسة ، قد شارفت على الانتهاء ، و باتت تنتظرها ظروف صعبة . إن تلك الفترة الخالية من الاضطهادات كانت تبدو حسنة ، لكنها كانت تُخفي سيئات كثيرة . فالايمان كان قد امتدّ فعلاً و انتشر ، إلاّ انه اصبح يجمع بين انصاره العديد من الضعفاء و غير المؤهّلين . و ظهرت بعض الفضائح الشنيعة بين صفوف الكنيسة ، و شمل الأمر في بعض الأحيان قادتها . فقد اتهم بعض المسيحيين : بقضايا و ادّعاءات خادعة ، والاسراف المفرط و المباهاة بالترف . و تبيّن ان بعض الذين رُفِّعوا الى درجات قيادية لم يكونوا يعرفون الاّ القليل عن الايمان الذي يبشِّرون به ، او عن الكتاب المقدس الذي يفسِّرونه للملإ في بعض الأماكن . فتحدّث الناس عن بعض المسيحيين الذين ساوموا على الحق بعبادتهم الأوثان . كانت الحاجة ملحّة الى علاج شديد و فعّال . وكان كبريانوس يؤمن بأن اللّه هو الذي نبّهه الى أن العلاج سيأتي سريعًا . لقد تحدّث الى رعيته عن

أوقات الامتحان المقبلة ، داعيًا اياهم الى إعداد النفس لها . لذا فعليهم ان يُصلحوا طرقهم قبل فوات الأوان ، و هكذا يتخلّوا عن جشعهم و كبريائهم ، و يتركوا القَسم الكاذب والخصام مع ولعهم بالرفاهية و الترف و التنعّم ، هذه الأمور التي أدّت الى إضعاف ايمانهم وتوهينه .

و حين أشرف العام 249 م على الانتهاء ، اعتلى دكيُوس (Décius) العرش الامبراطوري . و بدأت مطرقة الأوجاع القاسية المؤلمة تسقط ثقيلةً على الكنيسة في قرطاجة . فبينما كان بعض المؤمنين يعلنون ايمانهم جهاراً في الساحات العامة ، و يقبلون ببسالة و شجاعة سفك دمائهم ، توارى كبريانوس عن الأنظار واختبأ . لكنه استمر يكتب الى الرعية على مدى سنة من الزمن ، لكي يشجّعهم على التمسّك الراسخ بالايمان ، طالبًا منهم ان يتعقّلوا الأمور و يتبصّروها بروّية ، فيتجنبوا كل ما من شأنه ان يؤدي الى إساءة غير ضرورية . و مع انتهاء ساعة الامتحان هذه ، عاد كبريانوس الى قرطاجة . لكنه كان عليه منذ تلك الساعة ان يواجه اهانات نوفاتوس وغيره من الذين اتهموه بأنه هرب على نسق الأجير الذي يفرّ مرتاعًا عندما يرى الذئب قادمًا ، فيتخلى بذلك عن قضية المسيح لكي ينجو بنفسه .[4]

و قد تولّى الكتّاب منذ ذلك الحين الدفاع عن موقف كبريانوس الحذر هذا ، فاستشهد بعضهم بما قاله المسيح : «و متى طردوكم في هذه المدينة ، فاهربوا الى الأخرى .»[5] و آخرون أكّدوا ان بقاء كبريانوس سالمًا كان من قبيل العناية الإلهية ، كما حدث للمسيح نفسه : « لم يمسكه أحد ، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد .»[6] و لربما كبريانوس نفسه كان يشعر بأن وجوده في المدينة سوف يوجّه الأنظار الى الجماعة المسيحية ، فضلاً عن انه سيسبّب لها أوجاعًا و آلامًا غير ضرورية و لا داعي لها . كما ان الحاجة اليه آنذاك لم تكن ليموت في لحظة من المجد ، بل ليعيش ويتحمّل مهمته الطويلة لتأسيس الكنيسة ، و بنائها على أسس منظّمة صلبة و قوية . لم يكن كبريانوس من صنف الذين يتراجعون امام المخاطر و الصعاب ، لكنه لم يكن في الوقت عينه من الذين يندفعون اليها و يلقون بأنفسهم فيها . لم يكن في شخصيته ، يستمتع بالاضطهاد ، او يجفل و يتراجع عندما تقتضي الحال الثبات و الجلد . كان ربما من الذين يُظهرون أنفسهم بأنهم حكماء أكثر منهم أبطالاً ، الذين يتمسّكون بالمثل القديم القائل : «ذاك الذي يحارب ثم ينكفئ هاربًا ، سيعيش ليحارب يومًا آخر ايضًا .» و لم تمضِ إلاّ ثماني سنوات من حينه ، حتى أثبت كبريانوس انه لم يكن جبانًا ، بحيث واجه استشهاده بهدوء واطمئنان كامل ، مكملاً ، في ذلك الوقت ، العمل الذي لم يباشره إلاّ عند بداية الأزمة الأولى .

أظهرت النتائج انه كان يوجد حسب الظاهر مبرّرات لهربه ، كما كانت الحال بالنسبة الى تعيينه ايضًا . هذا لأن الثمانية عشر شهراً من الاضطهاد العنيف على الكنيسة ، تركتها و هي تعاني صعوبات جمّة ، تحتاج الى معالجة موضوعية عملية بعقلية حكيمة . ففور عودة كبريانوس الى قرطاجة ، تمّ وضع خصائصه القيادية موضع التجربة بشكل مباشر ، من خلال قضيتين برزتا هناك و في كنائس اخرى من المنطقة في آن . أولاً كان هناك العديد من الرجال

والنساء الذين ثبتوا على الحق بعزيمة قويّة خلال فترة الاضطهاد . فاعترفوا بإيمانهم المسيحي ببسالة وشجاعة غير آبهين لما قد ينتج من ذلك - تعذيب ، سجون ، ثم موت - و قد تحمّلوا كل هذه العواقب من دون ان يضعفوا و يتراجعوا امامها . و عندما عبرت الأزمة ، أكرمت الجماعة المسيحية أولئك الذين نجوا إكرامًا عظيمًا . و إذ أُفرزوا من بقية الرعية ، تمّ اعتبارهم شلّة فريدة من نوعها من «المعترفين» . إن شهاداتهم العلنية التي لا تعرف الخوف جعلت منهم أبطال إيمان . كان يُنظر اليهم كرجال و نساء الروح القدس مملوئين نعمة من اللّه . كان المؤمنون يجلّون كل كلمة نطق بها اولئك ، كما انه كان لهم تأثير عظيم في أذهان المسيحيين و في قلوبهم . لقد أصبح واضحًا الآن انهم باتوا يتمتعون باحترام يفوق كثيرًا الاحترام لنظّار الكنائس الرسميين ، هؤلاء الذين أظهروا في بعض الظروف عزمًا أقلّ و تصميمًا أضعف . و هكذا بدأ العديد من المسيحيين يتساءلون عمّن هم قادتهم الحقيقيون ، هل هم اولئك الذين عيّنهم الناس ، ام انهم اولئك الذين انتصروا بقوة الله و قدرته ؟

نظر كبريانوس الى هذه القضية ببعض الاهتمام . فقد احرزت صلوات هؤلاء «المعترفين» و آراؤهم أهمية مبالغًا فيها في أذهان العديدين ، أكثر بكثير مما للإخوة العاديين الآخرين ، حتى إن بعض الناس بدأوا ينسبون إليهم قوى إلهية خاصة . و هكذا ظهرت نزعة مشوشة ، بعد أن ركّز هؤلاء المعترفون اقدامهم ، لإبعادهم عن المقاييس العادية المختصة بالانضباط والتواضع ، و التي يليق بتلاميذ المسيح جميعهم ان يخضعوا لها . و يبدو أن تقدير المعاناة الوقتية من أجل اسم المسيح ، كان في نظر الكنيسة اهمّ من تقدير الخصال الأقل إثارة و التي تدخل في تكوين شخصية ناضجة روحيًا . فأيّهما يثبت الايمان بشكل أفضل : مجاهرة سريعة بالولاء للمسيح من على المنصّات العامة ، أم سنوات من التكريس الدؤوب من أجل قضيته ؟ ايهما له قيمة أعظم في نظر اللّه : موتٌ مسيحيٌّ مجيدٌ رائع ، ام حياة مسيحية جميلة و مباركة ؟

كانت المسألة الأخرى تتعلّق بكيفية التعامل مع اولئك الذين لم يستطيعوا ان يصمدوا ، بل تراجعوا امام ضغط الاضطهاد ؛ أولئك الذين قرّبوا التقدمات للأوثان و أنكروا ايمانهم . لقد اعتبروا انفسهم انهم سقطوا في غفلة من الزمن ، كما حدث لبطرس في دار رئيس الكهنة ، والآن يريدون ان يُعاد قبولهم كبطرس ايضًا . و إذ يُظهرون درجات متفاوتة من التوبة و الندم ، يسألون إن كان قبولهم من جديد ممكنًا في صفوف الكنيسة . كما ان بعضهم قد حصل من أحد «المعترفين» على «شهادة سلام» تخوّله العودة او تطالب له بها . هذا لأن عددًا كبيرًا من الناس كانوا يعتقدون ان «المعترفين» قد ضمنوا لأنفسهم الدخول الى ملكوت اللّه بشرف عظيم ، حتى إنه اصبح بوسعهم ان يعملوا كوسطاء لحماية اخوتهم الضعفاء ، و لقيادتهم الى الأمان الروحي . و هكذا راحوا يمنحون شهادات جاءت متنوعة في مضمونها ، الأمر الذي ولّد شكوكًا . فبعضها كانت غامضة في شموليتها : «ليُسمح لهذا الانسان و أتباعه بالاشتراك في العشاء الرباني .» أمّا بعض الشهادات الأخرى ، فكانت أكثر تحديدًا و حصرًا .[7]

واجه قادة الكنائس مأزقًا حرجًا : كان عليهم إمّا ان يقرّوا بهذه الشيكّات المسحوبة على حساب مصرف «المعترفين» الروحي ، و إمّا ان يرفضوها . فإذا ما قبلوها فإن ذلك قد يعني أنهم لم يستنكفوا من التجديفات التي يتفوّه بها هؤلاء الذين يبرزون الآن الشهادات . أما في حال رفضها ، فقد يُعتبر ذلك طعنًا بالمعترفين الذين كانوا مكرّمين عند الجميع .

لم تكن هذه القضية هي الأولى من نوعها . فقد سبق لترتوليانوس ان عالج ، بأسلوبه الذي لا يقبل المساومة ، أوضاعًا مشابهة ، و ذلك على اثر الاضطهادات السابقة . لقد اعتبر ترتوليانوس أنه لا يحقّ للمعترفين ان يغفروا ذنوب الناس ، و لا ان يتدخلوا في التأديب الكنسي . فبعض معاصريه ، من الذين طردهم قادة الكنيسة ، قصدوا الزنزانات ليطلبوا السماح والمغفرة من المعترفين . فردّ ترتوليانوس على هذا بتهكّم : « ان اولئك المتحمّسين جدًا للاتصال بالسجون ، هم أولئك الذين فقدوا حقّهم في الدخول الى الكنيسة .»[8] و لكن ، «حتى و لو كان الشهيد متأكّدًا من استشهاده الوشيك ، و لو كان السيف مسلّطًا على رأسه ، و حتّى لو تمّت عملية مدّ جسده على الصليب ، أو رُبط الى عارضة ليكون فريسة سهلة للأسود ، او الى دولاب تستعر تحته النيران ، فعلى الرغم من هذا كلّه ، فمن يسمح لمجرّد إنسان ان يسامح عن خطية . وحده اللّه يقدر على ان يغفرها ؟»[9]

إن بعض المعترفين ، كانوا في الواقع قد أُودعوا السجون لفترة قصيرة جدًا . كانت معاناتهم أقلّ نسبيًا من معاناة إخوتهم الذين خدموا اللّه ليل نهار بإخلاص كبير خارج جدران السجون . «أمّا بالنسبة اليكم ، فقد منحتم هذه القوّة كاملة لشهدائكم ،» ثم أردف ترتوليانوس يقول مؤنبًا : «ما إن " يعترف " أيّ واحد منكم ، و يتحمّل من جراء ذلك قيوده الخفيفة بهذا الشكل الجديد من الوصاية ، حتى يستقطب حوله للوقت جمهوراً كبيراً من الزناة و الفاسقين .»[10]

وُجد في كنيسة قرطاجة بعض الناس الذين وسّعوا نطاق حجّة ترتوليانوس هذه ، فجادلوا ضدّ قبول اي ممن قرّب التقدمات للأصنام ، و ضدّ جميع الذين لعنوا المسيح . و هكذا اعتبروا ان التأديب كما ينصّ عنه العهد الجديد ، يقتضي إبعاد هؤلاء عن الكنيسة بشكل ثابت و دائم .[11] أمّا غيرهم فأصرّوا على أن تُعتمد سياسة سمحة و نبيلة لتسوية هذا الخلاف . كان يقود هؤلاء القوم نوفاتوس ، و هو الشيخ الذي كان قد اعترض بشدّة على كبريانوس في منصبه كناظر . و بعد أن أعلن رأيه في قرطاجة ، حزم نوفاتوس حقائبه ، و مضى لاستشارة كنيسة روما في الأمر . و لدى وصوله الى روما ، وجد انه لم يكن يتوافر هناك أيضًا إجماع على الرأي بشأن هذه المسألة . إلاّ ان الناظر هناك لم يكن مؤيّدًا له . عندئذ نظّم نوفاتوس حملة لتعيين ناظر آخر في روما : هو نوفاتيان (Novatien) . صحيح ان نوفاتيان كان يحمل ، على سبيل الصدف ، اسمًا مشابهًا لنوفاتوس ، لكنه أثبت في النهاية انه أشدّ تصلّبًا في مواقفه تجاه اولئك الذين ضعفوا امام التجارب و لم يستطيعوا مقاومتها . لقد فشل نوفاتوس في ان يضمن لنفسه في روما تأييدًا ثابتًا كان يأمل بالحصول عليه .

كان كبريانوس نفسه يميل في بادئ الأمر الى اتخاذ موقف صارم من اولئك الذين كانوا قد ساوموا على ايمانهم . و على غرار ترتوليانوس في قرطاجة ، و الآن نوفاتيان في روما ، رفض كبريانوس حتى اولئك الذين توسّلوا اليه طلبًا للمصالحة و هم على فراش الموت . و لكن ، كان من الصعب التوفيق بين هذه الصرامة ، و اقتناعه الخاص بأنه لا يوجد خلاص خارج عن نطاق شركة الكنيسة . كان يؤمن بأنه يوجد عند اللّه مغفرة من خلال كفارة المسيح لأي مسيحي يتوب فعلاً عن انحرافه . فإن كان قد حصل من اللّه على المغفرة ، هل يبقى بإمكان الكنيسة ان تمنع هذه المغفرة عنه ؟ طبعًا هذا لا يجوز . الى ذلك ، لقد كان عدد المسيحيين الذين ارتدّوا ، و الذين يرغبون فعلاً في العودة الى كنائسهم كبيراً جداً ، حتى إن إقصاءهم جميعهم عنها ، قد يدفعهم الى ان يقوموا بتأسيس كنيسة خاصّة بهم ؛ و إذا فعلوا هذا فإن حالتهم الأخيرة ستكون أسوأ في نظر كبريانوس من الحالة الأولى .

وجد قلب كبريانوس الشفوق في هذا ، سببًا كافيًا يدعوه إلى أخذ موقف متساهل و أكثر اعتدالاً من غيره معهم . كما ان قراره هذا أصبح حاسمًا اكثر ، و ازداد صلابة ، عندما عاد فتواجه مع بعض الذين كانوا ، وهم على فراش الموت ، يطلبون المصالحة و البركة من لدنه و ذلك قبل فوات الأوان . لقد قَبِل كبريانوس عودة هؤلاء الى جماعة الكنيسة . وقد حدث أن بعضهم شفوا من أمراضهم فوجدوا أنفسهم الآن أعضاء في الكنيسة من جديد : سقطوا ، ثم تابوا ، و أخيراً أعيدوا الى الكنيسة . و مع وجود مثل هؤلاء في وسط الكنيسة ، بات من المستحيل إقصاء آخرين ممن سقطوا مثلهم من دون أن يكونوا مرضى .

و في هذه الأثناء ، اعلن نوفاتوس و صحبه انهم يرفضون الاعتراف بسلطة كبريانوس على الكنيسة ، و صرّحوا بأنهم قد عيّنوا واحدًا منهم بديلاً له . و لمدة قصيرة ، فقد ثارت المشاعر وارتفعت حتى إنه لم يقبل بهذا الناظر الجديد إلاّ عدد قليل جداً من الجماعة المسيحية . وهكذا اخفق الهجوم في عزل كبريانوس من منصبه القيادي . و هكذا ظهرت نتائج هذه المواجهة بسرعة ، ولكن الحملة استمرت على جبهة اوسع ، و بدأت تُعنى الآن بمسألة قضايا ، لا بمسألة شخصيات .

وفي العام 251 ميلادي دبّر كبريانوس لمؤتمر يُعقد في قرطاجة لبحث المسألة . و قد طُلب من كل كنيسة في المنطقة ان تُرسل مندوبًا واحداً عنها . و بعد مداولات طويلة ، قرّر المؤتمرون انه بالإمكان إعادة اولئك الذين اكتفوا بالاستحصال على شهادات من السلطات الرومانية تدّعي أنهم قرّبوا التقدمات للأوثان ، او عمدوا الى استخدام اساليب أخرى من أجل استرضاء السلطات . أمّا اولئك الذين قرّبوا فعلاً التقدمات للأصنام ، فعليهم ان يخضعوا لعقاب طويل الأمد . كما أن المجتمعين ميّزوا بين اولئك الذين قرّبوا التقدمات بملء اراداتهم ، و أولئك الذين فعلوا ذلك تحت تأثير التعذيب و الإكراه . وكذلك بين أولئك الذين ورّطوا عائلاتهم في عملية الارتداد عن الحق ، و اولئك الذين ارتدّوا عن الايمان لكيما ينقذوا عائلاتهم . أمّا بالنسبة الى المعترفين ، فقد

دعاهم كبريانوس الى تحديد اسماء الأشخاص الذين يوصون بإعادتهم الى الكنيسة ، مع الحرص على أن يقتصر ذلك على الذين برهنوا توبتهم الصادقة ، و الذين عزموا على اتخاذ مواقف حازمة اذا ما عادت مثل هذه الظروف الى الظهور من جديد . و في الحقيقة ، كان كبريانوس يميل الى اهمال امر الشهادات هذه بشكل كلّي ، على ان تُعالج كل حالة بمفردها و على حدة ، إذ يقوم ناظر الكنيسة بالبحث عن علامات للتوبة و الندم المخلص قبل السماح بإعادة قبول المسيحي . أمّا قادة الكنيسة الذين سقطوا ، فلم يكن يُسمح لهم بأن يعودوا ويتحمّلوا أيَّ مركز او مسؤولية في الكنيسة .

و بعد سنة من ذلك ، اي في العام 252 م ، عُقد مؤتمر آخر في قرطاجة . كان آنذاك الامبراطور الجديد غَالّوس (Gallus) يهدّد و يتوعّد بأنّه سيجدّد الاضطهادات و الملاحقات ضدّ المسيحيين . و أمام هذا الخبر ، اضطرب العديدون من أولئك الذين كانوا قد ارتدّوا عن المسيحية في المناسبة السابقة ، و جاءوا الى كبريانوس مذعورين ، و سألوه كيف سيكون بوسعهم ان يقفوا صامدين و يثبتوا كمسيحيين مؤمنين بعد أن حُرموا من شركة الكنيسة ، و من بركة العشاء الرباني . لذا قرر المؤتمرون ان يكونوا اكثر مرونة و تساهلاً فأقرّوا ما يلي : إعادة جميع التائبين الى الكنيسة فوراً مع الحثّ على المزيد من الثبات في المستقبل . و لكن الامبراطور غالوس هذا ، مات قبل ان يتمكّن من وضع تهديداته موضع التنفيذ .

و هكذا يتبيّن لنا ان هذه المسألة ، التي هي موضوع الجدل ، لم تقتصر على افريقيا وحدها . ففي روما ، رفض النوفاتيون الاشتراك في العبادة هناك مع مسيحيين كانوا قد أنكروا الرب ، وبالتالي اقترفوا ، في ظنهم ، الخطيئة التي لا تُغتفر.[12] و عليه ، فقد شرعوا في تأسيس كنائس جديدة خاصة بهم . ثم «راح النوفاتيون يلقّبون أنفسهم " بالأطهار " . و قد ترابط موقفهم هذا مع توقير عظيم خاص للكتاب المقدس . كما ادّعوا انهم الكنيسة " الانجيلية " .»[13] و بعد وفاة نوفاتيان بفترة طويلة ، بقيت هناك في روما كنيسة منفصلة ، تخصّ المجموعة التي تحمل اسمه . و قد توسّعت هذه الكنيسة الخاصة بالنوفاتيين ، و شملت اجزاء كثيرة من الامبراطورية ، و من ضمنها افريقيا الشمالية حيث من المحتمل ان يكونوا قد اندمجوا و توحّدوا مع مَن بقي من المونتانيين .[14] و هم ، كالمونتانيين ، لم يقبلوا في كنائسهم سوى أولئك الذين يمكن اعتبارهم تلاميذ جدّيين للمسيح .

إذاً ، من الواضح انه أصبح يوجد الآن في افريقيا الشمالية مجموعات كثيرة من المسيحيين ، يبشّرون و يعلّمون باسم يسوع من دون ان يكون عندهم اي ولاء للكنيسة الكاثوليكية الرسمية في قرطاجة ، تلك الكنيسة التي كان كبريانوس ناظرها . إن أقدم نص مكتوب استُعمل فيه المصطلح «الكنيسة الكاثوليكية» ورد في الرسائل التي كتبها إغناطيوس قائد كنيسة انطاكية نحو العام 115 م . كان اغناطيوس يقصد بهذا المصطلح الكنيسة العامة التي تشتمل على كل المسيحيين في جميع أنحاء العالم . كما انه كان يسلّم جدلاً بأن أعضاء الكنائس المحلية هم

مشمولون فيها . إلاّ أن كبريانوس ، واجه بعد قرن و نصف القرن من هذا التاريخ ، حالة مؤلمة وأكثر تعقيداً ، بحيث ان الرابطة القديمة التي كانت تجمع بين الكنائس ، و التي عبّر عنها باسم «كاثوليكية» ، لم يعد يضم جميع الذين يعتبرون انفسهم مسيحيين . و هكذا ، لم تعد الكنيسة الكاثوليكية ، كاثوليكية في الواقع [15]. لقد تحوّلت في عصر كبريانوس ، و بالرغم من أسفه الشديد على ذلك ، الى واحدة من مجموعة من الطوائف المتعدّدة ، على انها كانت الأكبر بينها .

ذلك كان السبب وراء المشكلة الثانية التي واجهته : إنْ كان يجوز قبول أعضاء من مجموعات مسيحية أخرى و اعتبارهم إخوة في المسيح . هذا لأن كثيرين كانوا قد اعتمدوا في ذلك الوقت على أيدي المونتانيين او النوفاتيين او آخرين سواهم ممن كانوا خارج نطاق الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . و قد برز السؤال التالي : هل ان معمودية هؤلاء مقبولة ام لا ؟ هل هم مسيحيون حقيقيون أم لا ؟ رفض كبريانوس القبول بأن المسيحي المخْلص يقدر ان يطلب الانفصال عن جسم الكنيسة الكاثوليكية العالمية القديمة . إنّ مثل هذا العَمل لا يمكن ان يكون إلاّ انتحاراً روحيًا . و هكذا اعتبر ان جميع الذين ليسوا اعضاء في الكنيسة الكاثوليكية ، ليسوا بمسيحيين على الإطلاق ؛ لقد عزلوا انفسهم عن مواعيد المسيح ، كما انه لا يمكنهم أبدًا ان يرثوا الحياة الأبدية .

استحوذت هاتين المناظرتين العظيمتين على اهتمام كبريانوس في أثناء فترة العشر سنوات التي قضاها كناظر لكنيسة قرطاجة . و هكذا تمكّن في معرض معالجتهما من تطوير نظريته حول الكنيسة وخدمتها . يوجد من أيّدوا تصوّر كبريانوس هذا ، بينما حاول آخرون ان ينتقدوه ، لكن لا يستطيع احد ان يُنكر اي تأثير كان له في كل جيل منذ ذلك الحين .

* * * * * * * * * * * * * * *

لكن كبريانوس لم يُتح له ان يتأمل في هذه القضايا و المسائل في جوٍّ من العزلة الأكاديمية . هذا لأن خطراً عظيمًا من نوع آخر كان يزحف و يتقدم بسرعة نحو حدود إفريقيا الشمالية . فالطاعون الذي كان قد شقّ طريقه عبر اثيوبيا و أجزاء من مصر ، وصل أخيراً الى قرطاجة في العام 252 م .

ألقى معظم الوثنيين باللائمة على المسيحيين ، و اعتبروهم مسؤولين عن ابتلائهم بهذا الوباء الوبيل ، الذي هو في نظرهم عقاب الآلهة الغاضبة ، و تأديب سببه سياسة التسامح الديني العام مع الإيمان المسيحي الذي حلّ الى حدّ كبير محل الآلهة الافريقية و الرومانية . و قد بدأ الوثنيون ينظرون بغضب شديد الى تلك الجماعة التي كانت تنمو بسرعة في وسطهم ، و التي دارت ظهرها للسبل القديمة في العبادة ، و قاومت بازدراء القوى القديمة . و عليه ، فقد بات على الكنائس ان تتحمّل ، فضلاً عن مآسي الطاعون ، تهديدات اولئك الذين حمّلوهم مسؤولية ذلك . احتمل المسيحيون مآسي المرض و الموت التي نتجت من هذا الوباء ، و فوق هذا كله كان عليهم ان يواجهوا الشغب والأذى و الدمار و سفك الدماء على أيدي غوغائيين رعاع جُنّ جنونهم بسبب الكارثة التي حلّت بهم .

و في هذه الأثناء ، صارت شوارع قرطاجة الخربة ميدانًا آخر لإظهار المحبة المسيحية . كان المؤمنون يهتمون بكل حنان بإخوتهم و أخواتهم الذين كانوا قد شارفوا على الموت . و هكذا بذلوا قصارى جهودهم لتسهيل معاناتهم و تخفيفها في ايامهم الأخيرة ، غير آبهين لأن يشاركوهم مصيرهم ، بل ناظرين الى الأمام وقت اللقاء معًا في حضرة المسيح . إن مثل هذا الرجاء ، لم يكن موجودًا عند الوثنيين من حولهم . كان هؤلاء ينكمشون حيال ما كان يلحق بالموتى والمائتين امامهم من تعفّن و فساد . كما انهم كانوا يرتدّون الى الوراء و يتراجعون مذعورين اذ يرون اولئك المعذّبين يصرخون عند ابوابهم الخارجية . و عبثًا كانوا يرجون من ذلك ان يتجنّبوا هذا التلوّث الخطر ، عسى أن يتسنّى لهم ان يعيشوا ، و لو لبضعة سنين أخرى في عالمهم المقفر الخرب ، إذ ليس لهم رجاء في عالم آخر أفضل من هذا .

في الواقع ، إن الصورة التي نُقلت الينا عن الوثنيين هي صورة مرعبة للغاية . إنهم يتسارعون مذعورين و يركضون من هنا الى هناك بيأس متهوّر ، لا يعلمون ماذا يفعلون او الى أين يذهبون . انهم اشبه بوكر نمل تمّ تخريبه ، فاضطرب جميع من فيه اضطرابًا هستيريًا شديدًا ، و باتوا عاجزين تمامًا عن السيطرة على أفعالهم و تصرفاتهم . كان كل واحد لا يفكّر إلاّ في نفسه فقط ، غير آبه لأصحابه المتألمين او المصابين ، او لجثث الأموات من افراد عائلته . كانت الجثث مطروحة في الشوارع و الأزقّة ، و قد تُركت لتنتن ، و هي تجمع حولها سحابة متنامية من الذباب ؛ وهناك الجرذان و الحيوانات الطفيلية الأخرى التي راحت تقرض و تقضم لحوم الجثث المنتفخة النتنة . و هكذا كانت العدوى تستشري و تنتشر في كل مكان . و الطاعون بات هو المنتصر و سيّد الموقف و المستبد الطاغي ، فهو يسحق العظماء و صغار القوم على حدّ سواء . و هو يدمّر الارستقراطيين كما الفقراء و الشحاذين ، و رائحة الموت النتنة التي تفوق الوصف ، كانت أشبه بحجاب قاتم كثيف معلّق فوق مدينة قرطاجة المنكوبة .[16]

دعا كبريانوس المسيحيين الى الاجتماع معه . فوصف لهم عوارض الطاعون ، و أخبرهم أنه عليهم ألاّ يتوقّعوا لأنفسهم أية مناعة إلهية ضدّه . كما انه حثّهم على الثقة و الايمان باللّه عندما يكونون في وسط العاصفة ، و أكّد لهم من جديد ان اولئك الذين سقطوا من وسطهم لم يهلكوا وإنما أُطلق سراحهم من أصفاد هذه الدنيا الصعبة . لقد دخل هؤلاء ، كما قال ، الى سعادة الحياة الأبدية و بهجتها . نحن لسنا كالاشرار من دون رجاء . «إن هذا الموت الجماعي هو حقًا طاعون فتّاك بالنسبة الى اليهود و الوثنيين و أعداء المسيح ، أمّا بالنسبة الى عبيد الله ، فهو خروج من العالم و انطلاق الى الخلاص الأبدي .»[17] و الآن ، و حتى في هذه الساعة بالذات ، قد يدعونا اللّه اليه لكي ندخل الى محضره ونحصل على الإرث المبارك الذي وُعدنا به . و هكذا يوبّخ كبريانوس على عدم الانسجام مع النفس الذي ينتج من اعتماد اللباس الأسود و اعتباره علامة الحزن على الموتى . فقال : «هل يجوز لنا ان نلبس ثياب الحداد السود هنا ، بينما هم يلبسون هناك في السماوات الثياب البيض الناصعة ؟ أفلا يلومنا الوثنيون عن حق ، إذا ما نحنا على أولئك الذين نصرّح بأنهم أحياء عند الله ، و كأنهم فنوا وهلكوا ؟»[18]

فعندما يكون جيراننا في احتياج ، يقول كبريانوس ، فحينذاك تُتاح لنا الفرصة العظيمة لنُظهر لهم محبة المسيح . فالوثنيون ، في خوفهم الأناني ، لا يعود يبقى عندهم متسع للتفكير في جيرانهم الذين يذوقون سكرات الموت . و لكن ، يُتوقّع من المسيحيين ان يتصرّفوا بشكل مغاير تمامًا . ليس بالأمر المدهش اذا حضرنا لمساندة اصدقائنا ، و لكن ربنا يعهد الينا ان نحسن الى الخطاة و العشارين ، و أن نحب اعداءنا ايضًا . و ماذا إن كان الوثنيون يلوموننا على ما يصيبهم من بؤس و كرب فيضيفون بذلك على أحزاننا و على ضيقنا ؟ لقد صلّى المسيح من أجل مضطهديه ، و إن كنّا تلاميذه ، ينبغي علينا ان نحذو حذوه .

ثم تابع كبريانوس حديثه ، فاقترح على الحاضرين بعض الأساليب و الطرق العملية التي يستطيعون بها ان يقدّموا يد المساعدة للآخرين ، كلّ واحد على مقدار طاقته . فالذين عندهم أموال عليهم أولاً ان يشتروا الطعام و أية ضروريات معيشية أخرى يحتاج اليها المنكوبون ، و أن يقوموا أيضًا بأي عمل آخر قد يخففون به على الآخرين معاناتهم و ضيقهم . أمّا أولئك الذين لا يملكون المال ، فقد يكون باستطاعتهم ان يخصّصوا كل وقتهم لخدمة المحتاجين ، و ذلك بروح المحبة . و عليه ، ابتدأت الجماعة المسيحية في قرطاجة بالعمل عن طيب خاطر . فاعتنوا بالمرضى ، و دفنوا الموتى ، سواء أكانوا من الوثنيين او من المسيحيين ، و ذلك بلطف مؤثّر ، كما لو انهم يخدمون المسيح نفسه . و لربما كانت هذه من أفضل ساعات كبريانوس و أروعها . ولا يمكننا فعلاً إلاّ ان نندهش و نتعجب من قدرة هذا الإنسان على إلهام الآخرين ، و حثّهم على العمل . لقد انتهت ايام المناظرات الجدلية والخلافات الشخصية و الانقسامات التحزبيّة . فأمام الاحتياجات البشرية ، نرى رجلاً مسيحيًا طيّبًا جدًا و عطوفًا للغاية ، عنده موهبة عالية في القيادة الروحية ، كما ان بركة اللّه كانت حالّة عليه .

استمر الطاعون منتشرًا في أنحاء مختلفة من العالم على مدى عشرين سنة . و على مدار الشهور الكئيبة المتوالية ، كان الوثنيون يشهدون باستمرار أعمال المسيحيين التي تنمّ عن العطف والمحبة العميقة ، بالإضافة ايضًا الى ما كانوا يتمتّعون به من سلام و اطمئنان عند موتهم . و هكذا بدأ الكثير من الناس يتساءلون عن السبب الكامن وراء هذا التصرّف المدهش . فكيف يستطيعون ان يكونوا طيّبين و محسنين بهذا الشكل مع الفقراء و الأرامل و العجزة ؟ وما الذي يجعلهم يتواضعون لدرجة الاهتمام باليتامى ، لابسي الثياب المرقّعة ، و بالعبيد أيضًا ؟ وكيف بوسعهم ان يظهروا كل هذه المحبة لأولئك القوم الذين أساؤوا اليهم و عاملوهم معاملة قاسية ظالمة ؟ و كيف لم يكن الموت يرعبهم ؟ لم ينسَ شعب قرطاجة بسرعة خدمات المحبة هذه ، و الإيمان العظيم الذي زرعه كبريانوس في قلوب الجماعة المسيحية ، و هذا ما سوف ندركه لاحقًا .

لم يكن كبريانوس حاكمًا متعجرفًا يحب أن يتسلّط على الآخرين . بل يظهر انه كان صاحب قلب واسع ، يثير محبة الأخرين له . لقد كتب الى الشيوخ و المعاونين في كنيسته

بقرطاجة يقول لهم : « منذ اللحظة الأولى التي قبلت فيها ان أقوم بمهام ناظر الكنيسة ، قررت ألاّ أفعل أي شيء من دون استشارتكم و أخذ موافقة الرعية أولاً .»[19] لقد أذعن كبريانوس على الفور للقرارات التي اتُخذت خلال المؤتمرات الأربعة التي عُقدت في قرطاجة ، و هو الذي عمل أكثر من غيره لإعطائها الإنطلاقة . كما أنه حظي بولاء كنيسته له ، إذ جعلهم يشتركون معه في صنع القرارات و المخططات . و قد كتب أغسطينوس في ما بعد قائلاً : «أنا لا أخاف من سلطة كبريانوس لأنه يطمئنني بتواضعه .»[20] وتُظهر معاملته لمناوئيه الذين جاؤوا اليه طالبين المصالحة ، رحابة صدره ، و قدرته على نسيان الصراعات و المشاحنات الماضية . فهو لا يحفظ في قلبه اية ضغينة ، كما انه لا ينزعج بسرعة من إساءات الناس له . فعندما وصلته رسالة انتقاد من كنيسة روما في أثناء فراره من قرطاجة ، أعادها اليهم و هو يدعوهم بكل لطف و كياسة إلى ان يتفحّصوا الأمر ليتأكّدوا من أنها قد صدرت فعلاً عنهم . لقد ظنّ انه يوجد جهة معيّنة عبثت بمحتوى هذه الرسالة بطريقة غير مشروعة . كذلك أرسل بيانًا مفصّلاً يشرح فيه تصرّفه .[21]

أظهرت كتاباته ، كما رأينا ، أنه كان يدين كثيراً لترتوليانوس . «ناولني المعلم ،» بهذه العبارة كان يخاطب أمين سره لكي يسلّمه احد مؤلفات ترتوليانوس . كان كبريانوس يوافق معلّمه ترتوليانوس الرأي بأن لا خلاص خارج عن نطاق الكنيسة ، و لكنه ذهب الى أبعد من ذلك في جعله كنيسة المسيح العالمية تعادل الجسم الكاثوليكي الرسمي . و من هذا المنطلق ، كانت نظريته في الكنيسة تختلف بشكل ملحوظ عن تلك التي لسلفه العظيم . و إذا ما اعتبرنا خلاصتها المنطقية ، فهي في الواقع تستثني حتى ترتوليانوس نفسه من عضوية الكنيسة و لربما من الخلاص أيضًا . لم يُشر كبريانوس قط في كتاباته الى ترتوليانوس بالاسم ، أمّا الأفكار و الإيضاحات التي تبنّاها عنه ، فقد خفّف من وطأتها و ليّنها و هذّبها ، نازعًا عنها كل ما قد يسيء بها الى الآخرين . من الممكن ان الرجلين كانا يعرفان احدهما الآخر ، إلاّ ان هذا الأمر غير مؤكّد . فقد عاشا في المدينة ذاتها ، لكن كبريانوس كان لا يزال محاميًا وثنيًا عند وفاة ترتوليانوس .

و في العام 257 ميلادية ، أصدر الامبراطور فاليريان (Valérien) مرسومًا يحظّر فيه على المسيحيين ان يجتمعوا معًا ، مهدّدًا بإنزال أشدّ العقوبات بأي من زعماء الكنيسة الذين لا يعملون بمقتضى هذا المرسوم . فأُلقي القبض على كبريانوس فور صدور هذا المرسوم ، و أُحضر للاستجواب امام حاكم مقاطعة إفريقيا . و إذ طُلب منه ان يعطي بيانًا عن نفسه ، قال بثبات : « انا مسيحي و ناظر في الكنيسة . و أنا لا أعترف بآلهة غير اللّه الحقيقي الذي صنع السماوات والأرض ، و البحر و كل ما فيها . و هذا هو الإله الذي نخدمه نحن المسيحيون ، و اليه نتضرّع نهاراً و ليلاً ، من أجل انفسنا و من أجل البشرية أجمع ، و من أجل صالح الأباطرة أنفسهم و سعادتهم .» ثم سأله الحاكم عن بقية القادة في كنيسته . فأجابه كبريانوس بلطف : «إن مبادئنا تمنعهم من ان يعرضوا أنفسهم لكم ، و أنا لا يمكنني ان أشي بهم .» «لكن ،» أردف كبريانوس يقول ، « إذا ما فتشتم عنهم ، ستجدون كلّ واحد منهم في مكان خاص .»

قرأ الحاكم امامه نصّ المرسوم الامبراطوري الجديد ، ثم أصدر الحكم بحقه : كان يجب عزل كبريانوس عن رعيّته و نفيه من قرطاجة . فاقتيد كبريانوس الى مكان قريب يدعى كوروبيس (Curubis) . كانت هذه المدينة الصغيرة و الجميلة تقع على ساحل البحر ، و يظهر ان كبريانوس قد عومل هناك باحترام و تقدير كبيرين . و غالبًا ما كان يأتي اليه أصدقاؤه لزيارته ، كما انه كتب من هناك رسائل رائعة ضمّنها مشوراته و تشجيعه لهم . لم ينسَ اولئك المسيحيون الذين أُخذوا في الوقت عينه الى أمكنة أخرى أكثر صعوبة ، أو أُرسلوا للعمل في المناجم الرهيبة والمرعبة . لقد بذل كل ما في وسعه للتخفيف من عنائهم ، فكان يرسل اليهم ، كلما سنحت له الفرصة ، المال و أموراً أخرى من شأنها ان تريحهم .

ثم بعد مرور سنة ، دُعي كبريانوس مجدّدًا الى قرطاجة ، حيث وجد انه تمّ تعيين حاكم جديد عليها . فالامبراطور فاليريان ، إذ لاحظ ان مرسومه الأول ضدّ المسيحيين لم يعطه النتيجة المطلوبة ، ألحقه بمرسوم آخر أقسى بكثير جداً من سابقه . لقد جاءت بنوده متصلّبة للغاية ، و لا مجال للمساومة عليها . إنه يحكم بالموت على النظّار ، و على سائر قادة الكنائس أجمعين . وبموجب هذا المرسوم ، تُصادَر جميع بيوت المسيحيين و حقولهم و كل ممتلكاتهم ، و من ثمّ يُبعدون من بلادهم او يُعدمون . لقد علم كبريانوس ان هذا المرسوم يعني انتهاء حياته على هذه الأرض . فألحّ عليه أصحابه ان يجد لنفسه فرصة للهرب لكي ينجو بحياته ، لكنه رفض . عندئذ سيق كبريانوس الى قصر الحاكم الذي يبعد نحو عشرة كيلومترات عن قرطاجة ، حيث سُمح لهُ بأن يتناول طعام العشاء مع بعض أصدقائه المقرّبين . كما ان العديد من المسيحيين خرجوا من قرطاجة عندما علموا المكان الذي اقتيد اليه كبريانوس ، و راحوا يراقبون القصر و يحرسونه الليل كلّه خشية ان يُعدم ناظرهم المحبوب او يُنفى بعيداً من دون علمهم .

ثم في اليوم التالي ، سيق كبريانوس الى مكان المحاكمة الذي يبعد قليلاً عن قصر الحاكم . كان متعبًا و منهوك القوى بسبب سيره تحت أشعة الشمس المحرقة . و بينما كان ينتظر وصول الحاكم الى المكان ، عرض عليه احد الحراس بلطف أن يغيّر ثيابه . شكره كبريانوس ، لكنه رفض . ثم قال : «لماذا نهتمّ بمعالجة الأمور التي ربما تكون نهايتها في هذا اليوم ؟» جلس الحاكم على مقعده ، وأمر كبريانوس ان يقرّب التقدمات للآلهة . رفض كبريانوس ذلك . عندئذ أنذره الحاكم و دعاه إلى أن يعيد النظر في قراره هذا الذي يعرّضه للمخاطر . فأجابه كبريانُوس : « لا داعي في مثل هذه القضية العادلة لإعادة النظر في الأمر .» و على أثر ذلك أصدر الحاكم حكمه بقطع رأس كبريانوس . هتف كبريانوس : «شكراً للّه !» . ثم صرخ المسيحيّون الحاضرون : «لنتقدّم جميعًا و لتُقطع رؤوسنا مع .» و لكن العسكر منعوهم من الاقتراب .

و مع اقتراب المساء ، اقتاد الجند كبريانوس الى الساحة العامة . فاحتشد جمع غفير ليحيّوا ذلك الرجل الذي استحوذ على احترامهم و على محبتهم . كما ان الكثيرين من اتباعه

تسلّقوا الاشجار ليشاهدوا ما سيحدث باكثر وضوح . صلّى كبريانوس ، و نزع عباءته ، و امر ان يُمنح العسكري الذي سينفّذ فيه الحكم خمسة و عشرين قطعة من الذهب . ربط الوشـاح حـول عيـنيه ثـم قـام اثنان من اصحابه بربط يديه . و بعد قتله ، وُضعت جثته أمام الملإ . و في تلك الليلة ، عاد مسيحيو قرطاجة وأخذوها بانتصار حاملين مشاعل موقدة ، و دفنوه في مقبرتهم . لقد كانوا يتجمعون باستمرار حول قبره ، لكي يصلّوا معًا ، حاثين بعضهم بعضًا على عدم نسيان حياة و قدوة هذا الرجل الشجاع والكريم ، وهو الذي لم يكن يكفّ قط عن الصلاة لاجلهم ، والاهتمام بهم .

وهكذا قضى كبريانوس في العام 258 ميلادي عن عمر يناهز 58 سنة . قاد كنيسة قرطاجة لمدة عشر سنوات فقط ، ولكن ما أهمّ تلك السنوات العشر و أعظم شأنها ! لقد هبّت المدينة الافريقية بجملتها لتحتفـل باستشـهـاد ابنهـا العظيـم المميـز . فـي العـام 250 م ، كـانـت الجـمـوع قـد هتفـت «ارمـوا بكبريانوس للاسود .» و الآن ، و بعد ثماني سنوات فقط على ذلك ، صاروا يشفقون عليه و يوقّرونه . كان سلوكه خلال أشهر انتشار الطاعون سببًا في كسب ودّ الجماهير و محبتهم . فهو حتى آخر لحظات حياته لم يلقَ أية اهانة او تحقير من احد . وفي هذا الوقت ، لم يعد المسيحيون مكروهين بسبب الانتقادات الكاذبة التي أثارت الشغب ضدهم في القرن السابق . شعب قرطاجة ، من مسيحيين و وثنيين على السواء ، وجدوا في كبريانوس الرجل ذا المكانة الرفيعة ، الذي قد تميّز بالحكمة واللطف ، و هو الذي كان يفضّل السلام على النزاع . إنّ الزعيم الذي يستطيع ان يحظى بحب مناوئيه واحترامهم يستحق بذلك ان تكون له مكانة رفيعة في التاريخ . إن الذين يجلّون امثال هؤلاء الرجال في حياتهم ، انما يستبقون بذلك حكم الأجيال القادمة .

و بعد مرور قرنين من الزمن تمامًا ، نجد اغسطينوس ، و في مناسبة احياء ذكرى استشهاد كبريانوس ، يعظ الجماهير الغفيرة التي احتشدت في مبنى فخم كان قد تمّ انشاؤه في الموقع الذي استشهد فيه كبريانوس . والآن ، ها قد انهارت الامبراطورية الرومانية و تقوّضت ، و اصبح حكامها الوثنيون في طيّ النسيان . امّا كبريانوس نفسه ، فيبقى نجمًا متألّقًا في تاج افـريقيا الشمالية . لم يكن كبريانوس ليفتقر الى الشرف والى اساليب الراحة حتى في آخر أيام حياته ، لكنه كان مستعدًا بملء ارادته ليتخلّى عن هذه الأمور الحقيرة ، لكي يحصل من يد مخلّصه على مكافأة اعظم وأسمى .

ملاحظات

1- Epître 1 : Ad Donatum 4 (ANF Vol. V p. 275)

2- Epître 1

3- راجع بشأن موضوع اللباس و الثياب .Hamman pp. 67 ff

4- يوحنا 12:10 و 13

5- متى 23:10

6- يوحنا 20:8

7- بإمكانك ان تحصل على نص لإحدى هذه الشهادات في (Bettenson DOTCC p. 13)

8- Ad Martyres 1

9- De Pudicita 22

10- De Pudicita 22

11- 1 كورنثوس 9:5 - 13 ؛ 9:6 و 10

12- مرقس 28:3 و 29 ؛ لوقا 12:8 - 10

13- Frend p. 128 . راجع ايضاً Frend p. 319 ؛ Monceaux Tome. II pp. 34 - 35

14- معروف عن الحركتين انهما رصّا الصفوف في فريجية (تركيا حاليًا)
(Schaff HOTCC Vol. II p. 197)

15- ان العبارة «كاثوليكي» تعني طبعًا «كلّي» أو «عمومي» .

16- Vita Cypriani 9 (ANF Vol. V pp. 270 - 271)

17- De Mortalitate 15 (ANF Vol. V pp. 469 ff)

18- De Mortalitate 20

19- Epître 5 (ANF Vol. V p. 283)

20- اقتبسها Walker (TCOSC p. 55)

21- Epîtres 2 & 3, (ANF Vol. V pp. 280 - 282)

ان المصادر الرئيسة لحياة كبريانوس و عمله هي *Vita Cypriani* بقلم أحد أصدقائه و معاصريه و يُدعى پُنتيُوس (Pontius) (الترجمة الانكليزية متوافرة في ANF Vol. V) ؛ بالإضافة أيضًا الى رسائل كبريانوس وأبحاثه (في المجلّد نفسه) . أمّا المصادر الثانوية فتشمل :

Foakes - Jackson, pp. 265 - 269; Plummer pp. 119 - 128

Schaff HOTCC Vol. II pp. 843 - 849

كما أن Frend يذكر أيضًا مراجع عديدة .

الفصل الثالث عشر

قيادة الكنائس

ان حياة كلّ من ترتوليانوس و كبريانوس تتداخلان معًا على مدى نحو ثلاثين سنة ، إلاّ انه بإمكاننا أن نرى في هذين الرجلين الشهيرين تجسيد حقبتين من تاريخ الكنيسة متتاليتين و مختلفتين تمامًا . فقد عاش ترتوليانوس في ظروف شبيهة بالعصر الرسولي ، في وقت كان المسيحيون ضمن مجموعات مرنة و ذات اكتفاء ذاتي ، على شاكلة الكنائس المذكورة في العهد الجديد . بالمقابل ، كان كبريانوس أول نصير عظيم للمثال الكاثوليكي الجديد للإدارة الكنسيّة و الذي اصبح متداولاً خلال الأجيال التالية . رأى ترتوليانوس في الكنيسة اخوية عالمية شاملة تضمّ كل المؤمنين بالمسيح من دون تمييز . امّا في مفهوم كبريانوس ، فالكنيسة اصبحت مجتمعًا منظمًا يتكوّن من مجموعات معتمدة ، و تخضع لسلطة تنظيمية مركزية .

اذًا ، شهد القرن الثالث نقطة تحويل الكنائس المستقلة الى « الكنيسة الكاثوليكية» ، وإدماج الجماعات المسيحية المحلية في مؤسسة منظمة عالميًا . و في هذا الوقت ايضًا ، تخلّت العبادة المسيحية عن عفويتها الجماعية الأصلية ، حيث باتت القيادة في كل كنيسة محصورة بناظر واحد فقط . وكبريانوس نفسه ، كما سنرى لاحقًا ، كان نبراس هذه التطورات في إفريقيا .

عاشت الكنائس الصغيرة و المشتتة هنا و هناك ، في زمن الرسل و القرن التالي ، وهي تنتظر وتتوقّع بثبات رجوع الرب يسوع و نهاية العالم . كانوا يعالجون بسرعة اية مشكلة كانت تطرأ ، وكل قضية بحسب استحقاقاتها و بموجب مبادىء الكتاب المقدس البسيطة التي تنادي بالمحبة والحق . لم يكن التنظيم الخارجي بالأمر الهام في ذلك الوقت ، لأنه كان لكل كنيسة قادتها المعترف بهم ، و هكذا لم تكن تحتاج الى أية سلطة أخرى أو سلطة عُليا عليها . و من الناحية العملية ، بقي التعليم المسيحي و اسلوب العبادة وطريقتها في كنائس آسيا و اوروبا وإفريقيا متشابهين جدّا . و هذا يرجع بكل بساطة الى كون كل كنيسة تستمد توجيهاتها من الكتاب المقدس نفسه و من التقاليد و الاعراف المعروفة عند كل واحد التي تسلموها من الرسل ، و ليس لأنهم قرروا عنوةً العمل بشكل متطابق .

إلاّ انه مع نهاية القرن الأول ، ظهرت قوى جديدة راحت تعمل و تضغط بشدّة على الكنائس في جميع انحاء العالم . و هكذا برز خصمان مشتركان ساعدا كثيرًا على جذب

الكنائس بعضها الى بعض : الاضطهاد من الخارج و التعاليم المضلّة من الداخل . ان ما نتج من جراء ذلك من توترات و هواجس ، حتم على الجماعات المسيحية ان تكون على اتصال وثيق بعضها ببعض . فإذا ما بدأ احد الإخوة مثلاً ، في كنيسة ما ، بعرض تعاليم يعتبرها الآخرون مضلّة ، سيكون من الطبيعي أن يلجأوا الى اصدقائهم في المدينة المجاورة للاستعانة بمشوراتهم . و إن بات من الضروري فصل احد الإخوة المبتدعين عن عضوية الكنيسة ، فقد كان من الحكمة تحذير بقية مسيحيي المدن المجاورة حتى يكونوا على علم بالأمر ، وحتى يمكنهم اتخاذ أية خطوات يجدونها مناسبة في هذه الحال . و بصورة عامة ، فالقرار الذي تتخذه احدى الكنائس ، يكون مدعومًا و مؤيّداً من بقية الكنائس المجاورة ايضًا . و مع مرور الوقت ، و مع تزايد الاتصال بين الجماعات المسيحية ، بدأت الكنائس ذات النفوذ الأكبر - كنائس قرطاجة و روما مثلاً - تعتمد على خضوع و قبول الكنائس الاخرى لها بالنسبة الى اية قرارات قد ترتئي اتخاذها . و هكذا نرى العلامات الاولى للقيادة الهرمية التي تطوّرت أخيراً تحت شكل الكنيسة الكاثوليكية .

وفي ساعات المحن والمضايقات ، و اذا ما ظهرت بوادر الاضطهاد في مدينة ما ، وجد بعض المسيحيين أنه من المناسب الانتقال الى مناطق اخرى لفترة زمنية معيّنة ريثما تزول هذه الجلبة وتتلاشى رويداً رويداً . لذا نجد ان المؤمنين في افريقيا الشمالية كانوا يُدفعون دفعًا للانتقال من مكان الى آخر ، تمامًا كما حصل في فلسطين عندما تشتت المسيحيون بعد حادثة استشهاد استفانوس[1] . كانوا يقصدون بيوت الإخوة و الأخوات في الأماكن الأكثر امانًا ، لكي يجدوا هناك التغذية والتشجيع . امّا اولئك الذين استحسنوا البقاء في اماكنهم ، معرّضين انفسهم بذلك لفقدان املاكهم و مصادر معيشتهم ، فكانوا أحيانًا يحصلون ايضًا على العطايا والهبات من مأكل وملبس ، مصدرها الجماعة المسيحية في المدينة أو القرية المجاورة ، أو حتى من أماكن بعيدة ايضًا . فالمؤمنون الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد في ليون و فيَان ، في فرنسا ، ارسلوا بيانًا بمعاناتهم وعذاباتهم ، حتى الى حدود المناطق الشرقية البعيدةَ في آسيا وفريجية ، هذا على اعتبار أن الكنائس هناك ستهتمّ بأمورهم ، كما انها ستهبّ لمساعدتهم ضمن امكانياتها . و هكذا راحت مثل هذه الضغوطات - من الخارج و من الداخل - تجذب الكنائس بعضها الى بعض من أجل مزيد من التعاون المتبادل في سنوات السّلم ، كما في أزمنة الضيق .

ومع هذا ، كانت الكنائس المحلية لا تزال مجموعات مستقلة من المؤمنين ، تربطها روابط المحبة والاحترام المتبادلين . كانت الجماعات المسيحية تستمتع بجو من البساطة و اللارسمية نفسها التي كانت مقبولة و حسنة في أعين الرسل في القرن السابق ، و في نظر الروح القدس الذي كانوا دائمًا يسترشدونه . كانت الكنائس الأولى تتمتع حقًّا بحرّية روحية مميّزة و رائعة : كان الجميع يجدون الفرص و المناسبات ، بحسب قيادة الروح القدس ، ليشاركوا في حياة المجموعة المسيحية و في اجتماعاتها . و يخبرنا الرسول بولس عن الجماعات المسيحية التي يعرفها قائلاً : « و لكنه لكل واحد يُعطى اظهار الروح للمنفعة فإنه لواحد يعطى بالروح كلام حكمة . ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد . و لآخر ايمان بالروح الواحد . و لآخر

مواهب شفاء بالروح الواحد . و لآخر عمل قوات و لآخر نبوة و لآخر تمييز الارواح ولآخر انواع ألسنة . و لآخر ترجمة ألسنة . و لكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسمًا لكل واحد بمفرده كما يشاء . »[2]

و لكن كيف يتم هذا عمليًا؟ كيف تقدر هذه المواهب الإلهية و القدرات المتنوعة و المختلفة على أن تساهم في عقد اجتماع منظّم؟ يوضح بولس ذلك بالقول : « متى اجتمعتم فكل واحد منكم له مزمور له تعليم له لسان له اعلان له ترجمة . فليكن كل شيء للبنيان . . . لأنكم تقدرون جميعكم ان تتنبأوا واحدًا واحدًا ليتعلّم الجميع ويتعزّى الجميع . »[3] لقد جعل هذا الأسلوب الرائع من الحرية و عدم التكلّف عبء المسؤولية على كل عضو من اعضاء الكنيسة للسعي الشخصي وراء الله ، و للمساهمة من كل القلب لفائدة الجميع . لقد اتيحت الفرصة أمام كل واحد للمشاركة ، وفوق هذا فقد كان من يشجّعه ويحثّه على ذلك . كانوا يتحمّلون معًا مسؤولية حياة الكنيسة ، ويُتوقّع منهم أن يطيعوا التوصية الصريحة : «بالمحبة اخدموا بعضكم بعضًا . » كذلك خاطبهم الرسول بالقول : « ولنلاحظ بعضنا بعضًا للتحريض على المحبة و الأعمال الحسنة » ؛ على ألاّ يقتصر ذلك على مرة واحدة في الاسبوع فقط ، بل بالحري « شجّعوا بعضكم بعضًا كل يوم . »[4]

بالطبع ، كان بين صفوف الجماعة المسيحية أناس زوّدهم الله بمهارات و بمقدّرات روحية واضحة . فأمثال هؤلاء الرجال و النساء هم هبة المسيح للكنيسة . « و هو اعطى البعض ، ان يكونوا رسلاً والبعض انبياء و البعض مبشّرين و البعض رعاة و معلمين . لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح . »[5] بإمكان ايّ من المؤمنين المسيحيين ان يصبو الى القيام بهذه الخدمة ، و لكن القصد من ذلك ليس تمجيد الموهوبين و الشخصيات المتسلّطة و ترفيعهم الى مستوى أعلى من إخوتهم المؤمنين الآخرين ، بل على نقيض ذلك ، كما يقول بولس ، لأن الهدف هو تدريب كل اعضاء الكنيسة بجملتهم لكي يصبحوا نافعين و فعّالين في عمل الله .

و بالإضافة الى العاملين بمواهبهم الروحية ، كان هناك رجال معيّنون « شيوخ و مدبّرون » أنيط بهم تحمّل المسؤوليات العامة المتعلّقة بنموّ الكنيسة و خيرها ، و بخاصة في مجالي الإدارة والتأديب فيها . كان دورهم حيويًا للغاية . و في معرض اختيار مثل هؤلاء الرجال ، لم يكن يُنظر الى مواهبهم المبدعة ، بقدر ما كان التشديد بالأولى على شخصياتهم التقية . و يظهر هذا بكل وضوح من لائحة المواصفات التي جعلها الرسول بولس لمن يرغب في أن يكون شيخًا او مدبّرًا .[6] عليهم ان يسهروا على ان تكون احتياجات كل فرد من أفراد الكنيسة مؤمّنة ، سواء أكانت روحية ام مادية . كان عليهم ايضًا ان يتّخذوا قرارات تتعلّق بخدمة الكنيسة ، و بأوقات اجتماعاتها وأسلوبها . كذلك كانوا يُشرفون على الاحتفالات المختصة بالزواج و الموت . كما انه يترتّب عليهم أن يشجّعوا اصحاب المواهب الروحية لكي يُحْسنوا استخدامها و يبقوا متواضعين . كان منوطًا بهم ايضًا أن يمارسوا التأديب عندما يسقط احد افراد الكنيسة في خطيّة ما . و بصفة عامة كانت على عاتقهم مهمّة الحرص على إبقاء كلّ من تعليم الكنيسة والممارسة على أساس مبادىء كلمة الله . وفي ما بعد تحمّلوا مسؤولية المباني التي تستعملها الكنيسة .

يجب أن يكون عند الشيخ معرفة عملية كافية بالكتاب المقدس . و بديهي أن الجماعات التي تسمح بالمشاركة الحرة لأعضائها ، تعرّض نفسها بذلك لخطر دخول التعاليم الكاذبة بين صفوفها . و لهذا وجب على كل شيخ ان يكون « صالحًا للتعليم » ، و أن « يعظ بالتعليم الصحيح ويوبّخ المناقضين . »[7] قد يتميّز واحد أو اثنين من الشيوخ في المهارة لتوضيح كلمة الله وتفسيرها ، بينما يمكن للآخرين ان يقضوا وقتًا أكثر في خدمة الكنيسة من نواحٍ أخرى . فقد يسهل على أحدهم ان يعمل عمل المبشّر ، إذ يتجوّل بين الناس في الاسواق والأماكن العامة لكي يقودهم الى المسيح . و قد يكون لأحدهم موهبة الإيمان العظيم ، أو الحكمة ، أو المقدرة على شفاء الأمراض . أمّا شخص آخر فقد يحسن فن تعزية الخائفين و المحزونين و تشجيعهم ، إذ يقوم بزيارتهم في بيوتهم . كان كل واحد من هؤلاء الشيوخ ، و بمعزل عن مساهمته الخاصة ، معروفًا عنه أنه بالحقيقة احد رجالات الله ، و أنه يستحق بالتالي احترام جميع الناس .

يشير العهد الجديد الى هؤلاء القادة أحيانًا كشيوخ ، و احيانًا أخرى كنظّار . لقد استُخدمت هذه التسمية الأخيرة بشكل رئيس في كنائس الأمم بينما كانت التسمية الأخرى رائجة في اوساط الكنائس التي كان اعضاؤها من أصل يهودي في غالبيتهم . و بالطبع ، فمن الممكن استبدال كلا التسميتين بما انهما تشيران الى المنصب عينه الذي كان يشغله الأشخاص أنفسهم .[8] كانوا شيوخًا بسبب أقدميتهم في الجماعة المسيحية ، كما انهم كانوا ايضًا نظارًا بصفتهم كانوا يراقبون الجماعة المسيحية ويسهرون عليها لأجل سدّ احتياجاتها الروحية . ان التسمية «شيخ» تتحدث عن سلطتهم في الكنيسة ، بينما العبارة « ناظر » تبيّن وظيفتهم و ما يقومون به من مهام .

كان النظّار في غالبيتهم يعتاشون من امتهانهم للتجارة و الحرف او الوظيفة ، و كان هذا يستحوذ على معظم أوقاتهم . و حتى في أوقات فراغهم ايضًا ، كان مَن الضروري أن يهتموا بتأمين مستلزمات عائلاتهم بالإضافة الى احتياجات الكنيسة . كانوا رجالاً مشغولين ، و بالتالي كان يناسبهم جداً ان يتعاونوا في تحمل المسؤوليات لخير الجماعة المسيحية . وكان كل واحد منهم يجد الفرصة ليساهم بحسب قدراته و كفاءاته الشخصية ، حتى إذا ما غاب لسبب من الأسباب ، ناب عنه شيخ آخر . لقد عيّن بولس وبرنابا عدداً من الشيوخ في كلّ كنيسة ، فيما كانا يسافران عبر ليكأونية و بيسيدية ،[9] كما ان تيطس ايضًا حصل على توصيات بضرورة تعيين مجموعة شيوخ في كل كنيسة في جزيرة كريت .[10] كانت مثل هذه القيادة الجماعية مسلّمًا بها جدلاً في العهد الجديد . اننا نجد العديد من الشيوخ في فيلبي ؛[11] كما انه تمّ إرسال مساعدة الى الشيوخ المسؤولين عن كنيسة اورشليم ؛[12] كذلك نجد ان كلاً من يعقوب وبطرس اشارا الى مجموعة من الشيوخ في الكنائس التي وجّها اليها رسائلهما .[13]

كان الشيوخ ، في زمن العهد الجديد ، ينمون تدريجيًا من بين أقرانهم الى أن يبلغوا مستوى من النضج يؤهّلهم لقيادة الكنيسة التي كان قبلاً عضواً فيها .[14] و هذا يعني ان اولئك الذين تمّ تعيينهم كشيوخ ، كانوا ذوي اطلاع حسن بالاوضاع المحلية و الظروف الشخصية التي عُهد إليهم

مسؤولية الاعتناء بها . كانوا يعرفون جيداً شعبهم كما ان شعبهم كان يعرفهم ايضًا . كانوا يعملون معًا في الحقول ، و يتنقلون في الاسواق عينها ؛ كانوا يتكلمون اللغة ذاتها ، ويواجهون المشاكل والصعاب نفسها . و لم يكن يؤتى برجل من مكان آخر ليتحمّل المسؤولية في كنيسة لا يعرفها . فعندما كان يذهب الرسل و الخدام المتجوّلون الآخرون أمثال بولس وتيموثاوس وتيطس لتأسيس او لمساعدة كنيسة ما في مدينة بعيدة ، لم يكونوا ليصبحوا القادة الدائمين في هذه الكنائس ، بل على نقيض ذلك ، كانوا يعيّنون شيوخًا من بين اعضائها فيعلّمونهم و يشجّعونهم ، ثم يغادرون من عندهم بعد عدّة اشهر من اقامتهم معهم أو بضع سنوات على اكثر تقدير .

كان يتمّ اختيار الشيوخ بناء على حكمتهم و على مستواهم الروحي . كان على جميع الذين يرغبون في تولّي القيادة الروحية أن يكونوا « مملوئين من الروح القدس و من الحكمة .»[15] وفي ما يختصّ بالمؤهلات الأخرى المطلوبة في القائد بحسب العهد الجديد ، فليس هناك ايّ ذكر للمستوى العلمي او للاصل العرقي .[16] و لم يكن أحدٌ ما يُقصى عن المسؤوليات الروحية بسبب خلفيته الاجتماعية الحقيرة ، و لا كان يحتاج الرجل او المرأة الى مميّزات اكاديمية لكي تمكّنهم من خدمة اللّه : فالرسل بطرس و يعقوب و يوحنا لم يكونوا على كل حال سوى صيادي سمك عاديين . و لم يكن احدهم يُعتبر أنه غير مؤهل للخدمة بسبب عرقه او مكان مولده ، شرط ان يكون عضواً دائمًا في الكنيسة التي يرغب في الخدمة فيها . ففي كَنيسة انطاكية مثلاً ، نجد خمسة قادة ، من الواضح ان اصل كل واحد منهم يرجع الى بلد مختلف : برنابا من قبرص ، وسمعان ربما من إفريقيا السوداء ، و لوكيوس من كوريني الذي يبدو أنه كان أمازيغيًا ، و مناين من فلسطين ؛ و أخيراً شاول و هو يهودي من طرسوس .[17] و لكن ، كانوا كلهم مقبولين كرجال من انطاكية ، بحيث انهم كانوا قد استقرّوا في هذه المدينة ، و شاركوا في حياتها و في تجارتها ، و يتكلّمون لغة شعبها .[18]

ليس هناك في العهد الجديد اية إشارة الى ان واحداً ، او اكثر ، من الشيوخ كان يشغل منصباً اعلى من بقية الشيوخ . بل على نقيض ذلك ، إذ كانوا يشاركون جميعهم في اتخاذ القرارات . وحتى الرسول بطرس لم يعتبر نفسه أنه اعلى مقاماً من القادة الآخرين في الكنيسة . وعندما يكتب اليهم يكتفي بالإشارة الى نفسه ببساطة على كونه الشيخ رفيقهم ، فلا نجد أنه يأمرهم ، لكنه يناشدهم بصفتهم مساويين له .[19] يعود تقدير قيمة القرارات الجماعية المشتركة الى زمن بعيد ، لأجل ضمان صحة القرار ولضمان تطبيقه و تنفيذه بشكل طوعي . « مقاصد بغير مشورة تبطل و بكثرة المشيرين تقوم . »[20] وهذا الأمر يصحّ على الكنيسة كما على سائر المجالات و الميادين الأخرى ايضاً . لقد كان القادة في كل مدينة يجتمعون للصلاة ، و لطلب المشورة من أجل إتمام مسؤوليتهم المشتركة . ففي انطاكية مثلاً ، « بينما هم يخدمون الرب و يصومون قال الروح القدس : " افرزوا لي برنابا و شاول للعمل الذي دعوتهما اليه ." »[21] حينئذٍ وضعوا جميعهم عليهما الأيادي ثم اطلقوهما للتبشير بالانجيل في ديار اخرى .

كان يساعد الشيوخ مجموعة من المدبّرين و يطلق عليهم احياناً التسمية « شمامسة » . في العصر الرسولي ، كان المدبّرون يهتمون بشؤون عملية كتوزيع الطعام للأرامل . ثم راحوا

في ما بعد يعنون بصيانة المباني و الأثاث و الكتب التي تخص الكنيسة ، و كذلك مقبرتها . وقد يضم هؤلاء المدبّرون بين صفوفهم نساء ايضاً مثل فيبي التي خدمت الكنيسة في مدينة كنخريا القريبة من كورنثوس،[22] كما ان نساء أخريات أمثال بريسكلا كان لهنّ قدر عظيم وكنّ مباركات في عمل الرب من دون ان يكون لهنّ ، بحسب الظاهر ، أي مركز رسمي في الكنيسة .

وعليه ، فمن الواضح ان القيادة الروحية في زمن العهد الجديد ، كانت تتطور في داخل كل كنيسة محلية ، متخطّية كل الحواجز العرقية و الحضارية و الثقافية . كانت كل مجموعة محلية يقودها عدد من النظّار او الشيوخ ، الذين كانوا يشاركون معًا في مجالات اتخاذ القرارات والادارة و عمليات التأديب فيها . و لكن الخدمة المسيحية لم تكن محصورة بهم وحدهم ، لم يكونوا بأي حال من الأحوال هم الوحيدين الذين يشاركون في اجتماعات الكنيسة . هذا لأنه يوجد متّسع من الحرية امام كل مؤمن حقيقي للمساهمة في الخدمة و لتنمية مواهبه الروحية التي يمنحه اياها اللّه لفائدة الجميع . لقد عمل هذا النظام بشكل فعّال ، و هكذا باتت كنائس القرن الأول ناجحة للغاية ، و كان تعليم المؤمنين و كرازتهم حيويين و مثمرين ، وهكذا تمكّنوا ، بفضل ما اتّصفوا به من مرونة منطلقة ، من أن يحملوا بسرعة الأخبار السارة عبر عالم البحر الأبيض المتوسط آنذاك .

كان الاتجاه نحو هيكلية اكثر صرامة ، و ترفيع احد الشيوخ او النظّار الى مرتبة أعلى من زملائه الآخرين ، يتطوّران ببطء في البداية . ففي الرسالة التي كتبها اقلمندوس في العام 96 بعد الميلاد الى كنيسة كورنثوس ، لم يتحدّث بشكل بارز عن المواهب الروحية ، كما هو الحال في رسالة بولس الى هذه الكنيسة عينها . إلاّ أن حديث اقلمندوس عن قيادة الكنيسة يبيّن أنه لم يطرأ عليها أية تغييرات أساسية في الوقت الذي كتب فيه مع نهاية القرن الأول . فهو يتكلّم عن مدبّرين ، كما هو متوقّع ؛ و في اشارته الى النظّار و الشيوخ ، يلفتنا كونه لا يجعل أي فارق بينهما ، كما هو الحال في طريقة استخدام العهد الجديد لهاتين العبارتين . كتب اقلمندوس باسم كنيسة روما لكنه لم يضمّن رسالته اي تلميح على أن هناك من يعتبره الناظر الوحيد او الرئيس في تلك المدينة ، كما انه لم يشر قط الى اي ناظر معيّن ومحدّد في كورنثوس . ان الكتاب المسمّى «ديداكي» (Didache) ، و الذي يدّعي تقديم عرض لتعليم الرسل الاثني عشر ، كانت كتابته قد تمّت في مصر او في سوريا على الأرجح ، وذلك نحو عشر سنوات أو عشرين سنة بعد رسالة اقلمندوس . يتحدّث هذا المستند بوضوح عن القيادة الجماعية التي كانت سائدة في الكنائس خلال تلك الحقبة ، كما انه يوجّه المسيحيين قائلاً : «اختاروا لأنفسكم نظّاراً ومدبّرين كما يحق للرب .»[23]

إلاّ انه ، و منذ ذلك الوقت ، بدأ شيء من التغيير يظهر اكثر فأكثر . و كان تقدّمه أسرع في بعض المناطق أكثر من سواها . لقد كتب إغناطيوس الذي من انطاكية في نحو العام 115 ميلادي يحثّ كنائس آسيا الصغرى (تركيا) على إطاعة « الناظر الوحيد » الذي كان قد تم تعيينه في كل مدينة .[24] قد نستكشف من تكراره لهذه التوصية لهم ، احتمال وجود بعض المقاومة من جانبهم لهذا النموذج او الشكل الجديد من القيادة الكنسية ، الاّ ان هذا ليس بالأمر

الواضح و المؤكّد . الى ذلك ، يبدو أن هذا الاسلوب لم تتعمق جذوره بهذه السرعة في كل مكان ، حتى و لا في آسيا الصغرى نفسها . و نحو عام 150 م ، كتب پوليكارپوس من مدينة سميرنا ، و هي إحدى المدن الرئيسة في المنطقة ، مشيراً الى نفسه كأحد الشيوخ . و لم يشر قط الى الناظر الأوحد ، لا في مدينته و لا في كنيسة فيلبي التي وجّه إليها رسالته .[25]

وفي العام 138 يخبرنا يوستينوس الشهيد ، عن شخص قاد اجتماع العشاء الرباني في كنيسة روما ، لكن لا نعرف إن كان هو نفسه المسؤول عن ادارة الكنيسة . كما انه لا يتضح لنا من كلام يوستينوس ان كان الشخص نفسه هو الذي يقود باستمرار خدمة العشاء الرباني .[26]

و لكن في أواخر القرن الثاني ، بدأ الشكل الأصلي الاول للقيادة المسيحية يتطوّر في معظم الاماكن . فنجد ترتوليانوس يشير في ذلك الوقت الى نظام خدمة ثلاثي قائم في كنائس إفريقيا : نظّار ، شيوخ ، و مدبّرين . أمّا في الكنائس الكبيرة في اماكن اخرى ، فنجد تقسيمات اضافية من صنف «مساعدي المدبّرين » ، و « القرّاء » ، و هكذا نبدأ نشهد تحوّلاً واضحًا نحو تطوّر نظام هرمي . ويخبرنا المؤرخ الكنسي الشهير يوسابيوس أنه كان في روما ، قرابة العام 250 م ما لا يقلّ عن ستة واربعين شيخًا ، و سبعة مدبّرين ، و سبعة مساعدي مدبّرين ، واثنين واربعين خادمًا ، و اثنين وخمسين خادمًا لطرد الأرواح الشريرة ، بالإضافة الى مجموعة من القراء و البوّابين ، و جميع هؤلاء كانوا يتقاضون أجورهم من الكنيسة . كما ان كنيسة روما آنذاك ، كانت تقدّم المساعدات لاكثر من ألف و خمس مئة ارملة و محتاج . كان عدد المؤمنين في روما يقدّر بما مجموعه 50 000 مؤمن ، كانوا يجتمعون على الأرجح في عدّة اماكن مختلفة .[27] فليس من الصعب ان تتصوّر ضخامة العمل الإداري المطلوب لتنسيق كل هذا النشاط . وهكذا نجد كيف ان الكنيسة راحت تولّي بشكل متزايد اكثر الرجال اقتداراً من قادتها ، على مهمة مراقبة هذه الشؤون الإدارية المعقدة . فأخذ هذا الرجل رويداً رويداً دور الناظر الرئيسي في الكنيسة ، الأمر الذي حتم عليه ان يتخلّى عن تجارته او وظيفته ، ليخصص وقته الكامل لعمله الكنسي .

قد يكون القانون الروماني هو الذي شجّع الاتجاه الى حصر القيادة الكنسية في رجل واحد ، بحيث أن هذا القانون كان يتطلب من كل هيئة او جماعة ان يكون لها ناطق باسمها مسجّل رسميًا في الدولة . ان الشيخ المختار الذي يكون ممثل الكنيسة الرسمي ، سيكتسب بالطبع اهمية خاصة داخل الكنيسة . و مع حلول منتصف القرن الثالث للميلاد ، بات لدى العديد من كنائس افريقيا الشمالية قائد من هذا الصنف .

إن النزعة لترفيع شخص واحد في كل كنيسة ، تمّ ترسيخها اخيراً بشكل رسمي خلال النصف الأخير من القرن الثالث . و في هذه الفترة بالذات ، نظّم كبريانوس وأعدّ لسلسلة المؤتمرات التي كان لها تأثير فعّال في تطوّر الكنيسة في المستقبل . لقد وفّرت هذه المؤتمرات الفرصة امام قادة جميع الكنائس ، ومن مناطق مختلفة ، للاجتماع معًا لبحث القضايا التي تهمّهم جميعهم والاتفاق حولها . كانت هذه المؤتمرات تُعقد في موقع مركزي ؛ و بالنسبة الى افريقيا ، فغالبًا ما كان يحصل ذلك في قرطاجة . كان على كل كنيسة محلية ان ترسل ممثلاً خاصًا عنها ، و بعد ان تختار احد شيوخها لهذه المهمة الحيوية ، كانت تنتظر عودته بشوق لينقل اليها مقرّرات المؤتمر . أمّا النتيجة

الحتمية لذلك ، فكانت ترفيع ذلك الشيخ واعتباره أعلى مكانة من زملائه في الكنيسة ، هذا لأنه كان بإمكانه وحده ان يؤثر في القرارات التي تصدر عن المؤتمر ، كما انه وحده كان ينقل الى كنيسته وجهات نظر القادة و آراءهم من اماكن اخرى . و على هذا الأساس تمّ ترسيخ رجل واحد كالقائد الفعّال في الكنيسة و بشكل دائم ؛ و بات معروفًا بأنه ناظر الكنيسة او «اسقفها » . و منذ ذلك الوقت نجد اكثر فأكثر كيف ان التعليم و الامور الادارية في الكنائس المحلية قد جُعلت في عهدة هذا الرجل الواحد . و بذلك بدأنا نحيد بخطى سريعة عن بساطة العهد الجديد في القيادة المشتركة و المساهمة العامة في الخدمة .

كان كبريانوس في الواقع ، هو المحامي الأعظم عن « خدمة الرجل الواحد » ضمن بيئة إفريقيا الشمالية . و هكذا نجده يستند الى تشابهات خيالية لدعم موقفه هذا من الكتاب المقدس . كأن يزعم مثلاً انه حيث يوجد كنيسة واحدة ، وإيمان واحد ، و معمودية واحدة ، لذا وجب ان يكون هناك ناظر واحد لكل كنيسة . و قد رسم متوازيات صارمة بين الكنيسة و بين شعب اللّه في العهد القديم . كما ان كبريانوس غالبًا ما يشير الى الناظر في كل كنيسة بصفته « كاهنًا » . فالناظر في نظره يتشابه كثيراً من حيث المنصب مع الكاهن اليهودي الذي كان يقف وسيطًا بين اللّه و شعبه ، و يقدّم الى اللّه صلوات وتقدمات من اجلهم . كان الناظر هو « القاضي » بين شعبه ، و يستحق ان يُطاع بشكل مطلق . و المؤمنون يبدأون يستفيدون من العهد الجديد عندما يعمّدهم الناظر ، تمامًا كما سبق للعبرانيين قديمًا ان دخلوا في العهد القديم من خلال فريضة الختان . و المؤمن الذي يخطيء ثم يتوب ، لا يحصل على المغفرة الاّ اذا وضع الناظر يديه على رأس هذا الخاطي مصرّحًا له بأن خطاياه قد غُفرت . كان يُنظر الى العشاء الرباني بصفته ذبيحة مقدّسة يقرّبها الناظر لله على مذبح ، تمامًا كما كان رئيس الكهنة في العهد القديم يقدّم الذبائح بالنيابة عن العابدين .[28]

لقد اعتمد نظام كبريانوس كليًا على الخدمة الرسمية التي يقوم بها الناظر المعيّن او الأسقف ، بالنيابة عن المسيح نفسه ، و ذلك بصفته صاحب سلطة إلهية . و الحقوق التي خصّها الكتاب المقدس بالمسيح وحده ، اصبحت الآن تقدَّم بواسطة كهنة الكنيسة الكاثوليكية . و بالمقابل ، نجد بركات جعلتها كلمة اللّه من نصيب جميع المؤمنين ، اصبحت الآن حكراً على نظّار نظام كبريانوس وحدهم من دون سواهم . كان ترتوليانوس قد صرّح قديمًا بأن ابسط رداء يرتديه الفيلسوف غير المُسرف ، يصلح ككساء للمعلم المسيحي ؛ الاّ ان كهنة كبريانوس كان ينبغي ان يكون لهم ثياب مميزة تناسب منزلتهم الرفيعة .

نظر كبريانوس الى المدبّرين أو « الشمامسة » كخلفاء للاويّي العهد القديم ، إذ يساعدون الكاهن في عمل العبادة الروتيني . كان كلّ من النظار و المدبّرين ، يستحقون ان يحصلوا على دعم مادي من الجماعة ، و ذلك على غرار نظرائهم في العهد القديم . و المدبّرون ، في الواقع ، كانوا يصبحون رسميين ذوي شأن عظيم . و كانوا يعنون بالأمور و القضايا المالية والإدارية المختلفة ، و ذلك تحت اشراف الناظر . و كان عددهم عادة يبلغ سبعة ، تيمّنًا بالمدبّرين

السبعة الذين كان قد انتخبهم المؤمنون الأولون في كنيسة اورشليم لمساعدة الرسل.[29] لقد قصد كبريانوس ان يقلّل من قيمة دور الشيوخ ، إذ جرّدهم تقريبًا من كل الأعمال المهمة في الحياة الكنسية .

كان ترتوليانوس قد قَبل في البداية النزعة الجديدة الى الحكم من فوق ، مع التمييز المتزايد بين القائد و المنقادين . كان يرتاب بعض الشيء في مثل هذا الأمر ، و لكنه رأى ، أنه لربما كان ضروريًا في ضوء التعقيدات الإدارية المتنامية آنذاك . إلاّ أنه في السنوات التالية ، و بعد ازدياد تعاطفه مع المونتانيين ، صار يقيّم كثيرًا مشاركة كل عضو في جسد المسيح . إن الروح القدس ، كما علّم ، هو الذي ينبغي ان يقود الاجتماعات الكنسية ، متحدّثًا من خلال كل عضو من اعضائها لتشجيع الجميع وتعزيتهم . آمن ترتوليانوس بشكل راسخ بكهنوت جميع المؤمنين ، وغالبًا ما كان يذكّر صحبه بأن المسيح « قد جعلنا ملوكًا و كهنة لله ابيه . »[30] صان حق كل رجل مسيحي ، اذا ما وُجد في مكان بعيد عن كنيسة قائمة ، ان يعمّد المؤمنين بالماء ، و يحتفل بالعشاء الرباني ، و ان يتولّى اي عمل مخصّص للقادة . لقد صرّح قائلاً : « حيث يكون هناك ثلاثة اشخاص ، حتى و لو كانوا مؤمنين عاديين ، يوجد هناك كنيسة . »[31]

لاحظ ترتوليانوس كيف ان امر الرب بإجراء المعمودية أعطي لكل من يحمل اسم تلميذ .[32] و مع ذلك ، فلا يجوز للمؤمن ان يأخذ على عاتقه مثل هذه المهمّات بطيش واستهتار : « (بما ان فضيلتَي الاحترام و التواضع يليقان بالقادة) ، كم بالحري إذًا يجدر بالمؤمنين العاديين ان يتحلّوا بهما حتى لا يتولوا بكبرياء الخدمة التي تخص النظّار . . . فاكتفوا إذًا بممارسة حقكم هذا في حالات الضرورة فقط ، و عندما يضطركم الى ذلك ظرف معيّن ، او طبيعة مكان خاصة ، او الشخص موضوع الاهتمام . » ثم يضيف ترتوليانوس بأنه علينا ان نفحص نفوسنا . هذا لأنه يجب على المسيحي ان يكون يوميًا في حالة من القداسة و نقاوة القلب امام اللّه ، ومستعدًا لكل عمل صالح : « و هذه هي مشيئة اللّه ان نكون جميعنا في حالة تؤهّلنا لممارسة الطقوس الكنسية في اي وقت و في اي مكان . »[33] فترتوليانوس إذًا ، على الأقل ، لم تغب عنه رؤية المثال الأعلى في العهد الجديد .

و بالعودة الى العهد الجديد ، نجد أنه لا يوجد إشارة الى اية كنيسة عندها ناظر واحد وحيد ؛ ومع حلول القرن الرابع ، بالجهد كان يوجد في افريقيا الشمالية كنيسة من دون ناظر . وكان الناظر مسؤولاً عن ادارة الكنيسة و عن عبادتها الى حدّ كبير ، بالإضافة ايضًا الى شؤون التعليم و البشارة فيها . ربما يُطبّق كل هذا بشكل مُرْض عندما يكون في مركز القيادة رجال ذوو مهارة و تقوى حقيقية ، وقادرون على توزيع المهام بحكمة و فطنة ، امثال كبريانوس واغسطينوس . و لكن ما الذي يحدث اذا ما رحل الانسان العظيم ، و حلّ مكانه من هو اقل مستوى منه؟ فالنتائج قد تبرهن انها مشؤومة ، مصحوبة بكوارث ، كما ستُظهر ذلك بسرعة الأحداث القادمة .

ملاحظات

1- اعمال 1:8 , 4 , 5

2- 1 كورنثوس 12:7 - 11

3- 1 كورنثوس 14:26 و 31

4- غلاطية 5:13 ؛ عبرانيين 10:23 - 25 ; 3:13 (من ترجمة كتاب الحياة) ؛ كولوسي 3:16 , 17

5- افسس 4:11 و 12

6- 1 تيموثاوس 3:1 - 13

7- 1 تيموثاوس 3:2 ؛ تيطس 1:9

8- في اعمال 20:17 و 28 حيث الكلام عن مقابلة بولس مع قادة كنيسة افسس ، نجد أن الوحي يستخدم العبارتين بشكل قابل للتبادل ، كما هو الحال ايضاً في تيطس 1:5 - 7 .

9- اعمال 14:23

10- تيطس 1:5

11- فيلبي 1:1

12- اعمال 11:30

13- يعقوب 5:14 ؛ 1 بطرس 5 : 1 (راجع ايضاً 1 تيموثاوس 4:14)

14- اعمال 14:23 ؛ تيطس 1:5

15- اعمال 6:3 ، بالإشارة الى الرجال السبعة الذين اختيروا لخدمة الكنيسة في أورشليم . لا يذكر الكتاب في أي مكان ان هؤلاء السبعة هم « مدبّرون او شمامسة » . في الواقع ، من المحتمل أكثر أن هؤلاء السبعة كانوا يشكّلون مجموعة الرجال الذين يُطلق عليهم سفر الأعمال التسمية « مشايخ او شيوخ » (اعمال 11:30 ؛ 15:4 الخ) . هؤلاء كانوا يُعنون بقيادة كنيسة اورشليم في وقت كان الرسل يهتمون بإرساء القاعدة العقائدية للإيمان و بالكرازة بالإنجيل في كل أنحاء العالم .

(*NAPNF* Series 2, Vol. I : Eusebius *Historia Ecclesia* I I, 1:1; note p. 103)

16- 1 تيموثاوس 3:1 - 7 ؛ تيطس 1:6 - 9

17- اعمال 13:1

18- يبدو أن برنابا و شاول قصدا أن يستقرّا في انطاكية لأجل المساعدة على تأسيس الكنيسة هناك (اعمال 11:19 - 26) . و بعد أن أنجزا هذه المهمة ، انتقلا من هناك تاركين الكنيسة في عهدة القادة المحليين (اعمال 13:1 و 2) .

19- 1 بطرس 5:1 . عند زيارة بولس لأورشليم ، تشاور مع « المعتبَرين » بمن فيهم بطرس ، و يوحنا و يعقوب أخي الرب (غلاطية 2:2 و 9) . اقترح بعضهم أن يعقوب كان قائد الكنيسة في اورشليم ، لكن لا يوجد أي برهان على ذلك : فهو تجدّد حديثًا ، و لم يكن حتى من شلة الاثني عشر رسولاً الذين كانوا لا يزالون في ذلك الوقت يخدمون هناك .

كان يعقوب على الأرجح ينتمي الى مجموعة الشيوخ الذين التقوا الرسل في مناسبة مشهورة ، و ذلك لبحث أمر قبول المؤمنين من الأمم . لقد لقيت مساهمته في هذا النقاش ترحيبًا ، لكن « الرسل و المشايخ » هم الذين اتخذوا القرار . كما ان الرسالة التي تتضمّن التوصيات أرسلها « الرسل و المشايخ » ، لا يعقوب وحده (اعمال 15:6 ، 22 و 23) .

20- امثال 22:15

21- اعمال 2:13

22- رومية 1:16 - 3

23- *Didache (The Teaching of the Twelve Apostles)* 15
(*ANF* Vol. I, Staniforth pp. 72 - 82)

24- Aux Magnésiens 6, 7; Aux Tralliens 3, 7, 13 etc. (*ANF* Vol. VII; Staniforth p. 197)

25- *ANF* Vol. I p. 33; Staniforth pp. 119 - 132

26- 65 *Apologia* I: 65 (*ANF* Vol. I p. 185)

27- Schaff *HOTCC* Vol. II p. 850؛ Eusebius *Historia Ecclesia* VI, 43:11

28- *Epîtres* 9:2 ; 62:14 ; 64:1; 65:1 - 2; 67:2 etc.

29- اعمال 3:6 - 6

30- رؤيا 6:1

31- *De Exhortatione Castitatis* 7

32- بالإشارة الى متى 18:28 - 20 . كان على الأحد عشر أن يعمّدوا آخرين و يتلمذوهم ، و من ثم يعلّموهم كيف بإمكانهم بدورهم أن يعمّدوا و يتلمذوا ، و هكذا دواليك .

33- *De Exhortatione Castitatis* 7

للحصول على بحث يتناول مسألة تطوّر أنظمة القيادة ، رجاء مراجعة :

Foakes - Jackson pp. 212 - 213 ؛ Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 124 - 151
Norbie, *NTCO* pp. 39 - 40 ؛ Strauch pp. 205 - 207 .

الفصل الرابع عشر

تآخي المكبّلين

جاء اباطرة وولّى اباطرة ، فكان بعضهم ساسة ماهرين دهاة ، و آخرون سعوا في إثر الملذّات و الشهوات . كان قسم منهم منهمكين و مهتمين بإدارة شؤون ولاياتهم الواسعة والشاسعة ، و بالمقابل كان عدد آخر منهم ضعفاء أو أشراراً على كل حال . بعضهم من انتبه الى أتباع المسيح ، و بعضهم من لم يكترث . « كان أحياناً يتمّ تجاهل المسيحيين ، و احياناً أخرى ملاطفتهم ، او اضطهادهم ، و ذلك بحسب هوى ذلك العسكري الذي كان ناجحًا مؤقتًا في القبض على زمام الحكم في الامبراطورية . » [1]

في العام 253 م ، جلس الامبراطور فَاليْريَان (Valérien) على كرسي الامبراطورية خلفًا لدكيوس (Décius) المتوحّش ، وللوقت وضعَ حَدّاً لاضطهاد المسيحيين . إلاّ ان فاليريان سرعان ما ظهر عليه أنه مدمن على استخدام السحر و التنجيم . و مع تسلّمه مقاليد الحكم ، راح يقع اكثر فأكثر تحت تأثير المشيرين الذين كانوا يتعاطون امثال هذه الفنون الشيطانية . و لم تمضِ سوى اربع سنوات ، حتى اصدر مرسومًا يحظّر فيه على المسيحيين ان يجتمعوا ، مهدّداً بإنزال عقوبة الموت بأي من القادة الذي يشجّع على ذلك . و في هذا الوقت تمّ اعتقال و نفي عددٍ من النظار ، و من بينهم كبريانوس في إفريقيا الشمالية .

و بعد مرور سنة على ذلك ، اي في العام 258 م ، عاد فاليريان فأصدر مرسومًا آخر اكثر ضراوة وصرامة من الأول ، سجّل مرحلة جديدة هامة في تاريخ الاضطهادات الاولى ضد الكنيسة المسيحية . فقد تمّ إعداد جدول موسّع و لا يقبل التغيير بأنواع العقوبات التي ستلحق بكل مشايع للمسيحية او موالٍ لها . كان حكم الموت من نصيب القادة ، و لا مجال البتة لأي احتجاج . امّا بالنسبة الى المسيحيّين اصحاب المراكز الاجتماعية - ملاّكون اعضاء في مجلس النواب ، او اية شخصيات بارزة اخرى - فكانوا يجرّدون من رتبهم الرسمية ، و تُصادَر ممتلكاتهم . فإن استمرّوا في ايمانهم ، وجب عند ذاك قتلهم . كذلك يتحتّم على النساء اللواتي يملكنَ أراضي او ممتلكات ان يفقدنها ، و بعد ذلك يتمّ إقصاؤهنّ عن الامبراطورية . امّا رجال الدولة الرسميون او الموظفون الحكوميون الذين اعترفوا ، في اي وقت من الاوقات بمسيحيتهم ، فكانوا يُرسلون مقيّدين للعمل في ممتلكات الدولة .

في ذلك الوقت ، عانت الكنيسة في روما الأمرّين في ظلّ العرش الامبراطوري ، إلاّ ان ذلك لم يثبّط عزم المسيحيين قط . فبعد ان كان بعضهم قد قبعوا مدة سنة كاملة داخل الزنزانات

الرومانية ، كتبوا بإيمان متّقد الى كبريانوس في قرطاجة يقولون له : « اي نصيب هو مجيد و مبارك أكثر من ذاك الذي يمنحه الله بنعمته للإنسان أن يعترف بواسطة جسده الممزّق و روحه التي تعاني سكرات الموت ، و على الرغم من شتّى انواع التعذيب و من هول الموت نفسه ، بأن المسيح هو ابن الله ؛ فيشارك الإنسان في آلام المسيح باسم المسيح ؟» [2]

ان هذا التعبير عن الفرح في وسط الضيق ، وجد له دعمًا في تصميمهم الراسخ على الصمود مهما كلّف الثمن . « فإذا لم ترق دماؤنا حتى الآن ، فنحن مستعدون لإراقتها في اي وقت من الأوقات . صلِّ لأجلنا ايها الحبيب كبريانوس ، لكي يثبّت الرب كل واحد منّا يوميًا ويقوّينا اكثر فأكثر في شدة قوته ؛ و لكي يقودنا ، و هو الأعظم بين القادة ، الى ساحة المعركة الروحية الموضوعة أمامنا ، نحن جنوده الحاملين الأسلحة الإلهية التي لا تُقهر ، بعد ان يكون قد درّبنا و امتحننا في معسكرات المخاطر . » لقد صمدت كنيسة روما بثبات منقطع النظير خلال هذه المحنة العصيبة ، كما ان قادتها كانوا أمثلة حيّة رائعة في استبسالهم و شجاعتهم . و يظهر ان نظاراً متوالين خمسة قد استشهدوا بالتتابع في روما خلال الستّ السنوات ، في الفترة ما بين العام 250 و256م .3 كما ان الكنائس عبر البحر نحو الجنوب ، لم تكن من جهتها أقل عزمًا و تصميمًا من كنيسة روما .

عانى عدد كبير من الرجال و النساء في افريقيا الشمالية مصادرة أملاكهم و أرزاقهم ، مع الطرد والتشريد من اراضيهم ، بالإضافة الى السجن و التعذيب و الموت . و قد آثروا كل هذا على ان ينكروا المسيح بالقول او بالفعل . ان التهديدات و المضايقات لحمل المسيحيين على ترك الطريق الذي اختاروه و علموا انه حق ، باءت جميعها بالفشل . و في آخر المطاف ، قد تذعن اقلّية ضئيلة لأجل انقاذ نفسها ، و لكن عدد الذين صمدوا رافضين الإذعان ، كان كبيراً جداً بحيث ان كل تصميم على تدمير الكنيسة و القضاء عليها كان محكومًا عليه بالفشل منذ البداية . كان بالإمكان تهديد المسيحيين وحتى قتلهم ايضًا ، و لكن كل هذا لم يمنعهم من البقاء مسيحيين . حتى و لو انكر بعضهم الإيمان ، سرعان ما اكتشف قضاتهم في ما بعد أن نكرانهم هذا جاء فارغًا ، مجرد موقف ضعف آني أكثر ممّا هو تغيير قلبي . إن الموافقة تحت تأثير التعذيب ، على تقريب التقدمات للوثن ، لم تكن لتبرهن قط التحوّل الى الوثنية . و على كل حال ، رفض معظم المسيحيين بشجاعة نادرة ان يُقدموا على فعل مثل هذا . بل كانوا على نقيض ذلك ، يفتخرون ويعتزّون باعترافهم العلني بالمسيح . كانوا ينشدون الترانيم ويكرزون بكلمة الله للحشود الذين كانوا يراقبونهم و هم يخطون بافتخار الى موقع تنفيذ حكم الإعدام بهم . كان يحقّ للسلطات الرومانية ان تتساءل عن الهدف من وراء مطاردة شعب كانوا يتهلّلون فرحًا عند إلقاء القبض عليهم . فما المنفعة من قتل من كانوا يموتون مبتهجين ؟ وما الذي كانوا يجنونه من تدمير و تحطيم اولئك الذين كانوا من خلال موتهم يربحون عدداً اكبر من المناصرين مما لو كانوا بقوا على قيد الحياة ؟

و رداً على هذه القوانين الجديدة ، دعا كبريانوس المسيحيين إلى أن يتحلّوا بالحكمة وبالاعتدال . و نصحهم أن يكونوا حكماء عندما يقومون بزيارة المؤمنين في سجونهم : لقد كان من المهم عدم الإساءة الى السلطات او الى سواهم من الوثنيين ، و عدم استفزازهم بلا سبب . هذا لأنه كان هناك قسم من المسيحيين ، و بخاصة اولئك المتأثرين بالمونتانيين ، الذين قادتهم رغبتهم في نوال المجد الشخصي الى السعي للإستشهاد و الى أن يسخروا جهاراً بآلهة الوثن ، و يهينوا الإداريين الذين كانوا لا يزالون يدعمون نفوذها المتضائل . كان هؤلاء الغيورون يأملون ان يؤكدوا لمعذّبيهم أن سياسة الامبراطورية هي سياسة فاشلة ، و لكن كبريانوس رأى أنه لا يمكن تحقيق هذه النتيجة الإيجابية إلاّ عندما تكون الشجاعة مقرونة بالمحبة وبالكياسة .

قدّم كبريانوس النصح لأولئك الذين كانوا يخضعون للاستجواب : يتوجّب عليهم أن يجيبوا بحكمة و بوقار ، و ان يثقوا بأنّ اللّه سوف يقوّيهم في أثناء المحاكمة ساعات المحنة . عليهم ان يعملوا بتعليمات المسيح حين قال : « فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون و لا تهتموا . بل مهما أُعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا . لأن لستم انتم المتكلمين بل الروح القدس . »[4] لقد أصرّ كبريانوس على ضرورة عدم كشف اسماء المسيحيين الآخرين للسلطات ، مهما كانت الظروف . فبإمكان المؤمن ان يعترف بإيمانه بالمسيح بفرح و من دون خجل ، و لكن لا يحقّ له ابداً ان يخون اخاه . كان هذا مبدأ قديم من مبادىء الجماعة المسيحية ، و قد طُبِّق هذا عمليًا في حالة يوستينوس الشهيد الذي كان قد استُدعي قبل قرن من الزمن للمثول امام القضاء ، فاعترف بإيمانه باللّه الواحد الحق وبالمخلّص يسوع المسيح ، لكنه قال لمستجوبيه بلطف إنه غير قادر على أن يذكر اي شيء عن إيمان الآخرين ، او عن المكان الذي يجتمعون فيه ، و ذلك على الرغم من تهديده بالجلد و التعذيب و القتل ، تلك التهديدات التي نُفِّذت فيه بعد ذلك بقليل .[5]

لقد كانت افكار كبريانوس في هذا الصدد مشابهة لأفكار يوستينوس و الرسول بولس من قبله ، إذ راح يشجّع اخوته في بلواهم بفكرة أن آلام هذا العالم هي عابرة ، بينما أمجاد العالم الآتي هي أزلية وتدوم الى الأبد ؛ هناك مكافأة سماوية لمن يثبت و يتحمّل تجارب هذا العالم . «لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا اكثر فأكثر ثقل مجد أبديًا . و نحن غير ناظرين الى الأشياء التي تُرى بل الى التي لا تُرى . لأن التي تُرى وقتية و امّا التي لا تُرى فأبدية . فإني احسب ان آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد ان يُستعلن فينا . »[6]

و بعد مرسوم فاليريان الأول ، أُخذ كبريانوس الى كوروبيس حيث أُبقي تحت الحراسة . وهناك انتهت إليه أنباء محزنة و مقلقة عمّا فعلته الضيقات الرهيبة التي حلّت بالإخوة في نوميديا . عندئذ كتب إليهم يشجّعهم و يعزّيهم . فبسبب ايمانهم بالمسيح ، كان قد صدر بحقهم الحكم بالأشغال الشاقة في مناجم الفضّة و الذهب في نوميديا ؛ و هذه العقوبة تفوق بكثير ما قد يعانونه من انزعاجات بسيطة في السجن . كان كبريانوس يعرف شخصيًا العديد

من هؤلاء . و كان تسعة منهم من النظار الذين حضروا المؤتمر الذي عُقد في قرطاجة في السنة الماضية ، اي في العام 256 م . كما كان معهم ايضًا قادة مسيحيون آخرون و اعضاء في كنائسهم ، و من ضمنهم النساء و الأولاد .

فبعد ضربهم ضربًا مبرحًا ، يتمّ وسمهم على جباههم بواسطة كيّهم بالحديد الساخن ، كما يوسم المجرمون المدانون او العبيد الهاربون ؛ ثم تكبّل كواحلهم و اقدامهم بالقيود الحديدية و تثقّل بالسلاسل الثقيلة . كذلك تُحلق رؤوسهم حلاقة نصفية وتُترك أجسادهم شبه عارية . لم يكن يقدّم لهم الا الشيء القليل من الطعام ، ما يكفي فقط لإبقاهم على قيد الحياة . كان عليهم و هم في هذه الحالة ان يعملوا ، في النهار ، تحت الارض في مكان مظلم خانق بفعل المشاعل المدخّنة التي كانت تضيء المناجم القذرة . و في الليل كانوا يتمددون منهكين متعبين للنوم على الأرض الباردة . لقد تجاوبوا مع كل هذا بإيمان ثابت وطيد و بروح مرحة لا تُقهر . كتب أحدهم يقول : «إننا هنا ايّها الحبيب كبريانوس ، نبعث اليك المدانون التشكرات الجزيلة أمام اللّه . لقد رفعت برسالتك قلوبنا المريضة ، لقد أبرأتَ أطرافنا المسحوقة ، و أطلقتَ أقدامنا من قيودها ، كما أنك أعدت حتى إنبات شعور رؤوسنا الحليقة حلاقة نصفية . لقد أضأت لنا ظلمات سجننا ، و حوّلت انحدارات المناجم و منحنياتها الصعبة الى سهل مفتوح على مصراعيه ، كما انك وضعت امامنا زهوراً يانعة بروائحها العطرة ، و بذلك بدّدت عنا الروائح النتنة العفنة التي تتصاعد من دخان المناجم . »[7] لعل كاتب هذه الرسالة أراد أن يخفّف من آلامه و معاناته من طريق الاستهزاء بها . لكنه ظلّ يُظهر بالرغم من كل شيء أية ظروف مرعبة و قاسية كانوا يعيشونها .

لم يستطع معظم النوميديين الذين اعترفوا بإيمانهم ان يعمّروا طويلاً في ظلّ مثل هذا النظام القاسي . كانت هذه الاوضاع الصعبة أكثر ممّا يمكن للجسم البشري ان يتحمّله ، و هكذا قضى الكثيرون منهم قبل ان تسنّى لكبريانوس ان يوجّه اليهم خطابه الجوابي ؛ و آخرون ماتوا ايضًا خلال السنتين التاليتين . امّا اولئك الرؤساء الذين كانوا قد نجوا من الموت حتى صدور مرسوم فاليريان الثاني في العام 258 م ، و الذي اتّسم بقساوة بالغة ، فلعلّهم جميعهم أُخذوا من المناجم و قُطعت رؤوسهم بحدّ السيف كما حدث لكبريانوس نفسه . و قد كان من بين هؤلاء نِيْمِسْيَانُوْس (Némésianus) ، و يَادوسْ (Jadus) . و هكذا اضيفت اسماؤهم الى لائحة الشهداءَ ؛ لقد أُعتقوا من العبودية لكي يدخلوا الى فرح سيّدهم .[8]

و قبل بضعة اسابيع من موت كبريانوس ، وقعت حادثة أحيطت بالغموض و الكتمان ، إلاّ انها غالبًا ما أشير اليها في الكتابات اللاحقة المتعلقة بالكنائس في شمال إفريقيا ، لأنها تركت تأثيراً عميقًا فيها . ففي منطقة أُوتيكا (Utique) ، بالقرب من قرطاجة ، حصلت مذبحة للمسيحيين مرعبة راح ضحيّتها أكثر من ثلاث مئة رجل و امرأة و طفل من جميع الأعمار . و قد كان الحاكم البارد الطبع نفسه الذي كان قد حكم على كبريانوس بالموت ، هو المسؤول عن ذلك . ولكن احداث أُوتيكا اخذت منعطفًا اكثر مأساويًا . فقد قيل إنه عندما خُيّر المؤمنون بين إنكار المسيح وبين طرحهم في حفرة مملوءة بالكلس غير المطفأ ، وثب الشهداء معًا في الحفرة ، ففنوا

جميعًا . و هكذا حصلوا « حرفيًا » على الثياب البيض التي كان القديسون المنتصرون قد وُعدوا بها بشكل مجازي و رمزي في سفر الرؤيا . 9 و لهذا السبب عُرفوا في ما بعد «بالمجموعة البيضاء » (Massa Candida) .

من المرجح ان تكون هذه الحفرة المملوءة بالكلس غير المطفّأ قد وُجدت فعلاً ، لكن هناك احتمال ألاّ يكون القديسون الأحياء هم الذين وثبوا اليها بل اجسادهم هي التي ألقيت فيها . فالكتّاب الحديثون يقترحون فكرة ان يكون هؤلاء الثلاث مئة قد وُضعوا في هذه الحفرة بعد ان دُقّت اعناقهم بحدّ السيف ، وذلك لتجنّب انحلالهم و تهرّئهم في العراء . هذا لأن الرومان كانوا قد اعتادوا على استعمال حفرة الجير الحي او الكلس غير المطفّأ للتخلص من الذين يسقطون في المعارك الكبرى . كذلك نجد أن مرسوم فاليريان كان قد حدّد تنفيذ العقاب من طريق قطع الرأس . كما ان اغسطينوس ذكر في احدى عظاته بمناسبة ذكرى « المجموعة البيضاء» ما يمكن ان يدلّ على ان هؤلاء الشهداء قد قضوا حقًا بحدّ السيف . و نحن لا نعرف إلاّ القليل جداً عن هذه المجموعة ، سوى أنه قد تمّ تشييد نصب تذكاري لهم في أُوتيكا و في كالاما (قالمة ، الجزائر) ، وعلى الأرجح في مناطق أخرى ايضًا . و كذلك وردت عدة صيغ لحكايتهم انتشرت في جميع انحاء الامبراطورية . و من جملة هذه الحكايات هناك واحدة كُتبت بشكل شعري و جاءت زاخرة بالأعمال البطولية . 10

و في ربيع العام 259 م ، و بعد بضعة اشهر من استشهاد كبريانوس ، كان ثلاثة اصدقاء يسافرون معًا عبر جبال نوميديا . احدهم ، يُدعى مَاريَانُوْسْ (Marianus) ، و هو قارىء في احدى الكنائس ، و المدبّر يَاكُـوبُوْسْ (Jacobus) الذي سبَق له ان عانى بسبب ايمانه في زمن الامبراطور دكيوس ، و أمّا الثالث ، فهو رفيق لم يُعرف اسمه ، و هو الذي نقل وقائع ما حصل لهؤلاء الثلاثَة . كان هؤلاء الشبان الثلاثة يجلسون سويّة في عربة قديمة متداعية و هم يسيرون في إحدى الطرق الجبلية المتعرجة ، والتي تحيط بها من كلا الجانبين صخور خشنة و وهاد ضيّقة شديدة الانحدار . و نحو الظهيرة ، شعر ياكويوس بالنعاس ؛ و بينما كان نائمًا ، رأى رؤيا رواها في ما بعد لأصدقائه : لقد ظهر له شاب فارع ذو طول استثنائي و اعلن له انه سوف يستشهد قريبًا . اخيراً وصل الثلاثة الى مكان يدعى مُوْغَاْسْ (Mugas) قرب سِيْرتَا (Cirta) ، (و هو مكان لا يبعد كثيراً عن مدينة قسنطينة الحديثة في الجزائر) .

توقفوا هناك في احدى المزارع حيث وجدوا بعض المؤمنين المسيحيين ، وسمعوا منهم عن الاضطهاد المروّع الذي كان قد حصل في ذلك الأسبوع بالذات في مدينة سيرتا القريبة . فالفرَق العسكرية تمّ استدعاؤها لمساعدة الحكام المحليين على مطاردة القادة المسيحيين الذين سبق لهم ان طُردوا من المدن الامبراطورية . لقد تمكّنت هذه الفرَق من إلقاء القبض على الناظرين أغَابيُوس (Agapius) وسكُونْديْنُوْس (Sécundinus) ، و احضَروهما من طريق موغاس لمواجهة كَرسي القضاء في سيرَتا . وَفي المزرعة تمّ استضافة هذين الناظرين ، فسُرّ الجميع بشجاعتهم وبتوجيهاتهم الروحية . إلاّ ان الترحيب الذي قدّمه شعب تلك المنطقة لهذين الناظرين أثار شكوك الحامية العسكرية . و بعد يومين عاد قائد مئة مع جنده الى موغاس . ففاجأوا المسيحيين في المزرعة و أخذوهم جميعًا الى سيرتا ، و من جملتهم المسافرون الثلاثة .

في المدينة ، و بعد استجواب قصير أطلقوا سراح بعضهم ، و لكن اولئك الذين كانوا يشغلون مناصب قيادية في الكنيسة ، اودعوهم سجن المدينة . ثم احضروهم لمزيد من الاستجواب و التعذيب ، و بخاصة ماريانوس الذي ظن فيه المسؤولون أنه كان يخفي الحقيقة . لم يصدّق الحاكم ادّعاءه بأنه مجرّد قارىء في الكنيسة ، و ليس مدبّراً كما كان زميله . و هكذا اعتبر المسؤول ان ماريانوس كان يناور بقصد تجنّب العقاب الذي ينصّ عليه المرسوم الامبراطوري بشأن القادة الرئيسيين في الكنيسة وحدهم . فعُلّق ماريانوس من ابهاميه و ضُرب ضربًا مبرحًا ، و ذلك لوقت طويل ، كما حصل لآخرين أيضًا ، ولكن من دون جدوى . و اخيراً أعيد الى الزنزانة حيث وجد صحبه . كان ما يحصل عليه المساجين من أحلام و رؤى ، يخفّف من وطأة ما يعانونه من ضيقات في السجن ، كما انه كان يملأ قلوبهم بالعزاء : لقد حصلوا على العديد من الوعود بالخلاص ، ورأوا نماذج من البركة الإلهية . ففي احدى المناسبات ، شعر ماريانوس بنفسه انه قد انتقل الى الجنّة . و هناك وُجد امام كرسي القضاء السماوي ، حيث تعرّف عن يمين القاضي الإلهي بكبريانوس الذي قدّم له التحيّة .

و بعد مضي أيام قرّر الحاكم إحالة القضية على الوالي . و هكذا امر بإرسال السجناء الى داخل البلاد الى لامبايسيس (تَازُولْت) . و إذ كان الموكب يهمّ بالانطلاق ، تحرّكت مشاعر احد المتفرجين ، وامتلأ فرحًا لدى التفكير في ما كان ينتظر هؤلاء المسافرين من استشهاد ، حتى إنه لم يقوَ على إخفاء إيمانه : فانضم الى الموكب . و لدى وصولهم الى لامبايسيس ، أودعوهم السجن ، ثم قسموهم بحذر الى فريقين : القادة الذين كانوا سيُحاكمون بموجب المرسوم الثاني الذي اصدره فاليريان ، والآخرون الذين ، بحضورهم الاجتماعات ، خالفوا المرسوم الأول . أرجأ الوالي امر القادة لبضعة ايام ريثما حاكم الآخرين . و خلال ذلك الوقت ، حصل ياكوبوس على رؤيا : لقد وجد نفسه في الجنّة ، وهناك رأى مأدبة تضمّ مجموعة من المعترفين الأمناء ، و قد اخبروه أنه في اليوم التالي سيشاركهم هو نفسه في هذا الاحتفال السماوي .

و في اليوم التالي تمّ استدعاؤه إلى المثول امام الوالي ، و معه ماريانوس و القادة الآخرون . ثمّ صدر الحكم بقطع رؤوسهم جميعهم . فاقتيدوا الى خارج المدينة ، الى مكان قريب من جدول سريع الجريان ، و أوقفهم المساعدون متراصفين لتسهيل عمل الجلاّد الذي سينفّذ الحكم . و بينما كانوا ينتظرون ، و عيونهم مربوطة بوشاحات ، صارت مناظر رائعة تمرّ امامهم : مواكب فرسان متألّقين بلمعان خلاب ، و مواكب لشباب يلبسون الثياب البيض ، و هم يمتطون أحصنة بيضاء كالثلج . و قد سمع بعضهم أصوات الأحصنة المجتازة . و ماريانوس نفسه رفع صوته و تنبأ أنه عن قريب ، سينتقم الله لدماء الشهداء الأبرار . كان يتكلّم بثقة و عزم و قوّة : لقد تنبأ عن حصول اوبئة و اشكال من السبي ، و مجاعات ، و هزات ارضية ، و غيرها من الكوارث المأساوية التى كانت على وشك ان تعمّ العالم بأسره . إن اولئك الذين كانوا ينتظرون قطع اعناقهم بالسيف ، تشجّعوا جداً بهذه الإقرارات ، التي لا تعرف الخوف ، عن قدرة الله اللامتناهية و عن سلطانه ، كما تشدّدوا بإيمان ماريانوس الجريء و بتحدّيه لقوى الشرّ . و أخيراً اكمل الجلاد مهمته الشنيعة ، ثم دُحرجت رؤوس الشهداء و جثثهم الى الجدول .

ان رحلة عادية انطلقت من جبال نوميديا ، حملت المسافرين و اوصلتهم الى المدينة السماوية . لقد سُرّوا كثيراً ببلوغهم هذا المكان ، و حصلوا على ترحيب اصدقاء كثيرين هناك «حيث سيمسح اللّه كل دمعة من عيونهم و الموت لا يكون في ما بعد و لا يكون حزن و لا صراخ و لا وجع في ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت . . . لن يجوعوا بعد و لن يعطشوا بعد و لا تقع عليهم الشمس و لا شيء من الحر . »[11] ثمّ يضيف كاتب هذه القصة انه كان هناك بين المشاهدين امرأة مسيحية اتّسمت بالبطولة و الإقدام إذ راحت تشكر اللّه جهراً ؛ هذه المرأة كانت ام ماريانوس . و قد ذكرها اغسطينوس باحترام بالغ و عطف كبير بعد مرور قرن و نصف على هذا الحادث .[12]

لقد تقابل مسيحيون كثيرون معًا للمرّة الأولى في السجون ، و الصداقة التي نمت بينهم في محنهم المشتركة ، على الرغم من كونها قصيرة الأمد ، كانت تصدر من قلوب مفعمة بالمحبة و الاخلاص . و نحن نقرأ عن مُونْتَانُوس [13] و فْلافيَانُوْس (Flavianus) ، و رنُوْس (Rénus) ، و عن عدد آخر من المؤمنين الذين زُجّ بهم في غياهبَ السجون في قرطاجة في العَام 259 م . و هناك تقابلوا مع سيّدة مسيحية تدعى كْوَارْتيلُوسا (Quartillosa) كان قد أُلقي القبض عليها قبلاً ، والتي عند سماعها باستشهاد زوجها و ابنَها حصلت على رؤيا تحقّقت بواسطتها من انها لن تبقى على قيد الحياة لأكثر من بضعة ايام بعد موت أفراد عائلتها . كانت زيارة بعض الأصحاب المسيحيين الذين كان عليهم أحيانًا ان يقنعوا الحراس بالسماح لهم بدخول السجن ، تخفّف كثيراً مما كان يعانيه هؤلاء الرجال و النساء في السجن من الجوع والعطش والمآسي الأخرى . كذلك كان للأحلام و الرؤى التي كانوا يحصلون عليها باستمرار ، التأثير المبارك عينه . كان لأحد هذه الإعلانات نتيجة عملية ، إذ حلّت مشكلة كانت قد ظهرت بين اثنين من الشباب المتنازعين . فقد رأى مونتانوس في حلم الحراسَ يدخلون الى الزنزانة ، ويأخذون السجناء الى سهل واسع فسيح حيث قابلوا كبريانوس ولوسيوس خليفته في نظارة الكنيسة في قرطاجة . لقد كان جميع المسيحيين متسربلين باللباس الأبيض ، ولكن عندما نظر مونتانوس الى اسفل وجد ان رداءه كان وسخًا للغاية و ملطخًا جداً . كان يعلم بما تشير اليه هذه اللطخات ؛ وما ان استفاق ، حتى ذهب مباشرة الى اخيه المؤمن الذي كان قد تشاجر معه ، ليطلب منه السماح و المغفرة . و عليه عادت صداقتهما الى سابق عهدها ، وهكذا استمرّا منذ ذلك الحين يصلّيان معًا يوميًا ، و يعزّيان أحدهما الآخر برجائهما المشترك .

مرّت شهور طويلة ؛ كان الحاكم قد مات ، و تأخرّ أمر تعيين خليفة له . و مجدداً تمّ استجواب بعض اعضاء هذه « الكنيسة المكبّلة » الصغيرة ، ثم اقتيدوا الى الموت . و بعد بضعة أيام ، عاد الحرّاس للمرة الثانية ؛ كانوا ينقلون السجناء واحداً واحداً او اثنين اثنين ، و لا يعود احد يراهم بعد ذلك . كانت هذه المجموعة تقلّ في عددها ، و لكن ليس في ايمانها . و في الطريق الى موقع الإعدام ، كان بعضهم يعظون الجموع المحتشدة بكل حماسة ؛ بينما آثر آخرون ان يلزموا الصمت الجليل ، مكتفين باقتباس بعض الآيات من الكتاب المقدس لتشديد انفسهم وتقويتها في هذا الصراع المرير . و عليه ، انتهز مونتانوس هذه الفرصة ليخاطب حشود الناس .

فوعظهم ضد الوثنية ، و ضد اولئك الذين شقّوا الكنيسة بسبب غطرستهم و غرورهم ، و ضد اولئك الذين ، بترددهم الشائن المخزي ، انكروا الإيمان . لقد حثّ المؤمنين الصادقين على الطاعة ، ودعا قادة الكنيسة الى الاتحاد . كان واقفًا امام جلاّده ، و هو على وشك ان يموت عندما فكّر في فلافيانوس ، و هو واحد منهم كان قد اقتيد معهم للمحاكمة ، ولكنه أعيد الى الزنزانة لأسباب مجهولة . فصلّى مونتانوس بحرارة لكي يتمكن فلافيانوس من الانضمام اليهم خلال ثلاثة ايام . وإذ كان واثقًا بأن اللّه قد استجاب صلاته ، نزع الوشاح عن عينيه وشطره الى شطرين ، وترك واحدًا من النصفين مع اصدقائه الذين كانوا يراقبون المشهد هناك ، وطلب منهم ان يعطوا هذا النصف إلى فلافيانوس . كما انه سألهم ايضًا ان يعدّوا قبرًا لفلافيانوس الى جانب قبور بقية المؤمنين .

و في اليوم التالي حصل شيء غريب . فقد جيء بفلافيانوس ليمثل امام كرسي القضاء . ولكن من دون علم منه ، كان القاضي قد قرّر بالاتفاق مع بعض المواطنين ذوي النفوذ ، ان يُطلق سراحه . و كان فلافيانوس نفسه خطيبًا و أستاذًا عامًا لسنوات عديدة ، و قد اهتدى الى المسيحية حديثًا ، واصبح مدبّرًا في كنيسة قرطاجة . كان تلامذته القدامى و المعجبون به ، قد جاءوا الى السلطات مرّات عديدة متوسّلين اليهم ان يطلقوا سراحه ، مصرّين على انه لم يكن من المدبّرين فعلاً ، كما سبق وادّعى فلافيانوس نفسه ، و لذا ، فلا يقع العقاب عليه بموجب المرسوم الامبراطوري . لقد تحاججوا مع الحكام و مع فلافيانوس نفسه : « تخلّص من عنادك هذا . » خاطبوه بتوسّل ، « قرّب التقدمات الآن فقط يا فلافيانوس ، و بعد ذلك يمكنك ان تفعل ما تشاء . إنه ضرب من الجنون أن تلاطف الموت و تنأى بنفسك عن الحياة . » إن هذه الكلمات ، بمقاصدها المخلصة التي استمع اليها فلافيانوس من اصدقائه الوثنيين القدامى و تلامذته ، لا بدّ من أنها أيقظت في فؤاده عواطف متنازعة و مشاعر متضاربة . فشكرهم على عطفهم تجاهه ، و لكنه أراد على الفور ان يربحهم لإيمانه الجديد ، إذ شرع يعلّمهم في السجن امورًا لم يسبق لهم ان سمعوها منه في قاعة الدرس . فأجابهم : « إن الموت بعد انقاذ حرية الضمير ، هو أفضل من عبادة الحجارة . هناك إله واحد ، وهو الذي صنع كل الاشياء و وحده يجب ان نعبد . » كان فلافيانوس متيقّنًا بأنه قد وجد طريق الحق و طريق الحياة الأبدية . كذلك قال : « حتى و لو قُتلنا ، نحن نعيش ، فليس الموت هو الذي يقهرنا ، بل نحن الذين نقهر الموت . » و أردف فلافيانوس يقول : « و أنتم أيضًا ، اذا أردتم أن تبلغوا معرفة الحق يصبح لزامًا عليكم ان تعتنقوا المسيحية . »

و في اليوم الذي رأى فيه فلافيانوس مونتانوسَ و المؤمنين الآخرين يساقون الى الموت ، بينما أعيد هو الى الزنزانة ، شعر بخيبة امل كبيرة لأن القاضي غيّر رأيه بخصوص الحكم الذي كان قد صدر بحقه . إلاّ انه في تلك اللحظة عينها ، تذكّر آية من آيات سفر الأمثال : « قلب الملك في يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله . »[14] لذا فكّر في نفسه : « إذًا لماذا أقلق و أضطرب ؟ و لماذا أشعر بمرارة نحو انسان مُسيَّر من فوق . » و عندما وصل ثانية الى زنزانته المعهودة ، وجد الحرّاس ان الباب كان ثابتًا و صعب التحريك ، و لم يستطيعوا فتحه إلاّ بعد عناء كبير . فاعتبر فلافيانوس أن هذه علامة تشير الى أنه لن يبقى في زنزانته هذه لوقت طويل .

و عندما استُدعي ثانية إلى المثول امام القضاء ، وجد فلافيانوس نفسه وجهًا لوجه امام مخطط جديد لإنقاذه : لقد تواطأ احد الجنود مع القاضي ، و هكذا برزت وثيقة تشهد على أن فلافيانوس لم يكن مدبّرًا في الكنيسة ، لذا يجب ان يُطلق سراحه . و لكن الأحداث أخذت منحًى غريبًا . سأل الوالي فلافيانوس عن سبب ادّعائه كذبًا و بهتانًا بأنه يعمل كمدبّر في الكنيسة . فأجابه فلافيانوس : « لأن هذا ما انا عليه في الواقع! » و عندما قدّموا له الوثيقة ليراها ، قال غاضبًا : « هل تصدّقون فعلاً اني خدعتكم ، و ان مؤلف هذه الوثيقة المزوّرة قد قال الحق ؟ » عندئذ صرخ المحتشدون : « انت تكذب يا فلافيانوس! » فردّ عليهم بالقول : « و ما الذي يدعونّي الى الكذب ؟ » اخيرًا صُعق الوالي لرفض فلافيانوس انتهاز هذه الفرصة للنجاة من الموت ، و هكذا رأى نفسه مضطرًا الى أن يعلن الحكم بإعدامه . عندئذ ارتسمت على وجه فلافيانوس ملامح البهجة و السعادة ، ثم استدار باتجاه منصّة الإعدام .

فتدافع الحشد حوله ، و راح يتبادل كلمات التشجيع و التعزية مع من حوله من المسيحيين . كما أخبرهم أيضًا عن الرؤى التي حصل عليها في السجن : كيف ظهر له كبريانوس الشهيد ، وسأله فلافيانوس عمّا اذا كانت عملية قطع الرأس و انفصاله عن الجسد مؤلمة . فأجابه كبريانوس : « اجسادنا لا تتألم عندما تكون ارواحنا في السماء . » ثم توالت الرؤى عليه حتى ظهر له اخيرًا رجل خاطبه بالقول : « لماذا انت مضطرب ؟ لقد اعترفت بالله مرتين حتى الآن ، و غدًا ستستشهد بحدّ السيف . » ثم ازداد تدافع جموع الفضوليين حواليه لاستماع اقواله بوضوح اكبر . و في تلك اللحظة بدأت الأمطار تتساقط بغزارة . فهبّ غير المسيحيين بينهم للاحتماء من المطر ، و لم يبقَ بقرب فلافيانوس سوى المؤمنين الصادقين فقط . فانتهز هذه الفرصة ليودّعهم و يسلّم عليهم السلام الأخير . قبّلهم فلافيانوس قبلة السلام ، ثم صعد الى مكان عال حتى يسمعه الجميع ، و شرع يحثّهم جميعًا على الاتحاد و الطاعة و المحبة . قال لهم : « يا اخوتّي الأعزاء جدًا ، سيكون لكم سلام في انفسكم اذا احترمتم سلام الكنيسة وقدّرتموه ، و اذا بقيتم متّحدين بالمحبة . لا تتفكّروا ان كلماتي هذه هي جوفاء فارغة ، لأن ربنا يسوع المسيح نفسه قال قُبيل تألمه : « هذه هي وصيتي ان تحبّوا بعضكم بعضًا .» و بعد هذا نزل فلافيانوس الى مكان الإعدام ، فربط عينيه بالمنديل الذي كان قد تركه له مونتانوس ، ثم ركع و صلّى و هو ينتظر ضربة السيف القاطعة . و أخيرًا اتّحد من جديد مع صحبه واصدقائه . كانوا قد صلّوا لأجله ليلتحق بهم سريعًا ، و الآن نالوا استجابة صلاتهم : و بهذا تكون الجماعة بكاملها قد نالت ما كان يطمح إليه الرسول : « فنثق و نُسرّ بالأولى ان نتغرّب عن الجسد ونستوطن عند الرب . »[15]

و مرّت السنون ، و تعاقب الأباطرة ، و كان الاهتمام بالجماعات المسيحية قليلاً . و التقارير الوحيدة التي لدينا عن اضطهادات حصلت في ذلك الوقت ، تفيد أن الذي حدث لم يتعدّ كونه مشاغبات فردية و أحداثًا معزولة وقعت في صفوف الجيش الروماني . ففي العام 295 م ، وفي مدينة ثِفَسْتْ (Théveste) – تبسة الجزائر ، كان هناك شاب يُدعى مكْسيمليَانُوس (Maximilien) احضره ابوه لتسجيله جنديًا في صفوف القوات العسكرية الامبراطَوريةَ . إلاّ ان

مكسيمليانوس الذي كان يقف امام الوالي لإكمال اجراءات التسجيل ، اعلن له أنه مسيحي ، وبالتالي لا يقدر على ان يحمل السلاح . لكن المسؤول لم يكترث لهذا . فأنجزوا قياس طوله وكانوا على وشك ان يطوّقوا عنقه بكرة رصاصية تحتوي على الختم المقدس للقَسَم العسكري ، عندما قاطعهم مكسيمليانوس مرة أخرى قائلاً : « لا أقدر على أن أقبل الختم ، لقد سبق لي ان خُتمت بختم المسيح إلهي . »

ثم حاولوا اقناعه بشتّى أساليب النقاش و المحاججة ، لكنه اصرّ بعناد على الرفض . و إذ تصوّر الوالي ان الشاب كان يعاني هوًى عابراً ، طلب من ابيه ان يُنذر ولده بعد ان ذكّره ، هو نفسه ، بالعواقب الوخيمة التي تترتّب على تصرّف مهووس كهذا . لكن مكسيمليانوس اجاب بعبارات متصلبة لا تعرف التسوية ، قائلاً : « انا في خدمة إلهي ، و لا استطيع خدمة العالم . وكما سبق ان قلت لكم ، فأنا مسيحي . » فأجاب الوالي إجابةً صائبة إذ قال إن هناك جنوداً مسيحيين حتى بين الحرس الامبراطوري نفسه ، و هم لا يترددون في حمل السلاح . لم يتمكّن مكسيمليانوس من ان ينكر ذلك ، و قال : «هؤلاء يعرفون ما يجب ان يفعلوا ، امّا بالنسبة اليّ ، فأنا مسيحي ، و لا أتمكّن من ان اعمل ما هو سيء .» عندئذ سأله الحاكم : « اي سوء يرتكبه اولئك الذين يعملون في القوات المسلحة ؟ » فأجابه مكسّيمليانوس : « انت تعلم مّاذا يفعلون! » و اخيراً اضطرّ الوالي المحتار إلى ان يصدر حكم العقاب القانوني بحق هذا العاصي المتمرّد .

قَبل مكسيمليانوس قرار القاضي بابتهاج و مرح ، و بكلمات اصبحت عبارات مألوفة : «شكراً للّه! » و في مكان تنفيذ حكم الإعدام به ، راح يشجّع المؤمنين الصادقين على التصرّف مثله . ثم التفت بهدوء الى والده ، طالبًا منه ان يسلّم الجلاّد الملابس الجديدة التي كان قد تمّ شراؤها لدخول الجيش . ثم عبّر عن أمله بأن ينضم إليه أبوه سريعًا ، و بعد هذا ودّعه . كان هذا الشاب في الحادي والعشرين من عمره . و قد تأسّف لأنه لم يستطع إطاعة الأوامر ، كما أسف ايضًا الحاكم لفقدان جندي جيّد . و قد يبدو لنا ان في الأمر خسارة مأساوية لحياة في سن الشباب ، لكن مكسيمليانوس كان قد أخذ قراره و هو يعلم علم اليقين ما هي العواقب . فالموت لم يكن ليخيفه قط ؛ كان متأكداً من أن هناك شيئًا افضل بكثير ينتظره خلف تلك التخوم . على كل حال ، ما المنفعة من ايمان و رجاء في المسيح مقتصران على هذه الحياة وحدها ؟ « إن كان لنا ، في هذه الحياة فقط ، رجاء في المسيح فإننا أشقى جميع الناس .»[16]

لقد كان موقف الأب مؤثراً للغاية على طول المدى . فهو كان قد انجز المقتضيات القانونية كلها ، و ذلك بإحضار ولده الى مكتب التجنيد ، كما انه جهّز ابنه الشاب ، إذ اشترى له لباسًا عسكريًا جديداً ؛ و لكنه توقّف عند هذا الحد . و عندما سأله الوالي ان يتدخّل لدى ابنه ، أجابه الأب ببساطة : « إن ولدي يعرف جيّداً ما يجب فعله . » كان الرجل العجوز يستمع بانتباه تام الى ما كان يحصل امامه في المحكمة ، لكنه لم ينبس ببنت شفة ؛ و قد وقف الى جانب ولده حتى النهاية . ثم تحدّثنا هذه الرواية في نهايتها كيف ان الأب « عاد الى بيته بفرح عظيم ، وشكر للّه على هذه الفرحة التي أعطاه ليبعث أمامه هذه الهدية للرب ، إذ كان هو نفسه سيتبع ابنه عن قريب . » و مهما كان أمر الوالد ، سواء أستشهد ام لا ، يبقى انه سار في ركاب الأبطال العظام .[17]

لدينا ، في هذه الفترة ، أولى الوثائق المكتوبة عن حوادث استشهاد في المناطق الغربية لموريتانيا تنجيتانا (شمال المغرب) . ففي العام 298 م ، و في المدينة العاصمة تنجيس (طنجة حاليًا) ، كانت تقام الاحتفالات في ذكرى مكْسيْميَان (Maximien) ، قائد النصف الغربي من الامبراطورية في عهد الامبراطور ديُوقْلطيَانُوس (Dioclétien) . و فجأةً ، و في منتصف المأدبة و احتفالات تقريب التقدمات للآلهة الوثنية ، قام احد قواد المئة المدعو مَارْسلُوس (Marcellus) ، و اخذ حزامه العظيم ، و نزعه عن بدلته العسكرية الرومانية ، و ألقاه ارضًا امام ألوية و رايات فرقة الجيش التي ينتمي اليها ، ثم أعلن : « انني اخدم يسوع المسيح ، الملك الأزلي! » ثم القى بسلاحه و صولجان مسؤوليته العسكرية ارضًا : «من الآن فصاعدًا لن اعود اخدم أباطرتكم! فأنا اشمئزّ من عبادة آلهتكم الحجرية و الخشبية التي هي أصنام صمّاء و بكماء . ليس لائقًا بمسيحي يحترم المسيح الرب أن يحارب من أجل هموم هذا العالم .» و ما ان استفاق الجنود الآخرون من هول الصدمة ، حتى القوا القبض على مارسلّوس ، واقتادوه الى القاضي العسكري الذي أودعه السجن فورًا . ثم احضروه بعد ثلاثة اشهر و استجوبوه بدقّة ، و من ثمّ اعدموه .

و لكن ، لهذه القضية مضاعفات و تطورات اخرى . فقد تأثّر الكاتب العسكري المدعو كَاسيَانُوس (Cassianus) ، و هو المسؤول عن تسجيل وقائع عملية استجواب مارسلّوس ، تأثر كثيرًا و في العمق بوجهة نظر هذا الشاب الشجاع ، و بالأسباب و الحجج التي عرضها . و فيما كان القاضي يصدر حكم الموت بحق مارسلّوس - قذف هذا الكاتب فجأةً باللوح و بلوازم الكتابة التي كانت في حوزته الى الارض ، فأبكم تصرّفه هذا الموظفين العسكريين . امّا مارسلّوس ، فراح يبتسم و هو مقيّد بالسلاسل . عندئذ نهض القاضي غاضبًا يطلب مزيدًا من الإيضاح . « في الواقع ، لقد اصدرت ايها القاضي حكمًا غير عادل ، » اجابه كاسيانوس . و لم يُسمح بعد ذلك للكاتب بأن يقول المزيد او بأن يسترسل في حديثه ، و لكنه دُفع بقوّة وعنف الى زنزانة السجن .

و بعد شهر من الزمان ، جاء دوره ليُحاكَم ، فأحضره العسكر ليمثل امام القاضي ، و إذ ردّ صدى المشاعر نفسها التي كان قد عبّر عنها مارسلّوس قبلاً ، دين كمذنب ثم أُعدم . تلك كانت قوة اليقين المسيحي ، و الى هذا الحد بلغت فعالية آثار الشهادة الجريئة خلال ساعة الامتحان . لقد اصبح كاسيانوس بطلاً شعبيًا ، كما أنه تم كتابة ترنيمة فيها مدح لإيمانه ، و تتحدث عنه كشهيد طنجة الشجاع.[18]

كلّما سحقتُمونا
نَنْبُتُ أكثر
فدماءُ المسيحيين بذار
مَنْ يرى صمودَنا العتيد
يبحث عن السبب
مَنْ يتقصّى إيمانَنا
يؤمن ، فيصيرُ مثلنا
ومَنْ ينضمُّ إلينا
يفرح حين يعاني
كي يربحَ نعمةَ اللهِ كلَّها .

ترتوليانوس[19]

ملاحظات

1- Foakes - Jackson p. 48
2- *Epître* 25 (*ANF* Vol. V p. 303)
3- Foakes - Jackson p. 261
4- مرقس 11:13
5- *Martyrium* (*ANF* Vol. I pp. 305-306)
6- 2 كورنثوس 17:4 و 18 ؛ رومية 18:8
7- *Epître* 77, (*ANF* Vol. V p. 404)
8- *Epîtres* 76 & 77 (*ANF* Vol. V) ؛ Monceaux Tome II pp. 139 - 141 ؛ بالإشارة الى متى 21:25
9- رؤيا 4:3 و 5 ؛ 9:7 ، 13
10- Monceaux Tome II pp. 141 - 147
11- رؤيا 4:21 ؛ 16:7 و 17
12- Monceaux Tome II pp. 153 - 157
13- إن الاشارة هنا ، ليست طبعاً الى مونتانوس الفريجي ، قائد حركة المونتانيين .
14- بالإشارة الى أمثال 1:21
15- Monceaux Tome II pp. 166 - 178 ؛ 2 كورنثوس 8:5
16- 1 كورنثوس 19:15
17- Monceaux Tome III pp. 114 - 117
18- Monceaux Tome III pp. 118 - 121
19- *Apologeticus* 50

الفصل الخامس عشر

تنسيق الكنائس

في عصر الرسل ، كل جماعة مسيحية محلية تطلب الإرشاد من قادتها ، و هؤلاء كانوا بدورهم يطلبون هداية اللّه و مشورته . كان باستطاعة الكنائس المحلية ان تسأل المشورة و النصيحة من أماكن اخرى ، و من الزوار ذوي الخبرة و الاقتدار امثال بولس أو تيموثاوس . ولكنها لم تكن تُحكم من انطاكية او اورشليم أو من أية مدينة اخرى . و لم يكن لأية كنيسة ، في اي مكان آخر الحق في توجيهها او في تأديبها .

كانت الاتصالات بين الكنائس ، غير مقيّدة و غير رسمية ، و كانت تقتصر على الزيارات العفوية ، و على الرسائل الدوريّة التي تُنقل بالبريد من مدينة الى اخرى . و لم تكن الكنائس تهتم كثيراً في امر تنظيمها بشكل منسّق ، او في مسألة إنشاء حلقات وصل إدارية و منهجية بين بعضها بعضًا . لا يذكر كتّاب العهد الجديد اي شيء بشأن إدارة عالمية للتنسيق بين المسيحيين في آسيا ، و في اوروبا ، أو في افريقيا . انهم يشيرون فقط الى الكنائس المحلية الفردية : « كنائس المسيح كلها»[1] الكنائس في سوريا و كيليكيا » ، [2]« و كنائس غلاطية» ، [3] « و الكنائس في مقاطعة آسيا »[4] ، و« كنائس اليهودية » .[5] و نادراً ما كانوا يشيرون الى « الكنيسة » كمفهوم أشمل ، و لا يستخدمون في هذه الحال إلاّ الألفاظ الأكثر تجريدية للتعبير عنها ؛ لم لكن يوجد بعد ، حتى ذلك الحين ، أية مؤسسة يُطلق عليها هذا الاسم . كان للعبارة « جسد المسيح » مفهومها الروحي ، و لم يكن لها اي معنى وظيفي او إداري .

إلاّ اننا نجد في نهاية القرن الثاني للميلاد كيف ان مسيحيي افريقيا الشمالية بدأوا يبحثون ، بشيء من التفصيل ، شؤوناً تتعلق بتنظيم كنائسهم . ففكّروا كثيراً في مسألة طبيعة الوحدة المسيحية . بأي معنى كانت الكنائس المحلية جزءاً من الكنيسة النظرية الشاملة ، و ما هي استلزامات العضوية في جسد المسيح في العالم ؟ هل يتوجب عليها جميعها ان تتخذ الموقف عينه من القضايا و المسائل موضوع الجدل ، ام ثمة مجال للاختلاف في الرأي ؟ هل القرار الذي تتخذه كنيسة واحدة ، يجب ان تدعمه وتنفّذه الكنائس الأخرى دائمًا ؟ و إن كان الأمر كذلك ، فأيّ من الكنائس يحقّ لها اتخاذ مثل هذه القرارات ؟ هل يجب عقد المؤتمرات للوصول الى اتفاق على القضايا ذات الاهتمام المشترك ؟ و إن كان الأمر كذلك ، فأية سلطة لهذه المؤتمرات في فرض تنفيذ هذه القرارات ؟ ام يحقّ لكل جماعة مسيحية ان تقرّر لنفسها بشأن العقيدة والممارسة ، و ذلك بعد استرشاد اللّه نفسه بخصوصها من خلال الصلوات و الدراسة الجديّة للكتاب المقدس ؟

كان عند الكنائس وجهتا نظر متعارضتان ، و هذا ناتج من الأجوبة المختلفة عن السؤال الأساس المطروح : ما هي الكنيسة ؟ كان لكبريانوس رأيه المحدّد و الدقيق في هذا المجال ، إذ اعتبر أن الكنيسة هي منظمة اسّسها الرب يسوع ، و يحكمها الرسل و خلفاؤهم ؛ و هي تضمّ الكنائس المحلية كلها التى أسسها الرسل انفسهم ، أو من عيّنهم هؤلاء الرسل . كان كبريانوس يحبّ ان يرجع بأفكاره الى أصل الكنيسة العالمية و الى نسبها ، معتبراً أن الكنائس المحلية التي أسسها ممثّلوها ما هي إلاّ فروع لذلك الجسم القديم . إلاّ أن آخرين كالمونتانيين ، مثلاً ، رأوا الأمور بمنظار آخر مختلف . فالكنيسة بالنسبة اليهم ، لم تكن مؤسسة ، بل أخوية ينتمي اليها تلقائيًا كل الذين يحبون الرب . إن العلامة على اصالة اية مجموعة محلية من المسيحيين ، لا تكمن في زمن او في طريقة تكوينها في الأساس ، بل في صحة تعاليمها الحالية ومعتقداتها .[6]

و الكنيسة ، بالنسبة الى كبريانوس ، تشتمل على جميع الذين يخضعون للنظّار المعتمدين ، اي النظار الذين يقدرون على أن يرجعوا بتعيينهم الى رسول ، او الى اي شخص آخر عيّنه رسول او أحد خلفائه ، و الذين كانوا هم انفسهم مخلصين و موالين لقادة اقدم الكنائس في المدن الرئيسة مثل روما او قرطاجة . لقد أطلق على هذا التجمّع من المسيحيين التسمية « الكنيسة الكاثوليكية العالمية . » إلاّ ان خصومه حاججوه معتبرين أنه من المستحيل ردّ اصل كل مجموعة من المؤمنين ، اسمًا باسم ، الى الرسل . فالأهم من ذلك بالنسبة اليهم هو التأكد من ان تعليمهم وممارساتهم تتفق مع تلك التي للرسل . كذلك قالوا إن الكنيسة الشاملة ، على كل حال ، ليست منظّمة تدين بالولاء و الطاعة لرجال من اية مدينة كانوا ، بل للّه وحده . كما ان الكنيسة الشاملة في نظرهم تشتمل على جميع الذين ينتمون الى المسيح ، بغضٍّ النظر عن المجموعة التي يشايعونها . فقد جاء تشديدهم على أهمية الحياة الروحية في الكنيسة المحلية - علاقتها الحية مع اللّه الآن - لا على اساس التشبّه او الاحتفاظ بصلات وصل رسمية مع الكنائس القديمة في الأماكن الأخرى .[7]

كان لهاتين النظرتين المتباينتين لطبيعة الكنيسة الشاملة ، انعكاسات بالغة الخطورة . إن كان اظهار الولاء للقادة المسيحيين المعتبَرين ، هو الأساس ، يمكن في هذه الحال قبول ، بمحبة ، جميع الذين يتبعون هؤلاء القادة و يشاركون في الكنائس التي اسّسوها ، مهما بلغت ضعفاتهم و خطاياهم . امّا اذا عوّلنا على السلوك المقدّس و على الإيمان الشخصي ، فيصبح من الضروري عندئذ على الكنائس المحلية ألاّ تقبل في عدادها إلاّ الذين يظهرون أنهم اتباع حقيقيون للمسيح . لقد تركّزت مباحثات كثيرة ، و طويلة حول هذه المسائل . و على سبيل المثال : هل يُدعى الجميع ، من دون استثناء ، الى حضور عبادة المجموعة المسيحية ، ام يجب أن يقتصر ذلك على المؤمنين المخلصين فقط ؟ و مَن من اولئك الذين لهم علاقة بالكنيسة الشاملة ، يجب اعتبارهم من اعضائها ، و يحق لهم بالتالي المشاركة في اتخاذ قراراتها ، وفي الاستفادة من مساعداتها المادية و المالية ؟ هل الكنيسة الشاملة تشمل في الواقع جميع الذين يدّعون بأنهم

مسيحيون ، او فقط اولئك الذين يطيعون وصايا المسيح و تعاليمه ؟ هل تشتمل على المؤمنين وحدهم ، ام إنها تضمّ ايضًا من لم يؤمنوا بعد ، و لكن قد يؤمنون في المستقبل ؟ هل تشمل الكنيسة الشاملة كل من يحضر اجتماعاتها ، ام يقتصر اعضاؤها على الذين اعتمدوا فقط ؟ و لكن ، ماذا بشأن اولئك الذين اعتمدوا ، و لكنهم كانوا يتقاعسون عن حضور الاجتماعات ؟

كان الجسم الكاثوليكي الذي ينتمي اليه كبريانوس ، ينظر الى الكنيسة كحقل ينبت فيه الحنطة والزوان معًا . و يجب الاعتناء بهذا الحقل بحيث تنمو الحنطة فيه و تكبر ، على انه يجب عدم قلع الزوان خوفًا من إلحاق الضرر بالحنطة الجيدة . و لربما كانوا يأملون ان يتحوّل اخيراً بعض هذا الزوان الرديء الى حنطة جيدة . إلاّ أن المؤمنين الآخرين كالمونتانيون و النوفاتيين ، كانوا على نقيض ذلك ، ينظرون الى الكنيسة الشاملة كعروس المسيح ، المدعوّة لتكون مقدّسة ، وأمينة ، ولائقة بعريسها الإلهي من كل النواحي . و هكذا جاءت الانعكاسات بعيدة النطاق . فالفريق الكاثوليكي كان يرغب في ان ينتمي اليه اكبر عدد ممكن ، سواء كانوا صالحين ام طالحين ؛ إذ يدخلون ابواب الكنيسة ، و يستمعون الى تعاليمها و يستفيدون من مراسيمها و أسرارها . انها لا تمنع من الانضمام اليها ايًا من الذين يعترفون بسلطة قادتها الرسمية . امّا من الجهة الاخرى ، فقد كان خصومها يكتفون بكنيسة أصغر ، شريطة ان تشعّ بنورها النقي في هذا العالم المظلم ، جماعة من التلاميذ المخلصين البعيدين عن كل شبهات الفجور او الغش او الكفر . كان الكاثوليك ينزعون الى التساهل الديني في قضايا المعتقد والليونة في ما يخص التهذيب ، بينما كان المونتانيون و النوفاتيون بالمقابل ، يتوقون الى إعلاء شأن الحق و الى العيش بطاعة مشدّدة له : كانوا يتعاملون بقسوة مع اي شخص كان يساوم على حساب مقاييسهم العالية . و كانت بعض الكنائس المحلية تميل الى هذا الرأي ، بينما كانت غيرها تميل الى الآخر ؛ و حتى في الكنيسة الواحدة ، كان يوجد احيانًا مناصرون لكلتا النظريتين .

فالوحدة كانت الشعار الأعظم للفريق الكاثوليكي ، و التي يجب الحفاظ عليها بواسطة المحبة و التساهل مع الضعيف و الساقط . لقد كانوا يشدّدون على مقاطع و نصوص من الكتاب المقدس ، من نوع صلاة المسيح لأجل تلاميذه : « ليكونوا واحداً كما نحن . . . و لست أسأل من اجل هؤلاء فقط بل من اجل الذين يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحداً ، ايها الآب . . . ليكونوا مكمّلين الى واحد و ليعلم العالم انك ارسلتني و احببتهم كما احببتني . »[8] و لا يمكن الحصول على مثل هذه الوحدة الاّ بتقديم الولاء التامّ لكنيسة المسيح الرسمية ، و بالخضوع لنظّار الكنيسة الذين منحهم المسيح السلطة . ان ترك الكنيسة الكاثوليكية ، قال كبريانوس ، للانضمام الى جماعة مسيحية اخرى ، يشبه رجلاً يترك امرأته من اجل عشيقته . « فكل من ينفصل عن الكنيسة الرسمية و ينضمّ الى زانية ، يُعتبر خارج نطاق الوعود الإلهية الممنوحة للكنيسة ، و إذا ما

ترك الانسان كنيسة المسيح ، سوف لن يفوز بمكافآت المسيح . انه بالنسبة ، الينا ، غريب ودخيل و عدو . » و من ثمّ يصرّح كبريانوس بقوله المأثور الذي طالما اقتبسه في ما بعد كل من مؤيديه و مناوئيه : « ان مَن لم تكن الكنيسة امّه ، لا يمكن للّه ان يكون أباه . »[9] و هكذا في نظره ، ان الإنسان الذي يترك الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، يكون بذلك قد فصل نفسه عن المسيح .

لقد كان المونتانيون و النوفاتيون يقدّرون قيمة الوحدة ، و لكنهم كانوا أكثر حذراً في وحدة تمييز مضمونها . لقد شدّدوا على الوحدة في الروح ، وحدة كل الذين يتمسّكون بالحق ، وحدة المعتقد و الإيمان ، لا وحدة التنظيم . إنها الوحدة المنبثقة من الولاء للمسيح نفسه ، والخضوع للروح القدس و لكلمة الله الحيّة و الموحى بها . قال ترتوليانوس : « ان مجموع الذين انضموا الى هذا الإيمان يشكّلون معًا الكنيسة ، هذا في نظر رئيس الكنيسة و مكرّسها . ستكون كنيسة الروح القدس . . . لا الكنيسة كعدد من النظّار . »[10] و كما علّم الرسول بولس بوجود جسد واحد «جسد واحد و روح واحد كما دعيتم ايضًا في رجاء دعوتكم الواحد . ربّ واحد ايمان واحد معمودية واحدة . إله وآب واحد للكل الذي على الكل و بالكل و في كلكم . »[11] و هكذا آمن المونتانيون بأن كل من يتمسك بهذا الإيمان الواحد ، و يخدم هذا الرب الواحد ، هو في طبيعة الحال جزء من هذا الجسد الواحد . و هذا الأمر يتخطى في نظرهم جميع الحدود الجغرافية و الإدارية و التحزبية .

فبينما كان الكاثوليك يتحدثون كثيراً عن « المحبة » التي تضمّ القديس و الخاطي معًا ، كان تشديد المونتانيين على « الحق » يميل الى الفصل بين القديس و الخاطي . كانت المحبة بالنسبة الى الكاثوليك تعني التساهل مع الخطيّة و الضلال . امّا الحق بالنسبة الى المونتاني ، كترتوليانوس ، فكان يعني فضح هذه الأمور و التخلّي عنها . إلاّ ان المونتانيين ، في اهتمامهم الصارم بالطهارة و النقاوة ، لم يكونوا قط غير محبين . كانوا يؤمنون بأن في محبة المسيحي لأخيه ، خير شهادة للعالم : ان ما يُرى من لطف و حنان داخل الجماعات المسيحية ، يعكس محبة الآب نفسه . و كما ان اللّه قد احب العالم إذ ارسل ابنه الوحيد ليموت بديلاً عنه ، هكذا يجدر بالمسيحي ان يحب جاره الوثني و يبذل قصارى جهده للإتيان به الى سبيل الخلاص . و لكن المحبة التي لا تستند الى الحق و تتأسس عليه ، قال ترتوليانوس ، لا تستحق ان تحمل هذا الاسم . ان الوحدة المسيحية لا تُبنى إلاّ على أساس الحق المسيحي .

امّا كبريانوس ، فرأى الأمور بمنظار مختلف . فالوحدة ، بحسب مقاييسه الروحية ، هي اهم من الحق دائمًا . كما ان الانسان الذي يسيء الى وحدة الكنيسة ، لا يجني في نظر كبريانوس اية فائدة من ايمانه بالعقيدة الصحيحة او من تعليمه اياها : « ان الانسان الذي لا يحافظ على هذه الوحدة لا يحافظ بذلك على شريعة اللّه ، و لا على الإيمان بالآب و الابن ، و لا حتى على الحياة نفسها و على الخلاص . » [12] إنه ليس مسيحيًا على الإطلاق ، مهما كانت معتقداته

مستقيمة و سليمة . ان عقيدة كبريانوس هذه ، تقود بكل تأكيد الى النتيجة بأن الانسان ينال الخلاص ، لا بإيمانه الشخصي بالمسيح ، بل بانتمائه الى الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، و بالتالي فإن إنسانًا مثل نوفاتيان ، قد ترك الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، لا يمكن اعتباره مسيحيًا في ما بعد . «عليكم ان تعرفوا منذ البداية أنه ليس من الضروري ان نطّلع على تعاليم نوفاتيان ، لأنه يعلّم في الخارج . فمهما كان الانسان او كانت عليه صفاته و مميزاته ، فلا يمكن اعتباره مسيحيًا اذا لم يكن منتميًا الى كنيسة المسيح الرسمية .»[13] ان انشاء كنيسة منفصلة ، كان حقًا بالنسبة اليه ، اسوأ و ابشع تعدّ قد يرتكبه الانسان ، فهي خطية اعظم بكثير من خطية المسيحيين الذين أنكروا المسيح ومن ثم عادوا الى حظيرة الكاثوليكية . « فالمرتد أخطأ مرّة واحدة ،» قال كبريانوس ، « و لكن (الانفصالي) يخطىء يوميًا . كما ان المرتدّ قد يحصل في حال استشهاده على الوعد بالملكوت ، في الوقت الذي لا يمكن للانفصالي ، في حال قُتل خارج الكنيسة الرسمية ، ان يحصل على مكافآت الكنيسة الرسمية .»[14]

وفي معرض برهان كل هذا كتابيًا ، يجد كبريانوس نفسه مرة أخرى ، مضطراً إلى ان يستند الى بعض التشابهات الجزئية التي تثير التساؤلات . فهو يتناول مقاطع من الكتاب المقدس ويستخدمها خارج نطاق سياقها ، لكي يستخرج منها معاني لم يقصدها قط كتّابها .[15] و في اقتناعه الكامل و التام بموقفه ، راح يتمسّك بأية آية من الكتاب المقدس قد تدعم رأيه هذا – و هي ممارسة مشؤومة لا تزال متّبعة ومعروفة حتى في أيامنا هذه . فالخلاص ، بحسب حجته ، غير متوافر إلاّ داخل الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، ذلك لأن الذين التجأوا الى داخل فلك نوح ، كانوا هم وحدهم الذين نجوا من الطوفان . ثم يؤكد على ضرورة ان تكون الكنيسة الرسمية منظّمة واحدة ، و ذلك لأن رداء المسيح لم يكن مخيطًا ، الأمر الذي حال دون إمكانية تقطيعه . كذلك هو يقتبس قول المسيح : « و لا يقدر احد ان يخطف من يد ابي . انا و الآب واحد ، »[16] لدعم زعمه أن الذين انتموا الى الكنيسة الكاثوليكية العالمية قد ضمنوا حصولهم على الخلاص . كما انه يشير ايضًا الى كلمات المسيح : « من ليس معي فهو عليّ ، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق ، »[17] جازمًا بذلك ان كل الذين ليسوا « مع » الكنيسة الكاثوليكية العالمية هم « اضداد » للمسيح .

ان تطبيق هذه الآيات المحدّدة لدعم موقف الأساس التنظيمي للكنيسة الشاملة ، يفتقر في كثير من جوانبه الى حجج الإقناع و أدلّته . هذا لأن خلاص الله لم يكن قط حكراً على الكنيسة الكاثوليكية العالمية وحدها ، أو على اية كنيسة اخرى . كان الرسول بولس يفرح في سجنه بأن الانجيل ينادى به ، سواء حصل ذلك من طريق الأصحاب أو الخصوم .[18] كان احدهم مرة يطرد الشياطين و الأرواح الشريرة باسم يسوع ، على الرغم من انه لم يكن ينتمي الى مجموعة التلاميذ المعتمدين . فهل يعنّف هذا الانسان او يوبّخ لأنه كان يسعى لخدمة المسيح من دون تفويض رسمي بذلك ؟ لا ، إطلاقًا . قال يسوع : « لا تمنعوه . لأنه ليس احد يصنع قوّة باسمي و يستطيع

سريعًا ان يقول عليّ شراً . لأن من ليس علينا فهو معنا . »[19] فيسوع ، كما يبدو ، لم يكن ضيّقًا ككبريانوس في تقرير من هو مؤهّل لخدمته . فكنيسة كبريانوس كانت اذاً اضيق بكثير من كنيسة يسوع المسيح .

اعترف كبريانوس بأن معظم التعاليم النوفاتية كانت صحيحة تمامًا . فأثار اعترافه السؤال المزعج التالي : إن استطعنا ان نجد الحقيقة خارج الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، ألا يمكن إذاً ان نجد ايضًا الأخطاء في داخلها ؟ فإن ضمانة استمرار الكنيسة مستقيمة في آرائها تكمن ، في نظر كبريانوس ، في المحافظة على البنية الإدارية القاسية التي طالما أيّدها هو شخصيًا . فالقادة الجدد كان يعيّنهم القادة الحاليون ، وهكذا باتت مهام التعليم الكنسي محصورة في ايدي النظّار المعتمدين والموافق رسميًا على استقامة تعليمهم ، و على انسجامه مع أعراف الكنيسة الرسمية . كان يؤمن بأنه إن كان كلّ ناظر يعيّنه النظّار الآخرون ، و إن كانت كل جماعة تعمل بموجب أوامر ناظرها ، فسيكون كل شيء على ما يرام .[20] ولكن ، قد نتساءل إن كان هذا كلّه لا يدلّ على بعض السذاجة ؟ كانت ثقته بقدرة الناس على نقل ما تعلّموه ، بشكل تام و من دون زيادة او نقصان - مع استعدادهم لتطبيق ما يعلّمونه - تعكس المستويات السامية التي كرّس كبريانوس نفسه لأجلها ، اكثر مما تعكس حقيقة الطبيعة البشرية .

كان بوسع كبريانوس ان يبني على أرضية اكثر صلابة ، لو انه رسّخ سلطته على كلمة اللّه ، لا على تسلسل هرمي من صنع البشر . و إذ شدّد بهذا الشكل على ضرورة التزام مقررات النظار و المؤتمرات ، كان لا بدّ من ان تحلّ إطاعة الناس محلّ الإذعان لكلمة اللّه ، كمقياس لصحة التعليم و الممارسة . إن الخيارَ الأول هو الأسهل ، بحيث انه يراعي رغبة الإنسان العامة في نوال تقدير أقرانه و رؤسائه . فهناك فريسيون في كل الأجيال ممن يهوَون مجد الناس اكثر من مجد الله .[21] و جاء نظام كبريانوس ليضمن إضرام النار في هذا اللهب الخادع الغادر .

و قد نجد اعذاراً لكبريانوس ، نظراً لكونه كتب من وحي زمانه . فإنه لم يكن ينعم بالخبرة الطويلة التي عندنا ، و ذلك على مدى سبعة عشر قرنًا ، و التي شاهد خلالها أسلافنا الأخطاء والفساد داخل الكنيسة . و لربما لم يتسنّ له ان يتعرّف بأية جماعات مستقيمة ومسالمة من المؤمنين الورعين و المحبين خارج نطاق سلطة النظام الكنسي الذي كان هو نفسه جزءاً منه . ففي أيامه ، كان بعض أولئك الذين انفصلوا ، قد اتجهوا الى التعاليم الجديدة غير المألوفة ، او الى الممارسات المُنكَرة و التي ادّت حتمًا الى تشويه سمعتهم ، و الى رفضهم من اولئك الذين كوّنوا ضدّهم أحكامًا مسبقة . لقد تأثر كبريانوس سلبًا بأولئك الذين انفصلوا عن الكنيسة ، ليكوّنوا مجموعاتهم المسيحية الخاصة ، و بما نتج من جراء ذلك من مجادلات و من مرارة ، و قد نتعاطف نحن ايضًا معه في ذلك . كان صعبًا على من التزم التساهل المبني على المحبة و آمن بالوحدة ، أن يرى الجماعات المسيحية تتشرذم بهذا الشكل المؤسف .

فبالنسبة الى كبريانوس ، كانت المحبة و التساهل وجهين لعملة واحدة ، و لكن شريطة ان يطبّق ذلك ضمن نطاق الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . و من المؤسف حقًا انه لم يتمكن من الذهاب في كرمه هذا الى ابعد من هذه الحدود . و نحن نجد انه يصعب علينا ان نتعاطف معه في وجهة نظره ، و التي طالما كرّرها : ان الذين انفصلوا عن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية قد حكموا بذلك على انفسهم بالهلاك الأبدي المحتوم . و في احدى المناسبات ، أشار كبريانوس الى آية من الآيات التي يهواها اولئك الذين انشأوا لأنفسهم جماعات مسيحية منفصلة ، و طرح السؤال البياني التالي : « كيف يمكن لاثنين او ثلاثة ان يجتمعوا باسم المسيح ، إن كان قد سبق وفصلوا انفسهم بشكل ظاهر عن المسيح و عن انجيله ؟ » [22] فلربما كان هذا الأمر واضحًا عند كبريانوس ، إلاّ انه لم يكن واضحًا عند اولئك الذين تحدّث عنهم ، و قد لا يكون واضحًا عندنا نحن ايضًا . كانوا يؤمنون بالمسيح ايمانًا راسخًا لا يقلّ عن ايمان كبريانوس نفسه ؛ كما ان انفصالهم لم يكن عن مخلّصهم ، بل بالحري عن ذلك النظام الكنسي ، اذ شعروا بأنه قد اخفق في تتميم مشيئة المسيح . و بالطبع ، لم يكن باستطاعة كبريانوس ان يرى المستقبل المحزن والمنحطّ ، او يتنبأ عنه . و لربما لم يكن متوقعًا منه ان يدرك كيف ان هذين الاثنين او الثلاثة ، قد يصبحون بانفصالهم عن منظمة منحطة فاسدة ، من اتباع المسيح المخلصين و الاكثر إرضاء له من الباقين الذين لم يخشوا ان يجلبوا العار على اسم الرب بسبب خطاياهم وتعلّقهم بمفاسد العالم .

ان نظرية كبريانوس عن المعمودية ، جاءت تابعة لمفهومه العام للكنيسة . و هي تمثّل ابتعاداً هامًا آخر عن ممارسة هذه الفريضة في زمن العهد الجديد . فالرسل كانوا قد عمّدوا جميع الذين اعلنوا ايمانهم بالرب يسوع المسيح ، و ذلك اينما كانوا . فالاثيوبي اعتمد على يد فيلبس ، في بركة في العراء ؛ امّا سجّان فيلبي ، فيبدو انه اعتمد في بيته ؛ و ليديا في النهر . و لم يكن اي من هؤلاء جميعهم على علم بوجود كنيسة منظّمة . كانت عملية التغطيس في الماء ترمز ببساطة الى ما كان قد حصل عليه المؤمن من غسل خطاياه من طريق الإيمان الشخصي بالمسيح . امّا المراسيم نفسها فلم تكن تخلّصه او تجري فيه اي تغيير . ففي نزوله تحت الماء ، ثم صعوده منه ، يُعطى المؤمن تذكاراً مرئيًا بأن حياته السابقة الخاطئة قد انتهت ، و بأنه بدأ حياة جديدة في المسيح . فهو اعتمد ، لا للكنيسة بل للمسيح ، كما انه اصبح مقبولاً ، لا لدى اية مجموعة من الناس ، بل لدى اللّه [23] الكنيسة ليست مذكورة في اي من حوادث المعمودية المدوّنة في العهد الجديد .

امّا بالنسبة الى كبريانوس الذي كانت العضوية في الكنيسة الرسمية في غاية الأهمية في نظره ، فكان يعتبر ان المعمودية التي ينفّذها الناظر الكهنوتي ، هي السبيل إلى القبول في عداد شعب اللّه وإلى الحصول بالتالي على الخلاص الأبدي . و هكذا فإننا نجده يتحدّث لا عن « المعمودية للمسيح » ، بل عن « المعمودية للكنيسة » ،[24] كما اعتبر أن هذه الممارسة

تكون باطلة اذا قام بها اي شخص من خارج الكنيسة الكاثوليكية العالمية . لذلك يقول : « لا يمكننا ان نخلص إلاّ من طريق المعمودية الفريدة التي تقوم بها الكنيسة الوحيدة الحقيقية . »[25] فمعمودية المونتانيين او النوفاتيين في نظره غير فعّالة و خالية من البركة الإلهية . و نتيجة لذلك ، فأي انسان اعتمد خارج الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، تعاد معموديته عند قبوله في هذه الكنيسة .

كانت المعمودية ، على غرار العشاء الرباني ، يُنظر اليها بصفتها « سرّ » – ممارسة شعائرية خارجية تُحدث تغييراً معجزيًا في الداخل . فمياه المعمودية تغسل الخطية ، و تختم على القبول في الكنيسة . وكبريانوس ، في الواقع ، اطلق على هذه المراسيم التسمية « المعمودية المخلّصة » ، و قد اشار اليها ايضًا على أنها « حمّام يهب الحياة » .[26] كان يؤمن بأن معجزة ما ستحصل عندما يقوم الناظر بتغطيس الشخص في الماء : انه في تلك اللحظة يولد من جديد . كما ان معجزة ثانية تحدث ، إذ يضع الناظر يديه على المعتمد بعد خروجه من الماء ، فيقبل الروح القدس . « ان الذين يعتمدون للكنيسة ، يؤتى بهم الى كهنة الكنيسة ، و بفضل صلواتنا و وضع ايدينا ، يحصلون على الروح القدس ثم يكمّلون بختم الرب . »[27] و من هذه الكلام نلاحظ أن عطية الروح القدس لم تَعُد من امتيازات المسيح الذي يهبه مجّانًا لجميع الذين يخصّونه .[28] فالروح القدس ، كما الخلاص نفسه ، اصبح تحت تصرّف الكنيسة الكاثوليكية ، وهي تمنحه بواسطة الخدمات الكهنوتية التي كلّفت بها نظّارها المعتمدين . و مرّة اخرى نجد كيف ان كبريانوس ينسب الى الكنيسة قوات لا يذكرها الكتاب المقدس الاّ بشأن المسيح وحده .[29]

و في ذلك الوقت ، تطوّرت عادة تعميد الأطفال ، و ذلك قبل تفهّمهم الايمان المسيحي . ثم يثْبتون لهم بعدئذ أنهم قد أصبحوا مسيحيين ، و ذلك بحكم اعتمادهم للكنيسة . لكن الحياة التالية للعديدين من هؤلاء الأطفال برهنت ان المعمودية لم تحدث فيهم اية معجزة ، و لم تحقق أيّ شيء بخصوص الخلاص .

لم يطوّر كبريانوس أفكاره و معتقداته هذه تدريجيًا ، فهو يشرحها في اولى رسائله التي كتبها بصفته ناظر قرطاجة . و في ذلك الوقت ، لم يكن هو نفسه قد اعتنق المسيحية إلاّ منذ ثلاث سنوات فقط . و مع هذا ، فإن افكاره عن الكنيسة كانت تلقى رواجًا كبيراً في شمال افريقيا . ومع نهاية القرن الثالث ، بات في الواقع لكل مدينة ، بل لكل قرية تقريبًا ، ناظرها الخاص ؛ و مع نهاية القرن الرابع ، كان هناك في كثير من الأحيان كنيستان مع ناظرين يمثّلان وجهات نظر مختلفة ومتباينة .

عبّر كبريانوس عن مفهومه هذا للكنيسة من خلال سعيه الدؤوب ، من الناحية الإدارية ، لترسيخ سلطة الناظر الواحد في كل كنيسة محلية . وبحسب نظام كبريانوس هذا ، لا يجوز تعيين او « رسامة » ناظر معيّن لكنيسة إلاّ بواسطة نظّار الكنائس المحلية الأخرى . فبهؤلاء أنيطت مسؤولية التأكد من ان تعليمه و خلقه يوافقان كلاً من التقاليد الكتابية و التقاليد الرسولية .

و قد سمح كبريانوس لأعضاء الكنيسة المحلية و شيوخها بالتعبير عن رغباتهم و أفضلياتهم ، كما حصل في امر تعيينه هو شخصيًا ، و لكن من دون ان يكون لهم الحق في إضفاء الشرعية على ترشيحهم . فإذا ما استاء نظّار الكنائس المحلية الأخرى من ناظر ما ، يمكنهم بسهولة إصدار حرم كنسي بحقه ، و بحق كنيسته المحلية ايضًا في حال ناصرته . إذًا ، ان مجرّد جرّة قلم تكفي لفصلهم عن الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، و بالتالي عن الخلاص المحصور فيها وحدها بحسب اعتقادهم . و عليه ، بات على الكنائس المحلية جميعها ان تكون في خضوع حازم لسلطة « الكنيسة الرسمية » ، كما يتوجّب على الشعب ان يكون تحت سلطة الناظر .

كذلك اعتبر كبريانوس أن نظار الكنائس الكاثوليكية هم جميعهم على قدم المساواة . لا أحد فيهم يحق له أن يكون أعلى مرتبة من الآخرين ، بما انهم جميعهم كهنة . و المسيح هو رئيس الكهنة ، لذا فلا الناظر في روما و لا ناظر كنيسة قرطاجة أو في اي مكان آخر ، يملك أي حق للتسلّط على الكنائس المحلية الاخرى . فالسلطة على نقيض ذلك ، كانت محصورة بمؤتمرات النظّار . و كما ان كبريانوس كان يشدّد باستمرار على ضرورة اقرار سلطة الناظر الواحد في كل كنيسة محلية ، كذلك كان يؤكد دائمًا على سلطة المؤتمرات التي كانت تعقد لتقرير شؤون كنسية ذات الاهتمام المشترك . و لم يكن كبريانوس أول من دعا الى مؤتمرات النظّار - كان قد عُقد مؤتمران في شمال إفريقيا ، قبل ان يتمّ تعيينه ناظرًا - لكن زمانه شهد ازديادًا ملموسًا في عددها ، وفي عدد الذين حضروها . فهو يخبرنا كيف أنه في العام 220 م ، حضر سبعون ناظرًا الى مؤتمر قرطاجة ، و هم يمثّلون سبعين كنيسة محلية من المقاطعات الافريقية و النوميدية . وبعد عشرين سنة ، ارتفع العدد ليصبح تسعة و ثمانين ناظرًا . ومنذ ذلك الحين ازداد عدد المؤتمرات - عُقد مؤتمر في العام 252 ، و آخر في العام 253 ، و كذلك في العام 254 ، و مؤتمران في العام 256 - و كان عدد الحاضرين يزداد باطّراد خلال هذه الفترات . كان في هذه المؤتمرات يصار الى مناقشة تقاليد الكنيسة و جمعها و تنسيقها بشكل قوانين . كما ان هذه المؤتمرات كانت تُصدر بيانات رسمية بخصوص العقائد و الممارسات ، و كان من الضروري على الكنائس المحلية ان تلتزم هذه المقررات .

و منذ ذلك الحين فصاعدًا ، كان المسيحيون المنتمون الى المذاهب « الكاثوليكية » و«الارثوذكسية » قد تعوّدوا على استرشاد مقرّرات هذه المؤتمرات التي تعبّر عن التقاليد المعتمدة في الماضي ، و في مناسبات أخرى كانوا يتطلعون الى البيان الرسمي الصادر عن ناظر كنيسة روما او مدينة معيّنة اخرى ، و الذي كان يعبّر عن رأي الكنيسة السائدة في ذلك الوقت . كان بعض من هذه التقاليد والآراء يقف منذ البداية على ارضية مهزوزة غير صلبة ، بحيث انها جنحت الى حدّ ما عن تعاليم المسيح و الرسل . إلاّ ان التشكيك بها او التساؤل بشأنها ، كان سيسبّب مشاكل و اضطرابات . فعندما يكون التنظيم معقّدًا ، يكون من الصعب إيجاد مكان لرجال

ونساء يفكّرون تفكيراً حراً ، ويفتشون الكتب المقدسة بذهن مفتوح . فإن نظامًا كهذا يخشى الفوضى اكثر من اي شيء آخر ؛ من اجل هذا باتت الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، منذ زمن كبريانوس فصاعداً ، تفضّل غالبًا الحلول الإسترخائية على اية محاولة لتقديم تعريف دقيق للعقيدة .[30] لقد كان الحفاظ على الكنيسة اكثر اهمية لديها من اظهار الحقائق و كشفها . وبالطبع ، هذه هي طبيعة البشر : فغالبًا ما يهتم الناس ويقدّرون التقاليد اكثر من الحق .

لم يكن ترتوليانوس ليمتثل بشكل أعمى لهذا النموذج او لأي نموذج آخر . وهو الذي كان قد صرّح بالتالي : « قال ربنا المسيح عن نفسه ، إنه الحق و لم يقل إنه التقليد . »[31] لقد أدرك حقيقة ان التقاليد قد تنشأ من الضلال او من الضعف البشري او من الخطية . و حتى كبريانوس نفسه اعتبر ان كل تقليد لا يستند الى الحق ما هو الأ ضلالة قديمة[32] . الم يظهر الفريسيون انفسهم في زمن المسيح هذا الميل عينه لإعلاء شأن التقليد فوق كلمة اللّه ؟ « هذا الشعب ، » قال اللّه ، « يكرمني بشفتيه و امّا قلبه فمبتعد عني بعيداً . و باطلاً يعبدونني و هم يعلّمون تعاليم هي وصايا الناس . لانكم تركتم وصية اللـه وتتمسكون بتقليد الناس . » ثم اردف يسوع يقول : « حسنًا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم . » [33] في القرن الثالث ، و من الواضح أن الكنيسة الكاثوليكية في شمال إفريقيا ، راحت ، منذ القرن الثالث ، تتطوّر في اتجاه خطر .

كان المونتانيون قبل خمسين سنة قد قالوا الأمر عينه . كانوا يتحرّقون شوقًا إلى أن يكون لهم اتصال مباشر مع الله نفسه ، ان يعرفوه ، لا ان يكتفوا بالمعرفة عنه . لقد حاولوا ان يعيدوا الى الكنيسة عفويتها و حريتها التي خبت وذوت تدريجيًا منذ عهد الرسل . فبالنسبة إليهم ، يجب ان تكون السلطة البشرية خاضعة لروح الله . و قد رفضوا القبول بأن المواهب الروحية تُمنح بموجب تعيين رسمي لإنسان من أناس آخرين . فالله وحده هو مصدر المواهب الروحية و القيادة الروحية ، و هو يمنحها لمن يشاء ، داخل التنظيمات التي يدبّرها الناس او خارجها . لم يكن نظام كبريانوس الكنسي يروق لمثل هـؤلاء ؛ لم يكونوا يرغبون في ان يتقيّدوا به .

ملاحظات

1- رومية 16:16 ؛ 1 كورنثوس 17:7 ؛ 16:11 ؛ 33:14 ؛ 2 كورنثوس 23:8 ؛ 28:11 ؛ 2 تسالونيكي 4:1 ؛ رؤيا 7:2 ؛ 16:22

2- اعمال 41:15

3- 1 كورنثوس 1:16

4- 1 كورنثوس 19:16

5- غلاطية 22:1 ؛ 1 تسالونيكي 14:2

6- ان النصوص الوحيدة الصريحة المختصة بالمونتانية ، و التي بقيت في إفريقيا الشمالية ، هي التي كتبها ترتوليانوس . من هنا بات من الصعب تحديد عدد المسيحيين الذين انتموا في ما بعد الى هذه الحركة و أماكن تواجدهم . إلاّ أن العديد من الوثائق المتعلقة بشهداء إفريقيا الشمالية ، تُظهر الإيمان القوي و الحيوي نفسه و التركيز العقائدي عينه اللذين كانا قد ميّز بهما كل من ترتوليانوس و المونتانيين في آسيا . و طبعًا ، ترتوليانوس نفسه ، كان له تقدير عظيم في زمن حياته و بعدها : فانتشرت أعماله على نطاق واسع ، في داخل الكنيسة الكاثوليكية كما في خارجها . و قد نستنتج من هذه الحقائق ان نفوذ المونتانية تخطّى الى حدّ بعيد حدود اسمها ، و انه بالإضافة الى المجموعات المونتانية المنفصلة ، كان هنالك على الأرجح العديد داخل الكنائس الكاثوليكية في إفريقيا الشمالية (و أيضًا في أوساط النوفاتيين) ممّن كان لهم ميول شديدة الي المونتانية .

أمّا بالنسبة الى معتقدات المونتانيين ، فتعاليم ترتوليانوس هي واضحة و مميّزة ، و هكذا نستطيع من كتاباته (و من الأقوال المنسوبة الى مونتانوس نفسه) أن نستنتج آراء المونتانيين في إفريقيا الشمالية في القرن الثالث .

7- راجع القسم الأخير من الفصل الثامن حول رأي ترتوليانوس في الكنائس الأكثر حداثة : « انها تُحسب ايضًا رسولية إن كانت تتّحد في اعتناق الحق عينه ، و ذلك بسبب التقارب في التعليم » .

8- يوحنا 11:17 ; 20, 21, 23

9- *De Catholicae Ecclesiae Unitate* 6

10- *De Pudicita* 21

11- افسس 4:4-6

12- Walker *TCOSC* p. 53

13- *Epître* 51:24

14- اقتبسها Walker *TCOSC* p. 52

15- مثلاً ، راجع عن *De Catholicae Ecclesiae Unitate* 7
Epîtres 73:11; 74:15 (ANF Vol. V)

16- يوحنا 29:10 و30

17- متى 30:12

18- فيلبي 15:1-18

19- مرقس 39:9 و 40

20- *Epîtres* 26:1; 67:5; 68:8

21- يوحنا 43:12

22- Walker *TCOSC* p. 53

23 - رومية 3:6 - 5 ؛ غلاطية 27:3 . يُقال احيانًا إن الإشارة في 1 كورنثوس 13:12 هي الى المعمودية للكنيسة بواسطة الماء . إلاّ أن مفسّرين آخرين يعتبرون على أساس آيات أخرى من نحو مرقس 18:1 مثلاً ، أن موضوع 1 كورنثوس 12 هو عمل الروح القدس ، إذ يجذب أناسًا مختلفين الى جسد واحد و يمنحهم مواهب متنوعة . إذًا ، لا يشير هذا النص الى قادة الكنيسة الذين يعمّدون بالماء ، بل الى الله الذي يعمّد بروحه القدوس ؛ لا إلى احتفال علني ، بل الى تعزيز بالقوة الإلهية ؛ لا الى معمودية بالماء التي ترمز الى نوالنا الغفران ، بل الى المعمودية بالروح القدس الذي يُعدّنا للخدمة .

و حتى لو فضّلنا أن نرى في هذا ، إشارة الى المعمودية بالماء ، يبقى أن الجسد الذي اليه اعتمد الكورنثيون كان جسداً روحيًا ، و ليس هيئة مؤسستية يتعلّق بتنظيم معيّن : كان جسد المسيح الروحاني الذي يشمل كل الفروق الكنسية .

24- *Epître* 72:9, 22 etc.

25- *Epître* 73:11

26- *Epîtres* 72:3 ; 73:5 ; 75:11 . يُظهر المفهوم الكاثوليكي « للأسرار » شبهـاً مفاجئاً بينه و بين مبادىء «الشعر الأسود » في مذهب حيوية المادة التقليدي (راجع الفصل 3) .

27- *Epîtres* 62:8; 72:9

28- رومية 9:8

29- إن المعتقد أن الروح القدس يتمّ قبوله فقط من طريق وضع يدي الناظر ، كان بدعة في الكنيسة ، لا عقيدة كتابية . ففي العهد الجديد ، الروح القدس هو عطية الله لجميع الذين يؤمنون بالمسيح (رومية 9:8 ؛ غلاطية 2:3) . يظهر في الكتاب المقدس ان الروح القدس لم يُمنح من طريق وضع الأيدي إلاّ في حال السامريين ، و شاول الطرسوسي ، وتلاميذ يوحنا المعمدان ، الذين لولا ذلك ، كان سيشكَّك بأمر قبولهم كمسيحيين حقيقيين (اعمال 17:8 و 18 ؛ 17:9 ؛ 6:19) . أمّا آخرون ، بمن فيهم من « الدخلاء » و الأمميين ، فقد قبلوا الروح القدس من دون هذا النوع من المراسيم ، مع أن علامات أخرى جاءت تشهد لقبولهم الأولي في ملكوت الله (اعمال 44:10) .

30- Foakes - Jackson p. 254

31- اقتبسها Plummer p. 113 ؛ بالإشارة إلى يوحنا 6:14

32- *Epître* 73:9; Schaff *HOTCC* Vol. II p. 527

33- مرقس 7:6-9

للحصول على ترجمة بالانكليزية لكتابات كبريانوس الكنسية ، راجع *ANF* Vol. V . كذلك *ECF* Bettenson يمدّنا ايضاً بمجموعة مختارة من النصوص . كما أن لاهوت كبريانوس المختص بالكنيسة يتناوله كل من :

Walker *TCOSC* pp. 49 - 60

Foakes - Jackson pp. 222 - 224, 265 - 269

. Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 150 - 151

الفصل السادس عشر
العلاقات البعيدة

غالبًا ما نعتقد أن العلاقات بين الشرق و الغرب أمر يبعث على الدهشة ، و لكننا نحتاج ان نتحلّى بالصبر و الحكمة لكي نستفيد من ثمر تلاقيهما . و في الواقع ، لقد حصل أول أعظم انتشار للإنجيل في جميع ارجاء عالم البحر الأبيض المتوسط ، بعد ان تمّ تلبيس الإيمان الشرقي السامي ، رداء المنطق الغربي بواقعيته العملية . كان شاول الطرسوسي النصير الأعظم للإنجيل ومحاميه الدفاعي الكبير ، وهو رجل شرقي بعقلية غربية ؛ صوفي ، لكنه في الوقت عينه عملي و منهجي . و هنا يكمن سرّ نجاحه ، فغالبًا ما برهن هذا الأمر أنه السبيل الأكيد للتقدّم والازدهار . الشرق الصوفي و الغرب الواقعي العملي ، هذان الاثنان معًا يفوقان على مجموع جزئيهما ، لو انهما يتمكّنان فقط من تفهّم احدهما الآخر ، حتى يتعاونا و يسيرا معًا في الاتجاه نفسه لا اتجاهين معاكسين . كانت كنيسة قرطاجة تبعد ست مئة كيلومتر فقط عبر البحر عن روما ، عاصمة الغرب ، و على مسافة سفر عشرة أيام عبر الشاطىء المصري عن الاسكندرية ، المدينة الشرقية . و هكذا وجدت نفسها و قد ورثت كلا التراثين ، و بإمكانها استخراج العسل من الحضارتين الغربية و الشرقية ، لو انها تقدر فقط على الإمساك بهما بمحبة و انسجام .[1]

كانت كل من قرطاجة و الإسكندرية و روما أعظم ثلاثة مراكز للمسيحية بعد العصر الرسولي مباشرة . ان التأمل في ما كانت عليه العلاقة الثلاثية بين كنائس هذه المدن الشهيرة يشكّل دراسة رائعة ، وذات مغزى عميق . كانت ميزاتها المتباينة تتفاعل باستمرار ، كما كان يحصل مدّ وجزر بالنسبة الى ما كانت تشدّد عليه كل كنيسة . و كل هذا يجد له تعبير في كنائسنا اليوم . كانت علاقاتهم دافئة احيانًا ، واحيانًا اخرى ساخنة ، و لكنها كانت مبنية دائمًا على الاحترام .

و على الرغم من أنه كانت لهذه الكنائس الأسلاف أنفسهم ، و كانت ذات مستويات متقاربة في زمن الرومان ، إلاّ ان مصيرها جاء في ما بعد مختلفًا للغاية . فكنيسة روما على الرغم من شططها وضلالاتها ، استمرت في ازدهارها و في هيمنتها كنقطة الارتكاز في منظمة عالمية رئيسة ، و ذلك على مدى خمسة عشر قرنًا ، و على الرغم من تجاوزاتها و ضلالاتها . و من جهة اخرى لم يبقَ من كنيسة قرطاجة سوى الحكايات و البيانات الخاصة بشهدائها الأبرار بالإضافة الى كتابات لاهوتييها العظماء . هذا ، وقد تُرجمت هذه المستندات الى لغات لا تُعدّ و لا تحصى ، وهي لا تزال تُلهم المسيحيين في كل جيل و مكان ، كما انها تأسر ألبابهم . وبطريقة مماثلة ، كفّت كنيسة الإسكندرية عن ان تكون قوّة في العالم المسيحي ، مع أننا ندين

للاهوتيي هذه الكنيسة بالكثير . فهم الذين يقفون بشكل خاص وراء قانون الإيمان النيقوي الذي قام بتشكيل ايمان ملايين لا تُحصى من البشر و بتثبيته ؛ بالإضافة الى مناهج تفسير الكتاب المقدس التي كان لها في ما بعد التأثير العميق في تطوير الدراسات اللاهوتية المسيحية .

إن مناشيء الكنيسة في الاسكندرية و اصولها هي غامضة و مبهمة . و يقال إن مرقس ابن اخت برنابا ، هو مؤسس هذه الكنيسة . ثمة تقليد بأنه بعدما انهى البشير مرقس كتابة قصة حياة المسيح ، اودع مخطوطته كنيسة روما الفتية ، ثم سافر الى مصر حيث نجح هناك في تأسيس عدد من الجماعات المسيحية.[2] و نحن نعلم أن الرجل الفصيح أبلوس الذي استفاد من تأنيب اكيلا و بريسكلاً اللطيف له ، كان أصله من الاسكندرية.[3] لا يوجد ما يشير الى أنه عاد الى هناك ليساعد في عمل الإنجيل . كانت الإسكندرية مركزًا ثقافيًا يونانيًا ، و تُظهر الكنيسة هناك أنها مديونة ليس فقط لأساليب الفكر السامي بل للفكر اليوناني أيضًا . كان لاهوتيوها ، و من جملتهم إقلمندوس واوريجانوس ، يتأملون مليًا في العهد القديم ، و يفتخرون في الوقت عينه بحفظهم الأساليب الفلسفية اليونانية ، و تطبيقهم لها في تفسيرهم لهذه الأسفار .

يوجد تباين كبير بين لاهوتيي الإسكندرية و جيرانهم عند ساحل البحر الأبيض المتوسط : كانوا يستمتعون بالغوص في دقائق الأمور الفكرية و المنطقية . و بينما كان لاهوتيو شمال إفريقيا يركّزون على الحقائق العملية للحياة المسيحية ، كان الاسكندرانيون يجولون و يطوفون قلقين في اروقة الأفكار الفلسفية . لقد أخذ الأفارقة الشماليون الكتاب المقدس بمعناه الظاهري ، بينما قام الإسكندرانيون بنسجه بشكل قصص رمزية معقّدة . و بينما كان الكتّاب الأفارقة الشماليون الأوائل يلجأون الى كلمة الله لتساعدهم على حل مشاكل الحياة اليومية و استغلال فرصها ، كان زملاؤهم الإسكندرانيون يحاولون درس الكلمة الإلهية بغية التعمق في مكنوناتها اللاهوتية . ان المسائل ، كما الفرَق التي استأثرت باهتمام الأفارقة الشماليين - المونتانية ، النوفاتية و الدوناتية - كانت في جَوهرها أخلاقية اكثر منها عقائدية . و إنْ تأمّل الإفريقي الشمالي ، كان يدور حول نفسه ، لا حول الكون او خالقه . فطبيعة الإنسان او علاقته بالله تعالى ، كانت أموراً تستحق مناقشتها و بحثها ؛ امّا اسرار الكائن الإلهي او طبيعة المسيح ، و هي المواضيع التي سحرت الإسكندرانيين وأسرت ألبابهم ، فهي مسائل يجب قبولها و التسليم لها من دون مجادلة . لم تتشاجر كنائس افريقيا الشمالية مع كنائس الإسكندرية . كانت ترى الأمور بمنظار مختلف ؛ إلاّ انها لم تسعَ للتدخّل في شؤون الفريق الآخر ، كما انها لم تكن تخشى هذا النوع من التدخل .

كانت العلاقات بين كنيسة قرطاجة و اختها كنيسة روما عاصفة أكثر جداً . فروما كانت طبعًا عاصمة الامبراطورية ، و نقطة الإرتكاز لمعظم الأعمال التجارية و الإدارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ و الرومان كانوا بطبيعتهم إداريين اكثر منهم مفكّرين . كما ان كنيسة روما كانت قد تأسست في وقت مبكّر ، و كانت تتفاخر بالرسالة التي خصّها بها الرسول بولس ، و التي تُعتبر الأكثر اهمية ربما بين كتاباته جميعها . ادّعت كنيسة روما بأن الرسولين بطرس وبولس كانا بين قادتها الأولين ؛ و قد تبعهما لِيْنُوْس (Linus) و أنَاكْلِيْتُوس (Anaclétus) ، ثم إقْلِمنْدُوس (Clément) ، الذي يجب ألاّ يُظن بأنه إقلمندس الاسكندراني في نحو العام 90 م .

لقد كان « الرابع من الرسل » كما يقولون ، و هو وارث سلطتهم الرسولية . و كان إقلمندوس نفسه قد شدّد على اهمية الطاعة والانتظام . فإذا كان الجدل اللاهوتي يُقرّر على اساس المنطق في الاسكندرية ، كان تقريره في روما يتمّ على أساس السلطة .

إلاّ ان اقلمندوس هذا ، كان رجلاً متواضعًا ، و لم يُظهر أية رغبة في التسلط على سائر الكنائس ، كما هو الحال مع الكثيرين من خلفائه . لقد ظهرت الإشارات الأولى لهذه الادّعاءات الاستبدادية نحو العام 195 م عندما قرر الناظر فكْتُوْر (Victor) انه ينبغي على كنائس العالم أجمع أن تُذعن لحكمه الخاص في ما يتعلق بتاريخ الاحتفال بعيد القيامة . و قد هدّد بقطع جميع العلاقات بالكنائس في آسيا الصغرى لرفضها التخلّي عن تاريخ آخر لهذا العيد ، ادّعوا أنهم حصلوا عليه من الرسول يوحنا نفسه . كتب إيْرِيْنَايُوْس من مدينة ليون للإشارة الى عدم صواب تصرّف فكتور هذا ، و عليه ، تخلّى الناظر الروماني بحكمة ، إذ سحب تهديده بإنزال عقوبة الحرمان . إلاّ ان فكتور رفض ايضًا الدعوة من أجل المزيد من النقاوة في داخل الكنيسة . فأخذ بآراء پْرَكْسيَاس صاحب الأفكار غير المستقيمة ، إلا انه كان مواليًا لروما كما اشرنا من قبل ، فدان فكتور المونَتانيين الذين كانت تعاليمهم مستقيمة و صالحة ، غير انهم لم يكونوا يخضعون لكنيسة روما .

كان فكتور اوّل نظّار كنيسة روما ، لكنه لم يكن ، بأي شكل من الأشكال ، الأخير بينهم ، في السعي للبروز على الآخرين . كان هؤلاء النظّار يرون في كنيسة روما القائد العام الطبيعي للنظام العالمي الناميّ ، و الذي اطلقوا عليه التسمية « الكنيسة الكاثوليكية » معتبرين انه ينبغي على مسيحيي العالم جميعهم ان ينتموا اليها . و لكن إصرارهم على حفظ الوحدة التنظيمية و الخضوع لهم في ممارسة الدين ، لم يستمرّ إلاّ على أساس منحهم المزيد من الحرية في قضايا المعتقد . فالنظّار الذين تعاقبوا في روما ، اظهروا بطئًا شديداً في مجال تصحيح الانحرافات العقائدية او التأديب عليها . و لم يكن ذلك يعود الى الافتقار الى الشجاعة الأخلاقية ، او الى الإخلاص الروحي فحسب . فروما كانت في الواقع تفتقر الى علماء لاهوتيين مؤهلين فكريًا للمناقشة بفعالية مع دعاة الافكار الجديدة ، و المروّجين للبدع الماكرة . لقد فشل نظار روما باستمرار ، وعلى فترة قرون عديدة ، في مواجهة حقيقة الامر في ما يختص بالمشاكل اللاهوتية ، معتمدين بالحري على ضغط التصويت لفرض القبول بموقفهم . و قد أظهرت الأزمات المتكررة و المتلاحقة اهتمامهم الدؤوب ، لا بالتعريف بإنجيل المسيح او بالدفاع عنه ، بل بالتعريف بالكنيسة الكاثوليكية العالمية و بالدفاع عنها . فالإساءة العظمى في نظرهم لا تكمن في عمل الضلال بل في العمل للانفصال ؛ انهم في هذا على اتفاق تام مع كبريانوس في قرطاجة .

لكنّ كبريانوس اختلف مع نظرائه في روما بشأن مسألة اخرى . كان يؤمن ، كما رأينا سابقًا ، بأن المعمودية تكون باطلة في حال أُجريت خارج نطاق الكنيسة الكاثوليكية العالمية : فأي إنسان قد اعتمد « خارج الكنيسة الرسمية » ، يجب ان تعاد معموديته عند قبوله فيها . لقد

عارض استفانوس ، ناظر كنيسة روما ، وجهة النظر هذه ، و رفض نهائيًا و بشكل قاطع ، قبول الشركة مع المنادين بهذه الفكرة أو المناصرين لها . هذا لأنه اعتبر أن المعمودية باسم الثالوث الأقدس هي نافذة المفعول بغضّ النظر عن هوية الذي اجراها او عن تعاليمه و حتى ايضًا عن خُلقه الأدبي . لقد كان من الأنصار الأوائل لفكرة ان المعمودية هي « سرّ » له فائدته ، و ذلك بمعزل عن ايمان او خُلق الذين يقبلونه او يجرونه . و في العصور الوسطى ، جعلت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية العالمية لتوكيدات كهذه ، ابعادًا غريبة في نوعها .

إلاّ ان عملية مقاومة قرار استفانوس ، لم تقتصر على افريقيا وحدها . هذا لأن المسيحيين النوفاتيين في روما نفسها ، قاوموه ايضًا ، و لكن على اساس مختلف الى حدّ ما . كانوا يشدّدون بشكل رئيس على نقاوة الحياة و العقيدة ، كما انهم انكروا على الكنيسة حقّها في الحلّ من الخطية اولئك الذين تعمّدوا كسر وصية اللّه بتقريب التقدمات للأوثان ، او بإنكارهم الإيمان . فاعتبروا أنه لا يمكن بالنسبة الى هؤلاء القوم مغفرة خطاياهم او اعادة قبولهم كأعضاء في الكنيسة بهذه البساطة استنادًا الى سلطة الناظر ، بحيث يجب عليهم ان يُظهروا علامات توبة عميقة ، فيها الدلالة على أنهم قد طلبوا حقًا مغفرة الله و قبوله لهم . امّا كبريانوس في إفريقيا ، فوجد نفسه الآن على خلاف مع كلا الفريقين في العاصمة الإيطالية : ضد استفانوس ، إذ أصرّ على استقلالية كنائس إفريقيا الشمالية ، و ضدّ النوفاتيين في دفاعه عن حق النظّار في اعادة قبول المسيحيين الذين سقطوا ، الى عضوية الكنيسة .

و بدوره ، بذل استفانوس قصارى جهوده لفرض احكامه و قوانينه على كنائس افريقيا . فأجابه كبريانوس بقوة و رزانة بأنه بإمكانه ان يشرّع قوانين و احكامًا لكنيسته في روما ، و لكن لا سلطة له على الكنائس الموجودة في مناطق أخرى . فالناظر في روما ، أضاف يقول ، ليس بأي حال من الأحوال ، اسمى مقامًا من نظّار الكنائس في المدن الأخرى ، او رئيسًا عليهم ؛ فكل ناظر هو كاهن ، و لكن المسيح وحده هو رئيس كهنة . إلاّ ان استفانوس و خلفاءه في روما ، اشاروا الى كلمات المسيح لبطرس : « على هذه الصخرة ابني كنيستي . » و هكذا ادّعوا أنه ، حيث ان بطرس كان اول ناظر في روما ، باتوا هم انفسهم خلفاءه و ورثة سلطته . كما انه لهم ايضًا ، مثله ، سلطان الحلّ و الربط ، مهما كان عليه معنى هذه العبارة . و كان سبق لترتوليانوس أن اشار الى ان الرب لم يمنح سلطان الحلّ و الربط هذا للكنيسة ، وللقادة المستقبليين في الكنيسة ، بل لبطرس وحده و ذلك في مناسبة معيّنة واحدة ،[4] و للرسل اجمعين في مناسبة أخرى .[5] قال لهم : «كم انتم سخفاء ، في سعيكم لقلب مقصد الرب الواضح و تغييره اذ منح ذلك (السلطان) لبطرس كفرد . » [6] قد يكون بطرس او إيمان بطرس هو الصخرة التي بُنيت عليها الكنيسة ، و لكن ذلك لا يتضمّن بأي شكل من الأشكال ، نقل السلطان الكنسي الى الذين شاءت الصدف أن يعيشوا في المدينة نفسها التي قضى فيها بطرس أيامه الأخيرة . كذلك اشترك اوريجانوس من قيصرية في هذه المناظرة : « لكن ، ان كنتم تعتقدون أن الكنيسة كلها قد بُنيت على بطرس وحده ، فماذا

تقولون عن يوحنا او عن كل واحد من الرسل الآخرين ؟ »[7] و وافق معه كبريانوس ، مشيراً الى أن حتى بطرس نفسه ، لم يتجرأ ليفترض أن بإمكانه إصدار الأوامر الى بقية الرسل : و هو بالتأكيد قَبِلَ التوبيخ على يد واحد منهم .[8]

إلاّ ان كنيسة روما لم تقتنع بكل هذا . و بعضهم بلغ بهم الأمر الى ان يطلقوا على ناظر روما التسمية « الحبر الاعظم » ، او الحاكم الأعلى ، ناسبين إليه السلطة او الحق في مغفرة الخطايا . توقف ترتوليانوس عند هذه التسمية المبالغ فيها كثيراً ، و علّق عليها بتهكّم و سخرية : « هذا الحبر الأعظم او ناظر النظّار يصدر بيانًا يقول فيه : " أنا اغفر خطايا الزنى و الدعارة لأولئك الذين كفّروا عن ذنوبهم ! " . . . اين يُعلن كل هذا الكرم و السخاء ؟ هل على أبواب بيوت الرذيلة ، و تحت لافتات تجارتهم ؟ هذا " التكفير عن الذنوب " يجب إعلانه في مكان اقتراف الخطية عينه ! . . . لكن هذا البيان يُقرأ في الكنائس ؛ و يُعلن عنه في الكنيسة ، الكنيسة التي هي عذراء ! ليتنا نبعد هذا التصريح عن عروس المسيح ! »[9] فالكنيسة ، جماعة القديسين ، ليست المكان للإعلان عن مثل هذه الأمور : « و امّا الزنى و كل نجاسة او طمع فلا يُسمّ بينكم كما يليق بقديسين . . . فإنكم تعلمون هذا ان كل زان او نجس . . . ليس له ميراث في ملكوت المسيح واللّه . »[10] تلك كانت كلمات الرسول بولُس . إلاّ ان ناظر روما كان بتصريحه ذاك قد ناقضها بشكل مباشر . إذًا اين هي سلطته الرسولية ؟ لكن ادعاءات ناظر روما و جماعته بشأن مغفرة الخطايا سوف تستمر و تبلغ حداً لا يطاق من السخافة خلال القرون اللاحقة .

بقي استفانوس على اصراره على ضرورة ان تلتزم كنائس افريقيا أحكامه ، و أعلن اخيراً أنه لن يحافظ على اية شركة مع الكنائس التي تعمّد ، للمرة الثانية ، أولئك الذين سبق لهم ان اعتمدوا قبلاً . فقال إنه سوف يحرمهم من الكنيسة الكاثوليكية العالمية في حال لم يخضعوا له . و في ضوء هذا التهديد ، قرر كبريانوس ان يجمع اكبر عدد ممكن من القادة المسيحيين المتعاطفين معه في مؤتمر ، يستطيع من خلاله ان يوحّد الأفارقة في معارضتهم لتلك الأوامر المتعجرفة التي يصدرها رجال روما الطموحون . وعليه ، فقد اجتمع 87 ناظراً في قرطاجة في العام 256 م . فأكد المجتمعون في هذا المؤتمر استقلالية الكنائس الإفريقية عن كنيسة روما ، و طرحوا أزمة ادارة الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، و كيف يتوّجب عليها ان تمارس سلطتها . و هذا حتّم الاختيار بين نظام كبريانوس ، أي الحكم بواسطة مؤتمرات النظّار ، و نظام القوانين البابوية الذي يطلبه نظّار روما .[11]

سارت كنائس اوروبا في ركاب استفانوس لبعض الوقت ، بينما عارضته كنائس إفريقيا والشرق الاوسط . و أخيراً ، في العام 314 م ، انعقد مؤتمر للنظّار في آرلْ (Arles) في جنوبي فرنسا ، و قرر ما هو لصالح استفانوس ؛ و هكذا اصبح رأيه بشأن عدم إعادة المعمودية مفروضًا على الجميع . و لم يعش كبريانوس طويلاً ليرى هذا الفشل النهائي لموقفه الذي تمسّك به طوال حياته . ثم عادت العلاقات الودّية بين كنيستي قرطاجة و روما بعد موت

استفانوس في العام 258 م . و لكن المسألة موضوع الجدل لم تنته بأي حال من الأحوال ، كما سنرى لاحقًا . [12]

* * * * * * * * * * * * * * *

و في المؤتمرات ، و النظار يناقشون هذه القضايا و الأمور في قرطاجة و روما ، استمرّ الإنجيل في انتشاره بثبات الى المناطق الداخلية ، يحمله اشخاص اكثر تواضعًا ، و لعلهم ايضًا اكثر أهمية . وفي الواقع ، شهد القرن الثالث حركة دخول بعدد كبير من النساء و الرجال الى ملكوت الله . ففي ذلك الوقت ، استمع الآلاف من الناس ، في السهول و التلال الساحلية لشمال افريقيا ، الى البشارة ، و تجاوبوا معها . و لربما كانت موجة الاضطراب و القلق التي كانت تعمّ في تلك الايام هي التي قادت الكثيرين إلى طلب العزاء و الاطمئنان ، او حتى ايضًا المساعدة العملية من المسيحيين الذين برهنوا انهم اصدقاء مخلصون للفقراء و المحتاجين . و لربما ايضًا التجأوا الى هذا الإيمان الجديد للاحتماء من الأرواح التي طالما عذّبت أسلافهم . أو قد يكون الإنجيل قد استقطب حوله جميع الذين كانوا يصبون الى التحرّر من العبودية على انواعها . و لكن ، مهما كان السبب ، فقد بارك الرب افريقيا الشمالية برجاء جديد و بشعور بالهدف جديد ، وهكذا بدأ الشعب يتذوّقون ثمار الصدق و اللطف و المحبة .

كانت كنائس جديدة تنشأ باستمرار . كذلك كان يصار الى تشجيع اصحاب العقارات والمزارعين في الأرياف على بناء قاعات لاجتماع المؤمنين على اراضيهم ، و أن يعطوا لإعالة الخدام المسيحيين و لدعمهم . و مع نهاية القرن الثالث ، كان هناك عشرون مكانًا للاجتماعات في قرطاجة ، وثمانية في هيبّو و عدد كبير غيرها في الأرياف .[13] و بإمكاننا ان نقتفي فعلاً آثار انتشار المسيحية منَ قائمة النظّار الذين كانوا يحضرون المؤتمرات ، كالمؤتمر الذي عُقد في قرطاجة عام 256 م . ففي تلك السنة ، توافد ممثلون عن كنائس المدن الرئيسة كلها ، امتداداً الى الداخل حتى مسافة ثلاث مئة كيلومتر من قرطاجة ، بالإضافة الى نُومِيْدِيَا ، المنطقة المجاورة لناحية الغرب . و يخبرنا البيان الصادر في ذلك الوقت ، أن المؤتمر اشتَمَل على « عدد كبير جداً من نظّار مقاطعات إفريقيا البروقنصلية ، نوميديا و موريتانيا بالإضافة الى الشيوخ والمدبّرين . » [14]

إن ما يذكره هذا المستند بشأن الزوّار الوافدين من مقاطعة موريتانيا الرومانية ، يؤكد لنا كيف ان الإنجيل كان في ذلك الوقت قد امتدّ ، و انتشر نفوذه الى مسافة لا يستهان بها نحو الغرب . إلاّ ان هويّة هؤلاء المؤمنين الموريتانيين ليست واضحة كل الوضوح . و بموجب البيان الصادر في ذلك الوقت ، لم يوجد بين صفوف النظّار الذين شاركوا في المناقشات الرسمية اي واحد من مدينة معروفة في موريتانيا . فمن إذًا كانوا اولئك المؤمنين الذين توافدوا من الغرب البعيد ؟ ألعلهم كانوا قومًا من المبشرين ارسلتهم كنائس نوميديا او إفريقيا البروقنصلية للعمل في موريتانيا ؟ او هل كانوا موريتانيين قد اهتدوا الى المسيحية حديثًا ، و لم يكن قد اعتُرف بهم بعدُ كنظّار ؟ لقد تمّ تقديم هذين الاقتراحين ، و لكن لا نعلم أيًا منهما هو الصحيح . و هناك احتمال ايضًا ان تكون

كنائس موريتانيا قد قرّرت ، لسبب ما ، ان تكتفي بإرسال مراقبين ، لا ممثلين رسميين عنها . و قد يكون السبب هو عدم رضاهم على منهاج كبريانوس التنظيمي ؛ او لربما أنهم كانوا يعارضون مبدئيًا ، إقامة مثل هذه المؤتمرات لفرض أنظمة وقوانين معيّنة على الكنائس البعيدة . او ربما لم يكونوا يوافقون على الهدف المحدّد لهذا المؤتمر بالذات . و قد يكون ايضًا ان منطقة موريتانيا كانت تحتفظ بصلاتها الرسمية بكنائس اسبانيا من دون كنائس افريقيا ، في ذلك الوقت ، او حتى قد تكون موريتانيا مَنطقة مستقلة اداريًا ، و يحق لنظّارها ان يحضروا المؤتمر من دون ان يكون لهم الحق في المشاركة في اتخاذ قراراته .[15]

و مهما كان السبب وراء هذا التمثيل المتواضع و الصامت ظاهريًا في هذه المناسبة ، هناك مؤشّرات على أن كنائس موريتانيا لم تكن اقل نشاطًا و اندفاعًا من الكنائس الموجودة في الشرق ، على الرغم من كونها اصغر منها و احدث عهداً . كانت هذه الكنائس تنمو بالسرعة نفسها التي كانت تنمو بها كنائس مقاطعات افريقية و نوميدية . فالتقارير عن الشهداء تتحدث عن جماعات مسيحية ناشطة في تِيْبَاسَا ، و قيصرية (شرشال) ، و تَنْجِيسْ (طنجة) ، و ليكسوس (العرائش) في أقصى الغربَ . كما ان الجماعة المسيحية في فُولُوبِيْلَيس (وليلي) في شمالي المغرب ، تأسست بشكل راسخ ، حتى انها استمرت و عمّرت اكثر مَنَ كنيستي قرطاجة و كُوْرِنْثِي .

و هكذا نرى كيف ان الانجيل انتشر غربًا ، كما أنه كان يتحرّك باتجاه الجنوب نحو التلال والسهول الداخلية . هذا لأن الحياة الروحية كانت في ذلك الوقت قد امتدّت متخطّية بكثير حدود نفوذ الامبراطورية . و قد قيل احيانًا إن بداية المسيحية في إفريقيا الشمالية كانت تقتصر على الرومان او على الارستقراطية المرومنة ، و إن الأمازيغيين لم يعتنقوا المسيحية إلاّ بعد ان اصبحوا اولاً رومانيين . ان مثل هذا الكلام ليس صحيحًا على الاطلاق . ففي افريقيا ، كما في سائر مناطق حوض المتوسط ، لم تكن «رومنة » الشعوب ، و نصرنتهم و تحوّلهم الى المسيحية ، يسيران جنبًا الى جنب دائمًا . ثمة قبائل ادّعت أنها مسيحية مع أنها تقطن المناطق الداخلية بعيداً عن النفوذ الروماني . ففي القرن الخامس مثلاً ، نتواجه مع ملك أُوكُوتَامني (Ukutameni) – و ستُعرف هذه القبيلة في ما بعد « بالكُتَامة » من المذهب الشيعي الذي تسلّط ، في ما بعد ، في داخل الجزائر ، و قد اطلق على نفسه جهارًا التسمية « خادم اللّه .»[16] و كان هناك الكثير غيرهم ، بعدهم و قبلهم ، أمراء مسيحيون يحكمون العشائر ، ومجموعات واسعة اخرى من الذين اعترفوا بإيمانهم المسيحي و أعلنوه جهراً . و قد عبّرت هذه العشائر عن ولائها للمسيح اكثر جداً من ولائها للرومان .

فإن لم تكن المسيحية مقتصرة على التخوم الامبراطورية ، لم تكن في الوقت عينه محصورة في المدن الرومانية . هذا لأن عدداً كبيراً من المنفيين و اللاجئين الهاربين من اضطهاد الوثنيين ، وجدوا لأنفسهم طريقًا الى مناطق داخلية مختلفة من افريقيا الشمالية ؛ و لا تزال آثار مبانيهم ومدافنهم موجودة في اماكن عديدة . و من جملتها دار للاجتماعات في شمال تَامُوغَادي (تيمْقَاد - الجزائر) حيث لا يزال هناك صخرة مدوّن عليها اسماء المسيحيين المحليينَ بالإضافة الى اسمي الناظر و المدبّر .[17] لقد برهنت كل القرى التي اكتُشفت أثريًا في المناطق الجنوبية لنوميدية أنها كانت قادرة على بناء كنيسة واحدة على الأقل .

لقد كانت الكنائس المدينية كوزموبوليتانية أي عالمية ؛ كان اعضاؤها من الأمازيغيين المسيحيين ومن المهاجرين من كل اجزاء الامبراطورية ، ناهيك بالمؤمنين من أصل يهودي او فينيقي . كان المثقّفون الناطقون بالإفريقية و اليونانية هم ، من دون شك ، الأعضاء الأكثر تعبيراً و فصاحةً في كنائس المدن ؛ و من صفوفهم برز مشاهير الكتّاب و اللاهوتيين المسيحيين في إفريقيا الشمالية . و لكنهم كانوا بالتأكيد اقلية قليلة . كما انه نادراً ما تذكر السجلات التاريخية لأي بلد اي شيء بخصوص الحياة الناشطة للأميين بين السكان : فالراعي ، وصيّاد السمك ، و الفلاح البسيط لا يدّونون منجزاتهم ، كما انه من السهل على المؤرخ ان يتجاهلهم . و مع هذا ، قد نلمح هنا و هناك الشيء اليسير عن بعض المسيحيين المغمورين ، والذين غالبًا ما تبقى اسماؤهم مجهولة و ذلك بواسطة ما يتوافر عندنا من سجلاّت و نقوش . فحكايات الشهداء مثلاً ، تشتمل على تجّار صغار و جنود في الجيش ، و نساء كنّ يعتنين بعائلاتهنّ ، و عمّال زراعيين و عبيد ، فضلاً عن محامين ، و خطباء ، واصحاب املاك وعقارات و غيرهم من مجتمع الطبقات الراقية . امّا خارج المدن ، فقد كان وجود الأجانب نادراً ، لأن الغالبية العظمى كانت من المسيحيين الأمازيغيين . إن الكثير من النقوش الريفية هو مكتوب بلغة لاتينية ركيكة ، و بخلاف قواعد الصرف و النحو . و من المحتمل ان يكون العضو الأكثر ثقافة في الكنيسة هو الذي كان قد اختير لهذا الواجب . و مع هذا ، فقد جاءت محاولاته ضعيفة وركيكة ؛ حيث كان معظم اخوته في الكنيسة من الأميين على الأرجح . لقد اخترق الإنجيل الى ما بعد حدود المدارس او قاعات المحاكم الرومانية ، و هكذا امست الجماعات المسيحية تضم اعضاء من شتّى الصفوف و الأجناس في مجتمع افريقيا الشمالية .

و مع حلول القرن الثالث للميلاد ، حلّت اللاتينية الى حدّ كبير محل اليونانية ، بصفتها لغة العبادة و التعليم الروحي في افريقيا الشمالية . و لكن ، ماذا عن اولئك الذين لم يكونوا يفقهون أية من هاتين اللغتين الأجنبيتين ؟ فهل كانوا يعبدون و يعلّمون باللغة الأمازيغية ؟ يظهر ان الامر كان كذلك ، فخلال تلك الحقبة من الزمن ، كانت اللغات المحلية مستخدمة في اجزاء أخرى من الامبراطورية . اما الأمازيغية ، فنادرًا ما كانت لغة مكتوبة ، و عليه ، فإنه يوجد أدلة قليلة على استخدامها ؛ قد تنفع هذه اللغة في مجال الصلاة و الوعظ ، لكن النقوش و الوثائق غالبًا ما كانت تحصل باللاتينية ، و هي وحدها الباقية حتى الآن .

هل عارض المسيحيون الأولون استعمال اللغات المحلية في عمل اللّه ؟ ظن بعضهم كذلك ، على الرغم من حقيقة ان يوم الخمسين شهد الكرازة بالإنجيل بواسطة اكثر من عشر لغات مختلفة . لماذا ، إذًا ، ليس هناك ما يدلّ على أن الرسل حاولوا التكلّم بلغات الشعوب الذين خدموا في وسطهم في ما بعد ؟ كان باستطاعة بولس و برنابا أن يوفّرا على نفسيهما الكثير من الارتباك و من المخاطر في لسترة لو كان بإمكانهما مخاطبة الشعب بلغتهم الليكأونية .[18] و لا بد من ان ذلك يعود الى المناخ الاجتماعي الخاص لعالم البحر الابيض المتوسط في زمن الرسل ، ولطبيعة الخدمة التي اخذوا على عاتقهم القيام بها . لقد كانوا يتحركون بسرعة في محيط فريدٍ في

نوعه، حيث كانت فيه الغالبية الساحقة لسكان المدن في كل العالم المعروف آنذاك، يتكلمون اليونانية بطلاقة. لقد اقتصرت خدمة بولس و صحبه على المدن التي فيها يعرف الجميع اليونانية؛ كما ان خدمتهم كانت تتعلّق بالمدن بشكل مميّز. و ما ان كانوا ينتهون من تأسيس كنيسة في مدينة رئيسة معيّنة، حتى يصبح من مسؤولية المؤمنين هناك ان ينقلوا الإنجيل، وينشروه في الأرياف المجاورة. و يخبرنا اوريجانوس كيف ان كنائس المدن في القرن الثالث للميلاد كانت تبعث باستمرار و انتظام مرسليها الى الارياف و القرى.[19] و كانت الجماعات المسيحية المحلية مجهّزة بشكل افضل من الرسل انفسهم للقيام بهذا العمل، لان معظمهم كانوا بالطبيعة يتحدثون اللغة المحلية للمنطقة التي يعيشون فيها.

و تُظهر الرسائل التي دوّنها المسيحيون الأولون في اجزاء مختلفة من الامبراطورية، خلال الفترة التي تلت زمن الرسل مباشرة، انه بينما كانت تستعمل لغة المثقفين و المتعلمين في كنائس المدن، كان هناك توقّع واضح ان يصار الى تفسير الانجيل لسكان الأرياف في لغتهم العامية الخاصة بهم. لقد تحدّث ايرينايوس من ليون (نحو 130 - 200) كيف انه لم يستخدم اللغة الكلتية اقل من اللغة اليونانية في مجال خدمته في جنوب فرنسا.[20] إلاّ أن اسبانيا تزوّدنا بأعظم مثال على ذلك. و في الواقع، يظهر ان الإنجيل قد ازدهر في القرى و الأرياف التي تتحدث الإسبانية، اكثر منه في المدن التي تتحدث اللاتينية.[21] و هذا الشيء يعني، ان الكنائس الإسبانية في بدايتها، لم تأخذ إلاّ دوراً ثانويًا على المسرح العالمي، و ذلك لأنها لم تقدّم من وسطها قادة بارزين او كتابات مشهورة. و كان هذا ثمن استخدامهم لغتهم الخاصة، ولكن هذا الثمن برهن، على المدى البعيد، أنه في محلّه، إذ ضَمن استمرار الكنائس الإسبانية حتى بعد سقوط روما. و لكن، إن كان مسيحيو افريقيا لم يستعملوا اللغة المحلية بالمقدار نفسه، فإنهم بالتأكيد استعملوها اكثر مما ظن بعضهم و اقترح.

و في مصر، و نحو منتصف القرن الثالث للميلاد، يطالعنا بعض المؤمنين المعزولين من سكّان المناطق الصحراوية البعيدة، الذين كانوا قد بدأوا بترجمة الكتاب المقدس الى اللهجات العامية المختلفة للغة التي تُعرف الآن بالقبطية.[22] و ترتوليانوس، كتب من افريقيا الشمالية في تلك الحقبة عينها من الزمن، يخبرنا عن قبائل في المقاطعة الرومانية المعروفة بموريتانيا كانوا يعرفون الأناجيل. و هذا يشير الى أنهم كانوا يتعلمون الأناجيل و يناقشون مضمونها بلغتهم المحلية حتى لو لم يكن بمقدورهم ان يقرأوها بها. و في مدينة هيبو في القرن الرابع، اشار اغسطينوس بشكل واضح الى تقدّم عمل الإنجيل بلغة دعاها « اللغة البونية » (Punique)، التي من المحتمل أنها اللغة الأمازيغية.[23] و في بعض المناطق في ذلك الوقت، يبدو انه كان من الامور المستحبّة، و ربما ايضًا من الشروط الضرورية، ان يكون قائد الكنيسة ملمًا باللهجة المحكية محليًا. فاغسطينوس كتب الى كُرسْپِنْ (Crispin)، و هو قائد مسيحي محلي في كالاما (قالمة الحديثة)، التي تبعد نحو سبعين كَيلَومتراً من هيبو نحو الداخل، يشجّعه على التجوّل بين قطيعه ليتحقق من طبيعة إيمانهم، حتى و إن اضطُر الى ان يصطحب معه مترجمًا.

هناك ادلّة ايضًا على أن الإنجيل قد وصل الى اعماق المناطق الداخلية من إفريقيا الشمالية ؛ ومع ذلك ، فالحق يقال ، إن تقدّمه هناك كان ابطأ ، و كذلك تأثيره أخف وطأة مما كان عليه في مصر نحو الشرق ، او في اوروبا نحو الشمال . فالمسافرون في اوروبا طالما استفادوا من شبكات الطرقات البحرية والنهرية المتوافرة في تلك القارة . كما ان المبشرين المصريين انتفعوا ايضًا بشكل كبير جدًا من سهولة التنقّل في نهر النيل ؛ و هكذا بات بوسع الشهادة المسيحية ان تتبع مجرى اعمال التجارة العادية ، عبر ما يزيد على الألفي كيلومتر من الطريق المائي . اننا نلمس حتى في ايامنا هذه ، اي تأثير فعّال كان لهؤلاء المسافرين ، و ذلك من الكيفية التي فيها لا يزال المصريون الأقباط و سكان جنوب السودان يتمسّكون بمسيحيتهم بعناد . و لربما تكون الترجمة المبكّرة للأسفار المقدسة الى اللغة القبطية والإثيوبية هي السبب للاستمرار في استعمال هاتين اللغتين للعبادة خلال ستة عشر قرنًا من السيطرة الأجنبية . فلو ان مبشّري شمال إفريقيا كانوا قد تحركوا نحو الداخل بأعداد اكبر ، و لو انهم ترجموا الكتابات المسيحية باكرًا الى اللغة الأمازيغية ، لربما كنا قد وجدنا كنيسة أمازيغية مزدهرة حتى في ايامنا هذه .

و لعلّ الطبيعة الوحشية الجبلية الوعرة للبلاد و المحاقة بكل أنواع الأخطار ، هي التي منعتهم عن ذلك . كان يلزم اغسطينوس ان يسافر مدة اسبوع كامل على صهوة حصانه لكي يقطع مسافة مئة وخمسين كيلومترًا من ساحل هيبو الى الكنائس الداخلية المجاورة في سيرْتا (قسنطينة) او ملفيْس(الميلية) [24] و لم يكن بالأمر المستهجن و غير المألوف ان يقوم قطّاع الطرق بخطف المسيحيين وباحتجازهم مقابل المطالبة بفدية لإطلاق سراحهم . لم تكن طرق القوافل الآتية بالملح ، و المواد الصمغية ، و العبيد و الذهب من اقصى الجنوب ، تسهّل على المسيحيين امر توصيل الإنجيل إلى الداخل . و قد كانت هذ ه الطرق تحت سيطرة تجار أشدّاء و قساة القلب يمتلكون عصابات وأتباعًا مسلحين . كانوا يستبدّون بشيوخ القبائل ، و في بعض الاحيان يتآمرون معهم لينقلوا البضائع و الغنائم عبر تخومهم . كان الأمر يحتاج الى مبشّر شجاع مستعدّ ليتورّط في مثل هذه الدروب المحفوفة بالمخاطر ، و هذا يفسّر عدم ذهاب الكثيرين من المبشرين الى المناطق الداخلية . و لكن عدم ترجمة الكتاب المقدس الى اللغات المحلية ، هي مسألة يصعب تفسيرها .

ملاحظات

1- « إن ألمع شرارات الاختراع قد نتجت من تلاقي الحضارات ، و من صراع الأفكار المتضاربة بعضها مع بعض . و حيثما كان الحرص ، لوقت طويل ، على تجنّب هذا النوع من الاحتكاك ، آل ذلك الى ركود فكري ؛ و هذا الركود يميّز دائماً كل مجتمع يعيش في عزلة . »

« انها لظاهرة مألوفة يلاحظها المؤرخون انه غالبًا ما يمكننا ردّ اعظم الاختراعات (كالأبجدية مثلاً) الى المناطق الحدودية بين ثقافة و ثقافة أخرى ؛ و بخاصة الى المناطق الحدودية بين الشرق و الغرب . »

(Parkinson pp. 7 - 8 , 94)

2- Eusebius *Historia Ecclesia II,* 16:1

3- أعمال 18:24 - 26

4- متى 19:16

5- متى 18:18

6- *De Pudicita* 21

7- اقتبسها Walker *TCOSC*

8- غلاطية 2:11 - 14

9- *De Pudicita* 1 . الشيطان هو صاحب اللقب « الحبر الأعظم » في كتابات ترتوليانوس (مثلاً : *Ad Uxorem* 1:8) . اذاً ، لا بدّ من أنه كان لأمر ساخر في نظره أن يقوم ناظر روما بإطلاق هذا اللقب على نفسه .

10- افسس 3:5 - 5

11- لم يكن المونتانيون طبعًا يقبلون بأن تكون هناك سلطة كنسية من هذا النوع . فواضح من العهد الجديد ان الرسل انفسهم لم يكن لديهم أية سلطة تأديبية رسمية على الكنائس . كانوا يواجهون صعوبات مستمرة مع المعلمين الذين أرادوا أن يفرضوا عادات يهودية و مع أولئك الذين يراعون ميولاً غنوسطية ، يشكّلون تجربة مستمرة لهؤلاء الرسل . إلاّ اننا لا نقرأ قط في أي وقت من الأوقات عن رسول ما يُصدر قرار الحرمان بحق كنيسة قامت بدعم هؤلاء الرجال أو تبنّت آراءهم . فالرسل عندما يكتبون الى الكنائس ، يفعلون ذلك لأجل مناشدتها و وعظها و تذكيرها . إلاّ انهم لم يكونوا يلزمونها قط بالخضوع ، و لا حتى يعاقبونها على عدم تجاوبها مع النصيحة المسداة إليها .

السلطة في العهد الجديد ، تكمن بالكلية بين أيدي الشيوخ في كل كنيسة محلية ، و عليهم وحدهم تقع مسؤولية تأديب أعضاء كنيستهم . فالرسول بولس مثلاً ، ينصح كنيسة كورنثوس بأن تؤدّب العضو الضال فيها ، لكنه لا يقوم بنفسه بمعاقبة هذا العضو (1 كورنثوس 5:2- 5) .

و في الواقع ، ان مجموعة الرسل و المشايخ الذين اجتمعوا في أورشليم لبحث مسألة قبول الأمم (اعمال 15) ، لم يكن في حوزتهم أي اسلوب عملي لفرض قرارهم . لكنهم اكتفوا بالاعتماد على قوة الإقناع اللطيف المبني على مبادىء كتابية سليمة ، و المعزّز بصلاة صادقة حتى يقوم الروح القدس بإرشاد القادة المحليين لينتدبوا نفوسهم لاعتناق الحق عن طيب خاطر . و هكذا يوجّهون كنائسهم على أساسه .

12- راجع الفصل 28

13- Hamman p. 289

14- *Septième Concile de Carthage, ANF* Tome V p. 565

15- Février Tome I p . 178 - 181 . يعتبر المترجم في *ANF* أن أربعة من النظار الذين حضروا مؤتمر 256 م كانوا في الحقيقة من موريتانيا قيصريانسيس . قد يصحّ هذا الاحتمال ، لكن يبقى من الصعب جداً تحديد المدن التي جاءوا منها . ان مدن موريتانيا الرئيسة (سيتيفيس ، تيپاسا ، قيصرية ، تنجيس ، و فُولُوبيليس) ، غير مذكورة قط في الوثيقة المعاصرة حول هذا المؤتمر ، في وقت يتوقّع أحدنا حضور نظار من هذه المراكز ، إن كان الموريتانيون ممثّلين رسمياً فيه .

16- Camps p. 175

17- Février Tome I p. 184 ; Raven p. 179 . يلزم إجراء المزيد من الأبحاث حول هذه البقايا . تشير بعض الأدلة الى انه كان هناك في فترة قبل الإسلام ، مسيحيون في عمق البلاد الداخلية ، و ذلك أكثر جداً ممّا يُظن على العموم . و في أماكن عدة ، مرّ المسافرون الأوروبيون الأوّلون بأنقاض أبنية يعود تاريخها بكل وضوح الى ما قبل حقبة الاستعمار ، و التي يذكر السكان المحليون بشأنها أنها كانت تخصّ « المسيحيين » . و لهذه البقايا المسيحية وجود في المناطق الجنوبية البعيدة كوادي سوس وفكيك في المغرب .

راجع مثلاً :

Montagne *Un Magasin Collectif,* Hesperis, 1929 (fig. 22);

Doutté *En Tribu,* Paris , Paul Geuthner, 1914 (fig. 56, p. 260);

Campbell *With the Bible in North Africa,* Kilmarnock, 1944 (pp. 27, 105 - 106);

Meakin (pp. 309 - 311).

لا يمكن اعتبار هذه الشهادة نهائية و قاطعة ، إلاّ أنها مثيرة للاهتمام في الوقت عينه .

18- اعمال 14:8- 20

19- Schaff *HOTCC* Vol. II p. 21

20- Neill p. 34

21- Latourette Vol. I pp. 96-97

22- Neill p. 36

23- في الماضي ، لقد ارتبك كثيرون من الناس بالكلمة « بونية » التي استعملها اغسطينوس للاشارة الى اللغة المحكيّة في الأرياف . . . و على مدى الأزمنة التاريخية جميعها ، كانت اللغة الأم لشعوب سهول نوميديا هي الليبية (أي الأمازيغية) ، لا السامية (أي البونية) أو اللاتينية . . . و إذا أخذ أحدنا بعين الاعتبار حقيقة كون الأمازيغية الحديثة تحتوي على عدد من الكلمات المستعارة من اللاتينية مع خلوّها تماماً من أية لفظات من أصل بوني ، يلزم القبول بأن القرى التي تعامل معها اغسطينوس كانت تتكلم الليبية . و بما أن الليبية كانت لغة " لا يمكن لفظها " في نظر الرومان ، بات من السهل ضمّ اللغات المحلية جميعها تحت التسمية " البونية" .»

« ممّا لا يرقى إليه الشكّ الآن أن اللغة التي تحدّث بها سكان نوميديا القدماء ، كما أيضاً في المناطق الجبلية للمقاطعة البروقنصلية . . . كانت الليبية ، و ليس البونية .» (Frend pp. 57 - 58, 335)

« كان اغسطينوس يُطلق ، بشكل عفوي ، هذه العبارة العامة التقليدية ، (أي البونية) ، على أية لغة محكية ، غير اللاتينية ، في شمال إفريقيا .» (Brown p. 22) .

24- Brown p. 193

الفصل السابع عشر

اشتهار الشهداء

لقد تحيّرت السلطات الرومانية حيال موقف المسيحيين الثابت و العنيد امام الاضطهاد . وحتى تلك الساعة ، لم يعمل السيف إلاّ على تزويدهم بمنبر شعبي عام لنشر الانجيل ، وبقائمة متنامية كُتبت عليها اسماء ابطالهم و صناديدهم الذين كانت كلماتهم وأعمالهم مصادر للإلهام وللسرور التام . و إذ لاحظت هذه السلطات كيف ان التأثير الذي كان يخلّفه وراءهم أولئك الذين استشهدوا بات عظيمًا بل اعظم من تأثير اولئك الذين بقوا على قيد الحياة ، راحت تبذل قصارى جهودها لقمع أعمال تكريم الشهداء . ان الوالي الذي حكم على كبريانوس بالموت هو نفسه الذي كان قد منع المسيحيين من زيارة قبور اولئك الذين سقطوا بسبب ايمانهم . و لكن ، مثل هذا الحظر كان مصيره الفشل : فقد استمر المؤمنون في زيارة مثوى احبائهم ، حيث كانوا يعقدون هناك اجتماعات عبادة بشكل علني .

كانت اسماء الشهداء تُحفظ في« كتاب ذكريات » كل كنيسة ، كما ان الوعاظ و المعلمين غالبًا ما كانوا يستشهدون بالنصوص المكتوبة عن كلماتهم و عن اعمالهم . كذلك كان يُحتفل سنويًا بذكرى موتهم ، و ذلك بقراءة عامة للنص المتعلّق بأيامهم الأخيرة . كتب كبريانوس من منفاه ، في أوج اضطهاد عارم حصل في منتصف القرن الثالث ، يشجّع كل كنيسة على تسجيل تواريخ مصرع شهدائها بالإضافة الى مواقع قبورهم ، حتى يتسنّى الاحتفال بذكرى وفاتهم السنوية بالشكل اللائق و المناسب .

لقد رغب الرجال و النساء الموجودون في السجن ، في ان تكون شهاداتهم مصدر قوّة وتشجيع دائم للجماعة المسيحية . و هكذا عاشوا ايامهم الأخيرة و هم يعون تمامًا انه سيصار بكل محبة الى تدوين أدقّ التفاصيل حولها ، و ذلك لمنفعة الأجيال اللاحقة . و على هذا الأساس عينه ، شعر ايضًا اصدقاء اولئك الذين عانوا الأمرّين انه من واجبهم ان يكتبوا وقائع هذه الأحداث . و هكذا نجد كيف راح الذي دوّن قصة ماريانوس و ياكوبوس ، ينقل الى قرائه شعوره قائلاً إن « شهود اللّه الشرفاء جدًا قد ائتمنوني على مهمة نشر اخبار تمجيدهم : انا اقصد ماريانوس ، احد احب الإخوة على قلوبنا ، وياكوبوس . » و أضاف قائلاً : « فهم سألوني ان احيط اخوتنا علمًا بأخبار صراعهم . » [1]

راح عدد الشهداء يزيد مع تعاقب اجيال اولئك الذين كانوا مستعدّين ان يدفعوا الثمن ، حتى بات كل يوم من ايام السنة هو تذكار لواحد من هؤلاء الشهداء او ربما اكثر . و هكذا اصبحت قراءة اللائحة اليومية بالأسماء و بالقصص المتعلقة بها ، امرًا يستغرق وقتًا طويلاً . كذلك ظهرت محاولات لاختصار قصص اولئك الشهداء الذين قضوا منذ فترة طويلة و في اماكن بعيدة ، ولإضافة تعليقات عن الدروس والعبر الرئيسة التي يجدر تعلّمها من هذه الأحداث . و قد ادى احيانًا عمل اختصار الوقائع هذا ، مع اعادة تحرير النصوص ، الى ظهور عدة نسخ متنوّعة تتعلّق بالشهيد نفسه كانت تُستعمل في كنائس مختلفة . كانت المراجع الأصلية و الأقدم ، هي عادة الاكثر هدوءًا و رزانة . فالحقائق البسيطة كانت ، في جميع الأحوال ، ذات طابع مؤثر ، تعجز عن البلوغ إليه اية محاولة لصياغة الأحداث من جديد بشكل دراماتيكي . لم تكن هناك ضرورة لإبراز جمالها ، لأنها جاءت في منتهى الجمال والروعة .

إن ما وصل إلينا من نصوص للأحداث يتميّز ببساطته المؤثرة و بإخلاصه الواضح . و لهذه القصص طابع الصدق ، و هي تحمل سمة الأحداث التي وقعت فعلاً . لقد اظهر المشتركون فيها انهم بشر حقيقيون فعلاً . كانوا مثلنا فريسة للمخاوف ، كما انهم كانوا يحتاجون احيانًا الى من يطمئنهم ويشجعهم . و في الواقع ، كلّما قرأنا عن هؤلاء الشباب و الشابات ، نجد انفسنا و قد انجذبنا اليهم ، لأن ايمانهم لا يختلف عن ايماننا . و هكذا ، إذ نُسبى بمحبتهم بعضهم لبعض وللمخلّص ، نشعر بأن فارق الألفَي سنة الذي يفصلنا عنهم ، قد زال من الوجود . فنحن نشاركهم رجاءهم الأكيد بالحياة الأبدية ، و قد نتمنّى ان نقف معهم على المنصّة العامة ، لكي ننظر الى ما بعد تجارب هذا العالم الزائل ، الى سعادة الشركة في عالم الخلود . و ذات يوم ، وبكل تأكيد ، سوف نلتقيهم هناك ، و نعرفهم كأناس و ليس كمجرّد اسماء .

كانوا سعداء و فرحين بظروفهم تلك . فالمبادرة أتت منهم ، و لم يحسّوا قط أنهم كانوا مظلومين او أشقياء . كان باستطاعتهم في معظم الأحوال ان يحافظوا على حياتهم ، لو انهم رضوا فقط بأن يلعنوا المسيح ، و بأن يقرّبوا التقدمات المطلوبة . و لكن هذا ما لم يكونوا مستعدين ليعملوه . لقد علموا علم اليقين القرار الواجب اتخاذه ، و لم يكن هناك اية معارضة من جانبهم : اختاروا ان يضعوا حياتهم الأرضية لأجل ما يؤمنون بأنه الحق . ربما نجد في ايامنا الحاضرة انه من الصعب علينا ان نفهم كل هذا التكريس ، و قد يدلّ هذا على ضعف شخصياتنا الروحية و إيماننا أكثر مما يدل على أي نقص فيهم .

و لكن ، كان الشرف المتزايد لحساب الشهداء يبلغ في بعض الأماكن درجات قصوى . فقد اصبحت آثارهم المقدسة ، من ملابس و عظام و كتب و سواها ، محطّ توقير خرافي ، و حتى عبادة . ففي وقت تنفيذ حكم الإعدام بكبريانوس ، جاءوا المناديل و الثياب ، و جعلوها حوله عندما ركع منتظرًا متى يهوي السيف على عنقه ، و ذلك لتلقّي كل قطرة من دمائه ، بغية الاحتفاظ بها . وكان هذا الأمر ممارسة مألوفة . كان الناس يأتون من اماكن بعيدة ، قاصدين مزارات الشهداء ،

حيث تُحفظ آثارهم المقدسة . كانوا يُقبلون لأجل الصلاة و طلبًا للإرشاد الإلهي ، يساعدهم على ذلك ما يحتويه المكان من روابط مقدسة ، بالإضافة الى مثال الشهيد و قدوته . كذلك كان من المألوف ان يطلب المسيحيون دفنهم على مقربة من مثوى الشهيد ، و ذلك لكي يتسنّى لهم أن يقوموا معه في قيامة الأموات في اليوم الأخير .

و قد تتبيّن من توقير آثار الشهيد هذا ، بقايا تأثيرات قديمة و رواسب من مذهب حيوية المادة – العبادة القديمة للأشجار المقدسة و للحجارة السحرية ، و لكن الآن بزيٍّ مسيحي – على الرغم من ان المؤمنين انفسهم لم يروا هذه الأمور قط بمثل هذا المنظار . كما ان قادة الكنيسة كثيرًا ما ما تكلّموا ضدّ هذه النزعات الوثنية ؛ فكلّ من كبريانوس نفسه و ترتوليانوس ، وبّخا المسيحيين على مثل هذه الممارسات الخرافية ، كما حذّراهم من مغبّة الاتكال على استحقاقات الشهداء عوضًا عن الاتكال على كفارة المسيح و على فدائه . كذلك كان على اغسطينوس ان يذكّر بعض سامعيه بأن الاجتماعات المعقودة عند مقابر الشهداء ، لا يُقصد منها عبادة الشهداء بل عبادة اللّه . و مع ذلك ، فيمكننا ان ندرك الشعور الذي كان سائدًا في بعض أوساط الجماعة المسيحية . ان ما حققّه الشهداء من انتصار واثق على قوى الظلام و الموت قد ضرب ، و لا شك ، على وترٍ خفي في قلوب اولئك الذين ناضل اسلافهم بيأس ضد هذه القوى الغاشمة .

و قد نشعر بأن المسيحيين منحوا شهداءهم شرفًا عظيمًا وافرًا . لكن هذا بعيد كل البعد عمّا شهدته بعض المذاهب الشرقية التي تميّز أتباعها بالتعصّب المتطرّف و المتهوّر الذي كان يجعلهم في نشوة لدى معاينة مشهد الدم السائل من جروح يحدثونها بأنفسهم في أجسادهم . لا توجد أية اشارة الى مثل هذا في قصص الشهداء المسيحيين . لقد ساروا بملء اختيارهم ، و بهدوء ، نحو موت كانوا يرحّبون به . لقد سلكوا هذا الطريق بكل برزانة و رباطة جأش . و كل هذا كان ينمّ عندهم عن محبة حكيمة و صادقة من نحو اللّه و الإنسان ، حتى النهاية . لقد كانت كلماتهم الأخيرة توجيهات يقدّمونها لإخوانهم لا لعنات ضدّ قضاتهم .

و ماذا بشأن الجموع الذين سمعوهم و رأوهم في الساحات العامة و في ميادين الإعدام ؟ إذ نقرأ قصص الشهداء ، قد نندهش من حقيقة ان حشود الوثنيين كانوا في نهاية القرن الثالث يُقبلون لمشاهدة المسيحيين ، و ذلك بدافع الفضول وحب الاستطلاع ، لا بدافع الغضب . لقد انتهى الزمان الذي كان فيه اتباع المسيح هدفًا للامتعاضات المتّقدة ، و ضحية للشائعات المغرضة . ربما بدأ الناس الآن يشفقون عليهم ، لكنهم كانوا أيضًا يحترمونهم . لقد تمكّنوا بفضل ايمانهم الثابت ، و بهجتهم القلبية ، من ربح الكثيرين الى جانب قضيتهم . و هكذا استمرت هذه الثمار الى ما بعد مخاض الموت النهائي لوثنية محكوم عليها بالهلاك .

* * * * * * * * * * * * * * * *

كانت آخر محنة كبيرة عانتها الكنائس ، هي تلك التي ارتبطت باسم الامبراطور دِيُوقْلِطْيَانُوس (Dioclétien) . نشأ هذا الامبراطورمن أصلٍ متواضع ، و كان والداه عبيدًا في

خدمة أحد الشيوخ الرومان . بايعته الفرَق العسكرية امبراطوراً في اليوم عينه الذي غمد فيه سيفه في جسم آمر الجيش ، بعد ان اعتبره ، و من دون تحقيق او محاكمة ، أنه هو الذي قتل آمر الجند السابق . و يشهد ترفيعه الاستثنائي هذا لمدى قساوته ، كما يشهد لقدراته الشخصية . و سرعان ما انكبّ ديوقلطيانوس على ترسيخ السلطة الرومانية ، و على إصلاح الأمور الإدارية في الامبراطورية .

انها من المتناقضات الغريبة حقًا ان يكون القصر الامبراطوري ، في عصر ديوقلطيانوس ، كما في فترات سابقة اخرى ، هو نفسه ، في الواقع ، حصنًا للمسيحية.[2] هذا لأن كلاً من زوجة ديوقلطيانوس پريْسكَا (Prisca) ، و ابنته ڤاليريَا (Valéria) ، قد عُرفتا بإيمانهما بالمسيح ، كما كان ايضًا حال اثنين من افضل مستشاريه نفوذاً في البلاط . كان الشعب قد نعم ببعض الحرية الدينية على مدى عدة سنوات قبل ان تبوّأ ديوقلطيانوس العرش ، كما ان سياسة التساهل الديني هذه استمرّت لثماني عشرة سنة اخرى بعد تسلّم هذا الامبراطور السلطة . كانت ترد بين الفينة والأخرى أخبار عن قضايا افرادية تتعلق بمعاملات سيئة و ظالمة على ايدي بعض الإداريين التسلّطيين ، غير انه لم يكن هناك ضيق عام على الكنائس خلال هذه الفترة . و في الواقع ، كان هناك شعور سائد بأن قوانين التساهل الديني التي كان قد اقرّها بعض الأباطرة الحديثي العهد – وبشكل رئيس الامبراطور غَاليَانُوس (Galliénus) الذي كان في العام 261 م قد سمح للكنائس باقتناء املاك خاصة – جعلت المسيحية تُعتبر من الأديان الموافق عليها رسميًا في الامبراطورية .

كانت كنائس إفريقيا الشمالية مزدهرة على مدى فترة الأربعين سنة الفائتة . فبنوا قاعات و مواقع للاجتماعات في المدن . كما ان عددًا كبيراً من الناس انضموا الى الإيمان ، وهكذا برزت الى الوجود مجموعات مسيحية جديدة في اماكن لم يكونوا يتواجدون فيها من قبل . ولكن في حالات كثيرة ، كان هذا النمو ، كما سيظهر لاحقًا ، كشجرة بأوراق و لكن من دون ثمار . لقد كانت حشود الذين دخلوا الكنائس يتمتّعون بالحياة ، و يقرّبون الشكر و الامتنان على ذلك ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون حتى ذلك التاريخ ، الا الشيء القليل عن تحدّيات الإيمان أو صراعاته ؛ لم يكن ايمانهم قد وُضع على المحك بعد . فبالنسبة الى الجيل الأقدم ، لم تعد محن الماضي سوى مجرّد حنين الى ذكريات ذهبية . لقد ازدادوا رخاوة ، كما ان همّتهم الروحية بردت بفعل حياة الترفّه و الكسل ، حتى انهم لم يعودوا مستعدين إطلاقًا لخوض المعارك الروحية العنيفة .

فالامبراطور ديوقلطيانوس ، و بالرغم عن نفسه ، اقتنع اخيراً بآراء الفلاسفة الوثنيين الذين كانوا يرتادون بلاطه ، و هكذا قرّر اتخاذ خطوات من شأنها ان تكبح نمو الكنيسة العظيم . لقد جاء مرسومه الأول الذي اصدره في العام 303 م كإعادة تثبيت لقرار فاليريان الذي كان قد اتخذه في العام 258 م ، غير انه حذف منه ما يتعلّق بعقوبة الإعدام ، و بالعقوبات المتعلقة بالنساء المسيحيات من الطبقة الأرستقراطية في المجتمع . و بالرغم من كل هذا ، فقد جاء هذا التشريع الجديد شاملاً و صارمًا : كان من الضروري هجر بنايات الكنائس و التخلّي عنها . كذلك

امر بحرق المطبوعات المسيحية كلها ، وان يصار الى تجريد المسيحيين من املاكهم و منازلهم . لقد اصبح محظوراً عليهم ان يجتمعوا . و اخيراً كان جميع الرجال الأحرار الذين اعترفوا بالإيمان يُحطّ من قدرهم ، ليصبحوا في مرتبة العبيد الذين لا يتمتعون بأية حقوق قانونية او مدنية .

عمّ الاضطراب شمال افريقيا بعد هذا الإعلان الامبراطوري . و عليه ، فالذين ادعوا قبلاً بأنهم مسيحيون ، أعلنوا انهم ليسوا مسيحيين . إلاّ أنّ آخرين ، بالمقابل ، اكتشفوا في قرارة نفوسهم شيئًا من النشاط الروحي و الجرأة المقدسة ؛ فكان هذا الشعور جديداً تمامًا عليهم . هذا لأن اعترافهم العلني الأول الذي جاء خجولاً الى حدّ ما ، عاد فأحيا فيهم ايمانهم الذي كان يقبع في كسل بليد حتى ذلك الوقت ، كما انه اوحى اليهم بعزم جديد للوقوف مع المسيح و مع شعبه . و بالطبع ، فإن محاولاتهم الخجولة الأولى لإعلان هويتهم على حقيقتها ، غالبًا ما كانت تبعث فيهم الطمأنينة و تمنحهم فرحة ، الأمر الذي شجّعهم على الاستمرار في المجاهرة بالمسيح في كلّ مناسبة ، في داخل جدران السجن ، او خارجها .

و في أبيتينَا (شَاوُودْ) وحدها ، و هي مدينة صغيرة تقع بالقرب من قرطاجة ، ألقي القبض على تسعة و أربعين شخصًا : ثلاثين رجلاً و تسع عشرة امرأة ، اعترفوا بعقد اجتماعات مسيحية كانت محظورة عليهم . و بعد إحضارهم الى قرطاجة ، استمروا يجتمعون في السجن نفسه ، يعبدون ويصلّون و يتلون ما تيسّر من فقرات من الكتاب المقدس كانوا قد حفظوها غيبًا . كان معظم هؤلاء الرجال من الطبقات السفلى في المجتمع ، من الصنّاع و الحرفيين ، على الرغم من ان واحداً منهم كان عضواً في المجلس البلدي .

و قبل توقيفهم ، كانوا قد درجوا على الاجتماع لقراءة الكتاب المقدّس في بيت احدهم و يدعى إمريتُوس (Eméritus) . فتمّ احضار هذا الرجل لأجل استجوابه ، فسأله القاضي : «لماذا سمحتَ لهؤلاء القوم بأن يدخلوا بيتك ؟ » فاجابه إمريتُوس : « لأنهم اخوتي وأخواتي ، ولم أتمكّن بالتالي من منعهم من الدخول الى داري . » « لَكن ، » خاطبه القاضي بإصرار ، «كان يتوجّب عليك ان تمنعهم . » فردّ عليه إمريتوس : « بالطبع لا ، إذ لسنا صالحين ما دمنا لا نعلن الرب معًا . » فأجابه القاضي : « انَ اوامر الاباطرة و القياصرة هي التي يجب ان تأتي في المرتبة الاولى .» عند ذاك قال له إمريتوس : « اللّه هو اعظم من الامبراطور .» و عندما عاد القاضي و سأله : « هل لديك اية كتابات مسيحية في دارك ؟ ؟ » اجابه إمريتوس : « انها في داخل قلبي .» ثم تخبرنا هذه الرواية كيف ان القاضي ، بعد ان شعر بأنه لم يحرز اي تقدّم ، امر بإعادة المجموعة المسيحية الى السجن من جديد ، حيث استُبقوا هناك لفترة طويلة من الزمن .

في المراحل الأولى من الأزمة ، حاول المدعو فُنْدانُوس (Fundanus) ، و هو ناظر كنيسة ابيتينا ، ان يتوصّل الى تفاهم مع السلطات ، إذ سلّمهم الكتاب المقدس الخاص بكنيسة ابيتينا ، مبيّنًا بذلك ، و لو ظاهريًا على الأقلّ اذعانه للقانون . إلاّ انه ، و على اثر عملية احتجاز مسيحيي مدينة

ابيتينا في قرطاجة ، سعى مَنْصُورِيُوس (Mensurius) ، و هو ناظر كنيسة قرطاجة ، و بمساعدة معاونه كايكيليان (Caecilien) ، إلى نزع الفتيل اذ حاولا ان يثنيا الحشود الغفيرة عن التجمهر حول السجن . وهكذا راح الشقّ يتّسع اكثر فاكثر بين المؤمنين المتحمسين من الأفارقة ، و نظّارهم المتحفظين و الحذرين . و سرعان ما أدّى هذا ، كما سنرى لاحقًا ، الى ظهور أكبر جدل واجهته كنائس إفريقيا الشمالية .[3]

لقد صدرت الأوامر الى منصوريوس نفسه ، و هو الناظر الثالث في كنيسة قرطاجة بعد كبريانوس ، لتسليم ما في حوزته من نسخ الكتاب المقدس المكتوبة باليد الى السلطات الرومانية ، ليصار الى حرقها و إتلافها . لكنه اخفى هذه النسخ بجرأة جديرة بالثناء و الإطراء ، و سلّم السلطات بعض الكتب الهرطوقية عوضًا عنها . و لكن الآخرين كانوا اقل منه فطنة او جرأة . وفي حوزتنا التقرير الرسمي عمّا حدث في كنيسة سيرتّا (قسنطينة - الجزائر) ، و ذلك استنادًا الى السجلات الشرعية للسلطات الرومانية . فقد اقبَل الحاكم المحلي فجأة ، و برفقته بعض الرجال ، الى « البيت الذي كان يجتمع فيه المسيحيون » . فالتقى هناك بالناظر بولس ، و معه قادة الكنيسة جميعهم تقريبًا . و بموجب ما ينص عليه المرسوم الامبراطوري و التعليمات التي أُعطيت له ، أمر الحاكم المسيحيين بتسليم كلّ الكتب المقدسة بالإضافة الى سائر الاشياء الدينية . و من هول المفاجأة ، صمت الجميع إذ لم يعرفوا ماذا يقولون ؛ كما ان احدًا منهم لم يظهر أية معارضة . أمّا الناظر بولس ، فأعلم المسؤول ، و ببرودة أعصاب ، أن الكتب كانت في حوزة قرّاء الكنيسة . ثم جلس بعد ذلك لا ينبس ببنت شفة ، فيما راح المسؤولون يفتشون غرفة الاجتماع ، و المخازن ، و المكتبة ، و الحجرة التي يتناول فيها المؤمنون وجبة طعامهم المشتركة ، بالإضافة الى سائر ارجاء المبنى . ثم قاموا بإعداد قائمة بالمواد التي ضُبطت ، ولم يحدث الشيء الكثير عدا ذلك . كان اكتشاف بعض المواد المخفية يحُدث بعض الضجة ؛ فالحاكم الروماني كان ينفث بتهديداته الرهيبة و المرعبة ضد أي فرد يخفي أيّ شيء عن السلطات . و على اثر ذلك ، راح عدد من المسيحيين ينطلقون بسرعة هنا و هناك ، و هم يأتون بالكتب امام الحاكم ، لعلهم كانوا يأملون من وراء ذلك تملّقه و كسب رضاه . و في هذا الوقت ، وقف اثنان من المدبّرين بخجل ، متنفضين على هذا الشكل من الاستسلام المذلّ ؛ و رفضا أن يجيبا عن الأسئلة التي وُجّهت اليهما . وللحال تمّ تكبيلهما بالقيود . ثم غادر الحاكم المكان و توجّه في جولة على بيوت القرّاء المرتبطين بالكنيسة . و في كل مكان كان يتمّ تسليم الكتب و الأوراق . و إن لم يكن الزوج موجودًا في الدار ، كانت زوجته المرتبكة تفتش البيت على عجل ، و تسلّم كل ما تقع عليه يداها من اوراق و كتب الى الحاكم .

بهذه الطريقة تُختتم الوثيقة الشرعية . فالنص طبعًا ، كان قد كُتب بإيعاز من اولئك الذين كانوا يحتقرون المسيحيين و يحطّون من قدرهم . لم يكن يقصد اظهارهم بمظهر لائق . لكن قيمة هذه الوثيقة تضاعفت لهذا السبب عينه ، بحيث انه يلقي الأضواء على الوجه الآخر للحقيقة ، هذا

الوجه الذي يختلف عن الذي طالما ظهر بوضوح في القصص البطولية عن الشهداء . اننا نرى في هذا المستند البارد بعض الأطياف لأمور قلّما يؤتى على ذكرها في خلفيات النصوص التي تُعنى اكثر بالبطولات . يكشف لنا هذا التقرير الشرعي عن الإذعان الضعيف الواهن عند اولئك القادة الخائفين في كنيسة سيرتا . ولربما كان عددهم كبيراً . و لكن ، بعد مرور عدة اشهر ، نجد أناسًا مثل هؤلاء و قد اصطبغوا بإيمان متجدّد ، و امتلأوا حماسة ، حتى انه اصبح بوسعهم ، و بملء ارادتهم ، ان ينضموا طوعًا الى صفوف الشهداء . تلك كانت الطبيعة المعجزية للمسيحية في افريقيا الشمالية : فالخشب كان يظهر في بعض الأوقات أنه جاف جداً ، لكنه لم يكن يحتاج في الواقع الاّ الى شرارة صغيرة لإضرامه و جعله يلتهب بقوة . 4

و بعد هذا بوقت قليل ، شبّ حريق حقيقي في قصر ديوقلطيانوس في مدينة نيكوميديا (شمال غربي تركيا) . و على اثر ذلك ، تم تعذيب عبيد بيته في محاولة لمعرفة هوية الفعلة . ولم تمضِ الاّ بضعة ايام ، حتى شبّ حريق آخر . فتسبّب هذه المرة في الاساءة الشديدة الى المسيحيين المقيمين داخل القصر . فأُرغمت كلّ من زوجة الامبراطور و ابنته على تقريب التقدمات للآلهة الوثنية ، كما أُعدم مستشاراه المسيحيان مع ناظر كنيسة نيكوميديا ايضًا . لذلك احتجّ المسيحيون معتبرين انهم ابرياء . إلا انه حدث ان هذين الحريقين تزامنا مع تبنّي المملكة الأرمنية المسيحية ، و اختيارها لها كدينها الرسمي ، و هي التي تقع عند الحدود الشرقية للامبراطورية . كذلك وقعت ثورات داخل الاجزاء الرومانية المتاخمة و المحاذية للمناطق الخاضعة للدولة الأرمنية . و هذا ما دفعه إلى إصدار مرسومه الثاني ، يأمر فيه بإلقاء القبض على القادة المسيحيين جميعهم .

كان دكيُوس ، قبل نحو اربعين سنة ، قد حاول ان يسحق الكنيسة ، و ذلك بإرهاب المسيحيين لحَمَلَهم على تركها . إلاّ ان اسلوب ديوقلطيانوس جاء مختلفًا : لقد خطّط لتدمير الكنيسة من طريق محق قيادتها و أدبياتها . كانت محاولة دكيوس استئصال المسيحية بالقوة من الامبراطورية ، غير مجدية بشكل واضح ، امّا خلفه ، فكان يأمل بأنه بإمكانه ، على الأقل ، ان يسبّب في تداعي ادارتها و نظامها . و ربما ، اذ تجرّد الخراف من رعاتها ، تتيه عن الكنيسة طوعًا و من دون إكراه . و هكذا استمر الاضطهاد شهراً مشؤومًا تلوَ الآخر خلال العام 303 م .

و في شهر دجمبر ، كان ديوقلطيانوس قد اكمل عامه العشرين في الحكم ؛ و في هذه المناسبة ، اعلن عن عفو عام . و على اثر ذلك تمّ منح قادة الكنائس الذين كانوا قد اعتُقلوا حديثًا فرصة للحصول على الحرية مقابل انكارهم للإيمان المسيحي ، و تقريبهم التقدمات للآلهة الوثنية ؛ امّا البديل ، فهو مكابدة التعذيب الشديد . و عليه ، فرغت السجون بسرعة ، و لربما كان السبب يعود جزئيًا الى كون حكّام السجون قد اغتنموا هذه الفرصة لإطلاق سراح المسيحيين الذين اظهروا براءتهم خلال احتجازهم ، كما كانوا كذلك من قبل .

و في ربيع السنة التالية ، ألمّ بديوقلطيانوس مرض عضال ، و يبدو أنه فقد من جراء ذلك عقله لبعض الوقت . و على أثر مرض الامبراطور هذا الذي تسبّب له بتنازله عن العرش ، قرّرت الزمر الوثنية القوية التي كانت تهيمن على مجلس الشيوخ الروماني ، ان تتحرك من جديد لقمع المسيحية واستئصالها بالكامل . فأصدروا في العام 304 م أقصى و أعنف مرسوم اشتراعي ، يقتضي قتل كل المسيحيين الذين يرفضون تقريب التقدمات للأوثان . ثم قام الامبراطور غاليريوس (Galérius) بتطبيق هذا القرار الوحشي ، فبلغت المذابح آنذاك اوجها في سنة 308 م . التي كانت أرعب السنوات على الاطلاق . و في السنة التالية ، كان غاليريوس نفسه مستلقيًا على فراش الموت يعذّبه ذلك المرض الكريه نفسه الذي كان اللّه تعالى قد جلبه في حكمه قديمًا على هيرودس اغريباس .[5] و قبيل موته في العام 311 م ، اصدر غاليريوس مرسومًا غريبًا في نوعه ، يقتضي إعادة المسيحيين الى جميع امتيازاتهم . وهو يختمه بطلب حزين مثير للشفقة ، يدعو فيه المسيحيين الى ان يذكروا ، في صلواتهم ، امبراطورهم الذي يعاني سكرات الموت .

و بعد سنتين من هذا ، انتهى الاضطهاد . و أُعلنت المسيحية الدين الرسمي في الامبراطورية الرومانية . إن تبوّء قُسْطَنْطِينْ (Constantine) سدّة الحكم ، بالإضافة الى مرسوم ميلانو الصادر في العام 313 م ، وضعاَ حداً لتلك الآلام البطولية التي عانتها الكنيسة المسيحية على مدى قرنين ونصف من الزمن .

ثمة ايضًا قصّة واحدة نرغب في سردها قبل ان نترك روايات الشهداء . و يظهر انها وقعت بعد فترة الاضطهاد الكبير ، حيث قيل إن معابد الآلهة كانت منهدمة . إلاّ ان المسيحيين كانوا لا يزالون اقلية في تلك المدينة التي وقع فيها الحادث ، فاهتاج الوثنيون بشدّة و قاموا معًا لمناصرة صنمهم . والقصة تتعلق بفتاة شابة تعيش في المدينة الساحلية تيپاسا (الجزائر) . كانت في الرابعة عشر من عمرها و اسمها سَالسَا (Salsa) . لقد اختارت طريق المسيح ، و اعتمدت باسمه ، مع ان ابويها كانا وثنيين . ثم جاء اليوم الذي احتشد فيه اهل تيپاسا للاحتفال بعيد التنين ، وهو إله محلي ممثّل بصنم بهيئة حيّة برونزية ، رأسها من ذهب . كان معبد هذا الإله يقع على صخرة بارزة فوق البحر .

كانت سالسا غير راغبة في اصطحاب ابويها الى هذه الاحتفالات في معبد الإله التنين ، إلاّ انها ذهبت معهم اخيراً شعوراً منها ان ذلك هو من واجبها كابنة . راحت تراقب مرتجفة الطقوس الفاحشة التي كانوا يقومون بها ، ثم حاولت عبثًا ان تنبّه ابويها و مَن حولها من الناس الى الاشمئزاز الشديد الذي شعرت به آنذاك . لكنهم ضحكوا عليها وسخروا منها . ثم خُتم الاحتفال ، كما درجت العادة ، بمأدبة تلاها احتساء وافر من المشروب الذي سُكب منه لأجل الإله ، و بعد ذلك جاء وقت القيلولة الطويلة . فانتهزت سالسا فرصة نوم الجميع ، و انسلّت الى

الحرم المقدس لهذا الصنم ، ففصلت رأس الصنم الذهبي عن بقية جسمه و رمته عبر المنحدر الى البحر . و ليس صعبًا ان نتصوّر غضب الرعاع الشديد عندما صحوا من غفوتهم ليجدوا ما حلّ بصنمهم . و انتظروا يراقبونه عسى ان يعود المذنب الذي ارتكب هذه الفعلة فيطالونه و هو متلبس بجريمته . و من دون اي تردد ، صممت الفتاة ان تُلحق جسم الصنم برأسه . و نجحت للمرّة الثانية في دخول المعبد و في ازاحة الجسم البرونزي لهذه الحيّة من مكانه . و هكذا ألقت ما تبقّى منه لكي يتهشّم على الجرف الصخري ثم يسقط في البحر . لكن سالسا قُبض عليها هذه المرة . فهجم عليها العابدون الساخطون و الحانقون ، و مزّقوا جسدها شرّ تمزيق ، وقذفوا به من على قمّة المنحدر الصخري الشاهق . فهرع المسيحيون و لملموا جثتها من الماء ، ثم دفنوها قرب الميناء . و لا تزال بقايا ضريحها المزيّن بالفسيفساء و النقوشات ، موجودة حتى ايامنا .

و بمرور الوقت ، انتشرت الأساطير حول هذه الرواية البسيطة . و ذكرت احدى هذه الروايات عن جثمانها ، كيف تناقلته امواج البحر الى ان علق بمرساة احدى السفن التجارية . وعلى اثر ذلك عصفت رياح عاتية في المكان استمرت على مدى ثلاثة ايام ، و لم تتوقف إلاّ بعد إصعاد الجثة من الماء ، إذ جرى تنبيه قبطان السفينة و انذاره من طريق أحلام متلاحقة . و بعد عدة سنوات ، اي في العام 372 م ، ثار رئيس قبيلة افريقية على القوى الحاكمة في روما ، و بعد ان عاث فساداً في مدن الولاية ، عانى تجربة تنذر بشرّ ، و ذلك عند دخوله ضريح سالسا خارج جدران تيپاسا . لقد تمكن سكّان المدينة من دحره بسرعة ، ثم مات بعد ذلك بوقت قصير . والفضل يعود ، كما قيل ، الى تدخّل الشهيدة في هذه القضية .

فإن الإيضافات التي رافقت القصة الحقيقية لسالسا ، يجب الاّ تنسينا اخلاصها البسيط في اصرارها على تسديد ضربة فعّالة على أباطيل الوثنية . ان هذه الشابة البريئة ، التي احبّت الحق اكثر من الحياة ، اسرت ألباب ابناء جيلها . لقد اصبحت اكثر من مجرد بطلة محلّية . و الضريح الذي شُيّد فوق مدفنها ، جذب المسيحيين من كل انحاء الولاية و من اماكن بعيدة ممتدّة حتى الى بلاد الغال و إلى سوريا . و كانت كنائس افريقيا الشمالية و لا سيما كنائس اسبانيا و إيطاليا تحتفل سنويًا بيوم استشهادها . ويحيط بقبرها مدفن كبير لا يزال موجوداً حتى يومنا هذا . و يختار كثيرون من المسيحيين الراشدين ، و ذوي الاختبار المسيحي الواسع ، ان يُدفنوا قرب النقطة التي ترقد فيها هذه الفتاة الشابة . وهم بذلك يتشبّهون ، في شيخوختهم ، بتلك القضية التي ناضلت من اجلها سالسا بشكل عفوي ساذج ، عندما كانت في ريعان شبابها .[6]

عُذِّبوا بشدَّة
واضْطُهِدَوا بِعُنف
لكنَّهم تَمسَّكوا بإيمانٍ راسخ
بأَنَّ المسيحَ قد قام
وبأنَّ الناسَ سَيَقومون
في الدَّهر الآتي
وبأنَّ الجسَدَ سيحيا إلى الأبد .
إيمانُهم الـمُعلَن
كان بلا خوف
فأنتجَ غَلَّةً في كلِّ مكان
إذْ كان دمُ الشُّهداء
هو البِذارُ الذي زُرِع .

اغسطينوس[7]

ملاحظات

1- Monceaux Tome II p. 157

2- بولس نقل تحيات الى كنيسة فيلبي من « جميع القديسين و لا سيّما الذين من بيت قيصر . » (فيلبي 4 : 22)

3- Monceaux Tome III pp. 96 - 101; Frend pp. 8 - 10

4- Monceaux Tome III pp. 93 - 95

5- أعمال 22:12 و 23

6- Monceaux Tome III pp. 164 - 167

7- *De Civitate Dei* 22:7

الفصل الثامن عشر

نـــداء المســيــح

ان الفترة التي تفصل بين موت كبريانوس في قرطاجة و تعيين اغسطينوس في العام 395 م ناظر الكنيسة في المدينة المجاورة هِبُّو (Hippone)، تزيد على المئة سنة . و خلال هذه الفترة بالذات تطالعنا شخصية أرْنُوبِيُوس (Arnobius) الغامضة . فإن لم يكن ارنوبيوس في المستوى الروحي و العقلي نفسه لترتوليانوس و اغسطينوس فإنه يعادلهما ، و لا شك ، في حبه لمسقط رأسه و لشعبه .

وُلد ارنوبيوس في العام 260 م . كان في شبابه معلّمًا مشهورًا ناجحًا في علم البلاغة و فن الخطابة في المدينة الصغيرة سكّا (Sicca) (حاليًا تدعى الكاف بتونس) . كانت محاضراته مفعمة بالحيوية ، نظرًا لاستخدامه الإيضاحات و الصور البيانية المستقاة من معرفته الواسعة بالمسرحيات اليونانية واللاتينية الشهيرة ، بالإضافة الى سائر الكتب الأدبية الأخرى المعروفة في عصره . و هو يصوغ الكلّ معًا بأسلوب دافىء و حي في آن . كان يحقّ لبني قومه في سكّا ان يعتزوا مفتخرين بابن بلدهم المثقّف اللامع ؛ كما انه لا بدّ لتلاميذه من انهم أُخذوا بولائه العَميق وبغيرته للمدينة الإفريقية حيث وُلدوا جميعهم . تزخر كتاباته بالإشارات الى الريف الذي طالما عرفه في صباه . فإذا ذكر الكوارث و الفواجع ، فإنه يشير الى ما شهده من ايام الجفاف ، و القحط الذي حلّ بالبلاد بسبب الجراد . امّا اذا تحدّث عن غنى هذا الريف ، فإنه يتحدّث عنه مشيرًا الى قطعان الأغنام ، و الى الزيتون و الكروم . انه يحكي عن الجمل الذي إذا أُنيخ ، توضع على ظهره الأحمال . كما انه يعود بالذاكرة الى سنة معيّنة حين كانت الأصقاع الداخلية لأراضي الجيتوليين (Gétules) جافة و مقفرة ، فيما نشط الحصاد بشكل رائع في السهول الساحلية التي تخصّ جماعة المورين (Maures) و النوميديين (Numidiens) .

كان ارنوبيوس أمازيغيًا ولادة و منشأ ، و هو يفتخر بهذا الانتماء . و قليلاً ما كان يحبّذ السلطة الرومانية . و هو يتحدث عن آلهة الوثن القديمة في إفريقيا الشمالية من منطلق معرفته الشخصية بها ، ساخرًا بالآلهة الرومانية المستوردة و التي تبدو رديئة و في ادنى منزلة من تلك . يسرّه إعادة رواية القصص عن إفريقيا و امجادها القديمة ، كما يهوى ايضًا تذكّر ان هَنّيبَعْل (Hannibal) القرطاجي ، استطاع في وقت من الأوقات ان يجعل اساسات روما نفسها ترتجف . وهو ينظر الى الغزو الروماني بصفته من المحن التي رزح تحتها بنو جنسه .

لكن ، و في مجال المناظرات الدينية ، كان ارنوبيوس يقف دائمًا موقفًا معارضًا من جماعة المسيحيين في مسقط رأسه . و يبدو أن عددهم كان كبيراً : لقد اشترك ناظر من سكّا في مؤتمر كبريانوس المنعقد في العام 256 م ، و لا تزال خرائب امكنة اجتماعاتهم موجودة حتىَ اليوم . و لا بدّ من ان يكونوا قد وجدوا في مدرّس البلاغة المتضلّع من المادّة ، و الخطيب الوثني الواسع الاطلاع ، خصمًا مرعبًا ، سواء أحصل ذلك في المباحثات الشعبية العامة أو الخاصة . و من جهته ، لا بدّ من انه استساغ هذه المقارعة واستمتع بها . كان في محاججته اقوى من معظم المسيحيين إذ لم يكونوا يحظون مثله بدرجة عالية من الثقافة . و لكن بالرغم من كل هذا ، فقد كان متأثراً بمقدار و لائهم العنيد لمعتقداتهم ، و بصمودهم الرائع في زمن المرسوم الوحشي الذي اصدره ديوقلطيانوس .

إن اهتمام ارنوبيوس العميق بشتّى المسائل الأدبية و الأخلاقية ، دفعه الى البحث في كل ما يصادفه من فلسفات و ديانات . و لكن ، يظهر انه لم يجد الجواب الوافي في اي منها . كان عنده شوق داخلي غريب الى الإيمان ، و كان هذا الشوق يؤلمه . كان يرغب في ان يكتشف الحق لكي يبدأ على هذا الأساس يتعبّد لأية آلهة أو أرواح قد يعلنها له هذا الحق . وبينما كان يمارس الشعائر و الطقوس الوثنية كلها ، مهتمًا بمراعاة أدقّ تفاصيلها ، لم تتمكن لا عبادة الأصنام و لا حكمة الفلاسفة من اشباع غليله . لقد اعترف بعد مرور بضع سنوات و بشيء من الخجل قائلاً : « كنت أعبد ، و ويحي كم كنت اعمى في عبادتي ! لقد كنت أعبد التماثيل المعدنية التي يصنعها الحداد في دكانه ، و هي آلهة مطروقة على السندانة بضربات من مطرقته ، كنت اعبد انياب الفيلة ، و الرسوم ، و الشرائط المربوطة الى الأشجار القديمة . فإذا ما رأيت حجراً مصقولاً وممسوحًا بزيت الزيتون ، كنت أتوقّع أن اجد فيه قوّة إلهية ، فأركع امامه و استنجد به و اتضرّع إليه صارخًا . كنت اطلب المعروف و الحسنة من حجر أصمّ لا يحسّ و لا يتفاعل .»[1]

لكن الاحساس بالخزلان بدأ يدبُّ في نفسه شيئًا فشيئًا . و لم يعد يرى في عبادة هذه الأصنام ، صنعة ايدي البشر ، سوى أوهام حمقاء . كذلك ازدرى بأساطير الآلهة الرومانية وبخرافات الأديان السرية . كثيراً ما كان موطن أرنوبيوس يدعى سكّا مدينة فينوس (Vénus) ، لأنها كانت مركز العبادة القذرة لإلاهة الشهوة . ففي معابدها ، كانتَ العذارى يضحّينَ بعفّتهنّ . من هنا ، كان أرنوبيوس صارمًا للغاية في إدانة نجاسات الآلهة الوثنية ، و التي يتصدّرها جوبيتر نفسه في شتى أشكال الرذيلة .[2]

لكنه كان ينظر الى السحر نظرة مختلفة . لم يكن يشكّ ابدًا في أن قوى حقيقية (اعتبرها في ما بعد قوى شيطانية) تكمن وراء اعمال السحر الاسود التي طالما مارسها اسلافه و اجداده ، وعلى مدى أجيال طويلة ، قبل ان أقبل الرومان الى افريقيا الشمالية . لقد رأى بأمّ عينيه عمل هذه القوى . و بعد اهتدائه الى الدين المسيحي ، راح يتحدّى المشعوذين و السحرة الوثنيين بأن ينجزوا الأعمال العجائبية التي صنعها الرب يسوع ، مع وثوقه التام بأنهم عاجزون عن فعل ذلك .

و لكنه اعترف في الوقت عينه بقدرتهم على التنبؤ عن المستقبل ، فيسبّبون بواسطة رقياتهم الجنون و الخبل و حتى الموت لضحاياهم . و عندهم ايضًا السلطان بأن يدمّروا ما يكنّه افراد العائلة من محبة و عطف بعضهم لبعض . و بوسعهم ايضًا اطلاق العنان لقوى من المحبة او الكراهية . كذلك بإمكانهم ان يضمنوا فوز ا خسارة الخيول التي تتسابق في الميدان ، وبإستطاعتهم ان يسبّبوا الصمم او الخرس ، و ان يفتحوا ايضًا الأبواب من دون مفاتيح .

لقد أدرك أن الوثنية هي ، و لا شك ، واقع روحي ، لكنه وجدها بكل أسف خالية من المبادىء الأخلاقية و الأدبية . و عندما بحث في مكان آخر ، أُعجب بعض الشيء في المستويات الأخلاقية عند الفلاسفة ، لكنه لم يجد فيها أية علامات للقوة الروحية . فحكم على كل من الوثنية التي تدين بمذهب حيوية المادة ، و على الفلسفة النظرية المجرّدة : كان لكل واحد منهما نقصه الأساسي الخاص . ولكن هل من الممكن توحيدهما معًا حتى تساهم الحقائق الموجودة في كل منهما ، في بروز الحق الأكمل ، و ذلك بعد طرح عيوب و اخطاء كليهما جانبًا ؟ لقد حاول ارنوبيوس ان يقرنهما ، ولكنه عاد خائبًا من سعيه الحثيث هذا . إن اصحاب القوى هم خلو من الآداب ، كما ان اصحاب الآداب خلو من القوة ؛ فلا مجال إذًا للتوفيق بينهما . و هكذا غاص لفترة من الزمن في شكل من اشكال التشكيك اليائس ، فلم يعد يعرف بماذا يؤمن ؛ كما وجد نفسه أنه لا يؤمن بشيء . إلاّ ان فؤاده ظل مترقّبًا الحقيقة ومشتاقًا اليها ؛ فإذا ما استطاع ان يجد هذه الحقيقة ، فسينذر نفسه من اجلها ، و سيقضي أيامه ساعيًا لكشفها للآخرين الذين يعانون حالة البؤس هذه عينها .

و بينما هو يتفكّر في هذه الأمور أثارت انتباهه بعض الخصائص في المسيحية ، و التي لم تكن تسترعي انتباهه سابقًا : معجزات المسيح التي تشهد لقوة روحية تفوق بكثير ما رآه من قوة في الوثنية ، المستويات و القيم الأخلاقية التي تتجاوز الى حد بعيد حتّى اخلاقيات الفلاسفة . واكثر من ذلك ، كان عند المسيحيين رجاء يقين الخلود ، الأمر الذي لم يكن سوى مجرد حلم عند المفكّرين اليونان . كذلك كانت البطولات التي اظهرها المسيحيون تحت الاضطهاد تفوق بكثير وتسمو على اي ولاء يقدّمه اي انسان وثني لصنمه او للروح الذي يتعبّد له . فماذا يا ترى كانت تعني هذه الأشياء و الأمور ؟ و في نهاية المطاف ، هل المسيحية هي التي توحّد حقًا بين القوى الروحية و الفضائل الأخلاقية؟ و إن كان انجيل المسيح هو الحق ، هل يقدر شخص معروف في المجتمع نظيره ، كان قد قاوم المسيحيين بعنف و ببراعة ، ان يقرّ اخيراً ، ببساطة ، أنه قد غيّر فكره و اصبح مسيحيًا ؟ ألن يفقد من جراء ذلك احترام اولئك الذين كانوا يجلّونه قبلاً ويقدّرونه ، لكونه معلم بلاغة و صاحب ثقافة واسعة ؟ وفي تلك الآونة بالذات ، حصل ارنوبيوس على سلسلة من الأحلام المدهشة التي اعتبرها كتثبيت إلهي للاقتناعات المتنامية في ذهنه .

لقد دُهش مسيحيو سكّا ، و ارتبكوا بعض الشيء ، حيال الإعلان المفاجيء في العام 295 او 296م ، عن اهتداء ارنوبيوسَ الى إيمانهم ؛ لم يصدّقوا ذلك في بادىء الأمر . لقد اعتقدوا ان الأمر

ينطوي على مناورة مخادعة يهدف من خلالها الى التسلل الى داخل المجموعة المسيحية بغية تخريبها . كما رفض ناظر الكنيسة ان يعمّد ، باسم المسيح ، ذلك الشخص الذي اشتهر بمناوأته له . ولكن ارنوبيوس كان مخلصًا من دون اي شك . و لإثبات ذلك ، بدأ بكتابة « دفاعه » المطوّل . كان عنوان هذا الكتاب « ضدّ الوثنيين » . لقد كان الهدف من الكتاب إقناع الوثنيين بشأن اخطائهم ، لكن ربما قصد أيضًا أن يؤكّد للمسيحيين حقيقة اهتدائه . أو لعلّه كان يبغي ببساطة ان يتخلّص من ذلك الانفعال الحبيس في داخله بعد ان وجد اخيرًا الانعتاق الفعلي بفضل ايمانه الجديد . و الرسول بولس كان قد اكتشف ايضًا قبله بنحو ثلاثة قرون كيف ان الكنيسة لم تصدّق بسهولة فكرة ان المضطهد قد اهتدى فعلاً . لقد توجّه الرسول بولس الى الصحراء العربية للتفكير والتأمل و الصلاة قبل انَ بدأ بالكتابة .[3] كان ارنوبيوس قد فعل حسنًا لو أنه تبع مثال بولس في هذا الأمر . و يخبرنا جيروم أن أرنوبيوس كتب دفاعه هذا عندما كان لا يزال حديث الإيمان ، ولعلنا نجد في هذا تفسيرًا للمظاهر الغريبة التي يتّسم بها هذا الكتاب .

انهى ارنوبيوس كتابه هذا في نحو العام 304 م ، و ذلك في وجه الاضطهاد العنيف الأخير الذي حصل تحت حكم ديوقلطيانوس . يتحدّث هذا الكتاب عن المضايقات المختلفة التي كان يتعرّض لها المسيحيون : من حرق كتبهم المقدسة ، و تخريب قاعات اجتماعاتهم ، و ما شابه ذلك . لم يكن هذا الكتاب ، بأي شكل من الأشكال ، من نوع الرسائل العلمية المنسّقة المتّزنة التي قد نتوقعها من لاهوتي ناضج . لكنه اشبه بباقة من التصريحات التي تمّ جمعها على عجلة . كان مؤلفها ، و لا شك ، يؤمن بها ، إلاّ انه كان باستطاعته ان يطوّرها و يصلحها لو انه كتبها بعد اختبار واسع في ميدان التعليم المسيحي ، و على اثر فترة اطول من التأمل . انه في الواقع يدافع عن إيمان بالجهد ادركه و فهمه آنذاك . ان ثقته في وصف الوثنية التي رفضها وتخلّى عنها ، جاءت اكبر من ثقته في الكلام عن المسيحية التي اعتنقها . وهو يظهر سيّد الموقف في ما يتعلّق بالميثولوجيا الوثنية ، في الوقت الذي لم يقتبس في كتابه اي شيء من الكتاب المقدس بعهديه ، ما عدا آية فريدة واحدة من العهد الجديد .

و مع كل هذا ، فقد ادرك بسرعة جوهر الحياة المسيحية . لقد كتب ما يلي : « نحن فهمنا من تعليم المسيح و مبادئه ، انه علينا ألاّ نقابل الشر بالشر ، كما أنه من الأفضل ان نقبل الإساءة الينا ، عوضًا من ان نسيء نحن الى الآخرين ؛ و ان نقبل بالحري ان تهرق دماؤنا ، على ان تتلطّخ ايدينا وضمائرنا بدماء الآخرين . ان العالم غير الشكور ، قد صار له الآن مدة طويلة يتمتع بنعَم المسيح . . . ولو ان الجميع يصغون فقط الى مبادئه التي تدعو الى الصلاح و السلام ، لحوّل العَالم استعمال الفولاذ للأغراض السلمية ، و لصار الناس في العالم أجمع يعيشون في إلفة مباركة .»[4] سأل ارنوبيوس الوثنيين بنقمة و سخط : « لماذا استحقت كتاباتنا أن تُحرق بالنيران ، و تمّ تدمير اجتماعاتنا شرّ تدمير ؟ ففيها نرفع الصلوات الى اللّه السامي المتعالي متضرعين لأجل جميع ذوي السلطة لكي يمنحهم الرب السلام و الغفران . . . ان كل ما

نقوله فيها يفضي الى جعل الناس رحماء، ودمثين، و متواضعين، و مستقيمين، وضابطين لأنفسهم، و كرماء في التعامل مع أملاكهم، و متّحدين من غير انفصال بأعضاء أخويّتنا جميعهم.»[5]

لا بد من ان يكون كتاب ارنوبيوس قد استغرق معه اشهر عديدة قبل اتمامه . و واضح من اسلوبه أنه كان عالمًا . كما كان واسع المعرفة و الخيال، و له فكر استطلاعي و كانت عقليته كثيرة التساؤلات مما دفعه الى اكتساب قناعات راسخة . فهو يكتب ببهجة و انشراح، و بإخلاص وعدم تحيّز، لكنه يفيض، في الوقت عينه، بعاطفة جيّاشة بحيث تهدّد احيانًا بإغراق حجّته . وهو يبتهج بالحكَم و الأمثال البليغة مثل : « ان المعتقد هو الذي يصنع الدين . » كذلك يرسم تشابهات من نسجِ خياله . فهو مثلاً يعتبر الاضطهاد بركة للمسيحي، إذ يفعل فعل مجموعة من الوحوش البرية التي إذ تثور على سجين، تكتشف اخيراً أنها هدّمت السجن، فتكون بذلك، عن غير قصد منها، قد حلّته من قيوده، واطلقته حراً طليقًا .

انه يكتب بفصاحة و بلاغة عن جلال عظمة الله، و عن ضعف جهل الإنسان وعن الحاجة الى الإيمان . و هو يرفع قلبه بالعبادة نحو الله الذي لم يكتشفه إلاّ حديثًا، وهذه الفقرة هي من أجمل ما كتب :

آه ايها الخالق الأسمى و الأعظم لكل ما لا يُرى !

آه ايها الرب غير المنظور و غير المدرَك عند أي كائن .

انت مستحق ! حقًا أنت مستحق – إن كان يحقّ للسان فانٍ أن يخاطبك هكذا –

أن تحصل بلا انقطاع و بحرارة على تشكّرات كل كائن يتنفّس،

إذ نخرّ على ركبنا أمامك و نركع كل أيام حياتنا مصلّين و مبتهلين بلا انقطاع .

فأنت من يحرّك كل ما هو موجود، و أنت من يعانق كل الاشياء، و أنت الأساس لكل شيء .

غير محدود، لا بداية لك، خالد، لا نهاية لك، فريد .

لست مجسّداً بهيئة مادّية، و لا حدود او تخوم تقيّدك .

كما أن لا حدود لكمالك و لعظمتك .

ليس لك مكان محصور و لا اتجاه معيّن و لا شكل محدود .

لا يمكن تقديم تعريف كامل لأي شيء يخصّك أو تحديده بواسطة كلمات بشرية .

و اذا ابتغينا ان نفهمك، علينا أن نصمت،

و لكي نبحث عنك في الدجى ، ينبغي ان نطلق العنان لعقولنا من دون ان ننبس ببنت شفة .

رجاءً يا ملك الملوك أن تُنعم بالغفران على الذين يضطهدون خدامك ،

و بحسب كثرة رأفتك سامح اولئك الذين يتجنّبون عبادة اسمك . » [6]

بعد ان نقول كل شيء ، نجد ، في الواقع ، أننا لا نعرف الا القليل عن أرنوبيوس ، عدا ما يذكره في كتابه الوحيد الذي تركه لنا و كما يلحظ المؤرخ مُونْسُو (Monceaux) بحكمة قائلاً إنه « لا يوجد ، عند بعض الكتّاب شبه كبير بينهم و بين ما يكتبونه . »[7] أمّا بقيّة حياة أرنوبيوس ، فهي غامضة و غير واضحة . فنحن لا نعلم عمّا اذا استمر في تعليم البلاغة و فن الخطابة في سكّا ، و عمّا إذا كان قد تزوّج . كذلك نجهل كيف تصرّف إبان الاضطهاد الأخير ، او كيف عاشَ خلال ايام السلام التي تلت هذا الاضطهاد . و ليس واضحًا إن كان قد أصبح عضواً في كنيسة سكّا ، أو اذا كانت معرفته الواسعة او سمعته الرفيعة قد أعاقتاه عن شغل المكان الوضيع كمبتدىءَ في الكنيسة ، يخضع للتعليمات والإرشادات التي تأتيه من المزارعين والتجار ، أولئك الذين كانوا يشكّلون الجماعة المسيحية آنذاك .

إلاّ اننا نعلم كيف أثّر في احد تلاميذه ، و يُدعى لاكتَانْتيُوس (Lactantius) الذي عُيّن معلّمًا لابن الامبراطور ، و قد كتب بدوره عدداً من المقالات العقائدية عن مواضيع كثيرة متنوعة مثل : العناية الإلهية ، العقاب الإلهي الذي سيكون من نصيب مضطهدي الكنيسة ، و اخيراً المجلدات السبعة لكتابه «المبادىء الإلهية » (Instituts Divins) [8] . أشار المترجم الشهير جيروم الى أرنوبيوس باختصار في العام 327 م ، و لعل الإشارة حصلت في وقت وفاته .

و يبقى الكثير مبهمًا و غير واضح في حياة أرنوبيوس ، و لكن ما نعرفه عنه كاف لجعله يتبوّأ مركزاً رفيعًا في تاريخ المسيحية في إفريقيا الشمالية . لقد كان أمازيغيًا بكل ما للكلّمة من معنى ، رجلاً موهوبًا وصادقًا ، كرّس وقته و مواهبه العظيمة لتتميم كتابه الذي يناضل فيه من أجل الإنجيل ، و الذي خاطر طوعًا و اختياراً بمهنته و بحياته من أجل المسيح .[9]

* * * * * * * * * * * * * * * *

و بينما كان أرنوبيوس ، و من حذا حذوه ، يتمتعون بغلال مساقط رؤوسهم و بمحاصيلها ، وهم يعيشون سعداء بين قومهم و خلاّنهم ، كان هناك آخرون غيرهم من قطعوا هذه الصلات ، واتجهوا نحو الصحاري و القفار من دون اي ارتياب او خوف . لقد كان من الصعب جداً على بعض المسيحيين مقاومة اغراءات العيش المديني ، فبات الحل الوحيد بالنسبة اليهم ترك المدينة

ككل ، و الانطلاق في بداية جديدة بعيداً عن شبح المناطق الفاسدة التي كانوا يرتادونها قبل اهتدائهم الى الإيمان .

و كما ان بعض المؤمنين تولّد عندهم قنوط من جراء الحياة في المدن ، كذلك ايضًا خُذلَ مؤمنون آخرون من مستوى الحياة في وسط الكنائس . هذا لأنه قام منذ البداية بعض النفوسَ الغيورة داخل المجموعات المسيحية ، و راحوا يتشكّون أن المسيحيين في غالبيتهم لم يكونوا يعيشون على مستوى المقاييس العالية التي جعلوها لأنفسهم . لقد وجد بعض هؤلاء في كسل الكنائس التقليدية و فتورها عائقًا في طريق تقدّمهم الروحي ، أكثر منه مساعداً . شمّر الكثيرون منهم عن سواعدهم ، و اخذوا على عاتقهم امر المساهمة في رفع مستوى الكنائس ، فيما كان يفتقر غيرهم الى الموهبة الروحية او الإيمان المطلوب لمثل هذه المهمة ، خصوصًا عندما وجدوا ان قادة الكنائس كانوا ، كأبناء رعيّاتهم ، راضين عن حالة الكنائس . و هكذا قرّر العديدون من هؤلاء المخلصين ترك المجموعات المسيحية نهائيًا ، سعيًا وراء شركة اعمق مع الله من طريق الصلاة - منفردين او مع غيرهم ممن يوافقونهم الرأي - و ذلك في اماكن نائية بعيداً عن كل ما يمكن ان يلهيهم .

كان المدعو أنطونيوس (Antoine) من أوائل من فعلوا ذلك . و يُرجّح انّ أَثَنَاسيُوس (Athanase) ، ناظر الكنيسة في الاسكندرية ، هو الذي دوّن قصة حياته . وُلد أنطونيوس نحوَ نهاية القرن الثالث ، و هو من عائلة ثرية ميسورة ، و كان له اخت واحدة . و في يوم من الأيام ، كان أنطونيوس في قاعة اجتماع كنيسة قريته ، حيث كان المؤمنون يقرأون انجيل متى ، و فيما كان يصلّي و يتأمّل ، وصل القارئ الى قصة الشاب الغني الذي تقدّم الى المسيح يسأله عمّا يجب عمله لتكون له الحياة الأبدية . كان أنطونيوس شابًا غنيًا هو ايضًا ، الأمر الذي جعله يشعر بأن هذا الكلام هو موجّه إليه شخصيًا . تأثّر أنطونيوس كثيراً بجواب يسوع لهذا الشاب ، حيث قال له بالحرف الواحد : « إن اردت ان تكون كاملاً ، فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء و تعال اتبعني . »[10] لقد أصابت هذه الكلمات انطوان في الصميم ، « و كأنه حصل على هذا الأمر مباشرة من الله . . . و كأن هذا النص قد أُعدّ له شخصيًا . غادر أنطونيوس الكنيسة فوراً ، و أعطى كل الأملاك التي كان قد ورثها من والديه لأهل القرية ، حتى لا يعود يعاني مع أخته أية متاعب بسببها . ثم باع كل ما تبقّى له من املاك و وزّعها على الفقراء ، مبقيًا على الشيء القليل منها لأخته . » و بعد ذلك اعتزل أنطونيوس في كهف بين الصخور ، قبل انتقاله بعد هذا بقليل الى عمق الصحراء المصرية ، شرقي نهر النيل .[11]

كان الكثيرون من امثال أنطونيوس يختارون الإقامة في الصحراء لاعتقادهم أن الأصقاع الخالية من الماء هي مقرّ للشياطين ، و بالتالي المكان المناسب للالتحاق بالمعركة . لقد مكث أنطونيوس هناك ، كناسك يعيش وحده - في شركة مع الله تعالى ، و يصنع المعجزات و يطرد الشياطين - و ذلك على مدى عشرين سنة . ثمّ عاد الى الحضارة لفترة قصيرة في عام 338 م

ليلقي بثقله في المناظرة ضد الآريوسيين الذين كانوا ينكرون ألوهية المسيح ، لكنه سرعان ما عاد الى مكان تنسكه . لقد أصبحت قصة حياة أنطونيوس جزءًا من الأدب الذي كان منتشراً في الامبراطورية ، ومع حلول العام 386 م ، كان تأثيره قد انتشر في كل ارجاء حوض البحر الأبيض المتوسط ، كما كان له تأثيرٌ مهم في أغناطيوس في شبابه كما سنرى لاحقًا .

اختار أنطونيوس و غيره من المؤمنين حياة الوحدة ، و لكن آخرين آثروا الفرار من العالم ، و ذلك بإنشاء مجتمعات رهبانية ، حيث بإمكان الرجال ان يعيشوا معًا ، و في بعض الأحيان النساء ، متّبعين نظام سلوك صارم ، و قد نذروا انفسهم ليقضوا ساعات طوال في رفع الصلوات و ممارسة الفرائض الروحية الاخرى . لقد قام هؤلاء القوم بالعناية بمناطق شاسعة من الأراضي القاحلة ، فحرثوها و زرعوها ، حيث كانوا يرون أنه يترتّب عليهم أن يجعلوا القفر يبتهج و يزهر كالنرجس .[12] كانت فكرة الرهبنة هذه هي مشتقة بشكل رئيس من الديانة الشرقية التي حملت اسم المانوية (Manichéisme) ، و لا يوجد اي ذكر لها في الكتاب المقدس .

يظهر أن أول الأديرة المسيحية كان قد انشأها رجل مصري يدعى پَاخوميُوس (Pachomius) ، وذلك في نحو العام 318 م . لقد نذر اعضاء هذه الجماعات المنعزلة ، سواء أكانوا رجالاً أم نساءً ، نفوسهم لالتزام التبتل و العزوبية ، و ذلك رغبة منهم في تكريس انفسهم لخدمة الله بشكل افضل ، ولربما ايضًا بسبب معارضتهم لفكرة إنجاب الأطفال في هذا العالم الهالك المائت . و تشتمل احيانًا المثالية الرهبانية على بعض الأفكار و المفاهيم الغريبة من نحو التعذيب الذاتي الذي يراد منه إخضاع الرغبات والميول الجسدية ، هذا بالإضافة الى كونهم فرضوا على أنفسهم امتحانات ، لإثبات قوة الروح على الجسد . و هكذا واحدٌ من مشاهيرهم كان سمعان العمودي (390 - 459)الذي بقي يعيش وحيداً على رأس دعامة عالية ، و ذلك مدة ثلاثين سنة ، و لم يكن ينزل من هناك إلاّ لوعظ الجماهير المحتشدة في الأسفل . و قد قضى آخرون أوقاتهم في نسخ أو ترجمة الكتاب المقدس ، او أعمال لاهوتية اخرى . و علينا ان نتذكّر أنّه كان ينبغي استنساخ الكتب ، و ذلك على مدى اثني عشر قرنًا آخر ، الى ان تم اختراع آلة الطباعة في زمن الاصلاح الديني الاوروبي .

فشل النظام الرهباني في جذب اهتمام الناس بشكل واسع ، او في مساندتهم له إبان سنوات الاضطهاد . إلاّ أن مرسوم ميلانو الصادر في العام 313 م ، أعتق الكنيسة فجأة من قيود القانون الامبراطوري ، جاذبًا بذلك الى كنف الكنيسة مجموعة كبيرة من الناس الهائجين من كل من المدن و القرى . كما ان هذا البيان أفقد المسيحيين ، الأكثر غيرة من سواهم ، فرصة التعبير عن غيرتهم هذه باعترافات عامة شعبية ، او بالاستشهاد . و قد وجدت الكنيسة نفسها مليئة بالحشود التي لا تحسن الانضباط . و إذ دخل هؤلاء الكنيسة من بابها الأمامي ، قام بعضٌ من اعضائها المخلصين و الصادقين بالخروج منها من الباب الخلفي ، و إذ لم يعد

بالامكان التعبير عن الغيرة بالاعتراف بالايمان أمام القضاة الوثنيين ، او بالاستشهاد ، فقد بدأوا يلجأون الى الأديرة و الكهوف ، او يدعمون ، في حالات أخرى ، الحركات الطائفية الاكثر شعبية.[13] و كما لحظ المؤرخ بَأينْتُون(Bainton) : « عندما دخلت الجماهير الى الكنيسة ، مضى الرهبان الى الصحراء . »[14]

كان الكاتب العظيم جيروم (340 - 420 م) قد باشر عمله الرهباني كناسك في البراري والقفار السورية . إلاّ أنه وجد اخيراً أن مصاعب الدراسة الفكرية في روما هي اكثر فعالية وتأثيراً لأجل اخضاع الشهوات الجسدية من معاناة المشقّة في الصحراء . فشرع عملاً عظيمًا اذ اخذ على عاتقه ترجمة العهدين القديم و الجديد من الكتاب المقدّس من لغاته الأصلية الى اللاتينية العامية . و كانت النتيجة ما يدعى الآن بالفُلغاتة (Vulgate) التي لا تزال الصيغة المعتمدة في اوساط الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .

لقد دعم اغسطينوس ممارسة الرهبنة ، و مع حلول العام 400 ميلادي ، وُجد عدد من بيوت الرهبنة في شمال إفريقيا . فهو عاش معظم حياته بين جماعة من هذا النوع في مدينة هيپو ، كما ان أخته الأرملة عاشت مع مجموعة أخرى . و في بداية القرن الخامس ، تخلّت السيدة الأرستوقراطية ميلاني (Mélanie) عن املاكها ، و حرّرت ثمانية آلاف عبد من عبيدها ، ثم أسست ديرين رهبانيين ، يضمّان ثمانين راهبًا و مئة و ثلاثين راهبة ، و ذلك على مقربة من مدينة تَاغَاسْتْ (Thagaste) ، مسقط رأس اغسطينوس . و قد بقيت هناك بقية أيام حياتها .

و على الرغم من أن النظام الرهباني لم يكن يومًا من المعالم المميّزة لمسيحية شمالي إفريقيا ، إلاّ أن ما ادخلته من مثال للتبتّل أثّر في العديد من القادة المسيحيين - و من بينهم اغسطينوس نفسه - حيث أدى ذلك الى انعكاسات هامة على نمط الحياة في الكنائس .

ملاحظات

1- *Adversus Nationes* 1:39 (*ANF* Vol. VI)

2- Schaff *HOTCC* Vol. II p. 857

3- غلاطية 1:17

4- *Adversus Nationes* 1:4

5- *Adversus Nationes* 4:36

6- *Adversus Nationes* 1:31

7- Monceaux Tome IV p. 245

8- كتب لاكْتَانْتِيُوس في معرض حديثه عن حرية المعتقد : « لا يمكن فرض الديانة بالقوة . ينبغي على المباحثة ، لكي تؤثر في الإرادة ، أن تتمّ بواسطة الكلام ، لا بواسطة الضربات . لا يمكن للتعذيب و التقوى أن ينسجما . لا يمكن للحق أن يتّحد مع العنف ، أو للعدل مع القساوة . فليس شيء مرتبطاً بالحرية أكثر من الدين . »

(*Institutionum Divinarum* 5:20 . Schaff *HOTCC* Vol. II p. 36)

9- للحصول على بحث عن حياة أرنوبيوس و عن « دفاعه » راجع :

Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 856 - 861

Monceaux Tome IV pp. 242 - 286

. Plummer pp. 129 - 130

10- متّى 21:19

11- اقتبسها Cooley (p. 47)

12- اشعياء 1:35

13- لعل نجاح الحركة الدوناتية في بدايتها ، يرجع الى هذا النوع من المشاعر .

Bainton p. 126-14

الجزء الرابع

عصر أُغُسْطينوس

(القرن الرابع و أوائل القرن الخامس)

الفصل التاسع عشر

الحركة الشعبية الدوناتية

مع تطبيق مرسوم ميلانو الذي كان قد أقرّه قُسْطَنطين ، استيقظت فجأة كنيسة الشهداء المسيحيين المنهوكة القوى ، لتجد نفسها محطّ ترحيب على أعلى المستويات في الامبراطورية ، و الامبراطور نفسه اصبح من بين اعضائها . و بعد مرور عشر سنوات ، كان الشعور بالمهابة و الدهشة لا يزال مسيطراً عندما دعا قسطنطين مجموعة من النظّار الى تناول طعام العشاء على مائدته الملوكية في قصره . و فيما كان هؤلاء الذين سلموا من الاضطهاد ، و بعضهم من المعاقين و العميان ، يسيرون بين صفين من العسكر الرومان ، في طريقهم نحو مائدة الامبراطور ، تساءل ، أحدهم على الأقل ، مستغربًا عمّا إذا كان ملكوت الله قد حضر فعلاً على الأرض ، أم هو في حلم .[1]

و للوهلة الأولى ، لم يغيّر هذا المرسوم بشكل جذري طبيعة الحكم الامبراطوري . إنه لا يعلن اي شيء جديد ، كما انه لم يدن اي شيء قديم ، و كل ما فعله هذا المرسوم هو أنه منح كل فرد حق العبادة الحرة بالطريقة التي يراها مناسبة له ، كما انه رخّص للكنائس أن تستردّ الممتلكات و الأرزاق التي صودرت منها . و لكن ، كانت لهذا المرسوم البسيط ، الذي يرجع الى سنة 313 م ، نتيجتان بعيدتا الأثر والنطاق : لقد وضع حداً لاضطهاد المسيحيين في كل ارجاء الامبراطورية بما في ذلك إفريقيا الشمالية ، كما انه أدّى بسرعة فائقة الى تحالف دائم بين الكنيسة و الدولة الرومانية . و هكذا ، لم يعد المسيحيون يحتاجون الى الاجتماع ليلاً وراء الأبواب المغلقة و في الغرف الداخلية من دورهم ، أو تحت الأرض في وسط مقابر أسلافهم المظلمة . اصبح بإمكانهم أن يجتمعوا حيث يشاءون من دون خوف او وجل ؛ كما أنه تمّ تعيين بعضهم في مناصب عالية في الإدارة الامبراطورية . كان المستقبل يبدو مشرقًا وضّاءً ، و هكذا راحت كنائس شمال إفريقيا تتطلع قدمًا بكل تفاؤل الى حلول عصرها الذهبي .

و لكن بدأت في هذه الفترة تظهر مؤشّرات مقلقة إلى أن هذه الامبراطورية الواسعة الأرجاء قد دخلت في الآونة الأخيرة مرحلة تدهورها البطيء . كما انه بات من الواضح ان الكنيسة التي ارتبطت بهذه الامبراطورية الدنيوية ، اصبحت الآن مهدّدة بأن تشارك في هذا السقوط و الانهيار . ويبدو أن كبريانوس كان قد تنبأ بحصول ذلك . فقبيل استشهاده في عام 258 م ، قال لأصدقائه في قرطاجة : « حذارِ ، فإن هذا العصر قد دخل مرحلة شيخوخته ، و لم يعد لديه الآن العافية التي

كانت تخولّه الصمود ، و لا النشاط الذي كان يساعده على ان يكون قويًا . . . و هذا هو حكم الله الذي يطال العالم بأسره ، إنه قانونه عزّ و جلّ ، فالذي يعيش لا بدّ له من أن يموت ، و الذي ينمو و يكبر ، لا بدّ له من أن يشيخ .» 2

ان الأزمة الاقتصادية و المالية التي اكتسحت الامبراطورية بعد نحو عام 250 ميلادية ، لم تستثنِ إفريقيا الشمالية . فقد انخفض احتياطي الذهب في الامبراطورية الى حدود التلاشي والزوال ، وازدادت صعوبة عملية البيع و الشراء في البلاد . إن المحاصيل التي كانت من قبل تُكسب أصحابها أرباحًا ، تُركت الآن لتفسد . و لم يعد بالإمكان الحصول على البضائع المستوردة . و لم تعد حسنات وجود السلطة الرومانية في إفريقيا توازي سيئاته . كذلك بدأت قوّة الشرطة الأمنية للفيلق الثالث في الجيش الروماني ، و الذي كان قد أسّسه الامبراطور الاسكندر سيفيرُوس (Alexandre Sévère) ، بدأت تضعف و تخور . و ما ان شعرت القبائل القاطنة في السهول و الجبال بنية الادارة الامبراطورية ، حتى بدأت تقوم بغزوات تمهيدية استكشافية ضد قوّات المخافر الأمامية في نقاط الحدود . ثم راح رؤساء القبائل في نوميديا وموريتانيا قيصريانسيس ، يتخلّون ، واحداً تلو الآخر ، عن تعاونهم السطحي مع الرومان . فجمعوا معًا الرجال و السلاح للقيام بعصيان مسلّح ضد الامبراطورية . و هكذا تطايرت شرارات الثورة ، و اشتعلت في جميع أنحاء إفريقيا الشمالية ، ما عدا في منطقة إفريقيا البروقنصلية (تونس) ، حيث كان نمو الحياة المدينية و التجارة و انتشارهما ، يرتبط عند السكان الريفيين بازدهار الامبراطورية بشكل عام ، بحيث لم تُغرِهم قط فكرة الثورة هذه .

أمّا في مناطق أخرى ، فكان الناس الذين يعملون في الأراضي ينعمون بأقل قدر من الفوائد . فضلاً عن الضرائب الباهظة و الاعتباطية حسب الظاهر التي تركت الكثير من العمال الكادحين الفقراء و غيرهم من الحرفيين يتشكّون و يئنون . و هناك أماكن معيّنة أخرى صودرت فيها أملاك بعض المستعمرين الرومان ، و كان كبريانوس نفسه مضطراً إلى أن يرسل مبلغ مئة الف سكْويسْتْرَا (séquestras) ، كان جمعها من الكنيسة في قرطاجة ليعطيها فدية عن بعض المسيحيينَ الذين كان الثوار المسلّحين قد ألقوا القبض عليهم في نوميديا . كان الامبراطور الأمازيغي سبْتيميوس سفيروس قد نصح ابنه قبل عدة سنوات بهذه الكلمات : « ادفع بسخاء للجند يا بنيَ ، ثم انسَ ما تبقّى .» هذا لأن الإدارة الرومانية كانت تعتمد فعلاً على قوّة الجيش ، وعلى التهديد باستعمال القوة الذي يتبادر الى ذهن المواطن كلّما شاهد جنديًا .

و غالبًا ما كان مالكو الأرض الكبار يُعيِّنون قضاةً محليين ، و لكن لم تكن نزاهتهم دائمًا على مستوى سلطتهم هذه . لقد ادّعى معاصروهم أنهم كانوا يقترفون الظلم والجور ، و لا يخلو هذا التصريح من بعض الحق . و لا كانت الأجور التي كان هؤلاء المالكون يدفعونها إلى عمّالهم عادلة او سريعة كما كان عمالهم يرجون . لقد كانت عملية جمع الضرائب و فرضها في يد هؤلاء القضاة . و إذ كانوا يقومون بعمل المتّهِم و القاضي في آنٍ ،

كان يحق لهم أن يحكموا بسجن العبيد ، و كذا بإعدام العمال الأحرار . و عندما تردّت الأوضاع أكثر فأكثر ، و شعر سكان الريف بالضيق بشكل متزايد ، بدأ الضعفاء يلتمسون حماية الأقوياء ، و الأقوياء يلتمسون بدورهم حماية من كانوا أقوى منهم . كانت الأوضاع صعبة على الجميع . و حتى المالكون المسيحيون الأكثر نزاهة واستقامة ، و جدوا أنفسهم هدفًا سهلاً لهذا الامتعاض و الذي ازدادت مرارته مع أن لا أساس له .

و في العام 330 م ، نقل قسطنطين عاصمة الامبراطورية شرقًا ، من روما الى القسطنطينية ، اسطنبول . و قد أسفر تدبيره هذا عن تعقيد المشاكل التي كان يواجهها في ربط الشؤون الإدارية المختصة بالمناطق الإفريقية البعيدة الواقعة تحت هيمنته ، و في التنسيق بينها . كذلك كانت عملية حفظ الأمن والنظام في الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط تزداد صعوبة . فبعد ان كان قسطنطين قد اطمأن الى مساندة الكنيسة له ، تمنّى أن تساعده على هذا الأمر . وبعد أن مُنحت حرية العبادة والمعتقدات الدينية للمواطنين ، كان باستطاعة قادة الكنيسة تشجيع الناس على التعاون السلمي لمصلحة الجميع على السواء : كان هذا ما يهدف إليه امبراطور مسيحي صادق ، إلاّ أنّ أمنيته جاءت ساذجة بشكل محزن .

و بينما كانت الكنائس الأوروبية و الآسيوية غارقة في أدغال المنازعات اللاهوتية المتعلّقة بالأريوسية و الغنوسطية و مجموعة من البدع الأخرى ، كانت كنائس إفريقيا الشمالية منشغلة بمشاكلها الخاصة . ان ما كان يحصل من مباحثات في الجزء الآخر من الامبراطورية – الأمر الذي كان يحتّم عقد مؤتمرات دورية للنظار – لم يكن يعنيهم إلاّ من بعيد . لقد تأثروا شديداً بحركة خرجت من عندهم ، و باتت معروفة « بالدُونَاتيّة» (Donatisme) ، و قد تسبّبت فعليًا بتقسيم الجماعة المسيحية في إفريقيا الشمالية الى فريقين متنازعين .

يبدو أن المسألة الدوناتية بدأت ، في الأصل ، من جراء العدد الكبير من المسيحيين الذين تخاذلوا إبّان الاضطهاد العنيف في عهد الامبراطور ديوقلطيانوس . لم يكن واضحًا تمامًا ماذا ينبغي أن يُعمل لهم ، إذ كانوا كالخشب الذي يعوم على وجه المياه بعد هبوب عاصفة ، كانوا بشعين وفي غير محلّهم ، و لا احد يعلم تمامًا ماذا ينبغي ان يُعمل لهم . إنها المسألة نفسها التي كانت قد اقلقت كبريانوس و غيره بعد الاضطهادات السابقة ، إلاّ انه وُجد هذه المرة بين عداد الذين خانوا المسيحية ، بعض النظار المعروفين ، وغيرهم من القادة المسيحيين الآخرين . كان السؤال المطروح هو الآتي : هل يُعاد قبولهم كأعضاء في الكنيسة ، او يجب اجتنابهم على اعتبار أنهم خونة؟ ولكن خلف هذه المسألة حول ما اقترفه بعض الأفراد ، و مقدار أهمية ذلك تكمن الآراء المتضاربة الأساسية نفسها التي كانت قد برزت خلال القرن السابق بشأن طبيعة الكنيسة والقصد من وجودها . هل كان يجب على كنيسة المسيح أن تكون مؤسسة دولية ، تستقبل و تعلّم كل من يسندها محاولة بذلك ان « تفطمهم تدريجيًا» عن ارتكاب الأخطاء و الزلات ؟ او هل يجب اعتبار الكنيسة أخوية جامعة من المؤمنين الصادقين الذين دُعوا وانعزلوا عن العالم لكي

يعيشوا كعبيد أمناء ليسوع ، رافضين أن يهادنوا الفجّار ؟ هذه المسألة هي اذاً قديمة ، و لكنّ الدرجة العالية من الزخم التي رافقت عملية معالجتها ، بالإضافة الى قوى التفسّخ والانحلال التي كانت قد تملّكت من الامبراطورية في هذه المرحلة بالذات ، تعني أن هذه المسألة ستنتهي بمأساة .

كان الامبراطور قسطنطين يرغب في أن يعمّ السلام و الإلفة في أرجاء امبراطوريته الواسعة الانتشار ، كما انه كان حريصًا على تأسيس كنيسة موحّدة و ثابتة ، تساعده على إدارة البلاد . من أجل هذا ، بدأ حكمه بإصدار قوانين من وحي التساهل الديني ، و هكذا شجّع الكنائس المحلية على إعادة المتخاذلين الى صفوفها . لقد شعر بأن قيام امبراطور مسيحي سيعطي فرصة لبداية جديدة لجميع رعاياه . لكن ، سرعان ما اكتشف قسطنطين أن قادة الكنائس النوميدية ، بالإضافة الى جزء كبير من الجماعة المسيحية في قرطاجة و في أماكن أخرى ، لم يروا الأمور بهذه البساطة . فقد وقفوا موقفًا صلبًا حيال ضرورة التمييز بين اولئك المسيحيين الذين صمدوا بقوة وعزيمة إبان الاضطهاد ، و اولئك الذين انهاروا أمامه . فقد أعدّوا قوائم بأسماء النظار الذين قيل إنهم خانوا إذ سلّموا الكتب المقدسة الى المسؤولين الوثنيين ، و هكذا رفضوا بعناد قبول أمثال هؤلاء كقادة في كنائسهم . لقد اجتنبوا كل من لعن اسم المسيح و قرّب التقدمات للأوثان ، داعمين موقفهم هذا ببعض الآيات من مثل كلمات الرسول بولس : «إنْ كان احد مدعواً اخًا زانيًا او طمّاعًا او عابد وثن او شتّامًا او سكّيراً او خاطفًا ، لا تخالطوا و لا تؤاكلوا مثل هذا .» [3]

كان منصوريوس (Mensurius) ناظر كنيسة قرطاجة ، قد توفّاه الله قبل سنتين من تسلّم قسطنطين عرش الامبراطورية . فاختير أحد المدبّرين في الكنيسة ، و يدعى كايكيليان (Caecilien) ليحلّ محله . لم يرضَ العديدون في الكنيسة بهذا الاختيار ، على اعتبار أن سلوك كايكيليان و تصرفاته خلال الاضطهاد ، أظهرت أنه لا يستحقّ أبداً ان يتبوأ مثل هذا المركز . لقد عارضوا هذا التعيين ، تمامًا كما حدث قبل ستين سنة ، عندما قاوم نوفاتوس و مناصروه اختيار كبريانوس لمثل هذا المنصب . لقد قالوا إن هذا التنصيب هو باطل في نظر الله ، ذلك لأن كايكيليان هو خائن ، كما ان أحد اولئك الذين اقرّوا تنصيبه ، و هو الناظر فيلكس ، كان أيضًا مذنبًا لأنه سلّم كتبًا مقدسة الى السلطة الوثنية . و قد اقترحوا بديلاً له ، ألا وهو مَاجُورِينُوس (Majorinus) الذي عيّنه رسميًا سبعون ناظراً من نوميديا كانوا قد اجتمعوا سراً في قرَطاجة . كما عُقدت اجتماعات في بيوت عديدة للتآمر لأجل إسقاط الفريق المعارض . و بعد بضع سنوات ، عندما مات الناظر المنافس ماجورينوس ، تمّ اختيار دوناتوس ذي الشخصية القوية ، خلفًا له ، و منذ ذلك الحين سُمّي اتباعه الذين يمثّلهم باسمه .

عنف الصراع الدائر بين الأفرقاء الذين يؤيدون هذين الناظرين المتنافسين . فادّعى الدوناتيون أن كايكيليان ، و سلفه منصوريوس ، قد استخفّا بشهداء كنيسة أبيتينا الذين كانوا مسجونين في قرطاجة ، و قد منعا أصحابهم من زيارتهم و من دعمهم في معاناتهم .[4] و اكّدوا باستمرار ان كايكيليان ، عندما كان لا يزال « مدبّراً» ، خان اذ سلّم الوثنيين الكتب المقدسة العائدة الى كنيسة

قرطاجة . فإن كان تغيير حرف واحد من الكتاب المقدس ، يُعتبر جريمة ، فكم بالحري يكون تسليم كلمة الله بأكملها لكي يتم إتلافها . إنه إثم لا سبيل لإصلاحه أبدًا . و بدورهم ، راح اكثر المتحمسين للدفاع عن كايكيليان ، يؤكّدون أن الدوناتيين خلال فترة الاضطهاد ، قد ابرزوا تعصبًا مخزيًا ، إذ أثاروا غضب المسؤولين الامبراطوريين عن سابق قصد و تصميم ليتخذوا إجراءات قانونية ضدهم ؛ لقد احتالوا إذ نجحوا في الحصول على شهداء متألقين من جماعة المشعوذين الفجّار . والى هذا الحدّ ، كان النزاع يدور حول مسألة من يمكن اعتماده كناظر لكنيسة قرطاجة . ولكن ، كانت هناك عوامل أخرى تعمل في الخفاء ، و بدأت كنائس المدن و القرى و الأرياف المجاورة تتحزّب ، و ينقاد كل منها الى أحد هذين التيارين ، و ذلك لأسباب لم يكن لها علاقة وثيقة بالمشكلة الأساسية .

و إذ تحقّق قسطنطين من صعوبة حلّ هذا النزاع ، قرّر طلب مساعدة كنائس ايطاليا و بلاد الغال (فرنسا) . فعيّن لجنة قوامها خمسة عشر ناظراً إيطاليًا و ثلاثة نظار غاليين ، و ذلك برئاسة ناظر كنيسة روما . و دعاها الى الاجتماع في العام 313 م في روما . كان على المجتمعين أن يستمعوا الى كل من الجانبين المتناحرين ، وأن يتأكدوا من حقائق هذه القضية ، و يحاولوا التوصّل الى تسوية . فكانت النتيجة أنهم رسّخوا براءة كايكيليان ، و هكذا تمّ إرسال مبعوثين الى إفريقيا لإعلام الكنائس هناك بأن الكنيسة الكاثوليكية العالمية تدعم كايكيليان . و لكن عندما وصل هذان المبعوثان الى قرطاجة ، اضطربا كثيراً عندما وجدا أن الفريق الذي يعارض كايكيليان لم يرتبك على الإطلاق تجاه ما قد تمّ اقراره ، بل على نقيض ذلك ، إذ في رفضهم الرجوع عن موقفهم ، طالبوا بأن يتدخل الامبراطور شخصيًا في الأمر . أمّا قسطنطين ، فأظهر صبراً لا ينفد ، إذ أمر بإنشاء لجنة على نطاق أوسع من السابقة ، و طلب اليها أن تجتمع في العام 314 م في آرْل (Arles) التي تقع في المنطقة الجنوبية من بلاد الغال . و هكذا اجتمع ما لا يقلّ عن ثلاثة و ثلاثين ناظراً ، فتمّت للمرة الثانية تبرئة ساحة كايكيليان ، و اعترفوا به ناظراً لكنيسة قرطاجة . فاعتبر المجتمعون أنه لم يتمّ تسليم الكتاب المقدس الى السلطات الرومانية بواسطة كايكيليان او فيلكس . لكن قسطنطين كان يتحاشى إصدار أي بيان عام في هذا الخصوص ، و ذلك على مدى ثلاث سنوات . كما ان كايكيليان نفسه مكث في روما للقيام ببعض الأمور الخاصة .

تضخّمت الاضطرابات في افريقيا من جراء هذه المسألة ، و وصلت الى حدّ اضطرّ معه قسطنطين الى أن يتحرك بحزم . ففي العام 316 م ، اتخذ خطوات قانونية لوضع قرار آرل موضع التنفيذ . وهكذا تمّ تهديد الدوناتيين بإنزال عقوبات بحقهم إذا واصلوا تعنّتهم وعنادهم ، كما طُلب اليهم أن يتوقفوا عن اجتماعاتهم لئلا يعرّضوا أنفسهم للعقاب . لكن ذلك لم يؤدّ إلاّ الى تعزيز شعورهم بأنهم مظلومون ، فازدادت شعبيتهم وترسّخ عزمهم على إنشاء كنائسهم المستقلة الخاصة بهم و تنميتها . و قد بات موقفهم واضحًا للغاية : إنهم يرفضون جميع أشكال الخضوع او القبول بتسوية مع اولئك الذين أنكروا المسيح جهراً ، و لم يظهروا قط أية علامة للندم

على ما فعلوه . رفض الكثير من الدوناتيين أن يخضعوا لهذا المرسوم الامبراطوري ، مفضّلين بالحري أن يعانوا العذاب على أيدي السلطات الرومانية . فكابدوا المضايقة المستمرة والإكراه بالتهديد و الاعتقال . و هكذا من جديد عمّ كنائسهم المُستحدثة ذلك الجو المحرّك للحماسة الحيوية والتحدي الشجاع ، الجوّ الذي تميّزت به سنو الاضطهاد الكنسي على أيدي الوثنيين ، و الذي لم يكن قد مضى إلا وقت قصير على انتهائه .

و بمرور الوقت ، اذ تصلّب الدوناتيون في قرارهم هذا ، وجدوا أن عدداً كبيراً من الناس قد توافدوا الى كنائسهم : قوم من الفقراء الذين يضمرون الضغينة العميقة لجيرانهم الاغنياء ، و أهل الريف الذين يحسدون الازدهار عند سكان المدن ، فضلاً عن غير المتعلمين الذين كانوا يتلوّعون ممّا كان يلحق بهم من ذلّ و عار على أيدي الأرستوقراطيين المثقّفين ، ناهيك بالأمازيغيين المستائين من العسكر الروماني الذين يتبخترون عبر الأراضي التي استولوا عليها ، و قد كانت تخصّهم قبلاً . و هكذا آثرت بعض الكنائس ، بالإضافة الى نظّارها ، قطع كل صلة لها بالمؤسسة الكاثوليكية و الانضمام الى الدوناتيين . و لربما أيضًا وجدوا تعاطفًا وديًّا بين صفوف الباقين من المونتانيين و النوفاتيين .[5] كذلك تعاطف مع الدوناتيين بعض كبار مالكي الأراضي من امثال المدعو كريْسبُس من مدينة كالاما (قالمة حاليًا) ، الذي أعاد معمودية ثمانين من عمّاله الكاثوليك سابقًا . وَ قد أدّى دعم هؤلاء الرجال ذوي النفوذ الكبير الى تشجيع الأعضاء الأقل شأنًا على اتّباع هذا النهج ايضًا ، كما أنه زوّدهم ببعض الحماية .

شعر القادة الدوناتيون بأن الجماهير الغفيرة من الناس كانت تدعمهم و تسير وراءهم . ووصلت أخبار مقاومتهم للبيانات الصادرة في قرطاجة و روما الى تلك العشائر الساخطة والعدوانية التي كانت تقطن الأصقاع الداخلية من البلاد ، فأنصتوا إليها بشغف . لقد تحقّق الدوناتيون من أن قضيتهم قد ازدادت شعبيتها بسرعة كبيرة . إلاّ أن العائق الوحيد في الأمر هو أن أولئك المتحمّسين الذين يدعمونهم ، لم يكونوا في الواقع يعرفون إلاّ القليل عن الدافع الحقيقي الذي تقف وراءه هذه الحركة : حسبُهم أنها تعارض روما ليس إلاّ .

فكيف كان باستطاعة قادة الكنائس أولئك أن يعلّموا ذلك الحشد الكبير عقائد الإيمان المسيحي ؟ و كيف كان باستطاعتهم ان يشرعوا في شرح إنجيل الخلاص من خلال الإيمان بالمسيح الفادي ، لهذا العدد الغفير ؟ أو ان يتحدثوا الى كل واحد من الوافدين الجدد للتحقق من أنه قد أدرك مغزى ما سمع ؟ و على الأرجح أن محاولاتهم للتبشير برسالة المسيح ، لم تُثِرْ كثيراً اهتمام الناس . هذا لأن الناس لم يقصدوا هذه الكنائس بحثًا عن مغفرة الله لخطاياهم ؛ لقدَ أرادوا فقط أن يجدوا السبل الكفيلة بتحرير أرضهم من الفرَق العسكرية الامبراطورية و من المسؤولين الرومان . إنّ شهرة اولئك الوعاظ الذين تحدّثوا الى الجماهير بسذاجة و من دون خوف ضد السلطات ، قد نمت وتفاعلت مع مشاعر الغضب و النقمة العارمة التي كانت تعمّ سكان أودية إفريقيا الشمالية و سهولها . إن الكنائس التي شجّعت على الاستقلال عن سيطرة روما ، استقطبت حولها الجماهير الساخطة على النظام في كل مدينة و في كل قرية ، بالإضافة الى جميع اولئك الذين كانوا يسعون لتجنّب دفع الضرائب المترتبة عليهم .

و ممّا يدعو ربما الى السخرية أن يكون أعمق اختراق للإنجيل الى دواخل إفريقيا الشمالية ، قد حدث في هذا الوقت بالذات ، و بهذه الطريقة . و المأساة في ذلك هو أن الناس تعلّموا ممّا رأوه في إنجيل يختلف تمامًا عن جوهر الإنجيل الحقيقي . فقد اشتملت هذه البشارة المزيّفة على القليل جداً من الحديث عن المحبة للأعداء ، او البركات الموعودة لصانعي السلام . و هكذا وجد الدوناتيون أنفسهم يتخبّطون في هذا المقدار من الشعبية التي لم يسبق لها مثيل ، إضافة إلى الفوضى العارمة .

و لم تمضِ فترة طويلة ، حتى اكتشفوا أنهم باتوا مرغمين على أن يكونوا أبطالاً في عصابات من القوم غيرِ المنضبطين الذين لقّبهم خصومهم بـ « الدواريين» (Circumcellions) بمعنى «المتسكّعين حول المزارع» .[6] ان المعارك الكلامية اللطيفة نسبيًا في قاعات قرطاجة سرعان ما تحوّلت في المناطق الريفية الى معركة شديدة و بأسلحة أعنف . لقد كانت تُعدّ العدّة لثورة عارمة تضمّ أعداداً كبيرة من العمال الذين لا أرض لهم ، و المزارعين الذين يستغلّون الأرض لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول ، و الفلاحين الموسميين . و قد قام الدواريون بتحريض كل هؤلاء الناس . لقد كانوا ساخطين على الضرائب المستمرة الارتفاع المفروضة على الفقراء ، حيث كان يجد الأغنياء ، بطريقة او بأخرى ، و سائل للهروب و الاستعفاء من هذه الضرائب . لقد اهتاجوا ثائرين عبر القرى و الأرياف وهم يتسلّحون بهراوات ثقيلة ، مدّعين بأنهم جنود المسيح ، و هم يُطلقون شعارات دوناتية ، زارعين الرعب في قلوب السكان . فنهبوا دور العبادة الكاثوليكية ، و هاجموا قادة كنائسها ، و قتلوا ناظراً واحداً ، على الأقل . كما تدخّلوا في النزاعات الشخصية ، فطالبوا هنا بدفع دين مستحق ، و هددوا هناك أحد مالكي الأراضي الذي كان قد آنّب عبده .

لم يكن بوسع قادة الدوناتيين كبح جماح جماعة «الدواريين» . لقد وجدوا أنفسهم ، ولسوء حظّهم ، وجدوا أنفسهم معهم في القارب نفسه يتمايلون و يترجّحون في بحر هائج من دون ربّان ولا دفّة . لقد هجم العديد من هؤلاء « الدواريين» ، و اندفعوا نحو الأخطار ، غير آبهين لما قد يصيبهم من أذى ، و لا حتى من الموت . فانغمسوا في ممارسات سكر و عربدة و رقص أهوج حول أضرحة الشهداء . و يخبرنا أغسطينوس كيف أن صرخة المعركة التي كانوا يُطلقونها « المجد لله» ، كانت أكثر رعبًا للناس من زئير الأسود . و اخيراً تجمّع « الدواريون» في ضواحي بعض المدن ، و بدأوا في عملية تدمير المنازل و ذبح السكان ، الى أن أُرسلت أخيراً الفرق العسكرية لصدّ هؤلاء المشاغبين وإحلال الأمن و النظام .

كان العديد من الدوناتيين غير راضين عن حلفائهم الجدد هؤلاء . و حقًا ، كان الدوناتيون و « الدواريون» منفصلين رسميًا حتى سنة 347 م . و غالبًا ما كانا قبل ذلك ، على اختلاف بعضهم مع بعض . فقد بقي الدوناتيون لفترة طويلة يرفضون أن يدفن موتى الدواريين في المقابر التابعة لكنائسهم . و لكن رؤساء الدوناتيين في نوميديا ، أعلنوا تأييدهم

«للدواريين» في تلك المنطقة ، و أخيراً أيّدهم نظرائهم في قرطاجة ، ربما خوفًا من إحداث أي شرخ في صفوفهم . ومنذ ذلك الوقت أصبح مصير الحركتين موحّدًا ؛ فإما الوقوف سوية ، و إمّا السقوط سوية .

كان قسطنطين كرجل سياسي ، ملتزمًا العمل لمصلحة الكاثوليك ، هذا لأنهم الجماعة المحافظة ، و الذين يؤيدون النظام ، و يؤمنون بالوحدة و بالطاعة لأنظمة السلطة . فضلاً عن أن نظارهم كانوا مثقّفين ، و يتحدّثون اللاتينية ، و يحميهم أصحاب الأملاك الموسرين و الأرستوقراطيين الذين كانوا يديرون الامبراطورية . فالكاثوليك (على الرغم من معارضة كبريانوس) ، قد اعتادوا أن ينظروا أكثر فأكثر الى روما ، طلبًا لإرشاداتها الروحية . و في تأكيدهم على وحدة العالم ، بات مركز اهتمامهم هو صالح الامبراطورية وخيرها ككل ، أكثر من انتباههم الى متطلبات إفريقيا او مصالحها الخاصة . و من جهة ثانية ، كان الدوناتيون يُظهرون دائمًا شتّى علامات العصيان و القلاقل . فإن ميلهم الى حرّية التفكير و التعبير من دون أي وازع ، يُشبه حركة المونتانيين و النوفاتيين الاولى التي كان من الصعب الصعب إخضاعها و ضبطها . و بالاضافة الى هذا ، فقد كان لسوء حظ الدوناتيين ، أنهم قد جذبوا وراءهم تلك الجماعة من الغوغائيين و الرعاع الذين كانوا يرعبون الأرياف . طبعًا ، بات من الواضح الى أية جهة سينحاز قسطنطين . و لكنه حاول ، على الرغم من كل شيء ، أن يبقى صبوراً و عادلاً .

لقد ظهر أن مساعيه الحميدة السابقة لمعالجة هذه المشكلة وحلها ، قد فشلت تمامًا . و هكذا بات الامبراطور متحيّراً جداً من هذا الوضع ككل . ففي العام 317 م ، كتب ثانية الى نظار الكنائس الكاثوليكية في إفريقيا الشمالية ، داعيًا إياهم الى أن يتحلّوا بالصبر الى أقصى الحدود المكنة ، فلا يحاولون أن يثأروا للإساءات التي ألمّت بهم على ايدي «الدواريين» . وفي العام 321 م ، أمل الامبراطور أنه ، حيث فشلت الأوامر الشديدة الصارمة ، قد ينجح أسلوب الاقناع العذب . من أجل هذا ، منح الدوناتيين الحرية في التصرف ليعملوا بموجب ما تمليه عليهم ضمائرهم ، كما توسّل اليهم بأن يكونوا متعقّلين و أن يسعوا للصلح . لكنهم اغتنموا هذه الفرصة لترسيخ مواقفهم . و هكذا تأسست كنائسهم بشكل جيد حينذاك ، كما ازدادت عدداً و نفوذاً . و في الواقع ، خلال الثمانين سنة التالية ، كان باستطاعة الدوناتيين أن يدّعوا أن أكثرية المسيحيين في شمال إفريقيا باتت تبايعهم بولاء وإخلاص .

كيف بإمكاننا تعليل كل هذه الحيوية و الشعبية اللتين امتازت بهما هذه الحركة ؟ فعلى الرغم من حججهم الضعيفة التي تبناها رؤساؤهم الأولون ، بالإضافة الى الوحشية غير المنضبطة التي برزت عند بعض أسوإ مشايعيهم ، كان هناك ، بين صفوف مسيحيي إفريقيا ، عدد كبير من هؤلاء الذين يعارضون بشكل مبدئي نظام الكنيسة الكاثوليكية العالمية و الميثاق الواضح الذي قطعته مع الحكام الرومان . و بينما كان الكاثوليك يتكلمون اللغة اللاتينية التي يتحدث بها الجنود

والحكام ، كان الدوناتيون يتحدثون في غالبيتهم اللغة الأمازيغية . لقد كانوا يعتبرون انفسهم أفارقة أكثر منهم رومانيين.[7] إن هذا القدر العظيم من الاعتزاز الوطني أضاف زخمًا لهذا الجدل المتنامي ، حتى بين اولئك الذين كان ولاؤهم الاول للمسيح . لقد كانت صيحة الدوناتيين «ما للامبراطور بالكنيسة ؟» تعبّر عن مشاعر الكثيرين الذين لم يحصلوا من الأباطرة الوثنيين قبلاً إلاّ على البلاء و الظلم . و الآن يرغبون في إدارة كنائسهم بعيداً عن اليد القاسية الثقيلة للهيئة الكنسية التابعة للامبراطور . إن مؤتمرات النظار الكاثوليك ، بعباراتها اللاّتينية الرفيعة الطنانة ، لم يكن لها اي وقع في قلوب الرجال و النساء الذين يعيشون قريبين من الأرض . أمّا الدوناتيون بالمقابل ، وعلى أثر إقصائهم عن المدن ، فقد انتشروا في القرى و الأرياف ، و هم يتكلمون لغة من حولهم من الأقوام ، و يشاركونهم أشواقهم الى الحرية ، و هكذا استطاعوا أن يستحوذوا على تطلّعات وتعاطف المزارعين والحرفيين الذين وجدوا الملجأ في ما بينهم .[8]

كان الدوناتيون يرغبون في بادئ الأمر ، أن يحكم لهم الامبراطور ضد مناوئيهم ، لكنهم وجدوا أن الأمر قد انقلب عليهم . لذلك بدأوا يعتبرون بشكل واضح ان الدولة هي خصمهم اللدود ، كما أن الكنيسة التابعة لهذه الدولة هي الأداة الرئيسة لاضطهادهم و التضييق عليهم . فتحولوا بشدة متزايدة ضد البنية الكاثوليكية ، مصرّين على أنها مؤسسة فاسدة و قد تخلّت عن المسيح . فانقسم الكثير من الجماعات المسيحية المحلية بعضها على بعض بسبب هذه المسألة . وهكذا وجدت المدن والقرى نفسها وخلال فترة وجيزة ، أمام كنيستين : واحدة للدوناتيين واخرى للكاثوليك . و كان لكل كنيسة ناظرها الخاص . ثم راح اولئك الذين انحازوا الى الدوناتيين يعتبرون أنفسهم كنيسة الله الحقيقية ، و البقية التقية التي لم تتخلّ عن طريق الحق . لقد كانوا يناشدون بعضهم بعضًا أن يشجبوا من يعتبرونهم مرائين و عبدة أصنام . فكانوا يقتبسون آيات من الكتاب المقدس من نحو : «لذلك اخرجوا من وسطهم واعتزلوا ، يقول الرب ، و لا تمسّوا نجسًا فأقبلكم .»[9] أمّا الكاثوليك ، من جهتهم ، فاعتبروا أنفسهم دائمًا الكنيسة الحقّ الوحيدة .

و إذا ما وصل أحد المسافرين الغرباء الى إفريقيا ، فإنه كان بالجهد يستطيع أن يميّز أو يفرّق بين تينك الكنيستين ، حيث غالبًا ما كان بناء كل منهما يقع في محاذاة الآخر . كان عندهم الكتاب المقدس عينه ، كما انهما يتشابهان في كل من نمط العبادة و قيادة الاجتماع . علّق اغسطينوس على هذا الأمر بالقول : «نحن اخوة ، نصلي الى اللّه نفسه ؛ نحن نؤمن بالمسيح عينه ، كما نستمع الى الإنجيل الواحد ، و نرتّل المزامير ذاتها ، و نردّد الآمين عينها ، و نسمع الهللويا ذاتها ، و نحن نحتفل بعيد القيامة عينه . فلماذا انتم خارج الكنيسة ، بينما انا في داخلها ؟»[10]

حيّرت هذه المسألة قسطنطين مثلما أدهشت غيره ايضًا . كما ان المشكلة ازدادت تعقيداً ، بحيث إن كلاً من الكاثوليك و الدوناتيين راحوا يطالبون بالممتلكات عينها ؛ هذا لأن عملية مصادرة الممتلكات و إعادتها ، كانت قد تمت أكثر من مرة ، و ذلك بحسب ما كانت تشترطه البلاغات السابقة المتقلّبة للسلطات الامبراطورية . و قد حاول قسطنطين في البداية ان يُرهب الدوناتيين

بواسطة المراسيم ؛ و من ثم حاول اقناعهم بواسطة رسالة مقنعة وجّهها إليهم ؛ و اخيراً قرّر ، ببساطة ، أن يتجاهلهم تمامًا . وقد أمل خلفه كُونْسْتَانْس (Constans) أن يرشوهم لأجل إخضاعهم . و لكن دوناتوس ، عندما رأى دراهم هذا الامبراطور ، أطلق كلماته المشهورة التي اصبحت شعار الدوناتيين الذي يلخّص إصرارهم على ضرورة فصل الكنيسة عن الدولة : « ما للامبراطور بالكنيسة ؟» ثم انتقل شعارهم هذا الى جميع انحاء إفريقيا الشمالية ، كما أنه أُذيعت في كل مكان ضرورة الانفصال عن كنيسة الامبراطور ، الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . و قد انتهز «الدواريون» هذه الفرصة ليقترفوا فظائع و اعمالاً وحشية وهمجية ، الأمر الذي دفع دوناتوس نفسه الى أن يطلب تدخّل القوى المدنية في هذه المسألة . و لكن لسوء الحظ ، فإن المسؤول العسكري الذي أخمد الاضطرابات ، لم يفرّق بين الدوناتيين الأبرياء و«الدواريين» الذين كانوا مذنبين بشكل واضح . لقد قرر الجيش ان يقتلع جذور الاضطراب ، و يجعل عبرة لمن اعتبر من هؤلاء الذين ترأسوا الفتنة ، و ذلك من دون تقصّي الأمور عن قرب للتحقق من هوية الفاعلين . فتمّ على أثر ذلك نفي دوناتوس مع آخرين من القادة ، على الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها الكاثوليك لمنع ذلك ، و هكذا اصبحوا محتجزين تحت وصاية الامبراطور في روما .

توفّي دوناتوس في المنفى في العام 355 م . و قد كان ، على مدى أربعين سنة ، مصدر إلهام هذه الحركة . كان هذا الرجل منظّمًا عظيمًا ، و خطيبًا و كاتبًا بارعًا و انسانًا مستقيمًا . كان فخوراً ، ومملوءاً غيرة ، و يرفض اية تسوية . لقد فرض على نفسه و على أتباعه أن يعيشوا في أسمى المستويات المسيحية . و قد أظهر اغسطينوس دائمًا احترامًا و تقديراً عظيمين لمناوئه دوناتوس ، جاعلاً إياه بمستوى كبريانوس ، إذ نظر إليه « كجوهرة ثمينة نادرة» في كنيسة المسيح . ثم خلفه في منصبه المدعو بارْمينيان (Parménien) ، أحد اكثر المساندين و الداعمين كفاءة و قدرة . و بارمينيان هذا كانَ اجنبيًا ، إمّا اسبانيًا و إمّا غاليًا . و كان بدوره خطيبًا بارعًا و كاتبًا وافر الانتاج لكراريس تبحث مواضيع جدلية و خلال مباحثاته مع أحد أنصار الكنيسة الكاثوليكية ، أُبْتاتُوس من ملفيسْ (الميلية في الجزائر) (Optate de Mélève) ، نجد أن وجهات نظرهما كانت متّفقة بشأنَ أمور كثيرة . إلاّ أنّ أيًا منهما لم يتوصّل الى تقديم رؤية توفيقية نهائية على هذا الأساس الهشّ .

و عندما تسلّم الوثني يوليان (Julien) العرش خلفًا لأسلافه المسيحيين ، عام 361 م ، ناشده الدوناتيون الذين كانوا منفيين أن يسمح لهم بالرجوع الى إفريقيا . ويعُرف الامبراطور يوليان احيانًا « بالمرتدّ» ، و لم يكن يحترم الكنيسة الكاثوليكية كثيراً ، وقد أنّبها لأنها تخلّت عن مثاليات المسيح البسيطة . و إذ لاحظ أن الدوناتية هي المفضّلة بين كل رعاياه الأفارقة ، لم يرَ سببًا يدعوه الى صدّهم . و سرعان ما استعاد النظّار الدوناتيون العديد من أملاكهم المختصة بكنائسهم ، و راحوا ينظّفون أبنيتهم بالماء و الملح بشكل علني ، و يبيّضون جدرانها بطبقة مطلية بماء الكلس الأبيض . فاعتبر الكاثوليك هذا العمل إهانة في حقّهم ، خصوصًا عندما أعيدت معمودية الكثيرين منهم مجدّداً ليصيروا دوناتيين ، فضلاً عن أن العديد من النظّار الكاثوليك أصبحوا من الدوناتيين . لقد استعاد الدوناتيون بسرعة ما فقدوه من قبل .

و حتى ذلك الحين ، لم يظهر الدواريون على أنهم اكثر من مجرّد مشاغبين خبثاء و غوغائيين . إلاّ أن داخل البلاد كان يشهد بعض التحرّكات التي تنبىء بالتدبير لثورة مسلّحة منظّمة . ففي العام 365 م ، تعاهد عدد كبير من العشائر على القيام بثورة عامة عارمة ، أقل ما كانت تهدف اليه هو إخراج القوّة الرومانية و طردها من إفريقيا الشمالية . و كان من بين المتمردين العديد من « الدواريين » الذين أضافوا الى هراواتهم الخشبية ، كل أنواع السكاكين و الرماح و الفؤوس . و استمرت هذه البلبلة على مدى الثلاثين السنة التالية . و في ظل حكم القائد الأمازيغي المدعو فيرْمُوس (Firmus) ، و الذي نصّب نفسه «امبراطوراً لإفريقيا» ، استولى الثوار على مدن قيصرية (شرشال حاليًا) ، و ايكوسيوم (الجزائر حاليًا) . إلاّ أنه تمّ أخيراً توقيف فيرموس و قتله في العام 375 م ، و ذلك في مدينة تيپاسا الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط . وقد حصل ذلك ، كما قيل ، بتدخّل روحي قامت به الشابة التي تدعى سالسا ، على أثر دخول فيرموس ضريحها ، و التي كانت قد استشهدت قبل بضع سنوات . ثم بعد سنتين ، انتفضت القبائل للمرة الثانية بقيادة رجل يدعى غيْلْدُو (Gildo) اخو فيرموس ، و الذي يعتقد بعضهم أنه قد خانه . فقطع غيلدو امداداتَ الطعام عن الامبراطورية ، و هدّد بأنه مزمع ان يجعلها تركع له . و في هذه الأثناء ، أعلن تأييده لكفاح الدوناتيين ضد الكنيسة الكاثوليكية . و بالطبع لقد أساء هذا التصريح الى الدوناتيين أكثر ممّا نفعهم . عززت القوات الرومانية صفوفها ، و زحفت الى معسكرات المتمردين . فقُتل من جراء ذلك غيلدو و العديد من مسانديه . و هكذا انتهى التمرد .

كانت النصرة من نصيب القوة العسكرية ؛ فتمّت مطاردة المتمردين الذين أُخضعوا و هكذا استسلموا في جميع ولايات إفريقيا البروقنصلية و موريتانيا . إلاّ أن الدوناتية ، مع الذين ايّدوها من عامة الناس المتململين ، ظلت مهيمنة بقوة في مناطق أخرى ، و لا سيّما في المناطق الوعرة من نوميديا . و في معظم بقاع إفريقيا الشمالية ، كان المتعاطفون مع الدوناتيين ما زالوا متفوقين كثيراً على الكاثوليك من حيث العدد . قال جيروم الذي كان معاصراً لهذه الأحداث ، إن الدوناتية كانت « ديانة إفريقيا كلها تقريبًا» .

كانت تلك الأيام محفوفة بالمخاطر بالنسبة الى اولئك الذين كانوا يحاولون حكم الأصقاع الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، و إدارتها . لقد قرر الامبراطور الجديد هُونُوريُوس (Honorius) أن يتّخذ الخطوات اللازمة التي تؤدي الى استقرار الوضع بشكل دائم . فأصدرَ المراسيم التي تفرض عقاب الموت على كل من يوجد مذنبًا في إثارة الفتن و القلاقل . و هكذا أُضيف على اولئك الذين قُتلوا خلال الاضطرابات المسلحة ، آخرون تمّ إعدامهم بموجب المرسوم الامبراطوري . و في أيام قسطنطين ، رجل المثاليات ، لم يُعدم اي واحد من الدوناتيين ؛ لقد ظلّ هذا الامبراطور يأمل باستمرار أن يصل الى صلح دائم و الى تسوية ، لكنهم الآن ، بدأوا يقدّمون الشهداء لقضيتهم الخاصة . لقد انحازت الدولة الى مسيحي ضد مسيحي أيضًا ، و ساندت كنيسة ضد كنيسة اخرى . المؤمنون كانوا يموتون ، لا من أجل المسيح ، بل من أجل مجموعاتهم الخاصة . و لم تظهر علامة على أن سفك الدماء سيتوقّف قريبًا .

وفي هذه المرحلة بالذات عند انتهاء القرن الرابع و مع حلول القرن الخامس ، دخل اغسطينوس مسرح الأحداث بكل حذر ، و بعد تفكير عميق . كان قد تتبّع سير الأحداث باهتمام بالغ . لقد كان له قريب من الدوناتيين ، كما ان المسيحيين ، في مسقط رأسه هيپو ، كانوا في غالبيتهم من الدوناتيين . لقد وضع جانبًا كل المشاكل الثانوية الملتبسة المتعلقة بالفضائح و الأبنية والشخصيات ، وأخذ على عاتقه تأليف كتابين قصيرين كشف فيهما للملإ جوهر المشكلة . وقد ضمّن هذين الكتيّبين آراءه و أفكاره حول طبيعة الكنيسة .

جاءت أفكاره بشأن هذا الموضوع متطابقة الى حد كبير مع أفكار كبريانوس ، إلاّ أنها كانت تحتوي على بعض الفروقات . و هذا ما يميّز اغسطينوس . كان رفض أن يقدّم تعريفًا سريعًا للأشياء ، أو أن يستعجل الاستنتاجات . ففي الواقع ، لاحظ المؤرخ بَايْنْتُون (Bainton) « أنه لم يكن يملك أي جواب بسيط عن اي شيء .» و لكن قدرته العظيمة تكمن في استعداده للتحدّث بصبر و أناة و على مستوى الصداقة مع مناوئيه . كان ، بفضل ذهنه النافذ و المتوقّد يستطيع أن يكشف التناقضات في أية حجّة تُعرض كان يوقف أي خصم يسيء استعمال أيّة آية من الكتاب المقدس لتبرير أمر لم يقصده الكاتب الأصلي قط . و في المناظرات السابقة ، كان صبره وانتباهه الى تفاصيل الأمور يصلان الى الحدّ الذي يجعل خصومه المرتبكين و المتحيّرين يفشلون بسبب الإحباط الذي يصيبهم . و هذا ما آلت إليه ايضًا مباحثاته الأولى مع قادة الدوناتيين . كان الخزي حليفهم ، إذ عجزوا عن إظهار حسنات موقفهم .

و منذ البداية ، كان مناوئوه مترددين في مناقشته علنًا . كان اغسطينوس يجد صعوبة بالغة في إلزام مناوئيه بتحديد الزمان و المكان حيث يكون باستطاعتهم مناقشة المسائل موضوع البحث بشكل عادل . لقد أعلن بعض أعضائهم ، و من بينهم كُرِسْكُونيُوس (Crésconius) ، أن مهارة اغسطينوس في المنطق و علم البيان ، تجعله أفضل شخصيةً بينهم . أمّا آخرون ، فكانوا يكتفون بالرجوع الى الأسس الأولى التي سبّبت الشقاق ، و هكذا يردّدون ببساطة : « ليس لأبناء الشهداء ما يقولونه لأبناء الخونة .»

ها قد مضى اكثر من ثمانين عامًا على اختيار ماجورينوس كمنافس لكايكيليان في قرطاجة . ان الناس الأحياء الذين كانوا لا يزالون يتذكرون تلك الأيام ، باتوا قليلين . و ربما كان ، أقل من ذلك ، عدد من كانوا يتذكرون أيام الاضطهادات ، عندما قام بعض المسيحيين بخيانة مبادئهم ، إذ سلّموا الكتب المقدسة الى السلطات الوثنية . ثم حلّ دوناتوس محل ماجورينوس ، و بعد وفاته تولّى شخص آخر القيادة الدوناتية و أعقبه قائد رابع . كذلك ارتبك الدوناتيون ايضًا عندما أقدم بعض أنصارهم على الانشقاق عنهم ، و تعيين ناظر آخر في قرطاجة . و هذا يعني أنه بات هناك ثلاثة رجال يطالبون بهذا المركز . كما ازداد التشويش ، و تفاقم اكثر عندما أعلنت كنائس الدوناتيين في ولاية موريتانيا انفصالها عن الدوناتيين في بقية الأصقاع .

على الرغم من حصول الانقسام في داخل صفوف الدوناتيين ، فإن ذلك لم يُخمد قط حماستهم لقضيتهم . فقد واصلوا تذكّر حوادث الاضطهاد و كأنها جرت حديثًا . و كل ما حدث منذ ذلك الحين ، كان بالنسبة إليهم مجرّد تفاقم لتلك الإساءة الأولى . إن اعتلاء قسطنطين الى الحكم ، لم يكن في نظرهم يمثّل عصر التغيير و انتصار الكنيسة ، كما كان يعتبرها المسيحيون في سائر انحاء العالم . هذا لأن قسطنطين نفسه قام ضدهم ، كما ان خلفاءه لم يكونوا أفضل ، في تقديراتهم ، من الأباطرة الوثنيين في الماضي .

في هذه الأثناء ، كان الدوناتيون قد ورّطوا أنفسهم في مأزق ، لم يكن من السهل عليهم قط التخلّص منه . و موقفهم هذا ، لم يكن بوسع اي مسيحي أن يدافع عنه . و قد وعى الكثيرون من الدوناتيين حقيقة هذا الأمر . فقد ارتكب قادتهم الأولون خطأين فادحين : اولاً انهم بنوا قضيتهم وأسسوها على رجل واحد ، كايكيليان ، و ما يدّعي بعضهم أن هذا الرجل قد عمل ؛ و ثانيًا ، كونهم قبلوا في صفوفهم عدداً كبيراً من الناس الذين كانت بواعثهم سياسية اكثر منها روحية ، فانخرطوا بذلك في صراع مرير يتعلق بأشخاص ، و بعد ذلك تورّطوا في ضرب من الفوضى السياسية التي لم يكن لديهم القدرة و القوة على التحكم بها . و فشلوا في التوصّل الى اتفاقية ودّية تتناول مبادىء الحرية و القداسة في الكنائس ، فوجدوا انفسهم و قد اصبحوا مرغمين على ان يبرزوا بصفتهم مسؤولين عمّا أدّى الى تمرّد اقتصادي و اجتماعي لم يكونوا هم أصلاً طرفًا فيه .

هل كان ساعد لو أن دوناتوس ، بالإضافة الى سائر القادة الأولين ، أعلنوا جهراً فكّ ارتباطهم بجماعة « الدوارين» ، معبّرين بوضوح عن أنهم يعارضون العنف و يشجبونه ؟ فلربما كان ذلك سينفعهم حقًا ! و لكن قد يكون أن قادة الكنائس الدوناتية كانوا يخشون أن يولّدوا مشاعر الحقد و الضغينة بينهم و بين الجماهير الغوغائية ، الذين قد ينقلبون في اية لحظة من داعمين متحمسين الى منتقمين حقودين . لقد عرف الدوناتيون أنهم كانوا يجلسون على برميل من البارود السياسي ، الذي كان منذ البداية و لا يزال عرضة للانفجار في اية لحظة .

و مع ذلك ، فقد وُجد بين صفوف الدوناتيين بعض الذين كانوا ، ولا شك ، لا يرتاحون إلى الوضع العدائي الذي انزلق اليه زملاؤهم . كان يمثّل هؤلاء المعلم الموهوب تيكُونيُوس (Tyconius) . لم يكونوا يحبون الخشونة التي استخدمها قادتهم في مخاطبة مناوئيهم . لقد وافقوا على ضرورة أن يلتزم الجميع الإخلاص و الاستقامة . و لكن الحب كان ، او يجب ان يكون في نظرهم ، تاج الفضائل و العلامة المميزة للمسيحيين . « و عبد الرب لا يجب ان يخاصم بل يكون مترفّقًا بالجميع صالحًا للتعليم صبوراً على المشقات مؤدبًا بالوداعة المقاومين .» 11
ألم يكن بعض مشايعيهم قد أصبحوا مشابهين للفريسيين في نضالهم من أجل حرفية الناموس ، و بشراسة ينكرون معها روح الناموس ؟ لقد كان من الصعب قبول كيف أن حركة كانت تؤكّد على النقاوة و القداسة في الكنيسة ، تسمح لنفسها بهذه السهولة بأن تغض الطرف عن العنف و الخصام في تعاملها مع الخارجين عنها .

و منذ بداية المسألة ، كان بين الكاثوليك انضباط أوفر ممّا عند مناوئيهم ، بالإضافة الى المزيد من روح المحبة . كما ان الكثيرين من الدوناتيين كانوا منزعجين في العمق من المنحى الذي آلت اليه الامور . فقد سألوا أنفسهم : ما الذي حدث ؟ هل ان قضية الرب يسوع تحرز اي تقدم من طريق قرقعة الأسلحة و صيحات المعارك في التمردات العنيفة ؟ فأين هو إنجيل السلام في كل هذا الاضطراب والاهتياج العظيم ؟ و كما تقول كلمة الله : « إن كنت اتكلم بألسنة الناس و الملائكة و لكن ليس لي محبّة فقد صرت نحاسًا يطنّ او صنجًا يرنّ . و إن كانت لي نبوّة و أعلم جميع الأسرار و كل علم ، و إن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال و لكن ليس لي محبة فلست شيئًا . و إن أطعمت كل أموالي و إن سلّمت جسدي حتى احترق و لكن ليس لي محبة فلا انتفع شيئًا .» [12] و لكن تلك الأصوات القليلة التي ارتفعت محتجة ، سرعان ما ضاعت بين طنين النحاس و رنين الصنوج . لم تكن هذه الأصوات منسجمة مع المشاعر الملحّة العارمة التي كانت عند الجماهير المضطربة . و هكذا راحوا ، واحداً تلو الآخر ، ينسحبون بهدوء ، هاجرين أولئك الذين لم يعد بإمكانهم دعمهم .

فكّر اغسطينوس في أنه قد حان الوقت للوصول الى تسوية ما أو تفاهم . ففي العام 393م ، رتّب لعقد مؤتمر أول في هيبو . و في الواقع ، عُقد ما مجموعه ثمانية عشر مؤتمراً في الفترة الممتدّة بين سنة 393 م و سنة 419 م ، حيث بُحثت تقريبًا كل النقاط المتعلقة بالتعليم والتأديب و لم يُستثنَ منها شيء . و منذ البداية حتى النهاية ، كان اغسطينوس يشدّد على نقاطه الخاصة بحزم و دماثة . و هو كان لا يزال يأمل التوصّل الى اتفاقية او معاهدة سلميّة مع قادة الدوناتيين . كان راضيًا بتقديم التنازلات ، مثل الاعتراف بنظار كنيستهم و بالنظم التأديبية المفروضة على اعضاء كنيستهم . كما ألحّ على السلطات الرومانية ألاّ تعاملهم بقسوة و عنف . كذلك رحّب بأي منهم رغب في الانضمام الى الكنيسة الكاثوليكية الرسمية . انّ هذا التسامح اللطيف المقبول ، و الذي بات مقرونًا بالمزيد من النقاوة و الطهارة في الكنيسة الكاثوليكية ، بدأ يستميل إليه بعض اولئك الذين وافقوا على تعاليم ادعاءات الدوناتية في بدايتها ، إلاّ انهم امتعضوا من الوحشية الفظة التي برزت ، في ما بعد ، عند بعض المشايعين اللاحقين .

كان الدوناتيون ، في بداية الجدل ، مدعومين بوجهات نظرهم المعقولة ذات الأصالة الضاربة في القدم . كانوا مشابهين للمونتانيين او النوفاتيين في اعتبارهم أن كنيسة المسيح هي شعب الله الذين ينتشرون في هذا العالم ، و لكنهم مميزون عنه . لقد اعتقدوا أن عضوية الكنائس المحلية يجب أن تبقى محصورة بالمسيحيين المخلصين و الحقيقيين من دون سواهم . كانوا يرحّبون بأولئك الذين هم خارج هذه الكنيسة و يرغبون في الانضمام اليهم ، و لكنهم يصرّون على أن يظهر الوافدون الجدد حقيقة إيمانهم ، مع عزمهم الأكيد على أن يقفوا الى جانب هذا الإيمان إبّان الاضطهادات ، و ذلك قبل أن يشاركوا تمامًا وبالكامل في حياة الجماعة المسيحية و في عبادتها . أمّا المبدأ الثاني ، الذي كانوا يتمسكون به باعتزاز ، فهو الاستقلالية ؛ كانوا يرغبون في أن تبقى

كنيستهم غير مرتبطة بالدولة ، متحررة من قيودها و من قيود هيمنة الإدارة الهرمية الكاثوليكية التي كانت تزيد اكثر فأكثر من تركيز إدارتها في روما .[13]

و مـن الواضـح أن هـذه النقـاط كـانـت نقـاطًا عـادلـة و من الممكن الدفاع عنها ؛ وطـالما تمسّـك بها تـرتوليـانوس و كبـريانـوس ايضـًا . و يجب كذلك أن نتذكّر أنّ الدوناتيين ، كما المونتانيين و النوفاتيين ، كانوا بالكلية على حق ، و ذلك في ما يخصّ تعاليمهم عن الوهية المسيح و فدائه ، تلك التعاليم و العقائد التي وقعت تحت هجوم خطير و طويل الأمد في الأجزاء الأخرى من الامبراطورية . كذلك رفضوا الأمور التي استحدثها الكاثوليك ، و التي لا أساس لها في الكتاب المقدس ، كالرهبنة مثلاً . كان الدوناتيون ، و بكل تأكيد ، يعيشون في بدايتهم حياة انجيلية صحيحة . إلاّ انهم اصبحوا ضحايا الطغيان الكنسي الكاثوليكي ، كما سقطوا على مذبح المتطلبات السياسية المتشدّدة في الامبراطورية ، فأصبحوا ، منذ ذلك الحين ، محط استخفاف مجحف كبير .[14] و لسوء الحظ ، لم يستطع قادتهم الأولون أن يتحكّموا في طبيعة و تطوّر تحرّكهم و نشاطهم ، وهكذا كُتب لتصـرفات مـشايعيهم المتوحشين ولأعمالهم أن تخلّف بصمات شائنة على ما بدا كرداء لائق و نظيف . و انه لأمر مؤسف كون تلك البقع و اللطخات المعيبة لا يمكن إزالتها ، فالرداء قد أصبح وسخًا ، و لا مجال لإعادة تنظيفه .

ملاحظات

1- Eusebius *Vita Constantini* III,15; Bainton p.122

2- *Traité* 5: *A Démétrianus* (*ANF* Vol. V p. 458) ؛ اقتبسها ايضًا Cooley (p. 34)

3- 1 كورنثوس 11:5

4- راجع الفصل 17

5- بالنسبة الى الرأي القائل إن ترتوليانوس هو سبق للدوناتيين في مبادئهم ، راجع Frend pp.118-124 . إلاّ انه كانت هناك اختلافات هامة بين الدوناتيين في زمن اغسطينوس من جهة ، و المونتانيين في زمن ترتوليانوس من جهة أخرى . إن اوضح خلاف هو تبنّي الدوناتيين الشامل لنظام كبريانوس الكنسي ، و الذي على أساسه يعيّنون نظارهم الانفراديين ويدبّرون لمؤتمراتهم الخاصة . من جهة أخرى ، ان قدرتهم على البقاء قد تُنسب جزئيًا الى أسلـوبهم فـي إشـراك أعـضاء كنـائسهـم فـي الحياة بالروح ، مانحين إياهم إحساسًا قويًا بالانتماء الى الجماعة و بالمشاركة الشخصية . كان هذا الشكل من التركيز مونتانيًا للغاية (Frend p. 319) .

6- او ربّما « اولئك الذين كانوا يتسكّعون حول الأضرحة » - مدافن الشهداء - حيث كانوا يحصلون على تقدمات من الطعام .

7- « ان العثور في نوميديا على عدد كبير من النقوش الليبية و الرومانوليبية ، حسم المسألة بشأن اللغة التي كانت محكية بين أوساط النوميديين المحليين في زمن القديس اغسطينوس ، و ذلك لصالح الليبية أي الأمازيغية الأصلية .» كان الدوناتيون ، بكل تأكيد ، يستخدمون اللاتينية في مؤتمراتهم و كتاباتهم اللاهوتية . لكـن Frend يلحـظ مـا يـلي : «فمع ان النقوش جاءت باللغة اللاتينية ، فليس هناك شك ، على ما يبدو ، في أن الدوناتيين كانوا يستخدمون اللغة الأمازيغية في اجتماعاتهم في المناطق الريفية .» Frend pp. xiv; 335

8- « يبدو أنّ بعض المشاعر اللغوية و العرقية كانت من بين العوامل وقفت وراء الشقاق الدوناتي الذي ارهق الكنيسة في إفريقيا الشمالية ، جيلاً بعد جيل ، و تركها ضعيفة و يائسة في وجه أعدائها عندما حضر يوم إدانتها . » (Neill p. 38)

لقد اتّحدت الطبقتان السفليتان في المجتمع أي الامازيغ و البونيون لدعم الدوناتيين ، و ذلك بالتحديد لأن الارستوقراطية المحلية اللاتينية و اللاتين في روما ، كانوا قد تبنّوا السياسة المعاكسة اي الكاثوليكية . كان الأمازيغ ضدّ الرومان بشكل بارز . لقد أصبحوا مسيحيين حين كانت روما تضطهد المسيحيين ؛ و الآن راحوا يدعمون الفئة المسيحية التي لا توافق عليها روما . » (Bainton p. 120)

9- 2 كورنثوس 17:6

10- *Ennarrationes in Psalmos* 54:16 (Hamman p. 297)

11- 2 تيموثاوس 2:24, 25

12- 1 كورنثوس 1:13 - 3

13- « كان الدوناتيون يعتبرون أنفسهم فريقًا للمحافظة على بديل للمجتمع حولهم ، و لحمايته . كانوا يشعرون بأن هويتهم هي مهدّدة باستمرار : في البداية من خلال الاضطهاد ، ثم في ما بعد من خلال المساومة . . . و بالمفارقة معهم ، إن كاثوليكية اغسطينوس تعكس موقف فريق واثق من قدرته على استيعاب العالم من دون فقدانه لهويته و مستعدّ لتحقيق ما اعتبر انه مهمته التاريخية لجهة التسلط على امبراطورية بأكملها ، و استيعابها و قيادتها . » (Brown p. 214)

14- (راجع Frend pp. 128 - 129, 319) . و حتى اغسطينوس ، عندما كانت تتاح أمامه الفرصة للتحدث شخصيًا الى مناوئيه ، كان يجد أن بعضهم يستحقون أن يكون لهم احترامه الخالص . و في احدى المناسبات ، في 397 م ، تمكّن بصحبة صديقه أليپيُوس (Alypius) من زيارة فُورتُونيُوس (Fortunius) ، الناظر الدوناتي العجوز في تُبُرسيكُوم بُور (Thubursicum Bure) ، حاليًا تبرسق (Teboursouk) . « فرحّب بهما حشد من الناس متحمّسين للأمر ، و هكذا افترق الخصمان متّفقين . » ثم اعترف اغسطينوس بالقول : « برأيي ، انه من الصعب ان تجدوا بين نظّاركم من يوازي هذا الرجل العجوز لجهة استقامة حكمه على الأمور و مشاعره . » (Brown p. 230)

للحصول على وثائق تتعلّق بالمسألة الدوناتية ، راجع :

NAPNF Series 1, Vol. IV . و من جملة المصادر الثانوية نذكر : Frend (عدة مراجع) ؛
Brown (و بخاصة الفصلين 19 & 28) ؛ Lloyd pp. 206 - 223 ؛
Schaff *HOTCC* Vol. III (عدة اقتباسات)
Foakes - Jackson pp. 288 - 295, 496 - 502

الفصل العشرون

المناظرة الحاسمة

يبدو أن المسألة الدوناتية ستستمر طوال بقية القرن و ما بعده . و من المستحيل على الفريقين ان يتوصّلا الى أي اتفاق حقيقي . فالدوناتيون لم يرغبوا في أن يكونوا جزءاً من الكنيسة الكاثوليكية الرسميّة ، كما ان الكاثوليك لم يقبلوا بانفصالهم عنهم . لم يرضَ الدوناتيون بأولئك الذين هم خونة في نظرهم ، كما أن الكاثوليك رفضوا بالمقابل ان يتنكّروا لهم .

كانت الحكومة الامبراطورية منشغلة بمشاكلها الخاصة ، و ذلك على أثر أحداث نهب مدينة روما في عام 410 م . و في هذه الأوقات كانت الأمور تتطوّر بسرعة على الساحة الإفريقية ، آخذة هذه المرة أبعاداً مأساوية ، هذا لأن النظار الكاثوليك هناك ، أرسلوا بعثة رفيعة المستوى الى الامبراطور هُونُوريُوس (Honorius) ، جاءت تتشكّى لديه بمرارة من الحريات الممنوحة للدوناتيين في إفريقيا . و في العام 411 م ، وافق الامبراطور على دعوة ممثلين الى مؤتمر خاص لإيجاد حلّ نهائي لهذه المشكلة . و كانت جلسات هذا المؤتمر ستنعقد برئاسة مَارْسيلينُوس ، والي إفريقيا ، و هو رجل ذو مناقبيات و فضائل مسيحية شهد لها كل من أغسطَينوس و جيروم في كتاباتهما . جاء الوعد للدوناتيين بتعليق جميع العقوبات و الإجراءات القانونية المتخذة بحقّهم من قبل خلال هذه المؤتمر . كما ضمنوا لهم عودتهم الى اوطانهم سالمين ، مهما كانت النتائج . و لكنهم أُنذروا بأن رفضهم المشاركة في هذا المؤتمر سيؤدي حتماً الى اتخاذ خطوات قانونية بحقهم ، لإجبارهم على الطاعة و الإذعان .

و بالطبع ، شعر الدوناتيون حيال كل ذلك بأنهم مرغمون على حضور هذا المؤتمر ، سواء أشاءوا أم أبوا . و هكذا ، في نهاية شهر مايو من تلك السنة ، دخلت المدينة مجموعة من 279 ناظراً دوناتيًا ، وانضم اليها في ما بعد مجموعة أخرى تتألف من 286 ناظراً كاثوليكيًا . لقد أمّوا قرطاجة من أماكن بعيدة جداً ، و كان هناك مَن جاء حتى من طنجة في الغرب ومن طرابلس في الشرق . و في الأول من شهر يونيو ، أخذوا أماكنهم في القاعة الكبيرة التي كانت قد خُصصت لهذه المناسبة ، و هكذا بدأ المؤتمر الأعظم و الأضخم من نوعه في إفريقيا . كان لدى الدوناتيين قائد كفوء هو بِتيليَان (Pétilien) ، ناظر سيرْتا (قسنطينة) ، و الذي كان ، من قبلُ ، محامياً قديراً متفوقًا . و وقف ضده الناظر الكاثوليكي اغسطينوس ، ناظر كنيسة هيبو . كان اغسطينوس آنذاك في الثامنة و الخمسين من عمره وفي أوج عنفوانه ، و هو خطيب متمرّس وخصم لدود .

بدأ المؤتمر بجو مشؤوم بالنسبة الى الدوناتيين ، فافتتح الوالي مارسيلينوس محضر الجلسة بقراءة بيان امبراطوري طويل . و هذا البيان حدّد القصد من هذا المؤتمر : «تأكيد الإيمان الكاثوليكي وتثبيته» ، و فيه وصف للدوناتيين «كمن أفسدوا إفريقيا و لطّخوها بضلالاتهم الباطلة العقيمة ، وبشقاقاتهم الخرافية .» بعد ذلك هُدر وقت طويل في المشاحنة بشأن الاتفاق على شروط المناظرة . فهل كان ذلك اجتماعًا للنظّار لبحث القضايا اللاهوتية ، أم هو محكمة قانونية عُقدت لسماع الاتهامات الكاثوليكية ضد الدوناتيين و اقرارها ، و من ثم اصدار الحكم بحقهم ؟ كذلك دار بحث مطوّل حول التفاوت العددي القليل بين الممثلين عن كلا الفريقين : فالكاثوليك أحضروا عشرين ناظراً إضافيًا حتى لا يكونوا من الأقلية ، و ادّعى الدوناتيون أنهم لا يزالون الأكثرية إذا ما أُحصي أعضاؤهم الغائبون . بعد ذلك وجب تثبيت هوية كل المشاركين ، وسط موجة من الاتّهامات و الاتّهامات المضادّة . و أخيراً تم اختيار سبعة نظّار عن كل جانب ليمثّلوا جماعتهم .

إلاّ أن كلا الفريقين استمرّا في تقديم اعتراضاتهم . فاقترح مارسيلينوس ، بأن يقوم الدوناتيون بتعيين قاضٍ آخر برتبة مماثلة لرتبته لكي يشاركه في الحكم ، و ذلك في حال لم يرتاحوا في الاحتكام إليه . إلاّ أن الدوناتيين رفضوا الاستفادة من هذا العرض ، معلنين أنهم لم يطلبوا أساسًا الحكَم الأول ، و لا هم سيطلبون الحكَم الثاني . و عندما طلب مارسيلينوس من الدوناتيين أن يجلسوا ، رفضوا ذلك قائلين إن الكتاب المقدس يمنعهم من الجلوس مع الأثمة والفجّار . و إذ ذاك أمر مارسيلينوس بنقل كرسيه وبقي واقفًا هو ايضًا . و عندما تحدّث اغسطينوس بلطف و دماثة داعيًا الدوناتيين «بالإخوة» ، لم يقبلوا هذه المبادرة اللطيفة ، معلنين أنه لا يوجد اية اخوّة بينهم و بين الاشرار . و على الرغم من هذه التأخيرات ومثيلاتها ، التي دامت على مدى اليومين الأولين ، بدأ المؤتمر فعليًا في يومه الثالث ، فكان المتحدثان الرئيسان اغسطينوس عن الجانب الكاثوليكي ، و بتيليان عن الجانب الدوناتي .

و اهتاجت المشاعر جداً . بتيليان ، في الواقع ، هو الذي ربح الجولات الأولى . كان حريصًا على توجيه المباحثات بعيداً عن قضية كايكيليان التي كان قد جرى إقرارها ضد جماعته من قبَل قسطنطين . كان يعلم أن الوالي مارسيلينوس ملزم بدعم التشريعات الامبراطورية السابقَة . وعوضًا عن ذلك ، تصرّف بتيليان بحكمة إذ سحب البساط من تحت أقدام مجموعة من الحجج والدعاوي المؤثرة ، حتى إذا أرادوا ان يصدروا الأحكام باسم الامبراطور بحق الدوناتيين ، عليهم أولاً أن يبرهنوا أنهم الكنيسة الحقيقية في إفريقيا ، و التي لها الحق في إدانة أضدادها و مناوئيها . «و فجأة تحوّل المؤتمر الى مناقشة عامة حول طبيعة كنيسة المسيح الحقّ : و كان الدوناتيون قد أعدوا لأجل هذا الغرض بيانًا رسميًا مؤثّراً .»[1] و هكذا استمرت المباحثات خلال ثلاث جلسات عبر ثلاثة ايام منفصلة . و خلال يومين و نصف من هذه الجلسات ، تمّ اجتناب الحديث عن قضية كايكيليان . أمّا في ما يتعلق بموضوع الكنيسة ، فقد أظهر الدوناتيون تفوقًا و اضحًا على منافسيهم .

أمّا بالنسبة الى طرق تحديد التعاليم المسيحية و ممارساتها ، فقد نجح مؤتمر عام 411 م منذ بدايته ، في تحقيق إنجاز عظيم : لقد أكّد قبول كلا الطرفين المتنازعين بسلطة الكتاب المقدس

المطلقة ، واعتباره المرشد الجازم لقضايا معتقدات الكنائس و ممارساتها . كان يتم الاقتباس من الكتاب المقدس على نطاق واسع خلال المناقشات و المناظرات السابقة ، لكنه جرى هذه المرة التمييز الحاسم بين الكتب القانونية للعهد الجديد ، كما هي متوافرة لدينا اليوم ، و سائر الكتابات المسيحية الأولى . و هكذا نجد أن كلاً من اغسطينوس و پتيليان رجعا الى العهد الجديد ، كما هو محدّد هكذا بوضوح ، لدعم موقعهما . كان الدوناتيون يرغبون في الاستعانة بمقررات مؤتمراتهم الخاصة ، بالإضافة الى الرؤى و الأقوال المأثورة - المدعومة بما يعتبرونه معجزات - التي تخصّ انبياءهم و شهداءهم . و قد كان للكاثوليكيين أيضًا بيانات و تصريحات من مؤتمراتهم الخاصة ، بالإضافة الى مواقف نظارهم في انحاء أخرى من العالم . و لكن لم يكن من السهل التوصّل الى اتفاق على اساس هذه المصادر المزعومة والمشكوك فيها . و على الرغم من بعض المعارضات قرّ الرأي أخيراً ان تُبحث هذه المسألة في ضوء شهادة الكتاب المقدس وحده .

لقد وافق الطرفان على وصف كنيسة المسيح «بالكنيسة الكاثوليكية المقدّسة» . إلاّ أن الدوناتيين أصروا على ضرورة أن تكون بشكل رئيس «مقدّسة» ، فيما شدّد الكاثوليك على فكرة انها «كاثوليكية» اي جامعة و عامة ، غير آبهين كثيراً الى القداسة المنظورة و الظاهرة . لقد كانت الحجة الأساسية عند الكاثوليك ، تلك الحقيقة التي لا يمكن انكارها ، أن الدوناتيين فصلوا انفسهم عن المسيحيين الآخرين . فالمسيح ، كما قالوا ، يرغب في ان تكون كنيسته موحّدة . نعم بالطبع ، أجاب الدوناتيون ، و لكن يجب ان تكون كنيسة المسيح مقدسة كما أنه هو قدّوس . إن الصيحة التي كانت بمثابة شعائرهم ، كانت التوصية الرسولية «فاعزلوا الخبيث من بينكم !»[2] و التي كانوا يطبّقونها على كايكيليان و على كل من كان يدعمه . عندئذ أشار اغسطينوس الى ان مثل هذا العمل التأديبي هو من مسؤولية قادة الكنيسة المعتمدين رسميًا ، و ليس من مهمة فرَق داخلية منشقّة عنها . فردّ الدوناتيون بالقول إنه كان ينبغي في هذه الحال طرح مَن هم على طرازَ كايكيليان خارج الكنيسة عوضًا عن تعيينهم نظاراً . و هكذا اعتبروا أن الكنيسة الكاثوليكية فشلت في تطبيق التعليم بشأن التأديب الكنسي الذي تحدّث عنه بولس الرسول . وإذ قصّرت الكنيسة الكاثوليكية في القيام بمسؤوليتها الإلهية هذه ، و عصت بالتالي كلمة الله ، فقدت بذلك احترام المسيحيين الحقيقيين وولاءهم لها . لذلك اقتبسوا كلمات المسيح : «انا الكرمة الحقيقية و ابي الكرّام . كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه . . . إن كان احد لا يثبت فيّ يُطرح خارجًا كالغصن فيجفّ .»[3] و هكذا اعتبروا أن كايكيليان مع جميع الذين ساندوه ، كان الغصن الذي قُطع من المسيح . امّا بالنسبة اليهم ، فقد بقوا في الكرمة ، كنيسة بطرس الحية ، لا كنيسة يهوذا الساقطة .

لقد ادّعى الدوناتيون أن جماعتهم ، و ليس جماعة الكاثوليك ، هم في الواقع ورثة كبريانوس الحقيقيين . ألم يقبل كبريانوس الاستشهاد مفضّلاً ذلك على القبول بتسوية مع العالم ؟ لقد قالوا إن الكنيسة الحقيقية هي التي تثبت في الاضطهاد ، لا الكنيسة التي تضطهد الآخرين . فالدوناتيون كانوا في الواقع يعتبرون أنفسهم دائمًا الممثلين الأفارقة الشرعيين للكنيسة

الجامعة العالمية . عندئذ سأل اغسطينوس عمّا إذا كان يجوز اعتبار الدوناتيين ، الذين يقتصر وجودهم على قارة واحدةً ، أنهم كنيسة المسيح الحقيقية في إفريقيا ، في الوقت الذي يعترف العالم بأسره بأن هذه الصفة هي من حق مناوئيهم . فردّ عليه الدوناتيون بالقول إن الحدود الجغرافية لا تعني شيئًا : لقد جاء ابن الله الى هذه الارض و سكن في مدينة صغيرة ، كما كان له خلال خدمته ، عدد من الأتباع أقلّ بكثير من عدد اتباعهم . ثم أردفوا قائلين ، إنه في مجال القضايا الاخلاقية ، يكون الحق عادة الى جانب الأقلية ، حيث أن الأكثرية الصامتة هي حتمًا من تسلك الطريق الواسع المؤدّي الى الهلاك .

كان الدوناتيون يعتبرون أنفسهم البقية التقية ، و الكنيسة النقية الصافية التي لم تطفىء روح الله ، والتي يسمع الله صلواتها . و هي الكنيسة الوحيدة التي كانت تهتم بالقداسة ، كما أنهم وحدهم من رفضوا الخطايا و التعديات التي تُبعد الإنسان عن الله . و هكذا اقتبس پتيليان من نبوّات العهد القديم ، مبيّنًا كيف أن الله غالبًا ما صمّ اذنيه و لم يستمع الى طلبات شعبه المختار وذلك بسبب شرورهم ، كما وعد بمنح الخلاص لبقيّة تقيّة فصلت نفسها عن جماعة الأشرار .[4] فاقتبس بهذا الصدّد كلمات المسيح حين قال : «ما أضيق الباب و أكرب الطريق الذي يؤدي الى الخلاص ، و قليلون هم الذين يجدونه .»[5] أمّا اغسطينوس ، فأنكر إمكانية تطبيق هذه الآيات على الأمور التي كان يبحثها المؤتمرون .

و اغسطينوس من جهته ، كان مستعدًا لأن يذهب الى أبعد الحدود من أجل إحلال السلام و الوصول الى تسوية ، و لكنه لا يقبل التنازل عن المبادىء التي يعتبرها عزيزة وغالية .[6] لقد اعتبر أن مفهوم الدوناتيين للكنيسة هو مغلوط ، إذ خلطوا بين الكنيسة المنظورة والعاملة في هذه الدنيا والكنيسة غير المنظورة و الممجدة في السماء . ففي نظره ، أن الكنيسة على الأرض تشبه دائمًا فلك نوح ، و هي ملجأ للضعفاء و الساقطين . و لن تكون طاهرة وبلا عيب إلا في السماء . فما دام الكون باقيًا ، لا بد للكنيسة من أن تحتوي على أعضاء غير مستحقين ، لن يتم عزلهم إلاّ في الدينونة الأخيرة . و الى ان يحين ذلك الوقت ، لا يحق لأي إنسان أن يحكم على أخيه الإنسان . و كل مَن تخلّى عن الكنيسة و هجرها لأنه وجد أن أعضاءها غير مستحقين ، بات هو نفسه مذنبًا ، و خطيته اعظم من خطيتهم ، لأنها خطية الانقسام التي هي إساءة الى المحبة .

كذلك أشار اغسطينوس الى المثل الشهير عن الحنطة و الزوان . فالكنيسة ، قال اغسطينوس ، ستبقى تحتوي على كلّ من الحنطة و الزوان ، اي الناس الصالحين و الأشرار معًا . «أتريد ان نذهب و نقلع الزوان ؟» سأل العمّال في المثل ، «كلاّ ،» أجابهم السيد ، «دعوهما ينميان كلاهما معًا الى الحصاد .»[7] فالحصاد لن يحصل إلاّ في يوم الدينونة العظيم ؛ و هكذا لن يتم فصل الأبرار عن الأشرار الى أن يحين ذلك الوقت . و بعد ذلك أشار أغسطينوس أيضًا الى مثل الشبكة المطروحة في البحر ؛ و هكذا اعتبر أن الكنيسة هي أشبه بشبكة طرحها الصيادون في البحر ، فأمسكوا بواسطتها سمكًا ، بعضه صالح و بعضه رديء . و لكن عملية فرز هذه الأسماك لا تحصل الاّ «في انقضاء العالم» ، عندما «يخرج الملائكة و يفرزون الأشرار من بين الأبرار .»[8]

فالكنيسة ، قال اغسطينوس ، لا بدّ من ان تحتوي على الزوان في وسط الحنطة ، و السمك الرديء مع السمك الجيد . و ليس من واجب الكنيسة ان تحكم بين هذا و ذاك ، بل أن تعلّم وتشجّع الجميع ، و تعمل على تحسين اوضاع الضعيف والضال و الجاهل .

لكنّ هذه الأمثال لم تكن ، في نظر الدوناتيين ، تصف الكنيسة على الاطلاق . فبموجب التفسير الذي عرضه المسيح نفسه ، إن الحنطة و الزوان ينموان ، لا في الكنيسة بل في العالم ؛ كما أن صيد السمك لم يحصل من داخل الكنيسة بل من العالم . «الحقل هو العالم» ، هذا ما قاله المسيح بوضوح وبصراحة . إن الزرع الجيد و الزوان ينموان سوية في المدن و القرى ، و ليس داخل الجماعات المسيحية . و كذلك السمك الجيد و الرديء ، فلا يتم جمعها من كنائس ، بل من الشوارع و الأسواق حيث يختلط الاثنان معًا حتى انقضاء العالم . إنه لا يصح أبدًا اعتبار أن هذين المثلين يشيران الى الصالحين والطالحين المختلطين من غير تمييز في الكنيسة ، حيث لم يكن هناك بعد أية كنيسة عندما تفوّه المسيح بهذين المثلين . فهذان المثلان ، إذًا ، هما وصف ملكوت الله . ولا يصحّ إطلاقًا أن نعتبر هذا الأخير مساويًا للكنيسة المسيحية . أمّا جواب اغسطينوس ، فجاء ليؤكد ببساطة أنّ هذين المثلين يشيران الى الكنيسة .

كان اغسطينوس قد كتب من قبل تفنيدًا دقيقًا لموقف الدوناتيين من الأسرار الكنسية . فهم يعتقدون أن شعائر المعمودية او العشاء الرباني التي تقام بواسطة انسان غير مستحق ، هي في الواقع خالية من البركة الإلهية . إن الناظر الكاذب هو في نظرهم أشبه بالنبيّ الكذّاب او المعلم الكذاب ، و لا يمكنه أن يقود شعب الله إلاّ الى الضلال ؛ و هكذا ليس بمقدوره أن يكون سبب بركة لهم .[9]
لم يوافق اغسطينوس على ذلك ، هذا لأنه اعتبر أن المسيح نفسه هو الذي يقدّم الأسرار بشكل فعلي ، و هكذا لا يكون الناظر سوى مجرّد وكيل يختاره المسيح ليعمل من خلاله . إن شرعية الأسرار و صحتها لا يمكن إبطالها بسبب خُلق من يخدمها ، تمامًا كما ان أشعّة الشمس لا يمكن ان تتنجّس اذا ما اشرقت من خلال مجرى المياه المفتوحة .[10] و بموجب هذا المبدإ ، حتى ولو ثبت أن كايكيليان قد خان الكتاب المقدس ، إذ سلّمه الى أيدي الملحدين و الكفّار ، و حتى لو اقترف إساءات أفظع ، تبقى الأسرار التي يحصل عليها الشعب بواسطته فعّالة تمامًا و نافذة ، لأنه الشخص الذي اختارته الكنيسة الكاثوليكية العالمية - و بالتالي المسيح - ليكون ناظرًا في قرطاجة . و لكن ، أضاف اغسطينوس ، لا تنفع هذه الأسرار إلاّ المسيحي الذي ينتمي الى عضوية الكنيسة الحقيقية ، اي الكنيسة الكاثوليكية . فإذا ما انفصل عن الكنيسة الحقيقية ، لا يعود بإمكانه الحصول على بركة المسيح . و بالطبع ، لم يكن الدوناتيون ليوافقوا على فكرة أن الكنيسة الكاثوليكية هي وحدها الكنيسة الحقيقية ، ولا على كون أسرارها هي فعّالة بشكل اوتوماتيكي . فلم يقتنعوا بتفسير اغسطينوس هذا للكتاب المقدس .

و لم يصبح اغسطينوس سيّد الموقف إلاّ في الجلسة الأخيرة . كان مزمعًا ان يفرض على اخصامه اخذ قرار بشأن قضية إدانة كايكيليان ، هل خان هذا الناظر الإيمان و أفسد الكنيسة الكاثوليكية في إفريقيا أم لا ؟ و في ما يتعلق بمسألة أخطاء كايكيليان ، وجد الدوناتيون أنفسهم على ارضية مهزوزة . و هنا شعر پتيليان بالإحراج الشديد ، الأمر الذي دفعه أخيرًا الى أن

ينحدر الى الحدّ الذي فيه شرع ينتقد اغسطينوس على فترة المجون التي عاشها في أيام شبابه ، مع تلميح مبطّن على أنه كان لا يزال ، قلبيًا ، ينتمي الى طائفة المانويين . فاعترف اغسطينوس بالخطايا التي اقترفها قبل اهتدائه الى الايمان المسيحي ، مصرّحًا أنه لولا نعمة الله ، لظلّ بلا رجاء . إن سمعته الأدبية غير الملومة ، مع كتاباته اللاهوتية المشهورة ، كانت كافية لرد جميع هذه الاتهامات الموجّهة إليه .

من ثمّ سأل پتيليان السؤال الأكثر صلة بالموضوع فقال : «لماذا يستعمل الكاثوليك القوة القسريّة لإخضاع اولئك الذين يخالفونهم الرأي او يقاومون سلطتهم ؟ في نحو العام 408 م ، كانت وجهات نظر أغسطينوس بشأن مسألة الإرغام القانوني ، قد تغيّرت . ففي السابق كان يرغب في الاعتماد فقط على تأثيرات الإقناع . قال قبلاً : «أنا لا أريد أن أجبر أي إنسان على أن يؤمن ضد ارادته .»[11] و لكن الدوناتيين ، في رفضهم المستمر أن يقتنعوا ، استنفدوا أخيراً صبر أغسطينوس و طول أناته . بالإضافة الى هذا ، كان اغسطينوس قد رأى بنفسه مؤخراً أن كثيرين عادوا الى الكنف الكاثوليكي ، وذلك من طريق التهديد بالعقاب . ففي مدينته هيپو ، تحولت الاقلية الكاثوليكية الى الأكثرية بواسطة هذه الأساليب ، و هكذا بدأ يشعر أن الهدف يبرّر الوسيلة في مجال استخدام القوة القسريّة هنا . وقد حاول أن يجد مبرراً لعمله هذا من الانجيل ، فردّ على پتيليان مقتبسًا كلمات من مثل قدّمه يسوع ؛ لكن المعنى المعروض لهذه الكلمات جاء مخالفًا سياقها : «ألزموهم بالدخول !»[12] لم يكن قطّ من الدعاة الى استخدام العنف ، لكنه بدأ يؤيّد تقييد حريات الدوناتيين و مصادرة أملاكهم كوسائل فعّالة لجهة دفْعهم الى الرجوع الى الكنيسة الكاثوليكية . كذلك أشار الى القوانين التي سُنّت حديثًا ، و التي تفرض عقوبة الموت على كل من يمارس السحر الأسود و الشعوذة و عبادة الأصنام . و يبدو أن الدوناتيين أنفسهم لم يكونوا ليفكّروا قط في معارضة هذه القوانين . فإن كان يحق فرض الخضوع والامتثال بالقوة خارج نطاق الجماعة المسيحية ، أفلا يجوز تبرير استخدام هذه الأساليب داخلها ؟

في الواقع ، لم يكن اغسطينوس رجلاً قاسيًا او حقوداً . كان يعارض بشدة أي استخدام لأسلوب التعذيب في عملية محاكمة المجرمين : انها تدفع الأبرياء الى الاعتراف بأعمال لم يقترفوها قط ، ثمّ تتركهم مشوّهين . كذلك لم يكن ، يؤيّد فكرة إنزال عقوبة الموت بالهراطقة الأمر الذي كان يدعو اليه بعض الكاثوليك أمثال أُپتاتوس من ملفيس . كان باستطاعته ان يترفّع فوق الوسائل القانونية المتّبعة ، إلاّ أنه ، كان هو نفسه قد أصبح مرهقًا من جراء الصراعات المزمنة . بات لا يرى طريقًا آخر لإعادة النظام . و إذ كان قد قطع الأمل من امكانية الانتصار على الدوناتيين بقوة المنطق ، تحوّل الى استخدام قوة القانون . لقد أدرك ، على مضض ، الحقيقة المحزنة أن كنيسة الدولة - أو أية ديانة تابعة للدولة - لا تستطيع أن تضمن امتثال الناس لممارستها و إذعانهم لموظفيها إلاّ من طريق التهديدات الرسمية ، و اذا اقتضى الأمر استعمال الإكراه المادي .

و اذا ما نظرنا الى الوراء ، فإننا نرى بوضوح كيف أن روح الامبراطورية الرومانية قد زحف الى قلب الكنيسة الكاثوليكية ؛ لقد رصّا الصفوف بقصد السيطرة على العالم . الامبراطورية الرومانية و الكنيسة الكاثوليكية ، السلطة الدنيوية و السلطة الدينية ، الكرمتان تشابكتا لكي يدعم

أحدهما الآخر ؛ و نحن نرى في المؤتمر الذي عُقد في العام 411 م ، باكورات اتحادهما هذا . إنه لأمر مؤسف أن يُصار الى استعمال القوّة السياسية لفرض الطاعة و الإذعان . و هذا المنحى عينه هو الذي اتّبعته الكنيسة الكاثوليكية ، في كل مكان من العالم ، و على مدى القرون المتعاقبة . لقد عمد قادتها إلى تبرير سياسة القهر و الإكراه هذه ، مستخدمين لأجل ذلك الحجج عينها التي قدّمها اغسطينوس في هذا المؤتمر . إنه لأمر مأساوي أن يكون هذا الرجل المحب بهذا المقدار هو اول من حرّك تاريخاً مظلماً ومُخزياً كهذا . و لكن قوى الطبيعة البشرية ، و متطلبات السياسات الدنيوية ، كانت قوية جداً حتّى على اغسطينوس نفسه .[13]

امّا الوالي مارسيلينوس ، الذي كان حتى ذلك الوقت بعيداً عن هذه المباحثات ، فقرّر أن يتدخّل . لقد أهمل طلبات بخصوص تنظيم الكنيسة ، ثم أصدر حكمه ضدّ الدوناتيين في ما يتعلّق بقضية كايكيليان . لقد تأثّر بانضباط اغسطينوس و بلطفه و كياسته المقنعة . و حتى لو لم يكن مارسيلينوس قد جاء الى هذا المؤتمر باقتناع مسبق بأنه من صالح الامبراطورية أن تنصر الفريق الكاثوليكي ، كان لا بدّ له من ان يتوصّل الى هذه النتيجة عينها ، و ذلك من جراء التصرفات الفظّة لممثلي الدوناتيين الذين تزايد شعورهم بخيبة الأمل مع مرور الوقت . هذا و قد سُمح لهؤلاء بالعودة الى ديارهم آمنين ، و قد أُعطيت لهم فرصة ليفكروا مليّاً في الشروط البسيطة المعروضة عليهم . فبإمكانهم الاحتفاظ بكنائسهم و أبنيتهم و نظارهم إذا عادوا و التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية الرسميّة ، و قبلوا تعاليمها ، و أذعنوا لمراسيمها . و لكن إذا ما رفضوا ذلك ، فسيكابدون أقصى العقوبات بموجب القانون .

و عند مغادرتهم المؤتمر ، ادّعى الدوناتيون ، بتفاؤل مثير للشفقة ، بأن المناظرة كانت لصالحهم . ثم عادوا و رفعوا قضيتهم ثانية الى الامبراطور ، و لكن من دون جدوى . و في السنة التالية ، 412 م ، صدر مرسوم اشتراعي يفرض غرامة باهظة على كل من يرتبط بنشاطات مسيحية خارج الكنيسة الرسمية الكاثوليكية العالمية . أمّا الفقراء الذين لا يتمكّنون من دفع هذه الغرامة ، فسيجرى ضربهم ضرباً مبرحاً . لقد أعطيت الأوامر للسادة بضرورة إجبار عبيدهم بالإذعان لهذا القانون . كذلك قضى المرسوم بإقصاء النظّار الدوناتيين عن أوطانهم ، و بمصادرة أراضيهم و دور عبادتهم . و كان العقاب الصارم من نصيب كل من تسوّله نفسه أن يحميهم أو يقدّم لهم الملجأ . و كأن كل هذه الإجراءات لم تكن قاسية و عنيفة بما فيه الكفاية ، حتى انه تمّ ، بعد سنتين ، سنّ القوانين التي تحرمهم من حقوقهم المدنية .

هل كان انكسار الدوناتيين انتصاراً شخصياً لأغسطينوس ؟ و هل كان نفوذه في المناظرة حاسماً؟ على الأرجح لا . فقد كانت هزيمتهم محتومة منذ المرحلة الأولى . و هكذا ، كل ما فعله اغسطينوس هو أنه أمال قليلاً كفّة الميزان الذي كان أصلاً راجحاً ضدّهم . و منذ ذلك الوقت ، راحت الدوناتية تضعف بسرعة ، ليس بسبب المراسيم الاشتراعية الامبراطورية ضدّهم فحسب ، بل لأن الحركة بجملتها كانت قد فقدت نفوذها ، و لم يعد من الممكن معالجة الأمر . كان الكثير من المتعاطفين مع هذه الحركة قد عادوا الى كنف الكنيسة الكاثوليكية حتى قبل انعقاد المؤتمر عام 411 م . امّا بالنسبة الى الآخرين ، فقد حملتهم هذه الإجراءات الامبراطورية على اتخاذ القرار

الذي كان ، على كل حال ، في بالهم منذ وقت طويل . أما اولئك الذين كانوا بين صفوف الدوناتيين و الذين هم أحكم من سواهم وأكثر تشبهًا بالمسيح ، فقد ازدادت خيبة أملهم لجهة إخفاق قادتهم ، إمّا في ضبط جماعات «الدواريين» ، و إمّا من خلال الانفصال و الاعتزال عن هؤلاء الرعاع . إذ لم يعد هناك مسيحيون حقيقيون بإمكانهم أن يتحملوا شناعاتهم .

تمّ تطبيق هذه القوانين الجديدة بصرامة ، و هكذا حلّت الضربة القاضية بتلك الأقلية الباقية من الحركة التي كانت تشكّل غالبية المسيحيين في إفريقيا الشمالية . كما أن الانحلال الذي اصاب الامبراطورية بعد نهب روما الذي حصل سنة 410 م ، لم يسبّب اي انتعاش في الدوناتية او اي بعث لهذه الحركة . لقد اشترك أغسطينوس بمناظرة علنية أخرى مع من بقي من نظّارهم . و قد حصل ذلك في العام 418 م في قيصرية (شرشال حاليًا) ، و لم تسفر هذه المناظرة عن أية نتائج إيجابية ، و أصبح جليًا أن هذه الحركة قد ماتت و انتهت . ليست قصة الدوناتيين من القصص التي تبني المؤمن أو تشجعه ؛ انها ، من وجوه عديدة ، محزنة للغاية . إلاّ أنها تقدم لنا دروسًا قيّمة و عبرًا ، و هنا تكمن قيمتها الحقيقية .

اما الكاثوليكيون ، من جهتهم ، فلم يستمتعوا طويلاً بنصرهم . هذا لأن كنائسهم ، مع ما تبقّى من الجماعات الدوناتية القليلة . رضخوا بعد هذا الوقت بفترة قصيرة ، للمهاجمين الونداليين (Vandales) . و لم نعد نسمع شيئًا عن هذه الحركة سوى أنها قد انتعشت لمدة قصيرة بعد مائتي عام اي في القرن السادس ، علمًا أنهم لم يكسبوا أي أتباع في أي جزء آخر من العالم . لقد قاومت الدوناتية كل عروض الجماعات الهرطوقية الموجودة في اوروبا و آسيا الصغرى ، و انتهت أخيراً كما بدأت : حركة محلية مقتصرة على إفريقيا ، و لكنها مرتبطة ارتباطًا و ثيقًا بالنهوض الرائع و السقوط المأساوي اللذان اختبرتهما كنيسة المسيح عند السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط . إنهم يمثّلون آخر و أعظم تجسيم لذلك النموذج المتكرّر الذي تميّز به تاريخ المسيحية في إفريقيا الشمالية : تفسّخ الجماعات المسيحية و انحلالها في فترات السلام ، تلك الجماعات التي كانت مزدهرة و منتعشة في أيام الاضطهاد . إن المنازعات التي تحصل بعد الاضطهاد كانت دائمًا تسبب الأذى للكنيسة أكثر من الاضطهادات نفسها .

لم يحظَ الدوناتيون بشعبية بين مؤرخي الكنيسة . و ربما كان السبب في ذلك هو عدم حوزتنا سوى النزر اليسير من الكتابات الدوناتية . كانوا يفوقون الكاثوليك عدداً ، و ذلك على طول الفترة منذ بداية الأزمنة حتى نهايتها ، و لكن لعلهم لم يكتبوا إلاّ الشيء القليل عن مسألتهم ، أو أنه لم يُحفظ لنا سوى الشيء القليل منها . و بالجهد يمكننا أن نتكهّن بشأن أهداف أعضائها الأكثر اعتدالاً و اتّزانًا وآمالهم : فإن معظم هؤلاء لم يكونوا من الكتّاب البارعين ، و لا من الخطباء الفصيحين ، كما أنّ زملاءهم المشاغبين سرعان ما حجبوهم عن الأنظار . و هذا هو غالبًا قدر الإنسان العاقل و الحصيف ، إذ إنه يُداس ويُسحق تحت أقدام المتطرفين : لا يوجد عنده ميل نحو الصراعات و المباحثات ، و هكذا ينسحب من المعركة في آخر المطاف ، به حزن أعمق ، لكنه يخرج بكل تأكيد أحكم من قبل . و المستندات التي وصلتنا من هذه الحقبة ، كان قد كتبها بعض المسؤولين الرسميين الامبراطوريين ، أو مؤيدين للفريق الكاثوليكي . ان معظم الشروحات الحديثة

الأخرى في ما يختصّ بهذه المسألة هي ايضًا ثمرة عمل مؤرخين ذوي النزعات و الميول الكاثوليكية او الأسقفية . و نادراً ما يُفكّر في هذا الموضوع من وجهة النظر الأخرى ، أي من وجهة نظر الفريق الدوناتي .

الى ذلك ، فقد ظهر الدوناتيون منذ ذلك الحين بسمعة تزداد سوءًا ، حيث نجدهم معارضين و مقاومين ، بشكل واضح ، فكرة اشتراكهم في المؤتمرات ؛ إنهم يرفضون أية تسوية ويتحفّظون على شتى عروض الصداقة الحبية . ينبغي علينا ألاّ نتسرّع في إدانتنا لهم على هذا ، حيث اننا نتعرّض بذلك الى تجاهل حقيقة أن سلاح المؤتمرات و التسوية و الصداقة ، كان الأسلوب الذي أراد الكاثوليك انتهاجه بهدف إقرار المصالحة و الوحدة التنظيمية . امّا الدوناتيون ، فكان اهتمامهم أن يُتركوا و شأنهم ليستطيعوا إنشاء كنائسهم الخاصة بموجب المبادىء التي رسموها لأنفسهم . كانوا يعرفون أنهم لن يكسبوا أي شيء من المؤتمرات او من التسويات . لم يكن عندهم أية أطماع لفرض نفوذهم على الكنيسة الكاثوليكية او للتسلّط عليها . كل ما كانوا يريدونه هو التحرّر منها . لقد وافقوا على المشاركة في المؤتمرات المتكررة التي كان ينظّمها الكاثوليك ، على الرغم من علمهم المسبق بأن اغسطينوس ، خصمهم اللّدود ، يتفوق عليهم بقدرته الخطابية و الفكرية ، حتى انهم لا يستطيعون مجاراته . إن هذا القبول يدل على إيجابية محمودة عندهم . كانوا يأتون الى هذه المؤتمرات ، ربما لإظهار عدد أتباعهم وقوتهم ، و ربما أيضًا لأجل عرض قضيتهم ، و بالتالي كسب تعاطف الناس ، أو ربّما ايضًا بسبب اضطرارهم قانونيًا الى ان يشاركوا في هذه المؤتمرات . و لكن من المؤكّد أنهم لم يشاركوا رغبة منهم في إكراه الكاثوليك و إجبارهم على الطاعة ، كما كان الكاثوليك يريدون ان يفعلوا معهم .

إن الانتقادات التي وُجّهت الى الدوناتيين تنبثق بشكل رئيس من كونهم يعتبرون أنفسهم منفصلين عن الكنيسة الكاثوليكية الرسميّة . و على ضوء كل ما حدث في ذلك الوقت ، نجد انه ليس بإمكاننا اعتبار هذا الأمر خطأ فادحًا ، هذا إن كان خطأ على أية حال . كما أن هذا الأمر يجب ألاّ يعمي أبصارنا عن حقيقة أن هؤلاء القوم لم يكونوا يرغبون في البداية في شق المجتمع المسيحي ، بل بالحري في دفعه الى الارتقاء الى أعلى مستويات الإيمان و القداسة . و عندما لم يتعاطف احد معهم ، و لا وجدوا عند الآخرين أية رغبة في الإصلاح ، لم يبقَ أمامهم سوى إنشاء كنائسهم الخاصة ، و بموجب إيحاءات ضميرهم و توجيهاته . إنهم في هذا يتشابهون مع الحُسِّين (Hussites) ، و الوَالدَنْسيين (Oualdensiens) ، و اللوثريين في اوروبا . و إن كان يوجد أية أوجه شبه بينَ الدوناتيين واللوثريين ، فهي انهما كلاهما قد أُرغما على ترك الكنيسة التي حاولوا إصلاحها . و لربما وُجد تشابه بين كل من اغسطينوس و إراسْمُوس (Erasme) ، حيث أراد كل منهما أن يُحدث الإصلاحات من داخل الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، بالقيام «بإصلاح مقابل» لأجل التخلّص من الانحرافات التي تقف وراء الانقسامات الحاصلة في الكنيسة . و لوثر ايضًا آثر كدوناتوس ترك الكنيسة الكاثوليكية ، لأن مبدأ القداسة الظاهرة كان في نظره أكثر أهمية من الوحدة الشكلية الظاهرة . أمّا أغسطينوس ، فمثل إراسموس ، حاول بصبر ، أن يعالج الصدع و الشرخ في الكنيسة ، إذ شعر بأن مبدأ الوحدة الظاهرة الشكلية كان قد طغى على مبدإ القداسة الظاهرة للجميع .

ربح اغسطينوس المناظرة الرسمية ، و لكنه لم يستطع ، بأي شكل من الأشكال ، أن يفوز بقلوب الشعب الإفريقي الشمالي . إن الانتصار الذي أُحرز في المؤتمر ، كان من الضروري تشريعه على اساس القوّة و الإكراه . فالمنطق ، على العموم ، ليس هو الذي يقنع الجماهير ، وبالأخص شعب إفريقيا الشمالية . إن قوة التأثير الشخصي (كاريزما) ، أي «البركة» الظاهرة في حياة بطل معين يعيش بين ظهرانيهم ، هي التي تدفعهم الى السير في هذا الاتجاه او ذاك . يعود اخفاق الدوناتيين بشكل رئيس الى حقيقة أنهم كانوا يفتقرون الى قائد قادر على إبقائهم ضمن حدود المحبة و الصبر ، اللذين يشكّلان العلامة المميّزة للمسيحي الحقيقي ، و التي تضمن بركة الله . فبعد موت دوناتوس ، لم يوجد بين اتباعه أحد قادر على أن يمارس ذلك النوع من النفوذ الفاتن على زملائه لأجل الخير . لم يكن بينهم أي قائد يملك الكفاءة الأخلاقية و الفكرية على مستوى ترتوليانوس مثلاً . لو عاش ذلك الرجل الإفريقي العظيم في زمن لاحق ، لتعاطف مع الأهداف التي جعلها الدوناتيون نصب أعينهم . لكنه كان ، و لا شك ، سيحثّهم على الابتعاد عن تورطهم الأرعن في الزمر السياسية . و قد لا يكون ترتوليانوس على مستوى مجاراة أغسطينوس في مهاراته في البحث و الجدال ، لكن فكره المدرك النافذ بإمكانه ، على الأقل ، أن يرى مسبقًا بعض الأخطار التي تنتظرهم في المستقبل . لقد كان سيحثّ الدوناتيين على ضرورة التصرف برزانة وأناة ، مع الحرص على تصرف يُكسبُهم احترام الآخرين ، ثم بعد ذلك يعلم العالم انهم كانوا جديرين بهذا الاحترام . كان ترتوليانَوس يشير دائمًا الى التصرف غير الملوم عند الرجال و النساء المسيحيين في عصره ، و كان باستطاعته ان يشدّد كثيراً على أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يلحقوا الأذى بأي كان ، و إنما يرغبون ببساطة في أن يعبدوا الله و ينظّموا كنائسهم المستقلة بعيداً عن الإكراه الامبراطوري او الديني . و لم يكن ترتوليانوس ليرغب في أن يعيد اللحمة بين الدوناتيين و الكاثوليكيين - فإن نظرته الى الكنيسة العالمية و الكنائس المحليّة لا تتطلّب الإذعان لأيّة منظمة - و لكنه كان سيحثّ جميع الذين يحبون المسيح على أن يحبوا بعضهم بعضًا ايضًا . و لكان ازدرى ايضًا بأي احتمال حصول اتحاد مع العنفاء و الدنسين . إن الوحدة التي تُفرض بالقوة و العنف تكون دائمًا غير شعبية و محفوفة بالمخاطر . كان موقف ترتوليانوس واضحًا : إن كان أحد يؤمن بالمسيح ، فهو أخ محبوب و عزيز ؛ و الاّ ، فهو جار أو قريب في حاجة الى مساعدة . إن كان يعرف الإنجيل فهو مزارع ؛ و إلاّ ، فهو إذاً حقل يحتاج الى من يبذره . هذه الخطة البسيطة تختلف كل الاختلاف عن قضية «مسيحية» يتبناها وثنيون رعاع .

ربما نفهم كيف ان الدوناتيين استمتعوا بشعبيتهم الأولى و استساغوها ، على الرغم من أنهم كانوا ، في وقت من الأوقات ، يقفون فرحين على قمة النشوة ، لا يعرفون الا الشيء القليل عن الأسباب التي تكمن وراء هذه الشعبية . و كان مناصروهم يُعدّون بالآلاف ، بينما كان عدد الكاثوليك يعدُ فقط بالمئات . و لكن ذلك الشرك السياسي المتّسم بقلة التبصّر و التمييز ، كان السبب الأساس لسقوطهم . لقد أصبح الدوناتيون ، في نظر السلطات والجماهير ، متشبّهين «بالدواريين» ، حتى انهم فقدوا في النهاية كل أمل بالبقاء على قيد الحياة و الاستمرار ، بعد تلك الكراهية الشاملة التي اصبحت عند الجميع من نحو اولئك الذين اشعلوا النيران في المزارع و سلبوا

البيوت و الممتلكات الكنسية . فالتورط في ثورة شعبية هو دائمًا محفوف بأصعب المخاطر . إن العداوة المعبّر عنها بمرارة ، خصوصًا إذا كانت مقترنة بأعمال عنف ، لا يمكنها أبدًا أن تتوافق أو تنسجم مع تعاليم الرب يسوع المسيح الذي أضاف الى المبدإ الأساسي «أحبَّ قريبك كما تحبُّ نفسك» مبدأ مثاليًا أعلى وهو «أحبُّوا أعداءكم» يضاف اليه مبدأ إنجيلي أشمل وهو «لنعمل الخير للجميع .»[14]

على الكنيسة ألاّ تكون آلة في يد الحكومة ، كما لا تكون شوكة في جنبها . فعلى المسيحيين أن يكونوا أعضاء في المجتمع مسالمين و محترمين . إنهم لا يحاربون لكسب اي شيء على هذه الأرض ، إنهم نزلاء و غرباء ، ينتظرون أن يرثوا عالمًا أفضل في الآخرة . و دأبهم ان يصنعوا كل ما هو خير و حسن خلال الفترة القصيرة الممنوحة لهم ، قبل انطلاقهم من هذه الدنيا الفانية . قال يسوع : «مملكتي ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون .»[15] على تلاميذ المسيح ان يبقوا بعيدين عن الزمر العدوانية و التحزّبات السياسية . سيسهرون و يصلّون ، فيما تشتعل الخلافات و النزاعات ليسيطر الإنسان على أخيه الإنسان ، و لكي يحصل على اقصى الامتيازات . ثم بعد هدوء العاصفة ، سيتسلّلون الى ساحة المعركة المهجورة لكي يعصبوا جراح الذين سقطوا . إن خدام المسيح سوف يأتون بمخلّفات الحريق ، و يجمعونها ضمن إطار الكنيسة ، ثم ينفخون فيها حياة جديدة . يحتاج انتهاج هذا السبيل الى المزيد من الشجاعة و الصبر ، و الى قدر أكبر من المحبة ، من القفز بتسرّع الى نهج العدوان الذي غالبًا ما ينتهي الى مستنقع من الدماء و المذابح ، و الحقد والموت .

و لكنّ اعظم خطإ اقترفه الدوناتيون ، هو أنهم بنوا قضيتهم منذ البداية على أساس ضعيف . لقد أصرّوا على إدانة كايكيليان ، و عندما لم يجدوا الأدلّة الكافية لأجل ذلك ، راحوا يتخبّطون في حال من الفوضى التي لا أمل من الخروج منها . و كل ذلك لم يكن ليشكّل جوهر المسألة ؛ هذا لأنه لا يهمّ كثيرًا ما فعله انسان معيّن أو لم يفعله . إن السؤال الأساس كان أكبر و أوسع بكثير من هذه القضية : هل من الضروري على الكنائس ان تخضع لقوانين المنظمة الكاثوليكية في تساهلها وتغاضيها عن الأشخاص الذين زلّوا و سقطوا في خطايا كبيرة ؟ أم هل للكنائس الحق في أن تتحرر لكي تنظّم انفسها بالشكل الذي تريد ، و ذلك كمجموعات مستقلة من المؤمنين ؟ لقد حاول بتيليان في مؤتمر 411 م ان ينقل تركيز البحث الى هذا الاتجاه ، و لكن بعد فوات الأوان .

عاد هذا الموضوع ليظهر من جديد بعد نحو اثني عشر قرنًا من الزمان ، و ذلك في الصراع الطويل الذي دار بين كنائس الدولة و الكنائس المستقلّة في اوروبا . لكن النتائج الأخيرة في أوروبا جاءت أفضل و أحسن بكثير . فقد دلّت التجارب على أن السلام لا يأتي إلاّ من طريق الحرية . و بمرور الزمن ، ظهر جليًا لجميع الفرَق الدينية ، أن الاحترام المتبادل الذي يجب أن يوليه الجميع بعضهم لبعض ، سوف لن يزدهر إلاّ عندما يوافق الجميع على أن يُسمح لكل انسان باختيار العبادة التي يرتئيها لنفسه ، كما يُفسح في المجال أمام كل كنيسة بأن تقوم بتنظيم نفسها وِفْقَ تصوّرها و إدراكها لارشاد الله .[16]

في المسألة الدوناتية ، كما نجد غالبًا في التاريخ ، تتفاعل الأحداث ببطء ، لكن بشكل أكيد نحو نتائجها الحتمية . فقد كانت هناك ظروف خاصة نتج منها ما يلي : امبراطور كان ، وللأسف ، ساذجًا وعديم الخبرة ، على الرغم من إيمانه الشخصي المخلص ، و كنيسة تابعة للدولة تحاول قلقة أن تثبت وجودها ، و جماهير مضطربة . بالإضافة إلى صرخَة التوق الى الحرية ، تُطلقها الجماعات المسيحية والوثنية على حد سواء . في مثل هذه الظروف ، تكون القوى التي تدعو الى الخلاف والشقاق ، هائلةً و عظيمة . الى ذلك ، كان جميع المتنافسين في السباق ، يركضون كالعميان ؛ لم يسبق لأي واحد منهم أن عالج مسألة مشابهة من قبل . لم تتوافر لديهم فرص التعلّم والاستفادة من القرون المتتالية من التاريخ الطويل . لقد جرفتهم قوى بشرية أعظم و أقدر من أفضلهم ، وابتلعتهم تعقيدات هي أبعد من أن يدركها حتى أحكم الناس بين صفوفهم . لقد استاء بعضهم من بعض ، و دان بعضهم بعضًا . إلاّ انهم كانوا جميعهم في نهاية المطاف ، كما يبدو ، تحت حكم الله الذي وقع بحق على حركة ضلت الطريق وعلى كنيسة شاكلت هذا العالم .

أمّا بالنسبة الى اغسطينوس ، فهو يتحرّك عبر هذه القصة بكياسة و روعة - ربما محقًا في أمور ، و مخطئًا في أخرى - و لكن نجده في كل هذا يسمو مقامًا على معاصريه جميعهم . ونحن نؤمن بأن الله كان يجعل كل الاشياء تعمل معًا للخير للذين يحبونه فعلاً ، الذين هم مدعوون حسب قصده .17

ملاحظات

1- Brown p. 332

2- 1 كورنثوس 13:5

3- يوحنا 1:15 - 6

4- Brown p. 218

5- متّى 14:7

6- إن العبارتين «المسيحية» و «الكاثوليكية» كانتا على الأرجح مرادفتين بالنسبة الى اغسطينوس . لقد شبّ في المدينة الصغيرة ثاغاسْتْ التي كانت ، خلافًا لقرى كثيرة غيرها ، موالية الى حدّ كبير للقضية الكاثوليكية . كانت أمه ، بكل تأكيد ، من أنصار الكنيسة الكاثوليكية . و بعد اهتدائه في أوروبا ، قضى وقته في أوساط الطبقات الرفيعة للبلاط الامبراطوري و الكنيسة الرسمية في في ميلانو حيث ازدهرت المسيحية الكاثوليكية ، و حيث كانت الكنيسة متّحدة بوضوح ضدّ المناوئين الوثنيين من مفكّرين لاتين ، و فلاسفة من دعاة الأفلاطونية المحدثة ، و طائفة المانويين في اوروبا . وفي عودته الى إفريقيا في 388 م ، كان يجهل ، بشكل أساسي ، أمر الدوناتية الإفريقية . لقد اندهش ، على الأرجح ، من قوة مسانديها ، كما استغرب أن يكون الكاثوليكيون في هيبو ، مجرّد أقلية ضعيفة و في طريقها الى الانحدار . كانت خلفيته تحول دون أن يتبادر الى ذهنه يومًا من الأيام أن يصبح هو نفسه دوناتيًا .

7- متّى 24:13 - 30

8- متّى 47:13 - 50

9- كان كبريانوس ، من قبل ، قد قال الأمر عينه . كما أنه كان لأغسطينوس الموقف عينه الذي لاستفانوس حول هذه المسألة ، اذ اعتبر أن «السرّ» يبقى فعّالاً ، و ذلك بمعزل عن خُلق من يقدّمه أو يحصل عليه . راجع الفصل 15 .

10- *De Baptismo* 4:16-18

11- اقتبسها Foakes - Jackson p. 500

12- لوقا 23:14

13- كان أغسطينوس سيُصعق بالممارسات الوحشية التي أقدمت عليها محاكم التفتيش و الصليبيون إبان العصور الوسطى . لقد كان ، كما رأينا سابقًا ، يمقت أعمال العنف على أشكالها و سفك الدم .

14- متّى 39:22 ؛ لوقا 27:6 ؛ غلاطية 10:6

15- يوحنا 36:18

16- كان أمْبْرُوزيُوس الميلاني (Ambroise, c. 340 - 397) قد وعى هذه الحقيقة ، و ذلك بقبوله بأن للكنائس المحلية الفردية الحقّ في الاحتفاظ بعاداتها الخاصة ، شرط ألاّ تتناقض هذه العادات مع المبادىء الكتابية . ففي روما مثلاً ، كان المسيحيون يصومون أيام السبت ، مع أن هذا الأمر لم يكن يُراعى في ميلانو التي تفصل بينها و بين روما مسافة أقل من 500 كلم . قال امبروزيوس : «عند ذهابي الى روما ، أنا أيضًا أصوم يوم السبت : عندما أكون هنا ، لا أصوم . . .» كانت نصيحته الرقيقة : «إذا قصدت أية كنيسة ، احرص على مراعاة العُرف المحلّي .»

(Brown p. 87)

كان پُوليكَارْپُوس (نحو 150 م) قد زار روما قبل هذا بعدة سنوات ، فوجد أن الاحتفالات بعيد القيامة كانت تُقام هناك في يوم يختلف عن اليوم المعمول به في سميرنا . فبحث الأمر مع أنسيتُوس (Anicétus) ، ناظر روما ، لكن إيْرينَايُوس ، و هو أحد تلاميذ پوليكارپوس ، كتب يقول : «إنهما توصّلا سريعًا الى تفاهم سلمي حول هذه المسألة ، إذ لم يكونا يهويان المنازعات المتبادلة .» علّق المؤرخ «شاف» على سرد إيرينايوس لهذه الأحداث بالقول : «هذه الرسالة تبرهن أن المسيحيين في أيام پوليكارپوس ، عرفوا كيف يحافظون على وحدانية الروح من دون أن يتوافر هناك تماثل في الطقوس و الاحتفالات .»

(Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 213 - 214)

17- بالإشارة الى رومية 28:8

الفصل الحادي والعشرون

الاهــتــداء الخــارق

«في حياة أغسطينوس جاذبية خاصة، لأنّه كان رجلاً خاطئًا جدًا، ثم تحوّل الى قديس عظيم جدًا، و العظمة تَعْلو قيمتها اذا كانت الظروف تمنع تتميمها و تحقيقها.»[1] لقد أظهر أغسطينوس في شبابه مؤشرات قليلة على عظمة فكرية، و لا شيء عن الجدارة الروحية. ففي كتاب «الاعترافات»، هذا الكتاب الأكثر رواجًا بين الكتب القديمة، لا يُظهر خطاياه الماضية وحسب، بل ايضًا مواقفه وأفكاره الخاطئة التي ادّت اليها، و التي سيطرت على خُلقه و سلوكه حتى بلغ سن الثانية و الثلاثين. وحتى بعد أن اقتنع بصدق الإيمان المسيحي، كان تعلّقه غير المقدس بخليلته يحول دون التزام هذا الإيمان. و لكن هذه الأمور لم تكن معروفة عند عامة الشعب. هذا لأنه في الوقت الذي كتب كتابه «الاعترافات»، و هو في سن الثالثة و الأربعين، كانت الجماعة المسيحية تعتبره رجلاً عظيمًا و طيّبًا. إن أحد أهم الأسباب التي دفعته إلى كتابة سيرة حياته الذاتية هذه، كان لإقناع محبّيه و المعجبين به بأن كل صفاته الحميدة، و شيمه الاخلاقية، ما هي إلاّ من نتاج نعمة الله تعالى، الذي أنقذه في العديد من المرّات من ذاته. ويخبرنا أغسطينوس الكثير عن أفكاره و مشاعره الخاصة، و لكنه إذ يتطلّع الى داخليته، لا يرى سوى اتكاله الكامل و التام على الله الذي خلقه، ثم بحث عنه و خلّصه.

كان أُوريليُوس اغسطينوس صبيًا بدويًا. وُلد في العام 354 م، في مدينة صغيرة جبلية تدعى ثَاغَاسْتً (و تُسمّى الآن سوق أهراس). و هي سوق تجاري يقع على مفترق طرق في مقاطعة نوميديا الى الجنوب من مدينة عنَّابة الحديثة. و كان عنده على الأقل أخ واحد وأختان. كان ابوه پَاتْرِيكيُوس (Patricius) من مالكي الأرض الصغار، و يشغل وظيفة رسمية في الحكومة المحلية. كَانَ وثنيًا، ولكنه متساهل مع الإيمان المسيحي الذي كانت تمارسه زوجته. ويبدو أنه لم يكن يمانع في أن يتعلم ابنه، في صغره، المعتقدات المسيحية. و في الواقع، ظلّ اغسطينوس سنين طويلة يواظب على حضور الدروس المعطاة للصبيان في ثاغاست، و لكنه لم يُعط في ذلك الوقت أية دلائل عمّا سيكون عليه في ما بعد. إن أيام الدراسة، كما يخبرنا لاحقًا، كانتَ بالنسبة اليه تجربة بائسة و مشؤومة، غير نافعة لشيء إلاّ لتدريبه على الصراعات، و المظالم و خيبات الامل التي سيواجهها عندما يبلغ سن الرشد[2]. و لم يكن يحب الكد و العمل الشاق المطلوب في الدراسة، و بخاصة في ما يتعلّق بدراسة اللغات الأجنبية مثل اللغة اليونانية. و لكن أغسطينوس الشاب، كان صبيًا ذكيًا

حساسًا و شديد الميل الى مطالعة جميع الكتب التي تطالها يداه . كان يعرف اللاتينية منذ حداثته ، حيث أنها كانت اللغة المحكية في البيت .

أضاع الكثير من الوقت في البطالة و الكسل . و إذ لم يكن لأبيه أية سيطرة كافية عليه ، استرسل أغسطينوس في فعل ما يسرّه . فكان يتسكّع هنا وهناك مع اولاد جيله ، و قادوه ، كما قال لنا ، الى سرقة ثمار الإجاص الفجّة من احد البساتين . لكنه سأل نفسه «لماذا فعلت هذا ؟» فهو لم يكن ليسرق مثل هذه الفاكهة العديمة النفع لو أنه كان وحده . و إنما الانحراف الطبيعي الكامن في طبيعته الإنسانية ، هو الذي جعله يزيغ هكذا . كذلك كان يبغي من ذلك أن يتبجّح امام هذه الزمرة . كان صبيًا ذا شعبية في أوساط زملائه ، لكنه غالبًا ما اساء الى نفسه من خلال رغبته في ترك انطباع جيّد عند أصحابه . و في سن المراهقة ، راح يفتخر و يعتزّ بخطايا لم يقترفها قط ، وذلك حتى يفوزَ بإعجاب اصحابه و خلانه . ويُرجّح أنه تأثّر سلبًا بهؤلاء الأصدقاء ، حتى إنه أصبح من المواظبين على حضور المسارح التي تُعرض عليها البرامج القذرة ، كما تعلّم ايضًا أن يتمتع بالرياضات المتوحّشة التي كانت تقام في الميادين العامة . كان هناك صراع في قلب أغسطينوس بين تأثيرات صحبه عليه ، و تأثيرات أمه مونيكا (Monique) من جهة اخرى .

كانت أمّ أغسطينوس امرأة مسيحية . قضت معظم فترة صباها بصحبة خادمة و فيّة للعائلة ، امرأة طاعنة في السن عاشت طوال حياتها مع ذوي مونيكا ؛ لقد لقّنت الفتاة اموراً كثيرة عن سبيل المسيح . إلاّ أن أهل مونيكا اختاروا لها زوجًا وثنيًا . و لم تكفّ مونيكا يومًا عن الصلاة من اجل خلاص زوجها پاتريكيوس . و على الرغم من أنه لم يكن مخلصًا و وفيًا لها ، حاولت جاهدة من خلال حبها له و ولائها العطوف ، أن تقوده الى الحق . كانت تعرف قيمة نصيحة الرسول بطرس عندما قال : «كذلكنّ أيتها النساء كنّ خاضعات لرجالكنّ حتى و إنْ كان البعض لا يطيعون الكلمة ، يُربحون بسيرة النساء بدون كلمة ، ملاحظين سيرتكنّ الطاهرة بخوف .»[3]
تحدثت مونيكا القليل عن سبيل المسيح مع زوجها ، و لكنها أظهرت له الكثير عنه من طريق حياتها الطاهرة المسيحية . و يخبرنا أغسطينوس أن والده كان رجلاً طيّبًا ، لكنه حادّ الطباع : « كانت أمي تعرف جيداً ضرورة ألاّ تتفوّه بأي كلام ، او تعمل أي فعل لمقاومته عندما يكون في حال غضب . و هكذا ، إذا كان غضبه في غير محلّه كانت في عادتها تحرص على أن تنتظر حتى يهدأ و يصبح رابط الجأش ، قبل أن تنتهز الفرصة لتشرح له ما فعلت .» [4]
و لم تكن لتسمح للنساء الأخريات بالثرثرة على أزواجهنّ أو التشكّي منهم في حضورها . و هكذا كانت تتمكن ، بلطفها و دماثة خُلقها ، من وضع حدّ للصراعات التي كانت تنشأ بين النسوة أنفسهنّ ؛ و كانت تبذل قصارى جهدها لتساعد كل واحدة منهنّ على تفهم وجهة نظر الأخرى .

توفي والد أغسطينوس عندما كان هذا الأخير في السابعة عشر من عمره ، و لكن الوالدة تمكّنت ، بفضل مثابرتها الدؤوب و تحلّيها بالصبر ، من تخفيف وطأة آلام الفراق هذا . كان

باتريكيوس قد أصبح مسيحيًا ، و طلب ان يعتمد ، و ذلك «في أواخر أيامه على الأرض .» لقد كان طوال أيام حياته يقدّم أفضل ما عنده إلى ابنه ، مستعداً ليبذل الغالي و النفيس لأجل تثقيفه . كان هذا كل ما بوسعه عمله لأجل ولده ، خصوصًا و ان الأب كان في ذلك الوقت لا يزال وثنيًا .

في تاريخ العالم ، كما في تاريخ الكنيسة ، يظهر أن الكثيرين من الرجال البارزين ، يدينون بصفاتهم الفذّة المتازة لأم عظيمة ؛ وعدد قليل منهم فقط يدينون لأب موهوب . إن تأثير الأم غالبًا ما يكون الأقوى ، و لعله من الأصعب على الابن أن يظهر و يبرز عندما يكون تحت ظل أب موهوب . وعلى كل حال ، إن بعض اعظم المقاطع في كتاب «الاعترافات» ، هي تلك التي يكتب فيها أغسطينوس عن أمه . من الواضح أنه كان يكنّ لأمه احترامًا عظيمًا جداً ، كما انه كان دائماً ابنًا صالحًا و عطوفًا معها ، مع أنه لم يكن يقدّر أمه حق قدرها حتى اهتدى الى المسيحية . لقد قالت له و هي على فراش الموت ، إنها لم تسمعه يومًا يتحدّث اليها بقسوة أو فظاظة . و هذا الأمر ، يسهل تصديقه ، ذلك لأن اغسطينوس لم يذكر أي شيء في اعترافاته عن معاملته الآخرين بفظاظة ، في الوقت الذي شعر بضرورة الاعتراف بخطايا أخرى .

تُركت مونيكا بحال يُرثى لها بعد موت بعلها ، إلاّ أن امرأة ثرية كانت تعرف العائلة ، عرضت بسخاء مساهمتها في نفقات تعليم أغسطينوس . و في سنّ السابعة عشر ، ترك أغسطينوس بيته في ثاغاست ، و انطلق قاصداً قرطاجة ، التي تبعد نحو 240 كيلومتراً عن بلده ، لكي يكمل دراسته في مدرستها هناك . و كانت المرّة الأولى التي يرى فيها أغسطينوس البحر ، فافتتنته روعة جمال المياه الزرقاء و هي تتلألأ تحت أشعة الشمس . و حين كان يجول عبر شوارع هذه المدينة العظيمة ، عاصمة إفريقيا ، شعر في نفسه بأنه أصبح أخيراً متحرراً من جميع القيود والالتزامات : كان كل العالم امامه . و في حجرة الدراسة ، بدأت مقدّرات هذا الشاب و مهاراته تظهر إلى العلن . لكن مع بروز قواه الفكرية ، كانت اخلاقه تتردّى بالمقابل . هذا لأنه وقع في شرك علاقة غرامية مع امرأة لم يكن يستطيع ، بموجب أعراف ذلك العصر ، الاقتران بها ، ذلك لأنها كانت أقلّ منه قدراً من الناحية الاجتماعية . و هكذا استمرت علاقته بها على مدى الاثنتي عشرة سنة التالية ، و قد أنجبت منه طفلاً دعاه أديُودَاتُس (Adéodatus) . كانت هذه العلاقة مسرّة ، إلاّ أنها تركته مضطربًا ، كما ان نهايتها كانَت مفجعة . ثم بعد مضي عدة سنوات ، كتب أغسطينوس في كتابه «الاعترافات» ، الذي جاء كصلاة طويلة رفعها الى الله خالقه ، يقول : «لقد صليت إليك ربي ، لتحلّيني بالعفّة بهذه الكلمات ، " امنحني يا الله عفّة و ضبط نفس ، ولكن ليس الآن ! "»[5] – هذه صرخة رجل يشتاق الى أمر مثالي يعجز عن الوصول اليه ، لكنه يتمسّك برذيلة يمقتها و تشمئز منها نفسه .

خلال هذه السنوات التي قضاها في قرطاجة ، اختبر أغسطينوس اضطرابات روحية هائلة . ففي دراسته ، استوقفته كتابات شيشرون . لقد استحوذ على مخيلته التماس هذا الفيلسوف

العظيم للحكمة ؛ فأنشأ ذلك فيه رغبة عارمة في البحث عن الحق . و من حيث التعابير الفصيحة و الأدب الرفيع ، بدا الكتاب المقدس لأغسطينوس أنه فقير و ركيك إذا ما قورن بنثر شيشرون المصقول والمنمّق . و كان أغسطينوس يعتقد في تلك الأيام ، أن الكتاب المقدس لا يناسب إلاّ ذوي العقول البسيطة الساذجة . لقد قَبل ، من دون تساؤل أنّ الكتاب المقدس مملوء بالتناقضات ، و لم يكن غروره ليسمح له بأن يقرأ هذا الكتاب بنفسه ، و بذهن مفتوح .

و لكن ، مع مرور الأسابيع ، أثبت التماسه الشخصي للحكمة بأنه أمر مخيّب للآمال ، اكثر ممّا كان يتوقعه . إن مساعيه و محاولاته هذه ، ولّدت عنده من الشكوك أكثر ممّا ولّدته من التأكيدات . فلم يستطع ان يفسّر وجود كل هذه الشرور في عالم خلقه و أوجده إله صالح ، كما انه عجز عن إدراك كيف يمكن لخالق هذا العالم المادي أن يكون روحًا غير منظور . و أخيراً تعرّف بجماعة دينية كانوا يُعرفون بالمانَويين (Manichéens) . كان نظام إيمان هؤلاء القوم يقدّم تفسيراً وتعليلاً لوجود الشر ، الأمر الذي بَدا معقولاً بالنسبة الى الشاب أغسطينوس ، كما انه في الوقت عينه كان يسمح للخاطي بأن يلقي الملامة على قوى خارجية في ما يتعلّق بشروره .

كانت المانوية قد انتشرت بسرعة بين الوثنيين في القرنين الثالث و الرابع ، كما أغرت بعض الافراد من هوامش الجماعات المسيحية . كان مؤسّسها ، و يُدعى مَانس (Manès) ، قد وُلد في العام 216 م في جنوب بابل . و أخيراً ، و بعد حياة متدينة مملوءة غيرة و تقشفًا ، تمّ سلخ جلده عنه و هو حيّ ، و ذلك في مدينة غَانْديشَابور (Gandishapur) بايران في العام 276 م . و كان مانس يُطلق على نفسه اسم «البارقليط» و «خاتم الانبياء» و«رسول الجيل الأخير» .[6]

و مانس هذا ، مثل الزردشتيين في فارس القديمة ، علّم بأن الحياة هي صراع أبدي بين النور و الظلمة ، بين اللّه و الشيطان ، بين الخير و الشر ، بين الروح و الجسد . ان العالم نفسه ، كما قال ، و كل الخليقة المادية ايضًا ، هو مظلم و شرير . لذلك فإن الصلاح و النور يسعيان بثبات إلى الهرب من هذا العالم . و حيث أن المانويين رأوا أن الجسد ليس إلاّ سجنًا للروح ، فقد اعتبروا أنه من الإجرام إنجاب الأولاد و الإتيان بهم الى هذا العالم ، كما انهم حكموا على العلاقات الجنسية ككل ، و اعتبروها شراً عظيمًا . الى ذلك ، فالخلاص لا يتحقق من طريق كفّارة المسيح ، و لكن عبر زهد مستمر يفرضه المرء على نفسه ، على أن يقوم يسوع بدور «المساعد نحو النور» . و في كل من قرطاجة و هيبو ، كان هناك مجموعات من المانويين تضم رهبانًا قد عزموا على اتّباع سياسة التقشّف الصارم ، و نظام العزوبة الذي يختصّ بأولئك الذين يطلبون «الكمال» ، و آخرون كانوا قد درسوا الكتابات الضرورية ، و لكنهم لم يكونوا يرغبون بعد في الخضوع للشروط القاسية و الصارمة ، المختصة بالوصول الى «الكمال» . و كان هؤلاء يخدمون حاجات اولئك الرهبان الذين كان محظوراً عليهم أن يقتلوا

أي حي ، حيوانًا كان ام نباتًا . لقد قوبل المانويون بكراهية مريرة و بعداء كبير في كثير من الأماكن و الأصقاع ، كما انهم عانوا الاضطهادات أكثر من المسيحيين .

رأت مونيكا كيف كان ابنها ينزلق أكثر فأكثر في هذه الممارسات الشاذة الغريبة المختصة بالجماعة المانوية ، و انسياقه في الوقت عينه وراء مغريات الجسد ، لذا صممت أن تذهب لتنتصح من ناظر عجوز ، كان هو نفسه قد اعتنق المانوية قبلاً ، و بات بإمكانه بالتالي أن يعرض و يبيّن أخطاء هذه الطائفة ، و ان يشرح طريق الخلاص لمن علق في براثنها . تمكن هذا الناظر الحكيم من استيعاب حالة أغسطينوس جيداً ، فأخبر والدته أنه لا جدوى من التحدث اليه في حالته الراهنة : و بالطبع فان ذلك لن يدفعه إلاّ الى محاولة تبرير نفسه و تثبيت موقعه هذا . و كما يقول المثل المأثور : من أُقنع قسراً بقي على رأيه دهراً . اوصى الناظر الشيخ أم أغسطينوس بضرورة تركه و شأنه في الوقت الحاضر ، على ان تصلّي من أجله ، و الله هو الكفيل بردّه الى رشده . إلاّ أن مونيكا لم ترضَ بمثل هذا الحل . فاستمرت تتوسّل اليه بدموع كثيرة أن يتحدّث الى ولدها بشأن هذا الموضوع ليقنعه بأن الطريق الذي يسلكه هو طريق خاطىء . و أخيراً قال لها الناظر الشيخ : «اذهبي الآن الى بيتك ، و ليباركك الله ، لأنه من المستحيل أن يهلك ابن هذه الدموع الكثيرة .»[7] ثم يُقال إن مونيكا قبلت كلماته كأنها صوت من السماء ، و تعلّقت بالأمل التي ولّدته فيها .

و بعد أن أتمّ أغسطينوس دراسته في قرطاجة ، عاد الى ثاغاست في العام 375 م و راح يعمل كمدرّس لعلم البلاغة ، معلّمًا تلاميذه مبادىء اللغة اللاتينية و آدابها ، بالإضافة الى فن الخطابة . و لم تمضِ فترة طويلة حتى اجتاز اختباراً جعله يفكّر في العمق . لقد قابل حديثًا أحد أصدقائه الذين كانَ يعرفهم منذ حداثته ، و وجد أنه ، على الرغم من مرور السنوات الطويلة ، لا يزال هناك الكثير من الأمور المشتركة بينهما ؛ و هكذا راح الاثنان يقضيان معظم ساعات فراغهما سويّة . كتب اغسطينوس عن هذا الصديق بعد بضع سنوات قائلاً : «عندما كان صبيًا ، لم يكن يتمسك تمسكًا ثابتًا و راسخًا بالإيمان الحقيقي ، و قد سعيت جاهداً لأبعده عنه ، لكي يتبنّى بالمقابل الخرافات عينها و الأكاذيب المدمّرة للنفس ، تلك الأكاذيب التي جعلت أمي تذرف دموعًا غزيرة عليّ .» ثم مرض صديق أغسطينوس هذا ، و انتابته حمّى شديدة الخطورة جعلته يفقد وعيه . و إذ كان يحتضر ، جاء قادة الكنيسة و عمّدوه . و لشدة دهشة أغسطينوس و فرحه العارم ، بعدما عاد صديقه الى وعيه ، وحالما استطاع أن يتكلّم ، بدأ أغسطينوس يداعبه بشأن المعمودية التي اجريت له من دون علم منه . ثم كتب أغسطينوس : «لقد نظر اليّ صاحبي بارتياع و كأنني أحد ألدّ أعدائه . . . ثمّ نبّهني ، الى ضرورة عدم التحدث اليه بمثل هذا الأسلوب إذا كنت أريد أن أحافظ على صداقتي معه .» عاودته الحمّى ، و بعد أيام ، مات هذا الصديق . و كم كان حزن اغسطينوس شديداً على فراقه ! «اكتأب قلبي بالحزن العميق ،

وحيثما وجّهت ناظريّ ، كنت أرى الموت .»[8] لقد وجد أغسطينوس نفسه في وحشته هذه ، وجهًا لوجه امام حقيقة القبر ، و قد ساورته من جراء ذلك ظنون و هواجس و تساؤلات كثيرة .

و بعد هذا الحادث بوقت قصير ، انتقل أغسطينوس عائدًا الى قرطاجة ، حيث حصل على وظيفة تعليمية أخرى . و خلال عشر سنوات ، بقي هناك مع جماعة المانويين ، و هو يمارس الوظائف التي تُعطى عادة للأعضاء الجدد . إلاّ أن شكوكًا خطيرة كانت قد بدأت تضايقه ، بالإضافة الى ما لمسه من أدلة فاضحة على الرياء الموجود عند هذه المجموعة من الناس . فالتجأ الى أصحابه المانويين مستنجدًا بهم لمساعدته على حلّ هذه المعضلات . و إذ لم يتمكنوا من إعانته ، نصحوه بأن يستشير أحد شيوخهم المتقدمين ، و اسمه فَاوْسْتُوس (Faustus) . جاءت خيبة أمل أغسطينوس شديدة للغاية على أثر مقابلته فاوستوس ، في العام 383 م . هذا لأنه لم يقدر على أن يجيبه عن تساؤلاته ، و هكذا قرر أغسطينوس على أثر ذلك ان يبقى مانويًا بالاسم فقط ، ريثما يجد شيئًا أفضل يتحوّل اليه .

و مع ذلك ، لم تكن حياة أغسطينوس جديّة تمامًا . كان يهوى دائمًا البقاء في صحبة آخرين ، وكانت تحيط به مجموعة كبيرة من الأصدقاء و الصحابة ، من اولئك الذين كانت اذواقهم تتناسب مع ذوقه . كان يبتهج كثيرًا في التحدث اليهم ، تلك الأحاديث التي كانت مفعمة بالحيوية و النشاط . و كان يستمتع بالأفكار و الآراء الحيّة التي كان يبديها له اولئك الشباب . لقد ذكر في كتاباته بحرارة عن «الحوار ، و الضحك ، و الاحترام اللطيف و المتبادل ، و دراستهم المشتركة أئمّة الفصاحة والبلاغة ، و عن الصداقة التي تظهر أحيانًا جدية و أحيانًا أخرى مرحة ، و عن الفروقات التي لم تترك أي اثر للمرارة ، تمامًا كالرجل الذي يتعارض مع نفسه ، و كذلك عن حلاوة الاختلاف ، هذه التي تطيّب رتابة الموافقة .»[9] كان يطوّر قدراته الفكرية ، و كان ذلك ممتعًا للغاية بالنسبة اليه .

لكنه أخيرًا ، و بعد أن وجد أن قلة انضباط تلاميذه في قرطاجة لا تُحتمل ، ذهب الى روما متسلّلاً اليها تحت جنح الظلام ، خلافًا لإرادة امه . و بعد مدة من التدريس هناك ، و إذ وجد صعوبة كبيرة في تقاضي أتعابه ، عُرضت عليه فرصة الانتقال الى ميلانو ، المدينة الإيطالية التي تقع في الشمال . كان الوالي على روما يدعى سمّاخُوس (Symmachus) ، و كان يُعرف بدعمه الوثنية ، و قد شغل من قبل منصب والي قَرطاجة . و إذ كان يعرف أغسطينوس من جراء إقامته سابقًا هناك ، قدّم توصية بخصوص هذا الشاب الموهوب ليشغل وظيفة أستاذ علم البلاغة في المحكمة الامبراطورية التي كان مقرها آنذاك في ميلانو . كان هذا الرجل يدرك معرفة أغسطينوس بالمسيحية ، و مقدار مقاومته لها ، ولربما كان وليُّ نعمته ينتظر منه أن ينصره و يدعمه خلال المناظرات الشعبية العامة التي كانت تُعقد بينه وبين امبروزيوس ، ناظر كنيسة ميلانو . و هكذا فُتحت الأبواب فجأة أمام أغسطينوس ليأخذ مكانه بين أعلى و أعظم رجالات الامبراطورية ، وذلك تحت رعاية قائد الفكر الوثني في أيامه .

و الى ميلانو لحقت به والدته مع بعض تلامذته الأفارقة الشماليين السابقين ايضًا . و بعد أن كان في ذلك الوقت قد تخلّى تمامًا عن العقيدة المانوية ، بات فكر أغسطينوس منفتحًا على أية مؤثرات أخرى . و هكذا شرع يقرأ كتابات الفلاسفة الإغريق من جماعة الأفلاطونيين المُحدثين ، و التي كانت كتاباتهم قد تُرجمت الى اللغة اللاتينية بواسطة احد أشهر معلميهم فكتُوريانُوس (Victorianus) الافريقي الشمالي ، و الذي سنتحدث عنه لاحقًا . لقد ساعدت هذه الكتابَات أغسطينوس على إدراك طبيعة الله الروحية ، و إمكانية ان يحصل الشر من جراء إساءة الإنسان لاستخدام إرادته الحرة . كان هذا كنقطة تحوّل بالنسبة الى أغسطينوس . فقد أدرك أن هذين المبدئين ، اللذين قبلهما ، كانا في الحقيقة الأساس ، ليس للأفلاطونية المُحدثة فحسب ، بل للمسيحية أيضًا .

أقنعت مونيكا ولدها بالحضور الى الكنيسة للاستماع الى امبروزيوس المشهور ، و الذي عُرف بقدرته و فصاحته في الوعظ ، و بروعة التراتيل التي كان يؤلفها و يعدّها . و بدأ أغسطينوس يحضر الى الكنيسة أسبوعيًا ، لتلبية حاجاته المهنية في اكتساب الأساليب الخطابية التي كان يستخدمها هذا الواعظ العظيم . و لكن ، في استماعه اليه ، وجد نفسه أخيراً مدفوعًا الى التأمل في محتوى ما كان يقوله امبروزيوس في مواعظه ، حيث كان هذا الرجل يقدّم الأسباب الموجبة المنطقية للإيمان . كان امبروزيوس يعالج تلك المسائل عينها التي كانت تقلق أغسطينوس - التساؤلات التي كانت تُربك العديدين من الناس في جيله - و قد نجح امبروزيوس في تبيان أن الإنسان يستطيع أن يكون مسيحيًا و مفكّرًا في آن . دعت مونيكا ولدها الى زيارة امبروزيوس ليجري معه حديثًا شخصيًا ، و لكن أغسطينوس كان يتحفّظ تجاه ازعاج رجل مرموق رفيع المقام نظيره ، حيث كان الناس يزورونه بأعداد غفيرة دائمًا ، فضلاً عن مسؤولياته الكثيرة الأخرى كناظر للكنيسة .

لكن أغسطينوس ، و بينما كان يستمع الى امبروزيوس كل أسبوع ، أدرك أنه كان قد أساء فهم الموقف المسيحي . لقد كان حتى ذلك الحين يهاجم لا المسيحية ، بل انطباعه الخاص الخاطىء عنها . فقال : «لقد تعوّدت أن انتقدهم (المسيحيين) على تمسّكهم بمعتقدات لم يكونوا يتمسّكون بها قط . . . كنت أشنّ حملة ، لا على الإيمان (المسيحي) ، بل على أمور خيالية كنت أستنبطها من بنات أفكاري . و بدأت أشعر بالخجل من نفسي ، لأنني كنت بكل تأكيد ، متسرعًا و عاقًا في إدانتي لقضية ، كان حريّ بي أن أكلّف نفسي عناء استقصاء الحقائق بشأنها اولاً .»[10] و أخيراً ، ذهب أغسطينوس لمقابلة امبروزيوس ؛ و يخبرنا أن الناظر احتفى به ايّما احتفاء ، و عامله كأب . و قد شجّعه امبروزيوس على التأمل في رسائل المفكّر العظيم بولس ، ليرى ما يذكره عن مقاصد الله .

كان امبروزيوس رجلاً رائعًا ، و هو من نواحٍ كثيرة يخالف أغسطينوس تمامًا . فحيث كان أغسطينوس يتراجع حيال الظروف المربكة ، كان امبروزيوس يواجهها بشكل مباشر ؛ و بينما كان اغسطينوس يحلل ما في داخل الإنسان ، كان امبروزيوس يعالج مباشرة أفعاله الخارجية

الظـاهرية ؛ و حيث كان اغسطينوس يبحث عن مصـالحة و حلول و سطية ، كـان امبروزيوس يتمسّك بثبات و صمود بالموقع الذي يشعر بأنه حق . ففي إحدى المناسبات المشهورة ، تحدّى امبروزيوس الامبراطور ثيودوسيوس (Théodosius) نفسه . كان هذا الامبراطور قد ذبح مؤخراً سبعة آلاف إنسان فـي مـدينة تسالونيكي ، و ذلك انتقامًا لمقتل أحد الـضباط الامبراطوريين خلال ثورة و اضطرابـات قام بها اهـل هـذه المـدينة . و عندما جاء ثيودوسيوس الى الكنيسة ليشارك في العبادة ، رفض امبروزيوس أن يحتفل بالعشاء الرباني ، حتى يتنازل الامبراطور ليسأل مغفرة الله و يتوب . لقد تمسّك امبروزيوس من دون أي شكل من أشكال الخوف بالمبدإ المزدوج القائل بضرورة تطبيق مقاييس الله بنـزاهـة و تجرّد علـى جميع الناس ، و بكون سلطة المسيح هي فوق سلطة الحاكم . و بذلك فاز امبروزيوس بإعجاب أغسطينوس الشاب .

و في ميلانو ، المدينة الأوروبية المثقّفة ، كان أغسطينوس أقل ثقة بنفسه مما كان عليه في موطنه الأم . فقد كـان يعي أكثر من اللزوم لكُنته الافريقية الريفيـة . على أن فرحه تقلقل على أثر تجديد الافلاطوني المُحدث الشهير فكتوريانوس ، هذا الذي كتب و ترجم العديد من الكتب الفلسفية التي طالما استـأثرت باهتمام أغسطينوس كشاب يافع . و يخبرنا أغسطينوس أن فكتوريانوس كـان معـلـمًا خـصوصيًا لكثـير مـن الأعضاء المميّزين في مجـلـس الـشيـوخ الـرومـانـي . و لتثبيت مقدرته هذه كمعلم ، فقـد شُيّد لـه نصـب تـذكاريّ في الساحـة العـامـة الرومـانية . و أخيراً ، ها هو في شيخوخته يعترف علنًا بإيمانه المسيحي . كان فكتوريانوس دائمًا عابداً للأوثان ، حيث كانت هذه العبادة رائجة بين الطبقـات الأرستوقـراطية الرومـانية و الإفريقية ، و «لم يتوقف قط عن الـدفاع عن هذه الممارسات بكـل ما أوتـي مـن قـوّة حماسته الخطـابيـة النـارية .» إلاّ أن فكتـوريانوس كـان يحتـاج ، خـلال دراسـتـه ، الـى أن يـدرس الـكـتـاب المقـدّس بعـهـديه القـديم والجديد ، بالإضافة الى كتابات مسيحية أخرى .

و يخبرنا أغسطينوس قصّته بهـذه الكلمات : لقد اعتاد أن يقول لصديقه المسيحي سمْپلِسْيَانُوس (Simplicianus) : «أريد أن تعلم أني قد أصبحت الآن مسـيحيًا .» و لكنه كان يقَولَ هذا سراً بثقة الصداقة ، و لم يسمح لنفسه قط أن يعلن عنه في محضر الآخرين . و كـان سمپلسيانوس يجيبه : «لن أصـدّق ذلـك ، و لن أعـدّك مـن المسيحيـين حتـى أراك فـي كنيسة المسيح .» عند ذاك يردّ عليه فكتوريانوس ضاحكًا بالقول : «إذًا ، هل جـدران الكنيسـة هـي التي تجعل المرء مسيحيًا ؟» كان بين الفينة و الأخرى يكرر ادّعاءه هذا بأنه مسيحـي ، و في كل مرة كان سمپلسيانوس يعرض عليه الجواب نفسه ، لكي يعود فيحصل على الردّ عينه بشأن الجدران . ثم يذكـر لنا أغـسطينوس بشـأن فكتـوريانوس كـيف أنه «كـان يخـشى أن يسيء الـى اصـحـابـه المتشامخيـن الـذي يتعبـدون للآلهة الوثنية .» و لكنه واظب على قراءة الكتاب المقدس . و ذات يوم ، «تملّكه خـوف من أن يقـوم المسـيح بإنكاره امـام الملائـكـة القـديـسـيـن إذا مـا استـمـر يتـقـاعــس بقلب خـائر عـن الاعـتـراف بالمسيح أمـام الـنـاس ، وهكذا شـعـر بأنه مـذنب في اقتـراف جريمة فظيـعـة ، لخجـلـه لله مـن المجاهـرة بإيمانه لله .» إذذاك ، و من دون سـابق إعلام ،

خاطب سمبلسيانوس بالقول : «لنذهب معًا الى الكنيسة . فأنا أريد أن اكون مسيحيًا .» أراد قادة الكنيسة أن يجنّبوا الفيلسوف المشهور عناء الارتباك امام الشعب ، إذ عرضوا عليه امتياز تقديم اعترافه سرًا ، و ذلك من طريق سرد صيغة معيّنة معدّة لمثل هذه المناسبات . «ولكن فكتوريانوس فضّل أن يعلن خلاصه جهرًا أمام جمهور الأتقياء .» و رفض أن يستعمل أية صيغة كلامية قام شخص آخر بإعدادها . «لذا ، فعندما اعتلى المنصّة لأجل اعلان إيمانه ، راح كل من يعرفه يهمس اسمه بفرح لجيرانهم . . . لقد أسرعوا في التعبير عن ابتهاجهم برؤيته ، و بالسرعة نفسها سكتوا أيضًا منتظرين أن يسمعوه يتكلّم . عندئذ أعلن فكتوريانوس قبوله للإيمان الحقيقي بشجاعة .»[11] ثمّ تمّ الترحيب به بحرارة في الجمّاعة المسيحية . و قد تأثر أغسطينوس تأثرًا عميقًا من جراء كل ذلك .

و في تلك الأثناء ، حملت مونيكا ابنها على ترك تلك التي كان يكتفي بأن يدعوها «أم اديوداتُس» . و اعدّت له وارثة كانت تملك مهرًا يسهّل له عملية تقدّمه في مجال عمله ؛ و لكن هذه الفتاة كانت لا تزال صغيرة تحتاج الى سنتين أخريتين حتى تبلغ سن الزواج الرسمي . اعترض أغسطينوس على ذلك ، لكنه لم يكن ليستطيع مقاومة رغبات أمه . عندئذ ردّ صديقته المخلصة في طريق العودة الى إفريقيا . لكنه لم يكن في ذلك الوقت يستطيع أن يواجه إمكانية الإقدام على الزواج ، مع ما ينطوي عليه من مسؤوليات عائلية ؛ كذلك كان يصعب عليه اكثر أن يواجه مستقبل العزوبة على مدى سنتين . وبينما كان ينتظر انقضاء هذه المهلة ، ارتبط ارتباطًا آخر غير شرعي . و لكن ذلك لم يُسعده قط . لقد ذكر في كتابه «الاعترافات» : «استمررت في حياتي الاعتيادية ، إلاّ أن اضطرابي كان يزداد أكثر فأكثر ، و يومًا بعد يوم كنت أسكب قلبي امامك .»

في هذا الوقت ، كان يسكن في ميلانو مع شاب يدعى أليبيوس (Alypius) . و ذات يوم ، زارهما أحد الأصدقاء الأفارقة الشماليين ، و يدعى پونتيكيانوس (Ponticianus) ، كان يعمل في البلاط الامبراطوري في ميلانو . و قد صادف أن رأى هذا الزائر كتابًا كان قد تركه أغسطينوس على طاولة . «فالتقطه و فتحه ،» كتب أغسطينوس ، «و قد اندهش جدًا لاكتشافه بأنه يحتوي على رسائل بولس الرسول ، حيث كان يتوقّع أن يكون هذا الكتاب أحد الكتب التي كانت تُثقل كاهلي كمعلم وأستاذ . ثم ابتسم و نظر إليّ و عبّر لي عن مقدار سروره و اندهاشه لوجود هذا الكتاب ، من دون غيره على طاولتي . كان هذا الصديق بالطبع مسيحيًا و خادمًا مطيعًا لك يا إلهنا . . . و عندما أخبرته كيف درست رسائل بولس الرسول بانتباه كبير وزائد ، بدأ يخبرنا قصة أنطونيوس ، النّاسك المصري ، الذي كان مكرّمًا جدًا بين خدّامك ، مع كوني أنا و أليبيوس ، لم نكن قد سمعنا به قط من قبل .» ثم يذكر أغسطينوس ماذا كان عليه انطباعهما عندما كان هذا الصديق يروي لهما قصة أنطونيوس : «في الواقع ، لقد دهشنا أنا وأليبيوس لأن القصة التي سمعناها كانت رائعة ؛ امّا پونتيكيانوس فدهش لكوننا لم نسمع هذه القصة من قبل .»

ثم أخبرهما پونتيكيانوس عن التأثير الذي أحدثته هذه القصة في أحد أصحابه الآخرين في المحكمة الامبراطورية . لقد صادف نسخةً من الكتاب الذي يتحدث عن أنطونيوس ، و بعد أن قرأه ، سلّمه الى صاحبه و خاطبه ، و هو ناقم على نفسه و مملوء ندامة ، بالقول : «ما الذي نأمل ربحه او الحصول عليه من كل هذه المساعي و الجهود التي نبذلها هنا ؟ ماذا نرجو ؟ ما هو الهدف الذي نتوخاه من خدمة الدولة ؟ هل نتوقّع جزاءاً من البلاط أعظم من أن نُعتبر أصحابًا للامبراطور؟ و حتى في مثل هذه الحال ، يبقى موقفنا متقلقلاً و محفوفًا بالمخاطر . فالخطر ينتظرنا عند كل منعطف ، و قد يكون في كل مرة أخطر من ذي قبل . و كم نحتاج الى الوقت لتحقيق هذا الهدف الذي نسعى له ؟ و لكن في استطاعتي إن أردت أن أكون في هذه اللحظة عينها صديقًا لله تعالى .» استمر في القراءة ، ثم انفجر أخيراً قائلاً : «انا مزمع أن أتحرر من كل قيود طموحاتنا . لقد قررت أن أخدم الله . و منذ هذه اللحظة سأبدأ هنا بخدمته . فإن كنت لا ترغب في أن تحذو حذوي ، فرجائي ألاّ تقف في طريقي .» و هكذا قرّر الاثنان ، على غرار أنطونيوس ، أن يتخليا عن الوظيفة ، و الزواج ، و المجتمع ، و ذلك لخدمة الله حيثما يدعوهما .[12]

و بينما كان پونتيكيانوس يخبرهما عن هؤلاء الذين خرجوا ليؤسسوا جماعة من المسيحيين غير المتزوّجين في الصحراء المصرية ، اندهش أغسطينوس بأولئك الرجال الأميين الذين استطاعوا ان يسيطروا على عواطفهم و شهواتهم . و فكّر بمرارة في ضعفه الشخصي ، و شعر بالخجل : «كانت نفسي من الداخل هي بيتًا منقسمًا على ذاته . و في نيران الصراع المرير القاسي الذي تحرّك فيّ على روحي . . . التفتّ الى أليپيوس . كان مظهري يعبّر عن الثورة المختلجة في ذهني ، ثم قلت بتعجب : " ما بالنا نحن ؟ و ماذا تعني هذه القصة ؟ فهؤلاء الرجال لم يحصلوا على تعليمنا و لا على ثقافتنا ، و مع ذلك فهم ينهضون ليفتحوا أبواب السماء و يدخلوا اليها ، بينما نحن ، مع كل ثقافتنا و علومنا ، نقبع هنا مُذَلّين ومعفّري الوجوه في دنيا اللحم و الدم ! . . . " أنا لا أستطيع أن أتذكّر الكلمات كلها التي تفوّهت بها آنذاك . لقد قلت شيئًا بهذا المعنى ، و كانت مشاعري أقوى مني . ثم توقفت فجأة وانصرفت ، تاركًا اياه و هو يحدّق إليّ من دون أن ينبس ببنت شفة ، و هو مندهش مذهول مما رأى و سمع .» كان أغسطينوس في حاجة الى الانفراد بنفسه . «لقد كان هناك حديقة صغيرة بجانب الدار حيث كنا نسكن ،» كتب يقول ؛ «كان عندنا ملء الحرية لنستخدم هذا المكان . . . و قد وجدت نفسي الآن منقاداً بفعل الاضطراب في قلبي الى هذه الحديقة ، حيث لا يعوقني فيها احد و انا في صراعي الوطيد مع نفسي ، حتى وصلت الى النتيجة الفاصلة في هذا الأمر .»

تبعه أليپيوس : «لربما يكون قد أدرك ما كان يختلج في فؤادي آنذاك . فأنا أظن أني قد قلت شيئًا ، و قد أدرك من نبرات صوتي أنني كدت أنفجر باكيًا . . . و لا أدري كيف ألقيت بنفسي على

الأرض تحت شجرة تين و أطلقت العنان لدموعي التي انهمرت بقوة من عينيّ . . . حيث شعرت بأنني ما زلت مقيّداً بخطاياي ، و اسيراً لها ، و في بؤسي و شقائي هذا ، استحوذت التساؤلات التالية على قلبي و زعزعته : «الى متى سأبقى أؤجّل الى الغد ، ثم الى الغد الآخر ؟ لماذا لا أقوم بما ينبغي عليّ أن اقوم به الآن ؟ لماذا لا أضع حداً لخطاياي البشعة في هذه اللحظة بالذات ؟ كنت أطرح على نفسي كل هذه الأسئلة و أنا أذرف الدموع باكيًا كل الوقت ، و كان يملأ قلبي الحزن العميق و الأسى الكبير ، عندما سمعت فجأة صوت طفل ينشد في بيت قريب من الحديقة . و لم أميّز ان كان الصوت صوت فتًى او فتاة ، إلاّ أنه بقي يكرر الكلمات التالية مرةً تلوَ الأخرى : "خذه و اقرأه ، خذه واقرأه . " و عند ذاك ، نظرت الى فوق متسائلاً ما إذا كانت هناك لعبة ينشد الأطفال كلمات كهذه ، و لكنني لم أكن أتذكر أنني سمعت مثل هذا من قبل . أوقفت فيض بكائي ، ثم وقفتُ على قدمي ، قائلاً لنفسي إن الذي حدث ليس إلاّ أمرًا صادراً من الله يدعوني فيه الى فتح نسختي من الكتابات المسيحية ، و قراءة الفقرة التي ستقع عليها عيناي . . . لذا اسرعت عائداً الى المكان حيث كان يجلس فيه أليپيوس ، لأنني كنت تركت هناك الكتاب الذي يحتوي على رسائل بولس الرسول . فأمسكته بيدي ، ثم فتحته ، و قرأت بصمت الفقرة الأولى التي صادفتها ؛ " . . . لا بالبطر و السكر ، لا بالمضاجع و العهر ، لا بالخصام و الحسد . بل البسوا الرب يسوع المسيح و لا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات . " 13 لم أكن أرغب في أن أقرأ المزيد ، كما أنني لم أكن أحتاج الى ذلك . هذا لأنه في لحظة ، و عندما وصلت الى نهاية الجملة التي كنت اقرأها ، شعرت بنور الإيمان يفيض في قلبي ، و يبدّد الظلمات و الشكوك التي كانت تكتنفه .»

شعر أغسطينوس بأنه مملوء بشعور غريب بالسلام مع نفسه . فأخبر صاحبه ما حدث له . طلب أليپيوس أن يرى الفقرة التي كان قد قرأها أغسطينوس في تلك الساعة ، و عندما تمعنّا معًا في هذه الآيات ، بالاضافة الى تلك التي تليها ، و جد أليپيوس نفسه محصوراً بالتأكيدات القائلة إنه يوجد قبول في المسيح حتى لرجل مثله ، و هو الذي كان يحب و يكره في آن إراقة الدماء ، هذه العملية الرهيبة و المفجعة التي كانت تُمَارس في المدرج الروماني ، و الذي كان يجد نفسه دائم الاضطراب ، شاعراً بالذنب الذي كان يوخز ضميره الحساس . قال أغسطينوس : «عندئذ دخلنا البيت ، و أخبرنا والدتي التي امتلأت بالبهجة و الحبور .» 14

بالنسبة الى أغسطينوس ، لقد انتهى صراعه المرير . و لم يكن يتخيّل حجم الصراعات الهائلة التي يخبئها له المستقبل . و لكن كان على أغسطينوس كالكثيرين غيره من الناس ، أن يجد ، من خلال خبراته الخاصة ، أن الحياة المسيحية ، مهما كانت صعبة ، لا يمكن أبدًا أن تكون أصعب من الحياة من دون المسيح . و في حمده لربه السماوي قال : «لقد صنعتنا لك ، و لا يمكن لقلوبنا أن تجد السلام إلاّ عندما ترتاح فيك .» 15

ملاحظات

1- Pine-Coffin, *St. Augustine - Confessions* p. 11

2- Chadwick p. 7

3- 1 بطرس 3:1 و 2

4- *Confessiones* 9:9

5- *Confessiones* 7:7

6- لم يكن مانسْ آخر مَن خصّص لنفسه هذه الألقاب . لكن قراءة دقيقة للنص من يوحنا 16:7-15 تُظهر أن «البارقليط» الموعود به أي «المعين» ، أو «المعزّي» ليس ، بأي شكل من الأشكال ، إنسانًا ، لكنه روح الله القدوس الذي نزل على التلاميذ في يوم الخمسين .

7- *Confessiones* 3:12

8- *Confessiones* 4:4

9- *Confessiones* 4:8

10- *Confessiones* 6:3,4

11- *Confessiones* 7:2

12- *Confessiones* 8:6

13- رومية 13:13 و 14

14- *Confessiones* 8:8,12

15- *Confessiones* 1:1

طالما رُويت قصة هداية أغسطينوس ، لكن قد يبقى ما دوّنه هو شخصيًا في «الاعترافات» هو الأفضل بين هذه الروايات جميعها . للحصول على تعليقات حول هذه الأحداث راجع: Bonner pp. 1 - 103 ، Foakes - Jackson pp. 490 - 496 ، ومن وجهة النظر الفلسفية: Chadwick pp. 1 - 29

الفصل الثاني والعشرون

طـريـق الـتـحـدّي

في العام 386 م ، و عندما كان في الثانية و الثلاثين من عمره ، صمّم أغسطينوس أن يصبح مسيحيًا . كان يعلم أن هذه الخطوة تعني ، بالنسبة اليه ، تكريس حياته بالكلية لخدمة الله . كما أن هذا يعني أيضًا التخلّي عن وظيفته كمعلم ، و العدول عن زواجه المرتقب . كذلك يتوجّب عليه أن يثق بالرب يسوع ليحرره من طغيان رغباته الجنسية ، و يشدد عزمه على البقاء عازبًا . لقد كان على أهبة الاستعداد ليخصّص حياته بالكلية لخدمة الرب ، بعيداً عن شتى انواع الارتباكات العالمية ، تمامًا كما كان الرسول بولس قد فعل قبل ثلاثة قرون و نصف .

كانت الأمور الجنسية في ذلك الوقت ، تستحوذ على عقول الناس في المجتمع الوثني ، الأمر الذي دفع الكثيرين في أيام أغسطينوس الى اعتبار العزوبة أسمى علامات التكريس المسيحي . و قد ذهب بعضهم الى أبعد من ذلك ، حتى انهم شجبوا الزواج و انتقدوه . كما انتقدوا ايضًا اولئك الذين اختاروا هذا الطريق . أمّا أغسطينوس ، فلم يتبنّ قط هذا الموقف . لقد تكلّم بسموّ ورفعة عن الزواج المسيحي ، مصراً على أنه ترتيب إلهي لخير الإنسانية و بركتها . كان ولا يزال العديد من المسيحيين البارزين يستمتعون بالشركة الزوجية و الحياة العائلية ، مظهرين في بيوتهم مثال الزواج المسيحي و تطبيقه العملي . وكان ترتوليانوس في أيامه ، واحداً من هؤلاء المسيحيين . أمّا أغسطينوس ، فقد اختار طريقًا أكثر تقشفًا ، مع ان الطريق الآخر قد يتطلّب من الانسان أعظم مناقب الشخصية المسيحية . كان يرغب في أن يكون متحرّراً من القيود الأرضية حتى يتسنّى له أن يرتبط أكثر بالقيود السماوية .

استمر أغسطينوس يعلّم البلاغة و الخطابة على مدى سنتين أخريتين في ميلانو ، و لكنه راح يفكر جديًا في ضرورة أن يترك عمله هذا لآخرين قد يكونون ربّما أكفّاء مثله ، لكي يتسنّى له أن يتخصّص هو للمهمة التي قد لا يحسن احد سواه القيام بها : إيجاد الأجوبة الشافية عن الأسئلة الصعبة العويصة التي كانت تقلق جيله . ولأنه كان يعاشر المثقفين من الناس في البلاط الامبراطوري ، شعر في نفسه أن الله يدعوه إلى شرح حق الإنجيل و إثباته الى صفوة القوم في الامبراطورية . و في غضون ذلك ، انكبّ مع ابنه اديوداتس ، و صديقه اليبيوس ، على دراسة العقائد الأساسية للإيمان المسيحي ، و ذلك في الأقسام الدراسية التي كانت الكنيسة قد أعدّتها في ميلانو لأولئك الذين يطلبون المعمودية . و بعد أن أنهوا سلسلة دراستهم هذه بالتمام ، جرت

معموديتهم على يد الناظر امبروزيوس في جو من الفرح العارم ، ثم سافروا بعد ذلك بقليل مع والدته مونيكا عائدين الى إفريقيا الشمالية .

و بعد سفر برّي متعب و طويل ، وجد أغسطينوس و أمه أنهما قابعان وحدهما في ميناء أوسْتيا (Ostia) ، منتظرين المركب الذي سوف يقلّهما عبر البحر الأبيض المتوسط الى إفريقيا . وبينما كانا يحدّقان من خلال النافذة التي تشرف الى الحديقة الموجودة بفناء البيت حيث كانا يقطنان ، راح أغسطينوس و أمه يتطارحان الحديث عن بهجة الشركة مع الله و فرحة التعرّف به ، و عن اليوم الذي فيه سيكونان في محضره السماوي متحررين من محدودية هذه الأرض و من الخطايا . فقد شعرا في تلك اللحظات بحضور الرب الجلي معهما ، حتى ان أمور هذه الدنيا باتت تافهة في نظرهما . و بعد سنوات ، كتب أغسطينوس عن كل ما تحدّث به مع أمه في ذلك اليوم : « في تلك اللحظة القصيرة ، ارتقينا أنا و أمي بأفكارنا عاليًا ، حتى لامسنا الحكمة الأبدية التي تبقى و تثبت فوق كل الاشياء . » و بدا ذلك و كأنه تذوّق مسبق للسماء : "فلنفترض أنّ هذه الحالة هي الدائمة و المستمرة ، و قد زالت من الوجود كل المناظر السفلى الأخرى ، فتملّك هذا المنظر بالذي رآه ، غامراً إياه بأفراح داخلية عارمة . . . أفلا يجسّم ذلك مغزى الكلمات : « ادخل الى فرح سيدك ! »[1] و بينما كنّا نتحدث في ذلك اليوم ، ظهر لنا العالم ، بكل متعه و مباهجه ، و كأنه مكان تافه حقير ، بالمقارنة مع تلك الحياة التي تحدّثنا عنها . ثم خاطبتني أمي بالقول : « يا بنيّ ، أمّا من جهتي ، فلم أعد أجد أية متعة بعد في هذه الحياة . فلم يبقَ لي اي عمل أعمله ، و لم يعد لي شيء أرجوه في هذا العالم . كان هناك سبب واحد ، وواحد فقط ، يرغّبني في أن أبقى لفترة قصيرة بعد على قيد الحياة ، و هو أن أراك مسيحيًا حقيقيًا قبل أن اموت . لقد حقّق لي الله أمنيتي هذه و أعطاني أكثر مما تمنيت ، حيث اراك الآن خادمًا للمسيح ، يزدري بكل ما يعرضه عليك هذا العالم من سعادة مؤقتة . فماذا عليّ بعد أن أعمله في هذا العالم ؟ »" 2

و لم تمضِ سوى خمسة أيام على هذا الحديث ، حتى أصبحت مونيكا محمومة ، و ساءت حالتها الصحية ، فتكلمت الى الشباب الذين كانوا يحيطون بها على فراش الموت . و إذ كانوا يعلمون أنها كانت راغبة في أن تُدفن بجانب زوجها في إفريقيا ، سألوها إن كان سيقلقها ترك جثمانها بعيدًا عن موطنها في إفريقيا . فأجابت مونيكا : « لا يوجد شيء بعيد عن الله ، ولا حاجة إلى القلق من أنه سوف لن يجدني عندما يأتي ليقيمني الى الحياة عند نهاية هذا العالم . » وفي اليوم التاسع من مرضها ، ماتت مونيكا عن عمر يناهز السادسة و الخمسين . و هكذا انتهى عملها على هذه الأرض ، بينما كان عمل ابنها قد بدأ لتوّه .

و في خريف عام 388 م ، وصل أغسطينوس الى قرطاجة . و لم يكن قد مضى إلاّ خمس سنوات على مغادرته قرطاجة سعيًا وراء تلاميذ اكثر هدوءاً ، بالإضافة الى شهرة أكاديمية . كان

سعيدًا بأن يكون بين بني قومه مـن جديدو في المدينة التي يعرفها جيدًا ، و هـو الإفريقي المتحـدّر بشكـل مؤكد تقريبًا من اصل أمازيغي .[3] و إذ كان أغسطينوس و أليپيوس نزيلين في بيت مسيحي يـدعى إنّوسنْت (Innocent) ، بُهتا من الشفاء المعجزي من داء البواسير المؤلم الذي ناله مضيفهما . فبعد إسعافات غير مجدية قدّمها له عدّة أطباء ، شُفي هذا الرجل من دائه ، ببساطة ، بواسطة صلوات رفعها الى الله من أجله قادة الكنيسة الذين اجتمعوا في بيته . و لكن الإقامة في قرطاجة لم تدم سوى أيام قليلة . فهـذه المـدينـة ، كانت ، و لا شك ، تُعيد الى ذهن أغسطينوس ذكريات كثيرة عن أيام الاضطراب النفسي التي عاشها كتلميذ ، و عن خليلته السابقة ، و قراره التوجّه الى روما خلافًا لإرادة أمه . كانت هذه الذكريات مؤلمة أكثر منها مفرحة ، و بات مشتاقًا الى العودة الى موطنه في ثاغاست .

و في قراءته سفـر أعـمال الرسل ، تأثر أغسطينوس كثيرًا بما فعله قديمًا المسيحيون في أورشليم ، حيث أنهم باعوا أملاكهم ، و كانوا يتشاركون الممتلكات . و إذ تأثر أيضًا بالمجموعات الرهبانية التي كان قد رآها في إيطاليا ، مع تلك التي سمع عنها في مصر ، قرّر أن يبيع أملاك العائلة في ثـاغست . و بعد ذلك ، بدأ يعيش بصحبة أليپيوس و ابنه اديوداتس و عدد آخر من الشبان الذين كانوا هم ايضًا قد نذروا نفوسهم ليعيشوا عزّابًا ، و ليخدموا القضية المسيحية . كانوا يقضون معظم أوقاتهم في دراسة الكتاب المقدس و في المناظرات الفلسفية . و هكذا استمرت هذه المجموعة الصغيرة ، على مدى سنتين و نصف ، و كأنها مدرسة للكتاب المقدس أكثر منها ديرًا للرهبان . و هناك ، و مع الأسف الشديد ، توفّي اديوداتس عن عمر يناهز السابعة عشر . لقد أظهر هـذا الشـاب دلائـل تبشّر بالذكاء والفطنة ، توازي تلك التي كان يتحلّى بها أبوه ، إلاّ أن هذا الامل لم يُكتب له أن يتحقق أبدًا .

و بعد ان استقرّ اغسطينوس ، شرع في كتابة أربع مقالات فلسفية ، يبيّن فيها أن معرفة الحق ليـس بالأمـر المستحيـل . و مـنذ ذلـك الـوقـت ، لـم يكفّ عن الكتابة . و كان أول كتاب ضخم له يتمحور حول موضوع النفس البشرية ، و خصوصًا حول عظمتها و خلودها . كذلك كتب بإسهاب ضد المانوية ، مؤكدًا صدق الكتاب المقدس ، و مظهرًا أن لا تعارض بين العهدين القديم والجديد .

و بصفته رئيسًا لكلية الفلسفة المسيحية هذه ، و مؤلفًا لكتب انتشرت في ذلك الحين على نطاق واسع ، راح الكثيرون يقصدون أغسطينوس لاستشارته بشأن مواضيع شتى . كان يعير كل سؤال اهتمامًا تامًا ، محاولاً أن يعالجه في ضوء الوحي الإلهي ، و ذلك من دون أي تحيّز بشري أو افتراضات مسبقة . لقد رغب في ان يكرّس نفسه بالكامل لدراسة الأمور التي حيّرت المفكرين المسيحيين الآخرين ، و بذلك رسم مستقبله كمعلّم و عالم لاهوتي . كان يعلم جيدًا أنّ كنائس كثيرة تشعر بأنها في حاجة ماسة الى رجل يقود القطيع و يعلّمه ، لكنه كان ينفر من مسؤوليات اجتماعية كهذه . كان يتعمّد اجتناب الكنائس التي يعلم أنها في تلك الحالة ، خشية أن تقنعه بالتخلّي عن أعماله الأكاديمية ، مستعيضًا عنها بخدمة راعوية .

إلاّ أن صديقًا له دعاه في العام 391 م الى زيارة مدينة هيّبو ريجيُوس الساحلية ، (عنّابة- الجزائر حاليًا) . و مدينة هيبو هي الميناء الثاني في إفريقيا ، و يعود تاريخها في ذلك الحين الى اكثر من الف سنة ، و هي تعتزّ و تفخر بأبنيتها الممتازة الرائعة ، و بساحتها العامة المزدحمة بالأنصاب الفخمة العظيمة . كان صديقه عضواً في الشرطة السرية ، و قد أبدى رغبة في أن يصبح مسيحيًا . و عند وصولهما ، تبيّن لاغسطينوس أن رغبة صديقه كانت قد تضاءلت بعض الشيء ، و مع هذا ، فإن محادثاتهما استغرقت بضعة ايام . و في يوم الأحد ، حضر أغسطينوس الى كنيسة هيبو ، و هو لا يعلم أن ناظرها العجوز المدعو فاليريُوس (Valérius) ، كان منذ فترة ، يأمل في أن يحظى بشاب جديد بأن يحلّ محله في بعض أعمَالَه . كان فاليريوس يونانيًا ، و هكذا بات تعليم الكنيسة باللغة اللاتينية عبئًا ثقيلاً عليه . لذا ، صرّح في ذلك اليوم عن حاجته الى مساعد . و إذ كان جمهور العابدين يعرفون الكثير عن أغسطينوس ، راحوا يتوسّلون اليه أن يأتي الى معونتهم ، ثم حملوه الى الجهة الأمامية من القاعة ، على الرغم من معارضته الشديدة ، حيث جرى تنصيبه شيخًا على كنيسة هيبو . و هكذا ملأ المكان الذي اقترن به اسمه منذ ذلك الحين . ولم يجلب معه أغسطينوس ، كما ألمح الى ذلك في ما بعد ، سوى تلك الثياب التي كانت عليه آنذاك .

واجهت هذا الشيخ الجديد مشكلتان : الأولى و تتلخّص في تأمين الفرصة للاستمرار في دراسته الروحية ، حتى يتمكن من أن يعدّ نفسه ، على شكل ملائم ، لتعليم اولئك الذين يطلبون المعمودية في الكنيسة . و على هذا الأساس ، منحه فاليريوس إجازة يحقّ له بموجبها أن يبقى غائبًا الى أن يجد نفسه مستعدًا لتسلّم مهامه الجديدة . أمّا المشكلة الثانية ، فتتعلق بكيفية تنفيذه مخططه في العيش بصحبة رجال عازبين آخرين حيث يكون كل شيء مشتركًا . و في سبيل ذلك ، تمّ تشييد بيت مناسب في الحديقة التي تخص فاليريوس حيث انضم الى أغسطينوس أليپيوس وأصدقاء قدماء من ثاغاست ، فضلاً عن بعض الأفراد الجدد . و قد أصرّ أغسطينوس على ضرورة أن يتخلّى اولئك الذين يعيشون معه ، عن دُورهم وأراضيهم ، إذ يهبونها لعائلاتهم او للكنيسة ، لكي يعيشوا معًا حياة متقشّفة مكرّسين أنفسهم بالكلية لخدمة الله و الإنسان .

و بعد ثلاث سنوات ، تركهم أليپيوس لكي يصبح ناظرًا في كنيسة ثاغاست . أمّا في هيبو ، فحيث أن الشيخ فاليريوس كان راضيًا جدًا عن مواعظ أغسطينوس و تعاليمه و عن تأثيرها الحسن في رعايا كنيسته إذ رفعتهم الى أعلى مستويات الحياة المقدسة ، جاء يسأل أغسطينوس أن يصبح ناظرًا مشاركًا له . و لم تمض إلاّ بضعة شهور ، حتى وافت المنيّة فاليريوس . فأصبح عند ذاك اغسطينوس ، الذي كان قد بلغَ سن الثانية و الأربعين ، ناظرًا في كنيسة هيبو ، المدينة التي تعني « الملجأ » . كان ذلك في العام 396 م ، و هكذا استمر في خدمته على مدى الأربع و الثلاثين سنة التالية .

و منذ اللحظة الأولى لتعيينه ، شعر أغسطينوس بأنه عليه أن يولي الخير الروحي المستمر للشعب المسيحي في هيبو ، اهتمامه الأوّل . إن مؤلّفاته التي تشكّل تراثه الذي خلّفه للأجيال

القادمة ، و الذي ترتكز عليه شهرته و سمعته ، قد كان يكتبها من حين لآخر كلّما سنحت له واجباته الأخرى . كانت اجتماعات الكنيسة تُعقد يوميًا ، كما أنه كان مسؤولاً عن الاحتفال بالعشاء الرباني ، و عن المعموديات ، فضلاً عن مهام الوعظ و التعليم ايضًا . و لم تكن خدمة الوعظ تقتصر بالنسبة اليه ، على هيبو وحدها ، لكنه كان يعظ أيضًا في مدن إفريقيا الشمالية الأخرى وبالأخص في مدينة قرطاجة التي كان يدعى اليها مراراً و تكراراً . بالإضافة الى ذلك ، فقد كان منهمكًا ، بإخلاص تام طوال حياته ، في تدريب الشباب الذين يقيمون معه ، حتى يكونوا مؤهلين تأهيلاً كاملاً ليتسلّموا مراكز قيادية متفرقة في كنائس أخرى . وكانوا يشكّلون مجموعة من التلاميذ عقدوا النية على أن يتعلموا كل ما بوسعهم تعلّمه من معلمهم الموهوب قبل أن يدعوا الى القيام بعمل آخر بعيداً عنه .

كان يقضي بعض الوقت ايضًا في مراقبة الوظائف و الأعمال المالية و الإدارية في الكنيسة ، بما في ذلك المساعدات التي تُقدّم للأرامل ، و الأيتام ، و سائر المحتاجين . فقد كان هناك عدد من الأيتام تحت وصايته الشرعية ، و كان عليه أن يوفّر لهم ما يتيح لهم إعالة أنفسهم ، ثم يضمن تزويجهم بشكل مناسب مع أنه لم يكن متحمّسًا جداً للإعداد لمثل هذه الزيجات . « فإذا ما اختلف الزوجان ، فإنهما سيلعنان ذلك الإنسان الذي قام بالإعداد لزواجهما ! »[4] كذلك كان يُقاطَع باستمرار من قِبَل اناس يسألونه التدخّل في حلّ نزاعاتهم ؛ و هكذا وجد نفسه متورطًا في أمور شرعية لمصلحة المسيحيين الذين كانوا يرغبون ، بناء على اسس كتابية ، في التوصّل الى اتفاق حبي يخلو من الفضائح العامة ، و من دون أن يضطرّوا الى دفع تكاليف إحالة قضاياهم الى المحاكم العامة .[5] و كل هذا يعني عبئًا ثقيلاً على ناظر دائم الانشغال والمسؤوليات مثله . و في بعض الأحيان ، كان عليه أن يتدخّل لدى السلطات الدنيوية أيضًا ، لصالح الكنيسة وأعضائها . و كانت هذه الأمور تستحوذ كثيراً على تفكيره ، فيكتب أحيانًا رسائل مطوّلة الى موظفي الدولة و غيرهم من ذوي المراكز العامة اذا اقتضت الحاجة الى ذلك . كما خصص بعض الوقت لزيارة أعضاء كنيسته ، و كانت غايته « افتقاد اليتامى و الأرامل في ضيقتهم » .[6] و قد ألزم نفسه بهذا القانون لكي يتجنّب اي اتهام له بأنه يبحث عن صداقة الأغنياء و ذوي النفوذ للحصول على هباتهم المالية و صداقاتهم . و لم يكن ليحضر الأعياد او مآدب الطعام ، و لكن إذا ما سئل أن يقوم بزيارة المرضى لأجل الصلاة من اجلهم ، فإنه يحضر من دون تأخير او إبطاء . و بالإضافة الى كل هذا ، وَجُب عليه أن يكون جاهزًا و موجوداً في أية لحظة لاستضافة الزوار . و بالنظر الى هذه الواجبات و الوظائف الضاغطة كلها ، يصبح من الصعب علينا أن نعرف من أين كان باستطاعته توفير الوقت اللازم لإنجاز انتاجه الأدبي المدهش . لقد أخبرنا صديقه پوسيديوس (Possidius) ، كيف كان يعمل بنشاط و جدّ في النهار ، كما كان يسهر ايضًا حتى ساعة متأخرة جداً من الليل . كانت مسؤولياته و أعباء أعماله تزداد باطّراد كلما تقدّم به العمر . إن حياة كهذه هي كفيلة بأن ترهق حتى الأقوياء ، ولكن الغريب في الامر أن أغسطينوس كان عرضة للامراض وبخاصة الالتهاب الشُعَبي (bronchite) ، و لم تكن صحته قوية .

كان يعيش حياة تقشّف ، و لم تكن متطلباته او احتياجاته إلاّ قليلة . كانت وجبات الطعام عند جماعة الرجال التي ينتمي اليها ، تتكوّن من الخضار بشكل عام ، إلاّ أنهم كانوا يخصصون اللحوم للضيوف و للمرضى وحدهم . كانوا يقدّمون الخمر دائمًا ، بعد ان يمزجوه جيدًا بالماء ، و لا يشربونه إلاّ بشكل محدود ، و بالكميات المسموحة فقط . « السكر هو بعيد عني ، » هذا ما صرّح به أغسطينوس بكل إخلاص ، و قد اعترف بأنه تجرّب أحيانًا بأن يُفرط في أكل بعض الأطعمة الشهية . و لم يكن يسمح لضيوفه ، ايًا كانوا ، بأن يقسموا او يحلفوا قدّامه أو بأن يستخدموا اسم الجلالة باستخفاف و بلا مبالاة . كذلك كان محظوراً عليهم التكلم باسلوب انتقادي او فظّ عن اي شخص آخر . لقد جعل لوحة على الطاولة مكتوب عليها : « الى كل من تسوّله نفسه أن يهشّم سمعة الأشخاص الغائبين : ليكن معلومًا لديه بأن المائدة ليست له ! »[7]

كان لباسه لائقًا و خاليًا من كل أبّهة ، لكنه لم يكن يرغب في الظهور بمظهر الفقر . كان يلبس ثوبًا بسيطًا أسود فوق قميصه الذي يشبه « الفوقية » المغربية المعاصرة ، و ذلك على طراز سائر الرجال الذين كان يعيش معهم . كما انه كان ينتعل خفًا جلديًا عاديًا (صندلاً) في قدميه .[8] كان يحتجّ على الهدايا التي كان يحصل عليها من الثياب الفاخرة ، و قال : « قد تكون هذه الهدية مناسبة لناظر ، و لكنها لا تناسب اغسطينوس الفقير ، و الذي وُلد من أبوين فقيرين .» وقال أيضًا في مناسبة أخرى : « إن الثياب الفاخرة تملأني حرجًا ، و هي لا تناسب عملي ، حتى و لا جسمي العجوز البالي و لا شعري الأشيب . » و مع ذلك ، كان باستطاعته بلباقة و لطف ، أن يتصرف احيانًا بشكل مغاير لمبدئه المتواضع هذا كما سنتبين من قضية سَابيدا (Sapida) . لقد ارسلت هذه المرأة المسيحية له قميصًا صنعته بيديها ، و هي في الحقيقة كانت تنوي تقديمه لأخيها تيموثاوس الذي كان يعمل مدبراً في كنيسة قرطاجة ، و لكنه توفّي قبل أن يتسلّم هدية أخته . وقد صرّحت له سابيدا بأن قبوله لهذا القميص سيشكّل تعزية عظيمة لها . لم يقوَ اغسطينوس على رفض هديتها هذه ، و لكنه في الخطاب الذي كتبه اليها ليشكرها فيه على هذه الهدية ويخبرها بأنه بدأ يلبسها ، اقترح عليها بلطف ان تبحث عن مؤاساة أعظم إذ تتذكر أن أخاها ، الذي كانت قد صنعت له هذا القميص الأرضي ، بات لابسًا الآن رداء الخلود الأبدي الذي لا يفنى .[9]

كان اغسطينوس يتعامل مع النساء بتحفّظ كبير جداً . و لم يكن ليزور البيوت التي تشغلها المجموعات النسائية إلاّ عند الحاجة الملحّة القصوى . و في الوقت عينه ، لم يكن يسمح لأية امرأة بأن تبقى في الدار حيث كان يعيش مع الرجال . و إذا ما جاءت امرأة اليه تسأله النصح والمشورة ، لم يكن يستقبلها إلاّ بحضور قادة الكنيسة الآخرين . لقد حرص على ألاّ يعطي مجالاً للافتراءات او لسوء الفهم ، و كان يسعى جاهداً لوضع نصب أعين الجميع المثال الذي ، اذا ما اقتدى به الجميع ، قد يكسب احترام المسيحيين و الوثنيين على حدّ سواء ، كما انه يقي الضعفاء الفخاخ والأحابيل التي تكتنف الطبيعة البشرية .

و بإمكاننا ، من خلال الفن المعاصر آنذاك ، و الرسائل التي بقيت منذ عصر أغسطينوس ، أن نتصوّر طبيعة الناس الذين كان يخالطهم ، و أن نكوّن فكرة ، و إن يكن غامضة ، عن أعضاء الكنيسة التي كان يقودها . و أقدم الصور المرسومة لأغسطينوس تبيّنه ذا شعر قصير حليق الوجه على نحو كامل ؛ وقد كان هذا بالأمر المألوف في أيامه . فمنذ زمن كبريانوس لم تعد اللحى بالشيء المرغوب فيه ، فأهملها معظم الرجال ، و لكن بقي مظهر الرجال و النساء و ملابسهم من دون أي تغيير يُذكر . كان الرجال و الصبيان ، في المدن على الأقل يلبسون قميصًا أبيض من الكتّان أو الحرير ، المزيّن برسوم الحيوانات ، و بعض الاحيان بمشاهد تعبيرية من الكتاب المقدّس . أمّا في الأيام الباردة ، فكانوا يلبسون ، حين يخرجون ، سترة أو برنسًا صوفيين ويُثبت الأخير بدبوس معدني . و في الشتاء ، كان الأغنياء يلبسون الفراء ، بينما يلبس الفقراء الجلود المدبوغة التي تقاوم خشونة الأعمال البدنية الشاقة . و كانت تلبس القلنسوة خارج البيوت ، ولكن الرجال كانوا ، بشكل عام ، يخرجون عراة الرؤوس ، ما عدا صيادي الأسماك الذين كانوا يلبسون قبّعة مصنوعة من القش ذات حافة عريضة ، و هي تشابه القبعات (تارازا) التي ما زلنا نراها اليوم في إفريقيا الشمالية . لقد وجد السروال طريقه الى إفريقيا من بلاد الغال ، و ذلك في نحو نهاية القرن الرابع للميلاد . و قبل هذا الوقت ، كان الأفارقة الشماليون يحفظون أرجلهم دافئة بواسطة وقاءات نسيجية مشدودة بأربطة لا تتجاوز الركبة ، و بخاصة عند القنص او العمل في الحقول . و في ذلك الحين ، كما هو الحال الآن ، كان سهلاً تمييز الناس من أحذيتهم : معظم الناس كانوا يلبسون الصنادل - « الخف » - المزوّدة بربط ، او بأي نوع من أنواع الشبشب (البلغة) ، البسيط و لا عقب له . و كان الأغنياء يلبسون أحذية أكثر أناقة ، كالشبشب المنمّق ، او الجزمة القصيرة المفتوحة من الأمام ، تظهر منها الاصابع ، و هي مزينة بالعاج . أمّا الفقراء ، فكانوا حفاة .

كانت النساء يحتفظنَ بشعورهنّ الطويلة ، و لكنهن كنّ يغطّينها بوشاح في الاجتماعات الكنائسية . و كنّ يلبسنَ رداء طويلاً متدليًا و طليقًا عند الأكتاف . و لكن بالنسبة الى الثياب التي تُستعمل عند الخروج من البيت ، فكنّ يجعلنَ عليهنّ رداء صفيقًا او معطفًا مصنوعًا من الصوف ، او برنسًا يُثبّت بدبابيس مصنوعة من الأحجار الكريمة . كانت النساء الموسرات يشترينَ الثياب الحريرية الناعمة الممتازة المستوردة من الشرق ، و يحلّينَ أنفسهنّ بحلقات الأذن و القلادات ، والأساور ، و دبابيس الشعر . لقد توافرت في تلك الأيام مجموعة كبيرة و أنواع عديدة من العطور الباهظة الثمن ، بالإضافة الى مراهم البَشَرة ، و مزيلات الشعر . و كان كبريانوس ، في أيامه ، قد وبّخ سيدة أنيقة واحدة على الاقل ، لاستعمالها « الكحل » ، لكي تزيد من جمال عينيها . اعتبر أغسطينوس أنه يتوجّب على النساء اللواتي يحضرنَ اجتماعات الكنيسة أن يلبسنَ ويتصرفنَ باحتشام و تواضع . و هذا ما قاله أسلافه ايضًا .

استُعملت الزيوت العطرية في عصر أغسطينوس للغسيل ، و كذلك استُعملت الفراشي الخشنة لفرك البَشَرة . كما انه كان يجري تحضير صنف من معجون الأسنان الذي يتم استخراجه من بعض الأعشاب . و كان أغلب الناس في المدن ، و حتى في القرى بالقرب من الساحل ، يقصدون الحمامات العمومية يوميًا لأجل الاستحمام . فسكّان إفريقيا الشمالية ، بشكل عام ، كانوا محبين للنظافة ، و يرتدون لباسًا مرتّبًا نظيفًا ، مع أن أغسطينوس كان قد ألمح أكثر من مرّة الى انه باستطاعته معرفة إن كانت عظاته تطول و تدوم اكثر من الوقت المألوف ، و ذلك من الروائح الكريهة المتصاعدة من أبدان الحاضرين ، و التي تزداد حدة مع الوقت لدرجة انها تصل حتى اليه في مقدمة القاعة .[10]

إن التنقيبات الأثرية في كل من قرطاجة و هيبو و أماكن أخرى ، تمكّنت من كشف الأبنية و الأمتعة التي كانت تخص المسيحيين في أيام أغسطينوس . و هكذا تمّ العثور على بقايا قاعات الاجتماعات المسيحية اي « الباسيليقات » لكل من الكاثوليك و الدوناتيين . كانت الغرفة الرئيسة عادة مستطيلة ، و غالبًا ما تحتوي على الأقواس و الرواقات ذات الأعمدة على طول امتداد جانبيها . و قد يصل طولها الى 80 او 100 متر ، و بعرض قدره 45 مترًا او أكثر ، و سقفها كان عاليًا . امّا الغرف الأخرى ، فقد كانت تُستعمل للاجتماعات الصغرى ، أو لاحتواء مكتبة ، أو كحوض للمعمودية مصنوع من الحجارة . لقد كانت تُزيّن أرض الأبنية التي ظهرت لاحقًا ، و جدرانها و أحيانًا سقوفها أيضًا ، بالفسيفساء و بقطع صغيرة من الزجاج و المرمر .

كما وُجدت بقايا كنيستين كبيرتين في هيبو نفسها ، إحداها كاثوليكية و الأخرى دوناتية . و كان طول بناية الكنيسة الكاثوليكية نحو 50 مترًا و عرضها 20 مترًا ، و فيها حوض حجري استُعمل للمعمودية ، بالإضافة الى كرسي حجري كبير حيث كان الناظر يجلس على الأرجح . و نحن لا نعلم عمّا إذا كان هذا هو البناء حيث خدم أغسطينوس بإخلاص كبير ، و قد يكون هذا الأمر ممكنًا .

وفوق مدخل دُورهم ، و بجانب اسم مالك البناية و المقيمين فيها ، كان المسيحيون يحفرون عادة آية من آيات الكتاب المقدس او كلمات صلاة مثل : « الرب يحفظك من كل شر ، يحفظ نفسك . » «الرب يهتم بي ، عوني و منقذي أنت » .[11] و أمّا النقش المفضّل في قرطاجة ، فكان : « إن كان الله معنا ، فمن علينا ؟ »[12]

كانت مصابيح شمال إفريقيا في القرن الرابع ، مزيّنة برسوم مختلفة من وحي الكتاب المقدس : ذبيحة اسحق ، ابراهيم و زواره الثلاثة ، المرسلان العائدان من أريحا و هما يحملان زرجونة العنب الرائعة ، يونان وهو جالس تحت اليقطينة ، او خارج من بطن الحوت ، الفتيان الثلاثة في الأتون ، دانيال في جبّ الأسود . كانت أدوات منزلية أخرى تصوّر الراعي الصالح ، المسيح

في المجد ، رمز الصليب (احيانًا برأس معقوف يشبه عصا الراعي) ، أو العلامة الرمزية اليونانية « خاي - رو » (Chi - Rho) حيث يتشابك الحرفان (X وP) داخل دائرة ، [13] أو الحرفين اليونانيين ألفا واوميغا ، واللذين يمثّلان المسيح بصفته الأول و الآخر .

كذلك كانت الصحون و الكؤوس الفخارية تشير الى أحداث مهمة عند المسيحيين مثل ذبيحة اسحق ، و آدم و حواء في جنة عدن ، و بطرس و يوحنا يصطادان السمك ، و معجزة إطعام الخمسة الآلاف ، و أعجوبة صيد السمك الوفير ، و العشاء الأخير ، و صورة سمكتين على هيئة صليب موضوعتين على الحصى ، و التي تشير الى الفطور الذي أعدّه المسيح بجانب البحيرة . كانت بعض هذه الفنون المسيحية في إفريقيا الشمالية مدهشة للغاية ، مثل لوحة حجرية تحمل رموز الحياة الأبدية معروضة الآن في المتحف بمدينة شرشال ، و الصحيفة الرخامية للراعي الصالح في المدافن السردابية بسوسة (Sousse) في تونس .

تحتوي متاحف الجزائر و تونس على الكثير من هذه البقايا . و هي تشهد للإيمان الحار الذي كان يُسرّ بقصص الكتاب المقدس و بوعود الله . إنها تعود فتحيي ذكرى صانعيها ومستعمليها . و لا شك أن هؤلاء القوم الذين تمتّعوا بهذه الأمورقد تجاوبوا بحماسة كبيرة ، مع المواعظ و التعاليم التي قدّمها أغسطينوس .

ملاحظات

1- متّى 21:25
2- *Confessiones* 9:10
3- قال العديد من الكتّاب في أغسطينوس إنه من « البربر » . و يُرجّح أنهم في ذلك على حق : كان ، بكل تأكيد تقريبًا ، نصف أمازيغي على الأقل . يصرّح المؤرخ كابريال كُم جازمًا : « هناك دلالة واضحة على أن أعظم المفكّرين في الغرب اللاتيني ، و كاتب « مدينة الله » و « الاعترافات» ، كان بربريًا مسيحيًا . » (Camps p. 168)
لا نعرف شيئًا بشأن خلفية والد أغسطينوس ، لكن يوجد أدلّة على أن أمه كانت من أصل أمازيغي . إن تحدّر أغسطينوس من أصل بربري يظهر بطرق بسيطة عديدة ، في اسم أمه مونيكا ، و هو اسم بربري ، قد يكون مشتقًا من «مون » ، الإله الليبي الذي يُعبد في المدينة المجاورة ثيلسْ (Thibilis) ، و في ميل أغسطينوس الى اتّباع التقليد البربري و الى اعتبار علاقة الأخ أقرب من علاقة الابن . و لا نفهم مغزى الاسم الغريب الذي أطلقه على ابنه ، أديوداتس ، إلاّ في ضوء عادة البربر لجهة تسمية الأولاد باسم له علاقة بعبادة البعل (Frend p. 230) . فالاسم اللاتيني اديوداتس يعادل الاسم البوني « يعتمبعل » الذي كان يستعمله الأمازيغ في ذلك الوقت .

تشادْوِكْ (Chadwick p. 6) ، من جهته يعتبر أيضًا مونيكا اسمًا أمازيغيًا ، بْراوْن (Brown) (p. 63) ، يلحظ أن أديوداتس كان اسمًا شعبيًا بين أوساط المسيحيين في قرطاجة ، و معناه « مُعطى من الله » .

فْرِنْد (Frend p. 230) يلحظ كيف أن تاغاست ، مسقط رأس أغسطينوس ، كانت تشكّل مركزاً عظيماً للثقافة الأمازيغية التقليدية : « ليس في إفريقيا الشمالية أي مكان آخر حيث تتوافر بكثرة هائلة المقابر الليبية التي تُعرف هويتها من المنقوشات باللغة الليبية او اللغتين الليبية و اللاتينية . »

إلاّ أن أغسطينوس لا يُظهر أبداً أية علامة لقدرته على التحدث باللغة الأمازيغية أو لفهمها : كانت اللاتينية هي لغة التخاطب بينه و بين أمّه . ان تفسيراً بسيطاً لهذا هو أن أباه لم يكن ربّما يعرف إلاّ اللاتينية ، و هكذا لم يسمح باستخدام الأمازيغية في البيت . و في أيامنا هذه ، إن حالة كهذه هي مألوفة في إفريقيا الشمالية ، و هي تقود الى فقدان ما كان يشكّل حرفيّا اللغة – الأم

4- *Vita* 27 (Hamman p. 279.)

5- 1 كورنثوس 6:1-6

6- يعقوب 27:1

7- *Vita* 22 (Hamman p. 279)

8- Brown p. 193, 198

9- *Epître* 263:1 (Bonner p. 129)

10- بالنسبة الى اللباس و الطعام و الفن المعماري في عصر أغسطينوس ، راجع (Hamman chap.3)

11- المزمور 17:40; 7:121 (Hamman p. 65)

12- بالإشارة الى رومية 31:8

13- يشكّل « خاي » و « رو » الحرفين اليونانيين الأولين للكلمة « المسيح » . كان هذا شعاراً مسيحيّاً مألوفاً في القديم .

ان خدمة اغسطينوس ، في مراحلها الأولى ، يبحثها Bonner pp. 104 - 133 ؛ أمّا فلسفته الأفلاطونية المحدثة ، فكراً و تأثيرات ، فيتناولها Chadwick (pp. 9 - 56) .

الفصل الثالث و العشرون

الواعظ الماهر

لم يسعَ أغسطينوس ، كناظر في هيبو ، للتسلّط على اعضاء كنيسته ، أو إرغامهم على القيام بأعمال خلافًا لإرادتهم . إن سرّ قيادته يكمن في صبره الحكيم . فعندما يقتنع بوجهة سير معيّنة ، يحرص على ألاّ يدفع الآخرين إلى السلوك فيها او رغمًا عن إراداتهم . لكنه كان يحاول جاهداً أن يقنعهم ، إذ يعاملهم كقوم أذكياء قادرين مثله على إدراك الأمر ، و هكذا يتبنون بفرح ما يقترحه عليهم . الى ذلك ، كان لأغسطينوس موهبة كسب تعاطف الآخرين و ثقتهم به . و يُعزى ذلك جزئيًا الى استعداده للاعتراف بأخطائه الشخصية التي كانت دائمًا تظهر للسامعين بأنها أقل بكثير من خطاياهم . ولكن تواضعه كان حقيقيًا و خاليًا من الرياء إذ لم يفقد قط شعوره الحقيقي الصادق بالخجل من خطاياه القابعة في أعماقه ، و التي لا يدري بها احد سواه و سوى ربه .

كان أغسطينوس صاحب مشاعر جيّاشة ؛ كان يبكي بسهولة ، كما كان باستطاعته أن يسمو و يرتفع الى أعلى مستويات الفرح و السرور في العبادة . اعتبر أنه ليس من الخطإ أن يكون عند المسيحي عاطفة و مشاعر . بل على نقيض ذلك ، بما أن تلميذ يسوع قد تحرّر من قساوة القلب تلك التي كان يتميّز بها الفلاسفة الرواقيون الذين كانوا يكبتون كل مشاعرهم البشرية ، بما في ذلك الشفقة و الحنان . إلاّ أنه يتوجّب على المسيحي ، بالمقابل ، أن يكون قادراً على كبح جماح مشاعره و يضبطها ، إذا ما اقتضى الأمر ذلك حتى لا تدفعه الى اتخاذ احكام متسرّعة ، او يقوم بأعمال قد يندم عليها أخيراً . وهكذا يقول أغسطينوس : « ليست المسألة ، في الواقع ، كون النفس التقية غاضبة ، بل لماذا هي غاضبة ؛ أو كونها حزينة ، بل بالحري ما هو سبب حزنها ؛ أو كونها خائفة مرتعبة ، بل ممّ هي خائفة . أن نسخط على أحد الخطاة بدافع إصلاحه ، أن نتألم مع المحزونين بقصد التخفيف من معاناتهم ، أن نخاف على أحد لنجنّبه ما قد يقوده الى الموت ، هذه هي بعض المشاعر و العواطف المسيحية السليمة التي لا يمكن في نظري لأي حكم صائب أن يوبّخها .» [1]

كان أغسطينوس يتعاطف مع أخطاء إخوته الساقطين ، آخذاً بعين الاعتبار أنه يعجز أي إنسان عن معرفة مدى عنف التجربة التي قد اجتاز فيها قريبه . و هكذا يتحتّم على المسيحي أن يتمهّل في البحث عن أخطاء الآخرين . فبعض الناس ، بطبيعة عملهم ، و ما تكتنف هذه الأعمال من مخاطر ، يكونون عرضة لإغراءات و إغواءات أعظم و أكبر من غيرهم ، لذلك يعترف قائلاً : «كان

قصد الرب ان يؤدبني لأنني كنت فظًا في تويبخي البحّارة على خطاياهم ، و كأنني انسان أحكم منهم و أفضل منهم ؛ الى أن علّمتني الخبرة طبيعة عملهم . هذا لأنه عندما تمّ إرسالي اليهم ، عندئذ أدركت كم كان تعنيفي لهم وقحًا . » [2] و لم يستطع اغسطينوس أن يقدّر صعوبة المهمة ، إلاّ بعد أن وجد نفسه مسؤولاً عن قيادة السفينة . إلاّ أن أخطار عمل القيادة في الكنيسة ، تفوق تلك المتعلقة بشتى الأعمال و المهن الأخرى . ففي عظاته ، كان أحيانًا يشير ، وبإخلاص ظاهر بيّن ، الى ضعفاته الخاصة و عدم أهليّته ، سائلاً جمهوره أن يصلّوا من أجله . لقد اعتبر نفسه أنه كان في موقع الخادم ، أكثر منه في موقع الأب للعائلة . و إذ كان يشعر بأنه مسكين ، راح يمدّهم من غنى كنوز الله ؛ و في ضعفه الذاتي ، وجد قوته في مخلّصه ؛ و في افتقاره الى الكلمات المناسبة ، اعتمد على حق الوحي الإلهي . لقد قال : « الله يعلم كيف أرتجف في حضرته ، عندما أتحدث إليكم باسمه . » [3]

وجّه أغسطينوس أبحاثه اللاهوتية الى الذين كانوا يضارعونه فكريًا و عقليًا ، و لكنه كان يرغب ، و هو يعظ في كنيسة هيبو ، في أن يفهم كل الناس و يدركوا ما يقوله لهم . كانت مواعظه مميّزة ببساطة التعبير و حصافتها العملية . فهو يحرص على أن يتمكن الأقل ثقافة بينهم من فهمها واستيعابها . و هكذا تخلّى عن اللغة اللاتينية ذات الأدب الرفيع التي يتخاطب بها عادة الفلاسفة ، لكي يستخدم لغة الناس اليومية ، قال : « أن ينزعج مني أساتذة اللغة و القواعد النحوية هو أفضل بالنسبة اليّ من ألاّ يفهمني الناس . »[4] كان يتكلم كما الرجل مع صحبه ، مسديًا إليهم النصائح ، ومظهراً لهم سبيل الله ، حتى يتمكّنوا هم ايضًا بدورهم من أن يعبدوا الرب و يتبعوه . و كان يجد في الأشياء البسيطة المتوافرة حواليه إيضاحات لتعليمه ، وكان يكثر من اقتباس الأمثال التي كانت مألوفة في عصره و بين قومه . كما أنه كان يؤمن بأن هذه الحكم و الأمثال التي هي حصيلة اختبار طويل للعالم ولطبيعة الإنسان ، قد تشير الى حق إلهي ، كما أنها قد تقود النفس الى المسيح .

لم يتردّد قط في تكرار ما يقول : كان بذلك يضمن و يتأكد من أن كل واحد سيبقى يتذكّر ما قاله لهم . إنه يصف و يصوّر مشهداً أكثر بكثير من عرضه لفكرة او بسطها أمام الناس ؛ و هو يخترع الشخصيات و يعطيهم أدواراً . كما أنه يطرح سؤالاً ، و من ثم يجيب هو عنه ؛ كذلك يتتبّع أحداثًا ، ثم يتساءل مستفسراً عن بواعثها . كان يعلم تمامًا أن الأمور الواقعية المدركة بالحواس تجد تجاوبًا عند الناس بشكل أفضل بكثير من الافكار التجريدية . و كان دائمًا و باستمرار ، يشرك سامعيه في عملية عرض مخططه ، فهو يدعوهم إلى الإجابة عن اسئلته ، و إلى إضافة شيء الى إيضاحاته ، و إلى الموافقة على اقتراحاته و أفكاره . إنه يحرّك عواطفهم و يلهبها ؛ و هو يقرأ أفكارهم من التعابير البادية على وجوههم ، و أخيراً يوصل اليهم رأيه بأسلوب منطقي لا يمكن مقاومته أو مناقضته . كان كلامه تلقائيًا و عفويًا . و على كل حال ، لم يكن عنده

متّسع من الوقت يسمح له بالإعداد المسبق الكافي لعظاته . « مهما أعطاني الله ! » هذا هو التعبير المفضّل عنده لوصف أسلوبه في الكلام . كان أعضاء كنيسته يكتبون مواعظه في الوقت الذي كان يلقيها ، و ذلك بأسلوب من أساليب الاختزال المعروفة آنذاك ، ثم يُصار الى استنساخها قبل توزيعها .

ألّف في العام 393 ما هو أشبه بنشيد او ترتيلة لمساعدة رعايا كنيسته من عمال الموانىء والفلاحين على إدراك الحقائق و المبادىء التي كان يعتمدها الكاثوليك في صراعاتهم مع الدوناتيين . كان هذا النشيد يتكوّن من عدة مقاطع ، يبدأ كل واحد منها بالأحرف المتتالية في الأبجدية ، و ذلك على نمط سفر مراثي إرميا و بعض المزامير ، كما انه يتضمّن في نهايته حثًّا صريحًا على المحافظة على وحدة الكنيسة . و الواقع ان معظم المسيحيين كانوا أميين ، و لهذا لم يكونوا قادرين على تفحّص ما يسمعون أو ما يحصل أمامهم في ضوء الكتاب المقدس . و حتى هيبو ، و هي ثاني مدن إفريقيا ، لم يكن فيها أية مدرسة عامة . لقد كان أبناء العائلات الغنية يدرسون على أيدي معلّمين خصوصيين ، و لكن هؤلاء القوم كانوا الأقلية . « أنا وثيقتكم ، » قال اغسطينوس « أنا كتابكم .»[5] ان رجلاً في هذا الموقع ، كان صاحب مسؤوليات جسيمة ؛ فهو مسؤول عن كل كلمة يتفوّه بها ، كما « و يأخذ دينونة أعظم » من سواه . [6]

كانت المواضيع المفضلة لدى أغسطينوس تلك التي نتوقعها من معرفتنا بصفاته و خلفيته : شرّ الخطية ، زوال الحياة البشرية و عدم يقينيتها ، المغزى العميق للموت ، روعة محبة المسيح ، فعالية بذله نفسه لأجل فدائنا ، المثال الذي يضعه أمامنا و الذي علينا اتّباعه ، عطية الروح القدس وحضوره و قوته ، طبيعة الكنيسة و مجدها . هذه هي المراعي التي يهوى أن يربض فيها ، والتي يحب أن يقود رعيته اليها . لقد قال : « هناك شيء واحد وحيد على هذه الأرض ، و هو مؤكّد بشكل مطلق : إنه الموت . و حتى الموت نفسه ، ثمة شيء غير معروف بشأنه ، و هو تاريخ حصوله . فنحن نجهل اين سنكون عندما يخاطبنا رب البيت بالقول " ارحلوا ." » و لكن ، هل يحق لنا أن نحزن على أولئك الذين رقدوا ؟ « تخيّل أن عزيزة تحبّها قد فارقت هذه الحياة ؛ فأنت لم تعد تسمع صوتها ، و قد انقطعت عن المشاركة في مباهج الأحياء ، و أنت ! أنت تبكي . والآن أخبرني ، هل تبكي بهذا الشكل على البزرة التي طمرتها تحت التراب ؟ و تخيّل رجلاً لا يعلم شيئًا مما سيحدث لتلك البزرة بعد طمرها في الأرض ، وراح ينوح و يندب خسارته لهذه البزرة ، و يحزن كلما تفكّر في تلك الحبّة التي دفنها ، و ينظر بعينين مغرورقتين بالدموع الى تلك الأثلام التي تغطيها ، ألا تشفق على جهله ، أنت الذي لديك حسن اطلاع أكثر منه ؟ ! من المؤكد أنك ستقول له : " لا تقلق . فالذي دفنته لم يعد في المخزن و لا في يدك بعد الآن ، و لكن اصبر حتى تمرّ بضعة ايام ، و سوف ترى هذا الحقل القاحل مغطّى بالحصاد الوافر الغزير ، وستمتلىء من جراء ذلك فرحًا و سعادة . " و بالطريقة نفسها ، نحن الذين نعلم ما الذي سيحدث (بعد الموت) نفرح و نتهلل بهذا الرجاء العظيم الذي هو من نصيبنا . »[7]

كان أغسطينوس واحداً من أكثر الكتّاب إثماراً و خصوبة على مرّ التاريخ ، و في أية لغة . و قد انتج خلال حياته 93 عملاً ادبيًا و 232 كتابًا ، هذا عدا مواعظه و رسائله التي لا نزال نحتفظ حتى اليوم بالمئات منها ؛ و لم يُفقد سوى عشرة من انتاجه الرئيسي . و تشكّل هذه الكتابات موسوعة ضخمة من المعارف ، و الثمرة الناضجة للفكر العميق و الواسع بشأن اهم المسائل و المناظرات العظيمة في عصره . كانت اهتماماته تمتد الى جميع نواحي الحياة البشرية ، وهو دائمًا يرسم إيضاحاته من العالم الذي يحيط به ، من نمط الحياة في الأرياف و القرى في إفريقيا الشمالية ، و من ضوضاء الحركة في المدينة . و كما كان فصيحًا في أحاديثه الشفوية ، كان أيضًا خبيراً في النمط الأدبي المصقول . و على الرغم من عمق معانيها ، تحتفظ مؤلفاته المكتوبة بدفء القدرة على الإقناع نفسها التي تميّزت به كلماته التي نطق بها أسبوعًا تلوَ الآخر الى الكنيسة في هيپو . إن الأساليب البلاغية للمحاجج ، تجد طريقها الى نتاجه المكتوب كما في مواعظه . إنه يجتذب قرّاءه معه ، يقول : « على كل واحد يقرأ هذه الصفحات أن يتابع القراءة معي ان كان متيقنًا من هذه الأمور مثلي ؛ و ليبحث معي عندما يكون متردّداً مثلي . . . و هكذا لندخل سوية عبر ممر المحبة ، في سعينا في إثر (الله) . » [8]

لم توجد مسيحية اغسطينوس لتُخبّأ في صحراء ، أو لتُحجب في دير و إنّما وُجدت لكي تُحمل الى جميع أرجاء المعمورة . لقد عزم على أن يذيع الاخبار السارة و ينقلها الى الناس اجمعين . اعتبر أغسطينوس أن على المسيحي أن يحب الله من كل قلبه و يحب قريبه كنفسه ، وهذا يعني أنه لن يجلس غير مبال في وسط عالم محتاج . « إن الوصية بشأن محبة القريب ، تلزمه بفعل كل ما في وسعه لجعلِ هذا القريب يحب الله . » [9] و عليه « أن يعيش بين الناس لما هو لخيرهم وصالحهم . » [10] كان أغسطينوس نفسه أفضل و أحسن مثال عن هذه المحبة ، من خلال محادثاته الشخصية مع الناس ، و مواعظه في الكنيسة ، و رسائله و كتبه التي كانت تُنقل الى أبعد الأصقاع .

لم تكن كتابات أغسطينوس مصممة بشكل ترتيبي أو نظامي . كان ببساطة يلتقط قلمه في أي وقت يتواجه مع كتاب يحتوي على ضلالات ، أو يسمع فكرة من الأفكار يرى أنها مغلوطة . لذا نجد أن أعماله كانت أحيانًا في ظاهرها « ضد » شخص معيّن او فكرة ما . و من ثم نجده يوضح وجهة نظره ، وذلك في معرض تحطيمه حجة خصمه . و هكذا تمكّن ، خلال حياته ، من الكتابة عن كل المناقشات والأفكار الرئيسة المطروحة في عصره ؛ إلا أن الطريقة التي جُمعت بها هذه المادة اللاهوتية ، كان من الصعب معها رؤية إطار متّسق لها او تلخيص أفكارها العامة . لقد دام صراعه مع الدوناتيين عشرين سنة ، و قد طوّر خلال هذه المدة نظامًا عقائديًا شاملاً بخصوص طبيعة الكنيسة . و في معرض إجابته عن التساؤلات التي أثيرت حول سقوط روما ، عالج في العمق العلاقة بين الكنيسة و الدولة ، و ذلك في كتابه « مدينة الله » ، كما ان ردّه على پلاجيوس (Pélage) ، نتج منه نظرية لاهوتية متكاملة عن الخلاص عُرفت «بالأغسطينية » .

لم يكن أغسطينوس ملمًا في تفسير مضمون الإنجيل و انعكاساته و في تقويم اعوجاج اولئك الذين أخطأوا في تفسيره و حسب ، بل كان ايضًا كفوءاً في الإجابة عن بعض الاعتراضات التي أثارها بعض معتنقي الأديان الأخرى و الفلسفات التي كانت شائعة آنذاك . فبعد اهتدائه بوقت قصير ، كتب عدّة مقالات يفنّد فيها التعاليم المانوية التي طالما أربكته و حيّرته في شبابه . كما انه خصص صفحات كثيرة ، بما في ذلك نصف كتابه « مدينة الله » تقريبًا ، لكشف مواطن الضعف في الوثنية و في عبادة الأصنام . كذلك بذل كل ما في وسعه لربح اليهود . ففي بداية عهد الكنيسة ، كانت هناك اتصالات متكررة بين الكنيسة و المجمع اليهودي ، حيث كان المسيحيون الأولون ينشدون فهم المعنى الحقيقي للعهد القديم . و لكن بمرور الوقت ، افترق اليهود والمسيحيون . كذلك قلّ ، بشكل عام ، تعاطف اليهود مع ما قد أصبح الى حدّ كبير كنيسة من أهل الأمم . لقد راحوا يشعرون بالاشمئزاز ، و ينظرون بعين الارتياب الى اولئك الذين كان يبدو لهم أنهم أخذوا توراة اليهود و استخدموه لأغراضهم الشخصية . وقبل عصر أغسطينوس ، كان اليهود قد بدأوا يرفضون الإقرار بالترجمة السبعينية للعهد القديم ، تلك التي كانت متداولة في الأوساط المسيحية ، مصرّين بالحري على الرجوع الى النص الأصلي كما ورد باللغة العبرانية . في ذلك الوقت كان يهود إفريقيا الشمالية ، أقلية مضطهدة ، ويتقلّص عددها رويداً رويداً . كان أغسطينوس يرغب في ان ينقل اليهم أن المسيا الذي ينتظرونه قد أتى فعلاً حتى انه ينتظر أيضًا لاستقبالهم .

كان اغسطينوس ملمًا تمام الإلمام بالنظريات العلمية و الاكتشافات في عصره ، و كان ينظر اليها بجدية تامة ، و بالأخص في حقول الرياضيات و علم الفلك و الطب . كان في بعض الأحيان يتبع خطى امبروزيوس إذ يلجأ الى عرض تفاسير مجازية لبعض النصوص الكتابية التي تظهر وكأنها تتعارض مع البيّنات و الدلائل العلمية . و في أحوال عديدة كان يتحفّظ في إصدار حكمه ، ناصحًا المسيحيين أيضًا بألاّ يتسرّعوا في قبول أو رفض هذا الرأي أو ذاك خصوصًا في تلك الحقول و الميادين التي لا يعلمون عنها إلاّ الشيء القليل . لقد انزعج من بعض المسيحيين الذين رفضوا العلم ككل . و ذكّر هؤلاء بالقول : «قد يحدث أحيانًا كثيرة أن يكون لإنسان غير مسيحي رأي في ما يتعلق بالأرض أو السماء أو أي عنصر آخر من عناصر العالم ، كحركة الاجرام السماوية وكيفية دورانها ، أو حتى أيضًا حجم هذه النجوم و المسافة التي تفصل بينها . . . وكذلك عن طبيعة الحيوانات و النباتات و الحجارة و غيرها من الأشياء ، التي هي وليدة خبرة او تحليل منطقي لا يقبل الجدل . و إنه لأمر مخجل و مضرّ لنا ، وبالتالي مؤسف للغاية ، أن يسمع أحدهم أي مسيحي يتحدث بكلام فارغ و تافه بشأن هذه الأمور مدّعيًا أنه يستند في حكمه هذه على كتابات المسيحيين . »[11] و من جهة أخرى ، إن أي تأمل أو فكرة أو تخمين علمي لم يُثبَت أو يُبرهَن بعد ، لا يجوز قبوله و تفضيله على أقوال الكتاب المقدس الصريحة . كان أغسطينوس يؤمن بأن الكتاب المقدس هو صحيح في كل تفاصيله . « فمهما

كان الأمر الذي استطاع العلماء أن يثبتوه بالبراهين الصادقة عن طبيعة الاشياء ، بإمكاننا أن نظهر بأن ذلك لا يتناقض مع الكتاب المقدس . ولكن مهما افترضوا في أي من كتبهم العلمية من النظريات التي تخالف كتابنا المقدس . . . فعلينا إمّا أن نعرض حلاً لذلك ، و إمّا أن نرفض من دون تردد ، و نعتبرها فرضيات كاذبة و غير صحيحة .»[12] إلاّ أن الكتاب المقدس لا يهدف الى تزويدنا بالمعلومات بشأن ما يسهل علينا اكتشافه بأنفسنا . بل على نقيض ذلك تمامًا ، لأنه يعلن لنا أموراً لا يمكننا أبداً أن نكتشفها بأنفسنا . « هذه هي الكتابات التي لها أعلى سلطة و التي نضع ثقتنا المطلقة بها في ما يتعلق بالأشياء التي يجب أن نعرفها من أجل صالحنا الخاص ، إلاّ أننا عاجزون عن اكتشافها بأنفسنا .»[13]

لقد دان بصراحة بعض الفلاسفة ، الذين ادّعوا أنه لا يمكننا أن نعرف شيئًا ، و أن كل الاشياء هي غامضة و مشكوك فيها بطبيعتها ، و أنه كُتب للإنسان أن يستمر يتخبّط في دوّامة من الشكوك . لكنه يحذّرنا بالمقابل من الانسياق الى النقيض الآخر ، إذ نثق بالكلية بقدرتنا على الإدراك و المعرفة . ثم قال إنه علينا ألاّ نفاجأ ، إذا ما تواجهنا مع أسرار لا نستطيع سبر أغوارها او تفسيرها ؛ فهناك بعض الأشياء غير الواضحة ، حتى في مجال اللاهوت . فقد نجد في الكتاب المقدس أقوالاً تربكنا و تحيّرنا و تنشىء في عقولنا الشكوك ، و علينا ألاّ نستغرب حصول مثل هذا الأمر إذ إنه لا يشير الى اي عيب في الكتاب المقدس ، لكنه يبيّن محدودية العقل البشري و يؤكدها . ولا يمكننا أن نأمل في إدراك إلغاز هذا الكون جميعها ، و لا أن نفهم جوهر الله في العمق . فحتى الرسول بولس قال إن معرفته ستبقى ناقصة الى أن يصل الى السماء : « فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينذاك وجهًا لوجه . الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت . »[14]

فإذا ما التبست بعض الأمور علينا بسبب غموضها ، فهناك بالمقابل أشياء أخرى بديهية . إنها حقائق أثبتتها تجارب مشاعرنا و منطق أفكارنا ، فضلاً عن وحي كلمة الله الصادقة . قال أغسطينوس : « إن إيماننا يرتكز على ما قد تمّ إعلانه بكل وضوح ، وإذا بنينا أنفسنا على هذه الأسس الإيمانية الصلبة ، فليس من العدل أن نلام بسبب الشكوك التي قد تراودنا بشأن أمور أقل أهمية ، أي المسائل التي تعجز المشاعر او قوى المنطق عن تسليط كثير من الأضواء عليها ، كما أنه لا يوجد أي تلميح عنها في الكتب المقدسة القانونية ، و لا أُعطينا أية معلومات بصددها بواسطة شهود يكون عدم الوثوق بهم امراً لا منطقيًا . »[15] و تابع أغسطينوس كلامه بالقول إن المسيحي يؤمن بما هو واضح بيّن ، لكنه ينتظر المزيد من النور الإضافي بالنسبة الى ما هو مبهم و غير واضح . انه واثق بشأن الأشياء التي برهنت على أنها حق ، لكنه حرّ في التأمل في الاشياء التي لم تُثبت او تُبرهَن بعد ، لكي يتكوّن عنده رأي بخصوصها . معرفتنا قد تكون محدودة إلاّ أنها صحيحة وحقيقية ، و يمكن للمسيحي ان يطمئن لهذا و يتعزّى به .

غالبًا ما يشدّد أغسطينوس على حقيقة أنه لا يمكن للإنسان أن يسبر أغوار كلمة الله ، أو يأمل في معرفة كل ما تحتوي عليه . علينا أن نتفحص الكتاب المقدس بتواضع و احترام ، مبتهلين الى الله تعالى بصدق وجدية لينير عقولنا لأجل فهمها . و من دون هذه الإنارة الإلهية سنبقى لا نعلم إلاّ الشيء القليل : " فإذا قال إنسان لي : « احتاج الى أن أفهم حتى أتمكن من أن أومن ، » فسأجيبه بالقول : « الأصح هو ان تؤمن حتى تتمكن من أن تفهم . » "[16] فالمعرفة هي المكافأة على الإيمان ، كما أن الثقة تكافأ بمزيد من اليقين . فالإنسان الذي يصرّ على أن يفهم كل شيء قبل أن يؤمن ، قد حكم على نفسه أن يبقى ينتظر الى الأبد و هو يتخبّط في حال من الشك العقيم و غير المثمر . فنحن لا نستطيع أن نرى محتويات الغرفة ونقيسها ما لم ندخل اليها اولاً . « و لكن فوق هذا كله (قال اغسطينوس) تذكّر هذا الأمر : لا تقلق من جراء النصوص الكتابية التي يعسر عليك الآن فهمها ، و لا تنتفخ بما قد أدركته منها ؛ لكن انتظر بتواضع لتعرف ما لم تعرفه بعد ، كذلك تمسّك بمحبة بما قد فهمته . »[17]

كان يعتبر الكتاب المقدس أوثق مصدر للحق ، لأنه معصوم من الخطأ . كما كان يرجع اليه دائمًا ليحسم كل أمر يستعصي عليه ، و هو يشير باستمرار « الى شهادات الكتاب المقدس الموحى بها » و الى « الكتابات المقدسة » .[18] و عند اقتباسه أيّة آية ، كان يُصدّر ذلك بهذه الكلمات : « يقول الكتاب المقدس (و الكتاب المقدس لا يكذب ابداً) ، او « دعوني استدل على هذا من الكتاب المقدس .»[19] كان يحاول أن يجمع بشكل متّزن بين قبول الكتاب المقدس كإعلان حرفي للوقائع المادية ، و تفسيره بلغة مجازية للخروج بمعان روحية باطنية . و كان الأمر يعتمد كثيراً على ما إذا كان النص المعيّن موضوع البحث اراد به مؤلّفه أن يكون كتسبيح شعري او سرد معتدل رزين لحدث معيّن . كان هناك معان أعمق يجب إيجادها في أبسط الحوادث ، و هذا بالطبع لا يعني أن هذه الأحداث لم تقع فعلاً . كتب يقول : « والآن ففي رأيي ، أنه من الخطإ التام افتراض أن نص الاحداث في الكتاب المقدس ، لا يتعدّى مغزاه الجانب التاريخي الصرف . كذلك لا يجوز بالمقابل اعتبار أن كل تصريح في هذه الأسفار ، مهما بدا بسيطًا ، هو مركّب من معاني مجازية كثيرة . »[20] و لا يجوز إدخال أية عقيدة أو برهنتها استناداً الى نص مجازي ، مع أن هذه النصوص قد تبرّر استخدامها لتوضيح بعض التعاليم المصوّرة بوضوح في أماكن أخرى من الكتاب المقدس . و هو يصرّح أنه بإمكاننا أن نتأكد من أننا على خطإ ، كلّما حاولنا أن نلصق بمقطع معيّن من كلمة الله معنى مخالفًا للمفهوم العام لشهادة كلمة الله . و هكذا رسّخ المبدأ العام بأن لا يمكن لأي تفسير أن يصحّ ما لم يعزّز فينا محبة الله و محبة القريب . هذا الاسلوب لتفسير كلمة الله هو سليم و موزون للغاية ، و نعمل حسنًا إن انتبهنا اليه في أيامنا . و لكن ، من المؤسف أن أغسطينوس ، كما سنرى لاحقًا ، لم يتبع دائمًا مبادىء التفسير هذه التي دافع عنها .[21]

كان أغسطينوس حذراً بالنسبة الى الترجمات الجديدة للكتاب المقدس ، مثل الفُلْغَاتَة اللاتينية التي انجزها جيروم ، و التي قال فيها أغسطينوس إنها تربك الناس الذين اعتادوا على الصيغ القديمة

للكتاب المقدس . كان اغسطينوس يعتمد بشكل رئيس على الترجمات اللاتينية السابقة ، و على الترجمة السبعينيــة باللغــة اليـونانيـة . لـقد كانت هذه الترجمات تحتوي على بعض الأخطاء التي ساهمت ، مع الأسف ، في التشـويش الفكري الذي نـراه أحيـانًا في كـتاباته . و لـم يتـأثر وحـده بذلك ، إذ ضلّ آخرون من بعض علماء اللاهوت الأولين بسبب القصور الظاهر في الترجمات التي استعملوها .

كتب عدداً من الشروحات و التفاسير عن اجزاء مختلفة من الكتاب المقدس ، مشدّدًا بصورة خاصة على مراجع العهد القديم التي تشير الى مجيء المسيح . إنه يبرز النبوءات التي تتكلم بوضوح عن مجيء المخلّص ، كما انه يجد الكثير من المراجع الرمزية المحتجبة بين طيات العبارات عن المسيح ، و التي يظهر عند قراءتها لأول وهلة ، أنها تعالج مواضيع أخرى . إنه يسّر بإظهار كيف أن المعجزات المدوّنة في الكتاب المقدس تتخطّى و تفوق كثيراً تلك الأعمال السحرية التي كان سحرة الوثنيين المشعوذين يتشدّقون بها . كذلك يستقي من الكتاب المقدس أجوبة عن أعظم التساؤلات حول خلق العالم ، و أصل الشر ، والدينونة الأخيرة ، و المصيرين الأبديين – السماء والجحيم . و إذ يتتبّع ما يحتوي عليه الكتاب المقدس من حكمة القدير و معرفته المسبقة و عنايته ، يؤخذ و يندهش بنعمة الله المعطاة لمخلوقاته التي ثارت عليه . كان أغسطينوس مفكّراً عظيمًا ، وباستطاعته أن يكون من أعظم الفلاسفة ، لكنه لـم ينسَ البتة أن فكر الإنسان يجب ان يأتي دائمًا في المرتبة الثانية بعد فكر الله . و بالنسبة اليه ، كان الكتاب المقدس الموحى به من الله هو دائمًا السلطة المطلقة و النهائية .

ازداد نفوذ أغسطينوس باطّراد طوال فترة حياته . ففي الوقت الذي عُيّن ناظراً في هيبو ، كانت المسألة الدوناتية تمزّق كنائس إفريقيا ، بينما كانت كنائس أوروبا و آسيا منشغلة بمجموعة كبيرة من البدع المضلّلة . و هكذا كانت المسيحية في كل انحاء العالم توشك أن تتشرذم وتتبعثر في خضم نجاحها الشعبي . إنه بانتصاره على الدوناتيين ، تمكّن من توحيد الكنائس في إفريقيا . كما إنه في دحضه لمزاعم بلاجيوس و لمعلمين هرطوقيين آخرين ، استطاع أن يرسّخ الإيمان المسيحي على اسس كتابية صلبة و قوية . و هكذا تمكن ، وحده تقريبًا ، من لملمة الكنيسة الكاثوليكية التي كانت على شفير التفسّخ و الانهيار . كتب اليه جيروم رسالة يمدحه فيها ، و قد عاد كثيرون بعده ليردّدوا صداها : «يجلّك الكاثوليك و يوقّرونك بصفتك المؤسس الثاني لإيمانهم القديم . »

و مع ذلك ، فلم يقدّر لحياة أغسطينوس أن تنتهي على وتيرة الانتصار . فقد ترك هذه الدنيا في ظروف بدا عليها و كأنها قد حطّمت كل عمل حياته و فشّلت آماله جميعها . فالامبراطورية الرومانية التي كان يكنّ لها أغسطينوس أعمق مشاعر الاحترام و التقدير ، و يعقد عليها آمالاً جسامًا – تلك الامبراطورية التي حملت مشعل الحضارة ، و منحت الأمان و الاطمئنان و حرية

الأديان لكل العالم تقريبًا – وجدت نفسها فجأة على شفير الانهيار و السقوط . لقد حوصرت مدينة روما ، و اقتحمها القوطيون (Goths) و نهبوا ممتلكاتها في العام 410 م . ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، بل ترنحت هذه الامبراطورية و هي تتداعى على مدى ست و ستين سنة أخرى .[22] و في العام 428 م ، اكتسحت إفريقيا الشمالية جماعة الونداليين (Vandales) ، الذين كانوا في قرابة مع القوطيين جالبين معهم شكلاً شاذاً و منحرفًا من المسيحية ، الأريوسية (Arianisme) التي تتنكّر لألوهية المسيح . لقد حطّموا كل ما يعترض سبيلهم ، كما انهم استولوا على الممتلكات و الأبنية الخاصة بمسيحيي شمال إفريقيا بعد أن طردوا قادتهم . و فيما كانت الجيوش الوندالية تتجمع نحو هيپو ، ألحّ بعض الصحابة على أغسطينوس بضرورة الهرب . لكنه رفض أن يترك الرعية التي اؤتمن عليها ، و هكذا استمر يعظ و يعلّم حتى آخر اللحظات . إن ساعة الخطر المحدق الرهيب ، قال اغسطينوس ، هي الساعة التي فيها يسرع كثيرون لطلب الخلاص ، لذا شعر بأنه عليه أن يبقى لمساعدتهم على إيجاد هذا الخلاص . لقد صلّى الى الله طالبًا منه إمّا أن يُنقذ المدينة من خطر الغزاة المعتدين ، و إما أن يأخذه اليه تعالى قبل أن تسقط هذه المدينة الحبيبة .

و بينما كانت قوات الونداليين المعادية تضرب المدينة بقوّة و تدكّ بوابات المدينة ، أوى اللاهوتي العظيم الى فراشه ، مكرسًا ما تبقّى له من أيام حياته للصلاة . لم يكتب أية وصية ، حيث أنه كان منذ فترة طويلة قد تخلّى عن كل ممتلكاته لمجد الله . و هكذا مات أغسطينوس في الثامن و العشرين من شهر غشت (août) عام 430 م عن عمر يناهز الخامسة و السبعين ، بعد أن تشدّد بوجود بعض الصحابة معه و بصلاتهم لأجله . لقد استجاب الله صلاته إذ جنّبه أن يرى الدمار الأخير لمدينته الأرضية . نُقل جثمانه الى إيطاليا ، فيما حُملت كتبه الى جميع أنحاء العالم . و لكن أغسطينوس نفسه ، دخل أخيراً الراحة الحسنى ، منتظراً رجوع مخلّصه ، و متأهبًا للقيامة العظيمة ، و مستعداً للإستيقاظ ساعة ينفخ البوق فجر ذلك اليوم الجديد الخالد ، فيدخل بعدها الأبواب الدهرية ، مدينة الله المجيدة .

ملاحظات

1- *De Civitate Dei* 9:5

2- *Epître* 21 (Bonner p. 113)

3- اقتبسها Clark (pp. 177)

4- اقتبسها Clark (pp. 177)

5- *Ennarrationes in Psalmos* 121:8 (Hamman p. 203) . يخبرنا أغسطينوس كيف انه لم يتمكن من العثور على أية نسخة عن كتابات شيشرون في اسواق هيپو كلها .

6 -يعقوب 1:3 - 6 ؛ متّى 36:12 و 37

7- اقتبسها Clark (p. 181)

8- *De Trinitate* I, 3:5

9- *De Civitate Dei* 10:4

10- *Epître* 95:2

11- *De Genesi ad Literam* I, 19:39

12- *De Genesi ad Literam* I, 21:41

13- *De Civitate Dei* 11:3

14- 1 كورنثوس 12:13

15- *De Civitate Dei* 19:8

16- اقتبسها Clark (p. 168)

17- *Sermon* 51:35

18- *De Civitate Dei* 11:9

19- *De Civitate Dei* 11:6; 14:7

20- *De Civitate Dei* 17:4

21- تأثّر منهج أغسطينوس تأثراً بالغًا بأوريجانوس . و بما أن معرفة أغسطينوس ضعيفة باليونانية ، فقد قرأ كتابات هذا اللاهوتي الاسكندراني الشهير في ترجمته اللاتينية .
و الحق يُقال إن كثيراً من وعظه يبدو شاذاً للباحث الكتابي المعاصر ، و لا سيّما في عرضه المُسهب للمزامير حيث نجد تأويلات خيالية كثيرة : فكل سحابة ترمز الى نبي ، و كل جبل يشير الى رسول . و كل حية تشير الى الرذيلة ، و القمر يمثّل الكنيسة . الاشجار هي الشعوب ، و الزيت هو نعمة الله . الحيوانات المفترسة هي الامم ، و الطيور هي المؤمنون .
و قد كان معاصره يوحنا فم الذهب (345 - 407 م) مفسّراً بأمانة أكثر ، إذ ركّز اهتمامه على المعنى التاريخي الطبيعي للنص المقدس ، مستخرجًا منه الدروس العملية التي قصدها الكتّاب الأصليون .

22- في العام 476 م عمّ اخيراً الانحلال و التفسّخ الجزء الغربي من الامبراطورية (الناطق باللاتينية) ، فيما الجزء الشرقي (الناطق باليونانية) عانى تقلّبات عديدة لكنه صمد و ظل يُحكم من القسطنطينية حتى العام 1453 م .

الفصل الرابع و العشرون

مدينة الله

نشأ أغسطينوس في امبراطورية كانت في طريقها الى الانهيار . إن تقوّض عمرانها البديع يرمز الى تفسّخ وانحلال عامّين . فالفساد ، والسعي وراء المتعة بشكل أناني ، حلاّ مكان الانضباط ، العمل الدؤوب ، وذلك في أقسام المجتمع الروماني كلّه . لقد باد جيل الجنود والمهندسين المقدامين أصحاب المبادرات والمخططات الجريئة ، وأخذ محلّهم مجموعة من القوم الذين بات كل همّهم أن يحافظوا على ما بقي لئلا يخسروه . وفي الوقت نفسه راحت الحدود الشمالية للامبراطورية تقع أكثر فأكثر تحت تهديد القبائل الواقعة ما بعد نهر الدانوب . ان هؤلاء الجيران المشاغبين قد تمّ صدّهم بواسطة رماح وسيوف المرتزقة الجرمانيين ، من قوطيين (Goths) ووندالیین (Vandales) كانوا يعملون في خدمة الامبراطورية . لقد وجد هؤلاء أنفسهم يزدادون بأسًا وقوة ، قياسًا للضعف المتزايد الذي كان يعانيه أسيادهم الرومان .

لم يكن نهب روما على أيدي القائد ألارِكْ (Alaric) والقوطيين في العام 410م بالأمر غير المتوقّع تمامًا . فقد حاصرت أفواج هذه الجماعة الجَرمانية مدينة روما مرتين من قبل ، ولم يُفكّ هذان الحصاران إلاّ بعد دفع فدية هائلة . لم تدم عملية نهب روما أكثر من ثلاثة ايام . ولم يحدث من جراء ذلك من الخراب والدمار في المدينة إلاّ في حدود جاءت أقلّ بكثير ممّا كان متوقّعًا . لكن سقوط روما هذا ، كان يرمز إلى نهاية عصر . لقد شكّل ضربة صاعقة للامبراطورية بكاملها ، وللحضارة العظيمة التي مثّلتها هذه العاصمة القديمة . وحتى بعد مرور سنتين على دمار روما ، كان جيرُوم (Jérôme) لا يزال متأثّرًا كثيرًا بهذا الحدث ، بحيث لم يستطع أن يستجمع شتات أفكاره بشكل كاف يمكّنه من إملاء شروحه وتعليقاته على نبوّة حزقيال . كان من الصعب أن يصدّق الإنسان ، أنَّ مدينة مثل روما ، حكمت العالم على مدى نحو الألف سنة ، قد تصدّعت ثم نُهبت وتُركت تحت رحمة البرابرة المتوحشين الذين راحوا يجوبون شوارعها راكضين . وحتى ذلك الوقت مهما لاح في الأفق من تهديدات ومخاطر ، كانت الامبراطورية الأبدية والتي لا تُقهر ، تحافظ على نفوذها ، ما دامت المدينة لم تُنتهك حرمتها بعد . ومهما كانت الأخطار التي تهزّها وتقلقها ، يبقى احتمال ظهور بطل ما ينقذها بشكل معجزي ، وينقذ ينبوع الحضارة من أن تعبث به أيد غاشمة ، ولكن الآن تبخّرت هذه الآمال . ومع أن الحكومة أعادت تأسيس موقع جديد لها في القسطنطينية ، بقيت روما في قلوب الناس وعقولهم باعتبارها العاصمة الرمزية للامبراطورية . كان الكثير من

التاريخ يتعلّق بهذه المدينة الاسطورية القديمة ، كما ان الكثير من الغنى واليسر كان لا يزال متوافراً بين العائلات الأرستقراطية العريقة التي تتجمع أبنيتها وقصورها المترفّهة في ضواحي المدينة . هرب الكثيرون من أولئك النبلاء الى إفريقيا ، حاملين معهم الحكايات عن القوطيين وعن تعاملهم بوحشية شنيعة مع الشعب الروماني النبيل الذي لم يقاوم ، ما أدّى إلى إذلاله .

رأى كلّ من الوثنيين والمسيحيين الحكم السماوي وراء انقلاب روما ، المدينة اللامعة الشهيرة . ولكن الناس اختلفوا جدًا في شرحهم لما عملته روما او لم تعمله حتى استحقت هذا المصير . لقد عزا الوثنيون هذه الكارثة الى ابتعاد المدينة عن الإيمان بآلهتها الوثنية القديمة والتي كان كلّ من الامبراطورين غْرَاتيَان (Gratien) وثِيُودُوسيُوس (Théodosius) قد حظرا على الشعب عبادتها منذ نحو ثلاثين سَنة . واعتبر هؤلاء الوثنيوَن أنّ تلك الآلهة التي جعلت من روما مدينة عظيمة ، تخلّت عنها الآن لأنها تنكّرت لها ولعبادتها . وقد أشاروا في هذا المجال الى عشرين مرسومًا مجحفًا بحق العبادة الوثنية كانت السلطة قد أصدرتها خلال العشرين السنة الأخيرة من القرن الرابع للميلاد . لذا ، برأيهم ، استحقت المدينة أن تسقط عليها هذه اللعنة بسبب ترحيبها بديانة دخيلة بالإضافة إلى أنه تمّ تحويل بعض المعابد الوثنية الشهيرة كالپَانْثيُون (Panthéon) ، المعبد المكرّس لجميع الآلهة ، الى مواقع وأمكنة يؤمّها المسيحيون ليجتمعوا فيها . لَكن شكوى الوثنيين هذه لم تكن الأولى في نوعها ، هذا لأنه كانت قد صدرت صيحات مماثلة ضدّ المسيحيين من القرن الثاني وما بعده ، فتصدّى لها ترتوليانوس وفنّدها ، وكذلك فعل كلٌّ من كبريانوس وأرنبيوس . ولكنَّ الانفعال الذي لم يسبق له مثيل ، والذي كان يحيط بالكارثة الراهنة أدّى الى الضغط على هذه المسألة ، كما أنه أضفى عليها زخمًا جديداً .

ومن جهة أخرى ، كان بعض المسيحيين قد أنذروا بحصول هذه الكارثة ، وذلك منذ زمن بعيد . لقد رأوا في عملية إذلال روما هذه تحقيقًا للنبوءات التي تحدّث عنها المسيح نفسه في سفر الرؤيا . ففي هذا السفر الزاخر بالتصوّرات المجازية ، لا يوجد رمز أكثر وضوحًا لمسيحيي تلك الأيام من ذلك الذي يشير الى روما باستعمال رمز بابل القديمة : «المدينة العظيمة التي لها مُلك على ملوك الأرض» . وحتى التلال السبع التي بُنيت عليها روما هي مذكورة أيضًا في النبوة .[1] كانت كل من بابل وروما تتمتّعان بالقوة العظمية نفسها ، كما أن الفساد ضربهما كلتيهما ، وحيث أن الأولى دُمّرت ، فلا بُدّ إذًا من أن يكون المصير عينه من نصيب الثانية أيضًا . نظر المسيحيون الى الأيام الماضية ، ورأوا ، على مدى التاريخ ، يد اللّه القادر على كل شيء ، وديّان كل الأرض ، وهي تمتدّ لتُخضع الأثمة والكفّار . ولا بُدّ لحكم اللّه المحتوم من أن يسقط على هذه الامبراطورية الفاسدة ، المنحرفة والمنغمسة في الملذات والشهوات ، كما كان قد سقط هذا الحكم على العالم الفاسد الفاجر في أيام نوح . لقد طلب المسيحيون من الناس أن يتخلّوا عن الشر والفساد الأثيم الذي يدنّسهم ويعرّضهم للخطر في الوقت عينه ، فيتخلّصوا من الطمع الصارخ ، والمكر وأعمال الزنى والشهوة التي نشروها في كل مدينة وقرية ، وقد لوّثت ، كما يبدو ، العالم بأسره . لقد توسّلوا الى المذنبين

والخطاة ليعودوا عن ذنوبهم وخطاياهم ، ويطلبوا رحمة اللّه وعفوه قبل فوات الأوان . كان الكثيرون ، وبخاصّة الدوناتيون ، قد طلبوا من المسيحيين أن يتعدوا كثيراً عن الامبراطورية الرومانية ، التي بات واضحًا أنها وشيكة الوقوع تحت حكم اللّه العادل . كانوا يصرخون قائلين : «اخلصوا من هذا الجيل الملتوي» ، «اخرجوا من وسطهم واعتزلوا .»[2]

كانت عملية نهب روما ، بالنسبة الى الكثيرين من الأفارقة ، كقصاص ناله سكّانها المتعجرفون المتكبرون ، وهي نهاية يستحقّونها ، أكثر من كونها سوء حظ غير ملائم جاء في غير أوانه أو محلّه . فإذا كانت المدينة الأوروبية قد دينت فعلاً ، فهذا لا يهمهم في شيء . لقد حزنوا على المسيحيين الذين حوصروا وعانوا بين أسوارها المتزعزعة ، إلاّ أن مملكتهم ليست من هذا العالم ، فهم يشكرون الله دائمًا لأنهم قبلوا ملكوتًا لا يتزعزع . إن عملية إخضاع قوة ضاربة مسلحة لأخرى مثيلتها ، لم تكن تعني شعب الله بالشيء الكثير ، لأنهم «يبتغون وطنًا أفضل أي سماويًا .»[3]

لم ينظر أغسطينوس الى ذلك الأمر بهذه البساطة . هذا لأنه سبق له أن فكّر كثيراً ، حتى قبل سقوط روما ، بموضوع العلاقة بين الكنيسة العالمية والامبراطورية . فقد طلب إليه مَارسلينُوس (Marcellinus) ، مساعد الوالي المسيحي الذي كان قد ترأس المؤتمر مع الدوناتيين ، أن يدبّج رداً معقولاً على الادعاءات والمزاعم بأن إهمال البانثيون الوثني هو الذي سبّب الكارثة . إذًا كان هناك رغبة في تقديم جواب شاف عن هذا التساؤل ، لتبيان ما هو معقول في ما يتعلق بسقوط روما ، وللنظر في أسباب هذا الحدث المأساوي ؛ وهذا ما دعا أغسطينوس إلى أن يكتب رائعته العظيمة «مدينة الله» . ولكن بينما كان في طور إنجاز عمله هذا ، ابتدأت آفاق هذا الموضوع الذي كان يكتب عنه تتّسع كثيراً ، حتى شملت ليس فقط ماضي الكنيسة العالمية ، بل ايضًا مستقبلها ، وليس الكنيسة فحسب بل مستقبل الامبراطورية أيضًا . بدأ اغسطينوس عمله هذا في العام 413م ، وقد تضمّن إنجازه هذا في صيغته النهائية مجموعة وصلت الى اثنين وعشرين كتابًا ، صدرت على مراحل خلال مدة الثلاث عشرة سنة التالية . لقد باشر أغسطينوس عمله هذا في سن التاسعة والخمسين ، وانتهى منه عندما أصبح في سن الثانية والسبعين .

خصّص أغسطينوس النصف الأوّل من عمله النهائي هذا لنبذ مفهوم تعدّد الآلهة ، ولتقديم بيّنات شاملة تدور حول الإيمان باللّه الواحد الحقيقي . يبدأ أغسطينوس بالإشارة إلى أن ما حلّ بروما ، غالبًا ما حدث ايضًا في الماضي لمدن أخرى كانت جادة في عبادة آلهة الوثن . كانت مثل هذه الأصنام تعجز دائمًا عن الدفاع عن نفسها وعن عابديها ، ولا تقدر على أن تجنّبهم الهزيمة والوقوع في الأسر : إذًا ، يستخلص أغسطينوس أنه لا يجوز لنا أن نعزو سقوط روما الى استياء الآلهة الصنمية . ثم يستفيض بعد ذلك في إظهار مدى سخافة عبادة الأصنام . لكن ، كونه قام بضرب حصان ميت ، لا يقلّل ابدًا من حقيقة انه ضربه جيداً . «ان أغسطينوس ، في نقده المفصّل للوثنية وهي في طور الاحتضار ، يستحق إعجابنا أقل من ترتوليانوس الذي كان قد انهال بكل عنف على الصنمية ؛ ومع هذا فإن أغسطينوس يعالج الموضوع بشكل كامل ومن كل جوانبه ، حتى إنه لا تعود تدعو الحاجة الى زيادة أي شيء عليه .»[4]

ثم ينتقل أغسطينوس بعد ذلك الى موضوع سقوط مدينة روما نفسها ، فيشير الى القوطيين ، أولئك القوم الذين كانوا قد استفادوا من التعاليم المسيحية الى حد ما ، كيف انهم عاملوا المواطنين المقهورين برأفة واعتدال وتحفّظ ، كانت بمجملها استثنائية في تاريخ الحرب وشجونه . لقد حافظوا على حرمة الأماكن حيث كان يجتمع المسيحيون ، كما أنهم رفضوا ان يُلحقوا الأذى بأيّ من أولئك الذين التجأوا الى هذه الأمكنة لأجل الاحتماء بها . انهم بفعلهم هذا ، جنّبوا المسيحيين عناء تحمّل الكثير من المخاوف التي قاساها الوثنيون ؛ وهكذا بات بإمكان المسيحيين أن يروا في كل هذا يد اللّه الصالحة والرحيمة عليهم . أمّا المسيحيون الذين تألّموا ، فهم في معظم الأحيان ، منَ الذين حاولوا بلا جدوى أن يحافظوا على ثروتهم من النهب . علّق أغسطينوس على هذا بالقول إَنه إذا كان أولئك القوم يحبون أموالهم بهذا المقدار ، فهم يستحقون ان يتألّموا في سبيل الدفاع عنها ، وعليهم ان يكونوا سعداء ، إذا ما سمح الله بفقدان هذه الأموال ، لأن ذلك سيحررهم بالطبع من تسلّطها عليهم . «ان اولئك الذين عانوا الأمرّين من اجل الذهب ، كان ينبغي تنبيههم الى مقدار تحمّلهم من أجل المسيح ، حتّى يتعلّموا بدلاً من أن يحبوا الذهب والفضة ، ان يحبوا الرب الذي يغني ، بغناه الأبدي ، أولئك الذين يتألّمون من أجله . فالمعاناة من أجل الغنى والجاه هي في الواقع معاناة عبثية .»[5] ثم اردف أغسطينوس يقول إن المسيحيين الحقيقيين قد خسروا قليلاً من جراء خراب المدينة ، لأن ما بإمكانهم خسارته فيها هو قليل ، هذا لأن كنزهم هناك في السماء ، حيث الأمان والاطمئنان . «انهم يتمتّعون ببركاتهم الأرضية على طريقة الرحّالة والغرباء ، ولا يتعلّقون بها .»[6]

وقيل لأغسطينوس : «لكن ، هناك الكثيرون من المسيحيين الذين أُخذوا الى السبي!» فردّ عليهم بتهكّم لطيف قائلاً : «إنها ، ولا شك ، لأعظم مأساة تدعو الى الشفقة والرثاء إن كان ممكنًا نقلهم الى مكان يتعذّر عليهم أن يجدو اللّه إلههم فيه .»[7] واستمرّ أغسطينوس يقيم الدليل تلوَ الدليل من الكتاب المقدس على أن اللّه غالبًا ما بارك شعبه عندما كان مسبيًا ، كما زوّده ايضًا بأعظم العزاء وأفضله . كم أنا مسرور لأنني مسيحي ، يقول أيضًا أغسطينوس ، حتى حين أتألم من أجل ربي ، هذا لأن اللّه «حفظ لي عنده مكافأة أبدية مقابل ثباتي بأمانة تجاه آلام هذا الزمان الوقتية .»[8] ان ميراث اولاد اللّه هو ميراث سماوي وليس ميراثًا ارضيًا . وإن سقطت روما ، فإن ذلك لا يزعزع ملكوت اللّه ابداً . فقد تتفتت المدينة الأرضية وتتقوّض ، لكن المدينة السماوية تبقى خالدة الى الأبد .

إن «مدينة اللّه» هي عنوان ، كما انها موضوع رائعة أغسطينوس . لم يكن هو الذي ابتكر هذا المفهوم : لقد سبق لتيكُونيوس (Tyconius) ، وهو من أحد الدوناتيين ، ان كتب دراسة حول هذا الموضوع ، لكنّ أغسطَينوسَ طوّره وتوسّع فيه . لقد حدّد معنى هذا المصطلح بالنسبة اليه ، كما انه أسّس عليه علم لاهوت متقن وموسّع . ان مدينة اللّه برأيه ، هي المجتمع العالمي ، أو جماعة عبيد اللّه المخلصين له في كل العصور : ماضيًا ، حاضراً ، ومستقبلاً . ويخبرنا اغسطينوس أنه استنبط عنوان الكتاب واختاره من الآية في سفر المزامير : «قد قيل بك امجاد يا مدينة الله»،[9] كما انه

يقتبس ايضًا فقرات من العهد الجديد تتحدث عن المسيحي بأنه مواطن في السماء ، ومن أهل بيت الله . «لأن سيرتنا هي في السماوات» . يكتب الرسول بولس ، انكم «رعية مع القديسين وأهل بيت الله مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية .»[10] لكن مدينة الله ليست هي السماء بنفسها . فإنّ الكثيرين من مواطنيها ما زالوا يعيشون الآن على الأرض ، على الرغم من أنهم سيذهبون يومًا ما الى المكان المعدّ لهم في السماء . وعليه ، فإن «المصطلح "مدينة" بالنسبة الى اغسطينوس ، يعني ببساطة مزاملة او اتحاد مبني على روابط مشتركة ،»[11] وبشكل خاص هنا ، رابط الإيمان المشترك بالمسيح ، والخلاص المشترك . إنه يصف مدينة الله ، في أمكنة أخرى ، مستخدمًا في ذلك تعابير من نحو «بيت» أو «معبد» أو «عائلة» ، وهو يتحدّث عنها «كأرض الأماني» ، أو «أرض السرور والفرح» ، وكذلك «البيت المشرق المنير» . ان الذين ينتمون الى مدينة الله هم أولئك الذين يحبّون الله ويخدمونه . ومن جهة أخرى ، فإن المدينة الأرضية مأهولة بأولئك الذين يعيشون بموجب المقاييس الأرضية . انهم مجتمع الذين لا يطيعون الله : «هناك في الواقع مدينة واحدة يسكنها الناس الذين اختاروا أن يعيشوا بموجب مقياس الجسد ، ومدينة أخرى يسكنها مَن اختاروا العيش بموجب مقياس الروح .» «بعض الناس يعيش بموجب المقاييس البشرية ، وبعضهم الآخر يعيش بموجب المقاييس الإلهية .»[12]

ان لكلا المدينتين معنًى روحيًا غير مدرك بالحواس ؛ وفي الواقع ، إن أوّل من سكن كلاً من هاتين المدينتين كانوا من الملائكة أو الأرواح . إن الشيطان وملائكته ، الذين تمرّدوا على الله قبل خلق الانسان ، انضمّ اليهم في ما بعد في هذه المدينة الشريرة قايين قاتل أخيه هابيل . ومن ناحية أخرى ، فإن الملائكة الأبرار ، سكنوا هم ايضًا منذ البداية في مدينة الله ، حيث انضمّ اليهم شيث ونسله ، مع جميع الذين يعيشون بموجب طرق الله . فجميع الناس يولدون في المدينة الأرضية بحسب اغسطينوس ، لكن يبقى بإمكانهم أن يصبحوا اعضاء في المدينة السماوية ، إن كانوا معيّنين سابقًا لهذا الأمر . فعندما يولدون الولادة الجديدة بالإيمان بفداء المسيح ، يدخلون فورًا مدينة الله . كان اغسطينوس يعتقد ايضًا أنّ هناك عددًا قليلاً ممن ليسوا مسيحيين ، ولا يهودًا ، قد يجدون لهم مكانًا في المدينة السماوية ، أمثال سيبل (Sibylle) التي هي من أهل الأمم والتي عارضت عبادة الآلهة المزيّفة في العصور القدمية الغَابرة ، وتحدثت عن الدينونة الأخيرة ، ويبدو أنها تنبّأت عن المسيح ايضًا .[3]

إن أعضاء المدينتين يعيشون جنبًا الى جنب في هذه الدنيا . فهم يتشاركون في الطعام والسكن ، وفي جميع المتطلبات الحياتية الأخرى . قد يعملون معًا في التجارة والوظائف ، وحتى يجتمعون معًا في الكنيسة ، إلاّ أن الأعضاء في مدينة الله هم وحدهم من سيحصل في نهاية المطاف على الخلاص الأبدي . يوجد اختلاط بين هاتين المدينتين في الوقت الحاضر ، لكنهما في الواقع مبنيّتان على أساسين مختلفين : «إذًا نرى أن هاتين المدينتين قد تكوّنتا على أساس شكلين من أشكال المحبة : فالمدينة الأرضية استحدثتها محبة الذات التي أوصلت الانسان الى حدّ احتقار الله ؛

بينما المدينة السماوية ترتكز على المحبة للّه التي قد تصل الى درجة احتقار الذات . وفي الواقع ، إن المدينة الأرضية تفتخر بنفسها ، بينما المدينة السماوية تفتخر بالرب .»[14]

إذا لم يمكننا أن نعادل مدينة اللّه بالسماء ، يقول أغسطينوس ، لا نقدر من ناحية أخرى على أن نعادل أيًا منهما بكنيسة اللّه . هذا لأن مدينة اللّه وُجدت قبل تأسيس الكنيسة على الأرض وتضم بين أعضائها عددًا كبيراً من العبرانيين الذين عبدوا الله بأمانة في أزمنة العهد القديم . ثم يضيف أغسطينوس ، أن بعض أولئك الذين يشاركون في حياة الكنائس المحلية ، وفي عبادتها ، سيظهر انهم ليسوا اعضاء في مدينة اللّه قط . كما انه حتى بعض الذين اعتمدوا وأصبحوا يشاركون في العشاء الرباني ، قد لا يحظون بالخلاص من الدينونة الأخيرة في نهاية المطاف . «في وسط الكنيسة قوم اتحدوا بها في المشاركة في الأسرار المقدسة ، لكنهم لن يكون لهم نصيبٌ في المصير الأبدي المخصص للقديسين . بعض هؤلاء الناس متستّر ، وبعضهم مشهور ومعروف لأنهم لا يترددون في التذمّر على الله . . . حتى بمعيّة أعدائه المعروفين . إنهم طارةً يملأون المسارح برفقة أعداء اللّه ، وطوراً يملأون الكنائس إذ ينضمون إلينا .»[15]

ومن جهة أخرى ، هناك بعض الناس الذين لا يشاركون في الوقت الحاضر في الحياة المسيحية ، والذين يعارضون الانجيل جهاراً ، ولكنهم سيُشاهَدون اخيراً في مدينة اللّه . «يجب أن يبقى في ذهن الكنيسة ، أن بين هؤلاء الأعداء الألدّاء يختبىء مواطنوها في المستقبل ؛ وعند مواجهتها مع مثل هؤلاء ، ينبغي أن تكون طويلة البال إزاء إزعاجهم لها لأنهم بالنتيجة سيعترفون بإيمانهم بالمسيح .»[16] إن هؤلا الذين من خارج ، لم يتوبوا الى الرب يسوع بعد ، ولكن الله سبق له فعرف انهم ذات يوم سيفعلون ذلك حتمًا . الله وحده يعلم من هم المعيّنون للخلاص ، وهو يعرف وحده من الذي سيسكن في مدينة اللّه الى الأبد . «في الحقيقة ، إن هاتين المدينتين هما متناسجتان ومتمازجتان في هذا العصر ، في انتظار الانفصال في يوم الدينونة العظيم .»[17]

كيف ينبغي للمسيحي أن يتصرّف مع اولئك الذين يحبّون الشر أكثر من الخير؟ «إن الإنسان الذي يعيش بموجب المقاييس التي وضعها اللّه وليس بموجب المقاييس البشرية ، يجب عليه أن يحبّ الخير وبالتالي يكره الشر . . . عليه ألاّ يكره الإنسان بسبب خطئه ، وألاّ يحب الأخطاء بسبب حبّه للإنسان . بل عليه أن يكره الخطأ لكن يحب الإنسان . وعندما يُعالج الخطأ ، عندئذ لا يبقى أمامه إلاّ ما ينبغي له أن يحبّه ، إذ لا يوجد بعد أي شيء مـمّا يجب أن يكرهه .»[18]

تتبّع اغسطينوس تطوّر كلٍّ من المجتمع العالمي والمجتمع السماوي في صفحات الكتاب المقدس . ينطلق الاتجاهان من قايين القاتل ، وهابيل البار ، لكي يسيرا جنبًا الى جنب عبر الأجيال المتتالية . فالكاتب يفارق مثلاً بين نوح البار الذي وجد مع سبعة من أفراد عائلته الحماية الأكيدة لهم في داخل الفلك ، وبين جمهور الأشرار الذين هلكوا من جراء الطوفان . كما ان ابراهيم ينفصل بإيمانه المتواضع عن أولئك المدّعين الذين قاموا ببناء بابل . وبعد هذا ، ينتقل اغسطينوس ليتتبّع

مصير الأبرار ومصير الفجار ، وذلك في ضوء تاريخ كلّ من الامبراطوريتين اليونانية والرومانية . إنه يتوقّف بشكل دوري بين الفينة والأخرى لمعالجة مسائل أخرى تبرز أمامه ، وهو لا يترك أية عقدة في الخيط من دون أن يحاول ، على الأقلّ ، أن يفكّها ويحلّ رباطها .

وبعد أن أسّس اغسطينوس إطار عمله وبنيته ، استنتج منه الجواب المسيحي الشافي عن المشاكل الدينية والفلسفية والسياسية لهذا العالم وحكومته ، وذلك بتتبّع خيوط الفكر الذي كان رائجًا في الكنائس في عصره ، مع الفكر الذي كان المجتمع قد تسلّمه من الأجيال السالفة . كان لكتاب «مدينة الله» في أيام أغسطينوس تأثير أقوى بكثير من كتاب «الاعترافات» الذي يُقرأ بشكل أوسع في أيامنا الحاضرة . كان هذا الكتاب أشبه ببيان رسمي مسيحي حول مستقبل الجنس البشري ؛ بيان إيجابي جدًا يعبّر عن الثقة القوية الثابتة بأنه من الممكن ، حتى في تلك الأزمنة الحادة التي لم يسبق لها مثيل ، إعداد دستور مسيحي ، ليس لازدهار روما ، فحسب ، بل لخير العالم بأسره أيضًا .

في الحقيقة ، لم يكن إذلال تلك المدينة القديمة ، يعني نهاية الامبراطورية إلى الأبد : فقد بقي الجزء الأكبر من الامبراطورية سليمًا ولم يمسّه أي أذى ، وهو يُحكم كما في السابق من القسطنطينية ، اسطمبول . كان اغسطينوس لا يزال ينظر الى الامبراطورية نفسها بصفتها الأداة التي اختارها اللّه لنشر المسيحية في جميع أرجاء العالم ، وهي قادرة على الاستمرار لوقت طويل جدًا ، ولربما إلى الأبد . وحتى لو حدث وتحطمت بنية الامبراطورية السياسية ، فإن اتحادًا كونفدراليًا سلميًا يضمّ دويلات وممالك مسيحية صغيرة ، يكفي لحماية مستقبل السلام والازدهار للحضارتين اللاتينية واليونانية . وبعيدًا عن الإنذار من الفساد والتفسخ والانهيار ، نادى اغسطينوس بجرأة وشجاعة ببداية العصر المسيحي العظيم . لقد دافع اغسطينوس عن فكرة ان كلاً من المسيحية والدولة يمكنهما الاستفادة من الخير عند الطرف الآخر ، ومن الخير الذي قد يأتيهما من أية جهة أخرى . لربما بات الشيء الوحيد الذي لا يمكن للكنيسة أن تقبله من روما ، هو ديانتها القديمة التي تدين بعدّة آلهة ؛ لكن الآلهة القديمة كانت في انحدار على كل حال .

ان المشكلة العملية التي كان يتوجب على اغسطينوس أن يواجهها ، هي في ما يختصّ بدور الكنيسة الروحية في الامبراطورية المادية ، شروط العلاقة بين المدينة السماوية والمدينة الأرضية . لم يتوقّع اغسطينوس أي صراع بين هاتين المدينتين ، بل على العكس إذ كان عليهما أن يعملا معًا . كان اغسطينوس ينتظر أن تتحوّل الحضارة الرومانية تدريجيًا لكي تصبح مسيحية . فاعتبر أنّ العالم سيستفيد من ملح الكنيسة ونورها ، تمامًا كما أن الكنيسة ستستفيد بدورها من معرفة هذا العالم ومن خبراته . فأكّد أنه بإمكان المسيحيين أن يستفيدوا من اكتشافات العالم - العلوم والفلسفة ، ومبادئ الهندسة ، والتاريخ والجغرافية ومبادئ الحكمة البشرية وعلم النفس - تمامًا كما يجب على العالم أن يستفيد من تعليم الكنيسة وأسرارها المقدسة والاخلاقيات فيها . يتحتّم على الكنيسة أن تطيع الامبراطور الى أقصى حدود القوانين المدنية المرعية في الامبراطورية ؛ والامبراطور (الذي ينبغي

دائمًا أن يكون مسيحيًا) عليه بالمقابل أن يلتزم الخضوع لتعاليم الكنيسة وإرشادها في القضايا الأخلاقية والروحية . وهكذا سيكون الاثنان شريكين في نظام عالمي جديد .

وأغسطينوس ، في نظرته هذه الى الأمور ، يُظهر بكل وضوح ميوله الرومانية . كان والده موظفًا رسميًا في الحكومة ، وهكذا نشأ الصبي في عائلة تنظر الى الامبراطورية نظرة احترام وإكبار . كان يتكلّم اللاتينية ، وقد تعلّم وتثقّف بموجب الأسلوب والطريقة الرومانية ، كما أنه باشر مهنته في مجالات علم البيان والبلاغة ، هذه الوظيفة الرومانية البحتة التي كانت السبيل الأكيد لتبوّء المراكز العالية في إدارة الامبراطورية . كان يفكّر في هذه الأمور والقضايا كمواطن روماني . «وحتى عندما قادته الفلسفة الى اليونانيين ، وقاده علم اللاهوت الى العبرانيين ، كان غرضه ان تكون فائدة كليهما لمصلحة روما .»[19]

إلاّ أن اغسطينوس أظهر في أواخر أيام حياته ، وبشكل متزايد ، علامات تدل على ان الامبراطورية قد خيّبت أمله . هذا لأن تلك المؤسسة العالمية الضخمة بات يحكمها شلّة قليلة من الرجال المتوحّشين الحقيرين والفاسدين . «والغريب في الأمر أنه فَقَدَ حماسته في ما يتعلّق بأمر التحالف بين الامبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية ، وذلك في الوقت عينه الذي كانت قد رُسّخت هذه المسألة . . . إنّ نظّار الكنائس في الولايات الأخرى ربما كان تأثرهم بالاهتداء الروحي المفاجئ للأباطرة ليس في محله ، لكن أغسطينوس كان يستطيع مخاطبة أحد هؤلاء النظّار بالقول إن مثل هذا الأمر لا يعني قط أن البشارة بالانجيل قد وصلت "الى أقصى الأرض" . . . ولا حتى الجماعات المسيحية كانت قد استفادت بشكل واضح من معاهدتها مع الدولة . وبعيداً عن كون هذه المعاهدة هي معاهدة إصلاحية ، فقد كانت مصدراً «لخطر ولتجربة أعظم .»[20] كان يتطلّع بإيجابية وبتفاؤل الى مجموعة من الدويلات المسيحية ، قد تنبثق ، إذا دعت الحاجة ، من رماد الامبراطورية المنهوكة . لكنّ رجاءه أصبح أكثر فأكثر بالله ، وليس بالإنسان .

في الواقع ، لم تكن آراء أغسطينوس هي الوحيدة في مجال تقويم الوضع السياسي . فآخرون كانوا أقلّ منه اقتناعًا بأن عند الرومان خيراً حقيقيًا ذا قيمة ليقدّموه لهم . لقد أُعجب المسيحيون بما يتمتّع به الرومان من براعة ومهارة هندسية وكفاءات تنظيمية وإدارية تحوّلت على أساسها المخططات والمشاريع الطموحة في البلاد الى حقائق والى واقع عملي ، وذلك بشقّ الطرق التي تصل الى مدنهم ، فضلاً عن توريد الماء الى الدُور والمساكن . إلاّ أنهم اشمأزّوا من الفجور الوقح في المجتمع الروماني ناهيك من قسوته ووحشيته ، حتى إنهم لم يعودوا يرغبون في أن يشاركوا فيه إلاّ بالقدر الذي تقتضيه مقوّمات معيشتهم . لم يكونوا يتوقون توقًا شديداً الى تحقيق الامبراطورية «المسيحية» الوهمية ، ولا كانوا يعتقدون أن العالم بجملته سيصبح «مسيحيًا» ، لأنّ كلمة الله لا تحتوي على أي وعد من هذا القبيل . كل ما كان بوسع الأباطرة فعله هو إصدار «قوانين مسيحية» ، لكنهم لم يكونوا ليصنعوا أناسًا مسيحيين . كانت غالبية الشعب لا تزال غير مؤمنة وهالكة ، بلا رجاء ، و«بلا إله في العالم .»[21] وحتى أغسطينوس نفسه ، في معرض كلامه

عن سكان روما عند سقوطها ، قال : «ان الشهوة المشتعلة في قلوبهم كانت أكثر فتكًا من اللهب الذي أكل بيوتهم .»[22] لقد أُخبر مسيحيو القرن الأول للميلاد في الكتاب المقدس ، كيف عليهم أن يتعاملوا مع المجتمع حيث يعيشون : «لا تحبّوا العالم ولا الأشياء التي في العالم . . . لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظّم المعيشة ليس من الآب بل من العالم . والعالم يمضي وشهوته وأمّا الذي يصنع مشيئة اللّه فيثبت الى الأبد .»[23]

غالبًا ما استشهد الدوناتيون بمقاطع كهذه من الكتاب المقدس . لم يجدوا أي سبيل للمجتمع المسيحي للدخول في أي نوع من أنواع التعاهدات أو المواثيق مع الناس الذين لا يعرفون الله ولا يطيعونه . تقول كلمة الله : «لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين . لأنه أية خلطة للبرّ والاثم . وأية شركة للنور مع الظلمة ، وأي اتفاق للمسيح مع بليعال . وأيّ نصيب للمؤمن مع غيَر المؤمن . وأيّة موافقة لهيكل اللّه مع الأوثان .»[24] قد تكون الأشكال الخارجية للعبادة الوثنية قد ذبلت وذوت ، ولكن تراثها الأخلاقي ظلّ على حاله ولم يتغيّر في مجتمع كان قد بُني على ذلك الأساس الفاسد . «هم من العالم . من أجل ذلك يتكلّمون من العالم والعالم يسمع لهم . نحن من اللّه فمَن يعرف اللّه يسمع لنا . . . من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال .»[25] لم تكن الامبراطورية الرومانية كيسًا من الدقيق يمكن للكنيسة أن تأخذ منه ما هو جيّد وتتخلّى عن الرديء ، بل كانت كيسًا من الغبار . ولم يكن الطحّان الذي قام بعملية الطحن إلاّ إبليس نفسه . «نعلم أننا نحن من اللّه والعالم كلّه قد وُضع في الشرير .»[26]

كان لأغسطينوس منتقدون آنذاك ، كما هو الحال في أيامنا أيضًا . ولكن لم يستطع أحد أن يكتب كما كتب أغسطينوس . كان كتاب «مدينة الله» موضوع الدراسة المفضّلة عند الامبراطور الاوروبي شَارْلُمَان (Charlemagne) في أواخر القرن الثامن . لقد وجد فيه دعمًا وسندًا لمفهوم «العالم المسيحي» (Chrétienté) ، الفكرة التي جاءت بمجملها لتهيمن على مفاهيم العصور الوسطى للعالم . فالعالم المسيحي يشكّل ذلك الجزء من الكرة الأرضية حيث يوجد قادة مسيحيون من المفروض أن يدعموا القيَم والمفاهيم المسيحية – «المدينة اللّه» على الأرض . كان الملوك المسيحيون في القرون الوسطى يعتبرون أنفسهم ورثة ، ليس للتقاليد والأعراف الكتابية فحسب ، بل للثقافة اللاتينية واليونانية أيضًا . حاول أغسطينوس أن يجمع بين أفضل المظاهر لكل منهما في صيغة شاملة للحضارة المسيحية . وقد كان هناك أناس آخرون من ادّعوا أنّه لا يمكن الجمع بينهما . لكنهم كانوا مجرّد أصوات صارخة في البرية . ومع مرور الزمن ، اختفت أصواتهم وتلاشت ؛ إلى أن بزغ فجر الإصلاح الديني على المسرح الأوروبي ، بعد ألف سنة من ذلك التاريخ ، وحطّم الى الأبد الوهم المضجر والمخادع بشأن فكرة «العالم المسيحي» الكاثوليكي بجيوشه البشعة المحاربة تحت راية الصليب ، ومحاكم التفتيش المتكررة ، والحروب الصليبية التي شُنّت على «الملحدين» و«الاتراك» و«الهراطقة» . لم يكن أغسطينوس مسؤولاً ، بأيّ حال من الأحوال ، عن هذا «الافراط» الذي نتج من مفهومه ، لكنه يبقى هو صاحب هذه الفكرة في الأساس .

لعلّ كتاب «مدينة اللّه» هو البحث الديني الأكثر شهرة على الإطلاق . لقد لخّص الماضي وقدّم المستقبل ، في الوقت الذي كان العالم يشهد تحوّلات خطرة وهامة . «انه من الكتب النادرة التي تشكّل بحدّ ذاتها حدثًا تاريخيًا هامًا .»[27] إنه يكمّل سلسلة كتب «الأبولوجيا» (Apologies) العظيمة التي كُتبت باللغة اللاتينية دفاعًا عن الإيمان المسيحي ، ولدعمه في وجه التهجمات الوثنية . ومن هذا الكتاب أيضًا نتجت المواضيع اللاهوتية التي باتت مدار بحث عبر العصور الوسطى ، كما أن حججه لا تزال تحثّ الباحثين على النقاش الحاد في الأوساط اللاهوتية حتى في أيامنا الحاضرة .

لقد كان لكتابات أغسطينوس الأخرى أثر ونفوذ أقلّ ، إلاّ أنها قد تكون ذات جاذبية شخصية أكثر . ففي بحثه تحت العنوان «عن السعادة» *(De Beata Vita)* يقدّم أغسطينوس مثلاً ذا مغزى خلاصي . انه يرسم صورة أخّاذة لميناء واقع على «أرض الأماني» على الجهة البعيدة من محيط واسع . كان هناك سبيلان لبلوغ اليابسة إلى ذلك المكان الممتع البهيج . أحدهما هو سبيل الفلسفة أو الأفكار المنطقية التي توصل بعضهم الى المكان الأمين من المرفإ ، عند التحادث مع المتعلّمين والحكماء أو قراءة كتبهم ؛ ولكنّ هذا الطريق هو متاح فقط للأقلية المفكّرة والعقلانية . ثم هناك السبيل الآخر للوصول الى هذا المرفإ : انه طريق العناية الإلهية التي تستعمل عواصف الشدّة والمحن التي تهبّ علينا وتوجّهنا الى شاطئ الأمان ، حتى عندما نكافح ونناضل في أفكارنا الحمقاء الجاهلة للهروب الى الاتجاه المعاكس . وفي الواقع ، ان الذين يبدو عليهم أنهم أكثر الناس نجاحًا في الحياة ، يحتاجون الى أعنف العواصف والزوابع تهبّ عليهم بقوة لكي يتحوّلوا عن الوجهة التي كانوا قد خطّطوا لها لأنفسهم ، الى الطريق الذي أعدّه اللّه . فمنهم من يصل الى المرفإ من خلال هذا الطريق ، و آخرون من خلال ذاك . وبعضهم الآخر يبلغون إليه جزئيًا بواسطة أفكارهم المعقولة المنطقية من ناحية ، ومن خلال شدة أو محنة مصدرها العناية الإلهية من ناحية أخرى .

لكن هناك خطر عظيم يهدّد جميع الذين يقتربون من المرفإ : فعند مدخله جزيرة غريبة تلوح عبر البحر . وفي هذه الجزيرة من الإغراء ما يجعلها تجذب إليها ، ليس أولئك الذين يقتربون من المرفإ فحسب ، بل حتى أيضًا بعضًا من الذين سبق لهم أن دخلوا المرفأ أو التجأوا إليه . يتباهى سكان الجزيرة المغرورون بكون حَرَمهم المقدّس الذي يلفّه البحر من كل جانب هو أسمى وأعلى مقامًا من المرفإ نفسه ، مع أنه محاطٌ بالصخور الضخمة . وإذ تجتاز السفن في المكان ، يقوم سكّان الجزيرة بتوجيهها الى المرفإ ، لكنهم يزدرون بأمر اتّباعهم والتمثّل بهم ، وذلك الى أن يحين اليوم الذي فيه يكتشفون ، ولكن بعد فوات الأوان ، أنهم قد قُطعوا من «أرض الأماني» ، ولم يعودوا قادرين على أن يصلوا اليها حتى ولو رغبوا في ذلك . وماذا عن أولئك الذين يتجنبون الجزيرة وينجحون في بلوغ المرفإ؟ فبعضهم يدخل ويجد راحة لنفسه ، ولكن بعضهم الآخر يُخفق في النهاية في أن يقيم هناك .

ان التخيّل واضح ، وهو يصوّر الرحلة التي تقود الى الأمان الأبدي . ان سكان الجزيرة هم الفلاسفة من أتباع الافلاطونية المحدثة (Néoplatonistes) المكتفون بما هم عليه ، والذين مهّدوا السبيل أمام أغسطينوس وأمثاله من معاصريه للبحث عن الحقيقة ، ولكنهم فشلوا هم أنفسهم في

إدراكها . ليس من السهل إيجاد المرفإ ولا يمكن لأي كان أن يصل اليه ؛ كما أنّ بعضًا من هؤلاء قد يدير ظهره ويعود عنه . وهكذا أيضًا سيُخفق الكثيرون في الحصول على الخلاص ، كما أن بعضًا من الذين بدا عليهم أنهم مسيحيون سيهلكون في النهاية .

ليس من الصعب أن نتصوّر كيف استوحى أغسطينوس قصّته الرمزية من خلال الرحلة التي قام بها هو شخصيًا الى المرفإ ، كما يصورها لنا في كتابه «الاعترافات» . كانت جميع الكتابات التي سبقت عن سيَر الحياة ، تهدف الى تخليد كلمات الرجالات العظام ومآثرهم وبالأخصّ مشاهير الفلاسفة والجنَود . وخارجًا عن نطاق الكتاب المقدس نفسه ، كانت سيرة أغسطينوس الذاتية ، هي الكتاب الأول في تاريخ العالم الذي يعتبر سياحة النفس البشرية أهم من فتح إقليم ، أو من إيضاح نظام فلسفي وشرحه . لكنه ، في تحليل حالته الخاصة ، كان أغسطينوس يتناول مسائل تهمّ الجنس البشري بأسره . لم يكن غرض أغسطينوس أن يؤسس لنفسه سمعة وشهرة ، أو أن يستقطب حوله معجبين ؛ بل على العكس من ذلك ، إذ سعى أولاً ليبيّن حالته ووضعه الميؤوس منه ، ثم كيف وصلت اليه نعمة اللّه وخلّصته . لم يتردد أغسطينوس قط في أن يشير الى أخطائه ، كما أنه لم يظهر حسناته إلاّ نادراً . كان في وصفه لوضعه البائس ، يصوّر في الواقع حالة كل واحد منّا . كما انه في حديثه عن رحلته الشخصية التي قادته الى الخلاص ، كان يشجّع قرّاءَه على أن يحذوا حذوه .

تبرز أيضًا استعارة الرحلة في أحد كتبه الأخرى تحت العنوان «ضدّ الأكاديميين» *(Contra Academicos)* . انه يروي لنا في هذا الكتاب قصة رجلين مسافرين يتّجهان الى المكان عينه ، أحدهما يبدو عليه أنه ساذج وسريع التصديق ، بينما الآخر لا يصدّق الأمور بسهولة . وعند وصولهما الى مفترق طرق ، إذ بهما يلتقيان راعيًا وضيعًا ، فيقبل أحدهما توجيهاته على الفور ومن دون تردّد ، وهكذا ينطلق في الطريق المحدّد له . في هذا الوقت يستهزئ الآخر بسذاجة هذا الانسان من خلال موقعه ، حيث وقف منتظراً ومتفكراً في نفسه باعتداد إذ هو ليس من أولئك الذين يسهل خداعهم . وبعد أن طال انتظاره حتى إنه أصبح مضجراً ومملاً ، إذا برجل مهذب نبيل يمرّ به ممتطيًا صهوة جواده . جاءت توجيهاته مخالفة لتلك التي كان قد أعطاها الراعي ، كما أن صاحبنا لم يقتنع تمامًا بصحّتها ، إلاّ أنه قرّر أن يسير بموجبها على الرغم من كل هذا . لكنه سرعان ما تاه في الغابة ، وفَقَدَ كل أمل بالنجاة ، ثم وجد نفسه يجول ضائعًا فوق الجبال التي لم يطرقها أحد . وبالطبع ، كان ذلك الرجل المهذب النبيل دجّالاً محتالاً . وفي هذه الأثناء ، كان زميله يجلس قانعًا راضيًا في مكانه المقصود . ومغزى هذه القصة هو أن حتى الفلاسفة أنفسهم ، هؤلاء الذين يدّعون التشكيك في كل الأشياء ، يحتاجون في آخر المطاف إلى أن يتبعوا شخصًا ما أو شيئًا ما . ربما بفعلهم هذا يعرّضون أنفسهم للانحراف وراء الضلال ، أكثر من الذي قَبل منذ البداية قيادة العناية الإلهية له . فإذا ما أرسل اللّه الينا راعيًا في الوقت الذي نحن في حاجة الى من يوجّهنا ، علينا ألاّ نتصرّف بجهل ، إذ نحتقره ، ونصرّ بكل اختيال على اتّباع شخص آخر يبدو عليه أنه يفوقه في المهابة . إن هذا الراعي هو بالطبع الرب يسوع المسيح نفسه .

ملاحظات

1- رؤيا 17:18 ,9
2- اعمال 40:2 ؛ 2 كورنثوس 17:6
3- يوحنا 36:18 ؛ عبرانيين 28:12 ;16:11
4- Lloyd p. 233
5- *De Civitate Dei* 1:10
6- *De Civitate Dei* 1:29
7- *De Civitate Dei* 1:14
8- *De Civitate Dei* 1:29
9- المزمور 3:87
10- فيلبي 20:3 ؛ أفسس 19:2 و 20
11- O'Meara, *City of God* p. xxx
12- *De Civitate Dei* 14:1,4
13- *De Civitate Dei* 18:23
14- *De Civitate Dei* 14:28
15- *De Civitate Dei* 1:35
16- *De Civitate Dei* 1:35
17- *De Civitate Dei* 1:35
18- *De Civitate Dei* 14:6
19- O'Meara, *City of God* p. xxiii
20- Brown pp. 337-338 . كان أغسطينوس قد صُعق لنبإ إعدام مارسيلينوس (الذي يبدو أنه كان بريئًا عندما قضى ضحية مؤامرة سياسية) ، على الرغم من المحاولات المخلصة التي بذلتها الكنيسة الكاثوليكية للتشفّع فيه لدى السلطات . وقد وقع ذلك بعد مضي ثلاث سنوات فقط على المؤتمر الذي كان قد ترأسه في العام 411 م .
21- أفسس 12:2
22- *De Civitate Dei* 2:2
23- 1 يوحنا 15:2 - 17
24- 2 كورنثوس 14:6 - 16
25- 1 يوحنا 5:4 و 6
26- 1 يوحنا 19:5
27- Lloyd p. 233

ورد بحث عن كتاب مدينة الله بقلم O'Meara في مقدمة ترجمته للكتاب *City of God*
راجع أيضًا Clark pp. 154-166; Lloyd pp. 224-235
Brown chap. 27; Chadwick pp. 96-106

الفصل الخامس و العشرون

الكنيسة في هيپو

كان يوم الأحد يومًا مميّزًا . و بموجب أمر أصدره قسطنطين في العام 321 م ، أصبح اليوم الأول من كل أسبوع عطلة عامة و يوم راحة ؛ و فلاحو البادية وحدهم ظلّوا يعملون في حقولهم . فما إن أشرقت الشمس حتى بدأ المسيحيون في هيپو بالتوجّه الى الباسيليكا (basilique) ، اي قاعة الاجتماعات ، حيث أخذوا أماكنهم ، فوقف الرجال الى اليمين و النساء الى اليسار و هم ينتظرون بترقّب وسط الهمسات و الهمهمات .

كانت القاعة بحدّ ذاتها كناية عن بناء بسيط منفرد و لا يثير الانتباه ، يقع في شارع جانبي . كان سقفها مدعومًا بصفّين من العواميد ، كما أنها كانت مجهّزة بستائر و بمصابيح زيتية . لكنها كانت تخلو من الصور و الرسوم و التماثيل ، أو من أي شكل آخر من أشكال الزينة . كانت القاعة خلال الاجتماع الرئيسي في الاسبوع تغصّ بالحاضرين ، الذين كان من بينهم بعض الوثنيين ، و اليهود ، أو أي انسان آخر يودّ ان يستمع الى الانجيل . كان ناظر الكنيسة ينتظر في غرفة جانبية ، جاهزاً و مستعداً لتعزية أي إنسان يرغب في مقابلته ، او لتقديم المشورة له ، و ذلك قبل بداية الاجتماع . ثم قام الناظر و دخل القاعة الرئيسة و جلس على كرسي صخري كبير مخصّص له ، يقع في المقدمة و في مواجهة جماعة المصلّين . و ما إن بدأ الاجتماع ، حتى ساد السكون في المكان . و من وصل متأخراً تسلّل ليجلس في الأماكن الخلفية . كان الأطفال يتململون ويتمرّغون عند أقدام ذويهم ، في وقت كانت جميع العيون تتّجه نحو الشخص الموجود في المقدمة . أمّا اولئك الذين لم يكن بوسعهم أن يروا جيداً ، فكانوا يقفون على رؤوس أصابعهم او ينتقلون الى مواقع أفضل .

ثم نهض الناظر و حيّى الجماعة بحرارة مرحّبًا بهم في الاجتماع . و بعد ذلك طلب الى أحد القرّاء او المدبرين أن يقرأ المقطع المقرّر من الكتاب المقدس - العهد القديم . و ما إن انتهى من القراءة ، حتى عيّن الناظر أحد المزامير . عندئذ قام أحدهم ، كان قد تمّ تكليفه من قبل ، وأنشد كل سطر من سطور المزمور بنغمة أنفية ، على أن تقوم جماعة المصلّين بترتيل قرار مكرّر بسيط بعد نهاية كل سطر . واحيانًا كانت تُطوّل الـ « يا » الأخيرة من كلمة هللويا ، و تُرنّم بفرح و سرور كأنها نشيد خال من الكلمات - انها عبادة الذات الإلهية في سرّها و في جوهرها غير المُعلَم - و هي تسمو على كل الكلمات و التعابير . ثم يقرأ أحد المدبرين مقطعًا من رسائل العهد

الجديد ، يلي ذلك ترنيم مزمور آخر . و أخيراً تُقرأ بعض الآيات من أحد الأناجيل ، و غالبًا ما يُقرأ انجيل متّى ، قبل أن يبدأ اغسطينوس عظته .

كانت عظة اغسطينوس تستغرق ما بين النصف الساعة و الساعة الواحدة ، ما عدا في ايام الاحتفالات الخاصة حيث لم تكن الموعظة تتعدّى مدة العشر دقائق . و في بعض الأحيان ، عندما يكون الموضوع هامًا ، و إذ يلمس تجاوب الجماعة معه ، كان اغسطينوس يستمر في الوعظ على مدى ساعتين . كان اغسطينوس واعظًا فذًا فريداً لا يُضارَع . كان صوته يعلو و ينخفض تارةً مقنعًا ، وطوراً متسائلاً بإلحاح . كان صوت اغسطينوس و هو يعلن حقّ اللّه يدوي كالرعد ، كما أنه كان من حين الى آخر يتوقّف عن الكلام هنيهة ، تاركًا كلماته الأخيرة معلّقة في الهواء ، وفاسحًا المجال امام الرب نفسه ليتكلم ، خلال فترة الصمت ، الى قلوب المستمعين الغيورين والمتلهّفين . لم يكن الجمهور يدركون تمامًا كل ما كان يخاطبهم به اغسطينوس ، إلاّ انهم لم يخفقوا قط في تلمّس رهبة تلك المكتومات التي كان أغسطينوس يبسطها لهم و روعتها . و كانوا يشعرون في بعض الأحيان بأنهم اقتيدوا صعوداً الى الجبل المقدس ، و في محضر الرب نفسه . لقد كانوا يشعرون ، كما شعر بطرس على جبل التجلّي حين قال : « جيّد يا رب أن نكون ههنا .»[1]

و بعد انتهاء الموعظة ، انصرف المحتشدون من المكان ما عدا المؤمنين المعتمدين وحدهم . فاجتمع هؤلاء حول طاولة موضوعة إلى جانب القاعة و مغطّاة بقماشة بيضاء . و بعد رفع الصلاة ، وضع العابدون تقدماتهم على الطاولة : خبز و خمر ، و نادراً المال ؛ كما ان العنب والزيت و الحبوب ، كانت من العطايا المقبولة ايضًا . ثم صلّى الناظر ثانية ، و بعد ذلك حمل المدبرون الى اعضاء الكنيسة الخبز والخمر المخفف ليتشاركوا جميعهم في إحياء ذكرى مخلّصهم . ثم يتمّ جمع ما تمّ تقديمه من الطعام ليُصار الي توزيعه على الفقراء . كان هذا ، الاحتفال الاسبوعي العظيم لجماعة المؤمنين المسيحيين ، ذلك لأن فريضة مائدة الرب هذه ، كانت محور حياة الكنيسة و عبادتها .

يأتي عيد القيامة مرة واحدة في السنة فقط ، و الاحتفال بهذا العيد ، كان أعظم الاحتفالات ، وكان يدوم عدّة أسابيع . و كان الكثيرون يختارون مثل هذه المناسبة ليعتمدوا . كما أنّ آخرين من الذين اعترفوا بخطاياهم الكبيرة ، كانوا يأتون في هذا الموسم طالبين المغفرة و العودة الى شركة الكنيسة . كان المسيحيون يصومون خلال ساعات النهار ، و ذلك على مدى الأربعين يومًا التي تسبق عيد القيامة . كما أنهم كانوا يصلّون و يدرسون عقائد الإيمان . و خلال هذه الفترة ، كان أغسطينوس يعظهم عدّة مرّات في الاسبوع . كان يتحدّث مباشرة الى اولئك الذين يرغبون في الاعتماد محاولاً في الوقت عينه ان يستثني منهم من كانت بواعثهم مريبة و تدعو الى الشك . و كان يفرض على الراغبين في المعمودية أن يتجنّبوا نجاسات العالم الوثني و ما يحتويه من ممارسات فاسدة و ألاّ يشتركوا في الشرور التي تُرتكب في محيط المسارح و الميادين العامة . كذلك كانوا في أثناء هذه الأسابيع ، يستظهرون قانون الإيمان واعدين بتطبيقه في حياتهم بكل إخلاص .

أمّا في الاسبوع الاخير ، فكانوا يدرسون معًا بالتفصيل بنود الصلاة الربانية جميعها ، مع التشديد بشكل خاص على الطلبة « و اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن ايضًا للمذنبين الينا. » [2] و مع اقتراب حضور أحد القيامة ، كانت حرارة الإيمان تشتدّ اكثر فأكثر . كان المؤمنون ينقطعون عن الصوم في الخميس الذي يسبق يوم القيامة مباشرة ، كما أن المرشحين للمعمودية كانوا يقصدون الحمامات العامة استعداداً لليوم العظيم . و في يومي الجمعة و السبت كانت الكنيسة بجملتها تصلّي وتصوم معهم .

و مع حلول مساء يوم السبت ، كانت تباشير الليل تلوّح بحلول أحد القيامة ، و ببدء الاحتفالات . فلبس المسيحيون أفضل ثيابهم ، و تجمّعوا في الباسيليكا المضاءة بعدد لا يُحصى من المصابيح . ثم قُرأ في الكتاب المقدّس بدءاً من الخلق ، ثم عن آدم و حواء في الجنة ، فحادثة عبور البحر الاحمر ، و أنشودة مريم ، و قصّة يونان ، و هلمّ جرّا حتى الوصول في نهاية المطاف الى موت المخلّص و قيامته . و من حين الى آخر ، كان يقطع ذلك فترات تُخصص لترتيل المزامير والترانيم التي تقوم بها الجماعة . ثم يلي ذلك ، الموعظة التي قدّمها أغسطينوس ، و التي فيها أثار انتباه العابدين الى الأحداث الكتابية في قديم الزمان الى الوقت الحاضر . و اخيراً ، توجّه في كلامه الى اولئك الذين يرغبون في ان يعتمدوا . عندئذ قام كل واحد منهم بدوره ، و اعترف جهاراً بإيمانه بالمسيح مصرّحًا عن رفضه للشيطان و لكل أباطيله . و بعد هذا ، كانوا ينتقلون جميعهم في موكب واحد الى بيت المعمودية الكائن في هيبو في بناية اخرى قريبة . و في أثناء فترة انتظارهم هناك ، كانوا يرنّمون كلمات المزمور 42 الذي مطلعه : « كما يشتاق الإيّل الى جداول المياه ، هكذا تشتاق نفسي اليك يا اللّه . »

كان حوض المعمودية يُشيّد من الحجارة بشكل مثمّن الزوايا ؛ كانت أرضه و جوانبه ملبّسة بالفسيفساء ، و على جانبيه درجات تؤدّي الى الماء الدافىء . خطا المعتمد الأول بحذر و تؤدة الى الحوض ، فاستقبله الناظر هناك بوقار ، و صمت للحظات ، ثم سأله : « هل تؤمن بالآب ؟ » فأجابه : « نعم أنا أومن » ، عندئذ صبّ الناظر على رأسه كأسًا من الماء و هو ينطق بالكلمات التالية : « أنا أعمّدك الآن باسم الآب » ؛ ثم سأله ثانية : « هل تؤمن بالابن ؟ » فأجاب المعتمد : « نعم أنا أومن ! » و مرّة ثانية صبّ الناظر الماء على رأسه و هو يقول : « أنا أعمّدك الآن باسم الابن » ؛ ثم سأله ثالثة : « هل تؤمن بالروح القدس ؟ » فأجاب : « نعم أنا أومن . » و مرّة ثالثة صبّ الناظر الماء على رأس المعتمد و هو يقول : « أنا اعمّدك الآن باسم الروح القدس .» و إذ خرج المعتمد الأول من الماء أخذ الثاني محلّه .

ثم حصل كل مسيحي اعتمد لتوّه ، على رداء من الكتّان الابيض . و وقف المتعمدون في صفّ واحد فرسم الناظر إشارة الصليب على جباههم بواسطة الماء الموجود في حوض المعمودية ، من ثمّ وضع عليهم كلتا يديه ليحصلوا على الروح القدس .[3] و بعد ذلك رجعوا في موكب الى الباسيليكا حيث يشكّل لهم الحليب و العسل رمزاً لقبولهم في أرض الموعد . ثم ،

وللمرّة الأولى ، سُمح لهم بأن يشاركوا في العشاء الربّاني او كسر الخبز . و إذ يشقّ الفجر خيوطه فوق المدينة ، تكون الاحتفالات قد أشرفت على نهايتها ، فيبدأ المحتشدون بالعودة الى دورهم ، منهكين و لكن فرحين ، و مملوئين بالحب لربّهم ، و لإخوتهم و أخواتهم المسيحيين .

و لاحقًا ، في ذلك الصباح عينه ، عاد هؤلاء الذين اعتمدوا لتوّهم ليجتمعوا في الباسيليكا حيث قام أغسطينوس بتشجيعهم على ان يعيشوا بقية حياتهم بقداسة و صفاء قلب . كما انه حثّهم على البقاء مخلصين للرب يسوع المسيح و لكنيسته . أمّا الاسبوع التالي ، فهو اسبوع عطلة يحيون فيه مهرجانًا يسوده جو بهيج و مليء بالطمأنينة . و في كل يوم منه ، اجتمع المؤمنون الجدد في الباسيليكا ، وعليهم رداؤهم الأبيض ، حيث علّمهم الناظر عمّا يتعلّق بالتزامات الحياة المسيحية و امتيازاتها .[4]

كانت معمودية الماء ترمز دائمًا الى الدخول في الايمان المسيحي . و لكن مع مرور الوقت ، علقت افكار غريبة بهذه الممارسة . و لعل المعمودية هي اكثر التعاليم و الممارسات الرسولية التي اعتنت بها الكنائس المحلية . و بحلول عصر اغسطينوس ، بدأ الناس يعتقدون بأن المعمودية تغسل الخطايا السابقة . و هكذا راح الحذرون في أمور الدين بينهم ، يؤجّلون أمر معموديتهم حتى يعلموا بالتأكيد أنهم قد اقترفوا كل خطاياهم . من أجل هذا لم يرضَ الامبراطور قسطنطين ان يعتمد إلاّ عندما أصبح على فراش الموت .

كان اغسطينوس ، كالكثيرين من أبناء جيله ، يعتقد أن المعمودية هي ضرورية للخلاص : فإذا مات المسيحي قبل معموديته ، سوف لن يجد له مكانًا في السماء .[5] و في أوقات الأزمات - اوبئة ، ثورات ، غزوات بربرية - كان المئات من الناس يُهرعون الى بيت المعمودية . ففي مدينةسيتيفيس (سطيف) ، و على أثر هزّة أرضية ضربت المكان ، راح الناس ينتظرون دورهم أمام حوض المَعمودية ؛ و ارتفع عددهم حتى بلغ نحو ألفي شخص . إننا لا نعلم تمامًا كيف وفّقوا بين هذا المعتقد وتعليم كلمة اللّه الصريح بأن الإنسان يخلص بالإيمان ، لا بالمعمودية .[6] وقد يعجب أحدنا كيف ان اللص التائب على الصليب حصل من المسيح على تأكيد بأنه سيكون مصيره الفردوس ، مع أنه لم يعتمد قط ؟ !

و على الرغم من ذلك ، كان بعضهم يخشى أن يموت بشكل مفاجيء من دون أن يكون مستعدًا . و على هذا الأساس طلبوا ان يعتمدوا في أقرب فرصة ممكنة عوضًا عن تأجيل هذه المسألة الى آخر لحظة . حتى إنهم توصّلوا ايضًا إلى أن يعمّدوا الأطفال الذين لم يكونوا يُدركون أي شيء بشأن هذه الممارسة ، او بشأن ما يجب ان يرافق هذه المعمودية من توبة و إيمان شخصي ، كما تعلّم كلمة اللّه . لقد قالوا إن الطفل الذي يموت من دون معمودية هو لا بدّ هالك : بما انه لم يكن له نصيب في الكنيسة ، سوف لن يكون له أي نصيب في السماء .[7]

إن كلا الخطأين - ان يطلب المرء بسرعة فائقة المعمودية ، او أن يتأخر فيؤجّلها أكثر من اللزوم - ينبعان من مفهوم واحد مغلوط : ان المعمودية هي « سر » يُحدث تغييراً في حالة المعتمد الروحية ، و ذلك إمّا بتأكيد خلاصه و إمّا بتطهيره من الخطية . و نتج من ذلك ان كثيرين من الذين تعمّدوا على عجلة ، سواء أكانوا من الأطفال عند الولادة ، أم من الكبار في وقت الأزمات والأمراض الشديدة ، باتوا يظنون أنفسهم انهم مسيحيون حقيقيون ، مع كونهم لم يعرفوا ، في الواقع ، من الإنجيل إلاّ القليل ، و لم يطبّقوه قط في حياتهم .

و أغسطينوس نفسه ، كما رأينا قبلاً ، لم يكن قد اعتمد و هو طفل ، مع كون امه مسيحية مؤمنة . و قد طلب مرّة ان يعتمد عندما ألمّ به مرض و هو فتىً ، إلاّ انه لم يعتمد فعلاً إلاّ بعد أن أصبح انسانًا بالغًا . لقد جاءت معمودية اغسطينوس كسائر المعموديات المذكورة في العهد الجديد ، لتؤكّد ايمانه الشخصي بالمسيح و تصميمه على اتّباعه .

كان تصوّر الجماعة المسيحية للزواج يختلف كثيراً عن التصوّر الوثني . إذ يقرّب أكثر بين الزوجين ، و ذلك في علاقة حميمة للغاية . كان ترتوليانوس قد أصرّ منذ أمد بعيد على ضرورة أخذ موافقة الطرفين المعنيين بالأمر قبل الإقدام على الزواج . و اعتبر أنه لا يجوز تزويج الأبناء والبنات على الرغم من ارادتهم ، كما انه يجب الأخذ باستحسانهم الشخصي في أي مخطط تزويجي قد يرسمه الأبوان . و ما ان يعطي كلا العروسان موافقتهما الطوعية على الزواج ، حتى يجري عقد قرانهما على مدى الحياة . لم يكن أي تدبير للطلاق بين المسيحيين .

كان الزواج يتضمّن تبادل التعهدات وا لوعود الثابتة بالحفاظ على الأمانة الزوجية . كان والدا كل واحد من العروسين ، هما اللذين يُحضرانه شخصيًا . ثم بطريقة رمزية ، كانت امرأة متزوجة تجعل يد العروس اليمنى في يد العريس اليمنى ، ثم يقوم العروسان بعد ذلك بوضع يديهما المشبوكتين على العهد الجديد ، فيباركهما الناظر و يصلّي من أجلهما . ثم يُتلى عقد الزواج . لقد وبّخ اغسطينوس اولئك الذين يطلبون مهوراً و هبات . و اعتبر أنه من الأفضل بكثير ان نكتفي «بالهبة الأبدية التي صارت لنا في شخص المسيح » . ثم يتبع الزواج احتفالات تستمر لسبعة أيام . كان المسيحيون في أثنائها يستمتعون بالشركة المقدسة معًا ، بالمقارنة مع انغماس الوثنيين في الفسق و السكر في مثل هذه المناسبة .

لم يكن احترام الزوجة في المجتمع المسيحي يقلّ عن احترام الزوج . و كانت الجماعة المسيحية تحرص على ضمان تقيّدهما تمامًا بالتعهّدات التي كانا قد قطعاها بملء حرّيتهما . ان هذه المساواة لم يشهد لها مثيل بين الوثنيين : كان هؤلاء يتوقّعون من المرأة ان تكون عفيفة خاضعة ، و لكن كان للزوج الحق بأن يتصرّف كما يشاء . كان القانون الروماني يجيز للرجل ان يطلّق امرأته بسبب العقم أو الزنا ، لكن هذا الأمر كان محظوراً على المرأة . لقد توجّه اغسطينوس الى الأزواج المسيحيين بهذه الكلمات : « ليس مسموحًا لكم بأن تعاشروا خليلات . كما انه لا يحق لكم ان

تتزوجوا بنساء متزوّجات لا يزال أزواجهنّ أحياء . إن قانون المحاكم العمومية الرومانية ليس هو قانون المسيح . »[8]

كان يتمّ تشجيع الشباب و الشابات على أن يُقدموا على الزواج في سنّ مبكّر . هذا لأن المسؤوليات العائلية سوف تساعدهم على الاستقرار ، و على تهذيب شخصياتهم . كانت البنات تُزَفّ في بعض الأحيان في عمر الخامسة عشر ، لكن ذلك لم يكن مألوفًا . كانت مونيكا ، أم أغسطينوس ، قد تزوّجت في الثانية و العشرين من عمرها ، الأمر الذي دفع ابنها في ما بعد إلى أن يوبّخ زواجهما المتأخر . كان الزواج في سن الشباب حسنًا ، لكن هذا لا يعني الاندفاع الى الزواج بعجلة ، و من دون تفكير : لأنه عندما يُعقد الرباط ، لا يعود من الممكن فكّه . لقد خاطب اغسطينوس « اصدقاءه الشباب » بهذه الكلمات : « فكّروا مليًا ! انكم تقيّدون ارجلكم بسلاسل حديدية . فلا تتسرّعوا في الالتزام بها . لا تنتظروا مني ان احلّ لكم هذا الرباط ، لأني سأضطر عنذذاك الى تثبيته بأكثر إحكام . » [9]

كانت الاعتبارات الاجتماعية تدفع الأهل في بعض الأحيان الى تدبير زيجات مع الوثنيين . وهذا ما حصل لمونيكا ، و قد سبّب لها ذلك الكثير من الأسى و الحزن . كان ترتوليانوس قبل قرنين من ذلك ، قد تحدّث باللهجة القاسية نفسها عن كلّ من موضوع التزاوج بين المؤمنين و الوثنيين ، وموضوع الزنا و الفحشاء : الشر الذي يجب على المؤمن المسيحي ان يتجنّبه بأي ثمن . وكبريانوس ، المعروف بأنه أكثر لباقة ، اعتبر على الرغم من ذلك ، ان مثل هذا الزواج بين المؤمنين و الوثنيين هو خطأ بالغ الخطورة . فالمسيحي المؤمن الذي يقترن بشخص غير مؤمن ، سيعرّض نفسه لضغوط و لتجارب لا حدّ لها - طقوس الزواج الوثنية المثيرة للاشمئزاز ، و الانحلال الجنسي الوقح ، السكر و العربدة - هذا بالإضافة الى المطاليب التي تفرضها كل من عبادة الأصنام و خرافات مذهب حيوية المادة ، و التي تشمل كل المجالات . فالبيت سيُدنّس بأصنام آلهة الوثن ، و الطعام يُقدّم مع الخمر المعدّ لتقدمات الآلهة الوثنية ، كما ان المحادثات على المائدة ستُفسَد من جراء النكات الرديئة القبيحة ، و التبجحات الوثنية اللاعقلانية . كذلك فإن الشريك المسيحي ، لا يمكنه ان يتوقّع من شريكه العالمي الذي يملأ البيت بأصحابه المغرورين وأقربائه الطمّاعين ، ان يكون صبوراً ولطيفًا . كانت الزوجة المسيحية ، وبخاصة خلال سني الاضطهاد ، تعتبر نفسها محظوظة جداً إن كان زوجها الوثني يسمح لها بحضور اجتماعات الكنيسة ، او بتلقين اولادها الحق المسيحي . [10]

رفض اغسطينوس ان يُزوّج فتاة شابة كانت الكنيسة مسؤولة عنها ، الى وثني رغب في الاقتران بها . كتب الرسول بولس في هذا المجال : « لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين . »[11] لا يمكن ابداً للوثنيين و المسيحيين ان تتّفق وجهات نظرهم حول عدّة مسائل كمسؤوليات كل من الزوج و الزوجة مثلاً ، و طرق إنفاق المال ، و أسلوب تربية الأولاد ، و غيرها . كذلك ، فالوثني لا يلتزم ابدًا المقاييس المسيحية ، و هذا ما اكتشفته مونيكا جيداً .

نظر الشعب الوثني الى الكنيسة نظرة استهزاء ، متسائلين ، هل اعضاء الكنيسة هم حقًا شعب الله الخاص ؟ و أنّى لهم أن يتأكدوا بأنهم وحدهم على حق ؟ و إذ استفهم احد منتقدي أغسطينوس منه عن السبب وراء عدم حصول معجزات في أيامه كما كانت عليه الحال في زمن بداية الكنيسة ، ردّ عليه اغسطينوس بالقول : « كانت هذه المعجزات ضرورية آنذاك قبل ان بدأ العالم يؤمن ، و ذلك لمساعدة العالم على الإيمان . »[12] أمّا الآن ، أردف اغسطينوس يقول ، فالإيمان أصبح سهلاً ، لأنّه بات بمقدور أي إنسان ان يستمع بملء إرادته الى التوضيحات الكاملة المقنعة عن الانجيل . إن الذين يطلبون المعجزات الآن ، هم لا يفعلون ذلك إلاّ بقصد التشكيك بمعجزات الماضي .

و لكن ، يصرّح اغسطينوس ، فالحادث فعلاً ، هو ان المعجزات لم تتوقف ! « بل في الواقع ، و حتى في أيامنا ، توجد معجزات كثيرة تُصنع باسم المسيح . » ربما لا يعرف الجميع بها ، لأنها غير مكتوبة ، كما انه لا يوجد من يقوم بالدعاية لها . و مع ذلك ، « فإن المسيحيين الأمناء ينقلون الخبر ، ويودعونه اناسًا أمناء آخرين . » أمّا في ما يتعلق بالمعجزات المدوّنة في الكتاب المقدس ، فهي معروفة ومشهورة للغاية ، و يستطيع أي انسان ان يقرأ عنها . و بالمقابل ، نجد ان المعجزات التي تحصل الآن ، هي معروفة فقط في اوساط الكنائس المحلية او العائلة المسيحية ، حيث تحدث هذه المعجزات و تجري .

ثم تابع اغسطينوس قائلاً : « لقد حدثت إحدى المعجزات في ميلانو حين كنت هناك ، حيث ان أحد العميان استعاد نظره . كان قد احتشد جمع كبير لرؤية جثتي الشهيدين بروتَاسيُوس و جرفَاسيُوس (Protasius, Gervasius) ؛ و حصلت هذه المعجزة في حضور هؤلاء الشهود جميعهم . » و في قرطاجة نفسها ، كان هناك رجلٌ مريضٌ يتألم من البواسير يُدعى إنُّسنْت (Innocent) ، فشل الأطبّاء في مداواته فشارف على الموت . لقد شُفي تمامًا بعد أن صلّى الشيوخ لأجله . و أضاف أغسطينوس ، « انا أشهد لذلك لأني كنت حاضراً في المكان . »

و في المدينة نفسها ، كان هناك ايضًا امرأة تدعى إنُّسنْتيا (Innocentia) ، و قد شُفيت من مرض سرطان الثدي المستعصي ، بعد أن أُعلن لها في حلمٍ أَن تطلب من احدى النساء ، و هي خارجة من حوض المعمودية ، ان تلمس لها المكان المصاب و ترسم عليه إشارة الصليب . و هذا ما حصل ، فشُفيت إنُّسنتيا للحال . تنتهي قصة هذه المرأة بشكل غريب ، حيث ان الطبيب الذي عاينها بعد شفائها ، عاد فاستفهم منها عن الكيفية التي حصل فيها شفاؤها المعجزي ، وبالكامل ، خصوصًا و انه سبق له أن أعلمها بأن حالتها ميؤوس منها . و حين اخبرته عمّا حدث ، ظهر و كأنه غير مبال ، الأمر الذي جعلها تظن بأنه سوف يبدأ يذمّ المسيح او يستخفّ به . «حسنًا ،» قال الطبيبُ بجدية ظريفة : « لقد اعتقدت انك ستخبرينني عن شيء استثنائي

ملفت! » و إذ لاحظ ان السيدة المسكينة بدأت تنزعج و تقلق ، أردف يقول لها بسرعة : « ما الذي يبدو خارقًا في قدرة يسوع على الإبراء من مرض السرطان ، و هو الذي سبق له أن أقام من الأموات رجلاً بعد أربعة أيام من موته ؟ ! » لقد كانت هذه السيدة نفسها تتحفّظ في أن تخبر الآخرين عن شفائها هذا ، الى أن شجّعها اغسطينوس شخصيًا . ثم علّق اغسطينوس بالقول إن كثيرين مجّدوا اللّه بسببها .

يسرد أغسطينوس بكثير من التفصيل قصة سبعة اخوة و ثلاث اخوات في كَبّدُوكيَة بآسيا ، كانوا يعانون مع والدتهم حالة من العوز و الفقر ، و ذلك بعد موت الوالد الذي كان رجلاً له منزلته في المدينة . أساء هؤلاء الأولاد معاملة أمهم ، و قد بلغ بها الاستياء و الغيظ حدًا جعلها تلعنهم . و على أثر ذلك ابتُلوا جميعهم برجفة مستمرة في اطرافهم . و اذ لم يعودوا يتمكنون من مواجهة اصحابهم و معارفهم ، تركوا المنزل و مضوا هائمين على وجوههم ، من مكان الى مكان . وصل اثنان منهم ، أخ وأخته الى هيپو ، و ذلك قبل اسبوعين من عيد القيامة . و هكذا بدأوا يحضرون الاجتماعات كل يوم ، سائلين اللّه أن يغفر لهم و يعيد لهم صحتهم السابقة . وفي كل مكان في المدينة توجّهوا إليه ، كان الناس يحدّقون إليهم . و كل من عرف قصتهم ، راح ينقلها الى الآخرين . و مع حلول صباح عيد القيامة ، كان ذلك الشاب واقفًا ممسكًا بالضريح الذي كان يحوي رفات الشهيد المسيحي الاول استفانوس . « و فجأة سقط الشاب صريعًا على الأرض ، » يقول اغسطينوس ، « و ظل هناك و كأنه يغطّ في نوم عميق ، و لم تعد تنتابه أية رجفة في اطرافه كما كان يحصل له دائمًا حتى في اثناء نومه . لقد ذهل الحاضرون . وتملّك بعضهم الذعر ، أمّا بعضهم الآخر ، فرثوا لحاله . » و ما إن همّوا بمساعدته على الوقوف ، حتى نهض بنفسه فجأة . لم يعد يرجف . لقد شُفي تمامًا ، و هو يقف أمام الجميع متعافيًا . من كان بوسعه في ذلك الوقت ان يُحجم عن تمجيد اللّه ؟ لقد امتلأت أرجاء الكنيسة كلها بصرخات الشكر . و للوقت هُرعوا الى المكان حيث كنت جالسًا لينقلوا إليّ ما حصل . » بعد هذا ، حضر الشاب و أرى نفسه لاغسطينوس . و عندما استأنفوا الاجتماع ، كان المكان « يرنّ و يرجّ بصيحات الفرح : " الحمد للّه ! المجد للّه ! " »

و بعد ثلاثة أيام ، اجتمعت الكنيسة لتستمع الى قراءة عامة لقصة هذا الشاب ، بينما كان يقف مع أخته في مقدمة القاعة . « وكان جميع المحتشدين من رجال و نساء ، يثبّتون أعينهم محدّقين إليهما : الشاب واقف من دون أية حركة غير طبيعية في أطرافه ، في وقت كانت أخته ترتجف وترتعش . لقد بات بإمكان اولئك الذين لم يروا بعد عمل رحمة اللّه في حياة هذا الشاب ، أن يدركوا هذا الأمر الآن بعد معاينتهم لحالة اخته . » عند الانتهاء من القراءة ، طلب اغسطينوس من الاخوين ان ينزلا ريثما يخاطب الجماعة . « بعد هذا و بينما كنت اتكلّم ، » قال أغسطينوس « عادت تُسمع صيحات الشكر عند ضريح الشهيد ! » هذا لأن الفتاة كانت قد قصدته للصلاة . « و حالما لمست سياجه ، سقطت على الارض و كأنها نامت ، تمامًا كما

فعل أخوها ، و هكذا قامت و قد برئت من دائها . و إذ رحت استفهم عمّا حصل ، وعن سبب الضجة و كل هذا الفرح ، عادوا معها . . . و هي في صحة تامة ! و للوقت تعالت بالطبع صيحات الاندهاش ، و هكذا استمرّ الصراخ ممزوجًا بالدموع ، حتى بدا انه من المستحيل ان ينتهي ابداً . . . كانوا يبتهجون ، إذ راحوا يسبّحون اللّه بصرخات خالية من الكلام محدثين بذلك ضجة عظيمة ، حتى صَعُبَ على أذنيّ تحمّلها . »

ذكر اغسطينوس ، و بالتفصيل ، العديد من معجزات الشفاء هذه بالإضافة الى حوادث اخرى حصلت بفعل العناية الإلهية . إنها روايات رصينة و دقيقة لأحداث عرفها و شهدها هو شخصيًا . يبقى على المؤرخ أن يسجّل أن أغسطينوس ، مع كونه ذلك الرجل المتعلّم و الفطن ، آمن بصحتها كما انه نسبها الى قدرة اللّه المنعمة . و فوق هذا ، كان يرغب في ان يعرّف الناس بها . كتب يقول : « لقد اهتممت بنشر مثل هذه الروايات لأنني رأيت باستمرار في أيامنا الحاضرة علامات القدرة الإلهية ، كما كانت تُعمل في أيام القدم . فشعرت أنه لا يجوز ان تغرق هذه في بحر النسيان ، و لا يعود أحد يأبه لها .»[13]

ملاحظات

1- مرقس5:9

2- متى 12:6

3- لقد تمّ في الفصل 15 بحث الفكرة المبتدعة القائلة بقبول الروح القدس بواسطة وضع يدي الناظر .

4- يقدّم لنا Hamman (pp. 245 - 264) وصفًا للاحتفالات بالمعمودية في هيبو .

5- طبعًا ، لقد جعل هذا الاعتقاد النزاع يحتدم بين كبريانوس و نوفاتيان ، حيث كان كل فريق يعتبر ان معموديته وحدها هي الصحيحة و الفعّالة في نظر اللّه .

6- أفسس 8:2

7- Schaff *HOTCC* Vol. II pp. 258 - 262؛ Foakes-Jackson p. 509 . يُذكر احيانًا أن إيرينايوس (نحو 130– 200) ، كان اول من كتب شهادة صريحة لممارسة معمودية الأطفال (*Adversus Haereses* (II 22:4 ; Schaff p. 259) لكن هذا النص موضوع الجدل هو غامض ، و المعمودية الوحيدة التي يذكرها هي المتعلّقة بالمسيح (كرجل بالغ) و التي تمّت على يد يوحنا .

كان ترتوليانوس يعارض فكرة معمودية الأطفال و ذلك لأسباب استعرضناها في الفصل السادس *De Baptismo* 18 . بالمقابل نجد أن كبريانوس دعم بكل وضوح هذه الممارسة58 *Epître* . كان يؤمن على غرار اغسطينوس بأن كل طفل يولد و قد ورث الخطية الأصلية (الطبيعة البشرية الساقطة) ، و هكذا يدخل العالم مُدانًا و محكومًا عليه بالهلاك الأبدي . و لا يكون للطفل أية فرصة للخلاص إلا اذا اغتسل اولاً من الخطيئة الأصلية بواسطة المعمودية . لقد اعتبر أغسطينوس أن الطفل غير المعمّد يمضي الى الجحيم . (Chadwick p. 111)

أمّا پلاجيوس ، فرفض بسهولة فكرة ان الأطفال يولدون محكومًا عليهم ، ذلك لأنه علّم بأن البشرية لم تسقط نتيجة لخطية آدم . يرى المسيحيون الإنجيليون هنا إحدى اخطاء پلاجيوس . لكن يوليان الاكلانومي (Julien d'Eclanum) ، و هو من اتباع پلاجيوس ، و مناوىء لاغسطينوس بشكل مباشر ، اقتبس من تعاليم ترتوليانوس في تشديده على أنه لا يمكن تصوّر ان اللّه العادل يقوم بمعاقبة طفل بريء على خطايا لم يقترفها (Brown p. 391-397) .

إن عدداً كبيراً من المسيحيين في أيامنا ، يرفضون عقيدة أن الأولاد غير المعمّدين هم هالكون لا محالة . فالأطفال بما في ذلك أيضًا الجنين الذي يموت قبل ولادته ، هم بكل وضوح عاجزون عن معرفة إرادة اللّه او عن إدراك إنجيل الخلاص . والطفل نفسه لم يتعدّ على توجيهات الضمير الناضج ؛ ولا كسر ناموس اللّه ؛ و لا حتى رفض المخلّص . كما انه لا يقدر على التمييز بين الخير و الشرّ قبل بلوغه سنًا معيّنًا (اشعياء 16:7) . و عندذاك فقط سيقوده ميله الموروث الى الخطية ، سيقوده إلى اقتراف الخطية فعليًا . و فقط حينما يخطىء ، ينفصل عن اللّه .

إن الكتاب المقدس يصرّح في الواقع ان الأطفال هم الى حدّ ما أقرب من ذويهم الى ملكوت اللّـه . قال الرب يسوع : «دعوا الأولاد يأتون إليّ و لا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات . الحق أقول لكم من لا يقبل ملكوت اللّه مثل ولد فلن يدخله » (لوقا 16:18 و 17) .

8- Sermon 392:2 (Hamman p. 95)

9- *Ennarationes in Psalmos* 149:15 (Hamman p. 93)

10- Schaff *HOTCC* Vol. II p. 366 . إن حالة الرجل او المرأة المقترنين بشريك غير مؤمن و ذلك قبل التجديد ، كانت بالطبع مختلفة تمامًا . يلحظ ترتوليانوس أنه عندما تهتدي زوجة وثنية الى المسيح ، سرعان ما سيرى زوجها الوثني تغييراً فيها نحو الأفضل . ولكن ، عندما تقوم فتاة مسيحية بالاقتران بوثني ، سرعان ما سيلاحظ تغييراً فيها نحو الأردإ . إنه لأمر شريف لمن هو في طين الحمأة أن يعبر الى السماء ، و لكن من ينزل بإرادته الى المستنقع فهو مجنون ، و يستحق أعنف توبيخ . *Ad Uxorem* 2:4 - 6

11- 2 كورنثوس 14:6 – 16

12- *De Civitate Dei* 22:8

13- *De Civitate Dei* 22:8

الفصل السادس والعشرون

الكاتب المبدع

كانت كتابات أغسطينوس الأولى موجهة بشكل واسع الى المانيين (Manichéens) ، والى اتباع الأفلاطونية المحدثة (Néoplatonistes) ، و غيرهم ، و ذلك لردّهم الى درب الايمان . إلاّ أن مجهوده الأدبي اللاحق انصبّ ، في معظمه ، في تصحيح بعض الأفكار والعقائد التي صدرت من داخل الكنيسة و ليس من خارجها . كان أغسطينوس مستعداً ليشترك في جميع المباحثات التي كانت جارية في أي جزء من اجزاء الامبراطورية ؛ إنه لم يحصر اهتمامه بالقضايا الافريقية المحلية وحدها .

شهدت القرون الأربعة الاول للتاريخ المسيحي عدداً كبيراً جداً من المباحثات ، بالإضافة الى الكثير من التأملات و الأفكار المتطرّفة و المتهوّرة ، و بالأخص في ما يتعلّق بالثالوث الأقدس . لقد انشغل قادة الكنائس في مناظرات و مناقشات لا نهاية لها بخصوص موضوع إمكانية وجود إله واحد في ثلاثة أقانيم . و في بعض الأحيان كانت تصل المحاولات الى تعريف شامل كامل بطبيعة اللّه ، إلى أبعاد سخيفة ؛ و لم يكن أحد يقدر على تفهّم هذه الصّيغ العويصة و المبهمة إلاّ علماء اللاهوت أكثر إطّلاعًا و معرفةً . فهل من فائدة تُرجى من هذه الصّيغ بالنسبة الى المسيحي العادي القابع في معمله أو حقله ؟

إلا أن بعض الميول العامة بدأت تظهر في الجماعات المسيحية في أماكن مختلفة . هذا لأن مناطق مختلفة من الامبراطورية راحت تشهد بشكل تدريجي اختلافًا في التشديد على بعض المفاهيم ، و ذلك تحت تأثير نفوذ بعض المعلمين المحليين او التقاليد اللاهوتية . و حيث كانت النيّة تتجه في الشرق (آسيا الصغرى ، سوريا ، و الاسكندرية) لإظهار الفوارق في داخل الثالوث ، برز من جرّاء ذلك خطر اعتبار الأقانيم الثلاثة كثلاثة آلهة . أمّا في الغرب (اوروبا وافريقيا) ، فغالبًا ما تمّ التشديد على وحدة اللّه ، و ذلك على حساب تجاهل ميّزات كل واحد من الأقانيم . لقد جرى تقديم قوانين إيمان (بيانات عقائدية) متعددة في محاولة لتلخيص عقائد التعليم المسيحي و تنسيقها . و كان متوقعًا من قادة الكنيسة ان يخضعوا للقانون المعتمد ، و يوقّعوا عليه كدليل على استقامة عقيدتهم . و في ما بعد ، بدأت الكنائس في بعض الأماكن تحفظ قانون الايمان غيبًا ، و تتلوه في اجتماعاتها الكنسية .[1]

إنّ الصدع الأعمق نتج من تعاليم آريُوس (Arius) ، و هو شيخ من شيوخ كنيسة الاسكندرية ، عاش في بداية القرن الرابع . انكر اريوس الوجود الأزلي لكلمة اللّه ، رافضًا بذلك

الوهية المسيح . كما اعتقد كذلك أن ابن الله ، مع كونه بلا خطية ، هو كائن مخلوق ، صنعه اللّه ، على أنه ليس اللّه المتجسّد . اصطدم آريوس بمقاومة عنيفة لمزاعمه هذه ، و قد حصل ذلك في كنيسته نفسها ، و بالتحديد على يد الناظر الإسكندر و خَلَفه أَثَناسيُوس (Athanase) اللذين تجادلا معه بعنف ، مؤكدين أنّ المسيح كان موجوداً دائمًا ككلمة اَللّه السرَمدية ، و هو الأقنوم الثاني من اللاهوت الأزلي . و في العام 325 م ، عُقد مؤتمر للنظّار عُرف بمجمع نيقيا (Concile de Nicée) ، اتُخذ خلاله قرار ضد المبدإ الآريوسي . و صدر في هذا المجمع ما يُدعى الآن بقانون نيقيَا (Symbole de Nicée) الذي يحتوي على تعريف بجوهر الايمان المسيحي ، وبشكل خاص لَجهة الطبيعة الإلهية للمسيح . كانت كنائس النصف الغربي من الامبراطورية ، بما في ذلك افريقيا الشمالية ، موافقة على بيان الإيمان هذا ؛ أمّا تلك في النصف الشرقي ، و بخاصة في آسيا الصغرى ، فقد رفضت هذا البيان . في وقت من الأوقات ، كان اتباع آريوس في الامبراطورية الرومانية قد أصبحوا في الواقع أكثر عدداً من أصحاب العقيدة الصحيحة ، كما أن القادة الوانداليين أيّدوا موقف آريوس هذا . و هكذا ، بعد غَزوهم للولايات الافريقية ابتداء من العام 429 م ، أصبحت هذه الهرطقة ، و لفترة معيَّنة ، الديانة الرسَمية في شمال افريقيا . أمّا غيرها من الهرطقات ، و بشكل رئيس تلك المتعلّقة بألوهية الرب يسوع ، فقد بُحثت ، و جرى رفضها خلال ستة مؤتمرات تلت مجمع نيقيا .

اعتبر الآريوسيون الرب يسوع أقلّ رتبة من اللّه . و من جهة اخرى ، فإن المجموعات المختلفة للقائلين بطبيعة واحدة للمسيح (Monophysites) ، و من ضمنهم الأقباط في مصر وكنائس اثيوبيا ، فقد قبلوا بألوهية المسيح ، و لكنهم رفضوا و انكروا ان يكون المسيح بالحقيقة انسانًا ايضًا . أمّا النساطرة (Nestoriens) أولئك الذين شاعت تعاليمهم في سوريا و في مناطق أخرى من آسيا ، فهم من جهتهم قسّموا المسيح فكريًا الى اثنين ؛ فقسمٌ منه يشكّل اللّه ، فيما القسم الآخر يتعلّق بالإنسان ؛ و هكذا باتت تعيش فيه طبيعتان مختلفتان . و قالوا ايضًا إن العذراء مريم كانت أم الطبيعة البشرية للمسيح من دون طبيعته الإلهية . كما انهم ادّعوا أن يسوع ، في بعض صفحات الإنجيل ، كان يتصرّف بصفته اللّه ، بينما تصرّف كإنسان في صفحات أخرى منه . رفض اغسطينوس كلاً من هذه الهرطقات ، آخذاً موقفًا صريحًا الى جانب اولئك الذين اعتبروا أن المسيح هو إله و إنسان في آن ، و قد اتّحدت طبيعتاه في شخص واحد لا عيب فيه .[2] وافق اغسطينوس بالكلية على البيانات الصادرة عن المؤتمرات الكاثوليكية في اوروبا و آسيا ، و التي قالت إن المسيح كان دائمًا موجوداً منذ الازل ، و انه كان دائمًا اللّه بشكل كامل و أنه تجسّد و أصبح انسانًا بشكل كامل ايضًا . لقد قبل اغسطينوس المفهوم الضمني الكامل لتعليم الرسل حيث قالوا : « و الكلمة صار جسداً » ، و قد سُمّي عن حقّ « الانسان يسوع المسيح » ، لكنه في الوقت عينه الإعلان المنظور و الفريد في نوعه عن اللّه ، « فإنه فيه يحلّ كل ملء اللاهوت جسديًا . »[3]

كتب اغسطينوس أحد أضخم كتبه عن الثالوث ، و هو يوازي في حجمه نحو نصف حجم كتابه « مدينة الله » . لم يوجّهه مؤلّفه ضد أي خصم معيّن ، بل كان يضيف الى مادة هذا الكتاب أفكاره على مراحل ، و ذلك في أثناء انشغاله بنشاطاته الأخرى . و هو يخبرنا كيف أنه شرع في تحرير هذا الكتاب حين كان لا يزال يافعًا ، لكنه لم ينته من كتابته إلاّ عندما أصبح شيخًا . لقد بدأت مناقشات اغسطينوس مع الآريوسيين و مراسلاته معهم قبل عدّة سنوات من شروعهم بالتعدّي على التربة الإفريقية . و لم يتوقّف عن ذلك حتى موته الذي حصل قبل دخول قواتهم الى هيپو .

ستبقى مناظرة اغسطينوس مع پلاجيُوس (Pélage) ملتصقة ابدًا باسمه . كانت في جوهرها ، مناظرة افريقية نموذجية ، و قد اشتَقّت من الاعتبارات الاخلاقية و العملية ، اكثر من اشتقاقها من التأملات المعقّدة المتعلقة بطبيعة المسيح ، و التي طالما فتنت لاهوتيي الشرق .

كان پلاجيوس مواطنًا بريطانيًا ، لكنه عاش سنين عديدة في روما . لقد صعقته اخلاق الناس المتفسّخة و المنحلّة حتى في أوساط المسيحيين ، في هذه المدينة الكبيرة ، و أربكه هذا الأمر تمامًا . كما شعر بأن الناس لا يأخذون كلمة اللّه بجدّية و بواجب إطاعتها . كما انه تضايق بشكل خاص عندما سمع أحد النظار يقتبس احدى صلوات اغسطينوس من كتابه «الاعترافات» ، حيث يقول : « امنحني يا رب نعمة لأفعل ما تأمر ، و مُرني لأفعل ما تريد . »[4] علّق پلاجيوس على هذا بالقول إن هذه الطلبة تجعل منّا مجرّد دمى بين يدي اللّه . كما علينا ألاّ نسأل اللّه ان يعمل من اجلنا ما قد سبق له تعالى ان طلب إلينا لنفعله بأنفسنا .

شعر پلاجيوس بوجود نزعة في الكنائس المحلية ، انطلاقًا من النسخ المتداولة عن سيرة حياة اغسطينوس ، لإلقاء مسؤولية كل شيء على اللّه ، كذريعة لبذل أقلّ حدّ ممكن من المجهود الشخصي . وقد لام كنائس أيامه إذ اعتبر أنه من المستحيل السلوك وفقَ مقاييس اللـه . قال پلاجيوس : « نحن نصرخ الى اللّه ، بدافع من قلوبنا الكسولة المزدريَة ، قائلين له : " ان هذا صعبٌ جدًا و ثقيلٌ علينا . لا نستطيع ان نفعله ؛ نحن لسنا إلاّ بشرًا ، معوّقين بضعف الجسد . " فيا للحمق الأعمى و التجديف الوقح ! إذ إننا ننسب بذلك الى اللّه العارف بكل شيء ذنب جهل مزدوج : جهله خليقته الخاصة ، و وصاياه بالذات . و كأنه نسي ضعف الناس الذين هم عمل يديه ، فقدّم لهم على هذا الأساس وصايا يعسر عليهم تطبيقها ! »[5]

اعتبر پلاجيوس أنّ خليقة اللّه هي تامة و كاملة . و الانسان لا يولد شريرًا و مستحقًا الإدانة ؛ إنه يولد بريئًا و لا يحتاج إلاّ الى التشجيع . لا يوجد لخطية آدم أي تأثير سلبي قط في سلالته ، هذا لأن كل واحد منا يبدأ حياته الأرضية ، و عنده القدرة و القوة على عمل الخير ، تلك القوّة عينها التي تمتّع بها آدم في جنة عدن . إن قصد اللّه هو أن يبارك الإنسان ، لا أن يدينه . و إرادة اللّه لنا جميعًا هي طبعًا ان نسير معه ، وأن نصبح كاملين في المحبة و القداسة . و في استطاعتنا ، بكل تأكيد ، أن نفعل مشيئته اذا ما رغبنا في ذلك ، لأنه بما أن وصاياه قد أُعطيت لجميع الناس ، لذا

يقدر كل الناس على أن يطيعوها . « و لا أحد يعرف مدى قدرتنا و قوّتنا الذاتية أفضل من الله الذي منحنا إياها . . . و ليست إرادة الله ان يأمرنا بما لا نستطيع عمله ، ذلك لأنه إله بار ؛ وبما أنه قدّوس ، سوف لن يدين الانسان عمّا ليس في وسعه عمله . »[6]

لم يكن پلاجيوس يهتم بطبيعة الانسان و حسب ، بل بطبيعة الله على نحو أعظم ايضًا . لقد شدّد على حقيقة محبة الآب السماوي . و لم يقبل بأي تعليم قد يظهر الله فيه بأنه غير عادل ، كأن يخلق الله الإنسان مثلاً في حالة من الخطية ميؤوس منها ، ثم يقوم بمعاقبته عليها . اختلف پلاجيوس مع الفكرة القائلة إن ليس باستطاعة الانسان إلاّ ان يعصى شريعة الله ، و انّه يتحتّم عليه بالتالي ان يكابد غضب الله . و هو يتساءل في هذا المجال : أين العدل في كل هذا ؟ لكنه يعتبر على نقيض ذلك أن الله منح الإنسان الحرية بأن يؤمن او لا يؤمن ، بأن يطيع او لا يطيع ، و هكذا بناء على قرار الانسان الشخصي تتوقّف دينونة الله عليه .

كان پلاجيوس و اتباعه مثاليين . فقد كتبوا الى أناس كانوا « يريدون ان يتغيّروا الى الافضل » .[7] و كان هدفهم بالتأكيد إصلاح المجتمع المسيحي كلّه . كانت هذه الأشواق لبلوغ القداسة و الكمال الأخلاقي قد قادت بعض معاصريهم الى الدير ، و غيرهم الى الصحراء و قد ألهبت قلوب الپلاجيين بالرغبة في حصول نهضة في الكنيسة . اعتقدوا أنه بإمكانهم ان يؤثروا بشكل مباشر في تصرّفات المجتمع ، في حال ألحّوا على الناس بتوجيهاتهم و بتحذيراتهم . كان لديهم أفضل الاهتمام و أرق الشفقة على من حولهم من البشر ، و كان باستطاعتهم الإشارة الى اولئك الذين وجدوا الخلاص والفرح و القداسة العملية ، من خلال تقديم ولائهم القلبي الكامل للرب يسوع . كانت دوافعهم رائعة ممتازة ؛ و لكن هل كانت عقائدهم صحيحة ؟

رفض اغسطينوس مثل هذه الأفكار ، و اعتبر ان السعي لبلوغ الكمال في هذه الحياة هو هدف خادع بعيد عن منال المسيحي الاعتيادي . و على كل حال ، فهو يذكّرنا بأن الانسان هو مخلوق ساقط ، خاطىء بالطبيعة ، و متمرّد يستحق دينونة الله . لقد بدّلت معصية آدم ، تمامًا ، العلاقة بين الانسان و خالقه ، كما أنها غيّرت مسار الطبيعة بأكمله . أمّا نتائج سقوطه - الموت ، و المرض ، و الخطية - فقد ابتليت بها سلالته منذ ذلك الوقت . فالانسان ، بالحقيقة ، يكافح و يناضل من دون جدوى ليعمل الصلاح . انه لا يقدر على ان يطيع الله ، كما انه لا يفهم الحق ، و لا يمكنه ابداً باجتهاده الخاص ان يجد طريق الخلاص . و عليه ، فحيث ان الله صالح و محب ، فقد أظهر عطفه لأشخاص معيّنين ، فزرع في قلوبهم بزرة الايمان ، ومنحهم هبة الحياة الابدية .

تمّت إدانة كتابات پلاجيوس في عدّة مؤتمرات عُقدت في افريقيا و في أماكن أخرى ، على الرغم من انها حظت بالتأييد في فلسطين . كما أنه تمّ إقصاء العديد من النظّار بعيداً عن كنائسهم بسبب تأييدهم له . زار پلاجيوس مدينة هيپو مرة ، و ذلك كلاجىء من غزو القوطيين لروما ، ولكن من المؤسف ان أغسطينوس لم يكن في ذلك الوقت في هيپو ، و هكذا لم يستطع هذان

الرجلان ان يجتمعا قط لمناقشة اختلافاتهما .[8] لم يكن پلاجيوس يرغب في أن يؤسس طائفة او كنيسة خاصة به ، و هو اعتبر ان هذه المسائل عويصة و غامضة ، و قد يختلف الرجال الصالحون بشأنها . أمّا اغسطينوس و أولئك الذين تبعوه منذ ذلك الحين ، فقد كانوا بشكل عام ، أقل تسامحًا مع خصومهم . و مع ذلك ، يبقى أغسطينوس يستحق احترامنا التام على كياسته و كرمه تجاه الذين لم يوافقهم الرأي .

وعلى الرغم من هذا فقد شعر أغسطينوس بأن العقيدة التي تخيّر الانسان بين القبول بمشيئة الله أو برفضها ، هي هرطقة خطرة . فهو يشدّد على حقيقة سيادة اللّه المطلقة ، اللّه الذي يسيطر على كل الاشياء ، و الذي لا يمكن مقاومة مشيئته . و على هذا الأساس بنى أغسطينوس لاهوته بخصوص الخلاص على منطق جازم و حاسم . اللّه يعلم ما سوف يحدث ، و لا شيء يحدث ضدّ مشيئته : لذلك فإنه تعالى يقرر ما الذي سيحدث . و اللّه يعلم من هم الذين سيخلصون ؛ و لا يمكنهم أن يخلصوا إلاّ بنعمته ؛ و عليه ، فالقرار هو قراره ، و ليس قرار البشر . ان علم الله السابق هو غير محدود ، كما ان تدبيره لا يُقاوم ، لذا عيّن اللّه بعض الناس للسماء و آخرين لجهنم ، حتى قبل ان يولدوا . و لا يمكن لأي انسان أن يهلك إن كان اللّه قد سبق و عيّنه للخلاص ؛ كما انه لا يقدر على ان يخلص إن كان اللّه قد سبق و عيّنه للهلاك . وقد حدّد الله سابقًا عدد الذين سيخلصون ؛ ثمة « عدد معيّن للمختارين ».[9] وأمّا الباقون ، فإنهم لن يتمكّنوا أبدًا من الحصول على الخلاص ؛ إنه محكوم عليهم بالعقاب الأبدي ؛ ذلك لأن« اللّه بترتيب خفي ، لكن عادل ، قد سبق و عيّن بعضهم ليكابدوا هذا العقاب النهائي . »[10]

قد يظن الإنسان أن له الخيار ، و لكن في الواقع لا خيار له . و اغسطينوس يؤكد لنا ان كل ذلك هو للخير . هذا لأنه لو أُعطي الإنسان الخيار ، لاختار بالتأكيد الشر و فضّله على الخير . ومن حسن حظنا ان خلاصنا لا يعتمد على قرارنا نحن . و يصرّح أغسطينوس بالقول : « إن حرية الاختيار عند الإنسان سوف لن تقوده إلاّ الى فعل الخطية ، هذا في حال أُخفيت عنه طريق الحق .»[11] و لكن الله يكشف بنعمته طريق الحق لأناس معيّنين ؛ إنه يوحي اليهم بشعور من البهجة و الفرح ؛ كما انه يمنحهم الرغبة في الايمان . « نعمة الله هي التي تحرّك إرادات الناس . . . إنه تعالى هو الذي يجعلهم يسعون وراء الخير الذي سبق لهم أن رفضوه من قبل . »[12]

فضلاً عن ذلك ، فإنه من المستحيل مقاومة عمل الله و تدخله ، و لا يمكن للانسان ان يرفض ما تمنحه إياه نعمة اللّه . « لقد حصلت إرادة الإنسان الضعيفة على المساعدة و العون ، لكي تستطيع نعمة اللّه أن تؤثّر فيها تأثيرًا غير قابل للتغيير او للمقاومة . » و بهذه الطريقة ، يقرّر اللّه أن «يطلب الناس الخير بشكل لا يُقاوم ابدًا ، و يرفضوا التخلّي عنه بشكل لا يُقاوَم ايضًا . »[13]

وعليه ، فإنّ مصير الإنسان الأبدي لا يعتمد على اختياره قبول المسيح او رفضه ، بل على ما اذا كان الله قد قرّر ان يفدي هذا الانسان أم لا . و الإنسان يخلص بالإيمان بكل تأكيد ، قال أغسطينوس ، ولكن الإيمان بحدّ ذاته هو عطية إلهية تُمنح لبعضهم و تُحجب عن بعضهم الآخر . فالمؤمن لا يختار اللّه ، و انما اللّه هو من يختار المؤمن . و الإنسان لن يشتاق أو يرغب في أن يتعرّف

باللّه ، إلاّ اذا زرع اللّه في قلبه هذا الشوق او تلك الرغبة . الجميع هالكون ، و لكن نعمة اللّه قد أُعطيت لبعضهم لكي يخلص بعض الناس ، و يُعرف هؤلاء « بالمختارين » . «اذًا ، فالإيمان في بدايته كما في نهايته ، » كتب أغسطينوس « هو عطية اللّه ، و لا يراودنّ أحد أدنى شك . . . في أن هذه العطية قد وُهبت لبعضهم ، لكنها مُنعت عن بعضهم الآخر . » [14]

لم يكن أغسطينوس يتوقّع أن يكون قطيعه متحرراً من الخطيئة ، كما أن وعظه لم يعطهم أملاً في ذلك . لقد دُعوا الى تجنّب الكبائر التي لوّثت المجتمع الوثني ، لكن عليهم ان يتوقّعوا دائمًا الاخفاق في بلوغ مطاليب الله . و ما دام التركيز في هذا التعليم هو على ضعف الانسان لا على قوة الروح الساكن في أعماق المؤمن ، فإنه لمن الصعب اكتساب رؤية عن القداسة المتمثّلة في المسيح . كانت كنيسة أغسطينوس إذًا مأهولة بالعبيد البطّالين ، و بالخطاة الذين لا حول لهم و لا قوة ، و قد نالوا الخلاص بالنعمة . إن المسيحي الحقيقي في نظره هو الذي يقضي ايامه كلها « ناظراً الى نفسه كإنسان مليء بالخزي و معطيًا المجد لله » . [15]

لعـل أكثـر مـا يدعو إلى الحزن و الاضطراب في نظام اغسطينوس هذا ، هو ما يولّده من خوف و قلق في قلب المؤمن . « أصرّ أغسطينوس على انه لا يمكن أبداً للمختارين ان يتأكّدوا من أنهم مختارون . » [16] و لن يظهر لأي انسان ، قبل ان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، إن كان قد ثابر و دأب على الإيمان فعلاً ، حتى النهاية . و اللّه وحده يعلم لمن أُعطيت مثل هذه المواظبة و المثابرة . و على المؤمن ان يقضي ايامه في حالة من الشك و القلق ، و هو يتساءل عمّا اذا كان اللّه قد اختاره للسماء او للجحيم . و إذا لم يكن الله قد اختاره للخلاص ، فلا يمكن للإنسان ان يعمل أي شيء في الوجود لخلاص نفسه . فهو سيعاني حتمًا قدره المقرّر أصلاً ، و إذا تمّ إرساله الى جهنم ، فهو لا يحقّ له أن يتشكّى من الظلم ؛ هذا لأن جميع الناس يستحقون هذه الدينونة العادلة .

ان هـذا النظـام القاسي – المقـدّم في الأساس ، من انسان مسيحي كريـم عطـوف و مليء بالشفقة – وجد قبـولاً ، ليـس في افريقيـا فحسب ، بل في جميع انحاء العالم الغربي ايضًا . لقد اعتنقه كالْفان (Calvin) و آخرون ايضًا في عصر الاصلاح الديني ، و قد استحوذ منذ زمن بعيد على فكر العديد من المؤمنين المخلصين ، سواء أكانوا من البروتستانتيين او الكاثوليك . و مع ذلك فقد كان هناك دائمًا مَنْ نفر منه بدافع شعورهم بأنه نظام جائر واعتباطي وقاس ، لا على أساس دحض او تفنيد منطقي له .

كان پلاجيوس متقدّمًا في السّن ، و من الواضح أنه لم يكن يحب عناء النزاعات الفكرية . لقد تقاعد من اعمال المناظرة ، تاركًا هذه الساحة لعدد من الرجال الأكثر شبابًا ، الذين كانوا قد دعموا موقفه . حاول احدهم من بلاد الغال ، و يُدعى يوحنا كاسيَان (Jean Cassian) ، أن يحذف من لاهوت پلاجيوس النقاط التي كان عليها علامات استفهامَ و تُطرح حولها تساؤلات ، مع حرصه على أن يبقى أمينًا للسياق العام للكتاب المقدس و بياناته الواضحة .

قَبل كاسيان ، بخلاف پلاجيوس ، بأنّ جميع الناس قد سقطوا بسقوط آدم و يستحقون بذلك الإدانة . كذلك أيّد فكرة اغسطينوس أنه ما من إنسان يمكنه ان يجعل نفسه مقبولاً لدى اللّه

من دون المساعدة الإلهية . و لكنه انكر ان اللّه يعيّن أيًا كان مسبقًا و بشكل لا رجوع عنه ، للهلاك الأبدي ، معتبراً أن الهلاك هو النصيب المعيّن مسبقًا لجميع الذين يختارون عمداً أن يديروا ظهورهم للّه . قال إن نداء اللّه يصل إلى اولئك المستعدين لقبوله ، و قد استشهد في ذلك بمَثَل زكّا واللص التائب الذي نال الخلاص وهو على الصليب ، و كلاهما لا يستحقان الخلاص ، لكنهما كانا يتوقان الى الحصول عليه . والإنسان ، برأي كاسيان ، هو حر الإرادة ، و باستطاعته ان يطيع او لا يطيع ، أن يقبل او لا يقبل الخلاص . و لكن حرية الإرادة وحدها ليست كافية ، فالانسان هو في حاجة الى نعمة اللّه و الى مساعدته المستمرة لكي يتمكن أولاً من إيجاد طريق الحياة ، و لكي يستمر ثانيًا في السير في هذا الطريق من دون تقلقل او تردد . ثم أضاف قائلاً إن هذه المساعدة تُقدّم لكل الذين يرغبون بإخلاص في الحصول عليها . لم يكن موقف كاسيان في الواقع ، سوى محاولة تسوية بين وجهتي نظر كلّ من پلاجيوس و أغسطينوس . ويُطلق عليها احيانًا التسمية «شبه پلاجية » (Demi-Pélagianisme) ، كما أنه من الممكن ، بكل صدق ، تسميتها ايضًا « النصف اغسطينوسية » ، نظراً لكونها تجمع بين معالم النظامين . 17

و تلخيصًا لجوهر هذه المناظرة ، اعتبر أغسطينوس أن نعمة اللّه حكمت لبعضهم بالخلاص ، فيما اعتبر پلاجيوس أن نعمة الله عرضت الخلاص للجميع . و اعتبر كاسيان ، أنّ النعمة تزوّد بالخلاص كل من يرغب فيه .

و مهما كانت نظرتنا نحن الى هذه القضية ، فإنّنا نشكر أغسطينوس على تشديده على أن الانسان لا يستطيع أن يفعل شيئًا من دون معونة اللّه و نعمته ، و ايضًا على تذكيرنا بما خلّفه السقوط من نتائج و تأثيرات كونيّة .18 كان بعضهم و من ضمنهم پلاجيوس نفسه ، بدأوا في تخطّي حدود الكتاب المقدس الصريح ، لكي ينسبوا الى الإنسان بعض المناقب الأخلاقية والمقدرات الروحية التي لا يملكها في طبيعته الخاصة . بالمقابل ، نجد أن أغسطينوس ، في تشديده الصارم على مفهوم التعيين السابق ، قد انحرف الى حدّ التطرّف المعاكس . و من المؤسف أنه أسس ذلك على آيات مفردة من الكتاب المقدس ، اقتبسها بشكل مغلوط من سياق الكلام الواردة فيه . فنراه يستشهد مثلاً باختيار المسيح لتلاميذه الاثني عشر لنقل البشارة - « ليس انتم اخترتموني بل أنا اخترتكم » - 19 و قد استعمل هذه الآية الكريمة كبرهان على ان اللّه اختار سابقًا اولئك الذين سينالون الخلاص . و هو بالطريقة نفسها ، يأخذ الآية « لأن هبات اللّه و دعوته بلا ندامة ، »20 و يطبّقها ، لا على مستقبل الأمة اليهودية - كما يظهر من سياق الكلام و من القرائن - بل ايضًا على خلاص الإنسان الشخصي . إنه يتجاهل أو يُهمل أية فقرة من الكتاب المقدس لا تطابق رسالته او فرضيّاته . كما ان تعليم الرسل مثلاً عن « مخلّصنا اللّه الذي يريد أن جميع الناس يخلصون و الى معرفة الحق يقبلون » ،21 يفسّره اغسطينوس بمعنى أنّ الاختيار سيشمل ممثلين عن جميع الأجناس البشرية و الطبقات الاجتماعية . و واضح أن هذا لم يقصده الرسول بهذا الكلام .

في الواقع ، كـان هـذا التـعليـم الصـارم عن التـعـيين السـابق ، شيـئًا جـديدًا في التـاريخ الكنسي . ويظهر ان التعليم الذي أُطلقت عليه في ما بعد التسمية « شبه پلاجي » ، قد تمّ التزامه بشكل شامل على مدى القرون الثلاثة الأول من العصر المسيحي ، و ذلك في أماكن مختلـفة في معظم المراكز الحضارية مثل الاسكندرية و انطاكية و اثينا و قرطاجة و اورشليم و روما . ويُذكر أنّه كان يقدّم هذا التعليم كل علماء اللاهوت كبار امثال يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) و ايرينايوس (Irénée) ، و إقلمندوس (Clément) واوريجانوس (Origène) ، و نوفاتيان ((Novatien) ، وجيروم (Jérôme) ، و يوحنا فم الذهب (Jean Chrysostome) فضلاً عن لاهوتيي منطقة شمال افريقيا ايضًا .

فترتوليانوس مثلاً ، أكّد أن الانسان خُلق على صورة اللّه ، و هو يتمتّع بالتالي بإرادة حرّة ، كما ان للّه إرادة حرة . إن الإرادة الحرة ، يقول ترتوليانوس ، هي عطية اللّه الكريمة للانسان . وهو يُظهر من الكتاب المقدس كيف ان اللّه غالبًا ما طلب من الانسان ، أن يختار بين الخير و الشر ، و بين الطاعة و العصيان للقوانين و الوصايا المعطاة له . « ان كل المخطط لتهذيب الانسان من خلال وصايا اللّه - بواسطة دعوات اللّه ، تحذيراته و نصائحه - يفترض أن الانسان حرّ في اختيار الطاعة او الرفض و المعارضة . » [22]

اختلف ارنوبيوس ايضًا مع اولئك الذين يحلّون الانسان من مسؤوليات تصرفاته وقراراته : « يقول معارضي : " اذا كان اللّه كلّي القدرة و كثير الرحمة ، و هو يرغب في أن يخلّصنا ، فليغيّر هو ميولنا ، و يجبرنا على أن نثق بمواعيده ! " و لكن هذا سيقود الى الظلم . . . لأنه ما هو الشيء الأكثر جوراً على الانسان الذي هو في واقعه معارض و مقاوم وغير جدير بتحويل انحرافاته و نزعاته ، من أن يُرغَم بالقوة على عمل ما لا يريد قبوله ، و ينكمش امامه ؟ » بل على نقيض ذلك ، يقول ارنوبيوس ، « فاللّه القدير . . . يعطي الجميع على حدّ سواء القوة ليُقبلوا اليه . إنه يقو ل للجميع : " ان ينبوع الحياة هو مفتوح ، و الشرب من هذا الينبوع ليس ممنوعًا عن أحد . "» [23]

بيدَ أن أفكارأغسطينوس قد قُبلت بشكل التعيين السابق ، كما انه جرى الاعتراف بها رسميًا في أيامه ، على أنها تشكّل الموقف الكاثوليكي .[24] و هذا الأمر لا يدعو إلى العجب ، لأن الذين يؤكّدون سلطة الكنيسة الرسمية ، يميلون الى العقائد التي تشدّد على سلطة اللّه . إن عقيدة الخلاص المبنيّة على الإرغام ، تنسجم تمامًا مع التعاليم التي تُكره الناس ايضًا على الإيمان وعلى ممارسته . فإن كان الناس يُساقون الى الأمان و السلامة الأبديين رغمًا عنهم و بالقوة ، أليس من الممكن ايضًا إجبارهم بالقوة على نبذ الهرطقات و تقديم الطاعة و الخضوع للكنيسة الرسمية ذات المعتقد القويم ؟ ان المدافعين عن هذه المبادىء ، قد يُظهرون من دون أي شك في خبراتهم ، كيف ان السلطة غالبًا ما تضمن المعتقد القويم ، بينما الإرادة الحرة و الهرطقة يسيران ، في نظرهم ، جنبًا الى جنب في اتجاه واحد . هل نستطيع ان نرى في موافقة اغسطينوس

على استخدام القوة لقمع الدوناتيين ، انعكاسًا لأفكاره حول دور الإرغام في مقاصد الله ؟ و لربما نسي اغسطينوس ، ان الحرية هي أمر عزيز جدًا على قلب الانسان ، انها بركة لا تتوافر لدينا إلاّ على أساس المخاطرة ، إذ نقبل التنوّع ، و لو تحوّل أحيانًا الى تيهان . لكن ، قد يكون أن الله ارتأى ان يمنح الانسان حرية أكبر مما يريد أغسطينوس أن يمنحه إيّاها او يسمح بها .[25]

و اذا ما نظرنا إلى الأمر من زاوية مختلفة ، نجد أنه كان هناك في الحقيقة الكثير من أوجه الشبه بين اغسطينوس و خصمه الأساسي . لقد اعترف اغسطينوس نفسه بأن پلاجيوس كان رجلاً يعيش حياة لا لوم عليها او شائبة ، و انه متحمّس للحياة الصالحة المستقيمة . كان دائمًا يجلّ تحذيرات پلاجيوس اجلالاً كبيرًا ، إذ اعتبر أنها « مدوّنة بشكل جيد ، كما انها تصيب الهدف تمامًا .» لقد تشابه هذان الرجلان في فكرة التشديد على أهمية إطاعة الله ، كما وصل كلاهما الى المكان عينه بشأن أهمية الايمان الشخصي بالمسيح يسوع . و لعل الفارق الكبير بينهما يكمن في كونهما وصلا الى هذا المكان من طريقين مختلفين . كنّا قد تفحّصنا من قبل ، و بشيء من التفصيل ، طفولته المضطربة التي تلتها سنوات خطيئته و بعد ذلك مرحلة تجدده ، العميق والعاطفي . ومن جهة أخرى ، عاش پلاجيوس حياة هادئة ، كانت تخلو عادة من الانفعالات العنيفة . عاش منعزلاً مع جماعة من الرهبان ، حيث قضى معظم وقته في دراسة هادئة للكتاب المقدس و الصلاة . و هكذا اعتبر بفضل مزاجه اللطيف و الهادىء هذا ، أن الصلاح هو أمر يمكن تنميته بالمواظبة على الانضباط و الطاعة . فهو لم يشعر يومًا بأنه انسان عاجز او ضال . لقد آمن بالمسيح كمخلّصه الشخصي ، فقط لأن الكتاب المقدس يقول إن هذا هو طريق الخلاص . وكان يعلم أنّه أصبح مخلّصًا ، ذلك لأنه آمن و عمل بموجب ما يقوله الله . أمّا أغسطينوس ، فكان يشعر ، بالمقابل ، بأنه غير قادر على فعل ما يقوله الله . لقد كافح بمرارة ضعفه البشري ، و يئس من إمكانية إحرازه أي انتصار على التجربة ، و هكذا أدرك أخيرًا أنه إن لم ينقذه الله و يحفظه ، لا يبقى عنده أي أمل على الإطلاق . لقد خلص تمامًا بنعمة الله . من أجل ذلك كان يرى خلاصه كمعجزة خارقة حصل عليها على أساس الرحمة الإلهية ، إذ لم يكن يستطيع أن يفعل أي شيء لتخليص نفسه . ان الخبرات التي مرّ بها كل من هذين الرجلين ، تزوّدنا بالمفتاح المطلوب لتفهّم سبب المناظرات التي وقعت بينهما ، و لربما أدركنا ايضًا ما الذي يقف وراء الكثير من إساءات الفهم المحزنة التي قد تنشأ بين مسيحيين مخلصين ، حتى في أيامنا هذه .

و يستحيل علينا في هذه الصفحات ان نصف بشكل كاف وجهتَي النظر المختلفتين في المناظرة البلاجية . و أكثر من ذلك ، علينا ألاّ نتسرّع في قبول الموقف « الأغسطيني » ، او رفضه ، في هذا الأمر او في أي من التعاليم الأخرى . لقد رأينا قبلاً كيف ان أغسطينوس غيّر رأيه بخصوص أمر استخدام العنف لتأمين تطابق في وحدة الإيمان و الممارسة . و مع مرور السنين ، طرأ تعديل على أفكاره في مجالات اخرى ايضًا . لقد وصف نفسه بأنه « الرجل الذي يكتب بينما يتقدّم ، و يتقدّم بينما يكتب .»[26] قضى بعض الدارسين حياتهم بكاملها و هم

يحاولون ان يبنوا أنظمة لاهوتية على أساس مقاطع مقتبسة من كتابات اغسطينوس الواسعة والمتنوعة . لكن ، واجهتهم حقيقة كيف أنه يبدّل رأيه في بعض الأحيان ، كما أنه يناقض نفسه مرارًا كثيرة . فالرأي الذي يطوّره و يعالجه بمنطق لا يقاوَم ومعقولية مقنعة في مكان ما ، يعود ويرفضه في سطور قليلة في مكان آخر . مثلاً ، يظهر انه نسي تمامًا رفضه المطلق لفكرة الإرادة الحرّة ، عندما يشير في كتابه « مدينة الله » الى « التعليم المسيحي السليم » في ما يتعلق «بالنفس التي يمكنها ان تتحوّل الى الأسوإ من خلال الاختيا ر الحر . »[27] كذلك ، فإنّ استهانته الأولى بالشفاء المعجزي لكونه « قماط الكنيسة الرضيعة ، » [28] التي نضجت الآن ، قد حلّ مكانه تأييد حار للمعجزات التي لاحظها في كنيسته الخاصة في هيپو و في أمكنة أخرى و التي ما زالت تمارس في أيامنا هذه .

لكنّ أغسطينوس لم ينهمك في المسائل النظرية العظيمة الى حدّ تجاهله القضايا العملية التي كانت تقلق الاعضاء العاديين في الكنيسة . رأى ان المسيحيين غالبًا ما يحصلون على البركات و النجاح و الازدهار كنتيجة لاستجابة صلواتهم ، إلاّ أنه قد لا يحدث ذلك في بعض الأحيان ، فيظهر عند ذاك كأنّ الله لم يستجب صلواتهم . فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة ؟ لقد كتب : « في حال لم يمنح الله حظًا جيداً بكرم ظاهر لبعض المتوسلين اليه ، علينا ألاّ نفترض ان هذه البركات الوقتية هي من اهتماماته تعالى ؛ بينما اذا كان يُنعم بالازدهار على الجميع لمجرّد أنهم يطلبونه منه ، فقد نعتقد ان عبادة الله هي رهن بهذه العطايا ، و عندئذ ستكون عبادتنا برهانًا ، لا على تقوانا ، بل بالحري على جشعنا وطمعنا . » [29]

يعلم الله ما نحتاج إليه قبل أن نسأله ؛ لكنه مع ذلك يرغب في أن نسأله ، حتى إنه يمسك عنّا احيانًا بعض البركات لكي نطلبها منه . « إن إرادته أن تصلّي من أجل ما تريده لكي لا تستخف في ما بعد بهباته . »[30] و لكن ، عندما لا تستجاب الصلاة ، و يظهر كأننا نقرع باب السماء من دون جدوى ، « فاستمرّ في القرع . . . لأن الله يؤجّل او يؤخّر قليلاً ما يريد أن يمنحنا ، لكي نزداد شوقًا و توقًا للحصول عليه . »[31] و هكذا ، فإننا نتعلم من خلال صلواتنا ان نكون جديرين أكثر ، و صبورين أكثر ، وشكورين أكثر .

لقد تفكّر أغسطينوس في العمق ، كما فعل غيره ايضًا ممّن جاءوا قبله او بعده ، في مسألة سماح الله بمعاناة الصالحين و الأبرار مع الأشرار الطالحين . فتوصّل الى الاستنتاج بأن المعاناة هي لاختبار طبيعة الانسان ، رجلاً كان أم امرأة ، و بالتالي كشفها على حقيقتها : « فعندما يتألم الأبرار و الأشرار معًا . . . ، و على الرغم من أن هذه الآلام هي متشابهة ، إلاّ انه يوجد اختلاف بين الاشخاص الذين يتألمون . فالفضيلة و الرذيلة ليسا الشيء ذاته ، حتى و لو كابدا العذاب نفسه . إن النار التي تجعل الذهب يلمع ، هي نفسها التي تجعل التبن دخانًا ، و المدرَس الذي يُهشّم التبن ويسحقه هو ذاته الذي ينقّي الحنطة . و لا مجال البتة ليلتبس علينا أمر التمييز بين الزيت و رواسب الزيتون ، لمجرّد انهما يطلعان كلاهما من المعصرة عينها . و على هذا النسق ، فإن العنف الذي

يطال الأبرار لأجل اختبارهم و تطهيرهم ، هو نفسه الذي يجلب على الأشرار ادانتهم و خرابهم . وعليه ، فإن الاشرار ، تحت وطأة البلوى ، يلعنون اللّه و يجدّفون عليه تعالى ؛ بينما الأبرار ، و قد ألمّ بهم المصاب عينه ، يقدّمون الصلوات و التسابيح . و هذا يبيّن ان ما يهمّ هو طبيعة المتألم ، لا طبيعة معاناته . حرّك مجرى تصريف المياه المبتذلة ، فستتصاعد منها رائحة النتانة و الفساد ؛ وَ بالمقابل ، حرّك العطر فتجد ان ما سيفوح هو العبير و الشذا الطيّب الذي فيه . و مع ذلك فإن عملية التحريك هي نفسها في كلتا الحالتين . »32

شجّع اغسطينوس الكنيسة على ألاّ تخضع للتهويل او تكتئب بسبب القوى المنظّمة ضدّها ، لأن قضية اللّه هي التي ستنتصر في النهاية . إن عدم شعور المُرسل بأهليّته ، لا يشكّل أي عائق في وجه عملية انتشار الرسالة بانتصار . فحتى الرسل الذين اختارهم المسيح أنفسهم ، « كانوا رجالاً وُلدوا ولادة بسيطة متواضعة ، و لم تكن لهم مراكز و لا ثقافات ، حتى إن وُجد فيهم او في أعمالهم أية عظمة ، فهي عظمة المسيح نفسه الحاضر و العامل فيهم . »33 فالرسل هم رجال أصبحوا جسورين بعمل قوة اللّه في حياتهم . « لقد قال المسيح لتلاميذه : " لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد و لكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها . " و هكذا التهبوا بنار المحبة لئلا يتجمّدوا من جراء الخوف . و على هذا الأساس تمّت المناداة بالانجيل في كل انحاء العالم ، ليس فقط من التلاميذ الذين رأوا الرب و سمعوه قبل آلامه وبعد قيامته ، بل أيضًا بعد موتهم بواسطة خلفائهم ، و ذلك في خضمّ الاضطهادات المروّعة والتعذيب على أنواعه وموت الشهداء .» 34

الله ، في كل الأشياء ، يعمل لصالح الذين يحبونه ، يقول اغسطينوس ، كما أنّ ألدّ اعداء الكنيسة يقدّمون لها خدمة لأنهم « يدرّبون بذلك الكنيسة على الاحتمال ، إن كان عندهم سلطان على أن يؤذوا الجسد ، كما أنهم يدرّبونها على الحكمة ، إن كانوا يكتفون بمقاومتها بواسطة أفكارهم الفاسدة . الى ذلك ، فهم يدرّبونها على اللطف كما على الكرم ايضًا ، لكي تظهر محبة المؤمنين حتى الى الأعداء .» إن العناية الإلهية هي التي تضمن أن يكون للكنيسة ما يكفي لمصلحتها من الازدهار والنجاح ، من جهة ، و الشدة و المحن من جهة أخرى : « ان العناية الإلهية ، و لا شك ، تزوّد الكنيسة بتعزية الازدهار لئلا تفشل من جرّاء الضيق ، وبتأديبات الضيق لئلا يعمل الازدهار على إفسادها . »

يحثّ اغسطينوس المسيحي على ألاّ يتأفّف ابدًا او يتشكّى من معاملات اللّه معه ، بل أن يثق بحكمة الخالق : « ان العناية الإلهية تحذّرنا من الاسترسال في التشكّي من الأوضاع بشكل سخيف ، كما أنها تحثّنا بالمقابل على أن نكلّف نفوسنا عناء البحث عن المقاصد المفيدة الكامنة وراء الأوضاع . وعندما نفشل في الحصول على جواب ، سواء كان ذلك بسبب عجز في بصيرتنا او من جراء محدودية قدراتنا ، يجب ان نؤمن بأن هذا القصد قد أُخفي عنّا . . . فهناك دائمًا هدف مفيد وراء غموض الهدف ؛ و قد يساعد على تدريب تواضعنا ، او على تقويض

كبريائـنـا . » 35 و على كل حـال ، على المسيحي ان يتذكـر دائمًا انه لا يستطيع من طريق القلق او المخططات ان يضيف ذراعًا واحدة الى قامته او يومًا واحداً الى حياته . ان اعمارنا هي في يد اللّه ، وهكذا سنبقى في هذا العالم الى أن يدعونا سيّدنا للرحيل الى بيتنا الأبدي . قال اغسطينوس : «الانسان في أمان من الموت حتى يُنهي مهمّته . » 36

أشار اغسطينوس ببعض الظرف الى أن المؤمن يجب ألاّ يخاف ابدًا من الاضطهاد ، حتى و إن كان المضطهد يسنّ موسه و يحدّها ، فهو لن يتمكّن من حلق إلاّ ما هو زائد من لحى المؤمنين : « لذا فمهما استطاع انسان غاضب ذو سلطة ان يأخذه منكم ، فاعتبروه من الزوائد التي عندكم . » فليأخذ أمتعتكم ، و ليأخذ قطعانكم ، و ليستولِ على أراضيكم ! . . . « نعم و حتى الحياة الحاضرة نفسها ليست في نظر اولـئك الذين أفكارهـم منشغلة بحياة أخرى ، هذه الحياة ليست سوى من الزوائد . . . ماذا أخذ منّا هذا العدو المقتدر ، ما هي الاشياء العظيمة التي أخذها منّا؟ إنها تلك الاشياء التي يستطيع لص أو سارق المنازل أن يأخذها ! انه ، و هو في أوج غضبه ، لا يقوى على أخذ إلاّ ما يستطيع اللص أن يأخذه . لو كان عنده سلطان بأن يقتل الجسد ، هل باستطاعته ان يأخذ منكم ، إلاّ ما هو بإمكان اللص أن يأخذه أيضًا ؟ انني في الواقع امنحه الشرف الكبير عندما أدعوه لصًا . لأن اللص مهما كان عليه ، فهو مجرّد إنسان . فهو يأخذ منكم ما يمكن ان تأخذه الحمّى ، او الافعى ، أو نبات الفطر السام . هذه هي الحدود التي قد تصل إليها كل قوة غضب الإنسان و سخطه ، أي ان يفعل ما يستطيع ان يفعله الفطر ! »37

كان اغسطينوس من أعظم الكتّاب الجدليين ، لكن المقاطع التي تحرّك أعذب مشاعر الدفء عند القراء المعاصرين بالإضافة الى قصة بحثه العظيم عن الحقيقة في كتابه « الاعترافات » ، هي ربما تلك التي يسكب فيها قلبه في عبادة خالقه العظيم الكريم . إن اعماله الجدلية تُظهر ذهنه الثاقب و المُهذب ، إلا أن كتاباته التعبّدية تبيّن ، بالمستوى عينه ، قلبًا دافئًا و محبًا . لم تقتصر مهارته الكلامية على إثبات مسائل عقائدية . لقد استنفد كل قدراته اللغوية للتعبير عن حبّه الكبير لسيّده ، و عن فرحته الشديدة كولد من أولاد اللّه صاحب دعوة عليا . لم يكن يعرض براهين ناشفة لحقائق ، إنّما وصف ما كان يفيض به قلبه المفتون بعجائب اللّه و اعماله التي صنعها للانسان – و فوق كل هذا ، ما فعله تعالى لاغسطينوس نفسه ، و هو أقلّ الناس استحقاقًا لنعَم الله .

« هل من ملجإ آخر غير الله ؟ أنت يا إلهي ، انت يا ايها الكائن الأسمى ، انت الاعظم صلاحًا ، الاقوى و الأقدر ، الاكثر رحمة و الاقصى عدلاً . انت هو الأكثر احتجابًا واختفاء عنّا ، و مع ذلك فانت الأكثر حضوراً بيننا ، أنت هو الأكثر جمالاً ، و مع هذا انك الأشد قدرة . أنت الثابت الى الأبد ، إلاّ أننا لا نقدر على إدراك كنهك . أنت يا من لا يتغيّر ، و مع ذلك قادر على تغيير كل الاشياء . لم تكن ابداً جديداً ، و لم تكن يومًا قديمًا ، و مع ذلك فكل الاشياء

تُعطى من لدنك حيـاة جديدة . . . انت من هو دائم الحركـة ، و مع ذلك تنعم بالراحة باستمرار . . . انت تحزن على الإساءة ، لكنك لا تعاني ألمًا . باستطاعتك ان تغضب و لكنك هادىء ساكن . اعمالك متنوعة ، و لكن قصدك واحد ، و يبقى هو هو . أنت ترحّب بجميع الذين يأتون اليك ، على الرغم من أنك لم تفقدهم قطّ . . . انت إلهي و حياتي و فرحتي المقدسة ، و لكن هل هذا يكفي في وصفك ؟ هل يقدر أي انسان ان يقول ما يكفي في حديثه عنك ؟ و لكن الويل لمن يصمتون و لا يتكلمون عنك ! و حتى أكثر الناس مهارة في الكلام و الحديث ، لا يمكنهم ان يجدوا الكلمات لوصفك . » 38

ملاحظات

1- يحتوي الملحق رقم 2 على ثلاثة من أقدم قوانين الإيمان .

2- كانت عقيدة الدوناتيين مستقيمة جدًا بالنسبة الى لاهوت المسيح ، كما كان الحال مع المونتانيين و النوفاتيين .

3- يوحنا 14:1 ؛ 1 تيموثاوس 5:2 ؛ كولوسي 9:2 .

4- *Confessiones* 10:29

5- (*DOTCC* p. 52) *Ep. Demetriadem* 16, *ad fin*

6- (*DOTCC* p. 52) *Ep. Demetriadem* 16, *ad fin*

7- Brown pp. 345-352

8- Brown p. 344

9- *Contra Epistolam Parmeniani* III, 4:25 (Brown p. 223) يلخص براون فكرة أغسطينوس قائلاً :
« الله هو الذي " أعدّ " التحريك الأول لإرادات الناس ، و هو تعالى ، قد قرّر في حكمته السرمدية ، أن يتمّ ذلك بالنسبة الى مجموعة قليلة من الناس فقط . » (p. 399) و اغسطينوس نفسه يلخّص حجّته بشأن هذا الأمر في كتابه :
(*DOTCC* p. 56). *De Dono Perseverante* 35

يبدو أن أغسطينوس ، قد أساء فهم الكلمة اليونانية (eklectoi, eklektos) التي تترجم " بالمختارين " و التي تشكّل عبارة اساسية في نصوص العهد الجديد المتصلة بهذا الموضوع . إن هذه الكلمة لا تعني " مختارين " بمعنى " اختيار شخص من ضمن عدد من البدلاء " . و هذا يبدو واضحًا إذ نجد في الكتاب ان المسيح نفسه مختار (متى 18:12 ؛ لوقا 35:9 ؛ 1 بطرس 4:2 - 6) ، و الملائكة ايضًا مختارون (1 تيموثاوس 21:5) . و بالمقابل نجد ان الكلمة (eklektos) تشير الى شيء او شخص " فُرز لأجل غرض خاص " ، كما فرز المسيح نفسه ليكون مخلّصنا . و عليه ، عندما يُشار الى المؤمنين كمختارين في بعض الفقرات الكتابية ، يجب ان نفهم ذلك كإشارة الى الامتياز الذي لنا كشعب الله الخاص بجملته ، لا كوصف للشكل الذي خُلّصنا به كأفراد (كولوسي 12:3 ؛ 1 تسالونيكي 4:1 ؛ 1 بطرس 9:2 الخ . . .) .

10- *Epître* 204:2 (Brown pp. 335 - 336)

11- (*DOTCC* p. 54) *De Spiritu et Littera* 5

12- Epître 217 (DOTCC p. 55)

13- 34 - 38 De Correptione et Gratia (DOTCC p. 56)

14- 16 Pred Saints (Forster & Marston p. 206)

15- Epp. Pel III, 5:14 (Brown p. 348) ، كتب براون قائلاً : «كان جمهور المستمعين الى أغسطينوس يُقال لهم باستمرار كيف أنه يترتّب حتى على المسيحي المعمّد نفسه أن يبقى معاقًا ؛ فهو يشبه ذلك الرجل المسافر الذي وقع بين لصوص و تُرك بين حيّ و ميت عند قارعة الطريق ، كما ورد الحديث عنه في مثل السامري الصالح . عليه ان يحتمل ، و على مدى حياته الباقية ، فترة نقاهة طويلة و غير مستقرّة ، و ذلك داخل "فندق" الكنيسة .» (Brown p. 365)

و لم يوافق البلاجيون على هذا الرأي ، إذ اعتبروا ان أكثر ما يدعو الى القنوط هو عقيدة أغسطينوس عن الصراع الدائم الدائر في حياة المؤمن بين « الجسد » و « الروح » . فهذا لم يكن في نظرهم سوى الصراع المانوي القديم بين « الخير » و« الشر » ، لكنه يظهر هذه المرة بزيّ مسيحي . كان البلاجيون يفضّلون ان يروا المسيحي كإنسان « جُعل كاملاً في المسيح» ، وأصبح واحدًا من « أولاد الله » . وقد كتب براون قائلاً : « كانوا يجدون انه من الصعب عليهم أن يدعموا آراء يظهر كأنها تشجّع الوثنيين المهتدين الى المسيحية ، الذين خطوا أخيراً الخطوة النهائية و أصبحوا مسيحيين فعلاً ، تشجّعهم على الرجوع الى الخنوع و البلادة ، لكونهم معاقين مزمنين .» (Brown p. 369)

16- Chadwick p. 116 . قد يهلك رجل صالح ، و قد يخلص رجل شرير . قال اغسطينوس : « ثمة انسان يعيش حياة الفساد و الخطيّة ، إلاّ انه قد يكون نوراً بحسب اختيار الله ؛ كما انه يوجد من يعيش حياة حسنة ، لكنه ربما اسْوَد كالليل .»

(*Guelf* 18:1, cité par Brown p. 400)

ولاحظ أوغسطينوس قائلاً : « قد يبدو بديهيًا للناس أن يحصل المسيحيون الصالحون و الأمناء جميعهم على هبة الثبات و المثابرة حتى النهاية . لكن الله ارتأى ان يكون مع القديسين الذين عددهم محدّد ، بعض الذين لن يثابروا .»

(*De Dono Persev.* 8:19, cité par Foakes - Jackson p. 405)

17- ان شبه - بلاجية هي التي يدين بها معظم المسيحيين الإنجيليين المعاصرين . و يتضمن الملحق الثالث خلاصة لهذ العقيدة .

18 - راجع رومية 12:5 - 21 ؛ 1 كورنثوس 21:15 و 22

19- يوحنا 16:15

20- رومية 29:11

21 - 1 تيموثاوس 3:2 و 4 ؛ راجع أيضًا 2 بطرس 9:3

22- *Adversus Marcionem* 2:5

بإمكانك ان تجد في الفصل الثامن بحثًا عن رأي ترتوليانوس بشأن الإرادة الحرة عند الإنسان .

23- *Adversus Nationes* 64, 65 (Forster & Marston p. 203)

24- لقد أصدرت الامبراطورية قوانين تحظّر على النظّار اتّباع مبادىء بلاجيوس ، و ذلك تحت طائلة خلعهم من منصبهم ونفيهم (Brown p. 398)

25- كتب براون قائلاً : «في نظر الدوناتي ، كان موقف اغسطينوس من الإرغام ، إنكاراً فاضحًا للتعليم المسيحي التقليدي : لقد منح الله الإنسان حرية الاختيار بين الخير و الشرّ ؛ و كل معتقد يُرغم الإنسان في مجال الاختيار هذا ، هو ببساطة غير ديني . إن المقاطع من الكتاب المقدس التي اقتبسها الدوناتيون لدعم فكرة حرية الاختيار ، هي نفسها التي عاد بلاجيوس و اقتبسها في ما بعد .» (Brown p. 236)

وأضاف براون قائلاً : «كان يبدو (لأغسطينوس) ، أنّ ما ادّعاه حديثًا البلاجيون بأنه باستطاعتهم تحقيق كنيسة "بلا دنس و لا غضن" ، لم يكن سوى استمرار لتأكيد الدوناتيين انهم ينتمون وحدهم الى هذا الصنف من الكنيسة . »
(Brown p. 348)

26- *Epître* 143 (Chadwick p. 1)

27- *De Civitate Dei* 11:22

28- *De Peccatorum Meritis* 2:52 (Chadwick pp. 73-74)

كتب براون ملاحظًا : « يدعم بلاجيوس افكاره إذ يقتبس من كتاب اغسطينوس نفسه تحت العنوان *De Libero arbitrio* (عن الإرادة الحرة) . و هكذا ، كان الخصم العظيم لأغسطينوس الشيخ ، يستلهم من كتابات الفيلسوف الشاب حين كان اغسطينوس يدافع عن حرية الإرادة في وجه القدرية المانوية . »
(Brown pp. 148 - 9)

29- *De Civitate Dei* 1:8

30- *Sermon* 56:4

31- *Sermon* 105:3

32- *De Civitate Dei* 1:8

33- *De Civitate Dei* 18:49

34- *De Civitate Dei* 18:50

35- *De Civitate Dei* 18:51

36- راجع متى 27:6 ؛ المزمور 14:31 و 15

37- *Sermon* 62:14

38- *Confessiones* 1:4

يبحث عقيدة اغسطينوس عن التعيين السابق كل من :

Brown pp. 154 - 156, 235 - 243 ؛ Chadwick pp. 107 - 119 ؛
Foakes - Jackson pp. 502 - 511 ؛

مع مناشدة قوية لقبولها من Bavinck (pp. 345 - 382) ،

و مناشدة أخرى قوية لرفضها من Forster and Marston (pp. 198 - 231) .

الفصل السابع و العشرون

إرشادات صائبة

كان أغسطينوس ، كما أسلفنا ، يتوقّع تمامًا ان ينمو الزوان وسط الحنطة في الكنيسة . لكنه ، مع ذلك ، حزن جدًا حين رأى كيف ان هذا العشب الضار راح ينمو كثيراً وينتشر في كل أرجائها . لقد أفسد هؤلاء القوم شهادة الكنيسة ، فأصبح هذا النوع من الكنيسة مكاناً محفوفًا بالمخاطر لأتباع المسيح الحقيقيين . كتب اغسطينوس متأسّفًا : «إن المسيحيين الأشرار و الفاترين يشكّلون عائقًا في وجه المسيحيين الذين هم جادين بحق و مخلصين في إيمانهم .» [1]

أحيانًا ، كان غير الزوار الذين يرغبون في أن يعرفوا المزيد عن المسيح ، يُصعقون بما يرونه في اولئك الذين حملوا اسم المسيح . «نحن نرغب في أن يأتي إلينا سائر الوثنيين ،» قال أغسطينوس ، «لكنكم أنتم حجارة عثرة في سبيلهم : ان لهؤلاء القوم الرغبة في ان ينتموا الى الكنيسة ، و لكنهم يعثرون و يعودون القهقرى بسببكم .» [2] لقد وبّخ اعضاء كنيسته الذين كانوا «بتصرفاتهم البعيدة عن المبادىء الروحية ، يسيئون الى مشاعر اولئك الذين يعيشون في خوف اللّه . لقد شوّهوا التسميتين «مسيحي» و «كاثوليكي» ، و جلبوا العار عليهما . و على قدر ما تكون هذه التسمية او تلك عزيزة على قلوب من يرغبون في عيش حياة تقيّة في المسيح ، يزداد امتعاضهم من تصرّف الأشرار في داخل الكنيسة ، الأمر الذي يجعل تعلّق الناس بهذه التسمية أقلّ بكثير ممّا يصبو إليه الأتقياء .» [3]

من جهته ، أخذ أغسطينوس بكل جدية مسؤوليته كراعٍ يهتم «برعية الله» .[4] كان وعظه عمليًا للغاية . و كان يتوق إلى أن يعمّ الجماعة المسيحية روح من المحبة و القداسة . و لكن ، كيف السبيل إلى تحويل الناس العاديين الأنانيين الى قديسين؟ - هذه كانت قضية اغسطينوس . و ربما ، أول ما يجب عمله هو خلق الشوق العميق في قلب كل واحد للتحوّل الى إنسان ألطف و أفضل . خاطبهم اغسطينوس بالقول : «انتم تشترون حنطة بنقودكم ، و تقتنون حقلاً بفضتكم ، و حجراً كريمًا بذهبكم ، و لكن ماذا عن المحبة؟ عليكم أن تُنفقوا من ذواتكم لأجل اقتنائها . لعلكم تريدون ان تشتروا ملكًا أو جوهرة أو دابّة . انتم تفتّشون حقولكم و بيوتكم بحثًا عن موارد لدفع اثمانَ هذه الأشياء . و لكن لكي تقتنوا المحبة ، عليكم أن تفتّشوا في نفوسكم و في دواخلكم . هذا لأنه ينبغي عليكم ان تجدوا ذواتكم ونفوسكم .» [5]

كان اغسطينوس يعلم ما للعادات السيّئة من تأثير مضرّ ، إذ تتولّى إضعاف الإنسان الذي ينغمس فيها و تُفسده : كالاعتياد على الحلفان مثلاً . «اننا نجد حولنا العديد من الناس الذين لا يرغبون في أن ينطقوا بقَسم ، و لكن حيث أن ألسنتهم قد اعتادت على الحلفان ، يجدون ان الكلمات تخرج من شفاَههم من دون ان يكون عندهم أيّة سيطرة عليها . . . فإذا أردتم ان تعرفوا ماذا أقصد ، ابدأوا بمحاولة لجم شفاهكم عن القَسم . . . عندئذ ستتحقّقون من مدى قوة عامل العادة في حياتكم .» على المسيحي ان يكون انسانًا ملتزمًا بكلمته و يكتفي بقول «نعم» او «لا» . إن نزاهة المتكلم و سمعته الحسنة تعطيان وزنًا لما يتفوّه به من كلام حق ، مهما كان بسيطًا . وطبعًا ، لا يجوز ان يُستعمل اسم الجلالة باستخفاف و من دون تفكير ، «لئلا . . . يسقط الإنسان في خطية الحلفان الكاذب ، و ذلك لكثرة ما اعتاد على الحلفان .» [6]

و ماذا بشأن التحدّيات اليومية التي تواجه المسيحيين في أعمالهم و تجارتهم و حرفهم التي يزاولونها لأجل كسب لقمة العيش؟ ان جميع الوظائف و الأعمال هي جيّدة في نظر اغسطينوس ، بمعزل عن مدى كونها مربحة ، او مدى الاحترام الذي يكنّه لها الناس . أنت مَن يقرّر قيمة وظيفتك : «لا تنتقد شغلك او تجارتك ، بل بالحري انتقد نفسك وحدها ، انتقد قلبك الجشع للمال والذي لا يخاف الله .»[7] بعد أن أسقط اغسطينوس من حساباته تلك الأعمال و النشاطات التي يظهر عليها بكل وضوح أنها ملتوية و غير شريفة ، عاد فأكّد بصراحة رائعة : «لا يوجد اعمال حقيرة ، بل فقط عمّال حقيرون .» ان المسيحي الحق ، أيّا كان و مهما كان مركزه ، يعمل كل ما في وسعه ليكون نافعًا للجميع ، وليتصرّف معهم بالعدل . تحدّث اغسطينوس عن أحد أصدقائه ، و هو طبيب مسيحي كان يخدم المسيح إذ يهتم بمعالجة الفقراء مجانًا و من دون مقابل ، عندما لم يكن باستطاعتهم دفع اجرته .[8] انه يشجّع الجميع على العمل الدؤوب كعبيد للكائن الأحد الذي يرى و يعلم كل شيء ، و سيكافيء على الإخلاص . عليهم عندما يعملون ألاّ يأبهوا فقط لأسيادهم الأرضيين ، «لا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب .» [9] و كما قال الرب يسوع نفسه : «الأمين في القليل أمين ايضًا في الكثير .»[10] و لا بدّ من ثواب ، لأن الله سيعطي كثيراً ذلك العبد الذي كان أمينًا في القليل ، سواء أكان هنا على الأرض أم في الحياة الآتية .

عارض أغسطينوس بشدّة عملية قرض المال بالربا ، هذه الممارسة التي كانت شائعة في أيامه . لقد جلبت خرابًا على بعضهم ، و ثروة لآخرين . من أجل هذا ، اعتبر أغسطينوس أنه من الأفضل بكثير الوثوق بالله لسدّ الاحتياجات كلّما طرأت .[11] كذلك يكون من الأفضل بكثير ألاّ نسعى للحصول إلاّ على الأشياء التي يتوافر عندنا المال الكافي لشرائها ، و ان نتجنّب بأي ثمن جميع الأساليب التي لها علاقة بالمقامرة . يتوجّب على المسيحي أن يُقرض المال من دون مقابل ومن دون أن يرجو شيئًا . لكن عليه بالمقابل أن يتجنّب الاقتراض . يوجد وجهان للدَّين : «إقرض ،» هذا ما تقوله كلمة الله ، لكن في الوقت عينه ، «لا تكونوا مديونين لأحد .»[12]

و من الواضح ان القرض الذي لا يُعطى من دون إرجاع ، يمكن اعتباره هبة مقدمّة باسم المسيح لأجل تقدّم ملكوته .

كانت الحياة في افريقيا الشمالية محفوفة بالمخاطر بالنسبة الى المسافر ، سواء أسار في الطريق من أجل عمله أم من أجل خدمة ملكوت اللّه . و اغسطينوس نفسه ، كان يتنقّل على صهوة حصان للكرازة في أماكن مختلفة ؛ كما ان العديد من القادة الآخرين كانوا يُقبلون من خارج البلاد لحضور المؤتمرات المنعقدة في قرطاجة . كان اغسطينوس بحسب العادة المتّبعة آنذاك ، يصطحب معه دليلاً عندما يكون الطريق غريبًا عليه أو غير مألوف . كانت الطرقات تعجّ بقطّاعها و بالوحوش المفترسة وذلك بمحاذاة الأوهاد و غابات المسالك الصخرية الجبلية الوعرة ، خصوصًا في منطقة نوميديا ، و في داخل البلاد . الطرقات الرئيسة وحدها كانت مرصوفة ببلاطات رومانية خشنة و متفاوتة . وغالبًا ما كانت الطرقات الجانبية و الفرعية مقطوعة في الشتاء ، و ذلك بسبب انهيارات الصخور او التربة ، أو من جراء السيول المتدفّقة بغزارة و الناتجة من ذوبان الثلوج التي تكسو قمم الجبال . أمّا في الصيف ، فعلى المسافر أن يجاهد مع العطش و مع الحرّ المحرق و الزوابع الرملية العنيفة . لكن المسيحي كان يلاحظ العناية الإلهية و هي ترافقه حتى في أتفه تفاصيل الرحلة و دقائقها : إيجاد المؤونة ، الحظو بنزل محترم ، رفقة مسافر شريف نبيل ، او الحصول على حمار بسعر متهاود و مناسب . كانت هذه الأشياء في نظر المسيحي كبركات من عند اللّه . كان المسافرون يغنّون للإبقاء على المعنويات مرتفعة . ففي الوقت الذي كان الوثنيون يضجّون بأغانيهم الفاجرة الفاسقة ، كان المسيحيون بالمقابل يترنمون بالمزامير او بالتراتيل التي تمجّد اللّه .

كانت حياة المسيحي تشبه رحلة . «رنّموا في قرارة نفوسكم ترنيمة جديدة ،» قال أغسطينوس ، «رنّموها في الطريق المأمون ، كما يغنّي المسافرون . فهم يغنّون خصوصًا في أوقات الليل . كل ما حولهم يدعو إلى الخوف ، تزعجهم أقلّ ضجّة أو أي صوت مهما كان خافتًا ، وحتى الصمت الرهيب نفسه ، لأنه يولّد الخوف في النفس . كما أن اولئك الذين يخشون قطّاع الطرق ، يتجمّعون أيضًا لأجل الغناء .»[13] امّا المسيحي ، فيرنّم ، لأن قلبه يفيض بالفرح ، و لأن المسيح يسير أمامه ليعدّ له السبيل . و هو لا يُنشد أغاني العالم ، كما يذكّرنا اغسطينوس بأنه «جديد هو الطريق ، و جديد هو المسافر ، و جديدة هي الأغنية .»[14]

و من وقت الى آخر ، يتوقّف المسافر ليأخذ قسطًا من الراحة . علّق أغسطينوس على هذا بالقول :«نجدّد قوانا حين نتوقف قليلاً في فندق ، ثم نعود بعد ذلك الى التحرّك من جديد . إننا نجد هنا خير تعبير عن حياتنا كمسيحيين . فأنت تقصد الفندق لأنك على الطريق . و أنت تلتجيء إليه لأنّك تريد ان تُكمل سيرك ، لا لأنك ترغب أن تقبع في مكانك . انت في رحلة ، و هذه الحياة هي سلسلة من الفنادق .»[15] إلاّ ان الفنادق غالبًا ما كانت في تلك الأيام ذات سمعة سيّئة ، و هكذا كان المسافر شكوراً عندما يستضيفه مسيحيّون آخرون . فالمأوى الذي

يقدَّم الى أخ في المسيح يُقدّم في الواقع للمسيح نفسه ، تمامًا كما وجد التلميذان اللذان كانا منطلقين الى عمواس .[16] كانت الكنائس المحلية الكبرى كتلك التي في قرطاجة ، تُعدّ و تنظّم احيانًا بيت ضيافة دائم للمسافرين ؛ كما ان آخرين كانوا يسمحون للمسافرين بالنوم في مبنى الكنيسة المحلية . و مونيكا ، عندما كانت في طريقها لزيارة ابنها في ايطاليا ، باتت ليلة في بيت تابع لكنيسة قريبة من قرطاجة .

يوجد مكان للعوز و للمعوزين في مواعظ اغسطينوس ، كما انه كان لهم مكان في شوارع هيپو ، حيث كان التجار يختلطون مع المسوّلين يومًا بعد يوم . كان الأغنياء ، أصحاب الأراضي ، ينجذبون الى الكنيسة بفضل ما يسمعونه عن المواعظ المنمّقة التي كان يلقيها الوعّاظ الموهوبون أمثال أغسطينوس . كان هؤلاء الارستوقراطيون قد جمعوا ثراءهم من تصدير البضائع الى روما ، إلاّ أن المدينة باتت ايضًا شبه شبكة قانصة تحتوي على العديد من الذين كانوا يجتازون في ضيقات وأزمات ، أو قد تمّ ربما اقصاؤهم عن مدينتهم أو عن قريتهم بسبب إساءاتهم او إساءات الآخرين . كان هؤلاء يجدون ملاذًا لهم من خلال الإقامة داخل الأكواخ في «قرطاجة» ، او في «هيپو» . و قد عانى الكثيرون منهم الأمرّين من جرّاء اعمال احتيال و تدجيل : إفلاس في العمل بسبب صفقات عقدها أناس عديمو الضمير ، مصادرة الأملاك او الاستيلاء عليها بالقوة ، بخس الأرامل حقوقهنّ ، سرقة صكوك التملّك او تزوير مضمونها ، حياة سادها الشقاء بسبب تهديدات جيران جشعين ، أو محامين مجردين من المبادىء الخلقية يطلبون الرشوة . لقد أشار أمبرُوزيُوس (Ambroise) في ميلانو الى كَرم نابوت اليزرعيلي ، الذي كان قد سرقه منه اخآب الشريَر ، ملك السامرة .[17] «هذه القصة تتكرّر يوميًا أمام أعيننا ،» قال أمبروزيوس . لقد كانت مثل هذه الحوادث مألوفة في افريقيا ايضًا .

كانت العائلات المتألّمة على هذا النحو كثيرة العدد . كان الفقر المدقع حقيقة مُرّة : دائنون واقفون يتجادلون عند قبر المديون و على مرأى من أولاده المنتحبين ، قوم محتشمون يتحوّلون في يأسهم الى السرقة و الى تعاطي الزنا ، أهل يُضطرون ، بسبب الجوع الذي أصاب أحد ابنائهم ، الى بيع الابن الآخر في سوق النخاسة ، اولاد يعيشون حياة الحرمان بسبب الموت المفاجيء لوالدهم أو تخلّيه عنهم ، اطفال مطروحون في الشوارع من أمّهاتهم اللواتي انجبنهم بطريقة غير شرعية . وغالبًا ما أشار اغسطينوس الى مثل هذه الأمور المرعبة ، و كان الويل من نصيب أي عضو في كنيسته عنده ميل لقهر الضعيف : «انتبهوا فعندما تفترسون سمكة صغيرة ، سوف تأتيكم سمكة كبيرة لكي تفترسكم انتم!» [18]

ناهض اغسطينوس بشدّة ممارستين كانتا شائعتين : الاجهاض ، و التخلّي عن الاطفال غير المرغوب فيهم . غالبًا ما كانت النسوة المسيحيات ، و بخاصة أولئك اللواتي كنّ يقطنّ الأديرة ، هنّ من كان يهتمّ برعاية امثال هؤلاء الأطفال المتروكين و المتشرّدين ، يحملهم بحرٌ جيّاش ، و لا مأوى لهم في هذا العالم . لكنهم وجدوا الدفء و الرجاء من جراء رعاية الجماعة المسيحية لهم . «لقد

حلّ فصل الشتاء ،» قال اغسطينوس ، «ففكّروا اذاً في الفقراء ، اكسوا المسيح العريان ! كل واحد منكم يرجو ان يتقابل معه في المجد ؛ و لكن انظروا ، ها هو ملقى هناك تحت القنطرة ؛ انظروا ، ها هو يتضوّر جوعًا . انظروا انه يرتعش من البرد القارس ، معدم و مفلس ؛ انظروا اليه هناك وهو بعيد عن بيته و أهله . افعلوا ما تعوّدتم ان تفعلوه ، لكن أكثروا منه ! يجب على معرفتكم الروحية ان تثمر في افعالكم و سلوككم . انتم تسبّحون الزارع ، فأتوا الآن بالحصاد !» [19]

كانت تُسمع حكايات كثيرة محزنة عن أناس فقدوا دُورهم ، و صحتهم و مصادر معيشتهم . وكان باستطاعة الأصحاء من رجال و نساء أن يجدوا اعمالاً موسمية ، و لكن بعضهم لم يكونوا اصحاء او صالحين للعمل ، و لم تكن لديهم أية وسيلة أخرى للبقاء على قيد الحياة ، سوى الاتكال على مساعدة المحسنين . يأتي بعضهم و يقرع أبواب المسيحيين . «انتم تعطون المستعطي عندما يطلب منكم ،» قال أغسطينوس ، «لكن طوبى لمن يعطي من دون أن ينتظر الطلب منه . ادعوا المحتاجين الى دخول بيوتكم ؛ قدّموا لهم شيئًا ليأكلوا . افرحوا عندما يُسدّ رمق هؤلاء الجياع ، لأنهم يكونون عندذاك قد شبعوا ممّا قدّمتم لهم من خبز ، و أنتم تكونون قد شبعتم من برّ الله .» [20] و في يوم آخر ، قاد أغسطينوس شعبه إلى التفكير في ما شعروا به عندما أعطَوا : «لقد رحّبت بإنسان فقير في بيتك ، و لكن يظهر عليك أنك متردّد و متحيّر . أليس هذا ما يحصل؟ لعلّ ذلك الإنسان كان دجّالاً و مرائيًا . حسنًا ، أعطه على كل حال . إن كان شريراً ، فإن التفاتتك اللطيفة هذه قد تحوّله الى إنسان صالح .» [21] كذلك خاطبهم بأكثر حدّة قائلاً : «انظروا الى الفقير الذي هو الى جانبكم ! انتم ايها الاغنياء ، لستم سوى شحّاذ واقفَ عند باب الله !»[22] فالرجل الفقير ، قال اغسطينوس هو قصة رمزية حيّة : انه يظهر طبيعتنا الإنسانية الحقيقية امام الله .

لم يكن اغسطينوس محاميًا يدافع عن قضية الفقراء فحسب ، بل كان يسعى أيضًا لتعزيتهم وتشجيعهم . و لم يكونوا بدورهم يشكّون ابدًا في أنه كان يعمل لصالحهم ، لكنهم كانوا أحيانًا في حاجة إلى ان يسمعوا كلمة تحذير منه . فصفة الجشع مثلاً ، لم تكن بأي حال من الأحوال مقتصرة على الاغنياء ، هذا لأنها قد تبرز عند الفقراء ايضًا ، و على درجة قد لا تقلّ عن اولئك . و لعلّ خطيئة الشهوة و الطمع هي الأكثر شيوعًا بين الخطايا ، و قد دانتها شريعة موسى ، كما دانها المسيح نفسه ايضًا .[23] «انظروا الى الغني الواقف الى جانبكم ،» قال اغسطينوس مخاطبًا الفقراء ، «فلربما كانت له اموال كثيرة ، لكن ليس فيه أي جشع او طمع ؛ بينما انتم الذين لا تملكون المال ، أنتم طمّاعون الى أقصى الحدود !» [24]

كما أن اغسطينوس هنّأ أيضًا اولئك الذين ، على الرغم من احوالهم الصعبة ، ظلّوا محافظين على فرحهم ، و ما انفكّوا يرفعون الشكر و الحمد لله الذي اعطاهم ما في حوزتهم على الرغم من قلّته . إلاّ أن أغسطينوس لم يكن بالمغفّل و الجاهل ؛ هذا لأنه كان يعلم ان الكثيرين من هؤلاء الفقراء قد جلبوا الفقر و العوز على أنفسهم ، و بخاصة اولئك الذين ارادوا ان يتخلّصوا من

احزانهم ، او ان يجدوا بعض السرور و الترفيه من خلال الانغماس في شرب خمر افريقيا الحاد . كان ايضًا يعرف عن بعضهم الذين كانوا أصحاب غنى و امتيازات في بداية حياتهم ، لكن فقدوا كل شيء ، بسبب الادمان ، و انتهى بهم المطاف الى لبس الأسمال البالية . و مع هذا ، فإن أغسطينوس دعا الآخرين إلى أن يُشفقوا على أمثال هؤلاء ، و أن يعاملوهم باللطف إن كانوا ينتظرون من اللّه أن يعاملهم ايضًا بالمثل . لقد عملت الكنيسة المحلية الكثير من اجل الفقراء - كتخصيص حصص من مواد غذائية للأرامل و اليتامى ، وجمع بعض الثياب المستعملة و جعلها في متناول من هم في حاجة اليها - و لكن كل هذا لا يعفي اعضاء الكنيسة قط من ضرورة تقديم المزيد في هذا المجال . «ان اعطيتم الفقراء ،» قال أغسطينوس ، «انتم بذلك تعطون رسولكم الشخصي ، فإنه سيوصل لأجلكم الى السماء كل ما تأتمنونه عليه .» [25]

قال أغسطينوس إن المحبة تبذل كل ما في وسعها لمساعدة الآخرين ، و لاحتمال زلأتهم واخطائهم ، و إنّ هذا هو سبب ترحيبنا بعودة اولئك الذين تركونا و سقطوا في الخطية ، الى الكنيسة من جديد . و لكن المحبة تتطلّب منّا في بعض الأحيان ان نطلب لأجل الذين نحبّهم ان يرتقوا في حياتهم الى مستوى أعلى . فاللّه ، كأب حكيم يؤدّبنا لأجل صالحنا . و هو لا يرغب في أن يحرمنا من بركة او من مسرّة ، لكنه يرغب في ان ينتزع من قلوبنا الخطايا التي تسبب لنا الحزن و الأسى . «المحبة هي التي تضرب و تجرح ، بينما الشر هو الذي يُطري و يتملّق .» [26] الله في معاملاته معنا لا يريحنا دائمًا ، لكنه دائمًا ينفعنا . وبما ان الله يتعامل معنا بإخلاص ، لذا يجب علينا ان نتعامل مع الآخرين بلطف ، و لكن بحزم . فنوبّخهم عند الضرورة ، و بالأكثر عندما نكون مسؤولين شخصيًا عنهم و عن سعادتهم .

كذلك ألمح اغسطينوس ايضًا الى ان الأمور ليست دائمًا كما تبدو لنا . فالناس قد يعملون المآثر الحسنة ، و لكن انطلاقًا من بواعث بحت أنانية . و من جهة أخرى ، قد نعمل بأفضل الدوافع ما قد يظهر عليه بأنه تصرّف وحشي و قاس . «يوجد اشياء كثيرة تظهر بأنها جيّدة ، لكنها في الواقع تخلو من المحبة في جذورها .» لكن أموراً أخرى تبدو قاسية و مرفوضة ، مع أنها في الواقع ، معمولة بدافع المحبة للآخرين . و هذا ينطبق على التأديب في الكنيسة المحلية : انه يعمل لصالح الذي يقبله . و لكن ، كيف لنا ان نعلم إن كنّا نُحسن التصرّف ام لا؟ ففي شؤوننا اليومية ، كما في أمور الكنيسة ، إذا شئنا ان نعرف أي سلوك هو الصحيح ، ينصح أغسطينوس بأن نفتش في قلوبنا عن المحبة ، وبأن نعمل ما تمليه علينا المحبة . ثم يختم اغسطينوس بقوله المأثور : «في النهاية ، ثمة وصية واحدة معطاة لكم : احبّوا ، ثم افعلوا ما تشاؤون وترغبون .» [27] هذا لأن الذي يحب ، لا يعمل إلاّ الخير و الحسن دائمًا .

في القرن الرابع ، كان عدد الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين في المدن ، أكبر من عدد الوثنيين . و كان من الصعب ان تجد بيتًا لا يحتوي على مسيحي واحد على الأقل ، كما ان البيوت التي هي في غالبيتها وثنية باتت نادرة . لكن هذه الظاهرة لم تُحدث أي تغيير كبير في نمط الحياة

الذي كان متّبعًا في الشوارع او في الأسواق . لقد وقفت الكنيسة لتنافس ما كانت تقدّمه المسارح و الميادين من عروض جذّابة و مبهجة . كانت حشود المندفعين من مدرّج هيپو ، و هم مملوؤون إثارة من جراء ما رأوه معروضًا أمامهم على هذا المدرّج قبل قليل ، يجدون أنفسهم انهم قد اختلطوا في الشوارع بالمسيحيين الخارجين من الباسيليكا . «يا لتعاستهم !» كانوا يتمتمون ، «إنهم لا يدرون ما فاتهم من مشاهد مثيرة في الداخل !» [28] طبعًا لا يمكن للمزامير وللصلوات في روعتها اللطيفة ، و لا للعظات في فصاحتها وبلاغتها ، ان تكون طرفًا في المنافسة على أساس هذه الشروط . كانت العبادة المسيحية في روعتها وجمالها تُعرض على الجمهور عينه ، و لكنها كانت تحرّك مشاعر مختلفة عندهم . لم تكن اجتماعات المسيحيين معًا تهدف قط الى أن تكون مرحة و مسلية ، و هكذا باتت خيبة الأمل من نصيب كل من كان يخالها كذلك . و غالبًا ما كان اغسطينوس يتأسف في مواعظه ، و يرثي لحال اولئك المسيحيين الذين كانوا ينقطعون عن الاجتماعات بسبب ارتيادهم المسارح . فأولئك الذين كان بوسعهم ان ينالوا اكبر إفادة ممكنة من كلامه ، لم يكونوا حتى حاضرين للاستماع إليه .

لكن ، وُجد ايضًا في الكنيسة من كانوا مصدر فرح و سرور لأغسطينوس . كانوا يقرأون الكتاب المقدس في بيوتهم ، باذلين كل ما في وسعهم للسير بموجب ما يكتشفونه فيه . كذلك كانوا يجتمعون كل يوم للصلاة ، و مرّة في الاسبوع لأجل التعمّق في التعليم ، كما أنهم كانوا يحتملون بصبر أخطاء من هم حولهم من الناس و عيوبهم . لقد اظهروا محبة المسيح في حياتهم . قال اغسطينوس عنهم إنهم يشبهون النمل : «تأملوا اذًا نملة الله : انها تصحو باكرًا في كل يوم ، تُقبل مسرعة الى الكنيسة ، تصلّي ، تصغي الى القراءات ، تشارك في الترنيم ، ثم تخرج لتجترّ ما قد سمعته . إن هؤلاء القوم يستمرون ، على غرار النمل ، في السير ذهابًا و إيابًا في الطريق عينه لجمع مخزون لفصل الشتاء .» [29]

إلاّ أن الوثنية ، مع مذهب حيوية المادة (animisme) ، كانتا لا تزالان شوكة في جنب الجماعة المسيحية . و أحيانًا ، عندما كان عدد كبير من الوثنيين يعتنقون المسيحية ، كان عندهم ميل إلى أن يحملوا معهم الى الكنائس كميات ضخمة من الرواسب الوثنية . و قد كان من الصعب على القيادة الروحية آنذاك ، و التي سبق لها أن وزّعت مقدّراتها و طاقاتها ، أن تزوّدهم جميعهم بالتعليم الملائم الكافي . كما انه غالبًا ما كان قادة الكنيسة أنفسهم غير مؤهلين لتقويم الأمور ، و بالتالي تقرير ما يُسمح للمسيحيين ان يعتنقوه و يمارسوه ، و ما يجب أن يرفضوه . لقد شاعت في القرن الرابع في أوساط الكنائس بعض العادات المعروفة و التي ترجع في جذورها الى مذهب حيوية المادة ، لا الى الأسس الكتابية المسيحية . انها تُظهر في الواقع مجرّد قشرة مسيحية رقيقة تغطّي تحتها جسمًا صلبًا من المعتقدات والممارسات الخرافية – مثال ذلك رسم إشارة الصليب في الهواء كدفاع ذاتي ضد الشر و الشرير – و بالاستناد الى هذه الخلفية الوثنية ، نستطيع ان ندرك الأسباب الكامنة وراء الاهتمام بحماسة بتوجيه الصلاة الى أرواح الموتى ، و بجمع رفات الشهداء و بزيارة المقابر و المواقع الأخرى المعتبرة مقدّسة .

لقد استحوذت هذه المعتقدات القديمة على عقول الرجال و النساء آنذاك على مدى أجيال كثيرة ، حتى إن عدداً كبيراً من الناس استحسنوا أن يساوموا و يبقوا يعرّجون بين الفرقتين . و هكذا اكتفوا بإضافة صيغ جديدة الى صيغ العادات و التقاليد التي كانت مألوفة عندهم قبلاً . كانوا يمجّدون اللّه في الباسيليكا ، و ايضًا يتمتّعون بآلهة الإخصاب و الحرب في المسارح و الميادين ويبتهجون بها . كانوا يلبسون التعاويذ ، لكنهم كانوا يحشرون في داخل بعضها آيات من الكتاب المقدس . كانوا أحيانًا يستشيرون ناظر الكنيسة و أحيانًا أخرى العرّاف والمنجّم . كانوا يخافون من الفأل السّيىء ، و يفتّشون عن الفأل الحسن . كانوا يأخذون الحيطة و الحذر من أمور وهمية ، وذلك بالتلفظ بأشكال من الرقي وعبارات السحر . كما انهم كانوا يحاولون استرضاء الشياطين الذين كانوا بحسب اعتقادهم ، يطوفون خلسة حول مصادر المياه و المزارع . «انهم يتصوّرون ان الشياطين هم مصدر غناهم ،» قال اغسطينوس ، «في ظنّهم ان اللّه ضروري للحياة الأبدية ، و لكن في ما يخصّ ضروريات الحياة ، يكون من الأفضل التوجّه الى القوى الشيطانية . يا للغباء !» «انهم مسيحيون طيّبون ما دام كل شيء على ما يرام ،» أضاف يقول ، «و لكن اذا حصل معهم أي حادث مؤسف ، فهم يهرعون الى العرافة ليروا ما تقوله أوراقها . يا لسذاجتهم !» [30]

ان الكثيرين من الذين كانوا يعزون اعمالهم الشريرة الى تزامنات النجوم ، ظلّوا يحتفظون باعتقاداتهم الخرافية بالقضاء و القدر ، و هو أمر لا يزال مألوفًا حتى في أيامنا الحاضرة . و بدل من أن يلوموا النجوم او «القدر» ، اصبحوا يلومون اللّه . ثم يخترعون الأعذار المناسبة : «لو لم يكن ذلك من إرادة اللّه ، لما كنت فعلته ! فماذا تتوقعون مني؟ لقد كان هذا قدري !» [31] كانت صرختهم في الأيام الماضية : «ان مَن ارتكب الفحشاء و الزنى هي الزهرة (Vénus) ، لا أنا ! لم أكن انا الذي قتلت هذا الرجل ، بل عطارد (Mercure) هو الذي قتله !!» و هكذا نجد أنه لم يطرأ على كل هذا إلاّ تغيير قليل . انهم يصرّحون الآن ببساطة بالقول : «لم أكن انا بل اللّه !» [32]

آخرون حاولوا ان يجمعوا بين عبادة اللّه و الاستمرار في تقدماتهم السرّية للآلهة الرومانية : كايلستيسْ (Célestis) ، نبتُون (Neptune) ، جُونُو (Junon) و غيرها . بالنسبة الى هؤلاء الناس ، كانت أية كارثة ، سَواء أكانت طبيعية أم بشرية ، تهشّم ما كان لديهم من ايمان ضعيف . فحين سقطت روما سقطوا هم ايضًا معها . لقد كانوا يتمسّكون في يأسهم بأقفية الآلهة المتقهقرة في محاولة عقيمة لإعادتها الى الامبراطورية التي كانوا قد تخلّوا عنها .

كيف السبيل إلى تشجيع الناس على الانعتاق بالكلية من الماضي؟ تلك كانت القضية التي شغلت قادة الكنيسة في القرن الرابع . و قد اتُخذ القرار في ذلك الحين بنقل الاحتفال بعيد ميلاد يسوع من السادس من شهر يناير (كانون الثاني) الى الخامس و العشرين من شهر دجمبر (كانون الاول) ، الذي كان يصادف موعد انقلاب الشمس الشتائي وعيد مولد الإله شمس . و كان القصد من ذلك هو ادخال شكل من الجذب المضاد في هذا اليوم الذي كان المهتدون الى المسيحية يميلون فيه الى مشاركة جيرانهم الوثنيين في احتفالاتهم الدينية الصاخبة .

إن احتفال المسيحيين بيوم القيامة - حين يتذكّرون موت المسيح و قيامته - قد صادف حلوله في الربيع ، في الوقت عينه حين كان الوثنيون يحتفلون بشعائرهم و بطقوسهم الخاصة المتعلّقة بالموت و القيامة . و إذ كان كلّ من الاحتفالين يجريان في وقت واحد ، كان على المسيحي أن يختار واحداً منهما . و لكن الخطر في ذلك هو ان يكون احتفال المسيحيين مشابهًا الى حد كبير لذلك الاحتفال الذي كانوا يحاولون الاستعاضة عنه ، الأمر الذي يعمل على تثبيت ، لا الحق المسيحي بل الضلال الوثني ، في أفكار المشاركين فيه .

لم تكن معتقدات الوثنية و خرافاتها هي التي لا تزال موجودة وحدها في الكنيسة ، و لكن مع الأسف الشديد ، و في حالات عديدة ، كان معها ايضًا مقاييس وثنية للسلوك و الممارسة . فالكاثوليك الذين رحّبوا بكل الناس و بلا استثناء ، وجدوا نتيجة لذلك ان اجتماعاتهم كان يحضرها الكثيرون من الذين لم يكونوا مسيحيين إلاّ بالاسم فقط ، كما ان بعض هؤلاء لم يكونوا حتى يدعون انفسهم مسيحيين . كانت هذه الحشود تستمتع بالمناسبات الاجتماعية و بفصاحة الواعظ ، و لكن لم يكونوا ينوون قط أن يتوقّفوا عن ضرب زوجاتهم ، و عن معاشرة خليلاتهم ، والتعامل بالغش مع زبائنهم . ففي القرن الرابع أصبحت الاجتماعات تتمحور على خطبة أو محاضرة فصيحة ، و ملقاة بمهارة يقاطعها بين الفينة و الأخرى تصفيق الحشود المجتمعة و هتافهم . أمّا أغسطينوس ، فكان يبكي ؛ لقد أوضح لقطيعه كيف أنه يفضّل بالنسبة إليهم أن يعملوا بموجب ما يوجّههم إليه ، على أن يهلّلوا لدى سماعهم إيضاحاته . لقد تحدّث عن بعض الناس الذين لا يريدون المعمودية خوفًا من ان تُضطرّهم هذه المعمودية إلى الإخلاص لزوجاتهم . كانوا يتمنّون عليه كثيرًا ألاّ يتطرّق الى مسائل شخصية من هذا النوع . فردّ عليهم بالقول : «سأبقى اتكلم سواء أحببتم ذلك أم لا .»[33] انه يكشف الخطايا القبيحة التي تقترفها جماعته ، ثم يتوسّل إليهم لكي يُصلحوا طرقهم . و قد صوّر الوضع ، ربما بشكل أقتم من حقيقته ، لأنه كان مهتمًا بشفاء المرضى أكثر من تهنئة الأصحّاء . لقد كان قصده من الصورة التي رسمها ان يصعق الجماهير - و بالتالي اصلاحهم - أمّا الحقائق ، فهي لا تقبل الشك .

في بعض الأحيان ، لم يكن تجنّب عملية التأديب ممكنة ، لقد كان من الضروري منع احد الرجال او النساء عن العشاء الرباني . و كان على التائب ان يعبّر عن توبته بالصلاة والصوم لوقت طويل . و لكن عملية تأديب مثل هذه الجماهير المختلطة ، كانت مشحونة ومفعمة بالصعوبات : «انه من الضروري ان نراعي بالنسبة الى كل واحد من اولئك الذين يخضعون للتأديب ، مدى قدرته على الاحتمال ،» قال اغسطينوس ، «و ذلك لئلا نشلّ بعضهم ، أو نُعثر بعضهم الآخر . كم أنا احتمل من كروب ! فغالبًا ما يحدث إني أؤدّب انسانًا فيعثر من جراء ذلك ، و إن كنت لا أؤدّبه ، يعثر شخص آخر هذه المرة .»[34]

و لكن ، لماذا لم يكونوا مسيحيين أفضل مما هم عليه؟ قد يجيب بعضهم : لأنهم لم يكونوا مسيحيين ابداً ، و هم بالتالي لا يستحقون على الإطلاق المعمودية التي رفضوها . ففي القرن الرابع

للميلاد أصبحت الكنيسة مركزًا اجتماعيًا هامًا في مدن شمال افريقيا . لقد حلّت ابنيتها محلّ المعابد و قاعات جماعات الحرفيين و الصناعيين ، حيث يجتمع الناس لكي يتطارحوا أطراف الحديث . و في هذا الوقت ايضًا ، كان العديدون قد وُلدوا في داخل العائلات المسيحية ، و هكذا اعتادوا على حضور اجتماعات الكنيسة منذ نعومة اظفارهم ، من دون ان يستجيبوا شخصيًا لدعوة المسيح . لقد ادّعى بعضهم أنهم مسيحيون ، لكن لم تظهر في حياتهم إلاّ الدلائل القليلة على مسيحيّتهم ؛ و مع ذلك فقد رُحّب بهم ، على أمل ان يتحسّنوا ، إذ يستمعون الى المواعظ و الى ما يتعلّق بالايمان . لقد كانوا اعضاء في الكنيسة الكاثوليكية ، و لكن ، بأسف و حزن عميقين ، لم يكونوا تلاميذ حقيقيين للمسيح . و عليه ، هل يوجد شيء آخر يمكن توقّعه منهم؟ كيف بإمكانهم ان يعيشوا بقوة اللّه ، إن كانوا لم يحصلوا بعد على غفران اللّه؟ و كيف سيكون بوسعهم ان يرجوا الحصول على بركة الله في الوقت الذي يرفضون أن يطيعوه تعالى؟ لقد بذل اغسطينوس قصارى جهده لتحويل الزوان الى حنطة ، لكن هذه المهمّة كانت خارجة حتى عن نطاق إمكانياته . فقد كرّر التحذيرات نفسها ، و قدّم التوجيهات عينها ، و علّم الحق ذاته ، و لكنه اكتشف مع مرور الزمن كيف ان رعيته ظلت جاهلة و ضعيفة ، كما كانت دائمًا من قبل . لم تعد الكنيسة الكاثوليكية كشَركة بين أناس مسيحيين مخلصين و نزهاء . و في معظم الأوقات ، كانت تحذيرات اغسطينوس الصَادقة تذهب ادراج الرياح و تصطدم بآذان صمّاء .

ملاحظات

1- *Sermon* 88
2- *Sermon* 67:9
3- *De Civitate Dei* 18:51
4- 1 بطرس 2:5
5- *Enn. in Psalmos* 38:13 (Hammann p. 47)
6- *De Sermone Domini in monte* 1:51 ؛ Brown pp. 149 - 150 ؛ بالإشارة الى متى 5:33 - 37
7- *Enn. in Psalmos* 70:17 (Hamman p. 48)
8- *Epître* 159:3 (Hamman p. 51)
9- أفسس 6:6
10- لوقا 10:16
11- فيلبي 19:4
12- لوقا 6:34 - 36 ؛ رومية 8:13 ؛ أمثال 7:22
13- *Enn. in Psalmos* 66:6 (Hamman p. 86)
14- *Enn. in Psalmos* 66:6 ; 137:10 (Hamman p. 86)
15- *Tractatus in Joannis evangelium* 40:10 (Hamman p. 86)

16- متى 25:37-40 ؛لوقا 24 :13-35

17- Hamman pp 144 - 145 ؛بالإشارة الى 1 ملوك 1:21 - 19

18- 64:9 *Enn. in Psalmos* (Hamman p. 208)

19- 25:8 *Sermon* (Hamman p. 351)

20- 103:3, 10 *Enn. in Psalmos* (Hamman p. 141)

21- 41:7 *Sermon* (Hamman p. 141)

22- 123:5 *Sermon* (Hamman p. 141)

23- خروج 17:20 ؛لوقا 15:12

24- 72:26 *Enn. in Psalmos*

25- 60:8 *Sermon* (Hamman p. 141)

26- 7:8 *Tractatus in Joannis evangelium* (Hamman p. 304)

27- 7:8 *Tractatus in Joannis evangelium* (Hamman p. 304)

28- 147:8 *Enn. in Psalmos* (Hamman p. 168)

29- 66:3 *Enn. in Psalmos* (Hamman p. 215)

30- 91:7 *Enn. in Psalmos* (Hamman p. 184)

31- 140:9 *Enn. in Psalmos* (Hamman p. 191)

32- 61:23 *Enn. in Psalmos* (Hamman p. 192)

33- 82:11 *Sermon* ; 20:6 *Serm. Denis* (Hamman p 97 - 98)

34- 95:3 *Epître* (Hamman p. 211)

الفصل الثامن و العشرون

التقاليد المنحرفة

كلّما ابتعدنا عن عصر الرسل ، وجدنا تقاليد الكنيسة اكثر ازعاجًا و ارهاقًا ، وازداد رثاؤنا لضعف المسيحيين . لقد وُضع جانبًا العديد من مبادىء العهد الجديد ، هذه المبادىء التي كان من شأنها ان تحفظ المسيحيين في مسارهم السليم وأن تقودهم ؛ وهكذا تمّ التمسّك بالمقابل بممارسات غريبة مستوحاة من عوائد العالم : التقشّف المانوي الذي ينادي بالعزوبة ، فن خطابة الفلاسفة اليونانيين ، الطقوس الخرافية في العبادة الوثنية والأنظمة الإدارية في الامبراطورية الرومانية .

لقد تبدّل الزمان وانتهت الأيام التي كان يتعرّض فيها المسيحي للسجن وللموت من جراء إيمانه . وإذ غاب الاضطهاد عن بال الناس وتلاشى من ذاكرتهم ، تمّ تشييد قاعات ضخمة للاجتماعات ، وراحت الجماهير تندفع إليها بأفواج كبيرة . كان المجتمع المسيحي قد أصبح في ذلك الوقت مؤسسًا بشكل راسخ ، ومعروفًا للغاية ، كما ان قادته باتوا حينها مشهورين وذوي شعبية كبيرة . وفي بداية القرن الخامس ، كان على كل من يرغب في إظهار نفسه ، ان يدخل بين الجموع المحتشدة في الباسيليكا . وهكذا صار الكثيرون يؤمّون الكنيسة بدوافع دنيئة وقذرة جداً : كسب ترقية في الوظيفة ، استرضاء صاحب عمل مسيحي ، الزواج بفتاة مسيحية ، اولكسب زبائن مسيحيين . كانت هؤلاء الناس مصدر قلق وألم لأغسطينوس . فقال : « أي فرح نحصل عليه في حشود كهذه ؟ « اسمعوني ايها القليلونً ! أنا أعلم ان الكثيرين يصغون إليّ ، لكن ، قليلون هم الذين يأخذون كلامي على محمل الجدّ .» « من أين جاءت أعظم شرور الكنيسة التي تسبّب لنا هذا الحزن العميق سوى من استحالة التحكم في هذه الجماهير الغفيرة التي أفسدت مبادئ الكنيسة واستطاعت الدخول بأخلاقٍ مخالفة تمامًا لطرق القديسين؟» [1]

انتهت الأيام حين كان المسيحيون في غالبيتهم يعرفون بما يؤمنون ولماذا . ولم يعودوا ينجذبون الى الإيمان من وسط صفوف اولئك الذين كانوا يواظبون منذ نعومة اظفارهم على حضور المدرسة أو المجمع ، وعلى استظهار مقاطع كبيرة من الكتاب المقدس . كانوا يجهلون الأمور الروحية بشكل مخيف ، والقليل القليل منهم كانوا على علم بذلك . « لسنا قلقين أبداً ،» – قالوا ذلك بمرح ينمّ على لامبالاة – « . . . هذا لأننا نتبع ناظرنا !» فأجابهم أغسطينوس : « ان ما تقولونه هو خالٍ من أي منطق ، لأنه يوجد نظّار حتى بين أوساط الهراطقة .» [2] لكنّ

المسيحيين كانوا قد اعتادوا على الاتكال على الرجال الموهوبين عوضًا عن الاعتماد على اللّه . كانوا في الكنيسة مجرّد متفرجين ، لا مشاركين ؛ يكتفون بالحضور غير آبهين بأن يصبحوا تلاميذ المسيح . « ان شعب هيبو ،» قال أغسطينوس ، «هؤلاء الذين أقامني اللّه خادمًا لهم ، هم جميعهم تقريبًا ضعفاء للغاية ، بحيث ان أصغر الصعاب هي كافية لقهرهم .» [3] فعندما كان أغسطينوس بعيدًا عن المدينة ، كما كان يحصل خلال ثلث أوقاته ، كان الشعب يجد نفسه في حالة من الهلع . ولكَم كتبوا اليه و هو في قرطاجة ، يتوسّلون اليه ان يعود اليهم سريعًا ، لأن الشيخ البديل الذي بذل قصارى جهده لملء الثغرة ، لم ينجح في إرضائهم .

انتهت تلك الأيام التي كان فيها الإخوة و الأخوات أصحاب الأفكار المتجانسة ، يجتمعون معًا لتشجيع أحدهم الآخر . و لم يعد هناك اجتماعات تلقائية يستطيع كل واحدخلالها أن يعلّم ، أو يصلّي ، أو يقرأ كلمة اللّه ، كما يرشده روح اللّه الى ذلك . انتهى ايضًا دفء شركة المحبة ورابط الإيمان المشترك بالمسيح . كما انتهت ايضًا تلك الحماسة لنقل بشارة الإنجيل الى أقصى الأرض . فالدعوة الى المجيء - دخول البناء و الإصغاء الى الناظر - حلّت مكان الدعوة إلى الذهاب لزرع بذور الإنجيل في كل مكان . لقد أصبح اجتماع عدد كبير من المحتشدين المتفرجين حول المعلم الموهوب هو النمط المتّبع : فاستُبدل تكبير كنيسة ما ، في مركز مهم في مكان مركزي ، بزرع مجموعات من المسيحيين في كل مكان .[4] و مع بداية القرن الخامس بات الخطيبُ الفصيح الواقف امام الجمهور الحضري ، هو الذي يقودهم و يتملّقهم و يسلّيهم ؛ و هكذا راحت الهوّة بين « الإكليروس» و « العلمانيين» ، بين القادة و المنقادين ، تزداد وتتّسع أكثر فأكثر . فإكليروس كل كنيسة المؤلّف من ناظر و شيوخ و مدبرين و مساعدي المدبرين و قرّاء ، هم الذين كانوا يوجّهون اجتماعات الكنيسة فيقرأون في الكتاب المقدس و ينتقون ما سيتمّ إنشاده من ترانيم و مزامير . أمّا دور العلمانيين ، فكان يقتصر على حضور الاجتماعات ، و الظهور من الخارج بمظهر المنسجمين ، و تعبئة صندوق المال . و هكذا ، فمن الناحيتين النظرية والعملية ، كان الإكليروس هو الذي يتحرّك و يقوم بالخدمة ، في الوقت الذي كان العلمانيون يقبعون في أماكنهم جامدين .[5]

كان الإكليريكيون الشباب يخضعون في معظم الأحيان لتدريبات تؤهلهم ليصبحوا نظارًا . كان يُتوقّع منهم أن يتقيّدوا بمقاييس أدبية صارمة أكثر من سائر أعضاء الكنيسة . كانوا يعدّون أنفسهم لذلك اليوم الذي فيه يؤتمنون على الاهتمام في مكان بعيد ما بجماعة خاصة بهم . هذا لأن كنائس القرى و هي أصغر من كنائس المدن ، كان لها الحق ان تختار ناظرها من بين اعضائها او أن تقبل بناظر قد جرى تدريبه في إحدى كنائس المدن الكبرى . كانوا يؤثرون الخيار الثاني إذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، لأن هذا الناظر سوف يكون رجلاً مثقفًا ، يجيد الكلام و يتقن اللغة اللاتينية ، و يستطيع ان يعتني بهم من كل النواحي . وغالبًا ما كان الناظر الموهوب ضليعًا في مجال تعليم رعيّته ؛ و بفعله هذا ، كان يضمن بشكل فعّال أنهم سوف يبقون خرافًا ، و لا يطمحون ابدًا الى أن يصبحوا رعاة .

كان النظار من كنائس مختلفة يلتقون معًا من وقت لآخر ، بمناسبة مؤتمرات كانت تُعقد في قرطاجة او في أماكن اخرى . و قد عوّدوا انفسهم على استعمال الصلوات اللاتينية الرسمية والصياغات اللاهوتية التي تمّ إصدارها و الموافقة عليها في مؤتمراتهم . و قد كانت غايتهم من ذلك ضمان الانسجام في التعليم مع تجنّب الأخطاء و الانحرافات العقائدية . إلاّ انهم بفعلهم هذا ، قيّدوا المسيحيين المحليين إذ أغلقوا أمامهم المجالات لأخذ المبادرة . في مجال الطقوس الدينية ، إن استخدام لغة لم تكن سهلة و متيسّرة إلاّ للقليلين ، ساعد على توسيع الهوّة بين الإكليروس والعلمانيين . كما ان هذا الأمر رسّخ ايضًا عند الفلاحين و الباعة المتجولّين ، شعوراً بنقصهم ، وبضرورة اتكالهم على الناظر المثقّف الذي تمّ إرساله لأجل الاهتمام بهم . كذلك أثّر فيهم ايضًا تأثيراً كبيراً إذ تسبّب بإطفاء الروح القدس الذي كان ، ليتهم علموا ذلك ، مستعداً للتحدّث الى المؤمنين بلغتهم الأساس ، أي الأمازيغية ، و لخدمتهم بواسطة أزواجهم و إخوتهم . لقد أصبحت القيادة الروحية من امتيازات نخبة معيّنة من الأخصائيين ، طبقة الكهنة التي كان كبريانوس قد دعا اليها و رسخها .

و من جملة التطورات ، و كان أكثرها مدعاة إلى الاستغراب ، ذلك التوقّع - إن لم نقل الشرط - بأن ينذر الإكليروس على البقاء في حالة العزوبة . و عمليًا ، فهذا يعني أنه لم يعد بإمكان أي مسيحي متزوج أن يكون مسؤولاً بعد الآن في الكنيسة . هذا و إن المتزوج الذي يتمّ تعيينه شيخًا ، كان عليه في الواقع ان ينفصل عن زوجته ، التي بات متوقعًا منها ان تنضمّ الى دير - جماعة من الراهبات العازبات - أو أن تبحث عن شيء آخر تعمله خلال بقية حياتها . و أحد الصبيان الذي كان يعمل « كقارىء» في الكنيسة ، كان عليه عندما يصل الى سن البلوغ ، أن يختار إمّا ان يتخلّى عن التفكير في الزواج ، و إمّا ان يتخلّى عن آماله في ميدان القيادة المسيحية . [6]

إن هذه العادة الغريبة من نوعها ، تتنافى مع كلّ من تعليم كلمة الله ، و الممارسات التي كانت متّبعة في بداية عهد الكنيسة في منطقة افريقيا الشمالية . ان توصية الكتاب المقدس هي صريحة في هذا المجال : « ليكن الزواج مكرّمًا عند كل واحد ،» [7] كما ان الرسول بولس يدين بصراحة اولئك «المانعين عن الزواج .» [8] كذلك كان كلّ من بطرس و يعقوب متزوجين ، وهكذا كان « باقي الرسل ،» بالإضافة الى ابطال العهد القديم . و بالطبع « ليكن لكل واحد امرأته ،» كما يكتب بولس . و نفهم من مكان آخر في الكتاب المقدس أنه يجب ان يكون الناظر أو المدبّر « بعل امرأة واحدة» . و هذا لا يعني ان الزواج هو إلزامي بالنسبة الى قائد في الكنيسة ، ولكن (على الأقل) انه أمر طبيعي . [9] اننا نجد ايضًا أن الكنيسة كانت تجتمع بانتظام في بيت زوجين : بريسكلا و أكيلا في روما كما في أفسس . والكنيسة اجتمعت ايضًا في بيت عائلة فليمون و زوجته أبفية في كولوسي .[10]

كان هذا التشديد الغريب على العزوبة امراً جديداً في المسيحية . و قد نعجب متسائلين : هل يرجـع ذلـك الـى التـأثير الخفي الذي تركه المانويون عندما سبق لهم أن تمكّنوا من الجمع بين كهنوت عزوبي و متباه ، و جماعة من العلمانيين الكسولين و الخاملين ؟ و هل كان يتوجب على كنيسة المسيح ان تقتفي آثارهم بخنوع ؟ و لعلّ هذا ما حصل فعلاً !

و العزوبة ، بالطبع ، تعني أن قادة الكنائس باتوا يجهلون الكثير عن ضغوط الحياة الزوجية العائلية و عن بركاتها . و هكذا أصبح من الصعب عليهم أن يُسدوا أية نصيحة فعّالة و مقبولة بشأن هذه المسائل العامة و الحيوية . كما أن من ذيول هذا النظام هـو أن عـدداً قليلاً جـداً مـن الأولاد شبّوا و نموا في كـنف بيـوت حيـث تُعـلّم كلمـة اللّـه بشـكل حسـن ، و تُعاش عمليًا . هذا لأن الأولاد الذين كان اولياؤهم ملمّين بتعـاليم الكـتاب المقـدس ، و بالتـالي قـادرين على تربيتهم « في تأديب الرب و في إنذاره »[11] باتوا قليلين . كما أن أقلية فقط من بين الشباب اليافع ، كانوا يستطيعون الحصول من أب أو من أم ، على إرشاد مسيحي حكيم ينمّ على حسن اطّلاع . و قد اصبحت من العادات النادرة أن تجتمع العائلة للصلاة و لقراءة كلمة الله معًا . كما أنه لم يعد التركيز على العائلة و على البيت كالمكان للحصول على المساعدة الروحية و على التعليـم ، بل أصبح التركيز بالحري على بناء الكنيسة .

كانت هذه نقطة ضعف محزنة . إلاّ انها لم تكن بَعْدُ من الأمور التي يستحيل تخطّيها ، ما دام باستطاعة الأولاد الحصـول علـى هـذا النـوع مـن التـدريب و التعـليم فـي اجتمـاعـات الكنيسة . و لكن ، في حال أُغلقت ابواب الكنائس و تمّ نفي النظّار ، سيكون عند القليلين جداً من الأولياء المهارة الكافية أو الثقة بالنفس ، لتعليم اولادهم الحق المسيحي . و هكذا بات المشعل محكومًا عليه بالانطفاء و الموت ، اذا انعدمت امكانية تسليمه للجيل القادم .

لم تكن هذه هي العيوب الوحيدة في الكنيسة المسيحية الإفريقية ، كانت تظهر من الخارج بأنها شعبية ، مزدهرة و ناجحة . إن التوكيد الخارجي الظاهري غالبًا ما كان قناعًا يستر ريبة داخلية . ففي الواقع ، لم يكن عند مسيحيي افريقيا الشمالية في ذلك الوقت أية معنويات عالية . فالعديد من النظار وجدوا أنفسهم أنهم عيّنوا بموجب قوانين امبراطورية على رأس جماعة من المسيحيين كانوا لا يزالون في جوهرهم من الدوناتيين . لم تنجح المناظرات و لا المؤتمرات التي نظّمها الكاثوليك في تفنيد الدوناتيين في مطالبتهم بالمحافظة على نقاوة الكنائس الافريقية و على استقلاليتها . كان عـدد كبـير من المؤمنين قد أُرغموا على دخول الحظيرة الكاثوليكية ، و ذلك قسراً و خلافًا لإرادتهم . أمّا آخرون ، فقد دخلوها من تلقاء ذواتهم ، لا لأنهم كانوا يرتاحون الى الكنيسة الرسمية في الدولة ، بل ببساطة ، لأنهـم سئمـوا النـزاعات و أعمال العنف . و طبعًا لا يُتوقّع من هؤلاء ان يكونوا متحمسين لكاثوليكيتهم .

المسيحيون في أيام اغسطينوس الذين قرأوا الكتاب المقدس ، أو حتى فقرات منه ، كان عددهم قليلاً جدًا . كانوا يستمتعون بمواعظ ناظر كنيستهم ، و لكن قليلين بينهم كانوا راغبين في قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم او قادرين عليها . قد قيل ، بحق ، انه في تاريخ العالم ، لم يسبق للكنيسة ، في بلد تتوافر فيه كلمة الله بلغة الشعب ، ان انحرفت وراء أية ايديولوجية أو ديانة أخرى مغايرة . و لكن الأرض التي وهبت ترتوليانوس و كبريانوس و أغسطينوس ، لم تنعم قط ، على مدى تاريخها الطويل ، بإمكانية الحصول على كلمة الله بأيّة لغة . لقد حقق هؤلاء الرجال العظماء الكثير ضمن نطاقهم الخاص ، لكنهم فعلوا القليل لتسهيل عملية توزيع الكتاب المقدس على نطاق واسع باللغتين اللاتينية و اليونانية ؛ و من الواضح انهم لم يفعلوا شيئًا لترجمة كلمة الله الى اللغة الأمازيغية . لقد ارتكبوا بذلك خطأً فادحًا . أمّا في الشرق ، وفي ذلك الحين ، فكان الرهبان المصريون قد أنجزوا ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القبطية . كما ان المسيحيين السوريين فعلوا الشيء نفسه خدمة لشعوبهم . و لم يكن الإثيوبيون و الأرمن متخلّفين كثيراً عن هؤلاء . و لدينا دلائل قديمة على وجود كنائس في هذه الأمكنة تستخدم اللغة المحلية ؛ و قد استمرت هذه الكنائس ، و لا تزال موجودة حتى الى ايامنا هذه .[12]

و هكذا في اصرارهم على استعمال اللاتينية كلغة التعليم المسيحي و العبادة ، و بسبب اعتماد قراءة الانجيل باللغتين اللاتينية و اليونانية فقط ، فقد حتم أغسطينوس مع أبناء جيله أنه بسقوط روما ، ستسقط الكنائس المحلية معها ايضًا . فقد كانوا ، على الأرجح ، يظنّون بأن الامبراطورية ستدوم الى الأبد ، و بأن اللغة اللاتينية ستكون اللغة الشعبية العامة و الموحّدة في جميع أنحاء العالم ، و في كل العصور و الأوقات . و لكن التاريخ يعلّمنا ان الامبراطوريات تقوم و تسقط . كان باستطاعتهم هم أيضًا ان يتلقّنوا من التاريخ هذا الدرس عينه لو أنهم انتبهوا الى مصير الأشوريين ، والبابليين و اليونانيين و الفينيقيين . إنه لا يجوز لأية كنيسة ان تعتمد على لغة معيّنة ، فقط لكونها لغة القادة المعاصرين . ان اللغة التي يحكيها الناس في بيوتهم هي التي يفهمونها أكثر ، و هي اللغة التي ستعمّر أكثر من غيرها .[13]

على كل حال ، فحتى الكتاب المقدس باللغة اللاتينية كان نادر الوجود جدًا في افريقيا الشمالية . كان يجب ان يُستنسخ استنساخًا يدويًا . كما ان الكتب التي تصدرها الأديرة كانت غالية الثمن جداً ، و يصعب شراؤها ، و كان من النادر ان يحوز أي إنسان على نسخته الخاصة ، حتى و لو على جزء يسير من هذه الكتب . كما أن الأكثرية الساحقة من المسيحيين كانوا أميين على كل حال ؛ ولم يكونوا يعرفون في معظمهم إلاّ بعض الآيات التي كانت تُقرأ بشكل منتظم وبصوت عال في اجتماعات الكنيسة . كانوا يعتمدون على النظّار لكي يشرحوا الكتاب المقدس و يفسّروه لهم . و لم تكن لديهم القدرة على تفحّص التعاليم التي كانت تُقدّم لهم ، وذلك في ضوء سلطان كلمة الله . من الضروري احترام الناظر و الوثوق به ، و لكن لم يكن و لا يمكنه ان يكون معصومًا عن الخطإ حتى و لو كان صاحب أسمى دوافع في العالم . لقد تسلّلت

أفكار شاذة غريبة الى كنائس افريقيا الشمالية لسبب بسيط و هو أن اولاد اللّه لم يكن لهم فرصة للاطلاع على كلمة اللّه .

ملكوت اللّه ، كما هو مذكور في الأناجيل ، يشبه كنزًا ،[14] و لكن ليست الكنوز البشرية كلّها تختصّ بملكوت اللّه . كانت الكنائس في عصر اغسطينوس قد اكتسبت غنىً على الأرض بالإضافة الى الغنى في السماء ، و أثّر ذلك في موقفهم من الناس و الممتلكات . و من المؤسف أنه كثيرًا ما كان الإنسان في القرن الخامس يُقوّم على أساس مكانته الاجتماعية و ثروته ، لا على أساس إيمانه و مستواه الروحي . و هكذا ، تمّ الإسراع في إدخال طبقة المثقّفين و الحُكام وذوي النفوذ بين صفوف قادة الكنيسة . فعندما يعتنق احد الأغنياء المسيحية ، كانت كنائس المنطقة تتسابق لإضافة اسمه على سجلاّتها و لتعيينه شيخًا للحال ؛ يا له من أمر هزلي و محزن في آنٍ !

إنّ الرسل و المعلمين في العهد الجديد ، لم يتمّ اختيارهم على أساس ثقافتهم أو مستواهم الاجتماعي ، او غناهم . كان يوحنا و يعقوب مجرّد صيادي سمك . و حتى العالم العظيم بولس ، عانى خسارة كل الأشياء ؛ و بالطبع فإن سيدهم المسيح لم يكن له أيَن يسند رأسه . كان النضج و الخُلق التقي ، الشرطين العظيمين للقيادة في كنائس العهد الجديد . هذا وقد صرّح ترتوليانوس في عصره : « إن الشيوخ الموافق عليهم هم الذين يترأسون على الجميع ، وقد نالوا هذا الشرف لا بمالهم بل بخُلقهم .» [15]

إلاّ أنّه بعد مرور قرنين على ذلك ، وجد اغسطينوس أنه كان يُصار الى الإسراع في ترفيع الإداريين الامبراطوريين و أصحاب الممتلكات الى مراكز قيادية في المجال الروحي ، من دون أن يكونوا أهلاً لذلك على الإطلاق . و ليس من الصعب إيجاد الأسباب وراء ذلك . هذا لأن انضمام شخص صاحب نفوذ الى الكنيسة لا يُكسبها شهرة و مكانة اجتماعية و حسب ، لكنه يزيد ايضًا ازدهارها ، و ذلك بفضل ما يمنحها إياه من مال و من ممتلكات . فالأرستوقراطي ، في نظر الناس ، قد وُلد للقيادة ، اذًا يتحتّم عليه أن يكون قائدًا . و على كل حال ، انهم يتساءلون ، هل سيقبل الإنسان المعروف و الغني ان يجلس على مصطبة خشنة قاسية الى جانب الناس الفقراء و المحتقرين و المنبوذين في المجتمع ؟ هذا تمامًا ما فعله يسوع ، و لكن الآن ، يظهر ان العبد أصبح أعظم من سيّده .[16]

وكثيرًا ما كان يعيّن نظّار لا يكترثون بأمور الدين . و لعلّ أبرز مثال على ذلك سينسيوس (Synésius) الذي كان ناظر كنيسة كوريني في القرن الرابع . و كان هذا الأخير يظن نفسه المثقّف الوحيد في ليبيا ، و لكنه اعترف شخصيًا بجهله للأمور اللاهوتية ، كما تُبرهن على ذلك رسائله التي تضمنت اشارات لا حصر لها لكتّاب وثنيين ، و لإنتقام الآلهة و القدر ، لكن لم تتضمن تقريبًا أية إشارة الى الكتابات المسيحية او ارادة الله .

لعل اغسطينوس حاول أن يقاوم هذا الاتجاه ، و لكنه لم يستطع أن يضع حداً له . كان يحث سامعيه على ضرورة العودة الى مقاييس العهد الجديد و كأن « أنصاف المهتدين» من الوثنيين الذين كانوا يحتشدون في الكنيسة سيؤيدون ذلك او يأخذونه على محمل الجدّ ! إذاً . . . هل نبقى نعجب لماذا سبق للدوناتيين و المونتانيين و النوفاتيين في القديم ، أن اعتبروا أنّ الكنيسة الكاثوليكية كانت مريضة ومحتضرة و لا أمَلَ في علاجها ؟

لقد أصبحت الكنيسة الكاثوليكية في الواقع من مالكي الأراضي الرئيسين ، و هي تشغّل الآلاف من العمّال . و كان من وقت الى آخر ، يوصي أحد التجّار أو المالكين بتجارته أو بقسم من مقتنياته الى الكنيسة . و بذلك جاءت الكنيسة على أراضٍ شاسعة و على أملاك زراعية ، لكل منها قواها العاملة الخاصة ، بالإضافة الى نفقاتها و انتاجها . كان ربع هذه الأراضي يُستخدم لدعم الإكليروس ، و لإنشاء أبنية ضخمة ؛ ثم يُصار الى توزيع ما تبقّى منه على الفقراء . كانت ، و لا شك ، تتم إدارة هذه الأملاك بشكل حسن ، و بإنصاف و كرم ، و لكن بات من الصعب على أعضاء كنيسة كهذه أن يبقوا يشعرون بحقيقة أنهم غرباء و نزلاء في هذا العالم ، و هم في انتظار أجرهم في الدهر الآتي .

لكن ، حتى كنيسة كهذه ، لم تكن بالضرورة تقبل كل ما كان يُقدّم لها . فأغسطينوس رفض الحصول على تركة رجل كان يملك اسطولاً من المراكب تنقل منتجات من افريقية الى ايطاليا . لم يكن هذا النوع من التجارة يخلو من الممارسات المريبة ، الأمر الذي دفع بأغسطينوس الى رفض التورّط فيها . فتساءل : « أية حاجة لنا الى المال ، و الى حمولات البضائع ، و الأرباح ؟ فالكنيسة ليست بشركة تجارية !» حسنًا ، و قد نوافقه رأيه هذا ، و لكن هل كان من الأفضل ان تكون الكنيسة مؤسسة زراعية ؟ لن تعمل مثل هذه البرامج إلاّ على تحويلها عن دعوتها الروحية ، و ربط أكثر الرجال مهارة فيها بمسائل تتعلّق بتصفية الحسابات ، و دفع الاجور ، و حل النزاعات المختصة بالحدود و العقود . «هل تعتقدون أني استمتع وأفرح بامتلاك كل هذه المزارع ؟» سأل أغسطينوس ، « الله يعرفني جيداً ، و يعرف رأيي في هذا الأمر ، هو يعلم أنّ هذه المهمّة هي مرهقة و مملّة بالنسبة إليّ .» وأيضًا : « الله شاهد كيف أن إدارة كل هذه الممتلكات هي حمل ثقيل على كاهلي ؛ انها اشغال شاقة و عبودية ، لكن اتحمّلها بما أني أتقي اللّه و أحب إخوتي .»[17]

لربما كانت هذه المهمة عبودية ، و لكن هل اللّه هو الذي حمّله إياها ، كما يظهر من طريقة تفكيره؟ يعلّمنا الكتاب المقدس ان الكنيسة شركة روحية ، و أن عملها هو روحي في طبيعته . إن هدفها هو الكرازة بالانجيل للهالكين و تعليم القداسة للمخلّصين . انها ليست مدعوة إلى إدارة مزارع و اعمال تجارية ، و لا لتوفير وظائف أو تكديس أرباح . ففي سفر اعمال الرسل نجد أن الرسل لم يكونوا يجمعون الأملاك ، بل كانوا يبيعونها ، و هكذا يذخرون كنوزًا ، لا على الأرض بل

في السماء . [18] إنّ النظـام الكاثوليكي بطمـوحـاته الاجتماعـية و السياسـية ، لا اللّه ، هـو الـذي فـرض علـى القـادة المسيحيين وعلى الشعب المسيحي مثل هذا الحمل الإداري المرهق و المرعب . وقد أصبح ذلك على مرّ الأجيال المتعاقبة مصدراً لعدة فضائح و للكثير من الأحزان .

إن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، بتنظيمها و بإدارتها الحازمة ، كانت و لا شك تلقى تجاوبًا لدى الرومان محبّي الانضباط ؛ لقد صيغت الى حدّ كبير على شبه البنية الإدارية للامبراطورية ، ولكنها جـاءت مختلفة بشكل غريب عَن المجموعات المسيحية البسيطة التي نشأت في كل مدينة في أزمنة العهد الجديد .[19] كما أن مثـل هـذا النظـام الكـنسي لا يتنـاسـب و لا ينسجـم مـع الأفـارقـة الشماليين وشخصياتهم . كان هذا النظام غريبًا عليهم ، فهو ليس مستمداً من الكتاب المقدس ، و لا حتى من الطبيعة الأمازيغية . كمـا أنـه يتـضـارب مـع الحـب الفطـري عنـد الإنسـان الافريقـي الشمالي لحرّيتـه الشخصـية و لمجموعاته الصغيرة المحلية و التلقائية . كان الخضوع لسلطة تبعد عنهم مئات الكيلومترات بالأمر الجديد عليهم ، و يتعارض مع الولاءات العائلية و التحالفات المرنة التي هي من صلب تاريخ الشعب . لسنا نبالغ عندما نعتبر أن الروح الاستقلالية عند الأمازيغيين هي التي جعلتهم يفضّلون باستمرار عبر العصور ، تلك الجماعات غير الرسمية ؛ و هي حركات انشقّت عن الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ؛ وكذلك ايضًا ، في ما بعد ، عن الإسلام العربي الرسمي . و نحن نجد بين سكّان الأجزاء الداخلية للـبلاد انـاسًا مـن أشـدّ المؤيّديـن للدونـاتيـة ؛ و فـي عصـر الإسـلام ، لكـلّ مـن مذهـبي الشـيعـة والخوارج .[20] و حتى في أيامنا الحاضرة ، لا تزال جبال المنطقة الداخلية تشهد نزاعًا عنيفًا بين مذهب حيوية المادة ، والدين الرسمي .

هذه الرؤية الاستقلالية سبّبت توتّرًا بين الصداقات داخل افريقيا ، كما ايضًا عبر البحر الابيض المتوسط . ان العلاقـات بـين الكنيسة الكاثوليكية لشمال افريقيا ، و اختها في روما ، استمرت حارة قلبية ، و لكن بحذر . كان من الواضح ان روما توقعت دائمًا من بقية الكنائس ان تمتثـل لأحكامها ولآرائها ، و لكن الوقت لم يكن قد حان بعد ، لكي يحصـل هـذا بشكـل تـام ومـن دون أي اعتراض . ومع مرور السنين ، راح ناظر كنيسة روما ، أيًا من كان ، يدّعي لنفسه بإلحاح متزايد انه هو الوريث لسلطة بطرس و بولس اللذين قيل فيهما انها كانا الناظرين الأولين فيها . إن الفكرة القائلة إنّ بطرس هو الذي كان اول ناظر في روما ، لـم تكن بحدّ ذاتها ، حقيقة غيـر قابلـة للبحـث او للجـدل . و بطرس لم يُعتبر الناظر الأول في روما بشكل نهائي إلاّ بعد أن تمّ جمع المستند المعروف بـ « الكاتالوغ الليبراني» (Catalogue Libérien) ، و ذلك في روما نحو العام 354 م . أمّا اذا كان الناظر الحالي قد حصل على السلطة عينها التي كانت لبطرس ، فكانت مسألة فيها نظر . و لـم يمض وقت طويل حتى أطلق ناظر روما على نفسه التسمية « بابا» ، بمعنى «أب» ، و هو لقب لا يورده الكتاب المقدس مطلقًا بشأن بطرس ؛ انه محصور باللّه وحده . في العصر السابق ، كان بعضهم قد اعتاد على مخاطبـة كبريانوس مستخدمين العبارة « پاپا» (Pape) ،

وكذلك ايضًا بالنسبة الى ناظر الاسكندرية ، و لكن كبريانوس لم يشجّع الناس قط على ذلك ، ربما لأن في الأمر تناقضًا واضحًا مع توصية المسيح الصريحة : « لا تدعوا لكم أبًا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات .»[21] ثم تمّ في ما بعد ، و لأول مرة ، استخدام هذه العبارة لمخاطبة ناظر روما ، لكنها لم تصبح محصورة به وحده من دون سواه ، إلاّ مع حلول القرن الحادي عشر .[22]

كان أغسطينوس يحترم النظّار الذين توالوا و تعاقبوا في روما ، كما انه كان يستشيرهم احيانًا ويطلب دعمهم بالنسبة الى بعض المسائل ، و من جملتها مثلاً النزاع الدوناتي ؛ إلاّ انه لم يقم بزيارتهم قط ، كما انه لم يسمح لهم بأية سلطة مباشرة على الكنائس الافريقية . و في العام 418م عُقد مؤتمر في قرطاجة يمنع على الكنائس الرجوع الى روما لاستئناف القرارات التي اتّخذها القادة المسيحيون الافارقة . و حتى أقوى المناصرين للوحدة الكاثوليكية بين الافارقة كانوا يشعرون بالتخوّف من طموحات الكنيسة في روما ، كما انهم قاوموها عند الضرورة .

إن مقاومة التدخل السافر لكنيسة روما في شؤون الكنائس الافريقية ، بلغت أوجها في مطلع القرن الخامس . ففي قرطاجة تمّ إقصاء احد الشيوخ و يُدعى أبيَاريُوس (Apiarius) من منصبه ، كما أنه تمّ تجريده من مسؤولياته ، و ذلك بسبب انحرافاته الأخلاقَية المتكررة . لكنه قصد روما ، وهناك تمكّن من إقناع الناظر فيها بأنه بريء من التهم الموجهة اليه في قرطاجة . ثم عاد بعد ذلك الى افريقيا لكي يضيف المزيد من الممارسات الشائنة الى سجلّ اساءاته السابقة . و في العام 426م ، ارسل ناظر روما تعليماته الى قرطاجة ، بيد احد المسؤولين الامبراطوريين المتكبّرين ، يُعلم فيها أُوريليُوس (Aurélius) الناظر الكاثوليكي في ذلك الوقت ، بضرورة العودة عن قراره السابق وبردّ ابيَارَيوس ، البريء و المفترى عليه ، الى منصبه . عندئذ قام الناظر اوريليوس بالدعوة إلى عقد مؤتمر في قرطاجة . و بعد ثلاثة ايام من التداوُل و البحث ، لم يكن المؤتمرون قد توصّلوا بعد الى اتخاذ أي قرار ، حضر فجأة المتّهم ، و وقف امامهم بتواضع ، معترفًا باخطائه وطالبًا منهم المغفرة . و هكذا طُويت هذه القضية بشكل فعّال ، إذ تمّ تثبيت الذنب على ابياريوس و وفّرت إمكانية المصالحة بينه و بين كنائس افريقيا و ذلك من دون الرجوع الى روما . ومن ثم عاد المسؤول الرسمي الى ايطاليا بارتباك و خجل حاملاً معه رسالة من كنيسة قرطاجة تقول : « دعونا نضع حداً لهذه الأساليب المتعجرفة العالمية . انه لا يليق ان تُمارس هذه الأساليب في كنيسة المسيح ، حيث يجب ان يُعمل كل شيء ببساطة و تواضع في حضرة اللّه .»[23]

فإذا كان قادة الكنيسة مرتابين من التحرّكات الناشطة خارج البلاد ، فإنّ اعضاء الكنيسة بشكل عام لم يكونوا على علم بها . لم يكن يهمّهم ما يقوم به النظار ، و لا ما تؤول إليه المؤتمرات المعقودة في المقاطعات النائية عبر البحار : فإن اقدامهم لم تطأ قط خارج القارة الافريقية ، كما انهم لم يكونوا يرغبون في ذلك . كانت الكنائس الافريقية تشعر باستمرار بأنها في الصدارة ، فقد شُيّدت على ارض مباركة انتقع ترابها و شرب الكثير من دماء شهدائها القديسين الأبرار ؛ كما انه

كان لهم تراثهم المسيحي المجيد . و في الوقت عينه لم يكونوا يشعرون بأنهم مدينون لروما بأي شيء . و عبثًا حاول اغسطينوس ان يوسّع آفاقهم ، و يقوّي علائقهم مع الكنائس في بقاع أخرى . قد تأتي الحشود لتحتفل بذكرى شهادة برپيتوا و كبريانوس ، و لكن عدداً قليلاً فقط - يضيف ايضًا أغسطينوس مؤنبًا - يفكّرون في أن يتذكّروا الشهداء الأوروبيين ، او حتى بطرس و بولس ، اولئك الذين لم ينعموا بامتياز ان يكونوا من الأفارقة .

في القرن الرابع و في بداية القرن الخامس ، تعاظم الإعجاب بالشهداء و قوي جداً الى درجة العبادة . كان عدد الشهداء الجدد قليلاً ، إلاّ أن قصص الشهداء القدامى تطوّرت في كلام الناس . كما ان عظامهم و خرق ثيابهم باتت اشياء موقّرة و مبجّلة بشكل غريب ، و بخاصة بين المسيحيين السذّج والبسطاء . كان هؤلاء يعتقدون أن الشهداء الذين كانوا قد توسّطوا لهم في حياتهم ، ظلّوا يتوسّطون لهم حتى بعد مماتهم ؛ و هكذا نشأت فكرة عبادة « القديسين» . كذلك راحوا يرفعون الصلوات الى الشهداء الراحلين ، و الى الرسل ، و الى مريم امّ يسوع ، ظنًا منهم أنه بإمكانهم سماع هذه التوسّلات ، و أنهم سوف ينقلونها الى اللّه القادر على كل شيء ، بتأثير أوفى و بفعالية أكثر ممّا لو انهم كانوا قد رفعوا هذه الصلوات مباشرة إليه تعالى . لم يقدّم أحد ، كما انه لم يطلب أحد أي تبرير او دعم من وحي الكتاب المقدس لهذه الممارسة .

استمر الموت و الرجاء العظيم بالحياة الأبدية في إفتان الجماهير و إلهامهم . كذلك استمرّت لوقت طويل عادة الاحتفال بالعشاء الرباني عند القبر ، و ذلك بعد مرور سبعة أيام على وفاة الفقيد المحبوب . ثم كان أفراد العائلة و اعضاء الكنيسة يجتمعون بشكل دوري في ذلك المكان للصلاة و للترنيم . كانت هذه الممارسة تبعث بالاطمئنان و الراحة في قلوب الذين فقدوا عزيزاً او حبيبًا ، كما انها كانت فرصة لطيفة لهم ليتذكّروه و يتذكّروا خصائله للاقتداء بها ، ومصدراً عظيمًا للتعزية إذ يتطلّعون بشغف الى اللقاء العتيد معه في السماء .

إلاّ انه نشأت في أيام اغسطينوس معتقدات خرافية سافرة حول هذه العادة ، إذ بات كثيرون يظنون ان المؤمن الراحل كان يشترك معهم ، بطريقة سحرية ما ، في العشاء الرباني الذي كانوا يتناولونه معًا عند قبره . كذلك نشأ اعتقاد آخر بأنه كان باستطاعة أصدقائه ان يصلّوا لأجله ليضمنوا له سعادته في العالم الآخر ، و حتى أيضًا ان يرفعوا الصلوات له لكي يضمن لهم السعادة هنا على الأرض . و هكذا تحوّل احتفال التذكار عند القبر الى ما يشابه ، الى حد بعيد ، الممارسات الوثنية الخاصة بتقديم القرابين من أجل موتاهم . و لم تكن قد ظهرت بعد تلك «القداديس الخاصة بالموتى» التي تميّزت بها في ما بعد العصور الوسطى ، و التي تنطلق من الافتراض بأن ما يقوم به الأحياء من مراسيم و من صلوات قد يساعد على التخفيف من وطأة مصير الأموات . إلاّ أننا نرى في القرن الخامس ، الآثار الأولى لذلك المعتقد الوهمي المحزن و المكلّف ، الذي سيتطوّر في ما بعد .

و في هذه الحقبة الزمنية بالذات ايضًا ، بدأ الناس يُطلقون على بعض ابطال الإيمان القدماء اللقب المشرّف « قديس» . و هكذا شرعوا يدعون الرسل مثلاً « القديس بطرس» و « القديس يوحنا» ، و هلّمَ جرّا . و هكذا اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الرسمية ان لها الحق في تقرير من يستحق هذا اللقب و من لا يستحقه . فجُعل كبريانوس « قديسًا» ، و بعد بعض الوقت ، اغسطينوس ايضًا . إلاّ أنه تمّ تجاهل ترتوليانوس : و هو على كل حال ، كان على الأرجح ، سيرفض مثل هذا التمييز مؤكدًا على حقيقة أنه هو و جميع الذين يحبّون يسوع هم « قديسون» فيه أصلاً .[24]

قطعت الكنائس المحلية في شمال إفريقيا شوطًا طويلاً . فالمسيحيون هناك عانوا الاضطهاد العنيف على مدى أكثر من قرنين و نصف القرن من الزمان . كانوا باستمرار ضحايا الظلم و الاضطهاد ، محتقرين و مذلّين من الولاة و الحكام الرومانيين المتشامخين . لكنهم صمدوا بثبات بالرغم من كل شيء . لقد وجد الامازيغيون في مثل هذا الايمان العنيد ما يجذبهم إليه : كانوا هم ايضًا في نهاية المطاف معرضين للإذلال في المجتمع الروماني الأوتوقراطي المستبد . و لكن اعتلاء قسطنطين العرش سجّل تحوّلاً هامًا . فما ان تبنّت الحكومة الكنيسة و اعتبرتها أداةً في يدها ، حتى بدأ الناس ينظرون الى المسيحيين بمنظار جديد . كذلك راحت حركة الدخول الجماعي الى المسيحية تتضاءل رويداً رويداً حتى انتهت أخيراً . و ما إن أصبحت الجماعة المضطهَدة محترمة حتى فقدت زخمها .

أدخلت الحرية الدينية الى الكنائس المحلية صنفًا جديدًا من « المسيحيين» يغلب عليهم طابع اللامبالاة المحزنة : اللامبالاة تجاه الدعوة الإلهية ، و لمقاييس المسيح الاخلاقية ، و للحاجات الروحية لهذا العالم . كبرت الكنائس بسرعة ، لكنها لم تكن أقوى ممّا كانت عليه من قبل . و في الواقع ، كان نجاحها و هي تعاني في كور المشقّة ، أعظم منه و هي تتمتّع بالرفاهية الموهنة في ظل الرضى الامبراطوري . و هي في ذلك تشبه يونان الذي جاء تصرّفه و هو في بطن الحوت أنبل وأشرف من تصرّفه عندما جلس بهدوء يستظلّ اليقطينة .[25] لقد ظهر على الكنيسة الكاثوليكية ، بعد قهرها الدوناتيين ، بأنها مزدهرة وناجحة ، و لكن كلما كانت تقاليدها و اعرافها تتصلب ، راح تمسكها بكلمة الله يضعف . و هكذا أصبح العديد من اعضائها لا يعرفون المسيح الذي يحملون اسمه .

إن مثل هذه الكنيسة لا يمكنها ان تعمّر طويلاً في وجه المعارضة الثابتة و القوية التي استهدفتها . وهكذا سرعان ما أُخضعت صحتها لأحد أصعب الامتحانات . كان الونداليون الذين لا يكلّون و لا يملّون يقرعون على الباب ، ثم تلتهم مجموعات أخرى من الغزاة ، و بعدهم آخرون . كان ذلك ، على ما يبدو بداية النهاية بالنسبة الى المسيحية في افريقيا الشمالية .

ملاحظات

1- Tractatus in Joannis evangelium 122 Sermon 3:1 (Brown p. 402)

2- Sermon 46:21 (Hamman p. 204)

3- Epître 124:1 (Hamman p. 204)

4- أصبح تقليداً مقبولاً أن يحضر غير المؤمنين العبادة ويسمعوا الانجيل في بناية الكنيسة ، و كان الغرض من ذلك ضمان اهتدائهم . إلاّ أن هذه الاستراتيجية جاءت بمشاكل عدة ، إذ إنها تتعارض كثيراً مع ممارسات كنائس العهد الجديد حيث اجتماعات البيوت كانت مخصّصة للعبادة والصلاة و التعليم و شركة المؤمنين (اعمال 1:13-14 ؛ 1:2 ، 46 و 47 ؛ 23:4 و 24 ؛ 12:12 ؛ 7:20 ؛ 117:21) ، بينما كان عمل التبشير يمارس في الاماكن العمومية . فقد كانت البشارة تعلن مثلاً في :

شوارع اورشليم (أعمال 14:2 و ما يلي ؛ 9:6 و ما يلي) .

و في ساحة الهيكل و المحكمة اليهودية في المدينة نفسها (أعمال 11:3 و ما يلي ؛ 5:4 و ما يلي ؛27:5 و ما يلي ؛ 12:6 و ما يلي ؛ 1:23 و ما يلي) ، وعبر منطقة اليهودية و السامرة (اعمال 1:8 ، 4-8)

و في قرى كثيرة (25:8)

و في طريق صحراوي (26:8 و ما يلي) ، و في جميع المدن (40:8) ،

وفي مجامع اليهود في كل مدينة (20:9 - 23 ؛ 5:13 ، 14 وما يلي ؛ 1:14 ؛ 1:17-4 ؛ 10 وما يلي ؛ 18 : 4 و 5 ، 19 ؛ 8:19)

و في بيت روماني ثري (34:10 و ما يلي)

و في محضر والي بافوس (7:13)

و عند ابواب لسترة (8:14 و ما يلي)

و بجانب نهر بمدينة فيلبي (13:16 و ما يلي)

و في شوارع نفس المدينة و سجنها العمومي (16:16 و ما يلي ، 25 و ما يلي) ،

و في الساحة العمومية في وسط أصنام مدينة أثينا (16:17 و ما يلي) ،

و في مدرسة يرانس نافسس (9:19) ؛

و على درج معسكر في مدينة اورشليم (37:21 و ما يلي)

و أمام الوالي و بعد ذلك الملك اغريباس في القيصرية (10:24 و ما يلي ؛1:26 و ما يلي) ،

و في سفينة على البحر الابيض المتوسط (21:27 و ما يلي) ،

و في بيت مقدّم جزيرة مليطة (7:28)

و أخيراً ، و كما كان يدعى بولس ، في محضر القيصر بروما .

5- « كانت الجماعات المسيحية قد بدأت تقبل بشكل متزايد درجة بالغة الخطورة من «الاختصاص الأخلاقي » : كان على«الكامل» ان يعيش حياة معيّنة تختلف عن الحياة التي يعيشها المسيحي العادي . ان خلق هذه الهوّة التي تتسع باستمرار بين النخبة المتقشّفة ، و هم أقلّية ، و بين مجموعة المؤمنين الآخرين ، هي التي كانت السبب وراء التوقّف عن انتشار المسيحية في العالم الروماني آنذاك .» (Brown p. 248)

6- الكنيسة الكاثوليكية في روما هي التي حظرت بشكل رسمي في العام 385 م على القادة المسيحيين أن يتزوّجوا .

و قد أبقت على هذا الحظر منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ، على الرغم من المقاومة العنيفة التي قوبلت بها هذه السياسة حتى بين صفوف الكنيسة الكاثوليكية نفسها

Schaff *HOTCC* Vol. II p. 412; Bainton p. 206.

7- عبرانيين 4:13

8- 1 تيموثاوس 3:4

9- 1 كورنثوس 7:1 - 11 ؛ 5:9 ؛ 1 تيموثاوس 2:3 ، 11 ؛ 1:4 - 3

10- رومية 3:16 - 5 ؛ 1 كورنثوس 19:16 (يظهر العدد 8 أنهم كانوا في أفسس) ؛ فليمون 1 و 2 .

11- أفسس 4:6

12- Latourette Vol. I pp. 256 - 257

13- إن استخدام اللغة المحلية المحكية في العبادة و في التعليم المسيحي ، سيعمل على تشجيع بروز قادة محليين . إلاّ انها قد تسبّب من وقت الى آخر في نشوء البدع المحلية . إن كانت الكنائس تريد ان تستخدم اللغة المحلية ، عندئذ يترتّب عليها مسؤولية عدم قطع علاقتها بسائر المجموعات المسيحية في أجزاء أخرى من العالم ، كما انه عليها ايضًا ألاّ تتسرع في تبنّي التعاليم التي كان المسيحيون الآخرون قد رفضوها في غالبيتهم . و إذ نُكبر الكنيستين القديمتين القبطية و السورية بسبب استمراريتهما وثباتهما المخلص ، يبقى علينا ان نتذكّر ايضًا كيف ان إحداهما انحرفت وراء البدعة القائلة بطبيعة واحدة للمسيح (Monophysite) ، بينما الأخرى تبنّت افكار النساطرة (Nestorianisme) .و بالشكل نفسه أدخل الإثيوبيون« تقاليد يهودية» كثيرة لا وجود لها في إنجيل المسيح .

يتوقّف الكثير على مدى دقّة الترجمة و على تواضع الذين يستخدمونها . إلاّ أن ترجمة جيّدة للكتاب المقدس بين أيدي قادة حكماء و روحيين ، ستساعد الكنيسة كثيراً على البقاء و الاستمرار ، حتى ولو اجتازت في أصعب المحن . وبالإضافة الى الترجمة ، يجب ايضًا تعليم المسيحيين كيفية قراءة كلمة اللّه ، و مساعدتهم على استظهار مقاطع كبيرة منها ، و حثّهم على مشاركة الآخرين بها .

14- متى 44:13

15- *Apologeticus* 39

16- هنا الإشارة الى يوحنا 16:13

17- *Tractatus in Joannis evangelium* 6:25 ; *Epître* 226:9 (Hamman p. 291)

18- اعمال 32:4 - 35 ؛ لوقا 33:12 و 34 ؛ يعقوب 3:5 ؛ متى 19:6 - 21

19- اعمال 42:2 ، 46 و 47 ؛ 12:12 ؛ 1 كورنثوس 1:12 - 31 ؛ 1:14 - 40

20- راجع الفصل 30

21- متى 9:23

22- كان على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ان تنتظر القرن التاسع عشر لكي تدّعي فكرة عصمة البابا في ما يتعلّق بتصريحاته الرسمية ، بالإضافة الى تلك التي نطق بها البابوات السابقون .

(Schaff *HOTCC* Vol. II p. 168)

23- Hamman p. 32 ؛ Foakes - Jackson pp. 526 - 527 ؛

(*Synod of Carthage* AD 424, *Mansi* 3:839 ff Bettenson *DOTCC* pp. 81 - 82)

24- بحسب العهد الجديد ، كل مؤمن هو« قديس» ، أي أنه شخص قدّسه الرب و فرزه عن العالم لكي يعيش له تعالى ويخدمه (اعمال 41:9 ؛ 10:26 ؛ رومية 7:1 ؛ 25:15 ، 26 ، 31 ؛ 2 كورنثوس 1:1 ؛ 13:13) . الرسول بولس يكتب« الى القديسين في أفسس» - و هو يقصد بذلك جميع أعضاء الكنيسة في هذه المدينة - و ايضًا الى القديسين في فيلبي و الذين في كولوسي . (أفسس 1:1 ؛ فيلبي 1:1 ؛ كولوسي 2:1) . انه يشير الى الكنائس في جميع أنحاء العالم بالعبارة« جميع كنائس القديسين» (1 كورنثوس 33:14) . أمّا الكاثوليك ، فإنه يوجد بين صفوفهم العديد من الأشخاص غير الطاهرين ، و بالتالي لا مجال للإشارة إليهم بصفتهم« قديسين» . من هنا جاء استخدامهم لهذه العبارة بمعنى آخر مختلف ، كلقب شرف يُطلق على قلّة قليلة . ففكرة ان بعض المسيحيين المتفوّقين ، من دون سواهم ، هم قديسون ، هي تقليد بشري ، لا مبدأ كتابي .

25- يونان 1:2 و 2 ؛ 7:4 - 11 .

الجزء الخامس

الحصاد الأخير

(منتصف القرن الخامس فما فوق)

الفصل التاسع و العشرون

الونداليون والبيزنطيون

مهما كان الأمر ، فقد كان عصر الونداليين في افريقيا الشمالية ، مجرّد كارثة تامة من البداية الى النهاية . ان اسمهم المشتق من سمعتهم ، دخل لغات العالم أجمع للتعبير عن معنى واحد : الونداليون هم جهّال مغفّلون ، دأبهم التدمير و التخريب الوحشي الذي لا طائل منه . ينبغي علينا ، و بمعزل عن أية نيّة في إيجاد الأعذار لهم أو الدفاع عنهم ، أن نضع نصب أعيننا أن ما لدينا من معلومات و تسجيلات حول أفعالهم ، قد وصلت الينا عبر ما كتبه ضحاياهم من تقارير مثيرة للمشاعر ، و ما ألصقه بهم اعداؤهم الألدّاء من اتهامات مُرّة ؛ فهم أنفسهم لم يكتبوا إلاّ الشيء القليل . و لكن لا يمكننا أن نتأكّد من أنهم كانوا سينظرون الى اقامتهم في افريقيا الشمالية بمنظار أحسن و أفضل .

كان الونداليون أناسًا جرمانيين قد تركوا ديارهم البلطيقية منذ وقت طويل . كانوا ينتقلون من مكان الى مكان ، ليدخلوا في نزاعات دموية مستمرة مع أصحاب الأراضي التي كانوا يشتهون الاستيلاء عليها . لقد طافوا و جالوا في جميع أنحاء أوروبا ، و ذلك على مدى عدة قرون ، مجاهدين للحصول على مكان يستقرّون فيه . أخيراً ، وجدوا أنفسهم في بداية القرن الخامس ، وهم يسيطرون مؤقتًا على أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الإسبانية . و في مكان ما ، في سياق غزواتهم ، كان الونداليون قد تبنّوا إحدى البدع المسيحية و هي الأريوسية (Arianisme) . و من المؤسف أنهم تعلّموا منها القليل من الحق الإلهي و النذر اليسير من المحبة المسيحية . و في العام 429 م ، وضع الونداليون مخططًا طموحًا لغزو إفريقيا الشمالية ، و قد أوكلت مهمة هذا الغزو على أكثر قوادهم العسكريين كفاءة ، و هو المدعو جَنْسَرِيْك (Genséric) . لقد نجح هذا الأخير ، على الرغم من قصر قامته و عرجه البارز ، في تتميم هذا الغزو عبر مضيق جبل طارق ، و ذلك بواسطة جنود قليلين لا يتجاوز عددهم الخمسة عشر ألف جندي . لقد سهّل له أمر مهمّته الحاكم الروماني المدعو بُونيفَاكيُوس (Bonifacius) ، الذي تصرّف بشكل أناني وخائن إذ سلّم بحسب الظاهر الأصقاع الافريقية لجنسريك ، و ذلك بقصد الانتقام من الامبراطور . جاءت المقاومة العسكرية محدودة و قليلة : فقليلون هم الذين كانوا راغبين او قادرين على صدّ الغزاة . وهكذا راح الونداليون يُحرقون و ينهبون ما يحلو لهم .

و بذلك تكون قد انتهت نحو ست مئة سنة من الحكم الروماني لإفريقيا . و لم يسلم من الغزو طوال هذا الوقت ، أي جزء آخر من أجزاء الامبراطورية الرومانية ، كما انه لا يوجد أي جزء آخر قد تمّ في نهاية المطاف تخريبه و تدميره بهذا الشكل المخيف . لقد غاب منظر الأراضي المثمرة ، و لم يعد يُرى إلاّ منظر المدن المدمّرة التي أصبحت أنقاضًا ، و القرى المحروقة ، و الناس الذين قلّ عددهم بفعل سيف جماعة من القوم المتوحّشين ، الذين إذ كانوا من دون حضارة تختصّ بهم ، اعتادوا على استنزاف الحضارات التي بناها الآخرون .[1] و يظهر ان الشعب الأمازيغي الذي يُعدّ بنحو سبعة الى ثمانية ملايين نسمة في شمال افريقيا ، و بخاصة ما بقي من جماعة الدوناتيين ، قد رحّبوا بالونداليين ، آملين أنه بتغيّر الحكّام ، سوف يتغيّر المستقبل نحو الأفضل . إلاّ أن هذه الآمال جاءت مخيّبة للغاية .[2]

و قبل أربع عشرة سنة ، أي في العام 395 م ، كانت الامبراطورية الرومانية قد قُسمت رسميًا الى جزئين : الامبراطورية الغربيّة و تُحكم من روما ، و الامبراطورية الشرقية و تُحكم من القسطنطينية (Constantinople) ، المدينة العظيمة ، و تُعرف ايضًا ببيزنطة (Byzance) . نحو نهاية القرن الرابع ، وقعت الامبراطورية الغربية تحت سيطرة البرابرة الجرمان . و في العام 435 م ، اعترفت الامبراطورية البيزنطية (الشرقية) رسميًا بالونداليين كحلفاء لها . و معروف عن هؤلاء انهم كانوا في ذلك الوقت قد رسّخوا اقدامهم في إفريقيا . و بعد مضي اربع سنوات على ذلك غزا جنسريك قرطاجة و استولى عليها ، و بذلك أصبح الحاكم الفعلي لشمال افريقيا في حوض البحر الأبيض المتوسط . و قد امتدّت مملكته غربًا الى ما بعد قيصرية (شرشال) بقليل ، و جنوبًا الى أبعد نقطة استطاع جنوده ان يسيطروا عليها بسيوفهم . أمّا ما تبقّى من المناطق الداخلية والأجزاء الغربية للبلاد ، فكانت الجهة التي تحكمها تتبدّل بتبدّل رؤساء القبائل القادرين على السيطرة عليها .

و على الرغم من الاتفاقية المعقودة مع القسطنطينية ، فقد قطع الغزو الوندالي بشكل فعال الاتصالات مع العالم الخارجي . هذا لأن الطرق البحرية عبر المحيط الأطلسي و البحر المتوسّط ، باتت تحت رحمة القراصنة الونداليين . و بذلك توقفت التجارة تمامًا . كما أن الاقتصاد الزراعي في افريقيا الشمالية بات مهدّدًا بالخراب . كذلك تمّ طرد المزارعين من اراضيهم و ذلك من بعض القادة العسكريين الطماعين . كانت لهؤلاء معرفة قليلة بالزراعة ، إلاّ أن طموحاتهم كانت بلا حدود . ونتيجة لذلك ، وجد الكثيرون من الحرفيين و التجار الأمازيغيين ، الذين كانت تُصدّر منتوجاتهم قبلاً الى أسواق الامبراطورية البعيدة ، وجدوا أن بضائعهم كسدت : فالمخزون من الحبوب و من الصوف ، المخصّص لأوروبا ، لم يكن بالامكان بيعه في إفريقيا . كانت البلاد تعاني حالة الفوضى تحت وطأة الطغيان التعسفي ، كانت تربكه بين الفينة و الفينة هجمات

دورية متتابعة تشنّها العصابات المسلّحة التي كانت تندفع بقوّة من الجبال ، في اتجاه المدن الساحلية الغنية التي لم يكن باستطاعتها الدفاع عن نفسها . و في العام 455 م ، عَبَر القائد جنسريك البحر الضيّق الى روما ، و هكذا كان النهب و السلب ، وللمرة الثانية ، من نصيب العاصمة التي لم يكن لديها أية قوة دفاعية . لقد أظهر القائد الوندالي مهارة في حرق المدن ، تفوق مهارته في امر حكمها .

لقد دمّر الواندالِيون ، او استولوا ، على ممتلكات الكنائس جميعها في المدن الافريقية ، و لم يتركوا اثاثًا او شيئًا ثمينًا فيها لم ينهبوه . كذلك قيّدوا معظم قادة الكنائس السابقين ، و اقتادوهم في سفن شحن بالية الى روما : كانوا يخشون أن يتمكّن هؤلاء الرجال من أن يستقطبوا حولهم نواة مقاومة سياسية ، و ذلك أكثر ممّا كانوا يخشون عقائدهم و مخاطرها . ثم عمد الونداليون الى تعيين مكانهم نظّارًا من قبلهم . و هكذا أصبحت احدى اللغات الجرمانية هي لغة الكنائس ، و باتت الأريوسية قانون إيمانها . و حتى ذلك الوقت ، لم تكن البدعة الأريوسية قد دخلت بعد الى الكنائس الإفريقية . هذا لأن مجمع نيقيا المعقود في العام 325 م كان قد شجب بشدّة آريوس وجميع اولئك الذين انكروا ايضًا الوهيـة المسيح . و لكن نيقيا كانت تبعد كثيرًا عن افريقيا ، كما أن المجمع كان قد عُقد منذ فترة طويلة . و حتى اغسطينوس نفسه ، كان قد كتب تفنيدًا مطوّلاً ، يدحـض فيه افتراءات الآريوسيين . و لكن بعد مرور مئة سنة ، لم يعد بمقدور إلاّ القليل من الأفارقة على أن يقرأوا كتابات أغسطينوس : فقد ضاعت كتبه ، كما أن لغته اللاتينية باتت منسية الى حدّ كبير ما عدا في اوساط الدوائر الإدارية حيث تسود الفوضى .

و من الملاحظ أن جنسريك نفسه قد تجنّب ان يضطهد الكاثوليك بعنف . و في العام 476م ، وفي مقابل اعتراف الرومان بحقّ الونداليين بالهيمنة على الولايات التي سبق لهم أن احتلوها ، سُمح للكاثوليك بإعادة فتح بعض الكنائس ، و باستخدام اللغة اللاتينية فيها . ولكن هُنريك (Hunéric) ، وريث جنسريك ، كان ، الى حدّ ما ، أقل احسانًا منه . ففي العام 484م ، دعا الى مؤتمر حضره 466 ناظرًا كاثوليكيًا ، و هذا عدد قياسي بالنسبة الى تلك الظروف . كان الغرض من المؤتمر ، بحسب الظاهر ، بحث القضايا الجدلية مع الآريوسيين ؛ لكنه كان يهدف في الواقع الى تدمير الكاثوليك . فطبّقوا عليهم قوانين قاسية و أنزلوا بهم عقوبات عنيفة للغاية ، حتى إنه تمّ خلال السنتين التاليتين ، إعدام تسعين ناظرًا بعد تعذيب رهيب . و هذا العدد يتجاوز بكثير عدد اولئك الذين عانوا خلال الاضطهادات الوثنية الماضية . فالكاثوليك الذين سبق لهم ان برّروا إمكانية اللجوء الى العنف عندما كانوا في موقع قوة ، وجدوا الآن أن هذا الأمر انقلب عليهم . وهكذا تمّ معاقبة الكثيرين منهم ، وذلك بنفيهم من المدن الى المناطق الداخلية النائية من البلاد . وآخرون بيعوا كعبيد . و يُذكر عن جنسريك انه باع أربعة من المؤمنين الكاثوليك الى

رئيس قبيلة كَبْرَابِيتي (Caprapiti) : لكنّ هذا الأمر لم يروّعهم قط ، إذ راحوا يسعون جاهدين لحثّ القبيلة كلّها على اعتناق المسيحية.[3] ترى بعض القبائل الشمال افريقية أن لها أصولاً مسيحية ، كقبائل صنهاجة قرب شفشاون في منطقة الريف في شمال المغرب . و من الممكن ان هذه الأصول يمكن ان ترجع الى ما خلّفه هؤلاء الأسرى و اللاجئون الشجعان من تأثير إيجابي في محيطهم.[4]

لقد سمح الملك المعتدل هلْدريْك (Hildéric) (523 - 530) ، للكاثوليك بفترة من الراحة إلى حدّ ما . فانتهزوا هذه الفرصَة للإعداد لمؤتمر ، و لمساندة تجار قرطاجة المظلومين الذين كانت تجارتهم قد خربت تمامًا بسبب التعسّف الوندالي . فأرسلوا معًا الى الامبراطور البيزنطي في القسطنطينية ، يتوسلون اليه ليأتي الى معونتهم . إن شعب السهول الداخلية ، الذي كان قد رحّب بالونداليين في بداية غزوهم ، بات الآن يراهم على حقيقتهم ، و ازداد شوقه الى التخلّص منهم . وقد لاحظ الامبراطور يوستينيان (Justinien) بشيء من الرضى ، تضاؤل قوة الونداليين البحرية وتلاشي قواهم العسكرية و كيف عملت حياة الرفاهية الزائدة على إضعافهم . و في العام 533 م ، حطّت القوات البيزنطية ، بقيادة الجنرال بلسَارْيُوس (Bélisaire) رحالها بحذر على مقربة من قرطاجة . و بعد عدة أيام من التحرّك هنا و هناك ، تمكّنوا أخيراً من دحر القوات الوندالية . عندئذ فرّ قادة الكنيسة الآريوسية هاربين ، بينما التحق الجنود الونداليون بالجيش الملكي الامبراطوري ، و آخرون منهم رجعوا مُدبرين الى اسبانيا . و هكذا بدأ ما هو معروف بالحقبة البيزنطية في إفريقيا الشمالية .

شُيّدت الحصون على امتداد الحزام الساحلي من لِبْتِيس (Leptis) (شرق طرابلس الحديثة) ، الى طنجة . لقد توصّل القادة البيزنطيون الى الاتفاق مع عدد من الرؤساء الأمازيغيين ، وبدأت بعدها فترة من السلام و الاستقرار عمّت القرى و المدن على الشاطىء الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط . فأعيدت الممتلكات ، على قدر المستطاع ، الى أحفاد أصحابها الأصليين ، كما تمّ تعيين النظّار الكاثوليك في كنائس المدن . فاستقبل المسيحيون ، بأغلبيتهم الساحقة ، الإدارة الجديدة بحفاوة بالغة . و بالمقابل ، نجد أن البقية القليلة الباقية من الدوناتيين بالإضافة الى الوثنيين ، أبدوا الشيء القليل من الارتياح على هذا التطوّر ، فيما كان هذا الارتياح معدومًا تمامًا عند اولئك الذين كانوا يناصرون آريوسية الونداليين المكروهة . ثم راح رؤساء القبائل المحليون ، و منهم كثيرون يدّعون بأنهم مسيحيون ، يتنافسون في الحصول على السلطة المحلية في الجبال ، و كذلك في السهول الغربية لما يسمّى في أيامنا : المغرب .

لقد كانت القسطنطينية ، هذه المدينة الامبراطورية ، مفتخرة بنفسها ، مدّعية أنها عاصمة العالم . و رأت في نفسها المثال الكامل للحضارة و قائدها . و هكذا تمّ الترحيب من جديد بإفريقيا الشمالية في داخل حظيرة الامبراطورية . إلاّ أن الانهيار الاقتصادي كان باستمرار يهدّد البلاد . و لم

تمضِ فترة طويلة ، حتى بدأت الإدارة الإقليمية الفاشلة تفرض الضرائب التعجيزية على الشعب ، الأمرَ الذي أدّى الى قطع جذور أيّ دعم شعبي كان يتمتّع به البيزنطيون .

و في الواقع كان فشـل الحكومة البيـزنطية في السيطرة على إفريقيا الشمالية ، أمراً متوقّعًا منذ البداية . أمّا الأمر المدهش ، فهو كون هذا النظام الركيك قد بقي متماسكًا طوال ذلك الوقت الذي يربو على المئة و الخمسين سنة . لقد صمد النظام حتى منتصف القرن السابع ، على الرغم من افتقاره الى الدعم الفعّال من القسطنطينية ، و على الرغم من انقطاع الطرق التجارية البحرية وفساد الاسواق . لقد صمد في وجه الغارات التي كانت تشنّها القبائل المضطربة من الجبال ، وأيضًا في وجه الهجمات المفاجئة للمقاتلين الرحّل الذين تسللوا من الصحراء على جمالهم المدجّنة حديثًا . كما أنه قاوم ببسالة أيضًا الغارات الاستطلاعية التي شنّها العرب الذين كانوا يجمعون قواهم في مصر . وقد أثار عدم استقرار الموقف قلقًا و اضطرابًا في نفوس سكان شمال افريقيا .

لقد مضت اجيال ثلاثة كان يعاني خلالها المجتمع المسيحي الجوع الشديد للطعام الروحي . فاللغة الوندالية كما الهرطقة الآريوسية ، كانتا كلتاهما غير ذي جدوى لهم . أمّا اللاتينية ، التي كانت على درجة أقل من الإبهام ، فلم يكن النظار الواندالیون المتعجرفون يستخدمونها بكثرة أو يقدّرونها : لقد اقتصر عملهم على إرباك الناس و تشويشهم بتعاليمهم المضلّة عن المسيح . كان مسيحيو شمال إفريقيا في القرن السادس يجهلون كلمة اللّه بشكل مأساوي مثير للشفقة ، كما أنهم كانوا في الوقت عينه غرباء عن الله نفسه . كان قد مرّ أكثر من مئة سنة على رحيل اغسطينوس : كان جيلـه كلّـه قد رحل ، و كذلك ايضًا أولادهم . و لم تخلّف سنو البلى وراءها إلاّ القليل من آثار نفوذه ، بالإضافة الى ذكرى واهنة للازدهار الذي عمّ المسيحية في زمانه . كان المجتمع المسيحي ، اذا أمكن ان نُطلق عليه هذه التسمية ، مرتبكًا متضعضعًا و مقطـوعًا عـن تـراث التعليم والخبرة المسيحية ، و كل ما كان بوسعه ان يضمن استمراريته .

لكن المسيحيين بذلوا قصارى جهدهم . و فِي جهلهم للغة اليونانية التي كانت اللغة المفضّلة عند الحكّام البيـزنطيـين ، توجّهـوا الى كنيسـة روما آملين أن يحصـلوا منهـا على القدر الكافي من المساعدة والدعم ، و هكذا بدأوا يلملمون جراحهم بحذر . أمّا الذين كانوا لا يزالون يعرفون اللغة اللاتينية ، فكان باستطاعتهم ان يفهموا تعليم الكتاب المقدس ، بالإضافة الى الصلوات الرتيبة التي أدخلها النظار المرسلون إليهم . و خلال الحقبة الزمنية الواقعة بين العامين 565 - 578م عاد المبشّرون يتجوّلون ما بين القبائل الأمازيغية ، وصولاً الى أقصى الجنوب ، حتى إلى فزّان (Fezzan) في الصحراء الليبية .[5] لقد كان هناك أمل ببداية جديدة مشرقة - و لم يكن ذلكَ بعد أكثر من مجرّد وميض ، لكنه ربما كان الأمل الأخير والفرصة الأخيرة السانحة لكنائس افريقيا الشمالية . و لم يكن الوقت قد فات بعد - لو كان بإمكانهم فقط ان يعودوا الى ذلك الايمان البسيط

بالمخلّص الحي الذي سبق و عرفه آباؤهم و أجدادهم ، و أن يبدأوا بتعليم كلمة اللّه باللغة التي يفهمها الشعب . و لكن ذلك كان حلمًا لم يتحقق .

إلاّ انه بدأت عوضًا عن ذلك حقبة ، تميّزت بتنفيذ بعض المشاريع الإنشائية الضخمة : باسيليكات كانت زخرفتها و زينتها مستوحاة ، لا من الكتاب المقدس ، بل من الغنى الشرقي لإمبراطورية كانت تبني مجدها على عبقرية الإنسان و ذكائه ، و ليس على أساس نعمة اللّه . وكل ما عملته هذه الصروح الكثيرة الثمن و المرتفعة الى السماء ، هو أنها أذلّت الجماعة المسيحية الكئيبة و روّعتها . و لا يزال بمقدورنا اليوم أن نرى بقايا هذه الأبنية و الهياكل العظيمة الرائعة في أماكن مثل لِپْتيس ، و سَبْراثا وتبسة وشرشال . لكن لم يبقَ أي أثر على الإطلاق للمسيحيين الذين كانوا يجتمعون فيها . فالمرمر المتألق الرائع و القناطر و الأقواس الفخمة ، لم تبعث في قلوب الأفارقة إلاّ الشيء القليل من الطمأنينة ؛ لقد كانت بكل تأكيد تشيد بعظمة الله ، و لكنها ربما لا تكشف سوى القليل من محبته . كانت ترمز بالنسبة إليهم الى قوة و مجد غريبين ، لكنها لم تكن في توافق مع حاجات المسيحيين الحقيقية . هذه الأبّهة و العظمة كانت تتربّع بشكل بشع على أنقاض الكنيسة الإفريقية الشمالية المنكسرة والفاشلة . لقد كان البيزنطيون جادين بعزم على تأكيد عظمة اللّه من خلال مشاريعهم ؛ أمّا الامازيغيون فكانوا بالمقابل متقلقلين و خائفين يتخبّطون في شكوكهم بشأن هوية اللّه و ماذا فعل ، و ما قد يفعل من أجلهم بعد .

و مع ازدياد روعة الأبنية ، ازدادت ايضًا روعة الطقوس الدينية للكنيسة الكاثوليكية . لقد كان الاكليروس المعيّن يقود الحاضرين في تلاوة صلوات لاتينية : كلمات تعبّر عن عبادة اللّه ، ولكنّها في الواقع تمنع الناس من أن يقولوا أي شيء له . كما ان الناس لم يعودوا يفهمون اللغة اللاتينية . لقد كانوا في معظم الأحيان يحضرون الى الكنائس ، لا ليقدّموا الشكر والحمد لخالقهم ، و لا ليتعلّموا ان يخدموا المسيح بشكل أفضل ، بل كانوا يأتون بالأحرى لإظهار إعجابهم بالفن المعماري الذي كان يولّد الرهبة في قلوبهم ، و بموسيقى جوقة المرتّلين ، كما كانوا يأتون لأجل الحصول على الأسرار التي كانت في ظنّهم تؤمّن لهم الخلاص . هذا ، لأن فكرة كانت قد بدأت تنتشر ، و مفادها ان الخبز و الخمر في أثناء العشاء الرباني ، كانا يتحوّلان بين يدي الناظر ، و بشكل عجائبي ، الى جسد المسيح و الى دمه الحقيقيين ، مع أنهما لا يزالان يحتفظان بطعم الخبز و الخمر و برائحتهما .

كان العديد من معالم الكنيسة البيزنطية هذه تنذر بالانحرافات الغريبة التي دخلت الى الكنيسة الكاثوليكية خلال العصور الوسطى : الصلاة من أجل الموتى ، شراء صكوك الغفران

بالمال ، صناعة تماثيل العبادة التي تمثّل يسوع ، مريم او «القديسين» . كذلك ظهرت أيضًا عقائد غريبة مثل وجود المطهر حيث يعاني المؤمنون العقاب بعد الموت لكي يتطهّروا من خطاياهم ، والاعتقاد بالبتولية الدائمة لمريم العذراء ، و بكمالها ، و كذلك بفعاليّة الصلاة لها . قليلون هم الذين استطاعوا ان يقرأوا الكتاب المقدس ليتفحّصوا في ضوئه مدى صحة هذه الأمور .

أصبح هناك حرية لنشر الإيمان و بثّه ، و لكن في الوقت عينه استُخدمت الحرية لنشر الاخطاء والبدع و تسريبها . و منذ بداية عهد الكنيسة ، كانت قد ظهرت هنا و هناك تعاليم غريبة وهرطقات متنوعة . و لكنها كانت الآن قد ازدهرت و نمت جدًا . لقد أظهر أباطرة القسطنطينية رغبة ساذجة في توريط أنفسهم في مثل هذه المناظرات ، و في إصدار بيانات رسمية وقرارات تتعلّق بها . لكن هؤلاء الأباطرة كانوا في معظم الأحيان يجهلون تمامًا تلك المسائل ، ما جعلهم أحيانًا ينصرون آراء كانت بعيدة كل البعد عن الحق . و كل ما عملوه هو أنهم زادوا في الإرباك العام الذي كان يتخبّط فيه آنذاك جسم المجتمع المسيحي .[6]

ما الذي كان يختلج في فكر الأشخاص العاديين من رجال و نساء ؟ في الوقت الذي كان الكاثوليكيون و الدوناتيون و الآريوسيون و البيزنطيون يتنازعون و يضطهدون بعضهم بعضًا في طول البلاد و عرضها ، و جميعهم يدّعون بأنهم مسيحيون ، مَن بات بإمكانه ان يقرّر من منهم هو على حق ، إن كان ذلك يصحّ على أي منهم ؟ لم يعد بإمكان الناس في أغلبيتهم الساحقة ان يروا المسيحية في شمال أفريقيا ؛ بل بالأحرى طوائف تعادي بعضها بعضًا . لقد أصبح الناس ، في حيرة و ارتباك ، من جهة المناقشات و المناظرات التي لا نهاية لها ، كما أنهم سئموا من العقائد التي كانوا بالجهد يفهمونها . كذلك لم يعودوا يشعرون برابط الأخوّة بينهم و بين الكهنة المتعجرفين اللابسين الثياب البهيّة ، و الذين كانوا من مراكزهم العالية في عروشهم «الأسقفية» ، يكررون على مسامعهم العبارات اللاتينية .

كثيراً ما يتكرّر القول إن الكنائس في إفريقيا الشمالية وَهَنَت و تضعضعت بفعل ما ابتُليت به من مناظرات أكثر من أي شيء آخر . يوجد بعض الحق في هذا القول ، إلاّ انه قد يتساءل احدنا بشأن هذه المناظرات ، إن كانت قد جاءت حقًا أصعب من تلك التي حصلت في أماكن أخرى من العالم ، حيث تمكّنت الكنائس على الرغم من كل شيء أن تعمّر من دون أن تصاب بأي أذى . في المناطق الأخرى ، انطلقت المباحثات من تساؤلات لاهوتية معيّنة و خصوصًا في ما يتعلّق بلاهوت المسيح . أمّا في افريقيا ، فكانت تتمحور على قضايا أبسط ، و تتركز بالإضافة الى ذلك على شخصيات شعبية . و لربما هذا ما جعل المشاعر جيّاشة أكثر و تسبّب بالنتيجة بجروح أعمق .

كانت هذه المشاحنات التي حصلت باسم الكاثوليكية ، و المونتانية ، و الدوناتية ، والأريوسية تحتاج الى معالجة . لكن هذه العملية كان لها انعكاسات سلبية على المسيحيين ، إذ أربكت أذهانهم ، وأزعجت مشاعرهم ، حتى إن الكثيرين منهم لم يعودوا يصبرون على احتمال المفكرين و المثقفين الذين كانوا قد عيّنوا لأجل قيادتهم . اين أصبحوا الآن من الإيمان البسيط والشعور المفرّح بحضور اللّه بين المؤمنين ، و الأمور المباركة الأخرى التي كانت تتميّز بها الكنائس الأولى ؟ لقد كانت هناك قلوب كثيرة جائعة الى معرفة اللّه الحي . لقد طلبوا خبزاً فحصلوا على حجر ، و سألوا بيضة فحصلوا على عقرب .[7]

غاب ذلك الإيمان المخلص الذي كان يسكن قلوب الرجال و النساء في ايام ترتوليانوس . لقد عملت فترة الست مئة سنة الماضية على مزج هذا الإيمان و خلطه بطموحات الإنسان ، وبخرافات العالم ، و بعنف السلطات المسلّحة ، حتى إنه لم يعد بالإمكان التعرّف به . كما أنه لم تعد تعاليم المسيح البسيطة والصريحة تُسمع بعد في افريقيا الشمالية . إن رسل المسيح الأوائل امثال بطرس و يعقوب و يوحنا ، بكلامهم العادي البسيط ، و بما كان عليهم من ثياب صيّادي السمك ، لا بدّ لهم من أن يرتبكوا و يتحيّروا أمام مشهد الباسيليكا البيزنطية المنمّقة و الفخمة ، وأمام خدمات الطقوس اللاتينية في القرنين السادس والسابع . فهذه الأمور لم يعلّمها سيّدهم ، كما أنه لم يكن هذا هو الإيمان الذي أرسلهم ليكرزوا به .

كانت إفريقيا الشمالية تحتاج مرة أخرى الى الاستماع الى الانجيل الحقيقي ، الرسالة البسيطة عن محبة اللّه ، التي تستطيع وحدها أن تبعث الرجاء في قلب الإنسان . فهذا البذار المقدس الذي سقط في الأرض الجيّدة على مدى سنوات عديدة ، أعطى ثماراً وفيرة . و لكن الغلّة القديمة قد تُركت الآن مدوسة من الأقدام ، ميتة و جافة تحت أشعة الشمس المحرقة . و قد أصبح الحقل بواراً في انتظار المطر والحراثة و البذار . و لكن لم تعد مثل هذه البذار الروحية موجودة في هذه الأرض . لقد انقضى الوقت و فات الأوان ، و كان بذار غريب دخيل في طريقه الى هذا الحقل ، و يحمله مزارعون مختلفون . وسرعان ما ستتغطّى حقول افريقيا الشمالية بحصاد جديد وغريب .

ملاحظات

1- راجع Clark p. 190

2- راجع Frend pp. 297 - 299

3- Victor de Vita *Historia Persecutionis* 1:35 - 37 (Hamman p. 34)

4- Coon p. 25

5- Cooley p. 54

يبدو أن بعض الكلمات الدينية ذات الأصل اللاتيني ، بالإضافة الى بعض أسماء شخصية من العهد القديم ، قد دخلت في ذلك الوقت لغة التوارك الصحراويين . يخبرنا المؤرخ البيزنطي پْرُوكُوپْيُوس (Procopius) (نحو 558م) عن سكان أوجيلة (Aoujila) في شرقي ليبيا ، وعن سكان غدامس (Ghadames) في غربيّها ، كيف انهم اهتدوا الى المسيحية في عهد الأمبراطور يوستينيان (527 – 565 م) ، و كيف أن قبائل الغاراماتثيين (Garamantes) في المناطق الداخلية في ليبيا ، قبلوا الإيمان أيضًا .

(H.T.Norris *The Tuaregs: their Islamic Legacy and its Diffusion in the Sahel,* Aris & Phillips, 1975)

6- اخيراً أدّى النزاع اللاهوتي الى الانشقاق الذي حصل في الكنيسة الكاثوليكية الرسمية العام 1054 م بين القسم الغربي : الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (تتكلّم اللاتينية) ، و ادارتها في روما ، و القسم الشرقي : الكنيسة الارثوذكسية التي تتكلم اليونانية و مركزها الرئيس في القسطنطينية .

7- هنا الإشارة الى متّى 9:7 و لوقا 12:11

من الممكن الرجوع الى المصادر الثانوية بشأن الحقبتين الواندالية و البيزنطية في إفريقيا الشمالية في :

Frend pp. 301 - 314 ؛ Coon pp. 24 - 26 ؛ Camps pp. 177 - 180 ؛
Cooley pp. 49 - 57 ؛ Guernier pp. 140 - 161

الفصل الثلاثون

الغزو العربي

لم تمضِ أكثر من ستّ و عشرين سنة على الحملة الأولى التي شنّها محمد على المدينة ، حتى قام اتباعه ، بعد أن استولوا على ما يستطيعون اليه سبيلاً من الجزيرة العربية و مصر ، و توجّهوا نحو الغرب بحثًا عن أمجاد إضافية و غنائم ثمينة ، فتركّزت انظارهم على المدن الوافرة و المنهكة القوى في إفريقيا الشمالية . ففي عام 647 م ، عبر عشرة آلاف فارس مع عدد كبير مماثل من المشاة ، الى ما يُدعى اليوم تونس . و قد قطعوا مسافات طويلة بعيداً عن بلادهم في الجزيرة العربية ، و ذلك سعيًا للحصول على مكافآت إلههم و بركاته الأرضية . و مع أن هذه المسافات جاءت أقلّ من تلك التي قطعها الوانداليون قبل قرنين ، فقد وصلوا الى أهدافهم و أدركوها بأوفر سرعة . لقد اخترقوا العالم المتوسطي المنهك فسقط و تشرذم .

و في سُوفتُولا اسمها الحالي سبيطلة ، واجهوا بعض المقاومة من جيش بيزنطي ضعيف سرعان ما انكسر أمامهم . ثم أُبرم اتفاق ، تراجع على أساسه العرب مقابل حصولهم على فدية كبيرة . و هكذا عادوا إلى مصر محمّلين بالغنائم و بالمكاسب ، و عندهم اقتناع راسخ بأن أرض إفريقيا الشمالية فيها الكثير من الخيرات التي يستطيعون أن يستفيدوا منها . انشغلوا بالاستمتاع بهذه الغنائم على مدى ثلاث عشرة سنة قرّروا في نهايتها ، أي في العام 660 م ، أن يرجعوا ليعيدوا تعبئة خزائنهم . هذه المرة انفقوا في مدة عشر سنوات ما كانوا قد حملوه معهم . و يظهر أن ثمار افريقيا الشمالية قد أغوتهم أكثر من تلك التي في مصر . ففي العام 670 م اتجهوا مجدّداً نحو الغرب بقيادة عُقبة بن نافع . لكنهم جاءوا هذه المرة ليمكثوا ، و يحطّوا الرحال .

كان العرب يشتعلون غيرة و حماسة بشكل لم يسبق له مثيل بين الغزاة . كانوا يحاربون لنشر ديانة جلبت عليهم مكافآت أرضية تفوق كل خيال . لقد صادفوا طريقًا اثبت انه نافع لهم ، وهو الطريق الذي يعدهم ايضًا بالكثير من المكاسب في المستقبل . و إلى ذلك ، فقد قطع العرب على أنفسهم سبيل العودة ، كما أنهم طرحوا عنهم جانبًا قيود بلادهم و محاذيرها ، و هكذا راحوا يسيرون قدمًا على طريق الشهرة و الغنى . لم يكن عندهم أي شيء يخسرونه ، في الوقت الذي كان بمقدورهم ان يربحوا كل شيء . بالإضافة الى ذلك ، وجد العرب أنفسهم على عتبة بلاد كان الأرستوقراطيون والقادة المفكرون فيها قد هربوا منها ، كما أن مالكي الأراضي

كانوا قد ارتقوا حديثًا الى رتب لم يكن لهم فيها أية خبرة سابقة ؛ أرض قُطعت اتصالاتها التجارية ، و لم يكن جيشها يضمّ سوى قلّة قليلة من الجنود المرتزقة الجرمانيين الذين كانوا يتقاضون أجوراً زهيدة . أمّا الرجال الذين كان لديهم القدرة على تنظيم دفاع إفريقي ، و دحض المزاعم اللاهوتية العربية الجديدة و تفنيدها ، فكانوا قد لجأوا منذ وقت طويل الى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط آخذين معهم كل ما يستطيعون حمله من الأشياء الثمينة : كتب ، وكنوز ، و رفات الشهداء المسيحيين .

و في العام 698 م ، احتلّ العرب العاصمة التاريخية لشمال افريقيا ، ميناء قرطاجة العظيم . ولكن لم يقيموا مستوطناتهم في تلك المدينة ، هذا لأن قاعدتهم التي لم تكن في البداية تختلف كثيراً عن المخيّم العسكري ، قد جرى نصبها و إقامتها في القيروان ، التي كانت تقع في سهل و تبعد نحو مئة كيلومتر عن الساحل . سجّل ذلك تحوّلاً رمزيًا عن الماضي ، فعلى افريقيا الشمالية ، من الآن فصاعداً ، ألاّ تنظر الى الخارج الى الحضارة الغربية ، بل بالحري الى الأماكن الفارغة في الداخل . فميناء قرطاجة لم يعد محورها بعد الآن ، كما أنه لم يعد الباب الذي منه تخرج الى العالم الواسع للبحر الأبيض المتوسط . فالعرب ، ابناء الصحراء الذين لا يحبون البحر أبداً ، أوصدوا هذا الباب بإحكام . لقد اندفعوا غربًا باتجاه الساحل الأطلسي للمغرب ، و لكنهم لم يعبروا قط الى جزر الخالدات .

كانوا متعطّشين للحصول على المزيد من السطوة و الغنائم ، و يشجّعهم على ذلك اقتناعهم بأن هذه البركات المادية هي مكافأتهم المحقّة على محاربتهم حروب إلههم . من ثمّ أسسوا لهم قاعدة داخلية أخرى في فاس و ذلك في سنة 809 م . و لم يلاقوا هذه المرة أية مقاومة من البيزنطيين الذين لم تعد افريقيا بالنسبة إليهم سوى مكان بعيد و عبء مكلف . فوجئ الأمازيغيون بهذه الهجومات وفزعوا ، ولم يدروا كيف يصدّونها . كانت القبائل الجبلية معتادة على نهب المدن التي كانت مقراً للرومان وللواندالين و للبيزنطيين ؛ و كثيراً ما قاموا خلال القرنين السابقين بشنّ غارات عليها . لكن عصاباتها الصغيرة كانت تكتفي بالخروج من حصونها لشنّ هجوم سريع على المنطقة الساحلية قبل أن تُهرع مجدّداً الى حصونها . أمّا الآن ، فكانوا يواجهون حالة جديدة مختلفة تمامًا . هذا و إن المهاجم الجديد لم يتوقّف عند حدّ الحزام الساحلي الضيّق . فالعرب ارادوا ان يهيمنوا على المناطق الداخلية ايضًا ، الأراضي التي كانت دائمًا ملكًا للأمازيغيين .

طوّر الوافدون الجدد استراتيجية عسكرية سهلة و لكنها فعّالة جداً . فقد دأبوا على أن يهاجموا كل قبيلة على حدة في معارك في الهواء الطلق و الكرات السريعة للفرسان ، و هكذا قهروهم بقوة سلاحهم المتفوّق . ثم كانوا يعرضون عليها اختياراً بسيطًا : إمّا اعتناق الدين الجديد ، و إمّا دفع الجزية ، و كلاهما يضمن خضوع المهزوم و إذعانه لهم .[1] هكذا وجد الأمازيغيون أنفسهم ، و لأول مرة ، في موقع الدفاع ، يقاتلون ، لا لكسب أراضٍ او غنائم جديدة ،

بل للمحافظة على الخيرات التي كانت دائمًا ملكًا لهم . كان العديد من هذه القبائل المشرذمة ، مسيحية ، على الأقل بالاسم ، و لم يشتركوا بالتالي في أية حرب ، و ذلك على مدى أجيال طويلة ، و هم بالطبع لا يستطيعون ان يتذكّروا أي وقت سبق لهم أن اتّحدوا فيه ضدّ عدو مشترك . كذلك كان من الصعب جداً ، في جميع الأحوال ، الحصول على السيوف او الرماح من تجار الساحل الذين جرى إعلامهم بأن لا يزوّدوا الأعداء المحتملين بوسائل الهجوم و القتال . وهكذا باتوا الآن غير مجهّزين كما يجب لمواجهة هجومات الخيّالة العرب المندفعين و العنفاء . وإذ أدرك العديد من الأمازيغيين أنه ليس باستطاعتهم قهر المعتدي ، قرروا الانضمام اليه ، و بذلك انتهز بعضهم الفرصة ايضًا للانتقام من القبائل المجاورة .

و لعل شعورهم بأن ما تطلّبه منهم العرب كان سهلاً ، هو الذي شجّعهم على ذلك : كل ما كان عليهم فعله هو التلفّظ بجملة قصيرة بلغة يجهلونها ؛ شيء من القَسم بالولاء لقادتهم ولديانتهم . كان المسلمون يؤمنون بإله واحد أسمى : و هذا لم يكن بالشيء الجديد عليهم ، فإن هذا ما كان يؤمن به كل من المسيحيين و اليهود أيضًا . كما أن التقاليد القديمة المختصة بمذهب حيوية المادة ، كانت منذ القديم الغابر تشير هي أيضًا الى وجود الكائن الأسمى . أمّا البديل لاعتناق الاسلام ، فكان دفع الجزية و الضرائب الثقيلة الباهظة لحساب المستوطنين ، وذلك بشكل مستمر ؛ و لم يكن هذا بالعرض الجذّاب بالنسبة الى الشعب الافريقي الذي كان قد عانى الأمرّين من جراء ذلك إبّان حكم البيزنطيين . فمثل هذه الضرائب ستكون كفرك الملح على جروح العبودية بشكل دائم ؛ و هذا أمر غير مستحبّ لدى الناس الذين طالما افتخروا بحرّيتهم . فإن كان الغزاة يرضون بمجرّد النطق ببعض الكلمات أمامهم ، يكون إذًا هذا الخيار هو الأسهل بكثير عند الامازيغيين . فهؤلاء القوم لم يكونوا يأبهون للتنميقات اللاهوتية : كان يبدو لهم على كل حال انه لا يوجد سوى فارق بسيط بين الإسلام و الأريوسية . و الى ذلك ، فقد كان من السهل تبنّي الإسلام : فشعائره بسيطة ، و يمكن تعلّمها بسرعة ، و تطبيقها علانية . أمّا الأمور الشخصية و الأكثر صعوبة كتلك المختصة بالأمانة و النقاوة الأخلاقية و الرفق و انكار الذات ، و التي تشكّل في الواقع لبّ المسيحية ، فلم تكن الديانة الجديدة تشدّد كثيرًا عليها . كان التفوّه «بالشهادة» ، يكفي لحلّ الإنسان من دفع الضرائب ، و ربما لفتح ابواب التجارة المربحة والترقية ، و المناصب الرفيعة امامه ، و كل ذلك من دون تعقيدات التوبة أو الإيمان التي كانت تُشغل بال المسيحيين . و على كل حال ، كان التأكّد من المقبولية عند الناس أسهل من التأكد من المقبولية عند الله . و الناس ، كما هو واضح للجميع ، كانوا يحملون سيوفًا ! لقد اختار شعب المناطق الداخلية في افريقيا الشمالية الطريق الذي يُبقي على ماء الوجه من جهة ، و يوفّر المال من جهة أخرى . و لكنهم اختاروه من دون أن يكون عندهم اقتناع كاف به . فصحيح ان الأمازيغيين قد دخلوا الدين الجديد بسرعة ، لكنهم ظلّوا فاترين للغاية كما ستُظهِّر ذلك أحداث المستقبل . إنهم لا يزالون حتى اليوم يدفعون غاليًا ثمن خسارتهم حرية الضمير .

لكنهم ، لم يكونوا جميعهم ينزعون الى الإذعان بخنوع . فالمؤرخ العظيم ابن خلدون - وقد يكون هو نفسه من أصل أمازيغي - كتب ما يلي : «وكانت رئاسة البربر يومئذ في أورْبَة (Aouréba) ، لكُسيلة بن لَمزْم (Kosaila)» [2]. كان هذا القائد و معه سائر قادة القبيلة أيضًا ، قد اعترفوا بأنهم مسيحيون . و كان كُسيلة قد عانى الأمّرين على أيدي المسلمين . فبعد أن قبض عليه عُقبة ، كبّله بالحديد ، ثم اقتاده و هو في هذا الحال عبر مناطق شمال افريقيا . لكنه تمكّن في العام 683 م من الفرار ، و راح يحشد ضد معذّبيه جيشًا كبيراً من الجنود الأمازيغيين و البيزنطيين . ثم نجح في أخذ العرب على حين غرّة . هذا لأنهم كانوا منذ البداية مجموعة من الأفراد المدجّجين بالسلاح ، أكثر من كونهم جيشًا مدربًا . و ضعف تنظيمهم هذا ، وُضع الآن ، و لأول مرّة ، على المحك ، و تمّ اختباره بشكل جدي . فانهزم القائد العربي عُقبة و قُتل . و احتلّ كُسيلة القيروان نفسها ، و قد بدا لفترة قصيرة ، و كأنه سيّد افريقيا الشمالية كلّها . لم تدم هذه الفترة طويلاً ، إذ بعد خمس سنوات على ذلك قُتل كُسيلة في معركة خاضها ضد قوات عربية جديدة بقيادة جنرال مسلم من دمشق . و بعد فترة وجيزة ، تمكن بعض القراصنة البيزنطيين من قتل هذا العسكري على حين غرة . و على أثر ذلك ، ساد الارتباك والتشويش لبعض الوقت . لكن سرعان ما أدركت قبيلة أوربة ضعف مركزها ، فاستسلمت اخيراً للجيش العربي الذي كان قد تمّ تعزيزه و إعادة تنظيمه حديثًا .

و بموت كُسيلة ، انتقل مشعل المقاومة الى قبيلة تدعى جَرَاوة (Djeraoua) ، كانت تقطن في جبال اوراس (Aurès) . و كانت هذه القبيلة قد اعتنقت الإيمان اليهودي . هذا لأن عدداً كبيراً من اليهود كانوا قد التجأوا الى الأمازيغيين ، و بخاصة خلال القرنين الرابع و الخامس . و قد جلب اليهود معهم تقنية أعمالهم المعدنية و مهارات حرفية أخرى . من أجل هذا وجدوا لأنفسهم موضعًا ملائمًا بين القبائل التي قدّرت منتجاتهم حقّ قدرها ، و احترمت صدق ايمانهم بالله و أمانتهم في تعاملهم اليومي . و هكذا ترسّخت بفعل التزاوج و الهداية الدينية مجموعات كبيرة من شعب « البربر اليهود» .

كانت ملكة قبيلة جراوة تدعى « كاهنة» . و يشير لقبها الى انها كانت ذات نفوذ ديني . وقد اشتُهرت بمعرفتها الخارقة للطبيعة ، التي اكتسبتها من الشياطين التي كانت تربطها بها علاقة حميمة . وهذا ، في الواقع ، هو من مذهب حيوية المادة ، لا من الإيمان اليهودي . و بضراوة بالغة ، ردّت كاهنة بعنف ثلاث هجمات عربية شُنّت عليها ، و هكذا استمرت قوية و لا يمكن قهرها ، وذلك لفترة تزيد على الثلاث سنوات . و لكن ، بعد موتها في العام 693 م ، لم يبقَ هناك مَن بوسعه ان يستقطب حوله القبائل المحتشدة . لقد انتهت تقريبًا المقاومة الأمازيغية المنظّمة و المسلحة ضد العرب [3].

إن التدفّق العربي على المنطقة في القرنين السابع و الثامن ، كان يقتصر على المخيمات العسكرية و المراكز المدينية الموجودة . كان اول المستوطنين العرب ، رجالاً من عائلات

ارستوقراطـية و مثقّفين جداً . كانوا متمرّسين جداً في معتقدات ديانتهم ، و يتقنون التكلّم بلغة عربية فصيحة مشابهـة للغـة القرآن نفسه . كان هؤلاء القوم من المغامرين و المحاربين أكثر ممّا كانوا من المستعمرين . كان العديد منهم ، و لا شك ، مدفوعين بحماسة دينية . كانوا حسّاسين و قابلين للتكيّف ، و قد تبنّوا بسهولة البنية الإدارية البيزنطية الموجودة آنذاك لخدمة أغراضهم الخاصّة كما أنهم تعلّموا بسرعة نظام الزراعة التقليدي ، و الذي لم يكن لهم فيه أية خبرة مسبقة . و إذ أحاطوا أنفسهم بمستشارين مسيحيين و يهود ، بـات من السهل عليـهم أن يستـوعبـوا بسـرعـة المـعلومات و المهارات المطلوبة التي يحتاجون إليها في التحوّل من حياتهم السابقة كأمراء بدو ، الى دورهم الجديد كحكّام مقيمين . لا يمكنهم الادّعاء بأنهم هم مَن استقدموا معهم التراث العلمي اليوناني الى شمـال إفريقيا ، و لكنهم على الأقل تلقّنوه جيداً من معلميهم البيزنطيين ، و حافظوا عليه خلال القرون ، حين كانت اوروبا مشغولة بثوراتها الاجتماعية والسياسية .

و حيث انهم كانوا يسافرون في معظم الأحيان من دون اصطحاب نساء ، لم يتردّدوا في الزواج من أمازيغيات . و هكذا باتت ذريتهم أمازيغًا و عربًا عى حد سواء ، على الرغم من أن هذا النسل كان يربى على اللغة العربية و الديانة الاسلامية . لكن ، و بعد مرور عدّة أجيال ، بات الدم العربي ضعيفًا ، وهكذا نبدأ في رؤية نشوء الأرستوقراطية المدينية النموذجية في إفريقيا الشمالية : عرب من الناحية الثقافية ، و لكن أمازيغيون في عرقيتهم .

غالبًا ما كان الأسياد العرب يقومون بتبنّي أولاد رؤساء قبائل الأمازيغيين ، فيأتون بهم الى بيوتهم ليترعرعوا فيها او لحفظهم كرهائن ، و لا فرق بين الاحتمالين . أمّا القبائل التي كانت تعيش في محاذاة تلك القواعد العسكرية الداخلية ، فكـانـت تحـاول دائمًا ان تحظى بحماية حكامهـا الجدد وبرضاهم . و هكذا تطوّرت العادة بأن يقوم أحد القادة العرب ذو النفوذ « بتبنّي» قبيلة أمازيغية برمّتها ، حتى إنه كان يحقّ لها منذ ذلك الحين أن تحمل اسمه . لقد منح هذا النظام درجة عالية من الاعتبار و الكرامة للأمازيغيين ، كما أنه فتح أمامهم مزيداً من الفرص التجارية التي كانوا يتوقون اليهـا و يشتهونها . كذلك ساعد كثيراً على « تعريب» هذا الشعب . و كما ان الكثيرين اندفعوا لكسب رضى العرب في المدن و في السهـول ، انتهـز آخرون الفـرصة لنوال المجد و الغنائم مع الجيش العربي . و من المعروف تمامًا أنّ قوات المسلمين الذين اجتاحوا اسبانيا في بداية القرن الثامن ، كانوا في غالبيتهم من الأمازيغيين بقيادة شلّة قليلة من القادة العرب الأشدّاء .[4]

إلاّ أن الهجرات العربية الرئيسة الى إفريقيا لم تحصل إلاّ بعد مرور أربع مئة سنة على هذا . ففي القرن الحادي عشر ، وصلت قبائل بدوية من طريق البر ، مع مواشيهم ، و بدأوا في الانتشار في كل السهول الداخلية . و كان هؤلاء المستعمرون من بني هلال و بني سُلَيم و غيرهم ، قد تركوا العربية بسبب الجفاف و القحط و الجوع و صراعهم مع حكامهم .[5] و قد جلبوا معهم قطعانًا ضخمة من الماعز التي قضت على الحياة النباتية الهزيلة و الهشة في افريقيا الشمالية . لقد تجنّبت

هذه القبائل الجبال التي لم تكن تتناسب مع تربية مواشيهم ، فاضطروا بذلك إلى أن يجتاحوا الأراضي الزراعية حيث كان يقيم الأمازيغيون ، و ذلك بمساعدة رجال قبائل الزناتة الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه على مدى قرون طويلة . ثم جاءت العواصف الرملية لتكمل عمل ماعزهم التخريبي ، إذ نزعت التربة الفوقية . و هكذا حلّت البقاع الفسيحة من الأراضي القاحلة العارية والجافة ، محل حقول الحنطة و الخضر الخصبة سابقًا . و قد وصفهم ابن خلدون « كالجراد المنتشر ، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه» . [6] بات من الممكن تعقّب آثارهم ، و ذلك من الخراب الذي خلّفوه وراءهم . و قد نرى هنا مثلاً آخر على ذلك النمط الهام الذي غالبًا ما يتكرّر في التاريخ : الصراع بين الصحراء و الحقل ، بين البدوي و الفلاح ؛ رغبة ساكن الصحراء في الاستيلاء على اراضٍ أخصب و أغنى يمتلكها غيره ، فيسرقها منهم ثم يخربها !

كان بنو هلال أقل معرفة بمبادىء الإسلام من أسلافهم اهل المدن ، و لكنهم مع ذلك رأوا الفائدة من انتمائهم الى هذا الدين . كانوا يتكلمون صيغة بسيطة من اللغة العربية ، و التي دخل عليها ، بعد مضي عدة أجيال ، الكثير من الكلمات و التعابير الامازيغية التي أخذوها عن جيرانهم ، فنشأت على إثر ذلك لهجة جديدة مميّزة : العربية المحكية الخاصّة بإفريقيا الشمالية ، وهي لغة فعّالة للغاية ، بما أنها ورثت اقوى معالمها عن كل من والديها ، متخطّية بذلك التفاصيل التافهة التي تعقدهما .

لم يزد عدد هؤلاء العرب الذين تدفّقوا الى افريقيا خلال القرن الحادي عشر ، عن المئة الف نسمة ، بما في ذلك النساء و الأولاد . [7] و قد توزّعوا بين بضعة ملايين من الأمازيغيين . ولكن نفوذهم فاق عددهم بكثير . وقد قدّمتْ إليهم القبائل المتنازعة ساعية بكل حماسة للحصول على دعمهم . فكان دورهم محصوراً في إمالة الميزان هنا أو هناك في ما يتعلّق بالخلافات التي شغلت القبائل على مدى أجيال عديدة . و هكذا حصلوا على حصص من الأراضي والممتلكات التي أعيد توزيعها . و بعد عدد من المعارك و تخريب كثير من المدن ، و تدمير الأشجار و الآبار ، وأعمال النهب و السلب و قتل الكثير من الأنفس ، استطاع بنو هلال ان يسيطروا على الوضع . «وهلكت الضواحي و القرى . . . و عمّ النهب والعبث في البلاد ، و تغلب عائد بن أبي الغيث على مدينة تونس وسباها .» و لم تسلم مستوطنات المسلمين بالقيروان « و جاء العرب فدخلوا البلد واستباحوه ، واكتسحوا المكاسب و خرّبوا المباني و عاثوا في محاسنها ، و طمسوا من الحسن والرونق معالمها . واستصفوا ما كان لآل بُلكين في قصورها ، وشملوا بالعبث و النهب سائر من فيها و تفرّق اهلها في الاقطار فعظمت الرزيّة ، و انتشر الداء .» [8] و قد هلك في يوم واحد 3300 من هؤلاء الذين حاولوا مقاومتهم . و بعد احتكاكات كثيرة ، و مزيد من إراقة الدماء صُولح العرب المثقفون الذين يحكمون المدن مع نظرائهم الريفيين الغليظين ، و هكذا راح حكام المدن يؤازرون العرب البدو في جميع نزاعاتهم مع الآخرين ، فارضين العقاب على كل من يعاديهم او يقف في وجههم . و بالطبع ، فقد أمست الغزوات العربية منذ ذلك الحين فعّالة للغاية ، و لا يمكن

صدّها او مقاومتها . كما أن أمر كسب الودّ العربي بات مطلب جميع الفرقاء في كل الظروف والمناسبات . كذلك ازداد في الوقت عينه الدافع عند الكثيرين لتعلّم لغة الحكّم و القاضي . وفي غضون بضعة أجيال ، كان باستطاعة مناصريهم ، بالإضافة إلى اعدائهم و مقاوميهم السابقين ، أن يلمسوا المنفعة من التقدّم خطوة أخرى بعد ، إذ يدّعون بأن دماء عربية تسري في عروقهم . كان بعضهم ، و لا شك ، قد اختلطوا بالدماء العربية من طريق الزواج . إذًا لم يخلُ ادّعاء هؤلاء من بعض الحق . أما أولئك الذين لم يرضخوا لمطالب الغزاة المسلمين و أوامرهم ، فهربوا الى الجبال و بقوا هناك منذ ذلك الحين .

نجح العرب في الاستيلاء على مناطق واسعة ، و في إخضاع شعب كان يفوقهم جدًا في العدد ؛ ولا تزال آثارهم في افريقيا الشمالية باقية حتّى وقتنا هذا . هذا على الرغم من أن عددهم لم يكن أكبر بكثير من عدد الونداليين الذين لم يخلّفوا وراءهم أية آثار لغوية او ثقافية او دينية . وقليلون هم المواطنون في افريقيا الشمالية الذين يدّعون أنهم يتحدّرون من أصل وندالي.[9] كان نجاح العرب يُعزى الى عوامل أخرى غير العدد .

غالبًا ما يُفترض بأن المسلمين هم الذين جاءوا بالحضارة الى الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط . ان هذا الافتراض ، في الواقع ، هو أبعد ما يكون عن الحقيقة . هذا لأن كل ما فعله الوافدون الجدد هو أنهم نصبوا مخيّماتهم العسكرية ، جنبًا الى جنب تلك المدن التامّة النمو و الخبيرة بالحياة ، و التي كانت لاثني عشر قرنًا خلت قد شهدت مدّ الحضارات المتطوّرة و جزرها ، لكلّ من القرطاجيين و الرومان و البيزنطيين . فمنذ فجر التاريخ ، و الأمازيغيون يشكّلون جزءًا من عالم البحر الأبيض المتوسط . و قد شاركوا في الثقافة اليونانية العالية و الرفيعة ، كما شاركوا في التقنية الرومانية المتقدمة . قام العرب بقطف ثمر الأشجار التي زرعها غيرهم ، و قادوا قطعانهم العربية الى المراعي حيث سبق للقطعان الإفريقية أن ربضت على مدى آلاف السنين . كما أنهم عقدوا ايضًا صفقات جديدة مع التجار الذين كانوا اول من سافر عبر الصحراء على ظهور الجمال و جابوا طرقاتها حاملين الذهب و العاج من الجنوب ، و قد حصل ذلك على ما يبدو منذ بداية الزمن .

لا يزال تراث تلك الحضارة القديمة لمحيط البحر الأبيض المتوسط موجودًا حتى أيامنا في شمال إفريقيا . فالرومان هم الذين ابتكروا الريّ على نطاق واسع . و لنا في البقايا الأثرية لتلك القنوات والقناطر لجر المياه خير شهادة صامتة للأعمال الهندسية الرومانية الرائعة في ذلك الزمان . وتلك الحضارة الزراعية التي ازدهرت خلال الف السنة قبل دخول الإسلام ، استمرت بعد ذلك ، ومن دون توقّف حتى عصرنا هذا . ان كلاً من العرب و الأمازيغيين لا يزالون يقسّمون السنة بموجب التقويم الروماني ،[10] كما ان المصطلحات الزراعية ، بشكل خاص ، غنية جدًا بالكلمات التي هي من أصل لاتيني : لم يبتكر العرب إلاّ الشيء القليل في ما يتعلق بأنواع المحاصيل و المواشي او المعدات الزراعية .

لقد اشتهر الرومان ، بحق ، بتعبيد طرقهم الطويلة المستقيمة ؛ إلاّ أن تصميم البيت الحديث في مدن إفريقيا الشمالية ، كما في مزارعها ، قد أُخذ عن الفن المعماري الروماني ، أكثر منه عن الفن المعماري العربي : مدخل واحد عبر الحائط الخارجي ، ثم ردهة تقود الى الفناء المركزي ؛ و هذا الفناء نفسه مفتوح على السماء و غير مسقوف ، و فيه غرف عند جوانبه الأربعة ؛ و حديقة صغيرة ربما ، او نافورة في وسط الفناء ، و ايضًا حوض سباحة بالنسبة الى العائلات الأكثر ثراءً . كانت الجدران مصنوعة من الحجارة الخشنة المتماسكة بواسطة مادة الإسمنت الصلبة ، و هي من أعظم ما قدّمته الامبراطورية للعالم . و في بعض الأماكن لا يزال القرميد الأحمر الشبيه بذاك الذي كان يستعمله الرومان ظاهراً فوق سطوح بعض البنايات . و حتى الزليج الملوّن و المزركش الذي يغطّي أرضية بيوتنا في أيامنا الحاضرة ، فإنه يذكّرنا بالفسيفساء الرومانية التي أوحت به . زُوّدت الدور الرومانية بالأحواض و بمجاري المياه ، و هي تضاهي في جودتها الأنابيب الحديدية و مصارف المياه المصنوعة من الإسمنت في أيامنا الحاضرة ، كما أن الحمامات العامة التي ابتكرها الرومان لا تزال من معالم حياة المدن في افريقيا الشمالية .

و قد بنى الرومان ما مجموعه حوالي ست مائة مدينة في شمال افريقيا و أكثر من 000 19 كيلومتر من الطرقات ، و اكتشف علماء الآثار ثلاثين مدرجًا حجريًا فخمًا . و في مدينة واحدة فقط ، أي مدينة تيمقاد في الجزائر ، توجد آثار لثلاثة عشر حمام عمومي ، كما توجد الكثير من النوافير العمومية (السقايات) . هذا بالإضافة إلى الأحواض المائية التي نجدها في كل مكان في الآثار الرومانية .

أما في التلال و الجبال ، فلا يزال الأمازيغيون حتى اليوم يشيّدون بيوتهم الاقتصادية المميّزة ممّا يتوافر لهم من طين و قش و حجارة ؛ و لطالما استخدموا هاتين المادتين منذ فجر التاريخ . اذًا لم يتأثروا في هذا المجال ، لا بروما و لا بالعربية : كان عندهم تراثهم الأمازيغي الخاص بهم وحدهم .

ان الشيء الجديد الذي جاء به العرب الى افريقيا هو الدين الإسلامي . و كان اسلافهم في العربية و في سوريا ، و على مدى نحو ثلاثين جيلاً يعرفون المسيحية جيداً ، كما انه كان يوجد بين ظهرانيهم الكثير من المسيحيين [11] . و لكن الرجال الذين أصبحوا من أتباع محمد ، كانوا في غالبيتهم نظيره ، أي من أصل وثني و غير مسيحي . وربما لم يكونوا يعرفون بشكل واضح ما يؤمن به المسيحيون . وفي أية حال ، فأن تعليمهم لم يكن يتماشى مع الوقائع المدوّنة في الكتاب المقدس و التي كانت معروفة عند جميع المسيحيين واليهود المثقفين في ذلك الوقت . لقد اعتقدوا ان امرأة نوح هلكت هي و واحد من بنيه في الطوفان ، لا ، إنهما خلصا مع نوح ، كذلك كانوا يؤمنون بأن هامان كان أحد رؤساء الوزارة في بلاط فرعون في زمن موسى ، هذا مع أن الكتاب المقدس يُصرّح

بأنه كان الوزير الأول لملك فارس أحشْويروش ، اي بعد نحو 800 سنة من ذلك . لقد اعتقدوا ان اسماعيل كان الابن الذي اخذه ابراهيم الى الجبل ليقرّبه كذبيحة ، لكن الكتاب المقدس يذكر أنه أخذ ابنه اسحق . كما أنهم خلطوا بين مريم أم يسوع و بين مريم أخت موسى ، على الرغم من أنه من الثابت تاريخيًا أنهما تنتميان الى سبطين مختلفين وتفصل بينهما 1200 سنة . و لم يكونوا يستعملون الاسم الأصلي للمسيح الذي كان « يسوع» . كما لم يُبدوا أية علامة على معرفتهم بحياته وتعاليمه وكتابات رسله .

خلال ستة القرون التي سبقت دخول الإسلام الى افريقيا الشمالية ، كانت تعاليم المسيح معروفة ومكنوزة فيها . و بعد دخول الإسلام بستة قرون بقي هناك بعض المسيحيين الأمازيغيين الذين كان لا يزال بإمكانهم تعليم الوافدين من المسلمين طريق المسيح . إلاّ أن المسلمين كانوا مهتمين بقهر أبناء البلد ، وبإخضاعهم ، أكثر من اهتمامهم بالتعلّم منهم .

شهد النصف الأول من القرن الثامن ، تحوّل معظم الأمازيغيين ، و لو ظاهريًا ، الى الإسلام ، على الرغم من أنّ ابن خلدون يذكر «أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة»[12] . و من الخطإ ان نعطي انطباعًا في أن الغزو العربي لإفريقيا قد حصل فوراً و بشكله الحاسم و النهائي . فقد كان هناك مقاومة واسعة و عنيفة ضد المستعمرين ، و ذلك على مدى خمسة قرون ، و كانت هناك مناطق واسعة خارج نفوذ الحكام المسلمين . و خلال القرون الوسطى ، تبنّى الأمازيغيون بسهولة ، و احيانًا بحماسة ، الحركات الإصلاحية كلها التي حاولت أن تتحدّى السلطة العربية . و كانت هذه الحركات تتلقّى بشكل حتمي دعمها وتأييدها من الشعب الريفي و من الطبقات الفقيرة في المجتمع .

و في العام 740 م ، بلغ الأمر ببَرْغَواطا (Berghawata) ، في السهول الغربية من المغرب ، بين سلا و الصويرة ، أنها استنبطت دينها الخاص بها ، بالإضافة الى مصحف جديد للكتابات الدينية مكتوب باللغة الأمازيغية . و هكذا استطاعوا ان يثبتوا وجودهم كأمّة منفصلة حتى العام 1062م . وفي معظم سنوات القرن العاشر ، حكم المسلمون الشيعة من قبيلة الكُتامة مساحات و مناطق واسعة من الجزائر باسم سلالة الفاطميين الحاكمة . و في القرن العاشر أسّس خوارج جنوب الجزائر المملكة الإباضية المستقلة . كما أن الذين تحدّروا منها في كل من جربة وَرْقلة وجبل نَفُوسَة و المزاب لا يزالون يحتفظون بهويتهم منفصلة حتى أيامنا هذه . كذلك تمّ تأسيس مملكة أخرى للخوارج في سجلْمَاسة . و بالإضافة الى ذلك ، بقي الكثيرون من الرؤساء الأمازيغيين في الجبال و السهولَ الغَربية ، بعيدين تمامًا عن سيطرة العرب و المسلمين حتى قامت عليها حملات الموحّدين و ذلك في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر . و البدو في الصحراء ، لم يصيروا مسلمين بشكل فعلي إلاّ بعد حلول القرن الخامس عشر . أمّا شعب الغْوَانْش (Guanches) سكان جزر الخالدات ، فلم يبلغهم الاسلام أبداً .

وكما كـان الإسلام بطيئًا في تثبيت جذوره في افريقيا ، كـذلك كانت المسيحية ترفض أن تتلاشى . فقد استمرت بعض الكنائس في شمال افريقيا فاعلة ، و ذلك بعد خمسة قرون من دخول الإسلام . إلاّ أن الجماعة المسيحية ، و باعـتراف الجميع ، بـاتت تختلف تمامًا عمّا كـانت عليه مـن قـبـل . و لكننا نعجب من تمكنها من البقـاء و الاسـتـمـرار ، نظراً الى مـا عـانتـه من صدمات ، مع ما كانت تفتـقر إليـه من تعليم و تشجيع . كانت الكنيسة البيزنطية في افريقيا تضمّ عدة مئات من النظّار ؛ لكن ، لم يبقَ منهم سوى اربعين مع بداية القرن الثامن . و قد تمكّن هؤلاء الأربعون من المثابرة الدؤوب . لقد رفضوا ان يتنكّروا للحق ، فـدفعـوا الضـرائب المفروضـة عليهم ، حاسبيـن أن إيمانهـم و حـرية ضمائرهم لا يقدّران بثمـن . و علـى الأقـل ، فإنهـم لـم يـديـروا ظهورهـم للمسيـح . لقـد كانـوا رجالاً و نساء رائعين ، و بإمكاننا الوثوق بأن مكافأتهم تنتظرهم هناك في السماء .

هناك الكثير من التضارب في وجهات النظر بين المسلمين أنفسهم حول كيفية التعامل مع مشايعي الأديان الأخرى في الدول الإسلامية . و من الناحية المبدئية ، كـان التساهل ممكنًا مع المسيحيين و مع اليهود ، شرط ان يرضوا بأن يكونوا في موقع « الذمّة» ، أي اولئك الذين يتكفّل الإسلام بحمـايتهـم . وفـي هـذه الحـال ، يتـوجـب عليـهـم أن يدفعـوا الضـريبـة المطلوبـة . ففـي سـوريـا و مصر ، اختـارت جمـاعات كبيرة من المسيحيين ان يدفعوا هذه الجزية ؛ أمّا في شمـالي إفريقيـا ، فالـذيـن دفعـوا الضـريبـة ، كـانـوا قلّـة قليـلة نسبيًا . كـانـوا يطلقـون عليـهـم التسـمـيـة « رومـي» ، و لا يزال هذا الاسم يُطلق على الأوروبيين في شمـالي إفـريقيـا . كان بمقدور المسيحيين المحـافظة على بناية الكنيسة المحلية الموجودة بواسطة اصـلاحهـا وصيانتها ، ولكن لم يكن يجوز تطويرها او توسيعها ، و لا حتى تشييد أبنية جديدة . صدر مرسوم في المغرب ، بعد اربعة قـرون من موت محمد ، ينصّ على التـالي : « لا يحق للمسيحيين أن يزيدوا ارتفـاع كنائسـهـم ، و لا ان يغيّروا في بنائها في حال كـانت الكنيسـة المحلية مبنية بواسطة الآجر المجفف و ارادوا ان يعيدوا بناءها بالحجارة . و اذا كـان خارج الكنيسة لـم يكتمل بعد ، فيجب منعهم من إكمـال بنائها على أي حال .» و لـكن اذا وُجدت بناية الكنيسـة فعـلاً ، فيـجوز صيـانتهـا واستعمالها للعبادة : « لا يُحظّر على أي من المسيحيين أو اليهود ان يضعوا اللمسات الأخيرة على أي بناء مكتمـل ، كـالعمل على رفع البـاب قليلاً في حال ازداد علـو الأرض الى جـانبه ، او القيـام بالترتيبات الضرورية لاستقبال العابدين في داخل المبنى .» 13

و مع حلول القرن التاسع ، نحن نعلم أن المسيحيين ، مع ان عـددهم لـم يعد غفيراً ، كانوا لا يزالون يتواجدون في المدن الرئيـسـة في شـمـالي افريقيـا ، بما في ذلك المراكز الجديدة التي أسّسـها العرب في فاس وتلمسان ، و تـيارت ، و بجاية ، و تـونـس ، و القيروان ، و المهدية . و نحن ، مع الأسف الشـديد ، لا نعـرف سوى الشيء القليل عن هؤلاء الـذين استـمـرّوا بفـضل صـمـودهم العنيد . و لا بدّ من أن ايمانهم كـان راسخـًا حتـى استطاعوا ان يتحمّلوا شتى الضغوط العنيفة

طوال تلك الفترة . إن هذه المثابرة الدؤوبة تنمّ ، و لا شك ، على معرفة حقيقية بالله و بقدرته الفائقة على حفظ المؤمنين ، و على مدّهم بما يحتاجون إليه . لم يكونوا مجهّزين كما يجب للبقاء وللاستمرار . فكلمة الله لم تكن متوافرة لديهم (إلاّ اذا استطاع كل جيل ان يدرس اللاتينية و أن يستنسخ الكتاب المقدس باليد) ، كما انه لم يكن لديهم أية ذكريات عن كنيسة مبتهجة و نامية كما كانت عليه حالها في أيام ترتوليانوس . كانت لديهم خبرة ضعيفة وهزيلة في ميادين التلمذة الشخصية ، لأنهم اعتادوا في الكنائس البيزنطية على أخذ دور المتفرّج و عدم القيام بأي شيء . لقد ورثوا الخرافات المتراكمة ، بالإضافة الى أخطاء كلّ من الدوناتيين والكاثوليك و الآريوسيين . و بالرغم من كل هذا ، كان لا يزال بوسعهم ان ينالوا الخلاص بالإيمان البسيط بيسوع المسيح ، و أن يختبروا يومًا بعد يوم محبة الله ، أبيهم السماوي . و لربما أمكننا بحق ان نجد في هذه البقية الشجاعة كنيسة للمسيح أصدق من تلك التي كانت موجودة وسط العواميد والأقواس الفخمة للبيزنطيين .

ولكن الجماعات المسيحية راحت ، واحدة تلو الأخرى ، تستسلم بشكل حتمي تحت وطأة الضرائب و الدعاية و التعصّب الديني . و حيث تمسّك الآباء بإيمانهم ، أنكره ابناؤهم ، و حيث وقف المزارعون بعزم و ثبات ، جبن عمّالهم و خضعوا . و لم يوجد هناك مَن يستقطبهم ويستجمعهم حول الحق الإلهي ، أو من يحيي فيهم إيمانهم المتداعي و معنوياتهم المنهارة . و يبدو أن أولى الكنائس التي زالت من الوجود كانت تلك التي في الشرق - الاسكندرية ثم قرطاجة ، و هيپو وسيتيفيس - و ما يدعو الى السخرية هو أن هذه المواقع كانت تضم أقوى الجماعات المسيحية ، لكنَها كانت هي أيضًا التي تعرّضت لأعنف الضغوطات الإسلامية و أقساها . و قد نتعجّب كيف أن وجود الكنائس دام لمدة أطول في المنطقة الأضعف أي في شمال المغرب ، و قد يكون السبب هو أن ايمانهم أنقى و أكثر تأثيرًا من حياتهم الشخصية .

وُجدت جماعة مسيحية في فولوبيليس (وليلي) ، و هي ترجع الى زمن الرومان . و قليلاً ما تأثّرت بالونداليين و البيزنطيين ؛ هذا لأن تأثيرات هؤلاء القوم لم تتعدّ مخافرهم الأمامية في طنجة و سبتة . و في القرن السابع ، كانت فولوبيليس و المناطق المحيطة بها تحت حكم مجلس يتكوّن من أناس ذوي أسماء لاتينية يبدو أنهم كانوا مسيحيين . كما أن مسيحيين آخرين من الشرق والغرب هربوا من وجه الزحف الإسلامي قاصدين المعقل المسيحي فولوبلس . و من بين هؤلاء كان من تبقّى من قبيلة أوربة التي تخصّ كسيلة . و قد عُثر هناك على كتابات لأسماء و ألقاب باللاتينية ، يرجع تاريخها الى العام 655 م ، أي بعد ثماني سنوات على زحف عقبة نحو الأطلسي .

في إحدى المخطوطات العائدة الى القرن الثامن ، ذكر لاحد النظار المسيحيين في طنجة ، ومع حلول العام 833 كانت الكنيسة في سبتة لا تزالَ تحتفظ بناظر عليها . و في العام 986 م وجد عالم الجغرافيا الاندلسي البكري جماعة مسيحية ، بالإضافة الى مكان للاجتماعات في

تلمسان في الجزائر . كذلك تمّ العثور على كتابات لاتينية مقتضبة يعود تاريخها الى نهاية القرن العاشر و ذلك في النجيلة بليبيا ، و حتى منتصف القرن الحادي عشر في القيروان . كانت الرسائل لا تزال تُكتب الى القادة المسيحيين في إفريقيا الشمالية ، و ذلك في النصف الأخير من القرن الحادي عشر . و هذه الرسائل ، بما أنها كُتبت باللغة اللاتينية ، تشهد على أنّ هذه اللغة قد استمرت حتى ذلك الوقت . إننا نسمع عن ناظر في قُمّي (المهدية بتونس) في العام 1053 م ، وعن مجموعة كبيرة من المسيحيين في ورْقلة طوال المدة من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر .

ولكن آثار المسيحيين تقلّ أكثر فأكثر بتقدّم القرون و الزمن . هذا ، و لم نعد نعرف في منتصف القرن الحادي عشر سوى خمسة نظّار في شمالي إفريقيا ، و بعد عشرين سنة من ذلك ، بات هناك اثنان فقط . تمّ اختيار ناظر جديد في إپُونا (Ipona) في العام 1074 م ، و لكن الحاكم المسلم اضطر أن يرسله الى روما لأجل الاحتفال بتعيينه ، لأنه لم يكن ممكنًا العثور في افريقيا على النظّار الثلاثة المطلوبين . و قد يعجب أحدنا لماذا اهتمّ الحاكم بهذا الأمر كل هذا الاهتمام : كان الحكام العرب يحصلون ، في الواقع ، على دخل كبير من جراء الضرائب المفروضة على المسيحيين . و على هذا الأساس نفهم لماذا لم يكونوا يضغطون بشكل مستمرّ ، على المسيحيين لحملهم على التحوّل الى الإسلام ، الأمر الذي سيحرم الحكام من هذه المداخيل . كانت الكنائس في ذلك الوقت تضمّ بين صفوفها بعض المسيحيين من الأسرى و العبيد ممن هم من أصل أوروبي . وفي العام 1114 م ، كان لا يزال هناك ناظر في مدينة بجاية . و في هذه المدينة عينها تمّ في العام 1212 م إلقاء القبض على الأولاد المساكين الذين شاركوا في حملة الأولاد الصليبية ، وبيعهم كعبيد . و بعد قرن من الزمن ، و في هذا المكان عينه ، استشهد المبشر والصوفي الكتلاني رامون لول (Raymond Lulle) .[14]

بات انخفاض عدد النظّار المعروفين أمرًا مميّزًا و ظاهرًا جداً ، و لكن من الصعب تقدير أهمية هذا الأمر . لا شك في أنّ بعض الكنائس قد تشتّتت ، كما ان بعض المباني أُخليت ، و لم يعد لبعض النظّار أي اعتبار . و لكن الوجود المسيحي لم يتضاءل الى الدرجة التي قد تكون قد ألمحت اليها هذه الاحصاءات : و إلاّ لكانت ، و بكل تأكيد ، قد ماتت و انقرضت بسرعة أكبر بكثير . وقد يكون ان انخفاض عدد النظّار يشير فقط الى أنّ المسيحيين باتوا يجتمعون في دورهم ، و على هذا الأساس راحوا يتخلّون ، تدريجيًا ، عن شكل من أشكال الإدارة الكنسية الذي كان دائمًا مثيراً للشبهات و الذي لم يعد يتلاءم مع الضغوطات التي وجدوا أنفسهم معرضين لها .

في الواقع ، استمرت بعض المجموعات المسيحية ، حتى فترة « الموحّدين» في القرن الثاني عشر . و خلال تلك الفترة قام سجين مسيحي ، جيء به من اسبانيا ، بنسخ و تأريخ مخطوطة للأناجيل باللغة العربية و ذلك في أثناء فترة أسره الطويل في فاس بالمغرب . و لم يحدث التبديد

النهائي لأعضاء كنيسة قرطاجة بالإضافة الى نفي ناظرها ، إلاّ بعد أن قام المصلح الإسلامي عبد المؤمن بالسيطرة على تونس في العام 1159 م . ثم قدّم هذا القائد للمسيحيين الباقين خياراً بسيطًا : الاسلام او الموت . و إذ ذاك فرّ بعض المسيحيين الى اوروبا ، و لكن معظمهم لم يقووا على ذلك . و هكذا تمكّن عبد المؤمن بسيفه ذي الحدّين ان ينهال بضربته القاضية ، بشكل أو بآخر ، على الكنيسة كجسم من المسيحيين معترف به في إفريقيا الشمالية .

إلاّ أن المسيحية لم تستسلم و تمت ، حتى بعد تلقّيها هذه الضربة المميتة . و بقي هناك البقية مبعثرة من المسيحيين ، و حتى أيضًا تقارير عن مسلمين قبلوا الانجيل . و في العام 1228 م ، قام احد امراء «الموحّدين» بالسماح بمعمودية بعض المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية [15] . إننا نسمع عن آخر ناظر مسيحي من المغرب في العام 1246 م ، كما أن بعض المسيحيين الإفراديين كانوا لا يزالون موجودين في إفريقيا الشمالية حتى القرن الرابع عشر . و لكن منذ ذلك التاريخ ، كانوا في غالبيتهم من البحّارة في البحر الأبيض المتوسط و الأطلسي ، من الذين اقتنصهم القراصنة و أودعوهم سجون فاس و سلا و مدينة الجزائر .[16]

إنه لأمر مثير أن نتساءل عمّا اذا كانت بعض العائلات المسيحية او القرى المختبئة في عمق الجبال في إفريقيا الشمالية ، حافظت على مشعل الحق وهّاجًا مضيئًا طوال القرون الطويلة منذ ذلك الحين . هل كان باستطاعة أية جماعة ان تجعل إيمانها ينتقل من جيل إلى جيل ، كما فعل اليهود مثلاً ، و حتى أيامنا هذه ، و كل هذا من دون أن يعرفوا عن أي مؤمن ضمن إطار ألف كيلومتر من مكانهم ؟ إن مثل هذا التخمين قد لا يكون إلاّ خياليًا ، حيث أنه لا يوجد لدينا أي دليل على مثل هؤلاء الناجين . فالأمر ليس بالسهل ، إذ يتطلّب ثباتًا مدهشًا و رائعًا في وسط المحن الساحقة . و لكن فإن مثل هذه المعجزات ليست مستحيلة بالطبع .

ملاحظات

1- وكتب المؤرخ العربي «النويري» في القرن الرابع عشر عن حملة عقبة ، قائلاً : « فرحل من طنجة الى السوس الأدنى وهو في جنوب مدينة طنجة التي تسمى تارودانت فانتهى الى أوائلهم فقتلهم قتلاً ذريعًا و هرب من بقي منهم و تفرقت خيله في طلبهم . و مضى حتى دخل السوس الأقصى فاجتمع البربر في عدد كثير لا يحصيهم الا الله تعالى ، فقاتلهم قتالاً لم يُسمع بمثله ، فقتل خلقًا كثيراً منهم و أصاب نساء لم يَرَ الناس مثلهن . فقيل إنَّ الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر وأقل . و سار حتى بلغ البحر المحيط لا يدافعه أحد ولا يقوم له ، فدخل فيه حتى بلغ الماء لبان فرسه ، ورفع يده الى السماء و قال : « يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد الى ملك ذي القرنين مدافعًا عن دينك و مقاتلاً من كفر بك و عبد غيرك .» (النويري : كتاب نهاية الأدب في فنون الأدب . تحقيق و تعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد – الفصل السادس) .

و يخبرنا الكاتب نفسه انه بعد وقت قصير أخذ العرب 000 35 أمازيغي كعبيد الى مصر ، وقد وهب قائد القافلة للحاكم المصري " مائتي جارية ووصيف من خيار ما كان معه " (الفصل الحادي عشر) .

2- ابن خلدون ، كتاب العبر . . . فصل : أخبار البربر على الجملة . المجلد VI ص . 216 .

3- و على الرغم من ذلك ، فإنهم بقوا ، خلال القرن التالي ، متمردين ومعانين المجازر على المستوى المحلي . ففي معركة واحدة فقط ، فَقَدَ أكثر من 000 180 من الأمازيغيين حياتَهم . و بالإضافة الى هذا ، فإن الكثيرين منهم قد استُعبدوا وسُبُوا ، وكثيرون آخرون شُوِّهوا جسديًا او تُركوا مشردين . (ابن خلدون ، فصل : اخبار البربر على الجملة ، المجلد السادس ص . 222)

4- النويري : (م . س .) الفصل الثالث عشر .

5- ابن خلون (ن . م .) فصل : دخول العرب المغرب ، المجلد VI ص . 27 - 28 .

6- ابن خلدون (ن . م .) فصل : دخول العرب المغرب ، المجلد VI ص . 31 .

7- Camps pp. 137, 187

8- ابن خلدون : فصل دخول العرب المغرب ، المجلد VI ص . 31-34 .

9- يُذكر أن نحو 000 80 من الونداليين عبروا مع جنسريك من اسبانيا الى أفريقيا ، في العالم 429 م . (Brown p. 424 ; Bonner p. 152) . و لا بدّ من أن يكون عددهم قد ازداد بانضمام اناس آخرين اليهم في ما بعد .

10- Amahan pp. 85 ff

11- راجع Trimingham (عدة اقتباسات)

12- ابن خلدون ، فصل دخول العرب المغرب ، المجلد VI ص . 31 - 34 .

13- اقتبسها Cooley (p. 62)

14- Walker *TGS* p. 229

15- Latourette Vol. II p. 325

16- Cooley pp. 64-79

من المصادر الأولية للهجوم العربي : النويري وابن عبد الحكم وابن خلدون : تاريخ البربر ، المجلد I .

من المصادر الثانوية :

Latourette, Vol. II pp. 304 - 5, 325;
Mantran pp. 204 - 206 ؛ Cooley pp. 58 - 95
Neill pp. 62 - 5 ؛ Camps pp. 129 - 137 , 175 -6, 180 - 192;
Norris pp. 44 - 104 ؛ Guernier pp. 249 - 253;
Coon pp. 26 -35.

الفصل الحادي و الثلاثون

غرض الله المقصود

هذا اذاً هو تاريخ المسيحية في إفريقيا الشمالية . قصّة فرح عارم ، و أحياناً حزن ، قصة كلمات شجاعة و ايمان راسخ مخلص ، و حياة صادقة ، و اخيراً الفساد المحزن ثم الموت . لقد رأينا كنيسة عظيمة و مجيدة ، و لكن ، عيوبها مميتة ، و إذ تعثّرت في سيرها ، كان لا بدّ لها من أن تسقط . نحن ننظر الى الماضي ، ربّما بتعجّب و بشفقة ، و نسعى لفهم الأسباب الكامنة وراء ذلك النجاح الرائع الذي حقّقته المسيحية في إفريقيا الشمالية ، بالإضافة الى العوامل التي تسبّبت في سقوطها الرهيب .

و لكن ، يجب ألاّ تغيب عن بالنا ابداً حقيقة أن الكنيسة هي كنيسة الله . فحين نُمعن النظر في كلمات الناس و في أعمالهم ، يسهل علينا عندذاك ان ننسى حقيقة أنّ شؤون البشرية هي دائمًا في يد الخالق العظيم . انه يعلم خروجنا و دخولنا ، و هذا ما يؤكّده لنا الكتاب المقدس . انه يعرف الخطط التي رسمها لنا ، إنها خطط خير لا شرّ . انه يحوّل كل الأشياء معًا للخير للذين يحبونه ، الذين هم مدعوّون حسب قصده .[1] و لذا يتوجب علينا ان نطرح السؤال الرئيس التالي : كيف نظر الله الى تقدّم المسيحيين في إفريقيا الشمالية ، هؤلاء الذين أظهروا أنهم بشر فعلاً؟ و أين هي يده في كل ما حصل لهم؟

من السهل جداً ان نرى العناية الإلهية في نمو الكنيسة الرائع في مراحلها الأولى ، و لكن قد يكون من الصعب لنا تمييز قصده تعالى في ما تلا ذلك من خراب و سقوط . كانت الجماعات المسيحية الأولى قد اختبرت بركة عظيمة : لقد تجاوب الآلاف مع رسالة الإنجيل إذ آمنوا بالمسيح ، كما أنهم انتصروا على أعنف الاضطهادات و أصعب الظروف الاجتماعية و الدينية و الجغرافية . لا يمكننا أن نعزو نجاحهم المذهل هذا الى العوامل البشرية وحدها ، بل يجب ردّ ذلك الى قوة اللّه التي كانت تعمل بكل وضوح في حياتهم . لقد ازدهر المسيحيون الأولون ، لا لأنهم كانوا أذكى و أمهر من اولئك الذين جاءوا بعدهم ، بل لأنهم كانوا مملوئين بروح المسيح . لقد كثروا لا بسبب براعتهم في التبشير و الوعظ ، بل لأن رسالتهم كانت رسالة حق . لقد ازدهروا ، لا لأنهم كانوا يدركون و يفقهون لاهوت اللّه من جميع جوانبه ، بل لأنهم كانوا على اتصال باللّه الحي نفسه . وعلى قدر ما كانوا يعرفون اللّه القدير الذي في يده زمام الأمور ، و يؤمنون به و يطيعونه ، كانوا يختبرون بركته الحقيقية الفعّالة بوفرة و بفرح .

إن ما يدعو حقًا الى السخرية ، هو أن أفول شمس المسيحيّة من افريقيا الشمالية ، لم يحصل إبّان فترة التناحر و الصراعات العنيفة ، بل عندما كانت في أوج مجدها و كرامتها ؛ لم يأت الانحلال في وقت البلاء و الضيق ، بل في وقت الازدهار و الرفاهية . و هذه الحركة ، لم تسقطَ عندما واجهت الضغوطات ، بل عندما أتيحت أمامها فرص أعظم من سابقاتها . كانت الكنائس في ايام اغسطينوس قد خرجت منتصرة من اضطهاد مرير دام قرنين و نصف ؛ و هكذا باتت تقف على عتبة ما ظهر بأنه عصرها الذهبي . و بزوال الآلهة الوثنية ، امتد فراغ روحي كبير عبر الامبراطورية الرومانية . كان العالم بأسره ينتظر ، في ذلك الوقت ، ان تصل إليه رسالة المسيح . كما أن المسيحيين باتوا ينعمون بالسلام و الازدهار و التأييد الملوكي ، و أصبح عندهم الحرية والإمكانيات لتوصيل رسالة الإنجيل الى طول العالم و عرضه . و لم يسبق أن انفتح أمامهم ، من قبلُ ، باب واسع بهذا الشكل .

إلاّ أن الكنيسة المسيحية التي كان يجدر بها ان تتحرك بقوة و شجاعة في الخارج ، تـرددت و تعثّرت ، و من ثم في ضعفها ، انهارت على نفسها . يبدو أنه كان من الصعب عليها أن تنفّذ هذه المهمة . لكن ، ما هو السبب؟ و ما هي العيوب و الشوائب التي أدّت الى هذا الفشل الذريع؟ وما هي الأخطاء التي ارتكبتها هذه الكنيسة؟ و لماذا سمح لها الله بارتكابها؟ هذه هي الأسئلة التي يجب علينا أن نطرحها .

في الواقع ، لم تكن هذه الضعفات جديدة ، بل كانت موجودة منذ عدة سنوات ، كما أن الكثيرين من المسيحيين كانوا قد دعوا الى التغيير ، محذّرين من الكارثة الوشيكة الوقوع . و بإمكاننا ان نعزو هذا الفشل الى ثلاثة أخطاء رئيسة : المساومة مع العالم ، الافتقار الى الشركة الحقيقية بين المؤمنين ، و فقدان الرؤية الروحية الناجعة . وهذه الأخطاء أدّت بدورها الى بروز ثلاث مشاكل غير محلولة : إلتزامات اجتماعية و سياسية تشكّل عبئًا مضنيًا ، وتمييز صارم بين الإكليروس و العلمانيين ، و توافر ضئيل جداً للكتاب المقدس المكتوب .

بادئ ذي بدء كانت الكنائس ، كما رأينا ، قد أصبحت متورّطة ، بشكل ميؤوس منه ، في أمور وبقوى غريبة عن المسيحية . ففي الوقت الذي انحرف فيه الكاثوليك بسبب الحلف الذي عقدوه مع الدولة الرومانية ، لم يكن الدوناتيون اقل ارتباكًا منهم ، و ذلك في تورّطهم المشؤوم مع جماعة «الدوارين» (Circumcellions) . إنّ ما دار بينهما من صراع مؤسف ، لم يكن له أية علاقة بإنجيل المسيح ، لا بل ألهى الجماعة المسيحية و ضعّف معنوياتها . ان هذه النزعة المنظورة الى الأمور العالمية ، كان يقابلها انحراف داخلي لا يخفى وضوحه على ذوي البصائر النفّاذة . كان عدد كبير من الناس مسيحيين بالاسم ، و لا تظهر مسيحيتهم في ممارساتهم إلاّ نادراً . كذلك كانت الخرافات الوثنية ، و الانانية ، و الخطيئة ، تعمل معًا على جرّهم بعيداً عن دعوة المسيح . و لم يكن التوبيخ و إسداء النصائح يجدي نفعًا في الكنيسة الكاثوليكية التي فاق فيها الزوان على الحنطة . و من جهة أخرى ، نجد أن الدوناتيين فشلوا

فشلاً ذريعًا في مجال تأديب مناصريهم العنفاء . و هكذا لم تعد المحبة و النقاوة القلبية من الصفات المميزة للمسيحيين . كما أن أتباع المسيح لم يعودوا نوراً وملحًا في وسط عالم وثني جحود ، كما كان يُفترض فيهم أن يكونوا .

و ثانيًا ، قد يكون انعدام الشركة الأخوية الحقيقية بين المؤمنين هو الذي سبّب الجمود الروحي هذا . كان يعوّل لأجل القيادة و التعليم و تمثيل الجماعة ، على الناظر العازب والمثقف ثقافة عالية ، والذي كان قد تمّ تعيينه لأجل هذا الغرض . و لم يعد الرجال و النساء المسيحيون سوى اعضاء خاملين ، ضمن نظام يقوم بعمل كل شيء من أجلهم . و هذا الأمر أضعف فيهم الرغبة في الالتزام الشخصي بالعبادة و الخدمة الروحية و الإحساس بمسؤوليتهم امام الله . فالسيطرة عليهم من فوق ، و من أماكن بعيدة ، جاءت لتعيقهم في اتخاذ المبادرات المحلّية ؛ و بذلك انطفأ الروح القدس تمامًا .

و اخيراً ، يظهر ايضًا أن الكنائس فقدت الشعور بالقصد من وجودها . إنهم ، في نظرهم الى دواخلهم منشغلون بنزاعاتهم الخاصة ، فقدوا الرؤيا المختصة بدعوة اللّه العليا لهم الى الخروج الى العالم المنتظر ، و توصيل محبة اللّه له . و ربما لهذا السبب اخفق القادة المسيحيون تمامًا في وضع كلمة الله بلغة يفهمها شعب افريقيا الشمالية . و حتى الكتاب المقدس باللغة اللاتينية ، كان وجوده قليلاً ونادراً . و هذا يعني انه لم يكن باستطاعة المؤمنين التحقّق من صحة التعليم الذي ينالونه من القادة ، كما أنهم باتوا عاجزين عن حمل الإنجيل بفعالية الى دواخل البلاد ، حيث يجهل الناس هناك اللغة اللاتينية . هل بإمكاننا القول ، عن حق ، إن اللّه يتخلّى عن شعبه بسبب سقطات و تقصيرات كهذه؟ ربما لا . فالكنائس قد عرفت ، و بكل تأكيد ، بركته حتى النهاية . لقد اختبروا فرحه في العبادة ، و قدرته الإلهية في اوقات الخطر ، و عجائبه ايضًا استجابة لصلواتهم . و نحن نعلم أن محبة اللّه لأولاده لا تتأثّر بحماقتهم ، كما ان ضعفهم لا يقدر على أن يطفىء حنانه عليهم . لقد جاء ابن الانسان ، لا ليطلب الناس الكاملين الصالحين و يخلّصهم ، بل الخطاة الهالكين ، لم يأت الطبيب العظيم ليداوي الأصحّاء ، بل المرضى .[2] ان الله ، أبا ربنا يسوع المسيح ، يحب أولاده الضالين بلطف و بصبر يفوقان إساءاتهم وجهالاتهم جميعها . وهو يحتملهم اذا رأى فقط في قلوبهم حبًا خالصًا له و إيمانًا صادقًا بذاك الذي ارسله ليموت عنهم .

إن الإيمان الحقيقي الصادق لدى ترتوليانوس ، كان أيضًا لدى اغسطينوس و كبريانوس ؛ كما انه لم يكن أقل درجة منهما في ترتوليانوس ؛ و هكذا حظي كل واحد منهم بالرضى الإلهي . ففي كل جيل ، نجد ان اللّه يبارك الذين عرفوه و مجّدوه و خدموه . و لكن ، من المؤسف جداً أن عدد الرجال و النساء بهذا المستوى الرفيع ، راح يتضاءل بمرور الزمن في مدن إفريقيا الشمالية و قراها . حتى إنه بات من الصعب ، في ايام اغسطينوس ، ملاحظة أن هذه الكنائس

نفسها ، هي وليدة تلك التي كان قد أسّسها الرسل لأربعة قرون خلت . و لكن بعض القوم كانوا لا يزالون يفتشون الكتاب المقدس بكل صدق ، باحثين عن مشيئة الله المعلنة فيه لكي يطيعوها . أمّا بعضهم الآخر ، فكانوا يتسارعون لعمل ما يبدو لهم أنه الأفضل في نظرهم ، أو ما يبدو أنه الأفضل في نظر أصدقائهم في المراكز العليا .

و منذ أن اعتلت الكنيسة الاسقفية العرش ، أصبح من الصعب جداً على أعضاء الكنيسة ان يتبعوا الراعي الصالح . لا يقدر أحد ان يخدم سيّدين . و بارتفاع البنية المهيبة و الرائعة للكنيسة الكاثوليكية الرسمية ، سمت هذه الكنيسة ، و حلّقت فوق الجميع ، مسيطرة بذلك ، بشكل تام ، على كلّ ما يجري أمامها ، بحيث ضاع المخلّص نفسه ، و اختفت صورته البهية في هذا الخضمّ العارم . مرّ الزمان ، و لكن اتضاع المسيح الناعم الرقيق ، لم يعد له مكان وسط إشراقة الهيمنة الامبراطورية هذه . و هكذا انعزلت كلماته الصريحة المباشرة وراء عادات و توكيدات كرّسها بعض الأشخاص الطموحين . و بعد أن أخرست جميع الأصوات التي تعارضها ، أصبحت بذلك الكنيسة الكاثوليكية ، العقبة الرئيسة و العثرة الكبيرة في طريق النمو الروحي لأعضائها . كما أنها جعلت درب التلمذة الحقّة مظلمًا و أكثر إبهامًا . كان هذا الدرب لا يزال موجوداً ، و لكن إعادة رسم الخارطة لم تعد تُظهر معالم الطريق الحق . و في النهاية ، لم يعد باستطاعة إلاّ القليلين فقط أن يسلكوا هذا السبيل .

يمكننا القول إن المجد في أيام أغسطينوس كان بَعْدُ قائمًا ، لكنه كان يسير في طريق الزوال .[3] وكان لا يزال هناك رجالٌ و نساء مملوئين بروح المسيح ، و لكنهم كانوا أشبه بطيور بيضاء ترفرف فوق بحر قذر و ملوّث ؛ جماعة غريبة ، و كنيسة كانت ستُزحزح منارتها قريبًا وينطفيء نورها .[4] و لربما تردّدنا في القول إن سقوط المسيحية جاء نتيجةً لدينونة الله على كنيسته . والواقع الذي لا يمكن انكاره هو أنه بعد أن ضلّت الكنيسة و ساومت مع العالم و فسدت ، انهارت أخيراً تحت وطأة الضغوط التي لم يمنع الله وقوعها . لقد ذهبت كنائس شمال إفريقيا بعيداً جداً في الاتجاه الخاطيء ، و قد فات الأوان بالنسبة الى احتمال اعادتها الى جادة الصواب .

ألم يكن باستطاعة اللّه ان يتدخّل بنفسه لكي يُنهض شعبه من جديد ، و يردّهم الى الحياة الروحية ، بواسطة قائد أو ربما حركة إصلاح؟ طبعًا ، كان ذلك بإمكانه ، و قد يرى بعضهم في المونتانيين و النوفاتيين ، و حتى في الدوناتيين أيضًا ، تجسيداً لمثل هذه الحركات المصلحة . ولكن الفشل كان حليف كل واحدة منها ، و ذلك للأسباب التي سبق ذكرها . و هكذا ، لَم يبقَ في عصر البيزنطيين سوى الكنيسة الكاثوليكية . و في الأحوال التي كانت سائدة آنذاك ، كان أي انتعاش سيُستقبل ببرودة تامة . فالانتعاشات ، مع ما يرافقها من عفوية و نشاط ، تتجاوز القيود و التحفّظات البشرية كلها ، الأمر الذي يسبّب بعض الاضطراب . هذا في الوقت الذي كانت هذه التحفّظات و القيود البشرية هي التي تمسك حجارة النظام الطقسي الكاثوليكي بعضها ببعض . ففي هذه الظروف لا يفرض الله محبته على أولاده ، و لا بركته ايضًا .

لقد نمت الكنيسة الافريقية ، و تطوّرت جدًا على مدى ست مئة سنة . و لكن الورق الكثير كان قد أخذ مكان الثمر ، حتى إنه بحلول القرن السابع ، أصبحت الأوراق تغطّي و تحجب كل شيء . ليست خيانة أو عدم مبالاة عندما يحمل البستاني في يده سكّين التشذيب ، لكنه يُظهر ، على نقيض ذلك ، مقدار اهتمامه المحب ، كما أنه يؤكد كونه يعدّ للمستقبل . قال يسوع : «أنا الكرمة الحقيقية و أبي الكرّام . كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه . و كل ما يأتي بثمر ينقّيه ليأتي بثمر أكثر .» [5] فإن كان خراب كنيسة شمال إفريقيا قد حصل نتيجة لدينونة إلهية ، فإنه لا بدّ في هذه الحال من أن يكون القصد منه هو إزاحة العوائق أمام نمو جديد ، لكي ينبت ملكوت اللّه من جديد في هذه البقعة من الأرض .

و إذ نقلّب صفحات الكتاب المقدس ، يلفتنا كيف أن اللّه سمح مرارًا بأن يسقط شعبه و أن يكون أحيانًا سقوطه عظيمًا للغاية . لقد قُدّمت لهم التحذيرات و الإنذارات ، و أُرسل اليهم الأنبياء ، و كُشفت الخطايا و عُرضت علنًا ؛ و لكن إن بقي شعب الله لامباليًا و غير مكترث ، سوف تقع الواقعة و تحلّ الكارثة ، و لن يفعل الله بعد ذلك أي شيء ليجنّب شعبه هذا المصاب الأليم . إلاّ أنه غالبًا ما نجد عند تقصّينا الأمور ، بذرة أمل في وسط الخراب – و أحيانًا أملاً كبيرًا – قد حفظه الرب لأولئك الذين يطلبونه من جديد . ثمة دائمًا وعد للمستقبل .[6]

وفي كثير من الأحيان ، مهّد الفشل السبيل لانطلاقة جديدة تكلّلت أخيرًا بالنصر . فإذا سمح الله لبيت بأن يتداعى و يسقط ، فهو تعالى لن يترك هذا البيت خربًا الى النهاية . فقد تظل الحجارة مبعثرة لعشرات السنين ، و ربما لقرون ، و لكنها غير منسية عند الله .[7] فبعد سني السبي والنفي الطويلة ، يعود الله ، فيقود شعبه الى وطنهم . و بعد الخطيئة مغفرة ؛ و بعد السقوط ، الوعد بالمخلّص ؛ و بعد انكار بطرس ، إعادة تكليفه القيام بمهمة ؛ و بعد فرار يونان ، فرصته الثانية . يتأخر الرب أربعة أيام ، فيموت لعازر . «هل تؤمنين؟» يسأل يسوع . ثم تتمّ عملية إقامة لعازر من الأموات . [8] يرينا الله على صفحات الكتاب المقدس النمط نفسه و هو يتكرّر عدّة مرات : فالقيامة تأتي بعد الموت ؛ و المجد بعد الحزن ؛ والتاج بعد الصليب . و السقوط ، في نهاية المطاف ، ليس ، في الواقع ، إلاّ الباب الخلفي للنجاح .

من الأسهل علينا ان نقطع الشجرة ، من أن نستأصل ساقها . قد تحترق أغصانها جميعها وتأكلها النار ، و مع هذا يبقى ساقها حيًا . و عند هطول المطر ، سيُنبت هذا الساق أغصانًا جديدة وبراعم . لقد تحدّث إشعياء عن شعب الله الذين خذلوا إلههم . فتنبأ بالخراب والدمار على هذا الشعب و على أرضهم . «و إن بقي فيها عُشر بعد فيعود و يصير للخراب و لكن كالبطمة و البلوطة التي و إن قُطعت فلها ساق .» لكن لا تُسرع الى تجاهل ذلك الأصل المكسور ، انه لا يزال يحتفظ بالحياة . انه يحتوي على بذرة مقدسة . نعم ، فإن إشعياء يؤكد لنا بشكل قاطع أنه «يكون ساقه زرعًا مقدسًا .»[9] ومن هذا الأصل ، سوف تتبرعم الشجرة من جديد لكي تعود فتنتشر اغصانها كما من قبل .

و الآن ، ماذا بشأننا نحن؟ إن كنا نرغب في الاعتناء بالبذرة االمقدسة ، نحتاج الى أن ندع حكمة اللّه تصيّرنا حكماء ؛ علينا أن نتّعظ و نتعلّم من الذين سبقونا جميعهم . و إذ نسير في طريقهم ، ستتمكّن من ملاحظة العقبات التي واجهتهم و الحجارة التي أعثرتهم ، لكي نتجنّبها نحن بدورنا . لقد دعا الرسول بولس المؤمنين ليتمثّلوا به ، و لكن على قدر ما يتمثّل هو بسيّده . قال لهم : «كونوا متمثّلين بي كما انا أيضًا بالمسيح .» [10] نحن ننظر الى الماضي ، فيُلهمنا ايمان الشهداء ، و يستحثّنا ترتوليانوس بما يضعه نصب أعيننا من تحدّيات ، ونتأثر بحنان كبريانوس ، و تتحرّك مشاعرنا و إراداتنا بفعل توجيهات اغسطينوس . اننا نشكر الله من أجل هؤلاء المؤمنين أجمعين . و لكن لنبقَ نتذكّر أنهم بشر نظيرنا وخاضعون للضعفات نفسها مثلنا ؛ و الواقع المثير هو أن الكنائس التي أسسوها و خدموها ، لم تعمّر . ويحقّ لنا نحن أن نتبعهم الى الحدّ الذي فيه قد تبعوا المسيح ، ولكن ليس أبعد من ذلك . لنا درس عظيم من التاريخ المسيحي ، و هو بسيط للغاية : ان الكنائس ازدهرت عندما اتّبعت مبادىء الكتاب المقدس ، لكنها ذبُلَت و ذوت ما إن تخلّت عن هذه المبادىء .

وكل هذا يعود بنا الى ما قبل رجال إفريقيا الشمالية ، الى كلمة الله نفسها . فلا نعود نسأل : «ما الذي قاله ترتوليانوس عن هذا؟» بل بالحري ، «ماذا قال الله بهذا الشأن؟» كما أننا لا نسأل : «ماذا فعل اغسطينوس؟» و لكن بالحري ، «ماذا فعل المسيح و رسله؟» وكذلك لا نطرح السؤال التالي : «كيف قام كبريانوس بتنظيم كنيسته؟» بل بالحري ، كيف نظّم مسيحيو العهد الجديد كنائسهم المحلية وادروها؟

إن العهد الجديد هو سلطتنا و مرشدنا في ما يتعلق بالمسائل التي تختصّ بالتبشير و بنمو الكنيسة . اننا نجد على صفحاته كيف كان روح الله يقود رسل المسيح . و الكلّ كُتب بالوحي الإلهي لأجل تعليمنا و تشجيعنا . و علينا ان نفكّر مليًا قبل وضعنا كلمة اللّه جانبًا مستعيضين عنها بما نعتقد عن خطإ أنه «أسلوب أفضل» ، خصوصًا حينما نتذكر أن الاستراتيجية البسيطة التي اتّبعها الرسل ، كانت فعّالة بشكل رائع للغاية . لن نكون بأي شكل من الأشكال قد تصرّفنا بحكمة ، في حال فضّلنا عليها برامج و مخططات مستحدثة وضعها أناس قد زالت كنائسهم من الوجود منذ أمد بعيد . كما أننا سنكون قد أسأنا استخدام دراستنا لتاريخ الكنيسة بشكل فظيع ، في حال اكتفينا بالسعي لاستنتاج منه ماذا كانت عليه التقاليد البشرية القديمة ، وذلك بغية فرضها على كنائس اليوم . اننا نحتاج ، عندما ندرس الماضي ، الى أن نهتمّ بعزل الحنطة عن قشرها و تبنها . أمّا الريح التي تقوم بعملية الفرز هذه ، فيجب أن تكون كلمة الله وحدها . وعندها فقط يطير التبن بعيداً ، لكي تبقى الحنطة النقية الصافية .

ولربّما تمكّنا ، في معرض التفاتتنا الى الوراء ، من إيجاد بعض الأخطاء و الزلات في آبائنا و أجدادنا القدامى . و لكن ، ماذا كنّا قد فعلنا نحن ، لو أننا كنّا محلّهم؟ وكيف كنّا سنقود الكنائس النامية عبر انتقالها من مرحلة كونها مجموعات صغيرة مضطهدة ، الى المرحلة التي اصبحوا فيها جماعات ضخمة تضمّ حشوداً شعبية؟ هل كان بمقدورنا أن نوجّه مسار الأمور توجيهًا مختلفًا؟

كانت الاجتماعات الشكلية التي تحضرها حشود ضخمة من بين نتائج النجاح الباهر المنقطع النظير الذي أحرزه الإنجيل في المدن . فقد آمن الناس بأعداد وافرة . و هكذا توافدوا بكثرة الى الكنيسة المحلية ، حتى إنه بات من الصعب على الناظر أن يهتم بمفرده بمصادقة كل واحد منهم شخصيًا ، و بتقديم النصح له بحسب حاجته الخاصة و إمكانياته . ان هذه الجماهير كانت تحتاج بالطبع الى تعلّم عقائد الإيمان ، و لكن قد نتساءل : أية طريقة كانت الفضلى لتعليمهم؟ هل كان تقديم المواعظ بطريقة شكلية و بلغة راقية من على منبر الكنيسة هو حقًا الأسلوب المثالي؟ لقد علّم يسوع ، وبكل تأكيد ، مبادىء الآداب الإلهية للحشود ، و هكذا فعل الرسل أيضًا . و لكن الرب كان حريصًا على أن يفسح في المجال أمام الذين تجاوبوا بكل إخلاص ، بأن يطرحوا أسئلتهم و أن يتحدّثوا عن نمطهم الجديد في الحياة على صعيد فردي ، أو ضمن مجموعات صغيرة .

كانت كنائس شمال إفريقيا تفتقر ، بشكل واضح ، الى هذا النوع من الشركة الشخصية الحميمة - خصوصًا بين الكاثوليك - و لعل هنا كان يكمن أخطر ضعف . و نعرف بالاختبار أنه لا بدّ لكل مجموعة مسيحية من أن يطلع منها قادة روحيون ، اذا ما اتيحت لهم الفرصة لذلك . قد لا يفوقون سواهم من ناحية ثقافتهم أو غناهم ، لكن قلوبهم ستكون منجذبة الى طرق الله ، وعندهم شوق الى مساعدة الآخرين . و لربما كان باستطاعة أمثال هؤلاء الرجال و النساء أن يضمنوا مستقبل كنائس شمال إفريقيا ، لو أن النظام الكنسي لم يطفىء مواهبهم ، و لم يشلّ قدراتهم على أخذ المبادرات .

نتساءل : ماذا كان سيحصل لو أن كل كنيسة محلية نعمت بالمساهمات المتنوعة التي قد يقدّمها لأجل بنيانها مجموعة من عشرة قادة مقتدرين او اكثر - من الشيوخ و المدبّرين - الذين جعلوا شغلهم الشاغل الاهتمام بمعرفة اوضاع كل فرد من اعضاء كنيستهم ؛ و هكذا يقترحون على كل واحد منهم أساليب عملية لخدمة الرب ، كما يحثّونهم على طرح الأسئلة بشأن الإيمان المسيحي بغية بحثها معًا؟ و لو أنه كان باستطاعة المتعلّمين بينهم ان يلقّنوا كل مؤمن جديد القراءة ، ويساعدوه على استنساخ مقاطع من الكتاب المقدس تكون خاصته . فلو أن كل واحد اهتمّ بنقل ما قد تعلّمه الى الآخرين ، بينما يُعنى في الوقت عينه بتحصيل المزيد من العلوم ، لتعلّم الجميع بسرعة أكبر ، و لكان بمقدورهم ان يفكّروا في أمر إيمانهم بأكثر انتباه . قال المسيح : «أعطوا تُعطوا . كيلاً جيّدًا ملبّدًا مهزوزًا فائضًا يُعطون في أحضانكم .» [11] انه لأمر واقع ان المسيحي خصوصًا في وقت الضيق ، غالبًا ما يساعده أخوه المتعاطف معه أكثر من أي معلم او لاهوتي . قال سي . أس . لويس (C. S. Lewis) : «ان قليلاً من الشجاعة يساعد على احتمال الآلام أكثر من معرفة عميقة ، كما ان بعض التعاطف البشري هو أفضل من شجاعة كبيرة ، إلاّ أنّ أقل ومضة من محبة الله تبقى هي الأنفع من الكل .» إن الذي يساعد أخاه غالبًا ما يتبارك هو أيضًا نتيجة لتعبه ، كما الذي ينال المساعدة .

ففي مثل هذه الكنيسة ، قد يجد بعض صغار النفوس أنهم أمسوا على قارعة الطريق ، وذلك المستوى الأخلاقي العالي الذي ينبغي لهم بلوغه ، و المجهود الذي يجب بذله لأجل البقاء والاستمرار في الكنيسة . و هكذا تكون الكنائس ، لبعض الوقت ، أصغر و أفقر . إن مثل هذا الجو المقدس ، سوف لن يلائم الانسان الفاسق و الملتوي في طرقه . و لكن أية كنيسة التي يكون فيها كل عضو «صياداً للناس» [12] لا تفشل في نموّها و تكاثرها ، لكي تصبح أكثر صحة و ابتهاجًا ، و ربما ايضًا أكثر عدداً في نهاية المطاف .

يجب على الكنيسة التي تبغي النمو أن تبشّر بالإنجيل . فإذا ما فشلت في ربح مَن هم من خارجها الى ملكوت الله ، فإنها ستموت حتمًا . لقد أُعيقت الكنائس الكاثوليكية الرسمية في أيام أغسطينوس بفعل استخدامهم اللغة اللاتينية و اعتمادهم على النظّار المثقّفين و المتعلّمين . وجد هؤلاء أنه يعسر عليهم التحرّك الى داخل البلاد لأجل التحدّث الى القبائل التي تعيش هناك عيشة بسيطة ، و لا تجيد التكلّم إلاّ باللغة الأمازيغية . و قبل أربع مئة سنة ، أرسل المسيح تلاميذه اثنين اثنين كغنم بين الذئاب ، الى قرى فلسطين و مدنها . قال لهم : «ان الحصاد كثير ، و لكنّ الفعلة قليلون .» [13] كان هؤلاء الرجال قد مكثوا معه لمدة سنتين فقط . لقد علّمهم ما يجب عليهم فعله و قوله ؛ ثم عند رجوعهم اليه تحدّث معهم عن اختباراتهم . كانوا تلاميذاً و معلمين في آنٍ . فعند تعلّمهم كانوا يعلّمون ، و فيما هم يعلّمون كانوا يتعلّمون أيضًا .[14]

و قد يتساءل أحدنا : ما الذي كان سيحصل ، لو أن الأفارقة الشماليين اتّبعوا اسلوب المسيح؟ ألم يكن باستطاعتهم ان يطلبوا من وسطهم الأتقياء الورعين الجادّين في الإيمان ، ويرسلوهم الى التلال و الوهاد و السهول ، ليخدموا و يكرزوا برسالة الإنجيل بين شعبهم الخاص ، و بلغتهم الخاصة؟ ألم يكن باستطاعتهم ان يشجّعوا اخوتهم و اولادهم على الانطلاق بقوة الروح القدس لإذاعة الأخبار السارة ، و لنشرها في المناطق النائية؟ لو أن هؤلاء الرجال ، الذين على الرغم من جهلهم للاتينية كانوا يعرفون اللّه ، توجّهوا الى المناطق الداخلية في البلاد حاملين معهم البركة (وإذا لزم الأمر ، الدعم المادي) من كنائس المدينة ، لعله كان باستطاعتهم ان يبرهنوا أنهم مرسَلون فعّالون و على درجة عالية جداً من الكفاءة ، و ذلك بتأسيسهم جماعات مسيحية في القرى الكبيرة والصغيرة في إفريقيا الشمالية ، كما في الجبال و عبر السهول ، نزولاً في اتجاه الصحراء . و عن أية نتائج ضخمة و رائعة ، كان كل هذا سيُسفر ، لو أن الغيرة لأجل الاستشهاد و الرهبنة ، تحوّلت عوضًا عن ذلك في اتجاه تتميم المأمورية العظمى ! [15]

نعرف عن بعض القبائل «المسيحية» التي كانت تعيش خارج حدود الامبراطورية الرومانية . ولم يكن هؤلاء يتصرفون دائمًا كما ينبغي على المسيحيين ان يتصرّفوا . إنه لأمر مؤسف أنه لم يكن عددهم أكبر و لم يتعلّموا أكثر عن المبادئ المسيحية . لقد أُعيق عمل الخدمة بين هذه القبائل ، و ذلك بسبب الافتقار الى الكتب المقدسة . فلو كان بمقدور المبشّر أن يقرأ لهم بلغتهم الخاصة ، لما وجد أنه من الصعب عليه ان يبيّن لهم طريق المسيح بأكثر وضوح . و لو أن كل قبيلة بمفردها قامت بتوصيل الأخبار السارة عن محبة الله الى جيرانها بالقول

وبالفعل ، لكانت النزاعات التي تفصل بينهم قد زالت سريعًا من الوجود ، و لأصبحت العظة على الجبل دستور الحياة ، و لأدرجت مبادئ الرب السامية في أشهر أعراف الامازيغيين و عاداتهم المكتوبة و غير المكتوبة في سائر أنحاء إفريقيا الشمالية .[16]

بقي على تلك المجموعات التي خرجت عن الكنيسة الكاثوليكية ، ان تحاول تنفيذ هذه المهمة العظيمة . فلو أن الكاثوليك أدركوا هذه الرؤيا ، أو لو أن الدوناتيين لم يحرّفوها ، لكانت قصة المسيحية في شمال إفريقيا مختلفة تمامًا ؛ ربما كانت أقل ترتيبًا ، و لكن أكثر نشاطًا و حيويةً ؛ وقد تكون أقل متانةً ، و لكن تدوم و تثبت أكثر .

لا جدوى من دراسة تاريخ الكنيسة إن كنّا نبغي من وراء ذلك الاسترسال وراء الحنين الى الأمور الماضية ، و التمادي بشكل مَرَضي و غير سليم في التأسف على ما حصل . و لكن هذه الدراسة تصبح مفيدة و عملية إن كانت التفاتتنا الى الوراء تساعدنا على النظر قدمًا بشكل أوضح . انها توجّهنا الى السبل القديمة - الى ما وراء اغسطينوس و كبريانوس و ترتوليانوس - حتى نصل الى كلمة الله الحية نفسها . بعد هذا تقودنا قدمًا نحو المستقبل .

ملاحظات

1- بالإشارة الى المزمور 3:139 ؛ ارميا 11:29 (ترجمة كتاب الحياة) ؛ رومية 28:8
2- بالإشارة الى لوقا 10:19 ؛31:5
3- 1 صموئيل 21:4
4- رؤيا 5:2
5- يوحنا 1:15 و 2
6- راجع بشكل خاص نبوءة اشعياء و الفصول 27 الى 32
7- اشعياء 15:49 - 21
8- يوحنا 26:11 ، 43 و 44
9- اشعياء 13:6
10- 1 كورنثوس 1:11
11- لوقا 38:6 ؛ متى 2:7
12- بالإشارة الى متى 19:4
13- لوقا 2:10
14- 2 تيموثاوس 2:2
15- متى 18:28 - 20 ؛ أعمال 8:1 . يتوسّع في هذا الموضوع بشكل مقنع *TSPC* Allen .
16- Camps pp. 334 - 341 ؛ Guernier pp. 359 - 366 . للحصول على مثال عن هذه الأعراف التقليدي (باللغة المحكية في جنوب المغرب) راجع :
E. Laoust *Cours de Berbère Marocain: Dialectes du Sous, du Haut, et de l'Anti-Atlas*, Paris, 1936 (pp. 277 - 282).

للشجرةِ رجاء ؛
إنْ قُطعتْ تُخلفْ أيضًا
ولا تُعْدَمُ خَراعيبُها .
ولو قَدُمَ في الأرضِ أصلُها
وماتَ في التُّرابِ جِذْعُها
فَمِن رائحةِ الماءِ تُفْرِخُ
وتُنْبِتُ فروعًا كالغِرس .

أيوب 14:7-8

الفصل الثاني و الثلاثون

قوة الحياة الجديدة

إن المستقبل ممتد أمامنا . و قد تصير أعمالنا و أقوالنا في يوم من الايام موضوعًا للدراسة التاريخية . و ما كان باستطاعة المؤمنين الأوائل أن يتخيّلوا ان افريقيا وحدها ستحتوي ، مع حلول العام 2000 ، على 250 مليون مسيحي ، او ان 15 مليون عربي في العالم يفتخرون بأنهم من أتباع المسيح . و على الرغم من ذلك فإن ثقتهم الكاملة بالانتصار النهائي ، جعلتهم يتحمّلون الآلام بصبر ، مُظهرين حلْمهم لمن يعيشون حولهم ، و مؤكدين بذلك أنه لا يمكن لمقاصد الله ان تفشل وأنه تعالى اَختار انَ يكمّل مشيئته بواسطة شهادتهم المسالمة للحق .

لقد أحس المسيحيون بعدم حاجتهم الى فرض دينهم او الدفاع عنه بأسلحة بشرية - بالقوة او بالقانون او بالتهديد . و لهذا السبب فإن الأوطان ذات الإرث المسيحي تسمح بالحرية الدينية الكاملة لأتباع الديانات الأخرى . كما ان المسيحيين لا يقنطون البتة عندما يكونون أقلية في مكان معيّن . فهم سيكونون مواطنين مخلصين و جيرانًا متعاونين و محترمين و نزهاء و لطفاء . وسيفسّرون إيمانهم بكل سرور لمن يهمّهم الأمر ، لكن سيتركون لكل فرد الحرية لأن يطلب الى الله ان يظهر له الحق كما هو .

لقد فشلت فشلاً ذريعًا محاولات الناس الدنويين في العصور الوسطى لتحويل الكنيسة الى جيش صليبي . و سرعان ما يُترك هذا التحريف الواضح لمبادئ المسيح الداعية على المحبة لجميع الناس بمجرد ان اصبح بإمكان أتباعه ان يقرأوا الكتاب المقدس بحرية و بلغتهم الخاصة . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً ، عادت الكنائس في جميع انحاء العالم الى أصولها النقية و المقدسة و« ثمر البر يُزرع في السلام من الذين يفعلون السلام » [1]

والغاية التي تلهم المسيحيين الحقيقيين في الحياة هي : أن يملأوا هذا العالم بمحبة الله . لقد انطلقوا عارضين الشفاء على ذوي الأرواح المريضة ، والرجاء لليائسين ، و السلام و الغفران للرجال و النساء البعيدين عن الله . لقد كان المسيحيون أطباء وممرضات ، لا على صعيد الجسد ، بل النفس ، و كان دواؤهم الشافي هو محبة الله ، كما ظهرت في المسيح . كتب بولس الرسول : « و لكن كنت محترصًا أن أبشّر هكذا ليس حيث سُمّي المسيح» ، « الذي ننادي به منذرين كل انسان و معلّمين كل إنسان بكل حكمة لكي نحضر كل انسان كاملاً في المسيح

يسوع . » [2] لقد عزم التلاميذ على أن ينفّذوا مأمورية المسيح الأخيرة لهم : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم . . . و علّموهم أن يحفظوا جميع ما اوصيتكم به . »[3] كان المسيحيون نور العالم ، و كانوا حريصين على أن يُشرق هذا النور في كل مكان .[4]

شجّع احدهم الآخر في هذا العمل العظيم ، حيث كانوا يجتمعون لقراءة كلمة الله وللصلاة طلبًا لبركته تعالى على مساعيهم . كانت الشركة المسيحية تمنحهم قوة هائلة . وفي أثناء سفر المبشّر ، كان يتشجع بما يقدّمه له اخوته و اخواته في الكنيسة التي أرسلته ، من دعم مُحب و صلاة من أجله ، كما انه كان متأكداً من أن ترحيبًا حاراً ينتظره لدى عودته . كان واثقًا من الرِّسالة التي دُعي الى المناداة بها : « لأني لست أستحي بانجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن .» [5]

لقد اعطت كلمة المسيح معنىً للحياة ، كما أظهرت طبيعة الإنسان الحقيقية . كذلك أعطت الانسان العاقل فهمًا لسلوك الناس ، و ما هي الاهتمامات التي تشغلهم . و هي ، فوق هذا كله ، تعرض عليهم رجاء أكيداً لمستقبل أفضل . لخّص الرسول بولس القصد من التعليم المسيحي الذي يُشبع القلب و العقل : « لكي تتعزّى قلوبهم مقترنة في المحبة لكل غنى يقين الفهم لمعرفة سرّ الله الآب و المسيح المذخّر فيه جميع كنوز الحكمة و العلم . » [6] لقد وجد المسيحيون طريقًا جديداً للحياة ، وهو أن يحبوا أقرباءهم ، و يغفروا للذين يسيئون اليهم ، ويحسنوا لكل الناس . كانوا في اجتماعاتهم يقتربون الى ربّهم و بعضهم الى بعض ، فهناك كانوا يسجدون للرب في زينة مقدسة . [7] وكانوا يحصلون بذلك على القوة الروحية اللازمة لتتميم المهمة التي اؤتمنوا عليها . كانوا يجدون في هذا فرحهم و بهجتهم . كان هذا قصد الله فيهم . كما كان هذا سرّ نجاحهم .

جمع الرومان الناس لأهداف و مقاصد أخرى . كانوا سادة المشاريع الهندسية على نطاق واسع : أعمال الري ، شق مجاري المياه و الطرق . و في مجال المزارع و الأراضي ، أظهروا براعة في التخطيط لها ، و ادارتها ، و كيفية أخذ القرارات الجماعية بشأنها . أدخل الرومان الى شمالي إفريقيا اسلوبًا جديداً للعمل : تعاون مسالم لصالح الجماعة : توحيد الأفراد من عائلات و عشائر و أجناس مختلفة ، واضعين جانبًا مصالحهم الخاصة و رغباتهم ، و ذلك لاتّباع مخطط منظم يكون لصالح المجتمع ككل و فائدته و ازدهاره . إلاّ أن العمّال الذين كانوا يحملون الحجارة و يحفرون الخنادق و القنوات ، لم يكونوا ، على الأرجح يشعرون إلاّ الشيء القليل بأنهم جزء من هذه المثالية الرفيعة . كان هؤلاء يعملون في مشاريع يخطّطها الآخرون ، و لم يكونوا بالتالي يتحمّلون أية مسؤولية بشأنها . بعض هؤلاء العمال كانوا عبيداً رغم أن غالبيتهم ، كانوا يتقاضون اجراً عن أعمالهم . كان اهتمامهم في كلتا الحالتين يتوقّف عند هذا الحدّ . و مع

هذا ، فقد استوعبوا فكرة التعاون في العمل . أمّا بالنسبة إلى الوثنيين من الأمازيغيين ، فلم يكونوا يتّحدون إلاّ لأجل هدف واحد : الحرب - عشائر و عائلات يلتصق بعضها ببعض التصاقًا هشًا سريع الزوال ، و ذلك خلال ساعات الكوارث و المحن ؛ ردّة فعل اعتباطية و عاطفية تجاه امر طارىء ؛ دعوة مفاجئة الى حمل السلاح لأجل الدفاع أو الهجوم .

أمّا المسيحية ، فجاءت بنوعية مختلفة تمامًا من الوحدة : وحدة تستند ، لا على الطموحات ، أو الخوف ، بل على المحبة الأخوية و الحنان ، لم يكن الغرض منها إنشاء العمارات او ادارة المشاريع التجارية ، و بالتأكيد لم يكن قصدها حتى خوض الحروب و المعارك . فالمسيحيون الحقيقيون لا يتوحّدون لمهاجمة أحد ، و لا للدفاع عن أنفسهم ضد أعداء خياليين أو حقيقيين . نحن لا نجتمع لأجل تحصيل المال ، أو لكسب نفوذ الأصدقاء ، أو لجني أرباح مادية . لكننا نجتمع على نقيض ذلك ، لنخدم ونساعد بعضنا بعضًا ، و لكي نحسن الى من هم خارج نطاق مجموعتنا المسيحية . اننا نجتمع لكي نشجّع اخوتنا و اخواتنا و ندعمهم ، و لكي نعدّ أنفسنا لخدمة العالم من حولنا . هذه هي الشركة المسيحية . انها تعارض التاريخ الوثني الأمازيغي . و هي تتنكّر للادعاءات الشعورية العميقة التي تفترض أن الناس محرّكون دائمًا و مدفوعون بطموحات انانية صرف .

و حيث يعمل المسيحيون معًا ، فإنهم لا يفعلون ذلك لأنهم عبيد ، أو عمّال اجراء يعملون على تنفيذ مشروع وضعه آخرون . ان كنيسة المسيح تتألف من رجال و نساء احرار . و هي ملك لكل واحد من افرادها ، و الجميع هم مسؤولون عن صحتها و عن نموها . و كل واحد يشارك على قدر طاقته ، لصالح الجميع . فأغسطينوس ، لم يعتنق المسيحية لأنه رأى فيها منافع شخصية لنفسه ، او شغله ، او لزواجه . و في الحقيقة ، لقد هدم هذا الايمان عمله و منع زواجه . كما لم تتبع كل من پرپيتوا و فلافيانوس وسالسا المسيح لأجل الحصول على مكاسب في هذه الدنيا . لقد خسروا في الواقع كل ما كانوا يمتلكونه ، بما في ذلك حياتهم ايضًا . ولم يضمن إيمان مكسيمليانوس و مارسلّوس ترقيتهم او تقدّمهم ، بل ضمن بالحري موتهم الأكيد . لقد تبع هؤلاء الناس طريق المسيح لسبب وحيد بسيط ، و هو انهم آمنوا أن هذا الطريق هو طريق الحق . لقد تاقوا ، لا للأخذ من الله او من الانسان ، بل للعطاء و البذل الى أقصى حدود قدراتهم ، و إلى آخر ذرّة من قواهم ؛ حتى عندما يرى الآخرون فرحتهم العارمة هذه ، يصبح لديهم الرغبة في المشاركة في ايمانهم . لقد كان اجرهم في السماء ؛ ولم يكونوا يتوقون الى أي شيء هنا على الأرض .

قال الرب يسوع : « مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ . » [8] و هذا المبدأ علّمه المسيح ، كما اتّبعه ايضًا في حياته على الأرض . لم يأخذ إلاّ القليل ، و لكنه أعطى كل ما كان لديه . « اذ

كان قد أحب خاصته الذين في العالم ، أحبهم الى المنتهى . »[9] ان حبًا كهذا يحرّك قلوبنا ، هذا إن لم تكن قلوبنا قاسية كالصخر ، كما أن هذا الحب هو الذي يدفعنا لعمل ما عمله يسوع . « بهذا قد عرفنا المحبة ان ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة . »[10] ان كل مسيحي هو بذرة من البذار . و إن لم تُزرع هذه البذرة ، فستبقى وحيدة ، و لكن عندما تسقط في الأرض ، فإنها تعطي غلالاً عظيمة .[11] وعندما تخصّص نفسها لخدمة الآخرين ، ستحصل على أضعاف ما أعطته . « أمّا انا فبكل سرور أُنفق وأُنفَق لأجل أنفسكم ، » هذا ما صرّح به الرسول . و لم يكن هذا بالأمر الصعب عليه ، لأنه يخاطب اصدقاءه الذين يكتب إليهم بالقول : « ايها الأحباء . »[12]

هذا إذًا هو البيان المسيحي الرسمي – انه الهدف من وجود الكنيسة – لا الأخذ بل العطاء ، لا الاحتفاظ ببركات الله لأنفسنا ، بل توصيلها و نقلها الى اخوتنا المسيحيين ، و الى أقربائنا الوثنيين . لقد دعا الرسول كل واحد الي أن يكون : «مهتمًا لا بمصلحته الخاصة بل بمصالح الآخرين . »[13]

و هذا ما سنفعله بعون الله تعالى . سنعتني بالأرامل و الأيتام . و سنعلّم أولادنا الفرق بين الحق والباطل ، و بين الصدق و الكذب . سنجتمع لقراءة كلمة الله ، و للصلاة بعضنا لأجل بعض . سوف نجتمع للاحتفال بالعشاء الربّاني . سوف نزور المؤمنين الجدد ليشعروا بأننا نرحّب بهم الى الإيمان . و سوف نتعاون سوية في كتابة الترانيم و في إنشادها . سوف نساعد شبابنا على إيجاد أزواج و زوجات مسيحيين . و سوف ندعم و نساند بعضنا بعضًا في اوقات المحن . و فوق كل شيء ، فإننا سنتوحّد في محبة الله ، و نطرح جانبًا كل شيء تافه يؤدّي الى انقسامنا . و عندما نجتمع ، يفكر كلّ منّا أول ما يفكّر في أخيه ، و يطلب من الله الارشاد الى السبيل لمساعدة أخيه و تقويته في المسيح .

اننا نعيش اليوم في مجتمع مقلوب على أساس عادات الماضي . لقد ظلّ الأفارقة الشماليون ، وعلى مدى آلاف السنين ، يجتمعون كلّما كانوا يتخوّفون من صراع معيّن ، أو يرغبون في البدء به . وفي أيامنا الحاضرة ، لا يزال بعضهم يرتاب من أية مجموعة من الناس تلتقي معًا بانتظام . لكن ، لماذا هذا الارتياب ؟ ربّما يراودهم شعور مزعج بأن الرجال و النساء لا يمكنهم ان يتّحدوا في جماعة إلاّ لتنفيذ اغراض أنانية و عدوانية ، و للتسبّب بالمشاكل ، او للتشكّي من أمر ما ، او للنضال من اجل ما يدّعون انه من حقوقهم . ان الرغبة في عقد مثل هذه الاجتماعات السلمية والتي لا يُبتغى منها سوى فائدة الآخرين ، هي شيء خارج عن نطاق اختبار الكثيرين من الناس ، حتى في اوساط اولئك الذين يتبوّؤون مراكز عليا .

و لكن ، اذا سألونا ، فبإمكاننا ان نريهم معنى المحبة المسيحية . فنحن نجتمع ، لا لانتقاد الآخرين او لمقاومتهم ، و لا لإحداث شغب او لأغراض سياسية . بل نجتمع فقط لنعلّم مبادئ الاستقامة و الأمانة ، و لنتعلّم أيضًا عن حنان المسيح ، و لكي نصلي بعضنا لبعض و لجميع الناس ، و بخاصة اولئك الذين هم في منصب . و نحن نجتمع لنضرم في قلوبنا مجدداً محبة الله ، حتى تبعث الدفء في العالم أجمع . هذا هو هدفنا ، و هذا هو التحدّي الموضوع امام كنائسنا في هذا العصر .

* * * * * * * * * * * * * * *

ان تحدّي المحبة المسيحية يواجه كل جيل جديد . لقد تجاوب آباؤنا مع هذا التحدّي بسموّ وروعة . كان درب المسيح معروفًا في شمال إفريقيا قبل أن يصل الى اوروبا الغربية ، و قبل عدّة قرون من وصوله الى مناطق العالم الجديد (Le Nouveau Monde) ، أو الى البلاد الآسيوية في الشرق الأقصى . لقد وُلدت المسيحية هنا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، و كُرز بها اولاً بين المجموعات الريفية في فلسطين ، ثم في المدن الساحلية الواقعة على امتداد طول هذا الطريق البحري . إذاً ، من هنا انطلق الإنجيل .

القول إن الامبراطورية الرومانية هي التي أسّست المسيحية في افريقيا الشمالية ، هو قول مرفوض تمامًا ، و يجب طرحه جانبًا مرة و إلى الأبد . ان مثل هذه الفكرة هي مغلوطة . هذا لأن الولاة و القضاة الرومان كانوا ، كما وضّحنا من قبل ، يبذلون قصارى جهدهم لقمع الإيمان ، والقضاء على قادة الكنائس ، و دفع اتباع المسيح للرجوع الى المعابد الوثنية . فسنّ الأباطرة المستبّدون الذين تعاقبوا ، عدداً كبيراً من القوانين و المراسيم التعسّفية الصارمة ، كان القصد منها مَحْق المسيحية من على وجه الأرض . ظل الامازيغيون ، على مدى قرنين و نصف ، يستمعون الى الإنجيل و يتجاوبون مع البشارة ، لا بسبب السلطة الرومانية ، و إنما على الرغم منها . لم يمنحهم الإنجيل أية فوائد مالية أو منافع أرضية ، لكن كثيراً ما فقدوا كل شيء ، بما في ذلك ممتلكاتهم و حريّاتهم و حتّى حياتهم .

على الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، كانت المسيحية ديانة افريقية اكثر منها رومانية . فقد كانت من بين المكوّنات الأساسية للتراث الثقافي في هذه القارة الواسعة . وهكذا تغلغل تأثيرها الى أقصى الداخل حيث لم تكن هناك سيطرة امبراطورية . كما كان اوسع و أقوى انتشار لها تحت اسم الدوناتية ، تلك الحركة غير المنضبطة التي كثيراً ما كانت سبب ارباك للسلطات الرومانية لا أداة في يدها . كانوا يحتفلون بذكرى شهدائهم الافارقة ، و يعيّنون

نظّارهم الافارقة ، و يعقدون مؤتمراتهم الافريقية ، عاملين كل هذا في وقت كانت لا تزال فيه المسيحية ديانة غير شرعية . كما كان الامازيغيون الموهوبون يعلنون سبيل المسيح بكل شجاعة قبل أن تبوّأ أحد المؤمنين سدة الحكم بمئتي سنة . لقد طالع الحكام الوثنيون في روما ما دوّنه ترتوليانوس الافريقي الشمالي من كتابات جريئة ، و ذلك قبل مائة عام من ترحيب قسطنطين بشيوخ الكنيسة في قصره . و هكذا مدّ الانجيل جذوره في إفريقيا و انتشر كإيمان أعزل تعتنقه الأقلية المضطهدة . وعندما اصبحت المسيحية اخيراً الدين الرسمي للامبراطورية ، كان ذلك النظام السياسي العظيم قد بدأ في السقوط و الانهيار .

ان مسيحيي شمال افريقيا لم يأتوا في أيامنا هذه بالشيء الجديد او الغريب من نوعه الى هذه الأرض : اننا نعود الى جذورنا و أصالتنا الثقافية . فلدينا ميراث مسيحي مجيد ، و قد ذاع صيته في العالم بأسره . ترتوليانوس ، كبريانوس ، و اغسطينوس : اسماء رجال عظام ، وصلت كتاباتهم الى كل القارات ، و تُرجمت كتبهم الى لغات لا تُعدّ و لا تُحصى ، و يوجد في كل جيل جديد من يقتبس كلماتهم . يشعر المسيحيون بالارتياح في افريقيا الشمالية . ففي هذه الأرض الحبيبة ، سار آباؤنا قديمًا مع المسيح . و نحن نتبع خطاهم ، فلا نبني للمرة الأولى ، لكننا في الواقع نعيد بناء الجدران الروحية لمدينة الله ، تلك الجدران التي صمدت في الماضي على مدى إحدى عشر قرنًا ، كما نؤمن بأنها ستبقى صامدة الى مجيء المسيح .

نحن نتطلّع الى أبطال الماضي ، و نعجب من ايمانهم ، و عبقريتهم ، و حنانهم . من السهل علينا ان نراهم كأبطال استثنائيين ، فريدين في نوعهم ، يسمون فوق المستوى الدنيوي الأرضي الذي نعيش نحن فيه . و لكن هؤلاء الرجال و النساء لم يكونوا بأية حال من الأحوال غير عاديين . فترتوليانوس عاش على مدى خمس و ثلاثين سنة كشاب وثني لا يعرف الانضباط . كما ان كبريانوس بقي حتى سن الخامسة و الأربعين ، مجرّد محام تقليدي . و اغسطينوس ايضًا ، الى أن بلغ الثانية و الثلاثين من عمره ، كان يعمل كمعلم للبلاغة و البيان ، و كان مغموراً بالنسبة الى سائر المعلّمين الآخرين الذين كانوا أكثر شهرة منه . بالجهد ، كان يستطيع أي واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة ان يبرز على زملائه : كان أمراً عاديًا ان يغرقوا في بحر النسيان ، و يبقوا غير مشهورين و غير معروفين ، لو لم يكن عندهم إحدى الخصائص المشتركة بينهم و هي أنه توصّل كل واحد منهم الى معرفة الله الحي . فتغيّر الإنسان بفعل الإيمان بالمسيح ، و وُلد ثانية لحياة جديدة ، و أصبح ذا قدرات و إمكانيات لم يكن يحلم بها من قبل .

إن أمراً ما في الرسالة المسيحية ، بالإضافة الى قوة الروح القدس الساكن في الداخل ، ايقظا في كل واحد منهم القدرات التي كانت كامنة في سبات من قبل . الأمر الذي مكّنهم

مـن السمـوّ و الارتقاء الى مستويات رفيعة و عالية ، كان يصعب عليهم ان يصلوا إليها وحدهم . لقد تساءل الرسول بولس : « فمن جعلك متميّزاً عن غيرك ؟ و أي شيء مما لك لم تكن قد أخذته هبة ؟ » [14] الله هو مصدر هذه المواهب الكامنة بالإضافة الى القوة التي حرّكتها و جعلتها تحيا و تبرز . لقد تمكّن عدد كبير من الرجال و النساء العاديين من تحقيق امور عظيمة عندما ألهبت رسالة الإنجيل قلوبهم ، و بعد ان امتلأوا بقوة من الأعالي . نحن ايضًا انـاس عاديون مثلهم . إلاّ ان هذه الأواني الخزفية البسيطة تحتوي على كنز عظيم ، روح الله الحي .[15] و لا يوجد بالتالي أي سبب يمنعنا من بلوغ المستويات العالية التي وصلوا إليها هم حتى نحقق نحن في أيامنا هذه ما حققوه هم بالأمس .

لقد تشرّبت ارض إفريقيا الدافئة بدماء الشهداء ، و غطّت برفق اجسادهم المهشّمة . كانت دماؤهم بذاراً مقدسًا ، انتج اثماراً رائعة . انهم في استعدادهم التام للتكلم عن المسيح في ساعة المحنة ، ولترك هذه الحياة بفرح و هم يحملون اسم المسيح ، يؤكدون أمام الملإ صحة ايمانهم و استقامته ، كما يبرهنون ايضًا أي رجاء راسخ يوحي لهم به هذا الإيمان . ان المشتكي القديم ، ابليس ، قد تمّ طرحه أرضًا : و هم غلبوه بدم الخروف و بكلمة شهادتهم و لم يحبوا حياتهم حتى الموت .[16]

« أليست إفريقيا مليئة بأجساد الشهداء القديسين؟ » - أعلن اغسطينوس - « أو ليسوا هم شهوداً للحق ؟ » [17] ان رجاءهم لم يخب ، بحيث انهم الآن مع الرب يسوع . و سيأتون معه حين يعود بمجده الى هـذا العـالـم . و فـي ذلـك اليـوم ستقوم الآلاف المؤلّفة مـن إخوتهـم و أخـواتهـم مـن الحـقـول و السهول ، و من وديان الأوراس والأطلس ، و من تونس و عنّابة و طنجة و فاس . سنقوم ونصعد لملاقاة الرب بفرحة عظيمة عارمة لا يمكن وصفها . و سنقف مـع آبائنا المسيحيين ايضًا - مع بربيتوا و ساتوروس و ترتوليانوس و كبريانـوس و اغسطينوس - و سوف نعايـن جميعًا مجـد الله . وستتحدث الى اولئك الذين تعرّفنا بأسمائهم و نحن من ابنائهم ؛ سيُجمع شملنا من جديد مع آبائنا المسيحيين ، و لا يعود أي شيء يفصلنا في ما بعد .

« لأنه ان كنّا نؤمن ان يسوع مات و قام ، فكذلك الراقدون بيسوع سيُحضرهم الله ايضًا معه . فإننا نقول لكم هذا بكلمة الرب اننا نحن الأحياء الباقين الى مجيء الرب لا نسبق الراقدين . لأن الرب نفسه بهتـاف بصوت رئيس ملائكة و بوق الله سوف ينزل من السماء و الأموات في المسيح سيقومون اولاً . ثم نحن الأحياء الباقين سنُخطف جميعًا معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء . و هكذا نكون كل حين مع الرب . لذلك عزّوا بعضكم بعضًا بهذا الكلام . » [18]

الحياة الجديدة

في كلِّ مرّة
أتأمّل مخْلوقات الله
ألْمَسُ حقيقيةً أكيدَة :
إنَّ الأرضَ تُحاكي خطّةَ السّماءْ !
فهَا الشّتاءُ و الصيْفُ و الربيعُ و الخريفْ
و كلٌّ فصْل
يكْتسي بحُلّة فريدة
و كلٌّ فصّل
يزْدهي بثمار جدِيدة
تُلْبَسُ الأشجارُ بعد عُرْيِها
و تَيْنَعُ الأزهارُ بعدَ ذُبولها
و تُفرَشُ الأرضُ بالعشْب الأخضَر
و تسقُطُ البذارُ كي تَموتْ
و تَنْبُتُ البذار
فتَنْبعُ منْ مَوتِهَا الحَياةْ .

* * * * * * * *

مُدهشةٌ خُطّتُكَ ، يا اللّهْ
فالسَّلبُ يضمَنُ النموْ
تنْزَعُ لكي ترُد
تأخُذُ لكي تصُونْ
تُبدِّدُ لكي تُجَدِّدْ
و تُنقصُ لكي تَزيدْ
هذا نظامٌ يُعيدُ إلينَا
أشيَاءَ أغْنَى و أبهَرْ
منْ كلّ ما تَدَمّرْ :
فبَعْدَ كلّ شدّة برَكَة
و بَعْدَ الضّيقّات
يُزْهرُ الفرَحْ
و نَخسَرُ أشياءَ كثيرة
لنَرْبَحَ أكثَرْ

* * * * * * * *

و بجُمْلة واحدَةْ :
التَّجديدُ في كلِّ مكانْ
كلٌّ ما يُلاقيكَ الآن
بالأمْسَ كان
و كلٌّ ما فَقدْتَ
يَرجعُ إليك
و يَعُودُ كلٌّ الذي أبيدْ
و تموتُ الأشياءُ
لتُولَدُ من جَديدْ
تَصيرُ عَدَمًا حتى تُعيدَ كيانَهَا
لا شيءَ يَمُوت
إلاّ و يُبْعَثُ من جَديدْ
النمَط الطبيعي الذي يُكمّلُ دورتَه
و نظام أمور الأرض
كل ذلكَ يشهَدُ
لحقيقَة عَجيبَة
هيَ قيامَةُ الأمواتْ .

ترتوليانوس 19

« تحيا أمواتك تقوم الجثث .
استيقظوا ترنّموا
يا سكان التراب ! »[20]

ملاحظات

1- يعقوب 18:3
2- رومية 20:15 ؛ كولوسي 28:1
3- متّى 19:28 و 20
4- متّى 14:5
5- رومية 16:1
6- كولوسي 2:2 و 3
7- المزمور 2:29
8- اعمال 35:20
9- يوحنا 1:13
10- 1 يوحنا 16:3
11- يوحنا 24:12 - 26
12- 2 كورنثوس 15:12؛ 1:7
13- فيلبي 4:2 (ترجمة كتاب الحياة)
14- 1 كورنثوس 7:4 (ترجمة كتاب الحياة)
15- 2 كورنثوس 7:4
16- بالإشارة الى رؤيا 11:12
17- *Epître* 78; *Sermon* 128:3
18- 1 تسالونيكي 14:4 - 18
19- *ANF* Vol. p. 553 *De Resurrectione Carnis* 12
Bettenson *ECF* pp. 161-162
20- اشعياء 19:26

الملحق الأول

الاصول الثقافية لإفريقيا الشمالية

لقد أصبحت إفريقيا الشمالية وطنًا لشعوب كثيرة : بعضهم من استقر فيها منذ وقت طويل ، وآخرون لم يأتوا إلاّ حديثًا . فالفينيقيون ، و الرومان ، و اليهود ، و من بعدهم الونداليون و البيزنطيون و العرب و الفرنسيون ، جميع هؤلاء بنوا بيوتًا و أنشأوا عائلاتهم في هذه الأرض ، و ما زالت دماؤهم تجري في عروق احفادهم . أمّا اولئك الذين عاشوا فيها أولاً ، و ظلّوا يشكّلون غالبية السكان ، فهم الأمازيغيون ، و المعروفون ايضًا بالبربر .[1] انهم الأفارقة الشماليون الحقيقيون . ان قصة المسيحية في هذه البقعة من الارض ترتبط بشكل وثيق بتاريخ سكانها القدماء .

ان أصل الأمازيغيين قد ضاع في عتمة التاريخ . و مع ذلك ، فهناك الكثير من النظريات الخيالية التي قيلت بصدد أسلاف هؤلاء القوم و نسبهم . فقد رأى بعض الكتّاب فيهم احفاد الكنعانيين القدماء ، الذين كان العبرانيون قد طردوهم من فلسطين . و آخرون يفضّلون ان يردّوا أصل هؤلاء القوم الى مجموعات مغامرة من الماديين و الفرس او الهنود . و بعضهم يصدّق ما ورد في بعض الأساطير بشأنهم ، أي كونهم يتحدّرون من طروادة (Troie) او اليونان . و يوجد من يقول إنهم جاءوا من اليمن ، ولعلّهم كانوا من أقرباء العرب أو منافسيهم . و بعضهم ، في استناده الى خصائص علم الانسان (Anthropologie) ، يتوجّه ذهنه نحو بلاد الغال ، أو اوروبا الشمالية ، أو صقلية (Sicilie) او اسبانيا . ويرى آخرون أنهم الناجون من الأطلنطس (Atlantis) ، هذه الأرض المفقودة و الغارقة الآن تحت البحر . كذلك يعتقد بعضهم أنهم جاءوا من الشرق الأدنى – ربما من بابل – و هم واحد من عدّة شعوب تشتّتوا من هذه المنطقة في حدود ما قبل عام 2000 ق م .

تمكّن علماء الآثار من اكتشاف عدة نماذج لأناس ، يشابهونَ من الوجهة التشريحية العديد من الأمازيغيين الحاليين . و يبدو أن اولئك القوم كانوا يعيشون في العصر الحجري (ère néolithique) و ربما قبله . و قد تبيّن ، بكل وضوح ، أن أقدم الهياكل العظمية بينها تعود الى نوع اوروبي شمالي أي قوقازي ، عاش تقريبًا في العام 000 10 ق م ، أي قبيل نهاية العصر الحديث الأقرب (ère pleistocène) . و قد عبر هؤلاء القوم ربما من اسبانيا .[2] كذلك تمّ العثور على مجموعة عرقية ثانية ، أصغر حجمًا ، وعظامها أرفع ، تشير ملامحها الى تحدّرها

من منطقة البحر الأبيض المتوسط . و يظهر أنهم دخلوا إفريقيا الشمالية من الشرق الأدنى في نحو العام 8000 ق م .[3] لقد اقترح علماء الانسان فكرة ان ذرية المجموعة الأولى كانوا مستقرين ؛ أمّا نسل المجموعة الثانية ، فكانوا من البدو الرحّل . تشكّل المجموعة الأولى أسلاف المزارعين ، سكّان التلال ، فيما تكوّن الثانية رعاة المواشي من أمثال شعب الزناتة (Zénata) والتوارك (Touareg) الحالين في أقصى الجنوب .[4] كان هناك اختلاط كبير بين هاتين الفئتين من الناس ، وكلاهما منتشر حاليًا في كل أنحاء إفريقيا الشمالية . و مهما كان عليه ما يستحسن الأمازيغيون أن يعتبروه أصلهم ، يوجد أمر واحد مؤكد و هو أنهم كانوا السكان الطبيعيين الأصليين لشمال إفريقيا ، وذلك منذ العصر الحجري . و هم الورثة المستحقون للشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، ذلك البحر العظيم الذي كان مركزًا للحضارة المتقدمة منذ العصور التاريخية الأولى .

و يظهر أن الاسم « الأمازيغيين » هو نفسه مشتق من جذر يفيد معنى « الناس الأحرار » أو «السادة» .[5] فالافريقي الشمالي يثور و يتململ ، بكل تأكيد ، من شتّى أنواع العبودية ، لكنه يُثبت بالمقابل انه صديق مخلص لكل الذين يتمكنون من كسب احترامه و محبته ، و ذلك بغضّ النظر عن أية اعتبارات إيديولوجية او ثقافية . انه صاحب قلب دافئ ، يضحك بسهولة و يفرح كثيراً بحكمة أرضية تقود بشكل عفوي الى استنتاج أعمق العبر من العالم الطبيعي ، كما انها تكشف بظرف ضعفات الطبيعة البشرية . وطالما كان الجيل القديم يُجيد بإتقان فن رواية القصص ، كما ان حكاياتهم عن القنفذ ، والخروف والذئب ، تخدم هدفًا مزدوجًا إذ تسلّي الشباب ، و تعلّمهم ايضًا مبادئ الحياة . للأمازيغيين موهبة فطرية في نظم الشعر ، و أحاسيسهم مؤثرة و عميقة في آن . انهم يستقون صورهم و إيضاحاتهم من الطبيعة بشكل عفوي : النحلة التي تطير بكل اجتهاد وتحطّ حيثما تشاء ، و الأوعال التي تقفز من صخرة الى صخرة ، و لا يقوى أي صيّاد على النيل منه ؛ و الصقر الذي يحلّق بسهولة تامة و بلا كلل أو ملل في أرجاء السماء الفسيحة . أمّا موسيقى الأمازيغيين ، فهي مميّزة ، إذ تستند الى المقام الخماسي ، ويحصل الترتيل على أساس المناوبة التجاوبية . كذلك تحتوي هذه الموسيقى على أنظمة إيقاعية معقّدة تتطوّر بشكل تدريجي . وفي أيامنا ، لم تحلّ البانجو و القيثارة الا جزئيًا محل الآلات الموسيقية الوترية التقليدية .

و لا يزال الرقص يجتذب القرويين للّقاء معًا ، موفّرًا لهم بذلك حياة اجتماعية مشتركة . إن هذه الظاهرة لنموذجية فحينما يتجمّع الامازيغيون ، لأي غرض ، تكون شركتهم على نطاق ضيّق دائمًا . هذا لأن العوامل الجغرافية و التاريخية قد ساهمت بلا انقطاع في تقسيم هذا الشعب ، إذ فصلت قبيلة عن قبيلة أخرى ، و عشيرة عن عشيرة ، و عائلة عن عائلة و حتى الرجل عن جاره . لم يتمكّن الامازيغيون قط من الاتحاد لتكوين أمّة . فإن قمم جبال الأطلس المكلّلة بالثلوج تفصل بين واد و آخر ؛ كما ان المساحات الحارة الفارغة في الصحراء تجعل قاطعًا بين الواحة والأخرى ؛ كذلك يعمل المحيط الأطلسي بأمواجه العاصفة على فصل جزر الخالدات الخضراء اليانعة عن البر الرئيسي الواقع على بُعد 80 كيلومتراً منها فقط . و هكذا منذ فجر التاريخ ، بدا

على الامازيغي أنه راضٍ بالوادي ، أو الواحة ، أو القرية التي وُلد فيها . فالتجمعات المحلية هي كل ما يلزمه لبناء المدرجاتّ الجبلية الفلاحية ، أو شقّ مجاري المياه ، أو لفضّ النزاعات الصغيرة . لم يكن سكان المنطقة ينشدون كونفدراليات كبيرة ، حيث انهم لا يرغبون في شن الحروب على نطاق واسع ، أو احتلال مدن ، أو هزم بلدان أخرى .

لم يقم الأمازيغيون أبداً ببناء وطنهم الخاص ، ولا بمنع أجناس آخرين من السيطرة عليهم . ان عدداً من الامبراطوريات تعاقبت على احتلال أرضهم - من الشرق ، و الشمال ، والغرب ، و في ما بعد من الجنوب المستعرب - إلاّ أن أحداً ما من هذه الجيوش المحتلة ، لم يلاقِ مقاومة موحّدة من سكان المنطقة . و هذا لا يعود الى كون المهاجمين هم أكثر عدداً ، أو أكثر ذكاءً او ضراوة من الأمازيغيين . لكنّ هؤلاء الغزاة كانوا دائمًا منظّمين بشكل أفضل ، و يتفوّقون عليهم في العتاد الحربي .

كان للأمازيغيين ملوك مشهورون يسيطرون على مناطق واسعة ، أمثال الملك ماسينيسا (أو ماسْنِيسَنْ) (نحو 240 ق م - 149 ق م ، و يُوغُرْتا (أو يُوكُرْتَنْ) (و نحو 118 - 105 ق م) ويوبا الثاني (Juba II) (نحو 50 ق م - 23 ب م) . و كان هؤلاء الحكام يجدون بصفة عامة اسبابًا موجبة للتعاون مع جيرانهم في محيط منطقة البحر الابيض المتوسط . هذا لأنهم كانوا يجنون مع شعوبهم فوائد جمة من التجارة و الزراعة و الابتكارات الهندسية المتوافرة عند حلفائهم المتطورين . لقد عامل الرومان الملوك الامازيغيين و رؤساء القبائل باحترام ، حيث لم يكن لديهم مطامع في الاستيلاء على مناطقهم الداخلية . إلاّ أن هؤلاء الحكام المحليين ، لم يكونوا يسيطرون قط سوى على منطقة محدودة ، تلك الأراضي التي يستطيعون الوصول اليها و التسلّط عليها بما لديهم من قدرة شخصية على التأثير في الجماهير . كان شمال افريقيا كيانًا مجزءاً سياسيًا كما كان جيولوجيًا . فلربما كانت طبيعة الأرض الجبلية الوعرة و المجزأة الى مناطق معزولة التي تقف وراء هذا التشرذم ، شهادة صامتة لما للاعتبارات الجغرافية من هيمنة كونية على التاريخ .

و عندما استقر الغزاة الأوّلون ، من فينيقيين و رومان و ونداليين على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، تركوا رؤساء القبائل الامازيغيين يحكمون المناطق الداخلية بأنفسهم تمامًا كما كانت الحال قبل حصول الغزو . أمّا العرب ، فتصرّفوا معهم بطريقة مختلفة تمامًا . هذا لأنهم زحفوا الى داخل البلاد و راحوا يدعمون تارة هذه القبيلة و طوراً قبيلة أخرى . و هكذا استطاعوا بالتدريج ان يهيمنوا على الأراضي المقهورة . أمّا اولئك الذين فقدوا أراضيهم باستيلاء المستعمرين عليها ، فانتقلوا الى الجبال . ثم أخيراً قامت الطبقة الحاكمة المسلمة بتثبيت واقع الشرذمة هذا . فتمّ رسم الحدود السياسية وتحديد المناطق التي يتوجّب عليها دفع الضرائب ، و تعيين الحكّام والقضاة ، وهكذا أصبح شمال إفريقيا «المغرب العربي الكبير» .

و بخصوص الدين ، يخبرنا ابن خلدون بأن الأمازيغيين ارتدوا عن الإسلام اثنتي عشرة مرة قبل ان يُضطروا اخيراً الى الإذعان قسراً لهذا الدين [6] . كانوا يتمسّكون بأية تعاليم غير صحيحة قد

تعترض سبيلهم ، و يلتفّون حول أي قائد هرطوقي قد يظهر بينهم . إنّ شعب برغواطا (Berghawata) في غربي المغرب ، دعموا بشدّة نبيّهم ، صالح ، مستندين في ذلك الى ما استنتجوه من الفكرة الإسلامية القائلة إن الله قد أرسل نبيًا خاصًا لكل جنس من الأجناس البشرية . فاعتبروا ان محمداً أُرسل للعرب ، أمّا النبي صالح ، فقد تمّ إرساله للأمازيغيين . كما يخبرنا البكري أن قبائل برغواطا بدأوا استعمال اسم أمازيغي للّه - «ياكوش » (Yakush) عوضًا من الاسم العربي « الله » . كما نقلوا الصوم السنوي من شهر رمضان الى شهر رجب . و قد شرّعوا ايضًا عشر فترات للصلاة عوضًا عن الصلوات الخمس المقرّرة يوميًا ، كما بدّلوا موعد عيد الأضحى ، وسمحوا للرجل أن يتزوّج قدر ما يشاء من النساء . كذلك اخذوا بعض الطقوس المستوحاة من المعتقدات القديمة المتعلقة بمذهب حيوية المادة ، و أضافوها الى العادات التي كانوا قد تعلّموها من العرب . إلاّ أن أعظم إساءة اقترفها صالح في نظر العرب هي أنه كتب قرآنًا جديداً بلغته الخاصة ، مستعينًا لأجل ذلك بالأبجدية العربية . يحتوي هذا الكتاب على 22 فصلاً عوضًا عن الـ114 سورة المتضمّنة في القرآن الإسلامي الرسمي . 7

لم يكن شعب برغواطا هم الوحيدين الذين تركوا الإسلام العربي ، و استعاضوا عنه ببديل أمازيغي . هذا لأن المعلّمين الإباضيين الجزائريين كتبوا في القرن العاشر صفحات من التعاليم الدينية باللغة الامازيغية ، مستعملين لأجل ذلك الأبجدية العربية ، بالإضافة الى الألفباء التيفيناغية القديمة . كان التوارك ، سكان الصحراء ، يشيرون في القرن التاسع عشر الى الله باسم « اماناي» أو « أماناي مقّارْن » ، كما أطلقوا عليه أحيانًا التسمية « مسّي » .8

في افريقيا الشمالية ، يظهر أن السيّد المنتصر الذي يظن أنه قد تسلّط على الشعب ، هو الذي يخضع لهم في نهاية المطاف . إنه ضرب من عبقرية الأمازيغيين . أنهم يجيدون فنّ استيعاب ، ومن ثم تغيير من يغزوهم و يتسلّط عليهم ، أيًا من كان . و الفينيقيون كانوا أول من اكتشفوا هذا الأمر . هذا لأنهم وجدوا بعد اقترانهم بالنساء المحليات ، كيف أن ديانتهم امتزجت مع المعتقدات الامازيغية القديمة . كما أن أطفالهم نسوا أساليب الحياة الفينيقية و لغتهم البونية . ثم تكرّر الأمر عينه بالنسبة الى الرومان حيث أكلوا من الحنطة و الزيتون التي كانت تُزرع في الحقول الامازيغية ، كما اختاروا ايضًا رجلاً أمازيغيًا امبراطوراً لهم . لكنهم فشلوا ، في النهاية ، في فرض لغتهم اللاتينية ، أو معرفتهم و نظمهم الإدارية على التلال و السهول الافريقية . ثم جاء دور الونداليين الذين غزوا الأرض الامازيغية وحكموا الشعب هناك لأمد قصير ، إلاّ أنهم لم يستطيعوا أن يؤسسوا أي شيء جديد أو دائم بينهم . و كذلك بالنسبة الى العرب ، فقد فرضوا دينهم و لغتهم على الأفارقة الشماليين لكي يجدوا اخيراً كيف أن الأمازيغيين قد أفسدوا كلاً من اللغة و الدين ، بحيث لم يعد يمكن اعتبار اللغة العامية المستخدمة لديهم أنها لغة عربية ، و لا ما توصّلوا إليه دينيًا من تركيبة الخرافات و العقائد ، أنه الإسلام .9 و اخيراً ، في عصرنا الحديث

هذا ، نرى أن الفرنسيين ، أدخلوا الى افريقيا الكثير من التقنيات الأوروبية الحديثة والمدهشة ، وبخاصة في كل من ميداني الهندسة و الطبابة ؛ إلا أنهم لم يسمعوا ، بالمقابل ، أية كلمة شكر على أتعابهم .

إلاّ أن هؤلاء المذكورين ، لم يكونوا وحدهم من جاءوا من الخارج ليمدّوا جذورهم في إفريقيا الشمالية . فبعد الاستيطان العربي ، أصبح الرق من أعظم الاهتمامات التجارية . هذا و قد تمّ القبض على الآلاف من الأفارقة السود ، و اقتيدوا من مواقعهم في الأدغال عند الناحية الجنوبية من الصحراء . وبعد تعرضهم لآلام مرعبة ، كان بعض تجار الرقيق المسلمون يبيعونهم كعبيد في زنجبار ، و حتى في شمال إفريقيا نفسها . فأنجب بعضهم نسلاً لسادتهم العرب ؛ أمّا آخرون منهم ، فتزاوجوا في النهاية مع الأمازيغيين ، و لا يزال أحفادهم معنا حتى اليوم .

وقد سبق اليهود كل هؤلاء في شمال إفريقيا بوقت طويل . و قد ننسى أحيانًا أن هؤلاء اليهود جاءوا قبل العرب بألف سنة . كان اليهود يختلفون عن أي جنس أو عرق آخر عرفه الأمازيغيون . ولعلّ السبب لذلك هو أنهم كانوا لاجئين ، و لم يفكّروا قط في التسلّط على الأرض هناك ، أو في فرض لغتهم أو دينهم على الآخرين . لقد أتوا الى هذا البلد بحكم الضرورة ، لا بدافع المغامرة أو التجارة أو بسط النفوذ . فوطنهم الواقع في أقصى شرق البحر الأبيض المتوسط ، كان قد تعاقبت على احتلاله مجموعات من الجيوش الأجنبية . فتركوه على أمل العيش في مكان آخر . ظلوا على مدى قرون يتوافدون الى إفريقيا ، و ذلك كمجموعات صغيرة من عائلات صغيرة و أفراد . وهكذا استقروا في المدن و القرى ، و في أجزاء معزولة من الريف ، حتى وصلوا الى أبعد المناطق عند ساحل الأطلسي ، ثم نزولاً الى الصحراء .

وصلت اولى المجموعات اليهودية الى إفريقيا الشمالية في حدود العام 320 ق م عندما قام اليونانيون بنفي مئة الف يهودي ، ثم نقلوهم خارج أرض فلسطين ، فحطّوا رحالهم في قرطاجة . كذلك تحرّكوا الى الغرب مخلّفين وراءهم آثاراً في فولوبيليس (وليلي) . و وصلت ايضًا مجموعة ثانية منهم الى المغرب بعد العام 150 ق م ، و ذلك هربًا من الاضطهاد الذي لحق بهم في كورينيكيا ، أي ليبيا الحديثة . و استقر هؤلاء في الريف المغربي و جبال الأطلس . كذلك يوجد مجموعة أخرى تركت فلسطين ، و انتشرت عبر إفريقيا الشمالية بعد ثورة اليهود العارمة التي قادها سمْعان بَارْ كوخبا (Simon bar Kochba) و التي تمّ سحقها في العام 135 م . و في ما بعد ، توافد المزيد من اليهود من اسبانيا و من اجزاء أخرى من اوروبا ، و ذلك هربًا من المراسيم الامبراطورية التعسّفية . و في القرن الرابع و الخامس طُرد العديد منهم بسبب الهجمات العنيفة التي كان يشنّها القوطيون و الونداليون و غيرهم .

لم يكن هناك أي سبب أو موجب يدعو اليهود في شمال افريقيا إلى محبّة الرومان . هذا لأنّ الوحدات العسكرية الرومانية ، كانت قد احتلت بلادهم ، و فرضت عليهم حكمهم الوثني الذي اعتبره اليهود تجديفًا . كما أن الرومان دنّسوا هيكل أورشليم ، و اخيرًا حطّموا الأماكن المقدّسة في العام 70م . و لربما انسجم الأمازيغيون مع اليهود جيرانهم ، هؤلاء الذين جاءوا يضعون الزيت على نار ارتيابهم الشخصي و عدم ثقتهم بالامبراطورية الرومانية . الى ذلك ، فقد جلب اليهود معهم خبراتهم في الحضارة ذات التطوّر الحسن و معرفتهم المتقدمة بتقنية الحرف ، كالأعمال المعدنية مثلاً . كذلك كان لبعض هؤلاء اليهود فطنة عالية في حقل التجارة ، فضلاً عن العلاقات التجارية التي اسّسوها قبلاً ، إبّان إقامتهم عند ساحل البحر الأبيض المتوسط . جاء اليهود على شكل عائلات فقيرة منفية عن أوطانها ، قانعين في حياتهم بمقامهم الوضيع . و الظاهر أنهم كانوا يكسبون احترام الشعوب التي يستقرون بين ظهرانيها ، و ذلك بفضل تقيّدهم الدقيق بما فرضوه على نفوسهم من مبادئ الأمانة و الاستقامة . ان ايمانهم الثابت بالله الأحد ، خالق كل الأشياء ، لا بدّ من أنه لقي تجاوبًا في قلوب اولئك الأمازيغيين الذين كانوا يشعرون هم أنفسهم ايضًا بوجود مثل هذا الإله العلي .

اعتنقت بعض القبائل و القرى الدين اليهودي ، و تعلّم بعضهم كتابة اللغة الأمازيغية بواسطة الحروف الأبجدية العبرانية . و هكذا استمرت العلاقات اخوية و ودّية بين اليهود و الأمازيغيين عبر القرون ، الى الوقت الذي قدم فيه العرب و أدخلوا صنفًا جديداً من التمييز العنصري الناتج من نزاعاتهم الخاصة في الشرق .

لقد تعرّضت إفريقيا الشمالية لمؤثّرات كثيرة و متنوعة . و تركت كل من هذه المؤثرات بصماتها على خُلق السكّان و على لغتهم و عاداتهم . فمنذ فجر التاريخ ، و الأمازيغيون بارعون في استعمال اللغات الأجنبية . كان بعضهم يجيدون لغتين او ثلاث لغات إيجادة تامة ؛ و لا يزال هذا الأمر يصحّ على العديد منهم في أيامنا ايضًا . فقد تعلّموا اللغة البونية من الفينيقيين ، و اللاتينية من الرومان ، و أخيراً قدّم لهم العرب لغتهم ، و كذا الفرنسيون ايضًا .

إن اللغات الأجنبية تفتح الأبواب دائمًا امام أفكار و خبرات جديدة . و منذ أقدم العصور ، وشعب إفريقيا الشمالية يسافرون الى الخارج بكثافة ، ثم يعودون الى بلادهم حاملين معهم وعيًا بكل المعارف و النشاطات التي اطّلعوا عليها في البلدان و الأماكن الأخرى التي زاروها . كانوا جزءاً من حضارة منطقة البحر الأبيض المتوسط العظيمة ، و شاركوا بالكلية في هذه الحضارة . لقد تعلّموا قراءة آداب العالم ، كما أن بعضًا منهم - مثل مانيلوس (Manilus) وفلوروس (Florus) وابوليوس (Apulée) - شاركوا في كتابة هذه الآداب . لقد استفادوا من المعارف و العلوم التي قدّمتها لهم المدارس الفينيقية و الرومانية ، تمامًا كما أن احفادهم يسعون

اليوم لاكتساب ثقافة أدبية عربية و فرنسية . و قد أتاحت هذه الثقافة أمامهم شتى أنواع الفرص . و لكن الفينيقيين و الرومان لم يسعوا لوضع سياسات حكومية من شأنها أن تحدّ من استخدام الشعب للّغة الأمازيغية الأصيلة ، و لا فرضوا لغة جديدة على المتكلمين بها . كانوا يرغبون في إضافة ثقافة لا في محو ثقافة ، و كان هدفهم إضافة بُعدٍ جديد ، و ليس نزع القديم .

تتعاقب اللغات الأجنبية و تتبدّل ، أمّا اللغة الامازيغية التي كانت قبلها جميعها ، فلا تزال حية . إن ثلاثة الآلاف سنة من السيطرة الغربية ، بأنظمتها التعليمية الأجنبية ، لم تكف لمحق اللغة الأصلية لإفريقيا الشمالية . و ما زالت هذه اللغة تُستعمل في درّينة من البلدان التي تمتَد من البحر الأبيض المتوسط و حتى الصحراء ، و من المحيط الأطلسي حتى نهر النيل . و هذه اللغة تضمّ في هذه الأيام عدداً وافراً من اللهجات الاقليمية المحلية المختلفة ، يفصل بينها اصقاع من الأرض و بقع لا تعرف اللغة الامازيغية . ان الأماكن التي تحمل اسماء أمازيغية لا تزال موجودة في كل أنحاء افريقيا الشمالية ، حتى في تلك المناطق حيث لم تعد اللغة الأمازيغية هي لغة السكان . ان القطعة التي لا تزال موجودة ، تشهد لعالم عملت عناصر غريبة على تفجيره و تفكيكه ، لكنها تشهد ايضًا أن هذا العالم كان موحّدًا في يوم من الأيام .

إن اللهجات المحكية للأمازيغية الحديثة تجمع بين مواصفات نوعين من اللغات : الحامية والسامية . كما أنها تشبه من بعض النواحي لغات إفريقية أخرى من نحو اللغة القبطية المصرية والصومالية و الحوسا (Hausa) . كذلك يوجد ايضًا بعض أوجه الشبه بينها و بين اللغات السامية كالعربية و العبرية .[10] و يقترح بعض الدارسين أن هذه المظاهر السامية في الامازيغية ، انما تشير ببساطة الى تأثّرها باللغة البونية خلال الفترة القرطاجية ؛ و لكن هذا الأمر لم يتأكد بأية حال من الأحوال . و يوجد كاتب واحد على الأقل يعتبر أن الأمازيغية هي أقرب الى احدى اللغات الأوروبية أي اليونانية منها الى أية من اللغات السامية او الحامية .[11]

كان شعب إفريقيا الشمالية ، على مدى آلاف السنين ، يتكلمون الأمازيغية بصيغة أنقى بكثير من لهجتها الحالية . فقد كان ينبغي التعبير بواسطة هذه اللغة عن كل صنف من أصناف الأدوات المنزلية ، وعن المشاعر الإنسانية كلها ، و عن صور الحياة او وجوهها جميعها . كما أن اسماء الناس ، كانت أمازيغية صرف . و لكن ، لا يمكن لأية لغة أن تبقى جامدة . هذا لأنه يُصار باستمرار الى إدراج كلمات جَديدة بالإضافة إلى تعابير أصلية . و تشهد المنقوشات القديمة و الزخارف الفخارية على هذه التنويعات و التبديلات المحلية في كلام الناس و أحاديثهم منذ الأزمنة الغابرة . كانت الطرق التجارية القديمة تحدث تشابكًا بين المناطق الواسعة الفسيحة التي تمتد من جنوب الصحراء الإفريقية ، الى البحر الأبيض المتوسط ، و من ثمّ الى اوروبا . ففي عملية المتاجرة بالبضائع الغربية على سكان البلاد ، كما أيضًا عند إدخال أساليب تقنية مستحدثة ، كان يحصل تبادل لأفكار جديدة ، و للكلمات اللازمة للتعبير عن هذه المواد الغريبة . كذلك ، منذ أقدم العصور ، كان هناك مستوطنون أجانب على الساحل ، و هم يتحدثون لغات أخرى تختص بمنطقة

البحر الأبيض المتوسط . كما أن القبائل المجاورة في الجنوب ، كانت تتحدث اللغات الإفريقية . و هكذا دخلت الى الأمازيغية كلمات معيّنة مصدرها هذه اللغات ، و بخاصة التعابير المتعلّقة بالبضائع التجارية - الدجاج ، القناديل ، السطول - و كذلك الاصطلاحات المتعلقة بالابتكارات الجديدة كالقوانين المكتوبة ، و الطقوس الدينية ، و المعالم لفن البناء الجديد ، كالأبراج و القبب مثلاً .

إلاّ ان تشرذم اللغة الامازيغية ، لم يحصل إلاّ على أيدي العرب الهلاليين في القرن الحادي عشر ، حيث ان تواجدهم لم يقتصر على المناطق الساحلية و المدن . لم يكتف هؤلاء القوم بأن يكونوا مجرّد جيران يعيشون بمفردهم لمجموعات أخرى من الناس ، او زملاءَ عمل من الممكن مقابلتهم من وقت الى آخر في السوق . لكنّهم شقّوا طريقهم الى عمق السهول الداخلية ، حتى الى سفوح الجبال ، و الى رمال الصحراء ، هذا لأنهم كانوا قد عزموا على ان يستعمروا الدار نفسه . و هكذا بدأت عملية تعريب الأمازيغيين ، و التي استمرّت منذ ذلك الحين . و منذ ذلك الحين ، أصبحت اللهجات الامازيغية المحلية منفصلة واحدة عن الأخرى في الأودية النجدية و في الواحات الصحراوية . و هكذا راحت تتطور على انفراد ، و في عزلة عن بعضها بعضًا . لقد بات اليوم من الصعب على أحد الأمازيغيين من « تومبوكتو » (Tombouctou) ان يتفاهم مع نظير له من طنجة ، مع انه يعلم أن هذه اللغة هي لغته ايضًا .

تُعتبر اللغة الامازيغية عادة من اللغات غير المكتوبة . فإذا ما أراد الافريقي الشمالي ان يكتب أو يقرأ ، فإنه يلتجيء عمومًا الى اللغة العربية او الفرنسية . و مع ذلك فإن الأمازيغية تستطيع أن تتفاخر بأبجديتها الخاصة ، و التي هي أقدم عهداً من كل من الأبجديتين العربية و الفرنسية . فالأمازيغيون كانوا كالمصريين و الفينيقيين القدماء ، يكتبون على شكل نقوش قصيرة و كلمات إهداء ، و ذلك قبل مئات السنين من ظهور مفهوم الكتابة في أنحاء أخرى من العالم . الى ذلك ، فإن الأمازيغية هي اللغة الإفريقية الحديثة الوحيدة ، بصرف النظر عن الإثيوبية ، التي طوّرت أبجديتها الخاصة . أمّا اللغات الأخرى في هذه القارة ، فقد اكتفت بتطوير ألفباء أجنبية تخدم أغراضها الخاصة ، و ذلك استناداً الى الأبجديات الأوروبية أو العربية المعاصرة .

ان الأبجدية التيفيناغية ، تشتمل على دوائر و مثلثات و أشكال هندسية أخرى ، مع نقاط مجموعة بأشكال مختلفة تمثّل أحرف اللين (Voyelles) ؛ و هي تُكتب من الشمال الى اليمين ، وذلك على طراز الأبجدية الأوروبية . [12] فمن الصعب أن نتعقّب عملية تطوّر هذه الأبجدية . كانت في صيغتها الأولى تُعرف لدى الدارسين بالأبجدية الليبية ، و يُرجّح أنها ، كاليونانية ، قد اشتقّت اساسًا من البونية ، أي الأبجدية الفينيقية ، و ذلك في وقت ما من القرن الثاني قبل الميلاد . ويوجد تشابه قريب بين التيفيناغية والكتابة العريقة المعروفة « بخطّ جنوب جزيرة العرب » ، مما يدلّ على أن هذه الابجدية قد جيء بها من طرف المهاجرين الصنهاجيين و الكتاميين من تلك المنطقة . إلاّ أن هذا الأمر ليس مؤكداً . و على الرغم من أن الأبجدية الليبية لم تكن قد طُوّرت بالكامل

حتى ذلك التاريخ ، فقد وُجدت قبل هذا بكثير حروف تشابه التيفيناغية الحديثة في « الجيزة » ، متضمّنة في أقدم الكتابات الهيروغليفية المصرية القديمة ، و يرجع تاريخها الى نحو سنة 3000 ق م ، وهي الآن معروضة في متحف القاهرة . وبعض هذه الأحرف منقوش أيضًا بالهيروغليفية على «حجر رشيد» (Pierre de Rosette) ، الذي يرجع تاريخه الى سنة 196 ق م ، والمعروض حاليًا في المتحف البريطاني بلندن . ويقترح بعض العلماء ان الأحرف البونية البدائية ، قد تطوّرت من الهيروغليفية نفسها . فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يجعل هذه الأحرف الأقدم بين تلك التي لا تزال مستخدمة في أي مكان في العالم . هذا لأن الكتابة الصينية لم تظهر إلاّ نحو عام 1400 ق م ، كما أن العبرانية و العربية ، اللتين منهما تحدّرت سائر أبجديات لغات الشرق الأوسط ، ظهرت بعد هذا التاريخ .

إن النقوش و الكتابات التي تستعمل الأبجدية الليبية ، قد وُجدت بوفرة في جميع أنحاء إفريقيا الشمالية : في تونس ، و في الجزء الشمالي الشرقي من الجزائر ، و في السهول الغربية للمغرب ، كذلك بالقرب من طنجة ، و في الصحراء الشرقية لموريتانيا . إن الصعوبة الرئيسة تكمن في تحديد تواريخ هذه الآثار . إن أول نقش تمّت معرفة تاريخه بشكل يقيني ، عُثر عليه في هيكل دُقّة (Dougga) بتونس ، و هو يخصّ الملك الأمازيغي ماسينيسا ، و قد قدّمه له ابنه في العام 138 ق م . إلاّ أن إحدى الجرار المحتوية على عظام ، و قد عُثر عليها في تِدّيس (Tiddis) بالجزائر ، تحمل نقشًا ملونًا باللغة الليبية القديمة ، و هي ترجع الى عام 250 ق م ، كما تمّ تحديد ذلك بواسطة الطريقة العلمية « كاربون - 14 » (Carbone14) . وقد وُجدت جرّة أخرى عليها نقوش و كتابات ليبية في جزيرة رَشْقون (Rachgoun) بالجزائر ، و يعود تاريخها بحسب الطريقة العلمية نفسها الى القرن السادس ق .م . ولعلّ جرّة أخرى في ياكور (Yagour) ، في جبال الأطلس الكبير المغربية ، تفوقها بعد في القدم . كذلك عُثر على التيفيناغية ، بصيغتها الحديثة ، محفورة على الفخار في فزّان (Fezzan) بالصحراء ، و ربما يعود تاريخها الى القرن الأول قبل الميلاد وفي تن حنَان (Tin Hinan) في الهقّار (Hoggar) في الجزائر ، نجد نقوشًا تيفيناغية يعود تاريخها الى ما قَبل القَرن الخامس ب م .[13]

وفي بداية القرن العشرين ، كان هذا النوع من الكتابة لا يزال يُستعمل كوشم من قبل النساء في جنوبي المغرب . كذلك كان التوارك من نيجر يكتبون رسائلهم بالتيفيناغية .[14] إلاّ أنه منذ ذلك الوقت يبدو أن هذا الخط قد مات بالكلية تقريبًا . أمّا في أيامنا ، فلا تُستعمل الأبجدية التيفيناغية إلاّ لأغراض عملية ، و ذلك بين أوساط التوارك في الصحراء . كما أن استخدامها حتى بين هؤلاء هو جدّ محدود ، وبشكل رئيس للتعريف بالممتلكات الخاصة ، و الوشم و النقش على الفخار ، و لوضع علامة على الصخور البارزة ، و على القبور في الصحراء .

من الصعب معرفة نسبة السكان المتضلّعين من الكتابة التيفيناغية في العصور القديمة . و يظهر انه كان هناك أقلية صغيرة فقط تقدر على أن تكتبها و تقرأها بطلاقة ، كما أنه

كان من النادر أن يصل أحدهم الى حدّ استخدامها في تأليف المستندات او المخطوطات . و انه لمن دواعي العجب أن تكون هذه الكتابات قد بقيت حتى الآن ، خصوصًا و أنها لم تُستخدم قط لإنجاز أعمال أدبية عظيمة و مؤثّرة ، و لا كانت أيضًا لغة قوم ظافرين و متسلّطين . و عليه ، فمن الغريب ان اللغة الأمازيغية عمّرت أكثر من البونية و اللاتينية ، كما أنها استمرت كلغة حية مكتوبة ، مدة أطول من أية من اللغتين الإنكليزية و الفرنسية . و حتى اللغة العربية ، لم تعد صيغتها المكتوبة تشبه صيغتها المحكيّة .

ان إحدى الأساطير الخرافية في العصر الحديث هو الاعتقاد أن الكتابة ، و المعارف و الحضارة جاءت الى إفريقيا الشمالية بواسطة المسلمين . و ينمو الولد الأمازيغي في هذه الأيام و عنده معرفة مفصّلة بالتاريخ العربي في الوقت الذي يجهل فيه تاريخه الخاصّ . و هكذا نجد كيف ان الكثيرين منهم ليسوا على علم بأن أسلافهم و أجدادهم سبق لهم أن بنوا مجتمعًا متقدّمًا حضاريًا و مزدهرًا في إفريقيا الشمالية ، و ذلك قبل وصول العرب إليها بوقت طويل . إن الأفارقة العظام - ترتوليانوس ، كبريانوس وأغسطينوس فضلاً عن الامبراطور سيفيروس و الملوك أمثال يوبا الثاني - فاقوا العرب البدو كثيراً في المعارف و العلوم ، و في الانجازات الأدبية و الفكرية ، و في المهارات الهندسية ، و في الأنظمة الزراعية ، و في معرفتهم بأديان العالم و فهمها .

إنه لواقع غريب أن يفضّل عدد كبير من الأفارقة الشماليين اليوم ، أن يردّوا أصلهم الى أجانب حديثي العهد ، و ذلك نظراً لجهلهم تراثهم و ماضيهم العريق في منطقة البحر الأبيض المتوسط . هذا ، بالرغم من الحقيقة التاريخية المعروفة أنّ عدداً لا يزيد على 000 200 الى 000 300 عربي كانوا قد استقروا في إفريقيا الشمالية بين ظهرانين 000 000 7 او 000 000 8 امازيغي .[15] ولربما كان ضروريًا أن نعتبر اسم «عربي» كلفظة ذات مضمون ثقافي ورمزي وغير دالة على أصل عرقي حقيقي .

و مع ذلك ، و في وسط هذه الصدمات التاريخية ، و على الرغم من شرذمة الشعب الأمازيغي ، وما يرافق أصلهم و لغتهم من احتقار عظيم ، فإنهم يبقون جنسًا مميزاً و فريداً من نوعه ، و أصحاب تاريخ رائع و عريق . و هم يظهرون اليوم تلك الصلابة في الشخصية التي بها يواجهون الصعوبات ، هذه الصلابة التي باتت العلامة المميزة لهم ، و ذلك منذ أقدم العصور .

لقد أنجب الأمازيغيون جمعًا غفيراً من الرجال و النساء المشهورين : فتركوا بصماتهم على التاريخ و أثّروا في مسار الأحداث ، ليس فقط في إفريقيا الشمالية ، بل أيضًا في محيط البحر الأبيض المتوسط و اوروبا و العالم أجمع . أعظم الأمازيغيين ، و لا شك ، كانوا اولئك المسيحيين الذين تمكنوا في ساعة التحدّي من أن يربحوا ، بكلماتهم الشجاعة ، الآلاف من الناس الى طريق الحياة ، والذين قدروا بواسطة كتاباتهم المجيدة على أن يؤثروا في جميع الأجيال التالية ، الذين كانت محبّتهم ولطفهم وأمانتهم أمثلة رائعة لكل أحفادهم إنهم يقفون في الصف الأول ، معروفين و مكرّمين في كل مكان .

ولعلّ ولاءهم هو الذي يضرب على أعذب وتر في أيامنا هذه - ذلك الولاء الذي يتميّز به كل واحد من أفراد سلالتهم - ولاؤهم بعضهم لبعض ، و لمخلّصهم ولمبادئهم الأخلاقية . حب مكرّس جمعهم و ملأ قلوبهم بالرجاء . لم يكونوا يهابون شيئًا أو يخجلون من شيء . و قد رفضوا ان يُستعبدوا لأي كان أو لأي شيء كان . كانت أيديهم تقبض برخاوة على كل شيء ، فيتمتّعون بما هو متوافر عندهم ، مع استعدادهم التام في أي وقت للتخلّي عنه . لم يزد تمسّكهم بالحياة على تمسكهم ببيوتهم أو ببساتينهم . و لم يتردّدوا قط في بذر بذرة أرضية كيما يجنوا حصاداً سماويًا خالداً .

ملاحظات

1- يُعرف الأمازيغيون بأسماء أخرى في بعض المناطق المعيّنة : إشْلْحينْ (شلوح) في جنوبي المغرب ، إريفينْ (روافة أو ريافة) في شمالي المغرب ، إقْبيلْنْ (قبائليون أي Kabyles) في الجزائر ، توارِكْ (Touareg) في الصحراء . كما أن تسميات مختلفة تُطلق على اللهجات المحلية للغتهم : تَشْلْحيت (Tachelhayt) أو تَسُوسِيْت (Tasousit) في جنوبي المغرب ، تَرِيفيت (Tarifit) في شمالي المغرب ، تَقْبَلِيّتْ (Kabyle) في الجزائر ، تَمَاشك (Tamachek) في الصحراء .

Hart p. 342 -2

Camps pp. 41 - 44 -3

Coon p. 409; Camps pp. 257 - 258 -4

ed. Camps *Encyclopédie Berbère* pp. 562 ff -5

6- المقدمة 3 , 9 . بإمكانك أن تجد في الفصل الثاني ، بعض الصيغ المتنوعة للاسم «ياكوش» .

7- Norris pp. 6, 95, 101 -3 ; Cooley pp. 86 - 7 اقتبسها من المؤرخ العربي البكري الذي عاش في القرن الحادي عشر .

Norris p. 228 -8

9- يشير أغلب المثقفين العرب الى اللغة العربية المحكية في إفريقيا الشمالية بالعبارة « اللغة الدارجة » ؛ و على هذا الأساس يحصرون استخدام العبارة « العربية » بالنسبة الى اللغة في صيغتها الكلاسيكية . و بالشكل نفسه يرفض علماء المسلمين الممارسات العائدة الى مذهب حيوية المادة بالإضافة الى العقائد الخرافية .

10- راجع Diakonoff ؛ و أيضًا المقال : *Apparentement (de la langue Berbère)* (ed. Camps *Encyclopédie Berbère* pp. 812 ff)

Hanouz p. 26 -11

12- إن الألفباء التيفيناغية تنتمي بكل وضوح الى المجموعة الأبجدية نفسها التي تضمّ ايضًا كلّ من اللغتين البونية واليونانية ، أكثر ممّا تنتمي الى أية من اللغتين العربية أو الإثيوبية . لكن بما أن فن الكتابة لم يُطوّر في إفريقيا الشمالية إلاّ بعد أن كان الأمازيغيون قد عاشوا هناك على مدى آلاف السنين ، فإن استخدام ألفباء معتمدة على أحرف أوروبية لا تحلّ اللغز بشأن مسألة أصل الأمازيغيين أنفسهم .

Camps pp. 275 - 279 -13

Campbell pp. 17, 99 -14

Camps pp. 14, 137, 187; Guernier p. 142; Meakin pp. 32 - 33 -15

الملحق الثاني

قـوانين الإيمـان

خلاصة عقائد الايمان عند ترتوليانوس (نحو سنة 230 م)[1]

نؤمن بإله واحد . . . الذي عنده الابـن ، كلمتـه ، المنبثـق مـن ذاتـه ، الذي بـه كـان كل شـيء ، و بغيره لم يكن شيء مما كان . لقد أرسله الآب الى أحشاء عـذراء ، فولِد منهـاو كـان انسانيًا وإلهيًا في الوقت نفسه - فهو ابن الانسان ، و ابن الله - و قد دُعي يسوع المسيح . تألّم ومات و دُفن بحسب الكتب . ثم أقامه اللـه الآب مـن الأموات ، و أصعده مجددًا الى السمـاء حيث يجلس عـن يمين الآب . و ايضًا سيأتي ليحكم على الأحياء و الأموات . و بحسب وعده ، أرسل لنا أيضًا من السماء من عند الآب الروح القدس ، البارقليط ، الذي يقدّس إيمان اولئك الذين يؤمنون بالآب و الابن و الروح القدس .

قانون الايمان الذي صدر عن المؤتمر الذي انعقد في نيقيا (عام 325 م) [2]

نؤمن بإلـه واحـد آب قادر على كل شيء ، خالـقِ كل ما يُرى و ما لا يُرى ؛
و بربّ واحد يسوع المسيح ، ابن الله ، المولود الوحيد من ماهية الآب ،
إله من الإله و نور من النور ، إله حقيقي من الإله حق .
مولود غير مخلوق ، ذو جوهر واحد مع الآب ،
الذي به كان كل شيء ، فيه خلق الكّل ما في السماوات و ما على الارض
الذي من أجلنا نحن البشر و من أجل خلاصنا
نزل من السماء و تجسّد ، و صار إنسانًا .
تألم و قام أيضًا في اليوم الثالث ؛ و صعد الى السماء .
وسيأتي ليدين الأحياء و الأموات .
و نؤمن بالروح القدس .

قانون « الرسل » [3] (نحو سنة 750 م ، مع أن قوانين أخرى تحتوي على كلمات شبيهة يرجع عهدها الى نحو سنة 400 م .)

أنا أُومن بالله الآب الضابط الكلّ خالق السماء والأرض . وبربّنا يسوع المسيح ابنه الوحيد . الذي حُبِل به بالروح القدس . ووُلد من مريم العذراء . وتألّم على عهد بيلاطس البنطيّ وصُلب ومات وقُبر ونزل الى الهاوية . وقام أيضًا في اليوم الثالث من بين الأموات . وصعد الى السماء وهو جالسٌ عن يمين الله الآب الضابط الكلّ . وسيأتي من هنالك ليدين الأحياء والأموات .

وأُومن بالروح القدس . وبالكنيسة المقدّسة الجامعة . وبشركة القدّيسين . وبمغفرة الخطايا . وبقيامة الموتى . وبالحياة الأبدية . آمين

ملاحظات

1- من 2 *Adversus Praxean*

2- Bettenson *DOTCC* p. 25 ؛ Schaff *HOTCC* Vol. II p. 537 . لقد تمّ في ما بعد تنقيح قانون الإيمان النيقوي . و هذه الصيغة المنقّحة باتت معروفة تحت اسم القانون النيقوي .

3- Schaff *HOTCC* Vol. II p. 536

الملحق الثالث

علم الله السابق و حرية الإنسان

إن معظم المسيحين الإنجيليين في أيامنا ، يدينون بالموقف الشبه - پلاجي (demi - Pélagien) كما يظهر بشكل أو بآخر . انهم يؤمنون بأنه لا حدود لنعمة اللّه و لفداء المسيح ، إنْ لجهة مداهما أو قيمتهما ، كما أنهما ليسا بأي شكل من الأشكال حكراً على قلة من الناس مختارة دون سواها . انهم في معرض جوابهم عن السؤال : لماذا اذًا لا يخلص جميع الناس؟ يعتبرون ان العائق في سبيل تحقيق خلاص يشمل الجميع ، يجب ان يكمن في الإنسان وليس في اللّه ، ليس في اللّه المحبّ الذي يريد أن جميع الناس يخلصون ، بل في الناس العنيدين الذين لا رغبة عندهم في اختيار الخلاص .

انهم يعرضون ما يلي كبديل لنظام اغسطينوس :

1- الله يريد خلاص الجميع ، و قد دبّر لأجل هذا الأمر

الله هو كائن مطلق و غير محدود ، و بالتالي فإن محبته و نعمته غير محدودتين : انه يرغب في أن يحصل جميع الناس ، في كل مكان ، على الحياة الأبدية . و يصرّح لنا الكتاب المقدس بأنه تعالى لا يشاء أن يهلك أناس . لقد أرسل ابنه المتجسّد لأجل الجميع .[1]

إن فداء المسيح هو فداء غير محدود . ان ابن اللّه اللامتناهي في كماله و في قداسته ، في موته كل الكفاية لمحو خطايا جميع بني البشر في جميع العصور و الأزمنة .[2]

2- اللّه الرؤوف يُعلن نفسه لكل انسان

بنعمته غير المحدودة و اللامتناهية ، [3] يعلن الله نفسه بمحبة لكل انسان لكي يكون للجميع رجاء طلبه و إمكانية إيجاده .[4] لقد أعلن اللّه ذاته لكل انسان بطرق ثلاث :

- ان العالم الطبيعي يشهد لقدرة الخالق و لحكمته .[5]

- ان الضمير البشري يُظهر نقاوته الأدبية .[6]

- الروح القدس يحسّس بالخطية و يثبت الحق في قلب الانسان .[7]

إن عظمة نعمة الله تظهر في كونه تعالى يمنح هذه البركات لرجال و نساء ، خطاة و عصاة لا يستحقونها أبداً ؛ هؤلاء الذين لم يكن بوسعهم قط أن يكتشفوا وحدهم وجود اللّه ، أو أن يميّزوا طبيعته . و لا كان بإمكانهم ان يفهموا ، من تلقاء أنفسهم ، طريق الخلاص أو أن يؤمنوا ، بشكل راسخ ، بالمسيح كمخلّص . و لو انهم تُركوا على هواهم ، لما رغبوا حتى في ذلك .[8]

3- اللّه منح الإنسان الحرية لقبول الخلاص أو رفضه

لقد خلق اللّه الإنسان على صورته ، صاحب إرادة حرّة : إذاً للإنسان ملء الحرية في أن يتجاوب مع نعمة الله أو أن يرفضها .[9] إن مقاومة نعمة الله باستمرار لا بدّ من أن تؤول في نهاية المطاف الى الهلاك الأبدي - النتيجة العادلة للاختيار الشخصي الحرّ . لن يستفيد الجميع من الفداء غير المحدود واللامتناهي الذي تممه المسيح ، و ذلك لسبب بسيط : ليس الجميع يريدون هذا الخلاص .[10]

أمّا التجاوب المستمر مع نعمة اللّه ، فسيقود الإنسان بالمقابل الى الايمان بالمسيح و الى الخلاص . جميع الذين يريدون ان يخلصوا ، بإمكانهم ان يخلصوا .[11] كما انه بوسعهم ايضاً ان ينعموا بملء اليقين بأنهم قد خلصوا فعلاً .[12]

* * * * * * * * * * * * * * *

أغلب أصحاب هذا الموقف اللاهوتي يقبلون أن علم الله بكل شيء يجب أن يمتد الى معرفة مَن من الأفراد سيخلصون . لكن لا ينبغي أن نخلط العلم المسبق مع عقيدة التعيين المسبق بخصوص الهلاك والخلاص .

إلاّ أن النصوص الكتابية التي تشير الى التعيين الإلهي المسبق ، عندما ننظر إليها في ضوء قرائنها ، نلاحظ انها تتعلق لا بالمصير الأبدي المحتوم لأفراد معيّنين ، بل بخطة الله للكنيسة ككل ،[13] أو باختيار الله لأفراد من أجل تتميم خدمة أرضية محدّدة ،[14] أو الى الدور المقرّر مسبقًا لأمم معيّنة كإسرائيل ، أو أدوم أو مصر بحسب مقاصد الله لهذا العالم .[15]

الله قد قضى ، و بكل تأكيد ، بأن مجموعة من الناس ستؤمن و تخلص ، لكنه يسمح لكل فرد أن يختار بكل حرية بأن يكون أو لا يكون من ضمن هذه المجموعة . الله يعلم مَن من الرجال و النساء يذهبون الى السماء ، و مَن يذهبون الى الجحيم ، لكنه لا يقرر خلاص أي واحدَ منهم أو هلاكه . هم الذين يقرّرون .

كيف إذاً ، يترسّخ الإيمان في قلب الإنسان الخاطي ؟ الله في رحمته اللامتناهية يعلن الحق بمحبة لكل واحد منا ، و ذلك مع اننا لا نستحق أبداً محبة الله ، و لا حق لنا بالمطالبة بالغفران . و على قدر ما نتجاوب مع الحق الذي يظهره لنا تعالى ، يُعلن لنا المزيد بعد . هكذا ، ومن خلال إعلانه المتزايد وتجاوبنا النامي ، يتأصّل الإيمان فينا تدريجيًا ، الى أن نضع ثقتنا بشكل كامل في المسيح كمخلّص ورب . إن مسؤوليتنا لا تعدو أن تكون استقبال ما يمنحه لنا الله .

إن الايمان عطية متوفرة لكل انسان . إنها ثمرة نعمة الله الشاملة و استجابة الفرد لتلك النعمة . فالحياة الأبدية و غفران الخطايا ، و قداسة الشخصية هي بركات إلهية لا يمكن الحصول عليها بالاستحقاق أو كسبها بواسطة مناقبنا الأخلاقية و الروحية التي اكتسبناها بمجهودنا ، أو أعمالنا الحسية او ذكائنا .

و كل ما يمكننا فعله هو أن نقبل عطايا الله بتواضع و شكر . مَثَلُنا في ذلك مَثَلْ المتسول الذي لا يدَّعي استحقاقه للخبز الذي يُعطي له عند باب الملك . و رغم ذلك ، عليه أن يذهب الى الباب مستعملاً القوة التي منحها الله له . كما يجب عليه أن يمدّ يده ليتلقى ما أُعطي له ، واثقًا بأن الملك سيعطي له ما وعده به .

> « لأنكم بالنعمة مخلّصون بالإيمان و ذلك ليس منكم . هو عطية الله . ليس من أعمال كيلا لا يفتخر أحد . » « فشكراً لله على عطيته التي لا يُعبّر عنها . » 16

ملاحظة : انه لمن المستحيل هنا أن نعالج موضوعًا عميقًا و شائكًا كهذا ، و نحيط به من كل جوانبه . هذا الموضوع الذي قد يوافق الرجال الصالحون على الاختلاف حوله .

للحصول على بحث كتابي بشأن الموقف الشبه - پلاجي ، رجاء مراجعة

Forster and Marston *God's Stategy in Human History* (STL, 1973)

و بشأن الموقف الأغسطيني / الكالفيني :

Pink *The Sovereignty of God* (Banner of Truth, 1928)

ملاحظات

1- 2 بطرس 9:3 ؛ 1 تيموثاوس 4:2 ؛ حزقيال 11:33 ؛ يوحنا 16:3

2- 1 تيموثاوس 6:2 ؛ عبرانيين 9:2 ؛ 27:7 ؛ ١ يوحنا 2:2

3- تيطس 11:2-12 ؛ يوحنا 9:1

4- أعمال 24:17 -28 ؛ يوحنا 32:12

5- رومية 19:1 و 20 ؛ أعمال 16:14 و 17

6- رومية 15:2

7- يوحنا 8:16 - 11

إن أوضح إعلان إلهي على الإطلاق هو الموجود طبعًا في الكتب المقدسة الموحى به (2 تيموثاوس16:3) . ان هذا الإعلان الحرفي المحدّد سيكون مقبولاً بسهولة عند الذين سبق لهم أن تجاوبوا مع إعلان الله الكوني و غير الملفوظ (رومية 9:10 - 20) . هؤلاء القوم « المستعدون » يقبلون رسالة الإنجيل بفرح ، كما فعل كرنيليوس وأصدقاؤه الأمميون في قيصرية (أعمال 10) .

و كثيرًا ما يضيف الله الى هذا الإعلان الشامل إعلانات خاصة ، فقد أعلن الله عن نفسه في التاريخ لشعوب وأفراد خاصين ، بواسطة خدمة انبيائه ، و بواسطة المسيح المتجسّد و رسله ، و بواسطة اجيال من شهوده الأمناء الذين حملوا الإنجيل الى أقاصي الارض .

8- 1 كورنثوس 14:2 ؛ أفسس 1:2 - 5

9- متى 37:23 ؛ لوقا 30:7 ؛ غلاطية 4:5 ؛ عبرانيين 15:12

10- متى 41:25 - 46 ؛ يهوذا 14 و 15 ؛ رومية 2:2 ، 5-11 ؛ عبرانيين 26:10-29

11- متى 28:11 ؛ يوحنا 37:7 ؛ 27:10 و 28 ؛ رؤيا 17:22

12- 1 يوحنا 10:5 - 13 ؛ يوحنا 24:5

13- رومية 28:8 - 30 ؛ أفسس 3:1 - 14 ؛ 1 بطرس 1:1 و 2

14- ارميا 5:1 ؛ غلاطية 15:1 و 16 ؛ نحميا 7:9 ؛ المزمور 70:78 و 71 ، 23:106 ؛ لوقا 13:6 ؛ يوحنا 70:6

15- رومية 10:9 - 33 ؛ 2:11 - 6 ؛ 1 اخبار 4:28

16- أفسس 8:2 و 9 ؛ 2 كورنثوس 15:9

الملحق الرابع

اسم يسوع

يسوع هو اسم له معنى . يخبرنا الكتاب المقدس أنّ اسم ربنا هو أرفع قدراً من الملائكة ؛ [1] إن اسمه هو « فوق كل اسم . » [2] عندما أُرسل رئيس الملائكة جبرائيل لإذاعة خبر مجيء الطفل الإلهي ، نقل لمريم و ليوسف الاسم المعطى من الله للمسيح ، كما فسّر بالتحديد ما هو معناه : «و تدعو اسمه يسوع لأنه يخلّص شعبه من خطاياهم .»[3] و بما ان هذا الطفل هو كلمة الله ، كان من الضروري ان يتكلّم اسمه و يعبّر لنا بشكل رائع عن الهدف الإلهي من مجيئه .

من الواضح ان جبرائيل تحدّث الى مريم و يوسف باللغة الأرامية ، و هي العبرية الدارجة ، كما يُرجّح أنه بواسطة هذه اللغة ، جرت ، لأول مرّة ، الكرازة بالمسيح في القرن الأول . إن مثل هذا الاستخدام المسيحي للأرامية في وقت مبكر ، له نتائجه ، كما سنرى ، لأنها تشبه العربية في كونها لغة سامية ايضًا .

إلاّ أن الرسل سرعان ما اكتشفوا أن اليونانية ، ثم في وقت لاحق اللاتينية ، كانتا تُفهمان على نطاق أوسع – لذا قادهم الروح القدس الى كتابة الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، باللغة اليونانية – وهكذا ، بواسطة هاتين اللغتين الكلاسيكيتين ، تمكّن معظم سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط ، بمن فيهم أمازيغيو إفريقيا الشمالية ، ان يسمعوا بشارة الإنجيل لأول مرة .

كان كلّ من الأفارقة و الأوروبيين يواجهون صعوبة بالغة في لفظ اسم ربنا باللغة الأرامية : يشوع . و بما ان اللغتين اليونانية و اللاتينية تفتقران الى اللفظة ش ، استعاضا منها باللفظة س . كذلك فإن هاتين اللغتين تفتقران ايضًا في ابجديتهما الى ما يوازي الحرف الصامت السامي ع ، الذي يقع في آخر اسم ربنا . كما انهما تتميّزان بخاصة أخرى : على الأسماء المذكّرة بشكل عام أن تنتهي باللفظة **os** – (بالنسبة الى اليونانية) ، او باللفظة **us** – (بالنسبة الى اللاتينية) . [4]

و هذا يفسّر إشارة الرسل ، الذين يتحدّثون اليونانية ، الى المسيح بالعبارة يسوس .[5] كذلك ، فالذين يتكلمون اللاتينية لفظوا هذا الاسم بالطريقة عينها ، و كتبوه على الشكل التالي **Jesus** . (الحرف اللاتيني **J** يوازي اللفظة **y**) كان هذا ، في الواقع ، أقرب ما توصّلت إليه هاتين اللغتين من الصيغة الأصلية للاسم باللغة الأرامية ، بعد إضافة اللاحقة (suffixe) إليها و التي يفرضها علم الصرف و النحو لكل لغة . [6]

إذاً يبدو أن العبارة المكتوبة ، Jesus ، و الملفوظة يسوس ، كانت هي التسمية التي بها عرف ربهم كل من ترتوليانوس و كبريانوس و أغسطينوس ، بالإضافة الى سائر المسيحيين الأولين من الأفارقة . كما أن الدوناتيين و سواهم من الذين استخدموا اللغة الأمازيغية للتبشير و العبادة ، كانوا ، على ما تأكّد ، يلفظونها بالطريقة نفسها : فالإنجيل وصل إليهم عبر اللاتينية ، كما ان اللهجات الأمازيغية لم تكن في الأصل تحتوي على الحرف الأرامي او العربي ع .

ان الاسم عيسى ، ادخله المسلمون الى إفريقيا الشمالية ، و ذلك ابتداء من القرن السابع . و قبل محمد ، لم يكن يوجد أي أثر لهذا الاسم في أي جزء من العالم ؛ كما انه لا توجد أية إشارة على الاطلاق الى أصله أو الى معناه : و لذلك يبدو ان محمداً هو أول من استعمل هذا الاسم . لقد اعتبر بعضهم أن عيسى هو تشويه عرضي للاسم يشوع ، لكن لا توجد أية دلائل على أن أحداً آخر غير محمد قد يكون أحدث هذا التشويه في الاسم . ان العبارة عيسى تبدو لأول وهلة مشابهة للاسم الأساس للمسيح . فهو عند كتابته يحتوي على الحروف نفسها تقريبًا . لكنها مبعثرة ، و الى حدّ ما معكوسة ، حتى إنها صارت تؤلّف في اللغة العربية جذراً مختلفًا تمامًا . و بحسب قواعد اللغة العربية ، لا يوجد أي تجانس صرفي بين الكلمتين عيسى ويشوع .

إن سبب اعتماد محمد هذا الاسم أمرٌ غير واضح ، خصوصًا و انه كان هناك العديد من المسيحيين الذين يتكلّمون الأرامية في الجزيرة العربية و في سوريا حيث عاش محمد و تنقّل في شبابه . كانت الأرامية هي اللغة الرائجة في ذلك الحين ، او انها كانت لغة المعاملات التجارية في كل من فلسطين والجزيرة العربية ، و استمرت كذلك بعد موت محمد بوقت طويل . وفي أيام محمد ، كانت الجماعات المسيحية العربية شديدة الرسوخ بإيمانها و واسعة الانتشار ، و هذا الأمر مدعوم بوثائق بيّنات . لقد شبّ محمد وثنيًا ، لكنه معروف عنه انه كانت له ، في ما بعد علاقة مع مسيحيين من اثيوبيا ، حتى إنه كان يملك جارية من المسيحيين الأقباط . كان باستطاعة المسيحيين حواليه ان ينقلوا إليه الاسم الحقيقي ليسوع كما كان معروفًا و مستخدمًا في كل أنحاء الشرق الأدنى .[7]

فالإنجيل ، في الواقع ، وصل الى شبه الجزيرة العربية في وقت مبكر جداً . لقد سمع الزائرون من الجزيرة العربية البشارة التي قدّمها بطرس في يوم الخمسين في اورشليم و التي أعلنت بداية الكنيسة المسيحية ، كما انهم كانوا ، على الأرجح ، في عداد الثلاثة الآلاف الذين آمنوا في ذلك الحين .[8] لم يكن المسيحيون العرب ، في أي وقت من الأوقات ، معزولين عن التقاليد الرسولية المتّبعة عند إخوتهم في انطاكية و دمشق و الإسكندرية . وعندما أراد شاول الطرسوسي ، الذي كان قد اهتدى حديثًا الى المسيحية ، ان يفكّر أو أن يصلّي ، انطلق

الى الجزيرة العربية التي كانت قريبة .[9] كما أن اوريجانوس سافر أكثر من مرة نحو العام 250 م ، و انتقل من قيصرية على شاطئ فلسطين ، متوجّهًا الى شمال الجزيرة العربية ، و ذلك في سبيل مساعدة القادة المسيحيين العرب على معالجة بعض المسائل الطارئة عندهم و على حلّها . كما أن نظّاراً عربًا كانوا حاضرين في مؤتمري نيقيا (325 م) ، و أورشليم (335 م) .[10]

في أيامنا ، لا تزال الكنائس العربية المزدهرة في عدة أماكن ، تحتفظ بالإيمان الرسولي وبالاسم الحقيقي للمسيح . لقد ظل المسيحيون العرب على مدى فترة ست مئة سنة قبل محمد ، يطلقون على مخلّصهم الاسم يشوع أو يسوع .[11] و بقوا كذلك على طول الألف والأربع مئة سنة التالية .

و إذ لاحظ المسيحيون العرب أنه كان يصعب على الكثيرين أن يلفظوا الاسم الأرامي ليسوع ، حذوا حذو الرسل في اتصالاتهم بالعالم الواسع ، فاستخدموا العبارة يسوس للإشارة الى يسوع باليونانية واللاتينية ، كما استخدموا التسمية **Jésus** في الأزمنة الحديثة أيضًا . من أجل هذا ، نجد أن ترجمات عصرية عديدة للعهد الجديد تستخدم اللاحقة **ous** - من النص اليوناني المكتوب ، بينما تفضّل ترجمات أخرى العودة الى حرف ع من الأرامية المحكية . و هذا الاختيار يتعلق الى حدّ كبير بكون اللغة تحتوي ، أم لا ، على الحرف ع . اننا نجد في كل من **Jésus** الفرنسية ، و يسوع العربية خير تعبير صحيح عن اسم المسيح . فأحدهما يتبع الاسم المكتوب الذي أطلقه عليه الرسل ؛ بينما الآخر يشير الى التسمية التي تفوّه بها الملاك ، بالإضافة الى جماعة التلاميذ الأولين .

ملاحظات

1- عبرانيين 4:1

2- فيلبي 9:2

3- لوقا 31:1 ؛متى 21:1 . يشوع هي اللفظة المرخّمة للاسم العبراني الكلاسيكي يهوشوع بمعنى « يهوه يخلّص» .

4- من هنا نجد في الكتاب المقدس اسماء يونانية من نحو بولس (Paulos) ، بطرس (Petros) ، واستفانوس (Stephanos) ، وايضًا اسماء لاتينية مثل ماركوس (Marcus) ، اغسطوس (Augustus) ويوليوس (Julius) .

5- أو بحسب بعض العلماء ، يَسوس (Yassous) أو حتى أيضًا يِيْسوس (Yaïssous) .

6- في القرن الأول ، كان الحرف اللاتيني J ينطق ي ، و بمرور القرون في بعض الاماكن ، تغير تدريجيًا الى ج . و بما أن الكتابة اللاتينية كانت تُستعمل في الترجمات الاوربية للكتاب المقدس ، أصبح القراء متعودين على نطق الإسم هكذا : جيسوس أو جيزو .

كذلك ، يوجد أيضًا كلمات أخرى مـن أصـل لاتيني مثل :

(Jérusalem, Jean, Jacques, Janvier, Juin, juste)

و جميعها كانت في الأساس تبدأ باللفظة ي .

7- Trimingham (عدة اقتباسات) ؛ ed. Brockelmann pp. 10 - 11, 14

8- أعمال 11:2

9- غلاطية 17:1

10- Eusebius, *Historia Ecclesia* VI . 33,37; *Vita Constantini,* 7, 43 (*NAPNF* Vol. 1)

11- كانت و لا تزال بعض الاختلافات الطفيفة في اللفظ في أنحاء متعددة من الشرق الأوسط . اننا نفهم من قضاة 6:12 كيف أن العبارة شبّولت كانت تُلفظ سبّولت في بعض الأماكن . لقد كان من الصعب على الأفراميين ان ينطقوا الصوت ش . إن الأمر عينه ينطبق ايضًا على اسم يسوع . فبعض الناس يدعونه يشوع ، و بعضهم الآخر يدعونه يسوع ، و كلاهما صحيحان .

إن الآيات التالية تظهر أية قيمة عظيمة يعطيها الكتاب المقدس لاسم المخلّص :

متّى 20:18 ؛ يوحنا 18:3 ؛ اعمال 12:4 ؛ كولوسي 17:3 ؛ 1 بطرس 14:4 ؛ 1 يوحنا 23:3 ؛ رؤيا 13:2 ؛ 8:3 .

اسئلة للبحث و النقاش

ان الآيات الكتابية المدرجة بين قوسين ، تكمّل تلك المذكورة في نص الكتاب

الجزء الأول : الثمار الأولى

* برأيك ، هل كانت بربيتوا على حقّ في بذلها حياتها ، و ذلك على الرغم من توسّلات أبيها و احتياجات طفلها إليها ؟ (متى 37:10 - 39 ؛ اعمال 18:4 - 20) .

*أي تعليم قد تعرض على مسيحي يعيش في خوف من الشياطين ، و العين الشريرة أو السحر الذي قد يقع عليه بواسطة آخرين ؟ (مرقس 25:1 - 27 ؛ أعمال 18:16 ؛ 1 كورنثوس 16:3 و 17 ؛ 1 يوحنا 4:4 ، 18) .

*ماذا تقول لمن يدّعي بأنه مسيحي لكنه يحمل عليه تعاويذ ، و يتبع خرافات باطلة قديمة ، أو يمارس خطايا جنسية أو يسكر ؟ (اعمال 18:19 - 20 ؛ 1 كورنثوس 18:10 - 22 ؛ 2 كورنثوس 16:6 - 1:7 ؛ رومية 18:1 - 32 ؛ أفسس 3:5 - 20) .

الجزء الثاني : عصر ترتوليانوس

* في أيامنا هذه ، أية أشغال او حرف او مهن قد لا تلائم المسيحي ؟ (غلاطية 7:6 و 8 ؛ 1 تيموثاوس 24:5 و 25 ؛ 6:6 - 12 ؛ 1 بطرس 10:3 - 16 ؛ 2 بطرس 17:3 و 18)

* هل على المسيحيين أن يعنوا بمسائل اجتماعية تتعلّق بعدم المساواة بين الناس ؟ هل على المسيحيين أن يكون لهم أية روابط بالأحزاب السياسية ؟ (يوحنا 36:18 ؛ 1 كورنثوس 20:7 - 24)

* برأيك ، هل يجوز للمسيحيين ان ينخرطوا في الجيش ، أو في أية قوى عسكرية أخرى ؟ أعرض الأسباب الموجبة . (يوحنا 36:18 ؛ متّى 39:5 - 44 ؛ راجع الفصل الخامس)

* برأيك ، هل كان ترتوليانوس على حق في انضمامه الى المونتانيين ؟ هل كان على حق في تركهم ؟ على أي أساس ، قد تنفصل أنت شخصيًا عن مجموعة يُفترض فيها أن تكون مسيحية ؟ (متّى 4:24 و 5 ، 23 - 25 ؛ 1 تيموثاوس 1:4 - 5 ؛ 3 يوحنا 9 - 11 ؛ راجع الفصل السابع)

* هل يجوز أن تُطلق على كنيستنا التسمية « رسولية » ؟ إن كان نعم ، لماذا ؟ كيف بإمكاننا أن نضمن أنها ستبقى و تستمر « رسولية » ؟ (2 تيموثاوس 11:1 - 14 ؛ 10:3 - 5:4 ؛ راجع الفصل الثامن)

* كيف علينا أن نستجيب للسلطات التي تريدنا أن ننكر المسيح ؟ (1 بطرس 13:3 - 18 ؛ 12:4 - 19 ؛ أعمال 18:4 - 21 ؛ 40:5 - 42 ؛ رومية 17:12 - 21 ؛ 1 تيموثاوس 1:2 - 7 ؛ 1 بطرس 13:2 - 25)

* كيف نشجّع اولئك الذين يعانون الاضطهاد من أجل إيمانهم ؟ (رومية 28:8 - 39 ؛ فيلبي 12:1 - 30 ؛ 1 تسالونيكي 1:2 - 20 ؛ 2 تيموثاوس 8:2 - 13)

الجزء الثالث : عصر كبريانوس

* أية أصناف من الناس المحتاجين يعيشون حوالينا ؟ هل بإمكانك أن تفكر في بعض الطرق و الأساليب لمساعدة المحتاجين ؟ (يعقوب 27:1 ؛ 14:2 - 17)

* كيف نذيع بشارة الإنجيل في كل أنحاء بلادنا ؟ كيف نستطيع أن نساعد الناس على الإيمان بالمسيح؟ (2 كورنثوس 1:4 - 6 ؛ رومية 11:1 - 17 ؛ 13:10 - 17 ؛ 20:15 ؛ أعمال 1:13 - 3 ؛ 1 كورنثوس 19:9 - 23)

* كيف نعيّن قادة في كنائسنا ؟ أي صنف من الناس نقدر أن نأتمنهم على المسؤولية الروحية ؟

(أعمال 3:6 ؛ 1 تيموثاوس 1:3 - 13)

* كيف ينبغي على القادة الروحيين أن ينظروا الى مسؤولياتهم ؟ أية نظرة يجب أن تكون عند المسيحيين من نحو الشيوخ في كنائسهم المحلية ؟ (عبرانيين 13:7 ,17 ؛ 1 بطرس 1:5 - 5)

* كيف نشجّع كل واحد على المشاركة في عبادة الكنيسة و شركتها ؟ هل يوجد ما يستطيع كل واحد منّا أن يساهم به ؟ (رومية 12:3 - 8 ؛ 15:13 و 14 ؛ 1 تسالونيكي 4:9 و 10 ؛ عبرانيين 3:12 و13 ؛ 10:24 و 25)

* كيف على المثقّفين و غير المثقّفين ، الأغنياء و الفقراء ، أن يختلطوا معًا ضمن الكنيسة المحلية ؟ (رومية 12:1 - 3 ، 9 و 10 ، 16 ؛ يعقوب 1:2 - 10)

* كيف نجعل المؤمنين المثقّفين و المشهورين (امثال أرنوبيوس) يندمجون في الكنيسة ، في الوقت الذي لا يعرفون إلاّ الشيء القليل من التعليم المسيحي ؟ (أعمال 9:26 - 28)

الجزء الرابع : عصر أغسطينوس

* كيف نمارس التأديب في وسط الكنيسة ؟ ما العمل في حال سقط أحد المؤمنين المشهورين جداً في خطية شنيعة ؟ (يعقوب 5:19 و 20 ؛ غلاطية 6:1 ؛ 1 كورنثوس 5:9 - 13)

* ما العمل في حال قام أحدهم بإدخال عقيدة جديدة معيّنة الى الكنيسة ؟ (رومية 14:1 - 23 ؛ 2 تيموثاوس 2:14 - 19 ، 23 - 26 ؛1 يوحنا 4:1 - 6)

* ما العمل في حال أصرّ أحدهم على تعليم عقائد مغلوطة ؟ (رومية 16:17 - 20 ؛ 2 يوحنا 7 - 11 ؛ غلاطية 1:6 - 10 ؛ 2 كورنثوس 11:13 - 15 ؛ 1 تيموثاوس 1:3 - 7 ؛ تيطس 3:9 - 11)

* كيف بإمكان ما استظهرناه من آيات كتابية أن يساعدنا في وقت الأزمات ؟ كيف نقدر أن نساعد بعضنا بعضًا على حفظ كلمة الله غيبًا ؟ (يوحنا 14:26 ؛ 2 تيموثاوس 3:16 و 17 ؛ رومية 15:4 ؛ كولوسي 3:16)

* لماذا حُذّر المؤمنون من الزواج بغير المؤمنين ؟ و هل هذه الأسباب تنطبق علينا اليوم نحن ايضًا؟ (2 كورنثوس 6:14 - 18 ؛ راجع الفصل السادس و العشرين)

الجزء الخامس : الحصاد الأخير

* هل يوجد تقاليد في كنائسنا : ممارسات و عادات غير مذكورة في الكتاب المقدس ؟ هل جميع التقاليد هي سيّئة ؟ هل بوسعنا أن نميّز بين تقليد جيّد و تقليد سيّئ ؟ إن كان نعم ، كيف؟ (مرقس 7:9 - 13 ؛ كولوسي 2:8 ؛ 1 كورنثوس 11:1 و 2 ؛ 2 تسالونيكي 2:15 ؛ 3:6 و7)

* أية لغة هي مفهومة و مدركة عند معظم أعضاء الكنيسة ؟ أيّة لغة نستخدمها في اجتماعاتنا : لأجل الصلاة و العبادة و البحث و التعليم ؟ لماذا ؟ هل باستطاعتنا أن نستخدم أكثر من لغة واحدة ؟ هل يجوز أن نعقد اجتماعات مختلفة نستخدم فيها لغات مختلفة ؟ (1كورنثوس 14:7 - 12)

* على عتبة الاستيطان العربي ، فرّ بعض القادة المسيحيين هاربين ، و فرّ معهم ايضًا قوم من المثقّفين . وبذلك خلّفوا وراءهم كنائس ضعيفة للغاية ! هل تعرف مسيحيين يرغبون في الفرار لأجل الاستقرار في أماكن أسهل ؟ هل هم في ذلك على حق ؟ ماذا يليق بهم أن يتذكّروا ؟ (مرقس 14:50 ؛ لوقا 9:23 - 27 ؛ فيلبي 1:21 ؛ نحميا 6:11 . راجع اعمال 13:13 ؛ 15:37 و 38)

* كيف ينبغي على المسيحي أن ينظر الى غاز مسلّح يهدف الى فرض ديانته الجديدة بقوة السلاح ؟ كيف كان يجب على الأمازيغيين المسيحيين أن يستقبلوا العرب ؟ هل كان عليهم أن يستسلموا لهم ، أو يحاربوهم ، أو أن لا يتعاونوا معهم ، فيرفضوا أن يدفعوا لهم الجزية ، أو يزوّدوهم بالطعام . . . الخ ؟ هل كان عليهم أن يدفعوا الجزية ثم يصمدوا ؟ هل كان عليهم أن يقبلوا الإسلام بشكل ظاهري في وقت لا يزالون يؤمنون بالإنجيل سراً ؟ كيف كنت ستتصرّف في ظروف مماثلة لهذه ؟ (مرقس 12:14 - 17 ؛ يوحنا 18:36 ؛ رومية 1:16)

* في حديثنا عن مخلّصنا ، أي اسم له يجب أن نستخدم ؟ لماذا ؟ و بماذا ندعوه عندما نتكلم الى أناس يعرفونه باسم آخر ؟ (متّى 1:21 ؛ لوقا 2:21 ؛ فيلبي 2:9 ؛ متّى 18:20 ؛ يوحنا 3:18 ؛ كولوسي 3:17 ؛ 1 بطرس 4:14 ؛ 1 يوحنا 3:23 ؛ رؤيا 2:13 ؛ 3:8 ؛ راجع الملحق الرابع)

* ما هو الهدف من وجود كنيستنا المحلية ؟ ماذا نحن فاعلون للمساهمة في تنفيذ هذا الهدف؟ (متّى 22:37-39 ؛ 28:19-21 ؛ اعمال 9:31 ؛ 1 كورنثوس 15:58 ؛ 2 كورنثوس 2:14-17 ؛ رومية 15:17-21) .



المراجع البيبليوغرافية

الاختصارات

ed. Roberts & Donaldson, Ante-Nicene Fathers Series (Eerdmans): *ANF*
ed. Schaff, Nicene & Post Nicene Fathers Series (Eerdmans): *NAPNF*
ed. Bettenson, Documents of the Christian Church (OUP): *DOTCC*
ed. Bettenson, The Early Christian Fathers (OUP): *ECF*
Schaff, History of the Christian Church (Eerdmans): *HOTCC*
Augustine, City of God: *COG*

1- إفريقيا الشمالية

أبو ضيف مصطفى أحمد :«تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط» تحقيق للكتاب «نهاية الأدب في فنون الأدب» للنويري (دار النشر المغربية - الدار البيضاء 1985)

AHERDAN *Aguns' N Tillas 'Au Coeur des Ténèbres '* (Rabat 1985)

AKHMISSE Mustapha *Médecine, Magie et Sorcellerie au Maroc* (Casablanca, 1985)

Ali AMAHAN *Abadou de Ghoujdama, Haut Atlas Marocain* (GLECS, Paris, 1983)

Albert AYACHE *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord* (Editions Sociales, Paris, 1964)

Sir Gavin de BEER *Hannibal: The Struggle for Power in the Mediterranean* (Book Club Associates, London, 1969)

ed. Carl BROCKELMANN *History of the Islamic Peoples* (Routledge, London, 1948)

Dugald CAMPBELL *With the Bible in North Africa* (John Ritchie, Kilmarnock, 1944)

Gabriel CAMPS *Berbères aux Marges de l'Histoire* (Editions des Hesperides, 1980)

ed. Gabriel CAMPS *Encyclopédie Berbère* (Edisud, La Calade, 13090 Aix-en-Provence, France, 1984-)

John K. COOLEY *Baal, Christ and Mohammed: Religion &*

Revolution in North Africa (John Murray, UK, 1965; Holt Rinehart & Winston, USA, 1965)

Carleton S. COON *Tribes of the Rif* (Harvard African Studies, 1931) (Kraus Reprint, New York, 1970)

I.M. DIAKONOFF *Semito-Hamitic Languages* (Nauka Publishing House, Moscow, 1965)

FODOR'S GUIDE TO NORTH AFRICA

Jean GABUS *Au Sahara, Arts et Symboles* (Neuchatel, 1958)

Lionel GALAND *Langue et Littérature Berbères* (CNRS, 15 Quai Anatole-France, 75700 PARIS, 1979)

Ernest GELLNER *Muslim Society* (C.U.P., 1981)

Eugene GUERNIER *La Berbérie, L'Islam et la France, Tome I* (Paris, 1950)

S. HANOUZ *Connaissance et Syntaxe du Langage des Berbères* (Klincksieck, Paris, 1968)

Donald HARDEN *The Phoenicians* (Penguin Books, Harmondsworth, 1971)

David M. HART *The Aith-Warayaghar of the Moroccan Rif* (University of Arizona Press,1976)

ابن خلدون - كتاب العبر . . . (دار الكتاب اللبناني 1959)

Charles-André JULIEN *Histoire de l'Afrique du Nord,* Tomes I et II (2eme edition-ed. Courtois / Tourneau, Payot, Paris,1986)

Emile LAOUST *Mots et Choses Berbères* (Société Marocain d'Edition, 1918; reprint Rabat, 1983)

Paul MACKENDRICK *The North African Stones Speak* (Croom Helm, London/Univ. of North Carolina, 1980)

Cyril MANGO *Byzantium - The Empire of the New Rome* (Weidenfield, 1980)

Robert MANTRAN *L'Expansion Musulmane* (VII-XI siècles) (Presses Universitaires de France, 1969)

Budgett MEAKIN *The Moorish Empire* (Swan Sonnenschein, 1899)

Sabatino MOSCATI *The World of the Phoenicians* (Sphere Books, London, 1973)

H.T. NORRIS *The Berbers in Arabic Literature* (Longman, 1982)

OUAHMI Ould-Brahim *Sur Une Chronique Arabo-Berbère des Ibadites Médiévaux* (Etudes et Documents Berbères No. 4, 1988)
Northcote PARKINSON *East and West* (John Murray, London, 1963)
Hassan RACHIK *Sacré et Sacrifice dans le Haut Atlas Marocain* (Afrique-Orient, Casablanca, 1989)
Susan RAVEN *Rome in Africa* (Routledge, 1993)
Jean SERVIER *Tradition et Civilisation Berbères* (Edition du Rocher, Monaco, 1985)
J.S. TRIMINGHAM *Christianity Among the Arabs in PreIslamic Times* (Longman, 1979)
Bat YEOR *The Dhimmi - Jews and Christians Under Islam* (Associated University Presses, 1985)

2 - تاريخ الكنيسة

Roland ALLEN *The Spontaneous Expansion of the Church* (Eerdmans, 1927, 1962)
AUGUSTINE of HIPPO *Confessions of St. Augustine* (trans. PINE-COFFIN, Penguin, 1961)
City of God (trans. BETTENSON, Penguin, 1972)
Roland BAINTON *The Penguin History of Christianity* Vol. I (Penguin, 1967)
T.D. BARNES *Tertullian: A Historical and Literary Study* (Oxford University Press, 1971/1985)
ed. Geoffrey BARRACLOUGH *The Times Concise Atlas of World History* (Times Books, London, 1982)
Herman BAVINCK *The Doctrine of God,* trans. Hendricksen (Eerdmans / Banner of Truth, 1951 / 1977)
ed. H. BETTENSON *Documents of the Christian Church* (O.U.P. 1943)
The Early Christian Fathers (O.U.P. 1956)
The Later Christian Fathers (O.U.P. 1970)
G. BONNER *St. Augustine of Hippo: Life & Controversies* (SCM, 1963)
Peter BROWN *Augustine of Hippo* (Faber, 1967)
F.F. BRUCE *The Spreading Flame* (Paternoster, 1958)

Henry CHADWICK *Augustine* (OUP, 1986)
W.R. CLARK *Saint Augustine* (SPCK, no date)
J.J. COOKSEY *The Land of the Vanished Church* (World Dominion Press, no date)
Arthur C. CUSTANCE *Belief in One God or Many Gods: Which Came First ?* (Doorway Paper No. 34) (Box 291, Brockville, Ontario, Canada, 1968)
How Noah's Three Sons Influenced History (Doorway Paper No. 28)
Louis DELAPORTE *Atlas Historique, Tome I-L'Antiquite* (Paris, 1955)
ed. DUDLEY/LANG *The Penguin Companion to Literature* Vol. IV: *Classical and Byzantine, Oriental and African* (Harmondsworth, 1969)
Mark EDWARDS *Optatus, Against the Donatists* (Liverpool University Press, 1997)
Paul-Albert FEVRIER *Approches du Maghreb Romain, Tome I: Pouvoirs, Différences et Conflits* (Aix-en-Provence, 1989)
Augustine FITZGERALD *The Letters of Synesius of Cyrene* (Oxford U. P., 1926)
F.J. FOAKES-JACKSON *History of the Christian Church to AD 461* (J. Hall & Son, Cambridge, 5th edition 1909)
Roger FORSTER & Paul MARSTON *God's Strategy in Human History* (STL, 1973)
W.H.C. FREND *The Donatist Church* (Clarendon Press, Oxford, 1952)
Martyrdom and Persecution in the Early Church (Blackwell, Oxford, 1965)
Michael GREEN *Evangelism in the Early Church* (Hodder & Stoughton, London, 1970)
A.G. HAMMAN *La Vie Quotidienne en Afrique du Nord au Temps de Saint Augustin* (Hachette, Paris, 1979)
Edward Roche HARDY *Faithful Witnesses - records of Early Christian Martyrs* (Lutterworth, London, 1960)
Adolf HARNACK *Trans. Moffatt - The Mission and Expansion of Christianity in the first three Centuries* (William and Norgate, 1908)
K.S. LATOURETTE *A History of the Expansion of Christianity:*

Vol. I *The First Five Centuries* (Eyre & Spottiswood , 1945)
Vol. II *The Thousand Years of Uncertainty* (Eyre & Spottiswood, 1945)

H. LECLERCQ *L'Afrique Chrétienne,* Tomes I et II (Paris, 1904)

ed. John LEINENWEBER *Letters of Saint Augustine* (Triumph Books, New York, 1992)

Julius LLOYD *The North African Church* (SPCK, 1880)

Paul MONCEAUX *Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne,* Tomes I-VII (Paris, 1901)

John MOORHEAD *Victor of Vita, History of the Vandal Persecution* (Liverpool University Press, 1992)

Herbert MUSURILLO *The Acts of the Christian Martyrs* (Clarendon, Oxford, 1972)

Stephen NEILL *The Pelican History of the Church Vol. VI: A History of Christian Missions* (Penguin, 1964)

Donald L. NORBIE *New Testament Church Organization* (Walterick Publishers, P.O.Box 2216, Kansas City, Kansas 66110, 1977)
The Early Church (Christian Missions Press Inc. P.O.Box 4848. Homosassa Springs, Florida 32647, 1983)

John O'MEARA *Introduction to "AUGUSTINE - The City of God"* (Penguin, 1972)

A. PLUMMER *The Church of the Early Fathers* (Longmans Green & Co, 1891)

E. PORTALIE *A Guide to the Thought of St. Augustine* (1960)

ed. E. PRZYWARA *An Augustine Synthesis* (Harper & Bros., New York, 1958)

Don RICHARDSON *Eternity in Their Hearts* (Regal Books, California, 1981, 1984)

eds. A. ROBERTS & J. DONALDSON *Ante-Nicene Fathers: The Writings of the Fathers down to AD 325,* Vols. I-X (Eerdmans, Grand Rapids / T. & T. Clark, Edinburgh, 1885, reprint 1989/90)

J.C. ROBERTSON *Sketches of Church History* (SPCK, no date)

Phillip SCHAFF *History of the Christian Church,* Vols. I-III (Eerdmans, Grand Rapids, 5th edn. 1889, reprint 1989)

ed. Phillip SCHAFF *The Nicene & Post-Nicene Fathers,* Series1, Augustine, Vols. I-XIII (Eeerdmans, Grand Rapids / T. & T. Clark, Edinburgh, 1887, reprint 1991)

eds. Phillip SCHAFF & Henry WACE *The Nicene & Post -Nicene Fathers, Series 2, Vol. I: Eusebius* (Eerdmans, Grand Rapids / T. & T. Clark, Edinburgh, 1890, reprint 1991)

Calvin E. SHENK *The Demise of the Church in North Africa and Nubia* (Missiology Vol. 21 No. 2, 1993)

eds. Maxwell STANIFORTH & Andrew LOUTH *Early Christian Writings* (Penguin, 1968/1987)

ed. J. STEVENSON *A New Eusebius: Documents Illustrating the History of the Church to AD 337* (SPCK, 1957/1987)

Alexander STRAUCH *Biblical Eldership* (Lewis & Roth, Littleton, Colorado 80125-9761, 1986)

ed. Henri TEISSIER *Histoire des Chrétiens d'Afrique du Nord* (Desclée, Paris, 1991)

Maureen TILLEY *Donatist Martyr Stories* (Liverpool University Press, 1996)

G.S.M WALKER *The Growing Storm* (Paternoster, 1961)

The Churchmanship of St. Cyprian (Lutterworth, 1968)

David WRIGHT *Montanism: A Movement of Spiritual Renewal?* (Theological Renewal No. 22, Grove Books, Nottingham, Nov. 1982)

الفهرس

